
بسم الله الرحمن الرحيم
وله الحمد والشكر وبه نستعين







بحوثُ المؤتمرِ العلميِّ الدوليِّ الثَّاني

عَن سيِّدةِ نساءِ العَالمينَ فاطِمَة الزَّهراء عليها السلام

بشعار

فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءُ عليها السلام

ثَمَرَةُ النُّبُوَّةِ وَشَجَرَةُ الإِمَامَةِ

الجزءُ الرابعُ

بِرِعَايَةِ العَتَبَتَيْنِ الحُسَيْنِيَّةِ وَالعَبَّاسِيَّةِ المُقَدَّسَتَيْنِ

بِمُناسَبَةِ ذِكْرَى ولادَتِها المباركة عليها السلام

أَقامهُ قِسْمُ الشُّؤُونِ الْفِكْرِيَّةِ في مَقَامِ مُعْجِزَةِ رَدِّ الشَّمْسِ

لِلْإِمَامِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِب عليه السلام

بِالتَّعَاوُنِ مَعَ كُلِّيَّةِ العُلُومِ الإِسْلَامِيَّةِ / جَامِعَةِ بَابِلَ

وَمَرْكَزِ تُرَاثِ الحِلَّةِ التَّابِعِ لِلعَتَبَةِ العَبَّاسِيَّةِ المُقَدَّسَةِ

مِنْ ١٨-١٩ جُمَادَى الآخِرَةَ ١٤٤٤هـ/ ١١-١٢ كانون الثاني ٢٠٢٣م

المُشْرِفُ العَامُّ عَبْدُ الرَّسُولِ المُوسَوِيُّ

العِرَاقُ/ بَابِل

الحِلَّة مَدِيْنَةُ الْعِلْمِ والْعُلَمَاءِ

العتبة العبَّاسيَّة المقدَّسة
قسم الشؤون الفكريَّة والثقافيَّة
مركز تراث الحِلَّة
موبايل: 009647602320073
E-mail: hilla@alkafeel.net

العتبة العبَّاسيَّة المقدَّسة. قسم الشؤون الفكريَّة والثقافيَّة في مقام معجزة ردِّ الشمس. المؤتمر العلميّ الدوليّ عن سيِّدة نساء العالمين فاطمة الزَّهراء عليها السلام (الثاني : ٢٠٢٣ : بابل، العراق)، مؤلِّف.

بحوث المؤتمر العلميّ الدوليّ الثاني عن سيِّدة نساء العالمين فاطمة الزَّهراء عليها السلام : بشعار فاطمة الزَّهراء ثمرة النبوَّة وشجرة الإمامة. الجزء الرابع / أقامه قسم الشؤون الفكريَّة والثقافيَّة بالتعاون مع كليَّة العلوم الإسلاميَّة جامعة بابل ومركز تراث الحِلَّة التابع للعتبة العبَّاسيَّة المقدسة.-الطبعة الأولى.- الحِلَّة، العراق : قسم شؤون المعارف الإسلاميَّة والإنسانيَّة، مركز تراث الحِلَّة، ١٤٤٥ هـ. = ٢٠٢٣.

مجلد ؛ ٢٤ سم

يتضمَّن إرجاعات ببليوجرافيَّة.

١. فاطمة الزَّهراء، فاطمة بنت محمَّد بن عبد الله عليها السلام، ٨ قبل الهجرة-١١هجريّ--مؤتمرات. أ. العتبة العبَّاسيَّة المقدَّسة. قسم شؤون المعارف الإسلاميَّة والإنسانيَّة. مركز تراث الحِلَّة، مؤلِّف. ب. جامعة بابل (العراق). كليَّة العلوم الإسلاميَّة، مؤلِّف. ج. العنوان.

LCC : BP80.F36 . A833 2023

مركز الفهرسة ونظم المعلومات التابع لمكتبة ودار مخطوطات العتبة العبَّاسيَّة المقدَّسة

فهرسة أثناء النشر

٢/٩٠١

ح/ مركز تراث الحِلَّة - قسم شؤون المعارف الإسلاميَّة والإنسانيَّة -
العتبة العبَّاسيَّة المقدَّسة
بحوث المؤتمر العلميّ الدوليّ الثاني عن سيِّدة نساء العالمين
فاطمة الزَّهراء عليها السلام
الحلَّة/ مركز تراث الحِلَّة/ العتبة العبَّاسيَّة المقدَّسة
E-mail: hilla@alkafeel.net
١٧,٥ × ٢٤سم
بحوث - دراسات

م/ و
٢٧٧٨/ ٢٠٢٣م

المكتبة الوطنيَّة/ الفهرسة
رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٢٧٧٨) لسنة ٢٠٢٣م

الكتاب: بحوث المؤتمر العلميّ الدوليّ الثاني عن سيِّدة نساء العالمين فاطمة الزَّهراء عليها السلام. بشعار: فاطمة الزَّهراء ثمرة النبوَّة وشجرة الإمامة (الجزء الرابع).

جهة الإصدار: العتبة العبَّاسيَّة المقدَّسة، قسم شؤون المعارف الإسلاميَّة والإنسانيَّة.

الطَّبعة: الأُولى. المطبعة: دار الكفيل للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع.

سنة الطَّبع: ١٤٤٥هـ/ ٢٠٢٣م.

السيِّدة الزَّهراء عليها السلام القدوة الحسنة
قراءة في الأساليب التربويَّة، التربية بالقدوة أنموذجًا

مؤمنة ياسين الزين
أستاذة في جامعة بلاد الشام/ فرع السيِّدة رقية عليها السلام

ملخَّص البحث

اللافت للنظر أنَّ الكثير من شباب هذا الجيل يعاني من الاغتراب، وفقد القدوة، وهذا ما نقرأه ونستلهمه من خلال الممارسات والأخلاقيَّات التي تعيشها أجيالنا المعاصرة، والإنسان عندما يولد فإنَّ مَثَله كمَثَل الأرض العطشى التي تريد الري، لذلك نجد الطفل يراقب سلوك الكبار، ويكتشف ويقتدي بعد ذلك مباشرة، ومنه يُعلَم أن الاقتداء هو الطريق الأوَّل والسابق للتلقِّي، إذ إنَّ من طبيعة البشر وفطرتهم التي فطرهم الله عليها أن يتأثَّروا بالمحاكاة والقدوة أكثر ممَّا يتأثَّرون بالقراءة والسماع.

ومن هنا، ونظرًا لأهميَّة التربية بالقدوة، فقد اخترت بحثًا بعنوان:

(السيِّدة الزَّهراء عليها السلام القدوة الحسنة؛ قراءة في الأساليب التربويَّة، التربية بالقدوة أنموذجًا).

وسأُبيِّن وفق محاور أربعة أهميَّة القدوة الحسنة في حياتنا المعاصرة، ونذكر فيما يلي المحاور تباعًا، سائلين المولى عزَّ وجلَّ أن يوفِّقنا للتفصيل في هذه المحاور.

المحور الأوَّل: المصطلحات ذات الصلة بالبحث.

المحور الثاني: التربية وأساليبها.

المحور الثالث: المنهج الربَّانيّ في تهيئة الأنبياء والأئمَّة عليهم السلام.

المحور الرابع: الزَّهراء عليها السلام أنموذجًا كاملًا في القدوة.

وفي نهاية البحث سنقدِّم ملخَّصًا نوضِّح فيه النقاط المحوريَّة في البحث، مع أهمِّ النتائج التي سنتوصَّل لها.

المقدِّمة

اللافت للنظر أنَّ الكثير من شباب هـذا الجيل يعاني من الاغـتراب، وفَقدِ القدوة، وهذا ما نقرأه ونستلهمه من خلال الممارسات والأخلاقيَّات التي تعيشها أجيالنا المعاصرة، والإنسان عندما يولد فإنَّ مَثَله كمَثَل الأرض العطشى التي تريد الري، لذلك نجد الطفل يراقب سلوك الكبار، ويكتشف ويقتدي بعد ذلك مباشرة، ومنه يُعلَم أنَّ الاقتداء هو الطريق الأوَّل والسابق للتلقِّي، إذ إنَّ من طبيعة البشر وفطرتهم التي فطرهم الله عليها أن يتأثَّروا بالمحاكاة والقدوة أكثر ممَّا يتأثَّرون بالقراءة والسماع.

وتكسب القدوة أهميَّتها في التربية من حيث أنَّ القدوة هي أفضل الوسائل جميعًا وأقربها إلى النجاح، فمن السهل تأليف كتاب في التربية، ومن السهل تخيُّل منهج، ولكن هذا المنهج يظلُّ حبرًا على ورق.. يظلُّ معلَّقًا في الفضاء، ما لم يتحوَّل إلى بشر تترجم تصرفاته ومشاعره وأفكاره مبادئ المنهج ومعانيه، عندئذ يتحوَّل المنهج إلى حقيقة، ويتحوَّل إلى حركة، ويتحوَّل إلى تاريخ.

فلا بدَّ من قلب إنسان يحمل المنهج ويحوِّله إلى حقيقة، لكي يعرف الناس أنَّه حقٌّ، ثمَّ يتَّبعوه. فلا بدَّ من قدوة..

ومن هنا، ونظرًا لأهميَّة التربية بالقدوة، فقد اخترت بحثًا بعنوان:

(السيِّدة الزَّهراء عليها السلام القدوة الحسنة؛ قراءة في الأساليب التربويَّة، التربية بالقدوة أنموذجًا)

وسنُجيب في هذا البحث عن السؤال الأساسيّ، وهو:

- ما هي الأساليب التي يمكن أن نتَّبعها لنحصِّن هذا الجيل الذي ضاع منه مَثَله الأعلى؟.

وسنتطرَّق خلال البحث للإجابة عن عدَّة أسئلة فرعيَّة، وهي كما يأتي:

١. ما هي أساليب التربية؟.

٢. ما هي أهميَّة التربية بالقدوة؟.

٣. هل يعدُّ الاقتداء سنَّة إلهيَّة؟.

٤. ما هي مَواطن القدوة التي نستقرؤها من سيرة الزَّهراء عليها السلام؟.

وللإجابة على هذه الأسئلة، فقد اطَّلعنا على الكتب التربويَّة المتخصِّصة في مجال التربية، واستقرأنا سيرة الزَّهراء عليها السلام؛ لنصل إلى الإجابات على الأسئلة المذكورة.

وقد توزَّع البحث وفق محاور أربعة، نذكرها فيما يأتي تباعًا. سائلين المولى عزّ وجلّ أن يوفِّقنا للتفصيل في هذه المحاور.

المحور الأوَّل: المصطلحات ذات الصلة بالبحث.

المحور الثاني: التربية وأساليبها.

المحور الثالث: المنهج الربَّانيّ في تهيئة الأنبياء والأئمَّة عليهم السلام.

المحور الرابع: الزَّهراء عليها السلام أنموذجًا كاملًا في القدوة.

وفي نهاية البحث سنقدِّم ملخَّصًا نوضِّح فيه النقاط المحوريَّة في البحث، مع أهمِّ النتائج التي سنتوصَّل لها.

المحور الأوَّل

المصطلحات ذات الصلة بالبحث

أوَّلًا: السيرة[1]

السيرة: الطريقة في الشيء والسُّنَّة؛ لأنَّها تسير وتجري، يُقال: سار، يسير، سيرًا، وذلك يكون ليلًا ونهارًا.

قال خالد بن زهير:

فلا تجزعَنْ مِن سُنةٍ أنت سِرتها
فأوَّلُ راضٍ سُنَّةً من يسيرها

والسيرة مشتقَّة من السَّير والحركة والمشي[2].

والسيرة تعني المِشْيَة، التي هي على وزن فِعْلة، وهذه تدلُّ في العربيَّة على النوع، كقولنا «جَلْسَة» التي تعني الجلوس، و«جِلْسَة» وتعني نوع الجلوس ونمطه، فهنا اختلاف دقيق، فالسير يعني المشي، والسيرة تعني طريقة المشي أو السلوك، والمهم هو معرفة سلوك النبيّ وأهل بيته عليهم السلام.

فعندما نبحث في سيرة الرسول وأهل بيته عليهم السلام؛ إنَّما نريد معرفة الأسلوب أو النمط الذي كان يتَّبعه في أعماله اليوميَّة لبلوغ أهدافه، فالبحث لا يدور حول الأهداف؛ لأنَّ الأهداف معروفة للجميع، وإنَّما نحاول معرفة طراز العمل والأسلوب، فمثلًا كيف

(١) أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة: ٣/ ١٢١.
(٢) الشهيد مطهَّري، محمَّد وعليّ النبيّ والإمام.

استطاعت الزَّهراء عليها السلام أن تبقى حيَّةً في قلوب المؤمنين، وكيف استطاعت أن تكون سيِّدة نساء العالمين.

ثانيًا: التربية والتنشئة

تنشئة[1]: مصدر من نشأ، ونشأ أصل صحيح يدلُّ على ارتفاع في الشيء والسموِّ.

والتربية[2]: مصدر من ربا، وربا الشيء يربُو إذا زاد، ويقال: ربيته وتربيته إذا غَذَوْته ورُبَّى، بمعنى نما وزكا وزاد.

ثالثًا: الأسوة والقدوة[3]

أسوة: تعبير (الأسوة الحسنة)، أي القدوة الحسنة، جاء في ثلاث آيات.

قدى، اقتدى: اقتبس من الشيء أو قاس به حتَّى صار مساويًا لغيره، جاءت في آيتين.

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (الأحزاب ٢١).

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾ (الممتحنة ٤).

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأٓخِرَ﴾ (الممتحنة ٦).

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ (الأنعام ٩٠).

﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ (الزخرف ٢٣).

(قدو)[4] القاف والدال والحرف المعتل: أصل صحيح يدلُّ على اقتباس بالشيء

(١) أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريَّا، معجم مقاييس اللغة، باب الهمزة.
(٢) أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريَّا، معجم مقاييس اللغة، باب الراء.
(٣) خالد صناديقي، الأصول والمعاني في مفردات القرآن الكريم.
(٤) معجم مقاييس اللغة: ٥/ ٦٦.

واهتداء، ومُقادَرة في الشيء حتَّى يأتي به مساويًا لغيره. من ذلك قولهم: فلان قُدوةً (بضمِّ القاف وكسرها): يُقتَدى به.

ويقولون: إنَّ القَدْوَ: الأصل الذي يتشعب منه الفروع.

المحور الثاني

التربية وأساليبها

إنَّ للجيل الجديد حسناته وسيِّئاته، ولهذا الجيل مشاعر وأحاسيس لم تكن موجودة من قبل، وهذا ما لا بدَّ من الاعتراف به وقبوله، ولكن فيه في الوقت نفسه، انحرافات فكريَّة وأخلاقيَّة لا بدَّ من إيجاد العلاج لها، وهذا لا يكون إلَّا إذا أخذنا بعين الاعتبار مشاعره تلك وإحساساته وآماله العراض، إذ إنَّنا بدون أن نحترم ما يدور في خلده لا يتيسَّر لنا علاجه.

ومن المعلوم أنَّ القيادة والإرشاد من حيث الإدارة وطريقة العمل، تختلف باختلاف الأزمان، وكذلك باختلاف الأشخاص، فعلينا أن نيأس من إمكانيَّة أن نقود هذا الجيل بالطرق القديمة. وهنا نسأل: ما هي الأساليب التي يمكن أن نتَّبعها لنحصِّن هذا الجيل الذي ضاع منه مَثَله الأعلى، لطبيعة الحياة الماديَّة التي نعيشها بكلِّ ما فيها من قسوة وجحود وحرمان، حيث لم تعد تهيِّئ له البطولات الروحيَّة التي تستهوي الروح وتمتلك الوجدان والقلب، وفي معرض الإجابة عن هذا السؤال نقول:

إنَّ أحد منابع المعرفة التي ينبغي على كلِّ مسلم أن يستقي منها لاستكمال صلاحه وتصحيح نظره سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام.

ونعني بالسيرة؛ الأقوال والأفعال على السواء، فيجب أن تكون هادية لنا في مسيرتنا، وسندًا لنا نعتمده ونتَّكئ عليه، ولا نعني بذلك أن نجمع الأقوال والأحاديث، بل المهم تفسير الأعمال وتعليلها، لنتعلَّم من خلالها كيف يجب أن تكون سيرتنا، وذلك

من خلال جعل سيرتهم مقياسًا وضابطًا لنا في جميع شؤون حياتنا، ونعني بذلك تفعيل مفهوم المثل الأعلى. فنحن عندما نقدِّس أهل البيت، ونعظِّم شخصيَّاتهم، فلأنَّهم باعتقادنا المثل الأعلى

للبشريَّة جمعاء، والقيمة المستمرَّة التي تمدُّ الحياة كلّها بالحياة والروح، وتملأها بكلِّ المعاني السامية والأخلاق الرفيعة، وهم لا يريدون لنا أن نقنع بحبِّهم وولايتهم عن العمل بسيرتهم، والأخذ بتعاليمهم، بل يريدون لنا أن نعمل لنحقِّق بعملنا أهداف الإسلام الكبرى وغاياته المثلى.

وهنا لا بدَّ لنا من أن ننقل التاريخ إلى الحاضر؛ لنجعله يتفاعل معه، ويعطيه من إيحاءاته وأفكاره ما يجعل منه قوَّة تتحرَّك لصنع المستقبل، عوضًا من أن تنتقل الأمَّة إلى التاريخ لتسكن فيه وتنفصل عن حاضرها، لتعيش مع من عاشوا في التاريخ، فيجب علينا أن ندعو عظماء التاريخ ونقول لهم: تعالوا وزورونا في واقعنا، لا زيارة الجسد، ولكن زيارة الفكر والأخلاق والروح، فنحن مثلًا عندما نتحدَّث عن الزَّهراء عليها السلام، أو نقيم المجالس العاشورائيَّة، فهدفنا من ذلك هو أن ندعوها إلى زيارتنا في بيوتنا، وفي ساحاتنا الاجتماعيَّة، فيزورنا خلقها ونورها وعبادتها وجهادها وحركيَّتها في توجيه المجتمع.

فيجب علينا أن نعيش القدوة في كلِّ مِفْصل من مفاصل حياتنا، حيث تعدُّ التربية بالقدوة من أهم وسائل التربية.

فهدف التربية هو مساعدة الفرد على اكتشاف نفسه وتعريفه بمحيطه وتطوير شخصيته وتهذيب رغباته واندفاعاته، وهذا لا يتمُّ بالكلام، فكم من الناس يعلمون الأدب من غير ضوضاء، والمربِّي الناجح هو الذي يهدي للحقِّ بعمله من دون أيِّ كلمة، فإذا أردنا أن نربِّي أبناءنا، فيجب علينا أن نكون لهم قدوة ودعوة صامتة، إذ إنَّ الطفل مجبولٌ على قضية المحاكاة والتقليد لغيره، فلذلك فإنَّ القدوة في المراحل المبكِّرة

تكون أكثر أهميَّة من غيرها من المراحل، فالقدوة ليست كتابًا يُقرَأ، وإنَّما هي سلوك وأخلاقيَّات معيَّنة كنموذج عمليّ، فالمتعلِّم يراه ماثلًا أمامه في الواقع.

فالأساليب التربويَّة متعدِّدة منها[1]: الوعظ، وضرب الأمثال، والعقوبة والمثوبة، والعادة والقصة والعبرة، ولكن من أهمِّ الأساليب أسلوب القدوة، فهي وسيلة ترشيديَّة لا توظِّف الكلمة الناطقة، والحرف المسموع، وإنَّما أداتها الفعل المتحرك، والسلوك الملتزم، والقيمة المتجسِّدة.

وإذا كانت الوسائل الأخرى تطرح (الأفكار والقيم) مضامين نظريَّة، فإنَّ القدوة تعطي الحالة التجسيديَّة المتحرِّكة لتلك المفاهيم والقيم، فليس هناك فواصل بين النظريَّة والتطبيق، وليس هناك مساحات بين المفهوم والمصداق؛ لأنَّ النظرية تحوَّلت تطبيقًا ناجزًا، والمفهوم مصداقًا شاخصًا.

وقد يتأثَّر الإنسان من خلال التوعية الفكريَّة، ولكن يبقى الأسلوب العمليّ والحسِّيّ هو الأبرز؛ لأنَّ الإنسان خُلِق حسيًّا أكثر منه عقليًّا، خُلق يتفاعل مع حسِّه أكثر ممَّا يتفاعل مع عقله، يعني أنَّ النظريَّات والمفاهيم العقليَّة العامَّة في إطارها النظريّ؛ هذه المفاهيم حتَّى لو آمن بها الإنسان إيمانًا عقليًّا، وحتَّى لو دخلت إلى ذهنه دخولًا نظريًّا، فهي مع هذا لا تهزُّه ولا تحرِّكه ولا تبنيه ولا تزعزع ما كان فيه، ولا تنشئه من جديد إلَّا في حدود ضيِّقة جدًّا. على عكس الحسِّ، فإنَّ الإنسان الذي يواجه حسًّا، ينفعل بهذا الحسِّ وينجذب إليه، وينعكس هذا الحسّ على روحه ومشاعره وانفعالاته وعواطفه، بدرجة لا يمكن أن يقايس بها انعكاس النظريَّة والمفهوم المجرَّد عن أيِّ تطبيقٍ حسيّ.

وليس من الصدفة إن كان الإنسان على طول الخطِّ في تاريخ المعرفة البشريَّة أكثر ارتباطًا بمحسوساته من معقولاته، وأكثر تمسُّكًا بمسموعاته ومنظوراته من نظريَّاته.

(١) حسن جابر النوريّ، قدوات ومناهج، ص٢٤.

فإنَّ هذا هو طبيعة التسليم الفكريّ والمعرفيّ عند الإنسان[1]، والخلاصة؛ لئن بقيت القيم والمثل والأهداف والاعتبارات عقليَّة محضة، فهي سوف تكون قليلة الفهم ضعيفة الجذب بالنسبة إلى الإنسان، وكلَّما أمكن تمثيلها حسيًّا أصبحت أقوى، وأصبحت أكثر قدرة على الجذب والدفع.

وهنا يأتي دور القدوة، فالقدوة الصالحة تمثِّل القمَّة في خصال الكمال البشريّ، فهي مثار الاستحسان ثمَّ الإعجاب فالأُلفة ثمَّ المحبَّة، وتزداد المحبَّة بعد ذلك لتتحوَّل إلى شغف، ممَّا يدفع بالمقتدي والمأموم أن يضحِّي بالمال والنَّفس لنصرة مذهب إمامه، وقد خدمت المودَّة والحب الهدف التربويّ من الاقتداء، فلولا الحبُّ والتعلُّق الودِّي لما تحرَّك الإنسان في خطِّ القوَّة في جانبيها الإمام والمأموم، وقد قال برتراند رسل في كتابه (الفوز بالسعادة): إنَّ الولع بالشيء والهوايات، مهما تكن، قد لا تكون مصدر سعادة أساسيَّة، بل وسيلة للهروب من الواقع والنسيان. وإنَّ السعادة الحقيقيَّة تعتمد أكثر من أيِّ شيء آخر على ما يُعرَف بالتوجُّه الودِّيّ للأشخاص والأشياء[2].

وقد أكَّدت النصوص الدينيَّة على أهميَّة المشاركة الوجدانيَّة والعاطفيَّة مع الأنبياء والشهداء والصالحين، وتوزَّعت هذه النصوص على:

١. أهميَّة الانتساب إلى الدين وشخصيَّاته وعناصر بنيانه، ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (الحج ٧٨)، ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ (البقرة ٢٨٥).

٢. الثقافة ودراسة حياة روَّاد هذا الدين، وقد كانت النصوص في هذا المجال ثرَّة ومفصَّلة، ولئلَّا يمتلئ ذهن المسلم ووجدانه بقصص غير ذات أهميَّة ملأها القرآن الكريم بما ينفع الإنسان من قصص موحية وهادفة.

(١) السيِّد محمَّد باقر الصدر، أهل البيت تنوُّع أدوار ووحدة هدف، ص٥٦.

(٢) برتراند رسل، الفوز بالسعادة، ص٣٠.

٣. عرض الرموز المجاهدة في سبيل الله والدين، فنحن نقرأ الكثير في القرآن الكريم عن آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى والنبيِّين وأتباعهم، وهناك المرأة المترفة التي لم يمنعها نعيم من أن تكون من أبطال الثورة والتغيير ضدَّ فرعون، وقد ضرب الله بها مثلًا للذين آمنوا ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (التحريم ١١).

٤. الحثُّ على التخلُّق بأخلاق الله سبحانه، ثمَّ التخلُّق بأخلاق مواطن القدوة، ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ (الممتحنة ٤).

وفيما يلي أذكر بعض ما أشار إليه القرآن من الأخلاق الفاضلة التي كانت واضحة في الشخصيَّات الرساليَّة:

١. **الصبر**: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ (الأحقاف ٣٥).

٢. **النصرة لدين الله**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ (الصف ١٤).

٣. **ذِكر الآخرة**: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ (ص ٤٦).

٤. **الإسلام والإخلاص**: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ (النساء ١٢٥).

٥. **الشجاعة**: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (آل عمران ١٤٦).

٦. **بذل الغالي والنفيس والاستسلام لله سبحانه**: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ (البقرة ٢٠٧).

٧. **البراءة من كلِّ العلاقات غير الخالصة لله سبحانه**: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾ (الزخرف ٢٦).

٨. **التمسُّك بروح الإخلاص في العبادة والعمل:** ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ (الأنبياء ٧٣).

٩. **عدم طلب الأجر في الدعوة إلى الدين:** ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام ٩٠).

١٠. **الدعوة إلى الخير:** ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة ٢٤).

وقد أوضح القرآن الكريم سمات القدوات والأئمَّة والرسل، والدراسات الحديثة، كدراسات تطوير الذات[1]، التي تتناول صفات الشخصيَّات الجذَّابة والملهمة، تشير إلى بعض ما أشار القرآن الكريم، ولنستعرض شيئًا ممَّا ذكروه:

١. البحث عن أسباب النجاح، وهذا ما نجده في القرآن الكريم عندما يتحدَّث عن نوح وإبراهيم وموسى وغيرهم، فهم يفتِّشون عن أسباب النجاح.
٢. اختيار الزمان والمكان المناسب، ويكفينا قراءة ما ورد عن هجرة الكثير من الأنبياء.
٣. استثمار الفرص.
٤. صنع الأهداف والخطط.
٥. تصحيح الموازين الخاطئة.
٦. التوازن في الشخصيَّة في مختلف جوانبها الروحيَّة والفكريَّة والسلوكيَّة والاجتماعيَّة.

إنَّ ما يملأ وجدان المسلم وعقله حين يقرأ سيرة القدوات، سواء كانوا من الأنبياء أو من أتباعهم، يجد كلَّ مظاهر الشخصيَّة بأروع صورها.

(١) ديل كادرنيجي، فن التعامل مع الناس.

١. المظهر العاطفيّ، وقوَّة الموقف الإيجابيّ، وحالة الحماس والحيوية والفاعليَّة.
٢. المظهر النفسيّ، حيث نجد التفاؤل واليقين بالنجاح.
٣. المظهر العقليّ، حيث العمق والشموليَّة والهدفيَّة.
٤. المظهر الروحيّ، حيث نجد القدوة والمثال.

وللمظهر الرابع علامات، هي:

١. إتقان مهارات التأثير وخلق الحوافز.
٢. التعرُّف والاتِّصال بكافَّة شرائح المجتمع.
٣. الإيجابيَّة في التفكير، وخلق الإيجابيَّة لدى الأتباع.
٤. النمو والتحديد في الأساليب، والتكيُّف مع الظروف حتَّى لا تتعرَّض المسيرة للفشل.

وخلاصة الكلام:

تمثِّل القدوة عاملًا أساسيًّا في تربية الأجيال، فيجب علينا تفعيل مفهوم القدوة بكافَّة الطرق؛ لتكون عنصرًا فعَّالًا قادرًا على التأثير والتغيير بالمجتمع نحو الأفضل.

ويمكن اتِّخاذ أساليب عدَّة لتفعيل مفهوم القدوة، ومنها:

١. بثُّ البرامج الإعلاميَّة والأفلام والمسلسلات التي تحكي قصص القدوات.
٢. قراءة المؤلَّفات التي تتحدَّث عن القدوات.
٣. عقد مؤتمرات علميَّة بشكلٍ مستمرٍّ، يكون الهدف الأوَّل منها نشر سيرة القدوات، وهنا نشكر كلَّ القائمين على المؤتمر الخاصِّ بالإمام الحسين، لما له من دور كبير في زيادة الوعي، وإحياء سيرته عليه السلام.
٤. الإشراف المستمر على برنامج تربويّ يضعه متخصِّصون لمواجهة ما تتعرَّض له أجيالنا من حرب فكريَّة ضدَّ مبادئ الإسلام.

٥. ملء الفراغ عند الأجيال بكافَّة شرائحها العمريَّة، وذلك من خلال الانتساب لمؤسَّسات تربويَّة توعويَّة، والتحفيز على زيارة المراقد الشريفة؛ إحياءً لسيرتهم الطاهرة في عقول وقلوب الأجيال.

٦. متابعة الكوادر القياديَّة في المجتمع، ابتداءً من أصغر مؤسَّسة في الدولة، وهي البيت، إلى أكبر مؤسَّسة، وذلك من خلال برامج ثقافيَّة وتربويَّة قادرة على تنمية بذور الخير في الفطرة الإنسانيَّة.

المحور الثالث

المنهج الربَّانيّ في تهيئة الأنبياء والأئمَّة عليهم السلام

لا شكَّ أنَّ مقام النبوَّة والإمامة هو مقام اصطفاء واجتباء من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ (الأنعام ١٢٤)، وبعد الاصطفاء هناك الإعداد والتهيئة للقيام بأعباء القيادة.

وقد هيَّأ الله سبحانه وتعالى لأنبيائه كلَّ الوسائل الماديَّة والأسباب الدنيويَّة التي تؤهِّلهم ليكونوا قدوة حَسنة للناس، فلم يولد نبيّ ولا إمام من سفاح، ولا من نسب سيِّء، وقد تعرَّضوا في حياتهم لكثير من المواقف التي تمتحن نفس الإنسان وتعلِّمه الصبر والحلم والحكمة، فلم يكن الأنبياء والأئمَّة عليهم السلام طفرة في كون الله يصلح أحدهم للقيادة، وحمل أعبائها في يوم وليلة.

إذ ليس لذلك وجود في قوانين الله في كونه- وإنَّما كان قادرًا على ذلك- فقد جرت عادة الله في خلقه إذا اصطفى عبدًا أن يهيِّئ له أسباب تكوينه الحسيَّة والمعنويَّة كاملة. فيتعرَّض قبل النبوَّة والإمامة لأنواع شتَّى من الاختبارات والمصاعب التي تصقل النفوس وتهيِّئها لقيادة البشر إلى طريق الحقِّ. يقول النبيّ صلى الله عليه وآله: «**أشدكم بلاءً الأنبياء، ثمَّ الأمثل فالأمثل**».

ولقد نوَّه البيان الإلهيّ بهذا الإعداد للأنبياء في آيات كثيرة، كما قال في إعداد نبيّ الله موسى عليه السلام: ﴿إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذۡ تَمۡشِيٓ

أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ (طه ٣٨-٤٤).

ففي هذه الآيات وقفَتان:

الوقفة الأولى: مع قوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ (طه ٣٩).

قال صاحب الظلال في بيان مناسبة هذه الآية: «إنَّ موسى عليه السلام ذاهب لمواجهة أقوى ملك في الأرض وأطغى جبار، إنَّه ذاهب لخوض معركة الإيمان مع الطغيان، إنَّه ذاهب إلى خضمٍّ من الأحداث والمشكلات مع فرعون أوَّل الأمر، ثمَّ مع قومه بني إسرائيل، وقد أذلَّهم الاستعباد الطويل، وأفسد فطرتهم، وأضعف استعدادهم للمهمَّة التي هم منتدَبون إليها بعد الخلاص، فربُّه يطلعه على أنَّه لم يرسَل إلَّا بعد التهيئة والإعداد»[1].

الوقفة الثانية: مع قوله تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ (طه ٤١).

قال الراغب الأصفهانيّ: «الاصطناع: المبالغة في اصلاح الشيء»[2].

وقال الزمخشريّ: «هذا تمثيل لما حوَّله من منزلة التقريب والتكريم والتكليم، مثَّل حاله بحال من يراه الملوك بمجامع خصال فيه وخصائص؛ أهلًا لأن يكون أقرب منزلةً إليه وألطف محلًّا، فيصطنعه بالكرامة والإثرة ويستخلصه لنفسه»[3].

(١) سيِّد قطب، في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣-٣٤.

(٢) الراغب الأصفهانيّ، المفردات في غريب القرآن: ٤٣٣.

(٣) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: ٣/ ٦٥.

المحور الرابع

الزَّهراء عليها السلام أنموذجًا كاملًا في القدوة

الحديث عن العظماء مهمَّة جليلة وخطيرة في الوقت نفسه.

أمَّا جلالتها، فلأنَّها تهدف إلى تقديم المثل الأعلى والقدوة الصالحة لإنساننا التائه الحَيران، سعيًا إلى إنقاذه من متاهات الحيرة والضياع، والأخذ بيده إلى شاطئ السلامة وبرِّ الأمان.

وكلامنا في هذا المحور يدور حول إنسانة رساليَّة، لا تتحرَّك إلَّا في طريق الحقِّ، ولا يزعجها إلَّا الباطل، والإسلام أكبر همّها ومبلغ علمها، بكاؤها للرسالة لا للذات، وفرحها فرح الرسالة لا فرح العبث واللهو، وغضبها غضبٌ للحقِّ لا للقرابة والنسب، وكلُّ خطواتها تسير في خطِّ الرسالة وعلى هدي رسول الله صلى الله عليه وآله، وبهذا سادت نساء العالمين، وتفوَّقت على نساء المؤمنين.

إنَّها فاطمة عليها السلام، وما أدراك ما فاطمة؟.

شخصيَّة إنسان تحمل طابع الأنوثة؛ لتكون آية على قدرة الله البالغة واقتداره البديع العجيب.

فهي عليها السلام كتلة من الفضائل ومجموعة من المواهب، فهي من مجموعة أولياء الله الذين اعترفت لهم السماء بالعظمة قبل أن يعرفهم أهل الأرض، ونزلت في حقِّهم آيات محكمات في الذِّكر الحكيم، تُتلى آناء الليل وأطراف النهار.

وفيما يلي بعض من الروايات والآيات التي نزلت في حقِّ السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام:

«**إنَّ الله لَيغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها**»[1].

«**فاطمة بضعة منِّي، من آذاها فقد آذاني، ومن أحبَّها فقد أحبَّني**»[2].

«**فاطمة قلبي وروحي التي بين جنبيَّ**»[3].

وقد ذُكرت الزَّهراء في عدَّة آيات منها:

الزَّهراء في آية التطهير: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب ٣٣).

الزَّهراء في سورة الإنسان: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ (الإنسان ٩).

الزَّهراء في آية المباهلة: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ (آل عمران ٦١).

نعم إنَّها الزَّهراء، والحديث عنها، من حيث كونها بنتًا في دار أبيها، وزوجة في دار بعلها، وأمًّا ومربِّية في البيت الزوجيّ، والمربِّية التي يسمح لها بالعمل الاجتماعيّ، والمرأة التي تحمل العلم والثقافة والأدب والمعرفة، هو حديث عن المرأة في الإسلام من حيث حفظ كرامتها، والاعتراف بشخصيَّتها وكيانها.

ففاطمة هي للجميع، من المسلمين وغير المسلمين، وليس لأحد من البشر أن يدَّعي غير ذلك؛ لأنَّها كانت تمثِّل الإنسانيَّة برمَّتها، فضلًا عن كونها كانت تجسِّد الإسلام نفسه.

---

(١) عيون أخبار الرضا: ٢/ ٤٦، دلائل الإمامة: ٥٢، روضة الواعظين: ١٤٩، كنز العمَّال: ١٣/ ٦٧٤.

(٢) الأمالي للصدوق: ٣٩٤.

(٣) الأمالي للصدوق: ٣٩٤.

إنَّنا عندما نذكر الزَّهراء عليها السلام، فنحن نذكر حركة الإسلام في القضايا المتحرِّكة التي كانت الزَّهراء عنصرًا حيويًّا فيها، إنَّنا نشعر أنَّها معنا في كلِّ قضايانا، وأنَّها حيَّة تعيش بيننا، فإنَّ أشخاصًا في التاريخ ينتهون عندما يموتون؛ لأنَّ حياتهم تُختصر في مدى عمرهم، وهناك أشخاص يبقون في الحياة مادامت الحياة، ليبقوا ما بقيت رسالتهم وبقي أناس ينفتحون على رسالتهم.

وفاطمة الزَّهراء عليها السلام تقع في قمَّة هؤلاء الأشخاص، ذلك أنَّنا لا نستطيع أن نذكر رسول الله صلى الله عليه وآله إلَّا ونذكرها؛ لأنَّها صنيعته وروحه التي بين جنبيه، ولا نستطيع أن نذكر عليًّا إلَّا ونذكرها؛ لأنَّها شريكته في الحياة والمعاناة، ولا نستطيع أن نذكر الحسن والحسين وزينب عليهم السلام إلَّا ونذكرها؛ لأنَّها سرُّ الطهر في شخصيَّتهم على مدى الحياة.

هذا هو سرُّ فاطمة عليها السلام الذي يفرض علينا أن نبقيها في عقولنا وقلوبنا رسالةً وفكرًا لا دمعةً فحسب، فإنَّنا وإن كنَّا لا نملك إلَّا أن ننفتح عليها بدموعنا، ولكنَّ الأهم من ذلك أن ننفتح عليها برسالتها؛ لأنَّها عاشت كلَّ دموعها وكلَّ حياتها للرسالة، ولم تعشها لنفسها طرفة عين، وهذا هو سرُّ كلِّ أهل البيت عليهم السلام، أنَّهم عاشوا للإسلام كلَّه وقدَّموا حياتهم فداءً للإسلام والرسالة.

ومن هنا، فإنَّنا وبكلِّ فخرٍ واعتزازٍ نقدِّم الزَّهراء عليها السلام إلى المسلمين جميعًا، كنموذجٍ حيٍّ ومَثَل أعلى، جسَّدت الرسالة الإسلاميَّة أسمى تسجيد، وعاشت في شخصيَّتها شخصيَّة رسول الله صلى الله عليه وآله بعناصرها المميَّزة والملهمة والمسدَّدة.

وفيما يلي عرض للمحطَّات الرئيسة في حياة السيِّدة فاطمة الزَّهراء، مستلهمين منها الشخصيَّة الإسلاميَّة الحقيقيَّة.

طفولتها الرساليَّة:

منذ أن فتحت الزَّهراء عينيها على الحياة، اختزنت في طفولتها آلام الرسالة وآلام الرسول، ومن يختزن في وعيه الطفوليّ المبكِّر آلام الرسالة وآلام الرسول، لا يسمح له الوقت أن يعبث أو يلهو أو يلعب.

فها هي، ومنذ أن فتحت عينيها على الحياة، رأت أباها رسول الله صلى الله عليه وآله يأتي بين وقت وآخر مثقلًا بما يلاقيه من ضغوط وأعباء وأذى من المشركين، فتقوم باحتضان أبيها، وتخفِّف عنه آلامه، وترعاه بكلِّ عطفٍ وحنوٍّ.

وإنَّنا نستوحي من هذا الحنوِّ وتلك العاطفة التي ملأت بها فاطمة عليها السلام قلب أبيها وإحساسه، أن تكون تربيتنا لأطفالنا قائمة على أساس تنمية العاطفة وتقوية الحنان لديهم، ما يعطينا كآباء وأمَّهات رصيدًا من حنان الأبناء والبنات عندما نحتاج إلى ما يخفِّف متاعبنا، وبذلك يتحوَّل الطفل إلى أبٍ وأمٍّ كما يتحوَّل الأب والأم إلى أطفال مع أولادهم، عندما يلاعبونهم ويلاطفونهم، وقد أكَّد ذلك النبيّ صلى الله عليه وآله بقوله: «**من كان له صبي فليتصابَ له**»[1]

في بيت الزوجيَّة:

كثيرة هي المرويات التي تحدَّثت عن زواج الإمام عليّ عليه السلام من السيِّدة فاطمة الزَّهراء، وأهمّ ما يلفتنا في هذا الزواج هو ما جاء في الحديث المرويّ في كشف الغمَّة عن الإمام جعفر بن محمَّد الصادق عليه السلام، وفي غيره روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله، قال عليه السلام: «**لولا أنَّ الله تبارك وتعالى خلق أمير المؤمنين عليه السلام لفاطمة، ما كان لها كفؤ على وجه الأرض**»[2]

---

(١) من لا يحضره الفقيه، ج٣، باب ١٤٨، ص٣١٢.

(٢) كشف الغمَّة، ح١، ص٤٦٣، البحار، ح٤٣، ص١٤١، عوالم الزَّهراء، ص٢٧٧، ٢٨٠، ٢٨١.

فما هي هذه الكفاءة التي يقصدها الحديث الشريف؟.

إنَّها كفاءة الروح وكفاءة العقل والفكر والإيمان، فهناك أكثر من نقطة يلتقيان عليها، كيف وقد تربَّيا على يد رسول الله، ونهلا من معينه علمًا وأخلاقًا وروحًا، ولو أنَّنا درسنا عبادة عليّ وعبادة فاطمة، لوجدنا أنَّهما يعيشان في المستوى نفسه من القرب لله، والانفتاح عليه، والمعرفة بكلِّ أسرار قدسه وصفاته وأسمائه.

وهكذا عاشت الزَّهراء حياتها وهي تخلص لزوجها في كلِّ مسؤوليَّاتها الزوجيَّة، عاشت مع زوجها كأيَّة زوجة مسلمة تعيش مع زوجها، فلم تميِّز نفسها من خلال أنَّها ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله، بل كانت مسلمة كأفضل ما تكون المسلمات في مسؤوليَّاتها الزوجيَّة، تطحن وتعجن وتخبز وتربِّي أولادها، وهكذا كانت الوفيَّة كأوفى ما تكون الزوجات، ولم يكن بيتها تقليديًّا في روحيَّته وحيويَّته، وإن كان تقليديًّا، في أقل مراتب التقليد، في أثاثه ومساحته.

لقد جعلت من بيتها حضنًا ومهدًا للرسالة، ومنزلًا إسلاميًّا يفيض بالخشوع والرحمة، وتتألَّق فيه القيم الإسلاميَّة، جعلته بيتًا لله، وللطهارة وللحقِّ وللعدل والرحمة والمحبَّة، من خلال روحانيَّتها وعبادتها وزهدها وفكرها وعقلها واستقامتها التي منحتها لهذا البيت، فصار جوُّه جوًّا اسلاميًّا، بحيث استطاع علي عليه السلام أن يجد فيه الراحة والسعادة والانطلاقة والانفتاح؛ لأنَّ الدعاة الكبار يحتاجون عندما يعيشون مع المرأة المسلمة كزوجة، أن يتنفَّسوا في بيوتهم الإسلام، ليعيشوا دومًا في أجواء الروحانيَّة والرساليَّة.

كان الرضا يعيش معهما؛ لأنَّهما عاشا رساليَّين، وكانت الرسالة أكبر همِّهما، تحدِّثه ويحدِّثها عن حركة الاسلام في حربه وسلمه، يتحدَّثان عن آية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله هنا، وآية نزلت هناك، وما هو امتداد الآيات في الحياة، وما هي حركتها في الواقع؛ لأنَّ الآية عندما تنزل لا تكون مجرَّد حروف تمثِّل كلمة، ولا مجرَّد كلمة تتبعها كلمات، ولكنَّها

أفق يفتح للإنسان الكثير من أبواب الروح وآفاق الإبداع، يجري مع كلِّ جيل، ويتحرَّك مع كلِّ زمان.

تقاسم مسؤوليَّة البيت:

كان عليّ عليه السلام وفاطمة عليها السلام يتحسَّسان مسؤوليَّة البيت فاقتسماها، وفي ذلك درس للرجال والنساء معًا.

أمَّا درس الرجال، فإن يتعلَّموا من عليّ عليه السلام، وهو سيِّد الرجال بأنَّ الرجل ليس أكبر من أن يخدم أولاده وزوجته وأباه وأمَّه، ومن هو مسؤول عنه. والدرس نفسه ينبغي أن تتعلَّمه النساء، بأنَّ لا يعتبرن بأنَّ العمل في البيت يمثل احتقارًا لهنَّ، فالمرأة وإن لم تلزم بالإلزام الشرعيّ بأن تخدم في البيت، ولكن الله أراد للإنسان عندما يعيش في أي موقع يتطلَّب المشاركة، أن يندفع طبيعيًّا بحسب طاقته، حتَّى يشارك في هذه الطاقة ويفجِّرها، والإنسان الذي يقف في موقع المسؤوليَّة، ويهمل ما أحبَّه الله له، وإن لم يلزمه به، هو إنسان لا يعيش الإحساس بموقعه الإنسانيّ تجاه الإنسان الآخر.

فالله أراد للمرأة أن تكون إنسانة العطاء، وأن تقدم من طاقتها بوعيها واختيارها ما لا يجب عليها عطاءً في سبيل الله ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ (الإنسان ٩).

بحيث تشتغل في بيتها وتخدم أولادها لوجه الله، كما تصوم وتصلِّي لوجه الله وتضحِّي لوجه الله.

فالمسألة تتَّصل بالإنسانيَّة، وقيمة الإنسان في هذه الدنيا أن يخدم الإنسان الآخر، ويخدمه الإنسان الآخر، وليس هناك إنسان خادم بالمطلق، وليس هناك إنسان سيِّد بالمطلق، كلٌّ منَّا سيِّد في دائرة وخادم في دائرة أخرى.

تربية أولادها:

قامت الزَّهراء عليها السلام مع عليّ عليه السلام بتأسيس بيتٍ إسلاميّ نموذجيّ، عاشا فيه الأبوَّة والأمومة، وأنتجا حسنًا وحسينًا وزينب عليهم السلام، وقامت الزَّهراء بدورها كأمٍّ ترعى أولادها وتربِّيهم التربية الإسلاميَّة الرائعة، وتعمِّق في شخصيَّاتهم كلَّ معاني الحبِّ لله، وكلَّ معاني السير في خطِّ رسول الله، وكلَّ معاني الجهاد في سبيل الله.

إنَّ سرَّ فاطمة عليها السلام، كما هو سرُّ عليّ عليه السلام، يكمن في كلِّ هذا الفيض الروحيّ والعطاء المعنويّ الذي أعطته لأبنائها حتَّى صاروا يمثِّلون الكواكب المضيئة في الواقع الإسلاميّ كلِّه.

فقد أعدَّت أولادها إعدادًا إسلاميًّا رساليًّا، وعلَّمتهم معنى الجهاد في سبيل الله، سلمًا كان الجهاد، كما في قضيَّة الإمام الحسن عليه السلام، أو حربًا، كما في قضيَّة الإمام الحسين عليه السلام، كما أنَّها أعدَّت زينب عليها السلام إعدادًا رساليًّا، مثَّلت الشرعيَّة لحركة المرأة المسلمة، ومشاركتها في العمل الجهاديّ والسياسيّ، وذلك بأنَّ تقف المرأة في وجه الانحرافات أو الانهيارات التي تحدث في الأمَّة، لتتحدَّث بوعي مسؤول، ولتقف موقفًا مسؤولًا بكلِّ شجاعة وصلابة.

الزَّهراء عليها السلام وعصمتها:

انطلقت الزَّهراء عليها السلام بعلمها وعبادتها وإخلاصها لله ولرسوله ولأمير المؤمنين، حتَّى ارتفعت إلى مقام العصمة، وسمت إلى مرتبة القداسة، لا تدنِّسها الآثام، ولا تقترب منها الذنوب، وتركت لنا المثل الأعلى عن المرأة التي عاشت حياتها من أجل الله، وأغمضت عينيها مفارقةً الحياة وهي تلهج بذِكر الله، وهنا سؤال يفرض نفسه، وهو: ما السرُّ في عصمة الزَّهراء عليها السلام، مع أنَّها لم تكن في موقع النبوَّة والإمامة؟.

وفي معرض الإجابة نقول: إنَّ الله عزَّ وجلَّ أراد أن يوحي للناس رجالًا ونساءً أنَّ السيِّدة

الزَّهراء اختارها الله لترتفع وتسمو في تكريم الله لها، فتصل إلى أعلى المراتب، وهي مرتبة العصمة.

كما أنَّ الله أراد أن يجعل للسيِّدة الزَّهراء دورًا في الحياة يقارب دور النبوَّة والإمامة التي كانت من نصيب الرجال، كما أنَّه أراد أن يجعل المرأة، ممثَّلةً بالزَّهراء عليها السلام، مثلًا أعلى للناس جميعًا؛ لتكون قدوة للنساء والرجال، والنموذج الأمثل الذي يحمل عقلًا نورانيًّا وقلبًا نورانيًّا وعلمًا ينفتح على الناس، آخذًا بدور النبوَّة والإمامة في هذه المجالات.

فالزَّهراء عليها السلام معصومة؛ لأنَّ لها دورًا في طبيعة موقعها، وفي امتداد تأثيرها في الحياة، ليقال من خلال ذلك للمرأة بأن الله كرَّمك وفتح أمامك الآفاق؛ لترتقي وتصلي إلى أعلى المراتب إذا ما تحرَّكت على خطى هذا النموذج واقتديت به، مع إيضاح أنَّ الزَّهراء عليها السلام امتازت بالعصمة.

الزَّهراء عليها السلام وميدان العمل الاجتماعيّ:

هناك الكثير من الروايات التي تبين بأن الزَّهراء عليها السلام ومن أجل أداء واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنها لا تمانع من أن يسمع الرجال صوتها ونذكر هنا بعض الموارد التي توضح هذا المطلب:

الخطبة المشهورة التي ألقتها في مسجد النبيّ صلى الله عليه وآله، حيث روى عبد الله بن الحسن بإسناده عن آبائه عليهم السلام: أنه لما أجمع أبو بكر وعمر على منع فاطمة عليها السلام فدكًا، وبلغها ذلك، لاثت خمارها على رأسها، واشتملت بجلبابها، وأقبلت في لـمَّة من نساء قومها، تطأ ذيولها، ما تخزم مِشيتها مِشية رسول الله صلى الله عليه وآله، حتَّى دخلت على أبي بكر وهو في حشدٍ من المهاجرين والأنصار وغيرهم، فنيطت دونها ملاءة، فجلست، ثمَّ أنَّت أنَّة أجهش لها القوم بالبكاء، فارتجَّ المجلس، ثمَّ أمهلت هنيئة، حتَّى إذا سكن نشيج القوم، وهدأت فورتهم، افتتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه، والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله، فعاد القوم في بكائهم، فلمَّا أمسكوا عادت في كلامها، وقالت خطبتها المشهورة.

إنّنا نقرأ في سيرة الزّهراء عليها السلام بأنّها لم تعش العزلة، بل إنّها استقبلت نساء المهاجرين والأنصار، وتحدّثت إلى رجالهنّ في حوارها معهم في قضيّة الخلافة، كما أنّ حياتها القصيرة كانت مليئة بالمواقف الجهاديّة المشرقة على مختلف الجبهات، فقد كانت تخرج مع أبيها في بعض معاركه وحروبه.

كانت عليها السلام على هدي أبيها في جوده وسخائه، حيث إنّها أعطت الأعرابيّ عقدًا كان في عنقها، والذي أهدته لها فاطمة بنت عمّها حمزة بن عبد المطّلب، حيث قطعته من عنقها ونبذته إلى الأعرابيّ، وقالت: «**خُذ وبِعه، فعسى الله أن يعوِّضك به ما هو خير منه**».

وفي خاتمة القول، فإنّنا نقول بأنّ الزّهراء عليها السلام قدّمت أروع مثل للمرأة في النظام الإسلاميّ، حيث قدّمت بسلوكها الفرديّ والزوجيّ والاجتماعيّ مثلًا حقيقيًّا وعمليًّا يجسّد مفاهيم الرسالة وقيمها تجسيدًا واقعيًّا.

وقد أثبتت الزّهراء عليها السلام للعالم الإنسانيّ أجمع أنّها الإنسان الكامل الذي استطاع أن يحمل طابع الأنوثة، فيكون آية إلهيّة كبرى على قدرة الله البالغة وإبداعه العجيب. فسلامٌ عليها يوم ولدت، ويوم استشهدت، ويوم تبعث حيّة، وهي تحمل كلّ أوسمة الشرف والسموّ، وعليها حلل الكرامة.

الخاتمة

لقد اكتشف الإنسان وبعد تجربة طويلة أنَّه بحاجة إلى قدوة يقتفي أثرها، ويهتدي بهداها، ويستضيء بنورها، ويسير في ركبها، فهو من دون قدوة صالحة تائه، يجهل طريقه ومبادئه.

فالقدوة الصالحة هي أداة مهمَّة وأساسيَّة في تزكية النفس وتهذيبها، والرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام هم الأسوة والقدوة الحسنة الصالحة، وقد جعلهم الله عز وجل قدوة لمن أراد أن يعبد الله حقَّ عبادته.

والزَّهراء عليها السلام مثل القدوة للأجيال، إذ إن النجاح في الحركات التاريخيَّة لن يسمَّى نجاحًا، إذا هو لم يتجاوز حياة فرد أو طائفة من الأفراد، فإذا قيل إنَّ حركة من الحركات التاريخيَّة قد نجحت، فإنَّ السرَّ في نجاحها هو أنَّ الأفراد القائمين بها يذهبون، وهي الباقية بعد ذهابهم.

ولكن لا بدَّ من لفتة مهمَّة جدًّا قد يلتفت لها المسلم الواعي بعد أن يفهم المنهج الربَّانيّ في ظهور الرسل والأنبياء والمخلصين، حيث يعلم أنَّه من العبث بمكان أن تنتظر أمَّة ضائعة قادة مخلصين يظهرون كطفرة في التاريخ؛ ليغيِّروا أقدارها، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١)، وهذا هو الحقُّ، فنحن نؤمن أنَّ الأمَّة بجمعها، وبكلِّ المصلحين فيها مكلَّفة بالأعداد لظهور النخبة وتهيئة البيئة الحاضنة لهم، والجيل الذي يحمل القابليَّة للسير من خلفهم؛ ليغيِّروا أقدارهم نحو الأفضل والأكمل، وهذا هو معنى الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾

فهرس المصادر والمراجع

١. ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ت: ١٣٧٦.
٢. أحمد بن فارس بن زكريَّا، معجم مقاييس اللغة، المحقِّق عبد السلام هارون، بيروت، دار الجيل، ت: ٢٠٠٨م.
٣. الراغب الأصفهانيّ، المفردات في غريب القرآن، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
٤. الزمخشريّ، الكشَّاف عن الحقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربيّ، بيروت، الطبعة الثالثة.
٥. الشهيد مطهَّري، محمَّد وعليّ النبيّ والإمام، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، دار الإرشاد للطباعة والنشر.
٦. المفتي الهنديّ، كنز العمَّال، تاريخ الإصدار ٢٠٠٥م.
٧. باقر شريف القرشيّ، حياة الإمام الحسين بن عليّ، تحقيق: مهدي باقر القرشيّ، إصدار قسم الشؤون الفكريَّة والثقافيَّة في العتبة الحسينيَّة المقدَّسة، الطبعة الثانية، ٢٠٠٨م.
٨. برتراند رسل، الفوز بالسعادة، موقع: archive.com، تاريخ الإنشاء ٢٠١٠م.
٩. حسن جابر النوريّ، محدِّدات ومناهج، دار السلام، بيروت، ت: ٢٠٠٩م.
١٠. خالد صناديقي، الأصول والمعاني في مفردات القرآن الكريم، دار الأرقم، ت: ٢٠١٠م.

١١. سيِّد قطب، في ظلال القرآن، موقع archive.org، تاريخ الإنشاء ٢٠١٨م.
١٢. عبَّاس محمود العقَّاد، أبو الشهداء الحسين بن عليّ، مؤسَّسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٢م.
١٣. محمَّد باقر الصدر، أهل البيت تنوُّع أدوار ووحدة هدف، ت: ٢٠٠٦م، الطبعة الثانية، قم.
١٤. محمَّد باقر المجلسيّ، بحار الأنوار، بيروت، دار إحياء التراث العربيّ.
١٥. محمَّد باقر الصدر، تنوُّع أدوار ووحدة هدف، مؤسَّسة أمّ القرى للتحقيق والنشر، دار الهدى، قم، الطبعة الثانية، ٢٠٠٦م/ ١٤٢٧هـ.
١٦. محمَّد تقي مدرسي، الإمام الحسين عليه السلام قدوة وأسوة، دار محبِّي الحسين عليه السلام، مركز القائميَّة بأصفهان للتحرِّيات الكومبيوتريَّة.
١٧. محمَّد كاظم القزوينيّ، فاطمة الزَّهراء من المهد إلى اللحد، مركز النشر: مكتبة بصيرتي، قم ١٤١٤هـ.
١٨. محمَّد بن عليّ ابن بابويه القمِّيّ، عيون أخبار الرضا، تحقيق: الشيخ حسين الأعلميّ، سنة الطبع ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
١٩. محمَّد بن جرير بن رستم الطبريّ، دلائل الإمامة، المطبعة الحيدريَّة، النجف، تاريخ النشر ١٣٦٩هـ/ ١٩٩٤م.
٢٠. محمَّد بن الفتَّال النيشابوريّ، روضة الواعظين، تحقيق: مجتبى العزجي، الطبعة الثانية، ١٤٣١هـ/ ٢٠٠٠م.
٢١. محمَّد بن عليّ ابن بابويه القمِّيّ، أمالي الصدوق، المطبعة الحيدريَّة، تحقيق قسم الدراسات الإسلاميَّة، مؤسَّسة البعثة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
٢٢. مطهَّري، محمَّد وعليّ النبيّ والإمام، دار الإرشاد للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ت: ٢٠٠٩م.

٢٣. محسن الأمين، أعيان الشيعة، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٩٥٦م.

٢٤. مروان عطيَّة مايع الزيديّ، ثورة الإمام الحسين وأثرها على حركات المعارضة، الطبعة الأولى، ٢٠١٨م، إصدار مؤسَّسة وارث الأنبياء للدراسات التخصصيَّة والنهضة الحسينيَّة.

٢٥. ناصر مكارم الشيرازيّ، الزَّهراء عليها السلام سيِّدة نساء العالمين، الناشر: مدرسة الإمام عليّ بن أبي طالب، قم.

٢٦. أعلام الهداية- السيِّدة فاطمة الزَّهراء، المجمع العالميّ لأهل البيت.

٢٧. ديل كادرنجي، فن التعامل مع الناس، مكتبة جريدة الورد، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.

٢٨. فيركرجى، الرؤية القرآنيَّة لدور المرأة في عهد الأنبياء، مؤسَّسة الهدى للنشر والتوزيع الدولي، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ، المترجم عبد الغني السبتانيّ.

الطفل الداخليّ بين التراكمات وإفراغ الكأس

الباحثة عهود العارضيّ

ملخَّص البحث

التساؤلات والنظريَّات والرؤى التي يثيرها البحث:

١. ما هو الطفل الداخليّ، وما يقصد به؟.

٢. كيف خلقت الزَّهراء عليها السلام الطفل الداخلي في نفوس أبنائها.

٣. ما هي التراكمات النفسيَّة؟ وكيف تنشأ؟ وكيف يمكن التخلُّص من آثارها السلبيَّة بحسب المنهج التربويّ عند السيِّدة الزَّهراء عليها السلام؟.

٤. ما هي نظريَّة إفراغ الكأس؟ وكيف نستلهم من السيرة العطرة لمولاتنا الزَّهراء عليها السلام بتطبيق هذه النظريَّة الحديثة؟.

التوصيات والنتائج:

١. لقد كان مفهوم الطفل الداخلي المختبئ فينا جزءًا من ثقافة العالم منذ ألفي سنة على الأقل، والطفل الداخليّ هو ذلك الجزء الحي، النشيط، الخلوق، الراضي، إنَّه الذات الأصليَّة في كلِّ إنسان... إنَّه حقيقتنا.

٢. يجب أن نبحث عن هذا الطفل، وما صنعت به التراكمات النفسيَّة التي اكتسبناها من الحياة العمليَّة، وكيف كان لجوِّ الأسرة النصيب الأكبر في خلق هذه التراكمات، وغالبًا ما يقصد بالتراكمات هي تعرُّض الأنسان إلى كثير من المواقف الصعبة في حياته، أو تعرُّضه بشكلٍ مستمرٍّ للتنمُّر أو الضرب أو

الإهمال، فتخلق بداخله جبل من الهموم، ينعكس على تصرُّفاته عند الكبر، فيواجه مشكلة كبيرة بالاختلاط بالمجتمع، فتصبح صفاته الانطواء أو الخجل المفرط، أو العصبية المفرطة، وغيرها من الصفات السلبيَّة، وفي هذا البحث سنناقش ما هي المبادئ الأساسيَّة لاكتشاف هويَّتنا الفعليَّة، ونقارن بينها وبين المنهج التربويّ الصحيح الذي وضعته السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، وكيف طبَّقته عمليًّا مع أبنائها، فكانوا أنوار الله في الأرض، وهل من الممكن أن نجرِّب منهجها التربويّ على أبنائنا؟ أيمكننا الحصول على نتائج مشابهة؟.

٣. إنَّ من طرق العلاج الحديثة، هي نظريَّة إفراغ الكأس، فما هي؟ وهل كانت الزَّهراء عليها السلام تتَّبعها بمنهجها التربويّ، وأوصي بشدَّة بعمل دراسات معمَّقة للمنهج التربويّ الفاطميّ، ونشر هذه الدروس العظيمة بكلِّ فقرة بحياتنا بالمدارس، والفضائيَّات، ومواقع التواصل الاجتماعيّ، وفنون مختلفة، منها القصَّة والخاطرة والمقال والشعر، وبطرق مختصرة وبسيطة؛ لكي تصل للعدد الأكبر من الناس؛ للاستفادة منها.

المقدِّمة

الحمد لله حمدًا يوافي نعمه، ويُكافئ مزيده، حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه، ملء السموات والأرض وما بينهما، والصلاة والسلام على خير خلقة المبعوث رحمةً للعالمين محمَّد صلى الله عليه وآله.

أمَّا بعد:

إنَّ مفهوم الطفل المختبئ فينا كان ولازال جزءًا من ثقافة العالم منذ ألفي سنة على الأقل، وقد اختلف أصحاب الاختصاص في تسميته، فقد أسماه حديثًا كارل يونغ (Carl Jung) «الطفل الإلهيّ»، بينما إمات فوكس (Emmet Fox) أطلق عليه اسم «الطفل المعجزة»، والمعالجان النفسيَّان أليس ميلر (Alice Miller) ودونالد وينكوت (Donald Winnicott) أسمياه «الذات الحقيقيَّة». أمَّا العديد من الأخصائيِّين في حقل الإدمان على الكحول والإدمان على مواد أخرى، فيسمُّونه «الطفل الداخليّ»، والطفل الداخليّ المختبئ فينا، هو ذلك الجزء الحي، النشيط، إنَّه الذات الأصليَّة في كلِّ أنسان، إنَّه حقيقتنا.

ويقول الطبيب الأمريكيّ (تشارلز إل ويتفيلد) المتخصِّص في مساعدة الناجين من صدمات الطفولة في التعافي، ومعالجة الإدمان بما في ذلك إدمان الكحول والاضطرابات ذات الصلة: «من خلال ما أظهرته أبحاثي في السنوات العشرين الماضية، ومن خلال قراءتي لأكثر من (٣٣٠) دراسة علميَّة أُجريت على أكثر من (٢٣٠٠٠٠) شخص من كلِّ أنحاء العالم، تبيَّن أنَّ الصدمة النفسيَّة في الطفولة تؤدِّي إلى تأثيرات مؤذية عديدة،

تظهر بطرق مختلفة، منها الإصابة باضطراب أو اكثر من الاضطرابات النفسيَّة والعقليَّة، بدءًا من الاكتئاب، فالإدمان وصولًا الى انفصام الشخصيَّة، إضافة إلى مجموعة من الاضطرابات الجسديَّة أيضًا. تُظهر هذه الأمراض أنَّ هناك صلة وثيقة ما بين الإصابة بها، وتعرُّض الشخص في طفولته لصدمات نفسية متكرِّرة»[1].

(١) أنقذوا الطفل الداخليّ: ٦.

الفصل الأوَّل

المنهج التربوي عند السيِّدة الزَّهراء عليها السلام

المبحث الأوَّل: القدوة الحسنة للآباء قبل الأبناء

بطبيعة الحال، إنَّ أكثر الناس قربًا وحنانًا للأبناء هم الآباء، وأوَّل خطوات وكلمات يتعلَّمها الطفل، هي من أبويه، فالآباء قدوة الأبناء، وهم النهج الذي يسير عليه الطفل لا إراديًا، فإن كان هذا النهج صالحًا، قاد أبناءه للطريق الصحيح، إمَّا إذا كان النهج طالحًا، فلا شك أنَّ هذا الابن يصبح معاق نفسيًّا، صفاته العدائية والكذب، أو قد يصل إلى الإجرام، إذًا يجب أن يتسلَّح الآباء بالعلم والمعرفة التربويَّة الصحيحة حتَّى تنتج من هذه التربية الصحيحة أبناء صالحون ناجحون في المجتمع، وبالتالي نجاح كافَّة المجالات العلميَّة والتجاريَّة والصحيَّة، إذ كلَّما أمتلأ قلب هذا الطفل حبًّا وحنانًا، كلَّما أنعكس هذا الحب والحنان على العالم أجمع عندما يكبر، فالطبيب يصبح ملاك الرحمة، والمعلِّم يصبح الأب الثانويّ، والمهندس يعتبر هذا بيته الذي نشأ فيه، وهكذا، فالإناء ينضح بما فيه.

لو سأل أبٌ أو أمٌ: من أين أحصل على منهج تربويّ صحيح؟.

الجواب: نحن مسلمون، والقرآن الكريم كتابنا، والله سبحانه وتعالى وضَّح لنا على لسان سيِّد الكائنات نبينا محمَّد صلى الله عليه وآله، أنَّ أهل البيت عليهم السلام هم أفضل خلق الله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1]، وقال صلى الله عليه وآله: «مَثَل أهل

(١) الأحزاب: ٣٣.

بيتي كمَثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلَّف عنها هلك»[1]، وفي رواية حديث الكساء، نقرأ: «**فَقالَ الأمِينُ جبرائِيلَ: يا رَبِّ وَمَن تَحتَ الكِساءِ؟ فَقالَ عزّ وجلّ: هُم أهلُ بَيتِ النُّبُوَّةِ، وَمَعدِنُ الرِّسالَةِ، هُم فاطِمَةُ وَأبُوها وَبَعلُها وَبَنُوها**»[2]، إذًا فاطمة عليها السلام هي المحور، ويكفينا عنها قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «**فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني**. قال: وفي رواية: **يريبني ما أرابها ويؤذيني ما آذاها**»[3]، وهل يرضى الله تعالى ورسوله لرضا إنسانة عاديَّة، ويغضب لغضبها؟.

الجواب: إنَّ الله يرضى لرضا المعصوم ويغضب لغضبه؛ لأنَّ المعصوم هو الخليفة الحقيقي لله تعالى في الأرض، فيتجلَّى بصفاته، ويكون منارًا لأهل الأرض، إذًا السيِّدة الزَّهراء عليها السلام معصومة بالعصمة الكبرى، وهي ميزان الله تعالى؛ لأنَّها ريحانة الجنَّة.

لو راجعنا السيرة المباركة لسيِّدة نساء العالمين عليها السلام، وخصوصًا منهجها التربويّ في تربية أبنائها، وكيف جعلت منهم قادة وأئمَّة يهدون هذا المجتمع للصلاح، حتَّى وإن بذلوا الغالي والنفيس، ولا يخفى على أحد قول سيِّد الشهداء عليه السلام: «**وإنِّي لم أخرج أشرًا ولا بطرًا ولا مفسدًا ولا ظالمًا، وإنَّما خرجت لطلب الإصلاح في أمَّة جدِّي صلى الله عليه وآله، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدِّي وأبي عليّ**»[4]، ولربَّما يحتجُّ أحدٌ ما ويقول إنَّ هذا الإمام الحسين عليه السلام هو إمام معصوم مفترض الطاعة، والروايات لا تُحصى بهذا الصدد، وبأسانيد معتبرة، فما قيمة أو تأثير التربية إذا كان هو إمام معصوم؟ فأقول: إنَّ للتربية وطريقة التعامل مع الطفل تأثير كبير على شخصيَّته على طول فترة حياته، وفاقد الشيء لا يعطيه، والنقطة الأهم أنَّ سيرتهم عليهم السلام كلُّها دروس وعِبر لكلِّ من يريد أن ينهج بنهجهم.

(١) بحار الأنوار، العلَّامة المجلسيّ: ٢٣/ ١٢٤.
(٢) حديث الكساء.
(٣) بحار الأنوار، العلَّامة المجلسيّ: ٢٩/ ٣٣٧.
(٤) بحار الأنوار، العلَّامة المجلسيّ: ٤٤/ ٣٢٩.

المبحث الثاني: كيف خلقت السيِّدة الزَّهراء عليها السلام الطفل الداخليّ في نفوس أبنائها

الطفل الداخليّ هو الصورة الحقيقيّ لطفولة كلِّ شخص، وكان أولاد السيِّدة الزَّهراء عليها السلام ممَّن حضوا بطفولة رائعة كانت فعلًا نموذجًا للتربية الصالحة، فكان ثمارها سيِّدَي شباب أهل الجنَّة عليهما السلام، والثمرة الأخرى هي جبل الصبر، جبل الشموخ والعزَّة والإباء، فجعلت كلَّ امرأة تفخر بكونها امرأة؛ لأنَّها من نفس جنس السيِّدة زينب عليها السلام، فكيف كان المنهج التربويّ لها (سلام الله عليها)؟.

أوَّلًا: عشُّ الزوجيَّة

يتأثَّر الأطفال تأثُّرًا كبيرًا بالجوِّ المحيط بهم، فالمشاكل بين الزوجَين التي يطَّلع عليها الأبناء تؤثِّر سلبًا وبشكلٍ ملحوظٍ على كلِّ طفل، وبالتالي لا ينتج منه طفلًا سويًّا صالحًا، ولكنَّ بيت السيِّدة الزَّهراء عليها السلام كان مليئًا بالحبِّ والعطف والتعاون والاحترام بين الزوجَين، فقال الإمام عليّ بحق السيِّدة الزَّهراء عليها السلام: «**فو الله ما أغضبتها، ولا أكرهتها على أمر حتَّى قبضها الله عزَّ وجلَّ، ولا أغضبتني، ولا عصت لي أمرًا، ولقد كنت أنظر إليها فتنكشف عنِّي الهموم والأحزان**»[1]. وهذا الجو يوِّلد بيئة مليئة بالحبِّ والتسامح، رطبة بذكر الخالق عزَّ وجلَّ، ملائمة لتربية صالحة.

ثانيًا: حضُّ أبناءها للعبادة الخالصة لوجه الله تعالى:

من الهموم الكبيرة التي يعاني منها البعض، هي كيفيَّة حضِّ أولادهم على العبادة، كيف يجعلهم قريبين من الله تعالى، كيف أجعل أبني محبًّا للصلاة، صادقًا، مطيعًا، محترمًا؟ كيف أجعل الحجاب والستر والحشمة هي جلُّ ما يشغل ذهن ابنتي؟ وهنا تعطينا السيِّدة الزَّهراء عليها السلام دروسًا وعبرًا في هذا الجانب، من خلال تربية أبناءها، فكانت هي القدوة الصالحة لأبنائها، فمنذ أن فُتحت أعينهم وجدوا أمَّهم صائمة مصلِّية صادقة،

(١) بحار الأنوار، العلَّامة المجلسيّ: ٤٣/ ١٣٤.

تخصِّص الساعات الأخيرة من نهار الجمعة في العبادة والتسبيح والتهليل، كانت لا تنام في الليالي العشر الأخيرة من شهر رمضان المبارك، بل تحرص على عدم نوم أبنائها في ليالي القدر، وشهد الرسول صلى الله عليه وآله لها قائلًا: «**إنَّ ابنتي فاطمة ملأ الله قلبها وجوارحها إيمانًا إلى مشاشها، ففرغت لطاعة الله**»(١).

وأخبر عن عبادتها: «**إنَّها متى قامت في محرابها بين يدي ربِّها جلَّ جلاله، زهر نورها لملائكة السماء كما يزهر نور الكواكب لأهل الأرض، ويقول الله عزّ وجلّ لملائكته: «يا ملائكتي أنظروا إلى أَمَتي فاطمة سيِّدة إمائي، قائمة بين يدي، ترتعد فرائصها من خيفتي، وقد أقبلت بقلبها على عبادتي، وأُشهِدكم أنِّي قد آمنت شيعتها من النار**»(٢)، حتَّى قال ولدها الإمام الحسن بن عليّ عليهما السلام: «**رأيت أمي فاطمة عليها السلام قائمة في محرابها ليلة جمعتها، فلم تزل راكعة ساجدة حتَّى اتَّضح عمود الصبح، وسمعتها تدعو للمؤمنين والمؤمنات، وتسمِّيهم، وتكثر الدعاء لهم، ولا تدعو لنفسها بشيء، فقلت لها: يا أَمَّاه لِـمَ لَـمْ تدعين لنفسك كما تدعين لغيرك؟ فقال: يا بني الجار ثمَّ الدار**»(٣).

ثالثًا: تأكيد الزَّهراء عليها السلام على تعلُّم أبنائها الأخلاق الحسنة وعدم التفرقة بينهم

من مبادئها عليها السلام عدم التفرقة بين الأبناء، وعدم التمييز بين بنتٍ وصبي، فالتفرقة بين الأبناء يولِّد البغضاء والحقد بين الإخوة، فعوَّدتهم على الصدق والصراحة والمحبَّة والإيثار، وكان الاحترام هو أساس التعامل، فكانت تعامل الحسن والحسين عليهما السلام معاملة الرجال، ممَّا جعلهم يشعرون بمنزلتهم، ويعرفون مكانتهم، ويبنون شخصيَّتهم، فكان الاعتماد على النفس من أولويَّات التربية الصالحة؛ لأنَّه يؤدِّي إلى التكامل الفرديّ والاجتماعيّ، والابتعاد عن الاتِّكالية، وكيف لا وهي ربيبة النبوَّة والوحي الإلهيّ، فأعدَّت الإمام الحسن عليه السلام للصلح مع معاوية، في سبيل مصلحة الإسلام والمسلمين،

(١) بحار الأنوار، العلَّامة المجلسيّ: ٤٣/ ٤٦.
(٢) بحار الأنوار، العلَّامة المجلسيّ: ٤٣/ ١٧٢.
(٣) بحار الأنوار، العلَّامة المجلسيّ: ٤٣/ ٨١.

والصبر عليه حتَّى يفتضح أمره، ويتبيَّن للناس نيَّته، وذلك في فترة حرجة جدًّا، بعد شهادة أمير المؤمنين عليه السلام، بينما أعدَّت الإمام الحسين للجهاد ومواجهة الظالمين؛ لإعادة الحياة لدين جدِّه محمَّد صلى الله عليه وآله بعد أن تبيَّن للناس ظلم ونوايا بني أميَّة، ولا ننسى السيِّدة زينب عليها السلام التي صبرت وضحَّت وتجرَّعت المرار بعد فقدها إخوتها وأعزَّتها في يوم كربلاء، ولكن هذا لم يقلِّل من عزيمتها، فوقفت وخطبت في مجالس الظالمين، لاسيما خطبتها في مجلس يزيد اللعين، كما فعلت أمَّها وقدوتها عندما خطبت يوم السقيفة، ودافعت عن إمام زمانها أمير المؤمنين عليه السلام.

رابعًا: توثيق أهميَّة الحجاب في نفوس بناتها عليهنَّ السلام

من الأمور التي يعاني منها المجتمع الإسلاميّ اليوم، هو التهاون في لبس الحجاب، بل للأسف بعض الأماكن أو المناطق نرى نساءها لا تمتُّ للحجاب بصلة، رغم أنَّها محسوبة على الدين والمذهب، ولكنَّ السيِّدة زينب كانت حاضرة يوم خروج والدتها يوم السقيفة، وشاهدت حجابها، إذ كانت ثيابها عليها السلام طويلة تخطُّ الأرض؛ سترًا لعفافها، وإتمامًا لحجابها المقدَّس، والتزامًا بأوامر الله تعالى، رغم ما جرى عليها خلف الباب، وتجلَّى هذا التأثير واضحًا يوم عاشوراء، وهل مرَّ على امرأة في التاريخ ما جرى على السيِّدة زينب وبنات الرسالة (سلام الله عليهنَّ) في يوم عاشوراء؟ ولكن هذا الموقف العظيم لم يزعزع هيبتها وحجابها، وقوَّة التمسُّك بحشمتها، وهي المشرفة على بنات أخيها ومن سُبي معها من النساء، لولم تكن السيِّدة زينب أبنة السيِّدة الزَّهراء عليهما السلام، فهل يا ترى تحمَّلت ما تحمَّلت من أهوال يوم عاشوراء بسترٍ ورضا لقدر الله تعالى وقوَّة وثبات؟ بل تعدَّى ذلك فكانت لسان الحسين الناطق، وشعلة الثورة على مرِّ السنين، فهكذا هي القدوة الحسنة.

خامسًا: تجلِّي حنانها وحبَّها العميق لأبنائها من خلال تعاملها معهم

وكان ذلك واضحًا في تصرُّفاتها عليها السلام في علاقتها الطيِّبة الودودة مع الإمامَين الحسن

والحسين عليهما السلام، إذ كانت مؤمنة بأنَّ كثرة الحبِّ والعطف على الطفل الرضيع ضروريَّة جدًّا لنموه اللغويّ والعاطفيّ؛ من خلال مناغاة الطفل في المرحلة الأولى من عمره، وقد كانت عليها السلام تناغي الإمام الحسن عليه السلام وتقول له:

إشـــبـــه أبـــــاك يـــا حـــسـن

واخـــلـــع عـــن الحـــقِّ الـــرسـن

واعـــبـــد إلـــهًـــا ذا مـــنـن

ولا تـــــوالِ ذا الأحـــن

وكانت تناغي الإمام الحسين عليه السلام وتقول:

أنـــــت شـــبـــيـــهًـــا بـــأبي

لـــســـت شـــبـــيـــهًـــا بـــعـــلي

وبهذه الكلمات والأسلوب الحنون تعبِّر لهم عن حبِّها العميق.

سادسًا: خدمة أبنائها بنفسها

لقد عُرفت عليها السلام بإيمانها وشغفها بخدمة أبنائها بنفسها دون ملل أو نكد، فهي تعتبر هذه الخدمة من أولويَّات التربية، والدليل على ذلك الرواية التي تقول إنَّ فاطمة عليها السلام جاءت يوم الخندق ورسول الله صلى الله عليه وآله منهمك مع أصحابه في حفر الخندق؛ لتحصين المدينة وحماية الإسلام، جاءت وهي تحمل كسرة خبز، فرفعتها إليه فقال صلى الله عليه وآله: «**ما هذه يا فاطمة؟**»، قالت: «**من قرصٍ اختبزته لابني، جئتك منه بهذه الكسرة**»، فقال صلى الله عليه وآله: «**يا بنيَّة أما إنَّها لأوَّل طعام دخل في فم أبيك منذ ثلاث**»[1]، وهذه الرواية تؤكِّد أنَّ الزَّهراء عليها السلام كانت تخبز لأولادها لتطعمهم وتغذِّيهم، فلم تكن أمًّا عابثة لاهية.

سابعًا: الصبر على الفقر وقلة المؤونة

لقد مرَّ على دار الزَّهراء عليها السلام أيَّامًا قاسيًا لم تجد فيها لقمة تسدُّ بها جوع أطفالها،

(١) الأسرار الفاطميَّة، الشيخ محمَّد فاضل المسعوديّ: ٣٦٠.

ولكنَّها كانت تراعي ظروف زوجها أمير المؤمنين عليه السلام، ولا تكلِّفه فوق طاقته، هكذا يجب أن تكون الزوجة الصبور الصالحة، وهناك رواية مليئة بالحبِّ والعظمة لشخص هذه السيِّدة الجليلة، فعن أبي سعيد الخدريّ قال: أصبح عليّ بن أبي طالب عليه السلام ذات يوم ساغبًا، فقال: «**يا فاطمة هل عندك شيء تغذِّينيه؟**»، قالت: «**لا، والذي أكرم أبي بالنبوَّة وأكرمك بالوصيَّة، ما أصبح الغداة عندي شيء، وما كان شيئًا طعمناه منذ يومين إلَّا شيء كنت أؤثرك به على نفسي وعلى ابنيَّ هذَين (الحسن والحسين)**»، فقال عليّ عليه السلام: «**يا فاطمة ألا كنت أعلمتني فأبغيكم شيئًا؟**»، فقالت عليها السلام: «**يا أبا الحسن إنِّي لأستحي من إلهي أن أكلِّف نفسك ما لا تقدر عليه**»[1]، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله عنهما في ليلة زواجهما لعليّ عليه السلام: «**يا علي، نعم الزوج فاطمة**»، وقال لفاطمة عليها السلام: «**يا فاطمة، نعم البعل بعلك**»[2]، وقال صلى الله عليه وآله: «**لولا عليّ لم يكن لفاطمة كفؤ**»، فلا تنحصر مسؤوليَّة الزوجَين تجاه بعضهما البعض فقط، بل تشمل دائرة أوسع من ذلك بكثير، فهما مسؤولان عن أبنائهما، فالطفولة لها حقٌّ كبير، وتربيتهما تربية صالحة هي مسؤوليَّة كبرى تقع على عاتق الوالدين.

إذًا فلنلتحق جميعًا بمدرسة الزَّهراء (سلام الله عليها)، عسى أن نعبُر بأنفسنا وأبنائنا إلى برِّ الأمان.

(١) بحار الأنوار، العلَّامة المجلسيّ: ٤٣/ ٥٩.

(٢) بحار الأنوار، العلَّامة المجلسيّ: ٤٣/ ١٣٢.

الفصل الثاني

التراكمات النفسيَّة

المبحث الأوَّل: ما هي التراكمات النفسيَّة

يمرُّ كلُّ أنسان، مهما كان مقامه الدينيّ أو الاجتماعيّ، بفترات عصيبة في حياته، وتبدأ منذ الطفولة، فكلُّ موقف يتعرَّض له الشخص، ولو كان بسيطًا، أو كلمة، فإنَّها تؤثِّر سلبًا أو إيجابًا على الشخص، وتنعكس بشكل واضح على تصرُّفاته، فقد نجد أنَّنا أحيانًا تحدث لنا مواقف تقوم باستفزازنا، وتحريك اضطراباتنا، فنقوم بالتصرُّف فيها بطريقة عنيفة جدًّا، قد تكون أعنف ممَّا تستحقُّه، أو أعنف من التصرُّف الطبيعيّ الذي ربَّما كنَّا سنقوم به، وسبب ذلك أنَّ كلَّ كلمة جارحة يسمعها الشخص، فيحزن قلبه وتؤثِّر في نفسيَّته، فتتراكم هذه الانزعاجات والأحزان حتَّى تكون كالجبل.

يخلقنا الله تعالى بقلب أبيض ونقاء سريرة، ليس للشرِّ أو الكرة مكانًا في قلوبنا، فتبدأ رحلة الحياة بابتسامة لطيفة، وقلب بريء، فيكتسب الصفات والأفعال ممَّن حوله، وقد وجد أطبَّاء علم النفس أنَّ من العوامل الأساسيَّة المؤثِّرة في ردَّة الفعل هذه هو التراكمات النفسيَّة التي قد تراكمت بداخل الشخص، وقد تراكمت نتيجة للأزمات والمشاكل التي قد مرَّ بها هذا الشخص، ولكنَّه لم يتعامل معها بطريقة صحيحة تساعده على التخلُّص منها دون ترك آثار نفسيَّة أو تراكمات.

كيف نميِّز، هل لدينا تراكمات نفسية أم لا؟.

قد تكون هذه التراكمات بمثابة بركان خامل قد ينفجر بوجه من يتلاعب به، وهذا

البركان عبارة عن كمٍّ هائل من المشاعر السلبيَّة والأفكار المغلوطة المرتبطة بما تعرَّض له هذا الشخص من أزمات وصعوبات في حياته، وللعلم فإنَّ هذه التراكمات التي بداخلنا لا تتجمَّع بموقف واحد، أو مشكلة واحدة، وإنَّما تتجمَّع بعد مرور زمن أو مشاكل كثيرة لم يتم التعامل معها بطريقة صحيحة، فينفجر حال العبث به بطريقة غريبة وأكبر من حجم الموقف الذي تسبَّب بالانفجار، إذًا مَن مرَّ بهذا الموقف فليعلم أنَّه مليء بالتراكمات.

المبحث الثاني: أسباب التراكمات النفسيَّة

تتولَّد لدى أي شخص تراكمات نفسيَّة تتجلَّى بصفات سلبيَّة تؤثِّر بشكلٍ سلبيٍّ على مَن حوله بشكلٍ مباشر، وقد تعرِّضه هذه التراكمات لعيش لحظات عصيبة وفشل ذريع وواضح في حياته العمليَّة والأسريَّة، وللتراكمات النفسيَّة أسباب كثيرة، نذكر منها:

أوَّلًا: العوامل المحيطة بالطفولة

إنَّ مرحلة الطفولة هي حجر الأساس لبناء هذه التراكمات، فلو نظرنا إلى تلك العوامل التي تؤثِّر على الفرد من صغره، ففترة الطفولة تكون فترة خصبة جدًّا في حياة الإنسان، إمَّا أن تُزرَع بالورد أو تُزرَع بالشوك، والمقصود هنا أنَّ هذه الفترة هي التي تحدِّد هويَّة الشخص بالمستقبل، فلو امتلأت هذه الفترة بالمواقف والذكريات الجميلة، خرج لنا إنسان سويّ وناضج ومتَّزن نفسيًّا وعقليًّا، ولكن إن حصل العكس، وغرقت هذه الفترة من حياة الطفل بالمواقف السيِّئة من سماعه لكلمات قاسية أو تفرقة بالتعامل أو حتَّى قد تصل في أوقات كثيرة إلى الضرب، ممَّا يؤدِّي إلى تكوين تراكمات سلبية جدًّا بداخله، وتتجلَّى هذه التراكمات على صورة تصرُّفات سلبيَّة تعكس آثارها على المجتمع، ونعزِّز هذه النقطة بعدد من الأمثلة:

نشر موقع «آف.بي.ري» الروسي تقريرًا تحدَّث فيه عن التاريخ البشريّ الحافل بالطغاة ورموز الديكتاتوريَّة، وقال الموقع، في تقريره الذي ترجمته

«عـربي٢١»[١]، أنَّه وفقًا لنظريَّة الطبيب النفسّي الروسي ألكسندر بوخانوفسكي[٢]، والعديد من الأخصائيِّين النفسانيِّين، فإنَّ السلوك العدوانيّ للإنسان ناتج عن التطوُّر غير الطبيعيّ للدماغ، أو مرور الشخص ببعض الأحداث المؤثِّرة في حياته، وأورد أنَّ طفولة أدولف هتلر[٣] لم تكن مختلفة كثيرًا عن طفولة غيره، باستثناء إظهاره لبعض العناد، وهي السِّمة التي ساعدته فيما بعد على تحقيق طموحه السياسيّ، كما عُرِف الدكتاتور هتلر في شبابه بشغفه بالرسم، وقد تمكَّن من جمع القليل من المال مقابل بيع اللوحات التي رسمها، وكان لهتلر الموهبة اللازمة ليصبح رسَّامًا عظيمًا، ولكن بعد أدائه لواجب الخدمة العسكريَّة، قرَّر دخول عالم السياسة، وقد كان ثمن تحقيق هتلر لحلم طفولته، موت الملايين من الأبرياء.

وذكر الموقع أنَّ والد بينيتو موسوليني[٤] لم يكن رجلًا متعلِّمًا، بيد أنَّ ذلك لم يمنعه من الخوض في القضايا السياسيَّة، وبسبب تأثُّره بكلام والده، تبنَّى بينيتو الفكر الشيوعيّ، ويعتبر موسوليني من أفظع الشخصيَّات التي عرفها التاريخ، فبناءً على أوامره خلال الحرب العالمية الثانية، قصف الفاشيُّون الإيطاليُّون مستشفيات الصليب الأحمر، ونفَّذوا العديد من المذابح، وخلال سنوات حكمه، قُتِل أكثر من مائتي ألف شخص.

(1) https://arabi21.com/story/1134292.

(٢) ألكسندر دوغين: فيلسوف وكاتب قوميّ وباحث سياسّي روسّي، يوصَف بأنَّه «عقل بوتين»، يتقن ٨ لغات، درس الطيران في معهد موسكو قبل أن يغيِّر مساره إلى الفلسفة والعلوم السياسيَّة وعلم الاجتماع.

(٣) زعيم ألمانيا النازية: ولِد في الإمبراطوريَّة النمساويَّة المجريَّة، وكان زعيم ومؤسِّس حزب العمَّال الألمانيّ الاشتراكيّ الوطنيّ المعروف باسم الحزب النازيّ، واختارته مجلَّة تايم واحدًا من بين مائة شخصيَّة تركت أكبر أثر في تاريخ البشريَّة في القرن العشرين.

(٤) حاكم إيطاليا ما بين ١٩٢٢-١٩٤٣. شغل منصب رئيس الدولة الإيطاليَّة ورئيس وزرائها، وفي بعض المراحل وزير الخارجيَّة والداخليَّة، وهو من مؤسِّسي الحركة الفاشيَّة الإيطاليَّة وزعمائها، يعتبر موسوليني من الشخصيَّات الرئيسة المهمَّة في تكوين الفاشية.

وأشار إلى أنَّ تشارلز مانسن[1] ولِد بتاريخ ١٢ تشرين الثاني/ نوفمبر من سنة ١٩٣٤، وبسبب الظروف القاسية التي مرَّ بها أثناء طفولته، تحول مانسن إلى مجرم، وأسَّس عصابة ارتكب أعضاؤها سلسلة من جرائم القتل الوحشيَّة.

وأورد الموقع الروسيّ أنَّ جيفري دامر[2] تعرَّض للعنف الجنسيّ في سنِّ السادسة، إلَّا أنَّه نفى ذلك في العديد من المناسبات، وقد نشأ دامر في عائلة تعيسة، ولم يحظَ بالكثير من الأصدقاء، الأمر الذي أثَّر سلبًا على صحَّته النفسيَّة، وأدَّى إلى تحوُّله إلى مجرم.

وبما أن الطفل لا يستطيع أن يرد الإساءة التي يتعرض لها باعتباره قليل الخبرة و ضعيف القوة الجسدية فلو تعرض للتنمر ولم يرفضه أولم يتخذ موقف واضح بطريقة صارمة فيكتفي بالصمت والكبت، مما يتسبب في تراكمات عديدة، وغيرها من المواقف الأخرى.

ثانيًا: كبت المشاعر والاحاسيس

لا يخلو الحديث عن التراكمات النفسيَّة من موضع كبت المشاعر والأحاسيس، سواء كانت مشاعر كره أو حب أو فرحة أو حزن، فأيّ نوع من المشاعر كتمانه يؤدِّي

(١) هو زعيم إجراميّ وطائفيّ أمريكيّ. في منتصف عام ١٩٦٧، شكل ما أصبح يُعرَف باسم «عائلة مانسون»، ومقرَّها كاليفورنيا، ارتكب أتباعه سلسلة من تسع جرائم قتل في أربعة مواقع في يوليو وأغسطس ١٩٦٩. وفقًا لمفوَّض لوس أنجلوس، تآمر مانسون لبدء حرب عرقيَّة، على الرَّغم من أنَّه مشكوك في هذا الدافع. في عام ١٩٧١ اعترف الادِّعاء بأنَّ مانسون لم يأمر حرفيًّا بجرائم القتل، لكنَّهم زعموا أنَّ إيديولوجيَّته تشكِّل فعلًا مؤامرة صريحة. كما أُدين مانسون بتهمة القتل من الدرجة الأولى لقتل غاري هينمان ودونالد شي. كان مانسون مدانًا سابقًا عاطلًا عن العمل، قضى أكثر من نصف حياته في المؤسَّسات الإصلاحيَّة في الوقت الذي بدأ فيه في تأسيس طائفته.

(٢) هو قاتل متسلسل أمريكيّ، كان يقتل الذكور الشباب واليافعين، بصرف النظر عن جنسيَّتهم. معظم ضحاياه قتلهم خنقًا، ثمَّ قام بتقطيع جثثهم، وسلخ جلودهم، والاحتفاظ بهياكلهم العظميَّة أو أجزاء منها، وفي بعض الأحيان كان يحتفظ بأجزاء كاملة من الجثَّة، ويقوم بأكلها.

إلى تراكمات كثيرة داخل نفس الإنسان، وفي عقله الباطن، وللأسف الشديد تمتلك عدد من المجتمعات بعض أساليب التربية العادات الخاطئة في التربية، فالبعض يعيب البكاء على الرجل، ويعتبره مع الأسف من الأشياء الخاطئة، وكأنَّه يجب أن يدفن مشاعره، ولا يعبِّر عنها، كما أنَّه لا يحقُّ له أن يُظهر ضعفه أو قلَّة حيلته، ويجب أن يظهر قويًّا طوال الوقت، وهذا الفعل قد يصيبه بالبؤس والعصبيَّة، وعدم اتِّخاذ القرار المناسب في حياته، فتتراكم عليه الظلمات، ظلمة الموقف، وظلمة حبس الدموع، وظلمة قلَّة الناصر؛ لأنَّه لم يشارك مشكلته مع أحد، فالتراكمات قد يتعرَّض لها الشخص بأيِّ وقت في حياته، وليس فقط في مرحلة الطفولة، والبعض الآخر لا يعطي الطفل حقَّه في التكلُّم وفصح ما بداخله، وهذا منتشر بشكل كبير مع شديد الأسف، باعتباره طفل لا يفهم ولا يدرك شيء من هذه الدنيا، حسب اعتقادهم، فلو تعرَّض للتنمُّر أو الإهانة أو الضرب، يردُّ البعض عليه بسخرية بالكلمة الدارجة «يلَّه تكبر وتنسه»، ولكن في الحقيقة قد لا ينسى هذا الطفل هذا الموقف أو ذاك، وقد يلازمه سنوات عديدة حتَّى بعد أن يكبر، وبالتالي يؤثِّر سلبًا على مشوار حياته العلميّ والعمليّ والاجتماعيّ، أو قد تؤدِّي هذه التراكمات إلى تحوُّل صاحبها إلى شخص انطوائيّ لا يجيد التعامل مع الناس، ويخاف منهم، ولا يحبُّ الاختلاط بهم؛ لأنَّ ذلك قد يؤدِّي إلى مشاكل نفسيَّة يصعب علاجها.

إذًا لو قارنَّا المنهج التربويّ عند السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، وطبَّقناه في حياتنا اليوميَّة، واتَّخذناه قانونًا نسري وفق أحكامه؛ لما تعرَّض أبناؤنا لضغوط نفسيَّة تؤدِّي بهم إلى الدمار، والسؤال هنا: كيف أتخلَّص من التراكمات النفسيَّة؟ هذا ما نتعرَّف عليه سويًا إن شاء الله في الفصل الثالث، مع نظريَّة إفراغ الكأس.

الفصل الثالث

نظريَّة إفراغ الكأس

المبحث الأوَّل: ما هي نظريَّة إفراغ الكأس؟

تطرَّقنا في الفصل السابق إلى التراكمات النفسيَّة، أسبابها ونتائجها، وأثبت الطبُّ النفسي الحديث أنَّ كلَّ شخص في هذه الدنيا لا بدَّ وأن تعرَّض للتعنيف أو الحرمان، وبالتالي لا يخلو قلبه وفكره من التراكمات النفسيَّة، والخلاصة أو نتيجة البحث، هو كيف أتخلَّص من التراكمات النفسيَّة؟ وكيف أحوِّل طاقتي من السلبيَّة إلى الإيجابيَّة؟، ومتى وكيف أضع قدمي على أوَّل درجة في سلَّم النجاح؟.

وللإجابة على هذه الأسئلة، دعونا نقرأ القصة اللطيفة الآتية:

«القصة هي واحدة من أشهر القصص التي ترسِّخ لمفهوم (أفرغ كأسك)، هذا المفهوم هو المفتاح الرئيس للنجاح في مجالات العمل كافَّة، وتدور أحداثها في اليابان، في بلدة فقيرة لا يقوى أهلها على نفقات إرسال أولادهم للتعليم في المدينة، وعوضًا عن ذلك يدفعون بأبنائهم إلى مدرسة المعلم (سوزوكي)، كان المعلم سوزوكي صاحب فكر وفلسفة في الحياة، وكان يعمل على نشر أفكاره من خلال نوع فريد من التعليم، يختلف كلِّيًّا عن مناهج التعليم التقليديَّة، ويعتمد على فلسفة الحياة، وذاع صيت المعلم سوزوكي خارج البلدة، حتَّى سمع به شاب من المدينة يدعى (يوكي)، الذي قرَّر الالتحاق بمدرسة المعلم سوزوكي، إذ كان يوكي متفوِّقًا، فهو حاصل على الدكتوراه

من الخارج، وكان محبًّا لتحصيل العلم وتطوير الذات، وقد سمع الكثير عن المعلم سوزوكي، فقرر الالتحاق بمدرسته.

كانت سياسة المعلِّم سوزوكي مع طلبة السنة الأولى الجدد أن يكون عامهم الأوَّل في المدرسة مكرَّسًا لخدمة طلبة السنوات الأعلى منهم، وفي اليوم الدراسيّ الأوَّل، جمعهم المعلم وبدأ في توزيع الأعمال عليهم، وكانت الأعمال تشمل طهي الطعام وغسيل الثياب وتنظيف المراحيض، الذي اختصَّ به يوكي.

كان يوكي مستغربًا، وبالطبع ممتعضًا، فكيف به، وهو المتفوِّق حامل الدكتوراه، ينظِّف المراحيض لأناس يعتقد أنَّهم دونه شأنًا، ممَّا دفعه لممارسة دور الرقيب والموجِّه لزملائه، وتحاشى تمامًا العمل بيديه، حتَّى مرَّ عامه الأوَّل، وحان وقت إعلان النتيجة، والمفاجأة تفسِّر كم كانت ثورة يوكي عارمة عندما علم أنَّه رسب، وسوف يعيد السنة الدراسيَّة من جديد، اندفع يوكي غاضبًا إلى غرفة المعلم سوزوكي، طالبًا منه تفسيرًا لرسوبه، خاصَّة وأنه يرى أنَّه أهدر سنة كاملة من عمره في أعمال لا طائل من ورائها كالطهي والغسيل وتنظيف المراحيض! كان المعلِّم سوزوكي يحتسي قدحًا من الشاي، فأشار إليه أن يجلس و يهدأ حتَّى يناقشا الأمر.

اعتدل المعلم في جلسته، وطلب من تلميذه إحضار إناء الشاي فأحضره، ثمَّ طلب منه أن يصبَّ له الشاي في القدح، فصبَّ يوكي الشاي حتَّى ملأ القدح، ثمَّ توقَّف عن صبِّ المزيد، حينها نظر له المعلم قائلًا: «أنا لم أطلب منك التوقُّف عن صبِّ الشاي، استمر في الصبِّ!». تعجَّب يوكي من طلب معلِّمه، لكنَّه واصل صبَّ الشاي حتَّى فاض وأصبح ينسكب خارج القدح، حينها أمره المعلم بالتوقُّف، التفت المعلِّم سوزوكي إلى الطالب يوكي، وقال له: «أنت عندما أتيت لمدرستي، كنت مثل هذه الكأس، معبئًا بمعلومات كثيرة، وتصوُّرات معيَّنة جعلتك تعتقد أنَّك تفهم كلَّ شيء وتجيد كلَّ شيء، لذلك لم تكن مستعدًّا لتلقِّي أي جديد، كنت فقط تحلِّل وتنتقد، وفشل

عقلك في استيعاب أي شيء جديد أو مختلف، فكان كلُّ جديد عليك يقع خارج عقلك واستيعابك، تمامًا مثل الشاي الذي وقع خارج هذه الكأس!».

«إذا أردت أن تكون ناجحًا ومتميِّزًا، أفرغ كأسك!».

هذه القصَّة لها جوانب تعليميَّة كثيرة، ونستفيد منها تقريبًا في مجالات كثيرة في حياتنا، فعند بداية أي مرحلة جديدة من الحياة، يجب تقبُّل الجديد، فلا يصيبنا غرور المعرفة، قد نجد شخصًا متعلِّمًا، حاصلًا على درجة عالية من الشهادات، ولكنَّه قليل التقارب من الناس، خبرته الحياتيَّة قليلة، فنجده تقريبًا وحيدًا مغرورًا، ويصل بالبعض إلى جنون العظمة، فيعتقد الكثيرون من هذا النوع أنَّهم بعلمهم، وخبراتهم، وعلاقاتهم يستطيعون النجاح بسهولة، وكم تكون صدمتهم عندما يصطدمون بحاجز الرفض الذي قد يبديه الآخرون من أوَّل وهلة، ثمَّ يسود لديهم اعتقاد أنَّهم فشلوا، ومن هذا المنطلق، ومن وجهة نظري، يجب على كلِّ إنسان إفراغ كأسه من حين لآخر؛ حتَّى يستمرَّ بكلِّ طاقته الإيجابيَّة على خطِّ النجاح، وبالتأكيد سوف نواجه الفشل مرَّات ومرَّات، ولكنَّ الأهم هو الصمود وإعادة الطاقة، لكي يكون هدفنا النجاح، وقيل إنَّ أديسون[1] قبل اختراعه للمصباح الكهربائيّ قد حاول أكثر من (٩٩٩) محاولة لهذا الاختراع العظيم، ولم يسمِّها محاولات فاشلة، بل أسماها تجارب لم تنجح.. ولنا هنا أن نتعلَّم من هذا المخترع الصبر والثقة بالنفس والتفاؤل، إذ قال: تعلمت (٩٩٩) طريقة لا تؤدي لصنع المصباح، والعالم أديسون هو مخترع أمريكيّ من أصل هولنديّ، ولِد في قرية ميلان بولاية أوهايو الأمريكيَّة، ولم يتعلَّم في مدارس الدولة إلَّا ثلاثة أشهر فقط، فقد وجده مدير المدرسة طفلًا بليدًا متخلِّفًا عقليًّا، فتولَّت أمُّه، هذه الأم الرائعة، تدريسه وتعليمه في البيت، وظهرت عبقريَّته في الاختراع وإقامة مشغله الخاص، حيث أظهر سيرته المدهشة كمخترع، ومن اختراعاته مسجِّلات الاقتراع، والبارق الطابع والهاتف

(1) https://www.stkfupm.com/forum/threads.

الناقل الفحمي، والميكرفون، والفونوغراف، وأعظم اختراعاته المصباح الكهربيّ، والكثير، وأنتج في السنوات الأخيرة من حياته الصور المتحرِّكة الناطقة، وعمل خلال الحرب العالميَّة الأولى لصالح الحكومة الأمريكيَّة، وقد سجَّل أديسون باسمه أكثر من ألف اختراع.

المبحث الثاني: إفراغ الكأس بحسب الطبِّ النفسيّ الحديث

نستلهم من كتاب الدكتور أحمد توفيق حجازى[1] (الإيحاء العقلّي)، وخصوصًا في موضوع (تربية العقل الباطن) بعض النصائح التي قد تنفعنا في هذا المجال، إذ يؤكِّد أنَّ للعقل البشريّ قدرات باطنيَّة خفيَّة، مستشهدًا بالآية الكريمة ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[2]، فيقول: «يرى علم النفس الحديث أنَّ للإنسان (٤٢) قدرة أو استعدادًا، ويذهب إلى تحديد مراكز لها في المخِّ، وفي الوجه، وفي مجموعة الجسم، وأنَّ خطوط هذا التقدير الجديد صحيحة في جملتها، فالعقل ينقسم الى مستوَيَين، هما: الشعور (العقل الواعي) الظاهر الذي ينطوي تحته جانب من الذكاء والمنطق والانتباه والتفكير والارادة، واللاشعور (العقل الباطن) ما وراء الوعي، ويختصُّ بالإحساس، وبجانب من الذكاء كالحدس والالهام والإيمان.. الخ، والعقل الباطن نفسه ينقسم إلى: ما دون الوعي، وما فوق الوعي، وكثير من الملكات التي كانت تضاف من قبل إلى الذكاء، تُلحَق الآن بالعقل الباطن، مثل الإلهام والمخيَّلة والذاكرة والعادة»[3].

إذًا يتحكَّم العقل الباطن في كثير من تصرُّفاتنا الظاهريَّة، فتكون هذه التصرُّفات ماهي إلَّا نتاج لكميَّة الذاكرة المخزونة بالعقل الباطن، التي تحرِّكها كلُّ ما مرَّ به الإنسان في مراحل حياته المختلفة، فإن عاش حياة كريمة عزيزة، أو حياة ذليلة حقيرة، سوف

(١) هو كاتب لبنانى عظيم ومشهور، له العديد من الكتب والمؤلَّفات، منها قوَّة الأنا، والسرطان، وموسوعه الطبِّ البديل.

(٢) سورة الذَّاريات: ٢١.

(٣) الإيحاء العقليّ، د. أحمد توفيق، قدرات باطنيَّة خفيَّة: ١٦.

تنعكس هذه الحياة على الواقع الذي يعيشه اليوم، ويذكر الدكتور أحمد توفيق أنَّ هذا العقل الباطن (الوعي الباطني) يحتاج إلى تربية[1]، لكي نروِّضه للمستوى الذي نريد أن نرتقي له، فيؤكِّد لنا الدكتور الحجازيّ من خلال هذه التربية أنَّنا مهما تعرَّضنا لضغوطات في حياتنا، فإنَّنا نستطيع أن نتخطَّاها بالترويض النفسيّ، وبالتدريب العقليّ، لما نحبُّ نحن، من خلال بعض التعليمات التي وردت في الكتاب، التي نصَّها: «إن أردت أن تصوغ مصيرك، يجب عليك أن تكوِّن لنفسك عادات صالحة، وهذه العادات تتكوَّن عن طريق اللاشعور، إذ في اللاشعور (العقل الباطن) تستقرُّ عاداتك في حالة كمون، واللاشعور هو الذي يكوِّن طبعك، فيجب أن يكون همَّك منصرفًا إليه إن أردت الرقيَّ بحياتك.

والشعور (العقل الظاهر) هو وسيلتك للتأثير في اللاشعور (العقل الباطن) عن طريق مراقبة نفسك، والإيحاء إليها، فالإيحاء الذاتيّ المستمر هو السبيل لتغيير حياتك اللاشعوريَّة الباطنيَّة التي تتحكَّم في مصيرك.

مثال: كي تنجح يجب أن تكون صحيح البنية، مبرأ من العيوب والرذائل والعادات السيئة، قويّ الإرادة، منظِّمًا فيه تفكيرك وعملك، ولتحقيق هذه الشروط ترى لا بدَّ لك من تعوُّد النهوض باكرًا، وعمل تدريبات بدنيَّة، والإقلاع عن تعاطي أي طعام أو شراب مسمِّم مهيِّج، وعدم الإقبال على أي عمل إلَّا عن رويَّة وبيِّنة كي تكون إنسانًا قويًّا تام السيطرة على نفسك، فعقلك الواعي الظاهر أو تفكيرك الشعوريّ هو الذي ينبغي أن يسيطر على انفعالاتك، تخيَّر من بين هذ الانفعالات واحدًا، وهو عدم الصبر مثلًا، وعول على ألَّا تتَّصف بهذه الصفة، فإنَّك تروح توحي إلى نفسك طول النهار، لاسيما في المناسبات المثيرة: أنا صبور.. أنا صبور.. أنا صبور.. الخ حتَّى إذا انتهى اليوم وراجعت حسابك، فوجدت أنَّك بدلًا من أن تفقد صبرك عشر مرَّات لم تفقده إلَّا

(١) الإيحاء العقليّ، د. أحمد توفيق، تربية الوعي الباطنيّ (العقل الباطن): ٢٠.

مرَّتين أو ثلاث مرَّات.. فبسلطان الشعور ستصل رويدًا رويدًا الى الإقلاع عن تلك العادة السيِّئة»[1].

المبحث الثالث: كيف نستلهم من حياة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام بتطبيق هذه النظريَّة؟

لا يخفى على أحد أنَّ العبادة الخالصة لله تعالى تُجلي القلوب وتزيل الهموم، وهي بالحقيقة أفضل علاج لأيِّ مرض أو ضغط نفسيّ، ففيها الراحة الأبديَّة في الدنيا والآخرة، وأقوال أهل البيت عليهم السلام بهذا المجال كثيرة، نذكر منها وصيَّة الإمام عليّ عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام: «**أحي قلبك بالموعظة، وأَمِته بالزهادة**»[2]، وقال عليه السلام: «**معاشرة ذوي الفضائل حياة القلوب**»[3]، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله؛ لـمَّا شكا إليه رجل قساوة قلبه: «**إذا أردت أن يلين قلبك فأطعم المسكين، وامسح رأس اليتيم**»[4]، وعنه صلى الله عليه وآله: «**عوِّدوا قلوبكم الرقَّة، وأكثروا من التفكُّر والبكاء من خشية الله**»[5].

وللعبادة في حياة السيِّدة فاطمة عليها السلام مكانةً مهمَّة جدًّا، تجلَّت بالسلوك العباديّ الذي اتَّخذته منهجًا يوميًّا لها (سلام الله عليها)، والذي يبيِّن لنا حجم العلاقة بينها وبين الله تعالى، إذ ترتبط بخالقها ارتباطًا مباشرًا، من خلال صلاتها ومناجاتها وخلوتها العباديَّة، فهي المتعبِّدة المتهجِّدة في الليالي، وكانت تهتمُّ بأوقات الدعاء، فلها دعاء بعد كلِّ فريضة، ومن كراماتها عليها السلام أنَّ الله تعالى أهداها تسبيحًا خاصًّا، عن طريق نبيِّ الرحمة صلى الله عليه وآله، وقصته عن عليّ عليه السلام، قال: «**أهدى بعض ملوك الأعاجم رقيقًا، فقلت لفاطمة: اذهبي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فاستخدميه خادمًا. فأتته فسألته ذلك**، وذكر الحديث

(١) الإيحاء العقليّ، د. أحمد توفيق، تربية الوعي الباطنيّ (العقل الباطن): ٢٠
(٢) نهج البلاغة، الإمام عليّ عليه السلام: ٣١.
(٣) غرر الحكم: ٩٧٦٩.
(٤) مشكاة الأنوار: ١٦٧.
(٥) أعلام الدين: ٣٦٥/ ٣٣.

بطوله، **فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله: يا فاطمة أُعطيك ما هو خير لك من خادم، ومن الدنيا بما فيها: تكبِّرين الله بعد كلِّ صلاة أربعًا وثلاثين تكبيرة، وتحمدين الله ثلاثًا وثلاثين تحميدة، وتسبِّحين الله ثلاثًا وثلاثين تسبيحة، ثمَّ تختمين ذلك بلا إله إلَّا الله، وذلك خير لك من الذي أردت، ومن الدنيا وما فيها**». فلزمت (صلوات الله عليها) هذا التسبيح بعد كلِّ صلاة، ونُسب إليها، وأفضل هديَّة لها إجلال وتعظيم للعبادة. وزيادةً على كلِّ سلوكها العباديّ في حياتها، فهي السيِّدة التي سلَّمت روحها لبارئها عز وجل، وهي تتعبَّد، فالعبادة هي الفعل الأخير الذي صدر عنها عليها السلام في الدنيا[1]، ولهذا التسبيح ثوابٌ عظيم عند الله تعالى، وهذا بحسب أقوال أهل البيت عليهم السلام، نذكر منها:

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**يا أبا هارون إنَّا نأمر صبياننا بتسبيح فاطمة عليها السلام، كما نأمرهم بالصلاة، فالزمه فإنَّه لم يلزمه عبدٌ فشَقِي**»[2]، وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «**ما عُبِد الله بشيء من التحميد أفضل من تسبيح فاطمة عليها السلام، ولو كان شيءٌ أفضل منه لنحله رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمة عليها السلام**»[3]، عن أبي خالد القمَّاط قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**تسبيح فاطمة عليها السلام في كلِّ يومٍ دِبر كلّ صلاة أحبُّ إليَّ من صلاة ألف ركعة في كلِّ يوم**»[4].

(١) بحار الأنوار، العلَّامة المجلسيّ: ٨٢/ ٣٣٦.
(٢) تهذيب الأحكام، الشيخ الطوسيّ: ٢/ ١٠٥.
(٣) تهذيب الأحكام، الشيخ الطوسيّ: ٢/ ١٠٥.
(٤) تهذيب الأحكام، الشيخ الطوسيّ: ٢/ ١٠٥.

نتائج البحث

وصلنا بحمد الله تعالى إلى نتائج مدروسة من خلال البحث المتواضع، فلو اتَّبعناها، وصلنا مع من حولنا إلى القمَّة، نذكر منها:

١. البحث المستمر والقراءة اليوميَّة، ولو بواقع (١٥) دقيقة يوميًّا، لتطوير الذات، والاطِّلاع على ماهيَّة النفس البشريَّة، وما الذي يؤثِّر في تكوينها وتشكيلها.

٢. إيجاد القدوة الصالحة، فالإنسان بطبيعته يحتاج قدوة يتَّبعها، وأكَّد لنا القرآن الكريم هذا المفهوم بقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[1]، وروي عن مجاهد قال: خرج النبيّ صلى الله عليه وآله، وهو آخذ بيد فاطمة عليها السلام، فقال: «**مَن عرف هذه فقد عرفها، ومَن لم يعرفها، فهي فاطمة بنت محمَّد، وهي بضعة منِّي، وهي قلبي وروحي التي بين جنبي، فمن آذاها فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله**»، إذًا هي قدوتنا بعد النبيّ صلى الله عليه وآله.

٣. التعرُّف على المنهج الصحيح لقدوتي الزَّهراء عليها السلام، وتطبيقه بعد دراسته دراسة مكثَّفة؛ لأنَّه بهذه الدراسة أنجو بنفسي ومجتمعي إلى طريق الصواب والنجاح الصحِّيّ والعلميّ والاجتماعيّ.

٤. يجب على كلِّ شخص إدارك تأثير التراكمات النفسيَّة على شخصيَّة الفرد، والتي قد تؤثِّر سلبًا أو إيجابًا، عليه أن يختار أن يخلق تراكمات من الحبِّ

(١) الأحزاب: ٢١.

والعطف والرحمة والتسامح، وبناء شخصيَّة المقابل بالثقة والصلابة، بحسب منهج القرآن والعترة، بدل أن نخلق جبلًا من الهمِّ والحزن والأسى، فينطوي الإنسان على نفسه، ويفشل في كلِّ مجالات حياته، أو قد تتجلَّى بتصرُّفات عدوانيَّة تصل إلى القتل والنهب والمجازر، كما في الأمثلة التي ذكرناها في الفصل الثاني، المبحث الثاني.

٥. أثبت الطبُّ النفسيّ الحديث أنَّ كلَّ شخص في هذه الدنيا لا بدَّ وأن تعرَّض للتعنيف، وكلًّا حسب درجته، منه تعنيف لفظيّ أو تعنيف جسديّ، وبالتالي تعرَّض للتراكمات، فالسؤال الأهـم: كيف أتخلَّص من هذه التراكمات، والجواب: بتطبيق نظريَّة إفراغ الكأس، راجع الفصل الثالث.

٦. إنَّ العبادة الخالصة لله تعالى تُجلي الهموم وتزيح الهمَّ، فعلينا الرجوع لله تعالى، فهو المنجي وهو المسدِّد، وخير قدوة هي السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، فقد اتَّخذها الأئمَّة الطاهرين عليهم السلام قدوة لهم، فقال الإمام صاحب العصر والزمان عجل الله فرجه الشريف: «ولي أُسوة بأمِّي فاطمة»[1]، كما ورد عن الإمام العسكريّ عليه السلام: «**نحن حُجج الله على الخلائق، وأُمُّنا فاطمة حجَّة الله علينا**»[2].

(١) الأسرار الفاطميَّة، الشيخ محمَّد فاضل المسعوديّ: ١٧.

(٢) الأسرار الفاطميَّة، الشيخ محمَّد فاضل المسعوديّ: ١٧.

المصادر والمراجع

الكتب:

* **القرآن الكريم.**

١. أعلام الدين في صفات المؤمنين، الشيخ الحسن بن أبي الحسن عليّ بن محمَّد الديلميّ، تحقيق: مؤسَّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث.

٢. الأسرار الفاطميَّة، الشيخ محمَّد فاضل المسعوديّ، تحقيق: السيِّد عادل العلويّ، ط٢، ١٤٢٠هـ.

٣. أنقذوا الطفل في داخلكم، تشارلز ويتفيلد، دار الفراشة، ٢٠٠٩م.

٤. الإيحاء العقليّ، د. أحمد توفيق، دار عالم الثقافة للنشر والتوزيع، ٢٠١٧م.

٥. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمَّة الأطهار، العلَّامة المجلسيّ، تحقيق: الشيخ عبد الزَّهراء العلويّ، دار الرضا، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٠٣هـ.

٦. تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم، التميميّ الآمديّ، عبد الواحد بن محمَّد، الإعلام الإسلاميّ، ط١.

٧. تهذيب الأحكام، الشيخ الطوسيّ، تحقيق: السيِّد حسن الموسويّ الخرسان، دار الكتب الإسلاميَّة.

٨. نهج البلاغة، الإمام عليّ عليه السلام، جمعه: الشريف الرضيّ، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

المواقع والمجلات

١. الموقع الإعلامي الرسمي، عربيّ ٢١:

https://arabi21.com/story/1134292.

٢. منتديات طلاب جامعة الملك فهد للبترول والمعادن:

https://www.stkfupm.com/forum/threads.

التسامح والآخر في منهج السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام

أ.د. حمديَّة صالح دلِّي الجبوريّ
جامعة القادسيَّة/ كليَّة التربية
م.د. عبد الكريم جعفر الكشفيّ
مدير عام تربية ديالى السابق

ملخَّص البحث

مِن خلال دراستنا منهج السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام، ومنهج أهل البيت عليهم السلام، نقرأ طبيعة التسامح والإيمان بالآخر، إذ قدَّموا عِبر التاريخ عطاءً (ثقافيًّا، وعقائديًّا، وفكريًا، وثقافيًّا) ثرًّا في هذا المجال؛ فهم امتداد لثقافة الرسول الإنسانية محمَّد صلى الله عليه وآله المؤمنة بالتسامح وقبول الآخر، وهم عدل القرآن والموعظة الحسنة، وهذا المنهج بحاجة إلى دراسة معمَّقة.

ولاختلاف الناس من حيث الطبيعة البشريَّة، وتباين وجهات النظر في القضايا (الدينيَّة، والاجتماعيَّة، والفكريَّة)؛ فهم بحاجة ماسَّة إلى التسامح والإيمان بالآخر، كقيمة إنسانيَّة وأخلاقيَّة وإسلاميَّة، وكَحَلٍّ عقلانيٍّ تفرضه الظروف، لإيجاد صيغ متينة للتعايش والإيمان بالآخر، بعيدًا عن روح التعصُّب والإلغاء والكراهية، أو الإقصاء والعنف ضدَّ المختلف، وأنَّ إسلامنا المحمَّدي يؤمن بالتسامح، ولا يلغي الآخر، ولا يحظر وجود المشارب الأخرى، بل وضع ضوابط وقوانين لحماية الآخر، والتعامل معه بروح التسامح والمحبَّة في إطار المجتمع المسلم.

لقد وجدنا في منهج الزَّهراء عليها السلام أنَّ للتسامح والآخر مكانة كبيرة، إذ دعت إلى التحلِّي بها، وأمر أتباعها بالتخلُّق بروح التسامح، وعدم إلغاء الآخر بين فئات المجتمع، وفي سيرة فاطمة الزَّهراء عليها السلام الشواهد والأمثلة التي تدلُّ على تسامحها وعفوها، وإيمانها بالآخر، وهذا ما سنتطرق إليه في بحثنا الذي دار حول محوَرَين، هما:

المحور الأوَّل: التسامح والآخر في منهج أهل البيت عليهم السلام.

المحور الثاني: التسامح والآخر في منهج السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام.

المحور الأوَّل

التسامح والآخر في منهج أهل البيت عليهم السلام

ظهر مفهوم التسامح والإيمان بالآخر بشكلٍ واضحٍ في نهاية القرن السابع عشر، بسبب الصراعات وتداعيات الحروب بين الأديان المذاهب والقوميَّات، والاتِّجاهات الفكريَّة المختلفة التي شهدتها العالم، وبشكلٍ خاصٍّ أوروبا، ومن أجل التوصُّل إلى رؤى وتفاهمات تضمن حريَّة حقوق الإنسان في تلك الحقبة، وأيضًا السماح بالتعبير وسماع الرأي الآخر بشكلٍ متساوٍ لجميع أفراد الشعب، وذلك بعد التخلُّص من سلطة الكنيسة، وإنهاء دور المؤسَّسة الدينيَّة، ودور رجل الدين في الحياة السياسيَّة. اكتسب مفهوم التسامح والإيمان بالآخر بُعدًا آخر متفهِّمًا للعقائد والأفكار التي تسمح بالتعايش السلميّ إيجابيًّا، وكان يراد بالرؤى والاتِّجاهات المختلفة بعيدًا عن الاحتراب والإقصاء، وعلى أساس شرعيَّة الآخر، وحريَّة التعبير عن آرائه وعقيدته[1].

المجتمعات الإسلاميَّة في الأغلب تنطوي على درجة عالية جدًّا من التوحُّد والتباين، تجلَّى ذلك في أنَّ العدد الكبير من الأجناس والأديان والأعراق والطوائف والمذاهب التي تؤمن بقيم توحيد المجتمعات الإسلاميَّة، وبدوافع إنسانيَّة نابعة من قيم هذه الاتِّجاهات وأعرافها ومعتقداتها وثقافاتها المختلفة والمتنوِّعة، وأنَّ أغلب أعضاء هذه الجماعات والمكوِّنات يسعون للعيش يومئذ وصولًا لتحقيق سلام دائم يلبِّي مصالحهم طموحاتهم، ومن المؤكد أن المشتركات التي تجمعهم هو أكثر من المشتركات

(١) مجموعة من الباحثين، التسامح ليس منَّة أو هبة، دار الهادي، بيروت، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص١٥٥.

التي تفرِّقهم، وأنَّ هدف أسلامنا المحمَّديّ ونهج أهل البيت، هو السعي إلى بناء مجتمعات تعلَّم فيها ثقافات الحوار والتنوُّع والتسامح والآخر، وأنَّ غياب هذه الثقافات كانت دائمًا السبب الرئيس في كثير من مشاكلنا الدينيَّة والاجتماعيَّة، وحتَّى السياسيَّة، لكنَّ إسلامنا المحمَّديّ وفكر أهل البيت عليهم السلام، إنماز بشموليَّة مستوعَبة وحركيَّة فاعلة، بحيث استطاعت التأثير على المجتمعات الإنسانيَّة والأحداث المتعاقبة بقوَّة، هذا المنطق يتماشى مع آفاق الحياة، ويبني ويحدِّد شؤون الدولة والمجتمع، ويحدِّد المواقف من كلِّ قضيَّة، ويقدِّم الحلول الناجعة لكلِّ مشكلة مطروحة في هذا السياق، وأنَّ التسامح والآخر يمثِّل قيمته في كونه إرهاصًا لإقامة مجتمع مدنيّ، والاعتراف بوجود الغير المخالف، فردًا كان أو جماعة، ويعترف بشرعيَّة ما لهذا الغير من وجهة نظر ذاتيَّة في الاعتقاد والتصُّور والممارسة، تخالف ما يرتئيه شكلًا ومضمونًا[1].

«إنَّ الحاجة إلى التسامح والآخر اليوم هو الذي جعل الحياة متجدِّدة، ولكي تسير الحياة في مساراتها الإنسانيَّة التاريخيَّة الطويلة، وتشابك الأهداف والمصالح، بين الشعوب الإنسانيَّة نتيجة الثورة المعلوماتيَّة والمعرفة، ووفرة المواصلات الاتِّصالات، جعل التسامح والتعايش والآخر من الضرورات التي لا بدَّ منها لتحقيق أهداف ومصالح المجتمعات دون استثناء، علمًا التسامح والإيمان الآخر يرتبط بحقوق الإنسان، ومساواة الجميع أمام القانون، والتنظيم وقبول رأي الأقليَّة، كما أنَّ التسامح والآخر هو العلاج الشافي للقضاء على التعصُّب، وقد جاء في تعريفهما: هما كلمة دارجة تستخدم للإشارة إلى الممارسات، الجماعيَّة كانت أم الفرديَّة، تقضي بنبذ التطرُّف أو ملاحقة كلِّ من يعتقد أو يتصرَّف بطريقة مخالفة قد لا يوافق عليها المرء»[2].

(١) محمَّد متولِّي الشعراويّ (ت١٤١٨هـ)، تفسير الشعراويّ، مطابع أخبار، بيروت، ١٩٩١م، ج٦، ص٧.

(٢) جميل صليبا، المعجم الفلسفيّ، دار الكتاب اللبنانيّ، بيروت، ٢٠٠٨م، ج١، ص٢٧١.

لقد كان إسلامنا المحمَّديّ وفكر اهل البيت عليهم السلام ومازال منهجًا للتسامح والآخر، وطريقًا للهداية العقيديَّة، مقابل منهج الظلم القهر، وهو النموذج الأمثل الذي أراده ربُّ العزَّة للعرب وللمسلمين والإنسانيَّة، كأسلوب بناء وتربية وتضامن وتعامل جماعيّ لاستيعاب العالم، وبه فضَّل الإنسان والإنسانيَّة على الآخرين، وإنَّ هذا النموذج ليس سلطة قهريَّة بديلة تستمدُّ شرعيَّتها بعيدًا عن الدين، لكن هي مجرَّد أفكار، الغرض منها استنهاض لمشاعر الرحمة والإيمان، والمودَّة والتسامح والآخر والتعايش عند كلِّ فرد، كما أنَّه هو روح وقابليَّة للتضحية الخالصة، ووعي وخليفة الله وبعضٌ من قبسه ونوره، ومن ثمَّ الفناء في سبيل الله تعالى[1].

إنَّ التسامح والآخر يعتبر اليوم من أكثر المواضيع أهميَّة وجدلًا، بسبب كثرة الخلافات الدينيَّة والفكريَّة والسياسيَّة، التي تسبَّبت في انتشار العنف والإرهاب الحروب، ولهذا نادى أهل البيت عليهم السلام إلى التسامح الدينيّ والإيمان بالآخر، وكان لهم تأثير واضح في المجتمعات الإنسانيَّة، وأنَّ غياب التسامح والإلغاء تسبَّب في مقتل آلاف من البشر في القرن المعاصر، لهذا صار التسامح والآخر حاجة ملحَّة، كما اقتضت حكمة الخالق في الإنسان إن يكون بحاجة الى الآخر، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ الحجرات: ١٣، فخلقنا الله شعوبًا وقبائل من أجل حاجة الإنسان إلى الإنسان، وأنَّ حاجة إنسانيَّة ملحَّة تتَّصف بها الأمم، كما أنَّ لجوء الإنسان إلى أهله وجيرانه وأقربائه وإلى بني وطنه، هي صمَّام الأمان الإنسانيّ، ومصدر الأُلفة والتَّآلف، وحبُّ التودُّد والرِّفقة والعِشرة[2].

(١) برهان غليون، الدولة والدين، المؤسَّسة العربيَّة للدارسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٩٣، ص٥٨.

(٢) ياسين حسين عيسى العامليّ، أصول التعايش مع الآخر، دار الهادي، بيروت، ٢٠٠٨م، ص١٢.

لقد كانت مدرسة أهل البيت عليهم السلام عنوانًا في التسامح والإيمان بالآخر، وحسن التعامل، وقد تجسَّد ذلك بشكل جليٍّ في فتح مكَّة، فلولا حكمة تعامل رسول الإنسانيَّة محمَّد صلى الله عليه وآله مع الأعداء ومخالفيه، لسفِكت دماء غزيرة ولأُخذت ثارات كبيرة، ولثارت فتن وعمَّ والهرج والمرج في مكَّة، لكن عندما قرأ الرسول محمَّد صلى الله عليه وآله، قلوب الصحابة ودوافعهم من أجل الانتقام، بادر انطلاقًا من المبادئ الإنسانيَّة الأخلاقيَّة الإسلاميَّة إلى رفع شعار «أدفع السيِّئة بالحَسَنة»، وقوله المشهور: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»، فبدَّل الشعار الانتقاميّ بشعار آخر نقيض، يفيض تسامحًا وإيمانًا بالأخ، وإحسانًا وراحةً وكرامةً هو: «**اليوم يوم المرحمة، اليوم أعزَّ اللهُ قريشًا**». لقد أحدث هذا الموقف تغييرًا عظيمًا في أفكار أهل مكَّة، فبدؤوا يدخلون إلى دين الرحمة والتسامح والآخر أفواجًا، ويعدُّ فتحًا عظيمًا في المعيار السياسيّ، وإنجازًا كبيرًا في قاموس الحركات الاجتماعيَّة في ذلك العصر المظلم(١).

أمَّا مواقف أسد الإسلام وقدِّيسه الإمام عليّ عليه السلام، في التسامح والآخر والعفو عن أعدائه وظالميه، فهي من الصعوبة أن تعدُّ أو تحصى، فقد سار على خطى ابن عمِّه رسول الإنسانيَّة محمَّد صلى الله عليه وآله، في هذا المجال، ومن كراماته وتسامحه وألطافه، عندما عفا عن جيش معاوية بن أبي سفيان عندما أحاطوا بشريعة الفرات في معركة صفِّين، ومنعوا جيش عليّ ابن أبي طالب عليه السلام من الماء بأمر كبار رجالات معاوية، وعندما سألهم الإمام عليّ عليه السلام أن يسوِّغوا لهم شرب الماء، قالوا: لا والله لا قطره حتَّى تموتوا ظمئًا، هذا الأمر دفع الإمام عليّ عليه السلام، أن يقوم بحملات كثيفة حتَّى أزالهم عن مواقعهم، وسيطر على ماء الفرات، بعد قتال شرس ومرير، وصار أصحاب معاوية لا ماء لهم، فقال أصحاب الإمام: يا أمير المؤمنين امنعهم حتَّى يموتوا عطشًا كما منعوك، وبذلك لا حاجة لك بالحرب، فقال عليه السلام: **لا والله لا أكافئهم بمثل فعلتهم، أفسحوا لهم عن بعض الشريعة، ففي حدِّ**

(١) محمَّد رضا الحسينيّ الجلاليّ، جهاد الإمام السجَّاد، مؤسَّسة دار الحديث، بيروت، ١٤١٤هـ، ص١٦٨.

السيف ما يكفي عن ذلك[1]. أي تسامح عظيم هذا، وإي إيمان بالآخر هذا، والذي قلَّ نظيره اليوم.

لقد جاء في منهج أهل البيت عليهم السلام وسلوكهم، كثير ممَّا يحثُّ على والتسامح والإيمان، فمنها بيان الآثار العظيمة للتسامح والإيمان بالآخر، في الدنيا والآخرة نذكر بإيجاز منها:

١. إنَّ التسامح والإيمان بالآخر يطول العمر، ويعزّ الإنسان، ويجعل له منزلة عند الله في الدنيا والآخـرة، لقول رسـول الإنسانية محمَّد صلى الله عليه وآله: «**من كثر عفوه مدَّ في عمره**»، وقوله: «**العفو لا يزيد العبد إلَّا عزًّا فاعفوا يعزّكم الله**»[2].

٢. يساعد التسامح والإيـمان بالآخر على بقاء مُلك الإنسان وديموته، كما يساعد على الوقاية من طوارق الحدثان من سوء الأقـدار، وكر الجديدين لقول الرسول صلى الله عليه وآله: «**تجـاوزوا عن عثرات الخاطئين يقيكم الله بذلك سوء الأقدار**»[3].

٣. يُشعرك التسامح والإيمان بالآخر بالسعادة وراحة البال، ويجلب لك محبَّة الآخرين، وينصرك على أعدائك ومبغضيك، فقد ورد عن الإمام الرضا عليه السلام قوله: «**ما التقت فئتان قطُّ إلَّا نُصر أعظمهما عفوًا**»[4].

---

(١) محمود قمر، التسامح والإخاء الإنسانيّ في الإسلام، ، عين للدراسات والبحوث الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، القاهرة، ٢٠١٣م، ص٨٥.

(٢) الميرزا النوريّ (ت ١٣٢٠هـ)، مستدرك الوسائل، مؤسَّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، بيروت، ١٩٨٧م، ج٧، ص١٦٠.

(٣) الشيخ محمَّد الريشهريّ، ميزان الحكمة، دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٢٢هـ، ج٣، ص٢٠١٣.

(٤) الكلينيّ، محمَّد بن يعقوب، أصول الكافي، المكتبة الإسلاميَّة، طهران، ١٩٦٨م، ج٢، ص١٠٨.

هذه روايات عن التسامح والآخر هي جامعة، لبيان مقام العفو والتسامح والآخر عند أهل البيت، والمتابع لسنَّتهم وأقوالهم سيرتهم عليهم السلام يجد ما هو أكثر وأكثر من ذلك، لاسيما ما ورد حول قصَّة الإمام السجَّاد عليه السلام مع تلك الجارية التي شجَّت رأسه، فقابل ذلك بالتدرُّج معها، وهي تتدرَّج بذكر الآيات، فمنحها كظم الغيظ، ثمَّ عفا عنها، ثمَّ أحسن إليها بإعتاقها، وهذا الأمر مصداقًا لقول الإمام الصادق عليه السلام: «**إنا أهل بيت مروَّتنا العفو عمَّن ظلمنا**»(١).

تميَّزت تجربة أهل البيت عليهم السلام، وخلافًا لبقيَّة الصحابة، بأنَّهم قد أسَّسوا لمبدأ التسامح والإيمان بالآخر، في واقع الحياة الاجتماعيَّة كجماعات وكفرد من أفراد المجتمع الإسلاميّ، فقد مارسوا فكرة التسامح والآخر في حياتهم اليوميَّة، وبشكلٍ أكثر عمقًا، وأسَّسوا مفهوم التسامح في أثناء حياتهم اليوميَّة، لتصبح تجربتهم هي المثال الملهم التي يحلم بها جميع أبناء المجتمع الإسلاميّ الإنسانيّ، والحق أنَّ مفردة التسامح والآخر لا تعبِّر بشكلٍ كافٍ وحقيقيّ عن جوهر المبادئ التي جاء بها القرآن الكريم، ونشرها جدُّهم الرسول محمَّد صلى الله عليه وآله، فالتسامح والآخر عند أهل البيت عليهم السلام، مبدأ لا يقتضي العدالة، يعبِّر في أحسن الأحوال عن التعايش والتسامح، وتقبُّل الآخر ضمن حدود مقبولة، وإنَّما هو ترسيخ للمساواة بين أبناء الجنس البشريّ، وأنَّ هذا المبدأ الأخلاقيّ الذي سار عليه أهل البيت عليهم السلام، يكشف لنا حدود المبادئ الإنسانيَّة التي كانوا يدعون لها ويطبِّقونها بأنفسهم، وهي مبادئ لا نجد لها ما يقابلها اليوم وللأسف، خصوصًا بين أبناء المجتمع الإسلاميّ المعاصر.

إنَّ كثيرًا من المسلمين اليوم وفي ظلِّ هيمنة دول الاستكبار العالميّ على مقاليد العالم، يتعاملون مع الأسف مع أبناء الأقليَّات الدينيَّة والقوميَّة الأخرى، من موقع

(١) محمَّد بن الحسن الحرُّ العاملّي (ت ١١٠٤هـ)، وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، المكتبة الإسلاميَّة، طهران، ١٩٧٧م، ج٨، ص٥٢٢.

الكره والحقد، وهذا الأمر لا يقرُّه الإسلام المحمَّديّ، الذي بُني أصلًا على قاعدة الاختلاف لا يفسد في الوِّد قضيَّة، وأنَّ قاعدة الاختلاف لا تنفي حقيقة اشتراك البشر في المبدأ الإنسانيّ العام، مصداقا لقول الإمام عليّ عليه السلام: «**الناس صنفان، أخٌ لكَ في الدين، أو نظيرٌ لكَ في الخلق**»(١).

(١) الشريف الرضيّ، نهج البلاغة، وهو مجموع ما اختاره من كلام سيِّدنا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، شرح الأستاذ الإمام الشيخ محمَّد عبده مفتي الديار المصريَّة سابقًا، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٧م، ج٣، ص٨٤.

المحور الثاني

التسامح والآخر في منهج السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام

إنَّ التسامح والإيمان بالآخر في منهج الإسلام المحمَّديّ يشكِّل ثقافة أصيلة متكاملة، لها أبعادها ومجالاتها وقيمها ومظاهرها، كما أنَّه أسَّس منهجيَّة متكاملة، من خلالها يتجذَّر هذا المفهوم، وسنعرض في هذا الورقة رؤى الزَّهراء للتسامح والآخر، من خلال تواضعها وإيمانها بالحريَّة والاختلاف، وبمكانة المرأة، والمساواة، والتعدُّديَّة، ومكانة الحوار، وحبُّ المختلف، ولقد كانت متسامحة رغم الجراحات التي أناخت برحالها في صحارى الانحراف القاحلة[1].

في سيرة سيِّدة نساء العالمين فاطمة الزَّهراء عليها السلام كثير من المواقف التي تدلُّ على تمسُّكها بروح التسامح والإيمان بالآخر، ويمكن أن نقف على بعض صور تسامحها، وإيمانها بالآخر، والذي له صور متعدِّدة أساسها المباديء المتجذِّرة في فكر أهل البيت عليهم السلام، وتصلح منطلقًا لإصلاحات دينيَّة لا نزال ننتظرها، ولخطاب ديني منفتح لا نزال نتطلع إليه[2].

وقد تجسَّدت صور التسامح والإيمان بالآخر عند فاطمة عليها السلام بعدَّة صور، أو محاور:

(١) الصديقة الزَّهراء بين المحنة والمقاومة، عبدالزهرة عثمان (الشهيد عزالدين سليم رحمه الله)، مؤسسة الشهيد عزالدين سليم الثقافية، بغداد، ٢٠٠٧م، ص٢٩.

(٢) جابر عصفور، ثقافتنا بين التعصب والتسامح، مجلة العربي، العدد ٥٦٧، شباط، ٢٠٠٦، ص٨٠.

١. احترام حقوق المرأة:

من أهمِّ أسس التسامح والإيمان بالآخر هو احترام حقوق المرأة، لقد كانت فاطمة الزَّهراء عليها السلام من أوائل النساء المؤمنات بحقوق المرأة، فقد ورد عنها أنَّها كانت ترتبط بعلاقات مع النساء، وكانت تحترم خادمتها فضَّة، وتعتبرها واحدة من أهل بيتها، وقد حفظت فضَّة القران في بيت فاطمة الزَّهراء عليها السلام، وعلاقتها الجيِّدة بها، وروي أنَّ الإمام عليّ قال فيها: «**اللهمَّ بارك لنا في فضَّتنا**»(١).

كما ورد عن أهل البيت عليهم السلام، أنَّهم كانوا يعظِّمون مكانة المرأة، وهذه هي قمَّة التسامح والإيمان بالآخر، فقد ورد عن الرسول صلى الله عليه وآله حبُّه للمرآة، وقال بحقِّ فاطمة الزَّهراء عليها السلام: «**مَن كان له انثى فلم يبدها ولم يهنها، ولم يؤثِر ولده عليها، أدخله الله الجنَّة**»(٢)، وأنَّها تُقدَّم على الذكور، بغضِّ النظر عن العمر، وفي الحديث النبويّ الشريف: «**مَن دَخَل السّوق، فاشترى تحفةً فحملها إلى عياله، كان كحامل صدقة إلى قومٍ محاويج، وليبدأ بالإناث قبل الذكور، فإنَّ مَن فرَّح ابنةً، فكأنَّما أعتق رقبةً من وُلد اسماعيل**»(٣).

إنَّ الإسلام المحمَّديّ لا يريد سلب حقوق المرأة، ودفن طاقتها أو غبط دورها في المجتمع، بل العكس، فقد أحترم المرأة وقدَّرها وجعل لها حقوقًا وعليها واجبات، فهو يريد للمرأة أن تأخذ طريقها بالاتِّجاه الصحيح، لتكون عنصرًا فعَّالًا في المجتمع، ولها دورها الإيجابيّ في بناء المجتمعات الإسلاميَّة، فالمرأة إذن عنصر أساس لم تكن يومًا خارج المجتمع أو على هامشه، بل هي سيِّدة من سادات المجتمع، لها دورها الأساس

(١) الثاقب فى المناقب، عماد الدين أبي جعفر محمَّد بن عليّ الطوسيّ المعروف بابن حمزة، تحقيق: نبيل رضا علوان، موسَّسة أنصاريان، قم المقدَّسة، ١٣٧٠هـ، ص٢٤٣.

(٢) مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، المحدِّث الحاج ميرزا حسين النوريّ الطبرسيّ، مؤسَّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم المقدَّسة، ١٩٨٧م، ج٥، ص١١٨.

(٣) الأمالي، الشيخ الصدوق أبي جعفر محمَّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمِّيّ (ت٣٨١هـ)، مؤسَّسة الأعلميّ للمطبوعات، بيروت، ٢٠٠٩م، ص٦٧٢.

والفعَّال. لقد كانت فاطمة الزَّهراء مركز عمل اجتماعيّ حسَّاس، وليس مجرَّد شيء في المجتمع، ويمكن للمرأة نشر ثقافة التسامح والإيمان بالآخر، ويمكن لها في النظام الإسلاميّ المشاركة الفعَّالة مع الرجال في بناء المجتمع الإسلاميّ[1].

٢. التضحية:

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[2]. توكِّد هذه الآية الكريمة على أهميَّة التضحية في إسلامنا المحمَّديّ، وأنهَّا أُنزلت في عليّ بن أبي طالب عليه السلام، حينما ضحَّى بنفسه لله ولرسوله ليلة اضطجع على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله، لـمَّا طلبته كفَّار قريش[3].

لقد تعلَّمت الزَّهراء عليها السلام من بعلها التضحية، ومن هذا الدرس العظيم ضحَّت عليها السلام بكلِّ ما تملك في سبيل إعلاء كلمة الاسلام، وكانت توفِّر الحنان والدفء، وتضمِّد جراح الإمام عليّ عليه السلام، بعد كلِّ معركة، وبهذا كانت تشترك روحيًّا في جهاد عليّ عليه السلام، وأنَّ تضحية وجهاد المرأة حسن التبعُّل، وكانت الزَّهراء عليها السلام تشدُّ على يد زوجها، وتمتدح شجاعته وتضحيته، وتمتصُّ آلامه، وتسكِّن جراحه، وتسرِّي عنه أتعابه، حتَّى قال في حقِّها: «ولقد كنت أنظر إليها فتنجلي عنِّي الغموم والأحزان بنظرتي إليها»[4]، وهذه هي التضحية العظيمة بعينها التي نشر ثقافة التسامح والإيمان بالآخر.

إنَّ من أعلى قيم التسامح والإيمان بالآخر هي التضحية في سبيل المؤمنين والناس، ولا يمكن لأي قضيَّة أن تنتصر إلَّا ويكون أصحابها مستعدِّين للتضحية من أجل

(١) المرأة في فكر الإمام الخمينيّ، مؤسَّسة روح الله للثقافة، قم المقدَّسة، ٢٠٠٥م، ص٤٤.
(٢) تفسير العيَّاشيّ، أبو النظر محمَّد بن مسعود عيَّاش السلميّ السمرقنديّ المعروف بالعيَّاشيّ (ت٣٢٠هـ)، مؤسَّسة بلاغ المبين، قم المقدَّسة، ٢٠٢١م، ج١، ص١٠١.
(٣) حياة أمير المؤمنين عليه السلام عن لسانه، محمَّد محمَّديان، موسَّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرِّسين بقم المشرَّفة، ١٤١٧هـ، ج١، ص١٠٦.
(٤) أعلام الهداية، المجمع العلميّ لأهل البيت، بيروت، ١٤٢٥هـ، ص٢٢٠.

المبادئ الإنسانيَّة السامية. إنَّ أدعياء التضحية أو أصحاب الحقِّ كثيرون، لكن المضحِّين وأصحاب المبادئ، وهم الأقلُّون، الذين تعلَّموا من الزَّهراء التضحية وحبّ الآخر، فضلًا عن أنَّها كانت ربيبة بيت النبوَّة العلم والتقى، ومعنيَّة بنشر القيم الأخلاقيَّة وثقافة التسامح والإيمان بالآخر، فضلًا عن اهتمامها بتربية أبنائها، ومن خدمتها في بيتها كأمِّ أيمن وفضَّة[1].

إنَّ طريق التضحية، وهو طريق المثل العليا، مليء بالأشواك، كما هو الطريق إلى الجنَّة، يقول الإمام الحسين بن عليّ عليه السلام: «**النَّاسُ عَبِيدُ الدُّنْيَا، وَالدِّينُ لَعِقٌ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، يَحُوطُونَهُ مَا دَرَّتْ مَعَايِشُهُمْ، فَإِذَا مُحِّصُوا بِالْبَلَاءِ قَلَّ الدَّيَّانُون**»[2].

٣. الإيثار:

قال تعالى في كتابه: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[3]. جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وآله، فشكى إليه الجوع، فبعثه رسول الله صلى الله عليه وآله، إلى بيوت أزواجه، فقلن: ما عندنا إلَّا الماء. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: **مَن لهذا الرجل الليلة؟** فقال عليّ بن أبي طالب عليه السلام: **أنا له يا رسول الله.**

وأتى فاطمة عليها السلام، فقال: **ما عندك يا ابنة رسول الله؟** فقالت: **ما عندنا إلَّا قوت الصِّبية لكنَّا نؤثر ضيفنا به.** فقال عليّ عليه السلام: **يا ابنة محمَّد نوِّمي الصِّبية، وأنا أطفئ المصباح للضيف.** ففعلت، وعشُّوه، فلمَّا أصبح عليّ عليه السلام غدا على رسول الله صلى الله عليه وآله، فأخبره الخبر، فلم يبرح حتَّى أنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ..﴾[4].

---

(١) بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، للعلَّامة الشيخ محمَّد باقر المجلسيّ (ت١١١١هـ)، طبعة مؤسَّسة الوفاء، بيروت، ١٤١٤هـ، ج٤٤، ص٣٨٢.

(٢) البرهان في تفسير القرآن، السيِّد هاشم بن سليمان الحسينيّ البحرانيّ (ت١١٠٧هـ/ ١٦٩٩م)، دار الهادي، بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ج٥، ص٣٣٩.

(٣) الحشر: ٩.

(٤) ميزان الحكمة، الشيخ محمَّد الريشهريّ، دار الحديث للطباعة والنشر، قم المقدَّسة، ١٤٢٢هـ،=

الإيثار لغةً هو اختيار الشيء وتقديمه على غيره، آثره عليه أي فضَّله، والإيثار هو تفضيل الآخرين على نفسك فيما أنت مُحتاج إليه، وللإيثار أهميَّة كبرى في الإسلام المحمَّديّ، كونه يضاهي العبادات التي يترتَّب عليها الأجر والثواب، فقد ورد عن الإمام عليّ عليه السلام قوله: «**أفضل السَّخاء الإيثار**»(١).

والايثار يوطِّد الروابط الاجتماعيَّة، وينشر ثقافة التسامح والإيمان بالآخر؛ لأنَّ به قضاء حوائج الناس وتفقُّد أحوالهم، فقد ورد بالأثر أنَّ الإمام الصادق عليه السلام قال: «**جاء مسكين إلى بيت الامام عليّ عليه السلام، فقال: رحمكم الله، أطعمونا ممَّا رزقكم الله، فقام عليّ عليه السلام فأعطاه ثلثها، ولم يلبث أن جاء يتيم، فقال اليتيم: رحمكم الله، فقام عليّ عليه السلام فأعطاه ثلثها، ثمَّ جاء أسير، فقال الأسير: رحمكم الله، فأعطاه عليّ عليه السلام الثلث الباقي، وما ذاقوها، فأنزل الله هذه الآية:** ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾(٢).

لا شكَّ أنَّ للإيثار منزلة خاصَّة في منظومة القيم الأخلاقيَّة في المجتمع البشريّ عمومًا، وفي الإسلام خصوصًا، فهو غاية المكارم التي لا تكتمل إلَّا به، وهو أعلى حالة الجود بالنفس، وبه يُستَرَقُّ الأحرار، وتُملكُ الرِّقاب، وهو زينة الزُّهد، وأفضل الاختيار، وأكَّد الإسلام المحمَّديّ على ضرورة التحلِّي به؛ لما له من كرامة ومنزلة في الدنيا والآخرة، فأي إنسان شاء أن يكون رجلًا عظيمًا، لا ينبغي له أنَّ يضحي ولا يحب ذاته ولا ما هو له، ولا ينبغي أن يحبّ إلَّا الخير سواء في نفسه أو في غيره، وإلَّا وقع من سلوكه في ألف خطيئة لا يمكن اجتنابها(٣).

=ج١، ص١٦.

(١) عيون الحكم والمواعظ، الشيخ كافي الدين أبي الحسن عليّ بن محمَّد الليثيّ الواسطيّ، الشيخ حسن الحسينيّ البيرجنديّ، دار الحديث، قم المقدَّسة، د.ت، ص٥١.

(٢) سورة التوبة، آية (١١١).

(٣) روح الدين الإسلاميّ، عفيف عبد الفتاح طباره، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٣م،=

لقد كانت الزَّهراء عليها السلام رائدة الإيثار والتسامح والإيمان بالآخر، وأحبَّت الناس وأحبُّوها، وضحَّت بالكثير من أجل الناس، وستبقى فاطمة الزَّهراء.. زهراء قمرًا في الأرض لأهل الأرض، ونجمة في السماء لأهل السماء، وتبقى صورة مضيئة متوقِّدة في الذهن، تضمحل القرون، وتبقى فاطمة حوريَّة عاشت في الأرض، ومعجزة السماء[1].

٤. حبُّ الناس تفضيل المصلحة العامَّة:

من أعلى مراحل التسامح والإيمان بالآخر هو حبُّ الآخر، تفضيل المصلحة العامَّة على الخاصَّة، وهذا يمثِّل فكر أهل البيت عليهم السلام، وهو الامتداد لكلِّ الرسالات السماويَّة الإنسانيَّة، وقد تحمَّلت فاطمة الزَّهراء عليها السلام مسؤوليَّة الحفاظ على بيضة الإسلام، وأسدلت سترًا عن حقِّها المسلوب، وقالت: «**فَلا يَنْكَفِئُ حَتَّى يَطَأَ صِماخَها بِأَخْمَصِهِ، وَيُخْمِدَ لَهَبَهَا بِسَيْفِهِ، مَكْدُودًا في ذاتِ الله، مُجْتَهِدًا في أَمْرِ الله**»، بعد أن عجزت عليها السلام عن استرداد حقِّها، واستشهدت عليها السلام بقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾[2]. لقد سكتت عن حقِّها تفضيلًا للمصلحة والحفاظ على بيضة الإسلام المحمَّديّ من الفتنة، ورسمت صورة واضحة لبيئة واضحة، وهي بيئة الجاهليَّة المقترنة بالانحراف.

لقد قدَّمت فاطمة الزَّهراء عليها السلام درسًا عظيمًا في الحفاظ عن بيضة الإسلام وسلامة الأمَّة، وأنَّ الأولويَّة يجب أن تكون لحفظ المصلحة والسلامة العامَّة، لكنَّها لم تنسَ أن تدافع عن حقِّها المستلب، وأنَّ المطالبة بالحقوق أمر مشروع، لكن يجب أن يتمَّ تحت سقف حفظ المصلحة العامَّة، أمَّا التنازل عن بعض الحقوق، فلا يؤدِّي ضياع حقوق المسلمين ومصالح الشعوب والأوطان؛ لأنَّ هناك أولويَّات مهمَّة تتطلَّبها المصلحة

=ص١٨٥.

(١) فاطمة حوريَّة الأرض، كمال السيِّد، مؤسَّسة أنصاريان للطباعة والنشر، قم٢٠٠٣م، ص١٠٥.

(٢) المائدة: ٦٤.

العامَّة، وهذا هو ما فعله عليّ بن أبي طالب بقوله: «**وكانَ الصَّبرُ عَلَيها أمثَلَ مِن أن يَتَفَرَّقَ المُسلِمونَ، وتُسفَكَ دِماؤُهُم**»[1]، وهذا الدرس العظيم في الحفاظ على المصلحة العامَّة، تعلَّمته فاطمة الزَّهراء عليها السلام من بعلها أمام المتَّقين عليّ عليه السلام.

إنَّ الحفاظ على المصلحة العامَّة هو درسٌ عظيم تعلَّمناه من أهل البيت عليهم السلام، ومن السَّلف الصالح، وإنَّ الأولويَّة الأخلاقيَّة يجب أن تكون لحبِّ الآخر حفظ مصلحة عامَّة الناس، وهذا واجب كلِّ إنسان، وكذلك واجب الشعوب المظلومة التي يجب أن تطالب بحقوقها، فالمطالبة بالحقوق هو مشروع إنسانيّ، يدخل تحت سقف حفظ المصلحة العامَّة، أمَّا إذا كان الدفاع عن المصلحة العامَّة فيه ضياع حقوق ومصالح الآخرين، أو مصالح الشعوب والأوطان، فإنَّ الشرع والعقل يرفضه قطعًا، وما نراه اليوم في بلاد المسلمين من سفكٍ للدماء دمارٍ وتخريبٍ، وفقدانٍ للأمن، وانتهاك للحرم، وتسليط الرعاع والمحتاجين على الأوطان والشعوب، ما هو إلَّا بسبب تغليب المصلحة الخاصَّة على المصلحة العامَّة، وأنَّ قاعدة المصالح والمفاسد التي قال بها الشيعة والمعتزلة، وتتلخَّص في أنَّ الله أمر بالفعل لمصلحة فيه تعود على فاعله، ونهى عنه لمفسدة كذلك، لا أنَّ الفعل يصبح صالحًا؛ لأنَّ الله أمر به، أمر به الله تعالى؛ لأنَّه صالح بالذَّات، ونهى عنه؛ لأنَّه قبيح بالذات[2].

٥. حبُّ الفقراء والمعدومين واحترامهم:

كانت فاطمة الزَّهراء عليها السلام تحبُّ الفقراء وتعطف عليهم، مثل أبوها وزوجها وذريَّتها المباركة، فهي الطاهرة الصابرة، والإنسانة تربَّت تربية صالحة في بيت النبوَّة والرسالة، حتَّى ورد أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله اشترى للزَّهراء عليها السلام ثوبًا عند زواجها من أمام المتَّقين الإمام عليّ عليه السلام، وقد لبسته عند زفافها، وفي الطريق جاء سائل، وطلب منها

(١) أدب فاطمة الزَّهراء عليها السلام، د. محمود البستانيّ، دار الحسنين، قم المقدَّسة، ١٤٨٢هـ، ص٥٢.
(٢) الشافي في الإمامة، الشريف المرتضى، مؤسَّسة الصادق، طهران، ١٤١٠هـ، ج٣، ص٢٣٤.

ثوبها، فخلعت ثوبها الجديد وأعطته إيَّاه، ولبست ثوبها القديم[1]. وهذه الحالة تمثِّل قمَّة حبِّ الفقراء والمساكين والمعدمين، والتي هي جزء من ثقافة التسامح والإيمان بالآخر.

تتجلَّى رحمة أهل البيت عليهم السلام في مواقفها النبيلة والعطوفة مع المعدومين الفقراء والضعفاء، فأهل البيت فكانوا يحسنون التعامل معهم، ويقابلوهم بالأدب والاحترام والمحبَّة، وقد سعت فاطمة الزَّهراء عليها السلام أن تكون العلاقة بينها بين الفقراء علاقة تكافل وتعاون، وقد فرض الإسلام المحمَّديّ على الأغنياء كفالة الفقراء، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنَّ الله فَرَضَ في أموالِ الأغنياء أقواتَ الفُقراء، فما جاع فقيرٌ إلَّا بما متِّع به غني، والله تعالى سائلهم عن ذلك**»[2]. وكانت عليها السلام تفتح نافذة الوعي للناس؛ لتبيِّن لهم أهميَّة التكافل مع الفقير، وكانت تحرص كلَّ الحرص على عدم إراقة ماء وجه الفقراء؛ لذلك اتَّبعت أسلوب التخفِّي في عطائها، وكانت تحثُّ على صيانة كرامة الفقراء والحفاظ على ماء وجوههم، وعدم الاستخفاف بهم، وكانت رائدة في حبِّها للفقراء حتَّى صارت الأسوة المثلى للبشريَّة، يحتذي بها أبناؤها في كلِّ زمانٍ ومكان، وفي كلِّ قولٍ وفعلٍ وتقرير[3].

٦. المساواة بين الرعيَّة:

لم تكن الزَّهراء عليها السلام تعامل خادمتها فضَّة كجارية مستعبدة، أو كأمرة خادمة لا مكانة لها، بل جسَّدت أزكى ألوان المعاملة الحسنة والإنسانيَّة، وكانت تتعامل معها تعاملًا بشريًّا مائزًا، وبشفافيَّة عالية، فصارت وكأنَّها واحدة من العائلة، تعطيها حقوقها بكلِّ احترامٍ وتقدير، حتَّى بلغ الأمر أن تقسِّم المسؤوليات البيتيَّة بينها وبين خادمتها

(١) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، العلامة الحلي، تحقيق آية الله حسن زاده الآملي، مؤسسة نشر الإسلامي، قم المقدسة، ١٤١٧هـ، ص١٨٥.

(٢) فاطمة الزَّهراء (ع)، السيد عبدالحسين دستغيب، مؤسسة دار الكتاب الجزائري للطباعة والنشر، قم ١٤٢٤هـ، ٥٨.

(٣) تصنيف نهج البلاغة، لبيب بيضون، مركز النشر مكتب الاعلام الاسلامي، قم المقدسة، ٢٠١٦م، ص٦٢٨.

فضَّة، فقد روي أنَّ سلمان المحمَّديّ رضي الله عنه قال: كانت فاطمة جالسة قدَّامها رحى تطحن بها الشعير، وعلى عمود الرحى دم سائل، والحسين جالس في ناحية الدار يتضوَّر من الجوع، فقلت: يا بنت رسول الله دبرت، وهذه فضة، فقالت: «**أوصاني رسول الله صلى الله عليه وآله أن تكون الخدمة لها يومًا، فكان يوم أمس خدمتها**»(١).

إنَّ الأصل في الإسلام وعند أهل البيت عليهم السلام هو المساواة بين أفراد البشر بالإنسانيَّة، وكان الإمام عليّ عليه السلام، وفاطمة الزَّهراء عليها السلام ترى أنَّ الناس جميعًا خُلِقوا من نفسٍ واحدةٍ، وهو آدم، وهم متساوون كأسنان المشط، وتفاضل في الفطرة، والكلُّ على الفطرة، وأنَّ الناس متساوون في الواجبات والحقوق، فالجميع أمام شريعة الله تعالى سواء، وأن شرع الله تسري على الغنيِّ والفقير، والحاكم والمحكوم، والكبير والصغير، ، والفاضل والمفضول.

لقد تعلمت الزَّهراء هذه المساواة من أبيها وبعلها، فقد ورد بالأثر أنَّ عليّ عليه السلام قال لخادمه قنبر: «**يا قنبر أنت شاب ولك شَرَه الشباب، وأنا استحي من ربِّي أن أتفضَّل عليك؛ لأنِّي سمعت رسول الله يقول: ألبسوهم ممَّا تلبسون، وأطعموهم ممَّا تطعمون**»(٢)، أيّ درس عظيم هذا تعلمته الزَّهراء من بعلها، وأيّ مساواة عظيمة هذه مفضية إلى التسامح والإيمان بالآخر .

٧. حسن الجوار:

عن الإمام الحسن المجتبىّ عليه السلام أنَّه قال: «**رأيت أمِّي فاطمة قائمة في محرابها ليلة الجمعة، فلم تزل راكعة ساجدة حتَّى انفلق عمود الصبح، سمعتها تدعو للمؤمنين والمؤمنات، وتسمِّيهم، وتكثر الدعاء لهم، ولا تدعو لنفسها بشيء، فقلت: يا أمَّاه لم**

(١) فاطمة الزَّهراء، عبد الفتاح عبد المقصود، المجمع العلميّ للتقريب بين المذاهب الإسلاميَّة، طهران، ٢٠٠٩م، ص٣٤١.

(٢) وسائل الشيعة، الفقيه المُحَدِّثِ الشيخُ مُحمَّدْ بن الحسن الحُرِّ العامليّ (ت١١٠٤هـ)، مؤسَّسة آل البيتِ لإحياء التُّراثِ، قم المقدَّسة، ١٤٠٩هـ، ج١٦، ص١٧.

تدعي لنفسك كما تدعين لغيرك؟ قالت: يا بنيَّ الجار قبل الدار»[1].

من اهم الروابط التي تساهم في نشر ثقافة التسامح والإيمان بالخير، هي رابطة حسن الجوار، فهي تأتي في المرتبة الثانية من بعد رابطة صلة الأرحام، إذ للجوار تأثير متبادل، فهو المحيط الاجتماعيّ الذي تعيش فيه الأسرة، وتنعكس على ممارساتها التربويَّة والسلوكيَّة، ولهذا نجد أنَّ الإسلام المحمَّديّ أبدى عناية خاصَّة برابطة حسن الجوار، وقد أكَّد القرآن الكريم عبادة الى الإحسان إلى الجار في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾[2]، وقد رسم أهل البيت عليهم السلام لنا منهجًا موضوعيًّا في العلاقات الاجتماعيَّة وخاصَّة الجار، الذي يجمعهم الإحسان المجتمعيّ والمرتبطين برابطة الجوار، وحقُّ الجوار هو بالعلاقة الإنسانيَّة المبنيَّة على المحبَّة البعيدة عن الانتماء العقائديّ والمذهبيّ، بل هو عنوان لمطلق الإنسان، مسلمًا كان أم غير مسلم، من الأهميَّة بمكان أن يعرف الإنسان جاره قبل داره، حتَّى لا يُبتلى بجار سوء، وعلينا الاقتداء بسيرة رسول الإنسانيَّة محمَّد صلى الله عليه وآله حين سأله أحدهم: أين يشتري داره؟ فقال له: «**الجار قبل الدار**»[3].

لقد وضعت الشريعة الإسلاميَّة ضوابط باحترام الجار على أساس صفتهم الإنسانيَّة بغضِّ النظر عن أجناسهم وألوانهم وأعراقهم، استنادا لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ (الإسراء: ٧٠)، كما أوجب الإسلام المحمَّديّ وجوب حرمة الجار وعدم إيذائهم، ووجوب الامتناع عن كلِّ ما من شأنه الإضرار بهم ماديًّا ومعنويًّا[4].

(١) علل الشرائع، الشيخ الصدوق أبو جعفر محمَّد بن عليّ ابن بابويه القمِّيّ (ت٣٨١هـ)، دار الحديث، منشورات المكتبة الحيدريَّة، النجف الأشرف، ١٩٦٣م، ص١٨١.

(٢) النساء: ٣٦.

(٣) الكلينيّ، محمَّد بن يعقوب بن إسحاق، الكافي، تحقيق وتصحيح: عليّ أكبر الغفاريّ، طهران، دار الكتب الإسلاميَّة، ١٤٠٧هـ، ج٨، ص٢٤.

(٤) الاشتراكيَّة والإسلام، مصطفى السباعيّ، الدار القوميَّة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٠م، ص١٣١.

لقد كان إيمان الزَّهراء عليها السلام بالتسامح والإيمان بالآخر من أجمل الصفات، وهذا الأمر من شيم الكرام، ودليلٌ على نبل الأخلاق وعلوِّها، فالمضحِّي لأجل المبدأ إنسان يملك كلَّ معاني الإنسانيَّة، وأنَّ الجود بالنفس أقصى غاية الجود، والتسامح والإيمان بالآخر هو أجلُّ وأسمى ما يُمكن أن يُقدِّمه الفرد في حياته لأجل مصلحة الآخرين وسعادتهم، فالتضحية هي معنى العطاء والتسامح والمحبَّة والإيمان بالآخر. إنَّ الزَّهراء عليها السلام لم تحارب من أجل منافعها، وحفظ قوافلها التجاريَّة، وأسواق الرَّقيق، وحرب العبوديَّة، وإنَّما كانت تحارب أعداء الإنسانيَّة، وحماة الجهل والظلام، وضدَّ الوجوه اللاإنسانيَّة[1].

(١) فاطمة هي فاطمة، د. عليّ شريعتي، ترجمة: هاجر النعمانّي، دار الكتاب الإسلاميّ، بيروت، ٢٠٠٢م، ص٢١٩.

النتائج والتوصيات

١. سيرة الزَّهراء عليها السلام كانت استمرارًا على نهج المدرسة المحمَّديَّة، والتي نجحت من خلال شخصيَّتها الفذَّة أن تنشر مبادئ التسامح والآخر.

٢. حفلت حياة الزَّهراء عليها السلام بأنواع من المعاناة الجهاد والصبر وتحمُّل جفاء أهل الجفاء، ورغم ذلك كان التسامح والإيمان بالآخر منهجها الواضح.

٣. كان فاطمة الزَّهراء عليها السلام محترمةً من أغلب معاصريها، ولها قاعدة شعبيَّة كبيرة، فكانت بحق امرأة التسامح والتعايش والإيمان بالآخر.

٤. اهتمت بمبدأ التكافل الاجتماعيّ والمساواة بين الرعيَّة دون أن يعلموا بها.

٥. نجحت فاطمة الزَّهراء عليها السلام من تأسيس حركة فكريَّة ثقافيَّة واسعة، تؤمن بالتسامح والآخر.

٦. استطاعت الزَّهراء عليها السلام أن تقف ضدَّ التيارات الالغائية والمنحرفة التي لم يرق لها نشر فكرة التسامح والآخر.

٧. اهتمَّت عليها السلام بشكل خاص بشؤون الفقراء والمستضعفين والعبيد، والنساء، وحسن الجوار والمصلحة، وغيرها، وهذا الأمر أكبر تجسيد للتسامح والآخر.

٨. حاربت عليها السلام الثقافات الإلغائيَّة والمنحرفة التي دخلت على الدولة الإسلاميَّة، وكانت متسامحة حتَّى مع أعدائها.

٩. وضعت عليها السلام مجموعة من الأهداف التي تؤمن بالتسامح والإيمان بالآخر، فكان أكبر مدرسة بالتسامح والإيمان بالآخر.

١٠. ندعو إلى دراسة مدرسة الزَّهراء عليها السلام، ومنهجها في التسامح والآخر.

١١. فكر ومنهج فاطمة الزَّهراء عليها السلام لا يمكن جمعه في بحث، فهي بحاجة إلى مزيد من الدراسات والبحوث.

نقش مدیریتی حضرت زهرا سلام الله علیها در توانمندسازی فرهنکی اجتماعی بانوان مسلمان (با تاکید بر خطبه فدکیه)

زهرا سلیمانی
دکتر زن تاریخ اسلام ومدرس گروه معارف دانشگاه علوم پزشکی/ أصفهان

چکیده

توانمندسازی، فرآیند قدرت بخشیدن به افراد است که در منظومه بلوغ هر تمدني جایگاه ویژه‌ای دارد. اقدامات حضرت زهرا علیها السلام در تحقق این فرایند در ساختار فردی، اجتماعی و سَبک رهبری منجر به استحکام قدرت اندیشه، ایجاد احساس خودکارآمدی و مهارت‌افزایی بانوان در مواجهه با چالش‌ها و تهدیدها گردید. بر این اساس، اقدامات، تأکیدات و نقش مدیریتی آن حضرت نقش مهمی در استمرار و تقویت بانوان مسلمان فراهم نمود. هدف این مقاله آن است تا با تحلیل نظری داده‌هاي تاریخي، پیش‌نیازها و فرآیند توانمندسازی در حوزه دانش مدیریت منابع انساني، عملکرد حضرت زهرا علیها السلام در توانمندسازي بانوان را به بحث گذارد. این مقاله به روش توصیفی تحلیلی با تکیه بر منابع اصلي تاریخی و حدیثی به این سوال پاسخ می‌دهد که زهرا علیها السلام چگونه در شرایط بحراني سیاسي، اجتماعي و فرهنگی زمینه های توانمندسازی بانوان را فراهم ساخت؟.

کلیدواژه‌ها: حضرت زهرا سلام الله علیها، بانوان مسلمان، جریان های فکری، توانمندسازی.

مقدمه

۱. بیان مسأله

امروزه همه دولت‌ها برای حفظ ثبات و تحقق اهداف خود، شهروندان را در رأس امور می‌دانند. اصلی ترین گروه هدف در توانمندسازی، شهروندان هستند. توانمندسازی شهروندان یا نیروی انسانی بی‌گمان یکی از مهم‌ترین وظایف دولت‌ها محسوب می‌شود. همچنین نقش تعیین‌کننده نیروی انسانی در توسعه یافتگی کشورها بر کسی پوشیده نیست؛ در واقع از میان عوامل تولید برای رشد و توسعه یعنی منابع طبیعی و ثروت خدادادی و نیروی انسانی و سرمایه و مدیریت و تکنولوژی، نیروی انسانی سهم اصلی را بر عهده دارد. لذا مهمترین و حیاتی‌ترین دارایی هر جامعه، نیروی انسانی آن است و لازمه دستیابی به اهداف جامعه، مدیریت مؤثر این منابع با ارزش است.

توانمندسازی، تکنیکی مؤثر جهت ارتقای بهره‌وری جامعه به وسیله بهره‌گیری از توان افراد است. این تکنیک ظرفیت‌های بالقوه‌ای برای بهره‌برداری از سرچشمه توانایی انسانی که از آن استفاده کامل نمی‌شود، در اختیار می‌گذارد[۱]. توانمندسازی، افراد را قادر می‌سازد تا در مواجهه با مشکلات و تهدیدها، از مقاومت و انعطاف‌پذیری بیشتری برخوردار باشند. لذا می‌تواند به عنوان منبعی که از آسیب‌پذیری نیروی انسانی جلوگیری نماید و بذر امید را در شرایط بحرانی از جمله انهدام سرمایه‌های

(۱) عبداللهی و نوباوه، توانمندسازی کارکنان کلید طلایی مدیریت منابع انسانی، ص۵۶.

اجتماعي و مالی و از بین رفتن زندگی انسانی، در دل آنان بکارد، مفید واقع گردد. تجهیز و آماده‌سازی منابع انسانی به عنوان محور جامعه برای مواجهه با تغییرات، از اهمیت ویژه برخوردار است و کلیه جوامع با هر نوع مأموریتی باید بیشترین سرمایه، وقت و برنامه را به پرورش انسان‌ها در ابعاد مختلف اختصاص دهند[1]؛ زیرا فقدان نیروی انسانی کارآمد- اگر چه ارکان دیگر به درستی طراحی و سازماندهی شده باشند- عدم کارایی و سستی سایر اجزا را به دنبال خواهد داشت. از راه‌های اصلی پیشرفت جامعه توجه به بانوان است؛ حضور بانوان به عنوان نیمی از منابع انسانی در عرصه‌های مختلف می‌تواند تأثیر قابل توجهی بر سرنوشت نظام اسلامی داشته باشد. توانمندسازی بانوان، در برگیرنده افزایش مشارکت، خودآگاهی و قابلیت اعتماد آنان است. توانمند کردن بانوان از طریق ارائه الگوها، آرمان‌ها و ارزش‌های اسلامی، علاوه بر حفظ ارزش معنوی و کرامت زن می‌تواند مصالح جامعه را صیانت کند. پس توانمند بودن و توانمند ساختن بانوان، جامعه را در رسیدن به پیشرفت کمک خواهد کرد و از طرف دیگر به ترقی و تعالی نیمه از جامعه نیز منجر می‌شود. لذا جامعه‌ای که ادعای رسیدن به توسعه و پیشرفت را دارد ناگزیر به توجه خاص به مقوله بانوان است.

معرفی الگوی زنانه در مدیریت توسط قرآن و روایات اسلامی از راهکارهای توانمندسازی بانوان محسوب می‌شود که چالش‌هایی چون تحقیر شخصیت زنان در اجتماع و نادیده انگاری مشارکت آنان را بهبود می‌بخشد. قرآن در آیه ۳۵ سوره احزاب، زن را نیمه حقیقی امت اسلامی معرفی می‌کند. قرآن با ذکر نمونه‌هایی از حضور بانوان در متن جامعه ضمن تأکید بر این حضور، آنان را تمجید نموده است؛ چنانکه بلقیس به عنوان یک زن در بالاترین مقام سرزمینی معرفی می‌شود که با

(۱) جعفرزاده، الگوی انتقالی در ارزیابی اثر بخش آموزش کارکنان، ص۴۴.

تدبیرش نه تنها قوم خویش را از جنگ نجات داد بلکه خود را به هدایت رساند[۱]؛ این زن از دیدگاه قرآن شایسته رهبری امت است. لزوم حیا و حریم در روابط اجتماعی با حرکت دختران شعیب به تصویر کشیده شده است[۲]؛ و در خانه فرعون، زنی را به تصویر می‌کشد که ناجی جان پیامبر خدا[۳] و منتقد اعمال همسرش در ظلم به جامعه[۴] است.

فرضیه مقاله آن است که حضرت زهـرا(س) در دوران پیامبر(ص) و پسا پیامبر(ص) و بنا به مقتضیات زمانه به عنوان بانویی مسلمان ضمن حفظ کرامت و عزت نفس، با حضور به موقع و قابل توجه در صحنه عمومی، مدلی از توانمندی یک بانوی مسلمان را ترسیم نمود که پیامد واکاوی سبک مدیریتی آن حضرت در این مورد، راهبرد توانمندسازی بانوان مسلمان را در پی دارد. مؤلفه‌های به کار گرفته شده از سوی آن حضرت متغیر مستقل و مقوله توانمندسازی متغیر وابسته است. روش پژوهش در این مقاله توصیفی تحلیلی می‌باشد. تأکید بر مبحث توانمندسازی از آن روست که این نظریه قابلیت‌ها و ظرفیت‌های مهمی در باروری فرهنگی و تمدن‌سازی دارد.

۲. پیشینه تحقیق

عموماً مقالات نگارش یافته درباره حضرت زهرا علیهاالسلام، مسایل مربوط به جامعه دوران آن حضرت را مورد بررسی قرار داده‌اند. لورا وچیا والیری[۵] –اسلام شناس ایتالیایی(۱۸۹۳/ ۱۹۸۹م)– نویسنده مقاله (فاطمه) در مجموعه (تصویر محمد

(۱) نمل: ۲۰– ۴۴
(۲) قصص: ۲۴
(۳) قصص: ۹
(۴) تحریم: ۱۱
(5) L.Veccia Vaglieri.

پیامبر اسلام و فاطمه در دایره المعارف تاریخ اسلام)، در دو بخش کلی به بررسی سیره حضرت زهرا(س) پرداخته است. تطابق روش او با محققی مانند لامنس[1] سبب شده به گونه‌ای جهت‌دار به وقایع تاریخ اسلام بپردازد. وی در معرفی فاطمه علیها السلام، به بررسی تاریخ تولد، ازدواج، شرایط خانه، همسرداری، فرزندان، بیماری و وفات فاطمه، ویژگی‌های اخلاقی و جسمانی و بُعد افسانه‌ای آن حضرت پرداخته که البته درج اطلاعات بدون سند یا اصولاً کم سند از ارزش مقاله وی کاسته است. همچنین نویسنده ترجیح داده تا وقایع تاریخی حیات پیامبر را محور قرار دهد و نقشی را که فاطمه علیهاالسلام در آن‌ها بر عهده داشته، گردآوری کند. مؤلف، نقش اجتماعی و سیاسی خاصی برای فاطمه(س) قائل نیست و بالتبع شخصیت ایشان را فاقد تأیرگذاری قابل توجه می‌داند. مجتبی عطارزاده در مقاله (فاطمه زهرا(س) الگوی حضور اجتماعی سیاسی زن مسلمان) سعی در ارایه الگویی از سیره فردی و اجتماعی حضرت زهرا(س) است و به فرایند توانمندسازی بانوان مسلمان، ضرورت این مهم و اصول و مبانی این فرایند، اشاره‌ای ننموده است. (چالش‌ها و راهکارهای توانمندسازی اجتماعی زنان در قرآن و روایات) عنوان مقاله‌ای است از زینب ثمنی، حمیدرضا حاجی‌بابایی و زهرا رضازاده عسکری؛ نویسندگان در این اثر تلاش خوبی به منظور استفاده از مصادر و پوشش محتوای مقاله به این روش نموده است؛ با این وجود همانگونه که از عنوان پیداست، فاقد توجه کامل به موضوعی است که نوشتار حاضر در پی تبیین آن است. فرزانه نیکو برش‌راد نویسنده مقاله (فاطمه زهرا(س) الگوی مبارزه سیاسی زن امروز) به مبارزات آن حضرت در احقاق حق خود پرداخته که البته فاقد استناددهی مناسب می‌باشد.

مقالات ذکر شده و نمونه‌های متعدد مشابه آن، به عنوان پیشینه‌ای در موضوع

(1) Lammens.

توانمندسازی بانوان، ضمن اینکه فاید رویکرد در تلفیق میان مباحث تاریخی و مدیریتی در مبحث توانمندسازی هستند؛ به این مسأله بی‌توجهند که ایجاد مهارت توانمندسازی بانوان مسلمان به عنوان یکی از اهداف مدیریتی و بلندمدت حضرت زهرا علیها السلام بوده است. در واقع موضوع نوشتار حاضر فاقد سابقه پژوهشی در میان مقالات نوشته شده است؛ زیرا تاکنون پژوهشی نگاشته نشده که توانمندسازی را به عنوان یکی از اهداف فاطمه علیها السلام در نظر گیرد و در پیوند میان مباحث مدیریتی و گزاره‌های تاریخی به منظور تبیین این امر تلاش کند.

۳.ضرورت و اهمیت پژوهش

توانمندسازی بانوان از جمله مؤلفه‌های مهم در پیشرفت جامعه است. بانوان باید در پی شیوه‌هایی برای رشد و تعالی ارزش‌های فکری- معنوی خود باشند. آن‌ها می‌توانند از طریق شرکت فعالانه در عرصه های مختلف، صلاحیت و شایستگی‌هایشان را پرورش دهند و موجب تثبیت هویت خود در جامعه شوند. آنچه در اندیشه‌ی توحیدی به عنوان تکلیف همسان بر عهده‌ی زنان و مردان مسلمان نهاده شده، مشارکت اجتماعی در جهت اعتلای کلمه‌ی توحید در جهان بشریت است. بر اساس پژوهش حاضر، حضرت زهرا علیها السلام یک شخصیت فراتاریخی است که عملکرد، مرجعیت فکری و شیوه مدیریتی ایشان در مواجهه با شرایط خاص زمانه می‌تواند راهبردهایی کاربردی برای توانمندسازی بانوان مسلمان در کلیه اعصار ارائه دهد.

ادبیات تحقیق

توانمندسازی[1]: به رغم اینکه در ادبیات مدیریت، واژه توانمندسازی بسیار وسیع بکار رفته است، ولی معنای شفافی از آن در دست نبوده و محققان، تعریف

(1) Empowermet.

مشترکی از آن ارائه نکرده‌اند[۱]. از دیدگاه بسیاری از صاحبنظران، توانمندسازی به معنی قدرت بخشیدن است؛ به این معنی که به افراد کمک کنیم تا احساس اعتماد به نفس خود را بهبود بخشند و نیز بر احساس ناتوانی و درماندگی خود چیره شوند و در افراد شوق کار و فعالیت ایجاد کنیم[۲]. تواناسازی دادن قدرت به افراد نیست بلکه آزاد کردن قدرت در افراد است[۳]. واکاوی مفهوم "توانمند سازی زنان"[۴]و تلاش برای طراحی الگوی مناسبی به منظور اجرایی ساختن آن، امری مهم، هم در حوزه توسعه اقتصادی و هم در حوزه عدالت اجتماعی محسوب می‌شود.

(1) Gerbich, Qualitative data analysis: An Introduction, p. 115.
(۲) دیوید ای. تن و کیم. اس، کمرون، تواناسازی و تفویض اختیار، ص۱۵.
(۳) جعفری قوشچی، راه‌های تواناسازی کارکنان، ص۳۷۰.
(4) Women Empowering.

فرایند توانمندسازی

توانمندسازی نیروی انسانی، یک فرایند است و از طریق آن فرهنگی توسعه می‌یابد که در آن آرمان‌ها، اهداف، مرزهای تصمیم‌گیری و نتایج تأثیرات و تلاشهای آنان در کل جامعه به اشتراک گذاشته می‌شود. توانمندسازی یک فرایند شدن است و باید به عنوان بخشی از فرهنگ جامعه به شمار آید. فرایند توانمندسازی مستلزم سه پیشنیاز اصلیِ ویژگی‌های حرفه‌ای، ساختار فرهنگی اجتماعی حمایتگر و سَبک رهبری می‌باشد. این پیش‌نیازها، بستر لازم برای موفقیت برنامه‌های توانمندسازی را فراهم می‌آورند.

الف) ویژگی‌های حرفه‌ای: این ویژگی‌ها به شرح زیر است:

۱. **آموزش**: آموزش بدین جهت ضروریست که افراد را قادر می‌سازد به نوعی دانش دست یافته تا به عنوان عضوی از یک تیم در تغییر سیستم، فعالانه ایفای نقش نمایند. این نوع آموزش شامل فنون رهبری، مهارتهای حل مشکل، ارتباطات و آماده‌سازی نیروی انسانی برای ایفای نقش‌های اجتماعی می‌باشد.

۲. **ارشاد**: اشاره به راهنمایی‌هایی دارد که افراد با تجربه به افراد کم تجربه انتقال می‌دهند تا موجبات آرامش و رشد آنان را فراهم نمایند و سودمندترین رفتارهای افراد با تجربه، رفتارهایی هستند که توان بالقوه افراد را شناسایی، به الگوسازی نقش‌ها و ارتقاء مسئولیت‌پذیری و فرصت‌ها کمک و بر اطمینان آنان بیفزاید.

ب) ساختار فرهنگی اجتماعی حمایتگر:

ساختار فرهنگی اجتماعی بر توانمندسازی افراد موثر است. در یک ساختار فرهنگی اجتماعی حمایتگر، برقراری اجماع، سبک‌های دموکراتیک، ارتباطات باز سازمانی و رسمیت کم در نهاد، مورد ترغیب و تشویق قرار می‌گیرد و بر روی مسائلی چون تیم‌سازی و جریان آزاد و تبادل اطلاعات تأکید می‌شود[1].

ج) سَبک رهبری:

سبک رهبریِ کارآمد جزء لاینفک ایجاد محیط پرورش نیروی انسانی توانمند است. مدیران مستبد به دلیل نگرش سنتی قدرت، هرگز قادر به توانمندسازی زیردستان نخواهند بود. می‌توان گفت فردی که مسئول بهبود عملکرد و مهارتهای فردی اعضای گروه است، فراهم کننده محیطی برای بهبود عملکرد گروهی است که یک مهارت اساسی به منظور ایجاد توانمندی محسوب می‌گردد.[2]

فرایند توانمندسازی نیز در دو مرحله مطرح است:

۱. ارائه اطلاعات: قرارگرفتن اطلاعات لازم در اختیار نیروی انسانی منجر به اعتماد به نفس و آگاهی آنان از وضعیت فعلی سازمان شده، موجب تحکیم فرهنگ و اعتماد و همدلی می‌شود.

۲. استقلال: باید در چارچوب مشخص باشد، تا از اتلاف انرژی بیهوده جلوگیری کند[3].

---

(۱) فرهنگی و اسکندری، معرفی توانمندسازی در مدیریت و الگوهای آن، ص۱۲۰.

(۲) اسکات و ژافه، توانا سازی کارکنان، ص۱۰۱.

(۳) نادری و دیگران، مفاهیم وراهبردهای توانمندسازی کارکنان، ص۱۲-۱۳.

حضرت زهرا (س) و توانمندسازی بانوان مسلمان

حضرت زهرا علیهاالسلام در بیستم جمادی الثانی سال دوم و به روایتی سال پنجم بعثت در مکه به دنیا آمد. مادرشان حضرت خدیجه و پدر بزرگوارش محمد(ص) بود[1]. رسول الله(ص) پیوسته در گفتار و رفتار خود زهرا علیهاالسلام را می‌ستود، از او تجلیل می‌نمود، وی را سیده زنان عالم و پاره تن خود معرفی می‌کرد و رضای او را رضای الهی و ناراحتی او را مایه خشم خداوند می‌دانست[2].

زهرا علیهاالسلام با وقوع حوادث پس از رحلت رسول الله(ص) یعنی کنار گذاشتن امیرالمؤمنین و غصب خلافت، هوشمندانه به مواجهه با تفکرات حاکم بر جوّ جامعه پرداخت و ضمن تأکید بر ضرورت حضور و آمادگی بانوان برای تأثیرگذاری در عرصه جامعه، از مهمترین اصل اسلامی یعنی ولایت که در قرآن با عنوان اکمال نعمت[3] یاد شده به دفاع برخاست. آن حضرت به عنوان دختر رهبر جامعه اسلامی، در بطن مسایل سیاسی جامعه و بحران‌ها تربیت یافته بود و لذا فعالانه وارد عرصه جامعه شد و به صورت یک سیاستمدار آگاه و مدافع حریم ولایت، رهبری دفاع از امامت را بر عهده گرفت. پذیرش رهبری امام علی علیه‌السلام از سوی یک زن هر چند با تفکر موجود جاهلی نسبت به زن تضاد داشت؛ اما از سوی دیگر، با پیش‌ذهنیت‌هایی که رسول الله(ص) درباره بانوان و شخص فاطمه علیها السلام در جامعه ایجاد کرده بود، کاملاً همخوانی داشت.

با توجه به عدم گزارش تاریخ در مورد حساسیت قریش نسبت به حضرت زهرا

(۱) کلینی، الکافی، ج۱، ص۴۵۷، اربلی، کشف الغمه فی معرفه الائمه، ج۱، ص۴۴۹، ابن ابی الثلج، تاریخ اهل البیت، ج۱، ص۷۱، قطب الدین راوندی، الخرائج والجرائح، ج۲، ص۵۲۴.

(۲) طبرسی، الاحتجاج، ج۲، ص۳۵۴، ابن بابویه، الامالی، ص۱۲۵، ۲۴.

(۳) مائده: ۳.

عليهاالسلام در آن برهه زمانی، هیچکس به اندازه آن حضرت، در مواجهه با حوادث پدید آمده پس از رحلت رسـول‌الله(ص)، مورد توجه نیست. ایشان طی هفتاد و پنج روز پس از رحلت رسـول‌الله(ص) حماسه تاریخی خود را آغاز نمود و یک تنه وارد میدان مواجهه با خلفا و جامعه اسلامی مدینه شد و عرصه را بر خلفا تنگ نموده، آنان را به اظهار ندامت واداشت و در برابر انحراف مردم از امامت و جدایی از احکام قرآن، انقلابی را در پیش گرفت که تاکنون ادامه دارد. واکاوی و نگرش موشکافانه نسبت به سیره مدیریتی حضرت زهرا در مواجهه با رویدادهای پس از رسول‌الله(ص)، مجموعه‌ای از آموزه‌های توانمندسازی بانوان را در مسایل فرهنگی و اجتماعی شامل می‌شود. بر اساس مدل فوق، پیش‌نیازها و فرایند توانمندسازی بانوان مسلمان در سیره مدیریتی حضرت زهرا(س) به شرح زیر است:

الف) پیش نیازهای توانمندسازی بانوان مسلمان:

۱. آموزش و ارشاد (اقتداربخشی به بانوان با تقویت منابع اندیشه‌ای و شناخت اولویت‌ها):

آموزش، افراد را قادر می‌سازد به نوعی دانش و شناخت کلی دست یافته تا به عنوان عضوی از یک جامعه، فعالانه ایفای نقش نمایند. آموزش، آماده‌سازی نیروی انسانی برای ایفای نقش‌های اجتماعی و فرهنگی و سیاسی است. از مسائل بنیادی مورد توجه رسول الله(ص) و اهل‌بیت آن حضرت تبیین تئوری امامت الهی است. آموزش صحیح این مسأله به تبیین جایگاه و موقعیت اجتماعی امامت الهی منجر شده و اقتدار جامعه اسلامی را در پی داشت. حضرت زهرا علیهاالسلام اطاعت از امامت و ولایت را موجب نظم یافتن ملت‌ها و رهایی امت از تفرقه معرفی نمود[۱] و با شناخت و بصیرت کافی نسبت به مقام و موقعیت امام علی(ع) و توانایی‌ها و

(۱) وَطاعَتَنا نِظامًا لِلْمِلَّةِ، وَاِما مَتَنا أَمانًا لِلْفُرْقَةِ. ابن طیفور، بلاغات النساء، ص۲۸.

شایستگی‌های ایشان، مصلحت جامعه نوپای اسلامی را در رهبری و امامت امام علی(ع) می‌دانست[1]؛ لذا تا آخرین لحظه دست از حمایت و دفاع از امام و مقام امامت بر نداشت.

اهتمام حضرت زهرا علیها السلام به طرح جایگزین برای وضعیت نامطلوب موجود، اوج آگاهی سیاسی اجتماعی یک زن را به نمایش می‌گذارد؛ آن جا که می‌فرماید: «به خدا سوگند، اگر پای در میان می‌نهادند و علی را بر کاری که رسول الله(ص) به عهده او نهاد، می‌گذاردند، آسان آسان ایشان را به راه راست می‌برد و حق هر یک را به دو می‌سپرد. چنانکه کسی زیان نبیند و هر کس میوه آنچه کشته است، بچیند. تشنگان عدالت از چشمه معدلت او سیر و زبونان در پناه صولت او دلیر می‌گشتند. اگر چنین می‌کردند درهای رحمت از زمین و آسمان به روی آنان می‌گشود. اما نکردند و به زودی خدا به کیفر آنچه کردند آنان را عذاب خواهد فرمود»[2]. حضرت زهرا(س) با هدف توانمندسازی این بُعد فکری بانوان مسلمان و تأکید بر حمایت و حضور به موقع، با ارشاد و آموزش و به منظور آگاه ساختن آنان از راه خطایی که پیموده‌اند، به تکلیف و رسالت الهی خویش عمل می کرد و برای روشن ساختن افکار عمومی از انحراف مسیر امامت، چهل شبانه روز دست حسنین علیهماالسلام را می گرفت و سوار بر مرکبی می شد و همراه با حضرت علی(ع) به درِ خانه مهاجر و انصار می رفت تا آن ها را نسبت به غفلتی که دچار آن شده اند و انحراف موجود، بیدار سازد و غافلان و راحت طلبان را هوشیار سازد[3]. زهرا(س)

(۱) رک: خطبه حضرت زهرا در جمع زنان مدینه؛ طبرسی، الاحتجاج ، ج۱، ص ۱۰۸-۱۰۹، ابن بابویه، معانی الاخبار، ص۳۵۴.

(۲) همان.

(۳) ابن قتیبه دینوری، الامامه و السیاسه، ج۱، ص۲۹، ابن ابی الحدید، شرح نهج البلاغه، ج۲، ص۵.

در حقیقت، با رایزنی سیاسی خود، با یاران رسول الله(ص) اتمام حجت می کرد و همچون دیپلماتی آگاه با حضور خویش سعی می‌نمود مسیر انحراف امّت و مسیر واقعی را که امامت علی علیه السلام است روشن سازد و نیز حریم امامت و ولایت را بی پیرایه ارائه دهد.

قرآن و روایات اسلامی با توجه به جایگاه مهم خانواده در تعالی فرد و جامعه، نقش زنان در همسری[۱] و مادری[۲] را بسیار ارزشمند معرفی نموده است و بنا بر تفسیر صحیحی از روایت (خیر مساجد النساء البیوت)[۳] تعالی زن از مبدأ خانه را، بهترین و مهمترین مسیر برای زنان تبیین نموده است. لذا به نظر می‌رسد در تزاحم میان وظایف زن در بعد خانوادگی و اجتماعی اولویت را به همسری و مادری می‌دهد. در عین حال با به تصویر کشیدن الگویی چون زهرا علیها السلام را ارائه می دهد که در تزاحم میان مادری و دفاع از استقرار حکومت اسلامی با فدا نمودن فرزند، جان خویش را هم به خطر انداخت؛ زیرا در حالی به دفاع پرداخت که علم به قصد دشمنان داشت[۴].

اهمیت آموزش، دانش و عشق به کمال در آن حضرت چنان بود که ارزش آن را بسان ارزش معنوی حسنین علیهما السلام معرفی نمود[۵]. آن حضرت با راهنمایی و دلگرمی سعی در افزایش ظرفیت روحی بانوان داشت؛ لذا آنان را به پایداری، صبر و استقامت دعوت مي‌نمود. آن حضرت با وجود مراجعات مکرر بانویی دانش طلب و علم دوست، با شوق و حلم پاسخ پرسش‌های وی را داد و در مقابل اظهار شرمساری

(۱) نساء: ۳۴.
(۲) احقاف: ۱۵.
(۳) ابن بابویه، من لا یحضره الفقیه، ج۱، ص۲۳۸ و۳۷۴.
(۴) بلاذری، انساب الاشراف، ج۱، ص۵۸۶.
(۵) حسن بن علی(ع)، تفسیر الامام العسکری، ص۳۴۰؛ طبری، دلائل الامامه، ص۶۶.

وی از مراجعه مکرر، آن را وظیفه آموزگاران دلسوز و راستین امت دانست که مورد عنایت ویژه خداوند قرار می‌گیرند[1]. اهتمام حضرت به این مقوله از آن روست که تقویت این بُعد تفکر بانوان و دسترسی آنان به آموزش‌های مورد نیاز باعث احساس تعلق، بهبود عملکرد و احساس مسئولیت آنان شده و توانمندی آنان را در پی دارد.

زهرا علیها السلام هنگام آموزش، حدود شرعی در مواجهه با نامحرمان را رعایت می کرد و معمولاً زنان به محضر آن حضرت می‌آمدند و پرسش‌های خود را مطرح می‌کردند مگر آنکه ضرورتی ایجاب می‌کرد که با مردان سخن گوید. ازاین رو وقتی برای مردان پرسشی پیش می‌آمد، همسران خود را نزد آن بانو فرستاده و سوألاتشان را مطرح می‌نمودند.[2] توجه به این اصل علاوه بر تأکید بر لزوم افزایش علم و سواد بانوان و توانمندی آنان در حوزه آموزش، رعایت حدود شرعی را برای آموزش به نامحرمان ضروری می‌داند.

۲. تأکید بر ساختار فرهنگی اجتماعی حمایتگر:

حضرت زهرا علیهاالسلام تحقق جامعه و بانوان توانمند را نیازمند وجود یک ساختار فرهنگی اجتماعی حمایتگر می‌دانست؛ لذا به عنوان رأس این ساختار حمایتگر، برای رفع نیاز پیروان خود همت می‌گماشت؛ اهدای فدک به حضرت زهرا علیهاالسلام ضمن پشتوانه قرآنی، تدبیری حکیمانه از سوی رسول الله(ص) جهت برقراری پشتوانه حکومتی برای خلافت امیر المؤمنین علیه‌السلام بود و از طرفی در اختیار قرار دادن ثروت در دست افراد صالح بود تا بدین وسیله از ثروتی مشروع در امور مشروع استفاده به عمل آید. لذا حضرت زهرا مصرّانه به دفاع از این حق پرداخت. وجود فدک در اختیار اهل‌بیت(ع) می‌توانست پشتوانه‌ای برای مسأله

(۱) انصاری، الموسوعه الکبری عن فاطمه الزهرا، ج۲۱، ص۱۶۲.
(۲) حسن بن علی(ع)، تفسیر الامام العسکری، ص۳۰۸ و۳۳۴.

ولایت باشد، همانطور که اموال خدیجه علیهاالسلام پشتوانه‌ای برای پیشرفت اسلام در آغاز نبوت رسول الله(ص) بود. بنابراین گرفتن این میراث برابر با منزوی کردن اهل‌بیت(ع) بود. زهرا علیهاالسلام هر ساله درآمد فدک را که به ۲۴ هزار دینار – و بنا بر نقلی ۷۰ هزار دینار– می‌رسید[۱] میان فقرای بنی‌هاشم و مهاجران و انصار تقسیم می‌کرد؛ به گونه‌ای که نزد او فقط مقداری در حد مخارج ضروری باقی می‌ماند.[۲] ایثار و بخشش زهرا علیهاالسلام در قالب اهدای گردنبند[۳] و لباس عروسی خود[۴] در همین ساختار قابل تحلیل است. حمایت‌های آن حضرت، یاران را در گرایش مذهبی سیاسی خود تثبیت می‌نمود و مانع جذب و مراجعه آنان به حکام وقت می‌گردید.

وصیت آن بانوی بزرگوار در مورد بوستان‌های هفتگانه خویش و وقف محصول آن برای کارهای شایسته و انسان‌دوستانه زیر نظر امیرالمؤمنین و دیگر فرزندان معصومش نیز گواهی دیگر بر سخاوت آن حضرت و لزوم توانمندسازی امت اسلام است.[۵] در واقع آن بانوی آزادی خواه بدور از قید و بندهای بیهوده و حرص و آز تجملات، از راهبران آزادمنشی بود که مسؤولیت اجتماعی خود را مبارزه با ستم معرفی نمود. آن حضرت هدف از مشارکت اجتماعی در تنظیم شئون مردم را تحقق عدالت در ابعاد سیاسی، اجتماعی، اقتصادی ، قضایی، حقوقی و تأمین آزادی و امنیت و حقوق مادی و معنوی جامعه می‌دانست.

از آنجا که در یک ساختار اجتماعی و فرهنگی پویا، اطلاعات کافی و منابع لازم

(۱) ابن طاووس، کشف المحجه لثمره المحجه، ص۱۲۴.
(۲) ابن شهر آشوب، مناقب آل ابیطالب، ج۱، ص۱۴۲.
(۳) طبری، بشاره المصطفی لشیعه المرتضی، ص۲۲۱.
(۴) مرعشی نجفی، شرح احقاق الحق، ج۱۰، ص۴۰۱.
(۵) انصاری، الموسوعه الکبری عن فاطمه الزهرا، ج۲۱، ص۴۹۲.

جهت انجام موفقیت‌آمیز کارها باید فراهم گردد[1]، زهرا علیهاالسلام درصدد حمایت و توجیه سیاسی، نظارت فکری و عقیدتی خواص شیعه و افزایش آگاهی آنان در برابر فشارها بود تا از عهده مسئولیت و وظایف دینی خود برآیند. حمایت فکری و عقیدتی بانوان، آنان را در مواجهه با شبهات بیمه می‌کرد. در روایتی به اختلاف دو زن (یکی با ایمان و دیگری معاند و مخالف اسلام) در یکی از مباحث دینی پرداخته شده که برای حل آن به حضور حضرت زهرا رسیدند. آن حضرت به زن با ایمان در گفتن دلایل و ادله‌ی خود کمک کرد تا بتواند مطالب حق خود را اثبات کند. او که توانست حرف خود را اثبات کند، از این جهت بسیار خوشحال شد. حضرت زهرا نیز خشنودی فرشتگان را از پیروزی آن زن بیشتر دانست، چنانکه غمگین شدن شیطان و پیروانش را نیز بیش از ناراحتی و حزن آن زن دیگر اعلام نمود[2]. زهرا علیها السلام از این طریق به آموزش روش استدلال و تحلیل به بانوان می‌پرداخت. در این مرحله، آن حضرت از طریق حمایت مالی، عقیدتی و فکری که بیانگر ارتباطات باز سازمانی و رسمیت کم در سازمان است، حمایت از استمرار توانمندسازی را منجر شد.

۳. سَبک رهبری:

رهبری هنر توانمندسازی دیگران است و مدیران توانمند به خوبی می‌دانند که توانمندی و موفقیت آن‌ها در گرو توانمندی و موفقیت گروه کاری آن‌هاست. چنین مدیرانی به عنوان یک هادی، تسهیل کننده و مربی عمل می‌کنند[3] و سعی می‌کنند نیروی انسانی را از وابستگی به سمت عدم وابستگی سوق دهند. جامعه اسلامی پس از رحلت رسول الله(ص) بویژه با رویکرد نه چندان مثبت مکتب خلفا در مورد

(1) Kane, Management role in shaping organizational culture, p. 1.

(۲) طبرسی، الاحتجاج، ج۱، ص۱۸، ح۱۵.

(۳) محمدی، توانمندسازی کارکنان: رویکردها و فرایندها، ص۱۹۸.

بانوان، به سمتی حرکت کرده بود که نخستین نشانه‌های انحراف آن در خصوص بانوان نمودار گشت و این در واقع بازتولید سنت های عصر جاهلیت بود. زهرا علیهاالسلام با حضور خویش ضمن به چالش گرفتن باورهای جاهلانه، در جهت بازیابی هویت انسانی جامعه مسلمانان گام در مسیری بس دشوار نهاد. آن حضرت که نظاره‌گر خروج رهبری امت از محور خود بود، امور مهم دیگر را نیز در معرض این آفت می‌دید و هر گونه ساکت ماندن را نوعی تأیید بر کارهای ناروا می‌دانست؛ چه بسا حتی برای همیشه کاری قانونی جلوه داده شود و نشانی بر حقانیت مدعیان خلافت تلقی گردد. بدین جهت حضرت زهرا در مواردی مخالفت خود را با اعتراض و انتقاد و شکوه با اثبات رساند.

حضرت زهرا به عنوان اولین آمر به معروف، معتقد به اصلاح در ارکان فکر دینی و نجات و تربیت انسان‌ها بود. ایشان هدایت و مدیریت نسل‌ها در همه زمان‌ها و مکان‌ها را هدف قرار داده بود. وی خطاب به حاضران در مسجد مدینه، آن‌ها را امنای الهی در همه سرزمین‌ها دانسته و رسالت پیام‌آوری و عمل به پیام الهی را مسوولیت همه بندگان خدا می‌داند؛ (شما ای بندگان خدا پرچمداران امر و نهی او، و حاملان دین و وحی او، و امین‌های خدا بر یکدیگر، و مبلّغان او بسوی امّت‌هایید زمامدار حق در میان شما بوده است)[1].

نگرش داهیانه و در عین حال نقادانه حضرت زهرا(س) به وضعیت پیرامونی خویش، از عمق دقت و وسواس آن بانو نسبت به مسائل و وضعیت جامعه حکایت می‌کند و به خوبی نشان می‌دهد که زنانگی تأثیری بر حساسیت اجتماعی نمی‌تواند داشته باشد. شیوه مبارزاتی زهرا(س) ارائه آگاهی و رشد سیاسی به زنان مهاجر و

(۱) «**اَنْتُمْ عِبادَ الله نُصُبُ اَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَحَمَلَةُ دينِهِ وَوَحْيِهِ، وَاُمَناءُ الله عَلى اَنْفُسِكُمْ، و بُلَغاؤُهُ اِلَى الأُمَمِ، زَعيمُ حَقٍّ لَهُ**». طبرسی، الاحتجاج، ج۱، ص۹۹، ابن طیفور، بلاغات النساء، ج۱، ص۲۶.

انصار بود که بدین‌وسیله آتش مبارزه در خانواده‌های مدینه وارد می‌شد. هدف آن حضرت گوشزد کردن مشکلاتی بود که در صورت انحراف در مسیر ولایی برای ایشان به وجود می‌آید؛ لذا آنان را به بصیرت دعوت می‌کرد. در واقع برافروخته نگاهداشتن شراره‌های ایمان، آماده نگاهداشتن افراد برای جانفشانی در راه مکتب اسلام و تحمل کمبودها، رسالت مهم زهرا علیهاالسلام در توانمندسازی بانوان مسلمان بود. این بانوی شکست‌ناپذیر که تمام تاب و توان خود را در دفاع از حریم ولایت و امامت قرار داده بود، به علت تلاش بیش از حد، ناتوان شد. به همین دلیل، پس از مدتی به علت بیماری و ضعف، در خانه بستری شد. وقتی خبر بیماری آن حضرت در مدینه پیچید، زنان مهاجر و انصار که وامدار تعلیم و تربیت فرهنگی آن حضرت بودند، برای عیادت وی به خانه‌اش آمدند. وقتی از حال آن حضرت جویا شدند، از حال بیمار خود و سقط فرزندش چیزی نگفت، بلکه در دفاع از حریم ولایت به سخن پرداخت و از سستی مردانشان سخن راند که حق را فراموش کرده‌اند و سکوت اختیار نموده‌اند. بازتاب سخنان دخت رسول الله(ص) به تدریج در درون خانه‌ها آتشی به پا کرد و انقلابی پرخروش را جهت داد که به حریم خانه‌ها راه یافت و نطفه‌های آگاهی و شعور را بارور کرد[1]. این سبک رهبری نشان می‌دهد اگر در جامعه‌ای به جای مشغول ساختن زنان به خود، کار فرهنگی و فکری صورت گیرد و به آنان آگاهی سیاسی داده شود، آنان بهتر می‌توانند در شناخت برای حق و حقیقت بدون تعارف‌های دیپلماتیک و بازی‌های سیاسی وارد صحنه شوند و به دفاع بپردازند. برای نمونه حضرت زهرا(س) در نقد مردمان زمانه خطاب به زنان عیادت کننده‌اش می‌گوید: «به خدا دنیای شما را دوست نمی‌دارم و از مردان شما بیزارم! درون و برونشان را آزمودم و از آنچه کردند ناخشنودم! چون تیغ زنگار خورده نابرّا

(۱) ابن طیفور، بلاغات النساء، ج۱، ص۳۲، جوهری، السقیفه والفدک، ج۱، ص۱۱۷، اربلی، کشف الغمه فی معرفه الائمه، ج۱، ص۴۹۲-۴۹۳.

و گاه پیش روی واپس گرا و خداوندان اندیشه‌های تیره و نـارسایند. خشم خدا را به خود خـریدند و در آتش دوزخ جاویدند»[۱].

در دوران پسا پیامبر(ص)، کنار نهادن بانوان از متن تحولات جامعه از یک سو و تمکین و پذیرش وضعیت موجود از سوی بانوان از طرف دیگر که بنا به مقتضیات اجتماعی و تنگناهای اقتصادی صورت می‌گرفت، باعث آن گردید که بانوان چونان قشر محروم و فراموش شده‌ای از جامعه تلقی گردند که حیات و زندگی خویش را وامدار توجه مردان هستند. این وضعیت زمینه انزوای هرچه بیشتر زنان از متن تحولات اجتماعی را فراهم آورده بود و هر اقدامی در جهت اصلاح این روند، نوعی بدعت تلقی شده و به شدت با آن برخورد می‌شد. حضور دخت رسول الله(ص) در راستای ارایه تصویر صحیح از زن مسلمان، ضرورت آمادگی برای تأثیرگذاری در عرصه عمومی را تبیین نمود.

از دیگر جنبه‌های سبک رهبریِ رشد آن است که مدیران نقش یک الگو را برای فردی که می‌خواهد او را به ثمر برساند بازی کند[۲]. سخنرانی هوشمندانه زهرا علیهاالسلام با تکیه بر غصب «فدک» توسط خلیفه وقت[۳]، به عنوان یک حربه سیاسی و فرصت مناسب دیگر برای به حرکت درآوردن اذهان جامعه در واکنش نسبت به غصب خلافت مسلّم حضرت علی(ع) قابل تأمل است. در حقیقت، آن بانو به نام غصب حق مالکیت خویش، به اعتراض سیاسی و استیضاح حاکم وقت پرداخت و به مسجد رفت و خطبه خواند[۴].

از دیگر ابزارهای لازم برای ساخت بانوانِ توانمندِ تمدن‌ساز، حیاست. آن

(۱) همان.

(2) Block, The Empowerred Manager, P. 36.

(۳) طبرسی، الاحتجاج، ج۱، ص۹۷-۱۰۹.

(۴) همان، دین پرور، فاطمه بر کرسی رهبری، ص۵۶-۶۱.

حضرت از افکار عمومی و تاریخ احساس مسؤولیت می‌نمود که در برابر ستم و خودکامگی و قانون‌شکنی خروش برندارد و روشنگری ننماید؛ چنانکه خطاب به امیرالمؤمنین فرمود يَا أَبَا الْحَسَنِ، إِنِّي لَأَسْتَحِي مِنْ إِلَهِي أَنْ أُكَلِّفَكَ مَا لَا تَقْدِرُ[1]؛ آن حضرت در اوج حیا و وقار بود اما از خجالت‌های نابجا و کم‌رویی‌های ناپسند و گسستن از مردم و دوری از روند جامعه خویش سخت بیگانه بود. لذا از بیان حقیقت و روشنگری و خروش و فریاد بجا از حق کشی نه می‌هراسد و نه احساس شرم می‌کند، بلکه با همه سانسور و اختناق و جوّسازی حکومت نیز ندای حق‌طلبی خویش را در تاریخ طنین‌افکن می‌سازد.[2] توجه بانوان مسلمان به این اصل که هم خویشتن را آراسته به گوهر عفاف و پاکدامنی کنند و هم در عرصه‌های گوناگون زندگی به عنوان یک انسان آراسته گردند و به پشتوانه معنویت و دانش و ایفای نقش‌های حساس در صحنه‌های اجتماعی و فرهنگی و ... جایگاه و حق خویش را مطالبه کنند و خود را گرفتار خجالت‌های منفی و حیای نکوهیده نگردانند، نکته‌ای است که به توانمندسازی آنان منجر می‌گردد. لذا حیا، توانمندسازی است، حیای خردمندانه نه حیای احمقانه و بی‌خردانه.

در ماجرای تقاضای شیخین برای دیدار با زهرا علیها السلام که با وساطت امیرالمومنین علیه السلام صورت پذیرفت، پاسخ زهرا علیها السلام به درخواست امیرالمؤمنین برای این ملاقات قابل توجه است؛ آنجا که فرمود خانه، خانه توست و این زنِ آزاده همسر توست آنچه صلاح می‌دانی عمل کن[3]. در این عبارت زهرا علیهاالسلام اشاره به آزادگی خود دارد و در عین حال اطاعت پذیری خود را از علی علیه‌السلام به عنوان همسر اعلام می‌دارد و این نکته قابل تأمل است که آزادگی

(۱) طوسی، الامالی، ص۶۱۶.
(۲) کرمی، سیره و سیمای ریحانه پیامبر، ص۵۴۶-۵۵۱.
(۳) العاملی، ماساه الزهراء، ج۱، ص۲۴۱.

و آزادی در اسلام ملازم با اطاعت از خدا و رسول خدا و در نظام مهم خانواده در کنار فرمانپذیری از شوهر است و لذا تفسیر برخی افراد از آزادی به عصیان و خودرأیی در واقع رهایی از قیود و رعایت قوانینِ خانوادگیِ مورد توجه اسلام است.

ب) فرآیند توانمندسازی بانوان مسلمان:

۱. ارائه اطلاعات (مهارت‌افزایی در مواجهه با چالش‌ها و تهدیدها):

اطلاعات، خون حیات توانمندسازی است[۱]. تسهیم اطلاعات به نیروی انسانی اجازه می‌دهد موقعیتهای نهاد خود را بشناسند و مورد تجزیه و تحلیل قرار دهند[۲]. هدف حضرت زهرا از منازعه، بدست آوردن فدک نبود. بلکه هدف روشنگری مردم نسبت به سردمداران و مدعیان حکومت اسلامی بود. هدف او پیشگیری از تحریف احکام الهی بود و همان طور که در خطبه خود که بزرگترین حمله علیه تجاوز حکومت وقت بود روی این مطلب تکیه کرد که حدیث ساختگی در مورد میراث پیامبران بر خلاف قرآن است و این حکام سعی در تحریف احکام الهی و ایراد اتهام و جعل اکاذیب بر رسول الله(ص) را دارند تا به مطامع خود برسند و آنجا مطرح فرمود که اکنون خلافت را همچون شتری مهار کرده و جهاز بر نهاده در اختیار گیر اما روز محشر بی‌گمان فرا خواهد رسید و بدان که دادگرترین حاکم، خداوند و دادخواه‌ترین کس محمد و بهترین میعادگاه، قیامت است و در آن روز تباه‌کاران به زبان در خواهند ماند[۳]. ایشان سعی در افشای شخصیت دینی حکام وقت داشت و می‌خواست چهره آنان را آنچنان که هست جلوه دهد؛ زیرا می‌دانست که اگر حکومت به آن شکل به نام اسلام ادامه یابد برای همیشه حکومت حق از بین می‌رود و اگر همان

(۱) آقایار، توانمندسازی روشی نوین در محیط رقابتی، ص۲۴-۵۶.
(۲) نادری و دیگران، مفاهیم وراهبردهای توانمندسازی کارکنان، ص۶۳.
(۳) طبرسی، الاحتجاج، ج۱، ص۱۰۳-۱۰۴.

حکومت هم سرنگون شود فتنه‌ای بپا خواهد شد که اصل اسلام را مورد تهدید قرار دهد. در چنین وضعی این بانو وظیفه داشت به نحوی قیام کند که نه حکومت سقوط کند و نه مردم دولت را حکومت قانونی اسلام بشناسند و لذا به مسجد رفت و در آنجا هدف خود را ضمن خطبه‌ای که در آن نفوذ کلام و شخصیت زهرا علیهاالسلام نمودار بود اعلام کرد و فرمود: **اَنْتُمْ عِبادَ الله نُصُبُ اَمْرِهِ وَ نَهْيِهِ، وَحَمَلَةُ دينِهِ وَوَحْيِهِ، وَاُمَناءُ الله عَلى اَنْفُسِكُمْ، وَبُلَغاؤُهُ اِلَى الْاُمَمِ، زَعيمُ حَقٍّ لَهُ**[1]؛ (ای بندگان خدا شما باید حق را بگویید و به سایر امم برسانید). زهرا علیهاالسلام می‌خواست که مردم، دین را از لحاظ قانون و مجرای الهی بشناسند و انحرافات متصدیان امر را به حساب دین و خدا و رسول خدا(ص) نگذارند و نشان داد که اگر حق را نمی‌توانید محقق کنید لااقل آن را جلوه‌گر کنید که اگر حق متجلّی شود خود راه را باز کرده و مخالفینش را نابود خواهد کرد.

حضرت زهرا علیها السلام در حرکت سیاسی، اجتماعی و فرهنگی خود به دفاع از حق ارث زن در اسلام می‌پردازد. این حرکت بر خلاف راه و رسم موجود در افکار جاهلی بود که در بعضی از اذهان رسوخ داشت. اما معیار برای فاطمه علیهاالسلام اسلام بود، نه عرف و سنت‌های جاهلی. آن حضرت توانست با حضور در مرکز اجتماع مسلمانان و معتبرترین مکان سیاسی، اجتماعی و فرهنگی- یعنی مسجد- به احتجاج با خلیفه وقت بپردازد و او را به استیضاح بکشاند و با رسوایی حاکمان وقت، تا حد زیادی مشروعیت آنان را زیر سوال بَرَد و رسم‌های جاهلیت را در هم بشکند و نشان دهد که هیچ حکومتی نمی‌تواند حق کسی را غصب کند، حتی اگر این حق متعلق به یک زن باشد.

خطبه حضرت زهرا علیهاالسلام نمایانگر بُعد علمی دقیق آن حضرت است. با

(۱) ابن طیفور، بلاغات النساء، ص۲۸ وطبرسی، الاحتجاج، ج۱، ص۹۹.

نگرشی اجمالی به این خطبه، ابعاد مختلف توحیدی، اعتقادی و کلامی آن را شناخته، تفاسیر بسیار عمیقی را که آن حضرت نسبت به این مسایل بازگو کرده اند، در می‌یابیم. تأمل در خطبه، گویای شخصیت آگاه و بصیر زهرا علیهاالسلام نسبت به روند تکاملی جامعه است؛ شخصیتی که به فرهنگ جاهلیت قبل از اسلام و فرهنگ جوامع دیگر واقف است. از طرفی دیگر او را یک روانشناس و مصلح اجتماعی می‌یابیم که به روحیات و افکار افراد آگاهی کامل داشته، نقاط ضعف و قوت آنان را کاملاً می‌شناخته است. از جهت دیگر در مسایل سیاسی او را سیاستمداری آگاه به زمان می‌یابیم که به تمامی توطئه‌ها و دسیسه‌های منافقان و کفار و مشرکان آشنا بوده، به افشای آن می‌پرداخته و حقایق را بازگو می‌کرده و با منطق محکم و استدلال، خواستار بازگشت حق به صاحب اصلی آن بوده است؛ حتی در بستر بیماری و در زمان عیادت زنان مدینه از ایشان، مسایل سیاسی را عمیقاً برای آنان باز کرده و به معرفی چهره فرصت‌طلبان و آنانی که مبادی اسلام را به سخره گرفته‌اند پرداخته و حق و باطل را روشن ساخته است. نکته قابل توجه اینکه حضرت با ذکر ماهیت مردان برای بانوان آن‌ها، می‌خواست تا این بانوان پیام حضرت را به مردانشان برسانند و اشتباهاتشان را به آنان متذکر شوند. لذا حضرت به جای اینکه از درد جسمانی خود سخن گوید، از آلام درونی و رنج های روحی و پیشامدهای ناگوار جامعه اسلامی سخن راند. در این مرحله اطلاعات و منابع مورد نیاز برای انجام وظایف فراهم می‌گردد و اجازه می‌دهد تا آنان در صورت نیاز تغییرات رویه‌ای را انجام دهند. نیروی انسانی اگر اطلاعـــات کافی نداشته باشند قادر به تصمیم‌گیری صحیح نیستند و توانایی مواجهه با حوادث و چالش‌ها را نخواهند داشت. لذا آن حضرت با تقویت این ویژگی از طریق ارائه اطلاعات و ایجاد بصیرت، به مهارت‌افزایی جامعه بویژه بانوان عمق بخشید.

۲. استقلال (تقویت احساس خودکارآمدی در بانوان)

تلاش حضرت زهرا علیهاالسلام در جلوگیری از نهادینه شدن باورهای غلطی چون ضرورت حضور زن در خانه و اختصاص مدیریت عرصه عمومی به مردان از سوی سردمداران پس از رسول الله(ص)، نمونه‌ای از عملیات کنترل اجتماعی است. آن حضرت با حضور اجتماعی خود در مسجد درباره ماجرای فدک خط بطلانی بر این انگاره‌ها کشید و در عرصه عمومی به دفاع از ولایت و حق ارث زن در اسلام پرداخت[۱].

از آنجا که از مهمترین پایه‌های لازم برای استواری نظام خانواده اقتصاد سالم و پویا می‌باشد، حضرت زهرا علیهاالسلام در توانمندسازی بُعد اقتصادی خانواده نیز نقش داشت. آن حضرت علاوه بر تربیت فرزندان و انجام امور عادی زندگی، بافندگی می‌نماید تا از محل درآمد آن کمک هزینه‌ای برای زندگی فراهم شود.[۲] این مسأله نشان از لزوم توجه بانوان به حرفه‌های هنری است. اهمیت این تأکید علاوه بر آثار مثبت روانی در روحیه افراد خانواده و کمک به بنیه اقتصادی خانواده، به توانمندسازی اقتصادی و استقلال اقتصادی بانوان نیز منجر می‌شود.

(۱) ابن طیفور، بلاغات النساء، ص ۲۸ – ۳۰.
(۲) ابن بابویه، الامالی، ص ۲۵۷.

نتیجه

هدف بلند مدت توانمندسازی، بهبود مستمر در عملکرد کل نهاد و هدف کوتاه مدت آن بکارگیری توانایی‌های موجود در اعضای آن است. تلاش زهرا علیها السلام در این دوره دفاع از امامت امیرالمؤمنین علیه‌السلام، تثبیت نظام امامت و خط رسالت از نظر اجتماعی، فرهنگی و سیاسی و تلاش در حاکمیت روح قرآن و سنت نبوی و پرهیز از رجعت به جاهلیت بود. دیدار آن حضرت با زنان، حکام زمانه و صاحبان نفوذ در همین راستا صورت پذیرفت.

اقتدار بخشی به بانوان با تقویت منابع قدرت نرم اندیشه‌ای از طریق آگاهی‌بخشی در مورد نظریه امامت الهی، تقویت احساس خودکارآمدی با حمایت سیاسی، عقیدتی و مالی و مهارت‌افزایی بانوان در مواجهه با چالش‌ها، تهدیدها و شبهات از جمله موارد توانمندسازی است. در این میان سَبک و نوع رهبری را می‌توان به عنوان یک عامل مهم در توانمندسازی در نظر گرفت. وظیفه رهبران فراهم ساختن تسهیلاتی جهت پیاده‌سازی روند توانمندسازی است. این استراتژی‌ها به طور مستقیم یا غیرمستقیم موجب تغییر نگرش و رفتار نیروی انسانی می‌شوند و زمینه را برای تربیت نیروی متخصص و توانمند مهیا می‌سازد. حضرت زهرا علیهاالسلام با آگاهی نسبت به ظرفیت بالقوه بانوان به عنوان مهمترین منبع، در محیطی که نگاه تقلیل گرایانه نسبت به این گروه تفکر غالب آن بود، توانست با رهبری هوشمندانه این رُکن انسان‌ساز و تمدن ساز، برنامه‌های خود را اجرا و بانوان را نسبت به وظیفه حساس

و خطیرشان در جامعه گوشزد و آماده کند. بر این اساس بررسی سیره آن حضرت می‌تواند راهبردهایی دقیق و علمی در حوزه توانمندسازی جامعه بانوان در اختیار پژوهشگران و سیاست‌گذاران فرهنگی و اجتماعی قرار دهد.

منابع

* قرآن کریم.

۱. آقایار، سیروس، توانمندسازی روشی نوین در محیط رقابتی، مجله تدبیر، شماره ۱۳۵، ۱۳۸۲.

۲. ابن‌شهرآشوب، محمد، مناقب آل ابی‌طالب، قم، علامه، ۱۳۷۹.

۳. اربلی، علی‌بن‌عیسی، کشف الغمه فی معرفه الائمه، تحقیق هاشم رسولی محلاتی، تبریز، بنی هاشمی، ۱۳۸۱.

۴. ابن ابی الثلج بغدادی، محمد بن احمد، تاریخ اهل البیت، نشر آل البیت، قم، ۱۴۱۰ق.

۵. ابن طیفور، احمدبن ابی طاهر، بلاغات النساء، قم، نشر الشریف الرضی، بی تا، چ اول.

۶. ابن ابی الحدید، شرح نهج البلاغه، ترجمه و شرح محمّد ابوالفضل ابراهیم، بیروت، دارالاحیاء التراث العربی، ۱۳۸۵ق.

۷. ابن‌بابویه، محمدبن علی، معانی الاخبار، تحقیق علی اکبر غفاری، قم، دفتر انتشارات اسلامی وابسته به جامعه مدرسین حوزه علمیه قم، ۱۴۰۳ق، چ اول.

۸. ------، من لا یحضره الفقیه، تحقیق علی اکبر غفاری، قم، دفتر انتشارات اسلامی وابسته به جامعه مدرسین حوزه علمیه قم، ۱۴۱۳ق، چ دوم.

۹. ابن‌بابویه، محمدبن علی، الامالی، تهران، نشر کتابچی، ۱۳۷۶ش، چ ششم.
۱۰. ابن طاووس، سید رضی الدین، کشف المحجه لثمره المحجه، نجف، حیدریه، ۱۳۷۰ق.
۱۱. انصاری زنجانی خوئینی، اسماعیل، الموسوعه الکبری عن فاطمه الزهرا، قم، نشر دلیل ما، ۱۴۲۸ ق، چ اول.
۱۲. اسکات، سینیتا و ژافه، دنیس، توانا سازی کارکنان، ترجمه مهدی ایران نژاد پاریزی، کرج، انتشارات موسسه تحقیقات و آموزش مدیریت، ۱۳۷۵.
۱۳. بلاذری، احمد بن یحیی، انساب الاشراف، تحقیق سهیل زکار و ریاض زرکلی، بیروت، دارالفکر، ۱۴۱۷، ط الاولی.
۱۴. ابن قتیبه دینوری، ابومحمد عبدالله، الامامه و السیاسه، بیروت، دارالاضواء، ۱۴۱۰، ط الاولی.
۱۵. جعفرزاده، رحیم، الگوی انتقالی در ارزیابی اثر بخش آموزش کارکنان، ماهنامه مدیریت تدبیر، شماره ۸۶، ۱۳۸۶.
۱۶. جعفری قوشچی، بهزاد، راه های توانا سازی کارکنان، ماهنامه مدیریت تدبیر، شماره ۱۱۹، دی ۱۳۸۰.
۱۷. جوهری بصری، احمد، السقیفه و الفدک، تهران، مکتبه نینوی الحدیثه، بی تا.
۱۸. حسن‌بن‌علی، امام یازدهم، التفسیر المنسوب الی الامام الحسن العسکری، قم، مدرسه الامام المهدی(عج)، ۱۴۰۹.
۱۹. دیوید ای/ تن و کیم/ اس. کمرون. (توانا سازی و تفویض اختیار)، ترجمه دکتر بدرالدین اورعی یزدانی، تهران، موسسه تحقیقات و آموزش مدیریت، ۱۳۸۳.

۲۰. دین پرور، سیدجمال الدین، فاطمه بر کرسی رهبری، تهران، روزبه، ۱۳۵۵.

۲۱. قطب الدین اوندی، سعید، الخرائج و الجرائح، قم، موسسه امام مهدی، ۱۴۰۹.

۲۲. طبرسی، احمدبن‌علی، الاحتجاج، مشهد، نشر مرتضی، ۱۴۰۳.

۲۳. طبری، محمدبن‌جریر، دلائل الامامه، قم، موسسه البعثه، ۱۴۱۳ق.

۲۴. طبری، محمد بن علی، بشاره المصطفی لشیعه المرتضی، تحقیق جواد قیومی، قم، دفتر انتشارات جامعه مدرسین، ۱۴۲۰ق.

۲۵. طوسی، محمد بن الحسن، الامالی، قم، دارالثقافه، ۱۴۱۴ق، چ اول.

۲۶. عبدالهی، بیژن و نوباوه، عبدالرحیم، توانمندسازی کارکنان کلید طلایی مدیریت منابع انسانی، تهران: ویرایش، ۱۳۸۵.

۲۷. العاملی، جعفر مرتضی، مأساه الزهراء، ۱۴۱۸، بیروت، دارالسیره، چ دوم.

۲۸. فرهنگی، علی اکبر و اسکندری، مجتبی، معرفی توانمندسازی در مدیریت و الگوهای آن، فصلنامه مطالعات مدیریت، شماره ۳۹ و ۴۰، صص ۹۹-۱۲۱، تهران، دانشگاه علامه طباطبایی، ۱۳۸۲.

۲۹. کرمی، علی، سیره و سیمای ریحانه پیامبر، قم، نشر دلیل ما، ۱۳۸۰، چ اول.

۳۰. کلینی، محمدبن‌یعقوب، الکافی، تهران، دارالکتب الاسلامیه، ۱۴۰۷.

۳۱. مرعشی نجفی، سید شهاب الدین، شرح احقاق الحق، قم، منشورات مکتبه آیت الله العظمی نجفی، بی تا.

۳۲. محمدی، محمد، توانمندسازی کارکنان: رویکردها و فرایندها، فصلنامه مطالعات مدیریت، شماره های ۳۳ و ۳۴، صص ۱۷۵- ۲۰۴، تهران، دانشگاه علامه طباطبایی، ۱۳۸۱.

۳۳. نـادری، ناهید؛ رجایی پور و سعید؛ جمشیدیان، عبدالرسول، "مفاهیم وراهبردهای توانمندسازی کارکنان"، ماهنامه مدیریت تدبیر؛ شماره ۱۸۶، ۱۳۸۶.

34. Gerbich, c. (2007). Qualitative data analysis: An Introduction. London : Sage Publications.

35. Block, P. (1987). The Empowerred Manager: Positive Polotical Skills at Work . San Francisco: Jossey- Bass.

36. Kane, Christine. (2006), Management role in shaping organizational culture , from: http://www.black well- synergy.com/doi/abs/10.1111/y.1365-2934.2006.00596.x

سيرة الزَّهراء عليها السلام ومكانتها قبل وفاة أبيها وبعد وفاة أبيها صلى الله عليه وآله

الباحثة سناء حسين عليّ عبَّاس

ملخَّص البحث

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتمُّ التسليم على الحبيب المصطفى والأمين، والد الهداة الميامين، سيما قرَّة عين النبيّ وبهجة قلب الوصيّ، ثمرة النبوَّة ودعاء الإمامة الحسين عليه السلام، وسيِّدة نساء العالمين فاطمة الزَّهراء عليها السلام، هالة النور والجلالة والعظمة والشرف الذي لا تنازع فيه.

موضوع البحث، هو سيرة الزَّهراء عليها السلام قبل وفاة أبيها صلى الله عليه وآله، وبعد وفاة أبيها، فإنَّ سيرتها عليها السلام التي هي شجرة النبوَّة، وتلك الشجرة تسمو وتنمو بتغذيتها من أصلها، وقد سمت هذه الشجرة من خلال مجاهداتها عليها السلام، ودفاعها عن الرسالة، وقد تحمَّلت كلَّ المصائب والمِحن من أجل الرسالة.

المقدِّمة

موضوع البحث، هو سيرة الزَّهراء عليها السلام قبل وفاة أبيها صلى الله عليه وآله، وبعد وفاة أبيها.

اهميَّة البحث

تتجلَّى أهميَّة البحث في تاريخ سيرة الزَّهراء عليها السلام قبل وفاة أبيها، ووقوفها جنبًا إلى جنب مع أبيها الرسول صلى الله عليه وآله، ومشاركته جميع مجالات الحياة حتَّى في الحروب، ممَّا يوضِّح أهميَّة العلاقة بين الزَّهراء عليها السلام وأبيها صلى الله عليه وآله؛ لحنوِّها عليه، واهتمامها العالي الرائع.

وأهميَّته بعد وفاة أبيها صلى الله عليه وآله، وموقفها الشامخ القويّ، وذِكر مجموعة من خصائصها ومواقفها التي ميَّزتها عن غيرها، والمطالبة بحقَّها، ووقوفها بوجه الطاغية، ولم تقف مكتوفة الأيدي، بل داعت وطالبت بحقِّها بشكل رائع، وصياغة لغويَّة فصيحة، أذهلت جميع الموجودين في ذلك الموقف، وهذا يترك لنا درسًا كبيرًا ومتميِّزًا، بأنَّ علينا عدم السكوت عن الظلم، والمطالبة بالحقِّ إلى آخر لحظة، وعدم ترك الحقوق للظالمين.

إشكاليَّة البحث

الإشكاليَّة الأولى:

في توضيح بطلان ما ادَّعاه أبو بكر في عدم توريث الأنبياء عليهم السلام، استدلَّ أصحابنا على بطلان ذلك بآيٍ من القرآن الكريم:

الأولى: في قوله تعالى مخبرًا على لسان زكريَّا عليه السلام: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ

رَبِّ رَضِيًّا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلِيًّا﴾، أي ولـدًا يكون أولى بميراثي، وليس المراد بـ(الوالي) من يقوم مقامه ولدًا أو غيره، لقوله تعالى حكايةً عن زكريا ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ وقوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ﴾، والقرآن يفسِّر بعضه بعضًا، واختلف المفسِّرون في أنَّ المراد بالميراث العلم أو المال؟.

فقال ابن عبَّاس والحسن الضحَّاك أنَّ المراد به في قوله تعالى ﴿يَرِثُنِي﴾، وبقوله سبحانه: ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ ميراث المال.

الإشكاليَّة الثانية:

إنَّ طلب الحقِّ والمبالغة فيه، وإن لم يكن منافيًا للعصمة، ولكنَّ زهدها صلوات الله عليها، وتركها للدنيا، وعدم اعتدادها بنعيمها ولذَّاتها وكمال عرفانها، ويقينها بفناء الدنيا، وتوجُّه نفسها القدسيَّة، وانصراف همَّتها العالية دائما إلى اللذَّات المعنويَّة، والدرجات الأُخرويَّة، لا تناسب هذا الاهتمام في أمر فدك، والخروج إلى مجمع الناس، والمنازعة مع المنافقين في تحصيله.

والجواب عنه من وجهتَين:

الأوَّل: إنَّ ذلك لم يكن حقًّا مخصوصًا لها، بل كان أولادها البررة الكرام مشاركين لها فيه، فلم يكن يجوز لها المداهنة والمساهلة والمحاباة وعدم المبالاة في ذلك؛ ليصير سببًا لتضييع حقوق جماعة من الأئمَّة الأعلام والأشراف الكرام. نعم لو كان مختصًّا بها، كان لها تركه والزُّهد فيه وعدم التأثُّر من فوته.

الثاني: إنَّ تلك الأمور لم تكن لمحبَّة فدك وحبِّ الدنيا، بل كان لغرض إظهار ظلمهم وجورهم، وكفرهم ونفاقهم.

وهذا كان من أهمِّ أمور الدين، وأعظم الحقوق على المسلمين، ويؤيِّده أنَّها صلوات الله عليها صرَّحت في آخر الكلام، إذ قالت: «**قلت ما قلت على معرفة منِّي بالخذلة**».

وكفى بهذه الخطبة بيِّنة على كفرهم ونفاقهم.

منهجيَّة البحث

نحاول في بحثنا هذا الخروج من أرق التقليديَّة للكتابة، حيث نأمل في تقديمه العِظة والعبرة بالدرجة الأولى، فقد اتَّبع البحث منهج البحث التاريخيّ في جميع المعلومات، وتصنيفها ونقدها، واستخلاص ما يقارب الحقيقة والمنطق منها، مقدِّما المصادر والروايات المعتمدة عند أهل البيت عليهم السلام.

هيكليَّة البحث

يتألَّف البحث من مبحَثَين:

المبحث الأوَّل: سيرة الزَّهراء عليها السلام، ومكانتها قبل وفاة أبيها صلى الله عليه وآله.

المطلب الأوَّل: مفهوم السيرة لغةً واصطلاحًا.

المطلب الثاني: السيرة الفاطميَّة في ظلِّ الرسالة.

المطلب الثالث: السيرة العباديَّة للزَّهراء عليها السلام.

المبحث الثاني: سيرة الزَّهراء عليها السلام، ومكانتها بعد وفاة أبيها صلى الله عليه وآله.

المطلب الأوَّل: الزَّهراء عليها السلام في خضمِّ الأحداث.

المطلب الثاني: الزَّهراء عليها السلام تتصدَّى المعارضة.

المطلب الثالث: خطبة الزَّهراء عليها السلام مع نساء المهاجرين والأنصار.

المبحث الأوّل

سيرة الزَّهراء ومكانتها قبل وفاة أبيها

إنَّ السيِّدة الزَّهراء توفَّرت فيها خصوصيَّة اتَّفق المسلمون عليها، ولم يتَّفق على وجودها في غيرها، وهي أنَّها عليها السلام امتداد طبيعيّ لرسول الله صلى الله عليه وآله، ولا نقصد هنا بقولنا (طبيعي) مجرَّد البنوَّة، والعلاقة النسبيَّة، بل نريد من هذا التعبير أنَّه ثبت بالأدلَّة الصحيحة والنصوص الصريحة أنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله ربط بينها وبينه في كلِّ شيء. فاطمة الزَّهراء التي يرضى الله لرضاها، ويغضب لغضبها، كما في بعض الروايات، والتي قضت مشيئة الله التي تنحصر بها ذريَّة محمَّد بن عبد الله صلى الله عليه وآله، وأن يكون أشرف الخلق وسيَّد الأنبياء أبًا لأولادها.

المطلب الأوَّل: مفهوم السيرة

مفهوم السيرة لغة واصطلاحًا:

خصَّص بعض الباحثين المحدِّثين دراسات مستقلَّة تناولت التعريف بالمصطلح (سيرة)، واستعمالاته بكتب مستقلَّة، وبنيت هذه الدراسات تطوُّرات هذا المدلول واستعمالاته، إذ أشاد أحد الباحثين إلى تطوُّر هذا المدلول من حين الاستعمال، بقوله: السيرة نوع من الأدب يجمع بين التحرِّي التاريخيّ قاع القديم والامتاع القصصيّ، ويراد به درس حياة فرد من الأفراد، ورسم صورة دقيقة لشخصيَّة ما، والسيرة قسمان، العامُّ: الذي يتناول أشخاصًا كثيرين، مثل كتب الطبقات.. ومنها الخاصُّ: كالسيرة النبويَّة الشريفة[1].

(١) المجلَّة الرئيسيَّة، السير والتاريخ، نفحات من علوم المسلم.

والسيرة كعلم نقديّ، هو الجزء الرابع في العلوم النقليَّة طبقًا لترتيبها المنطقيّ:

أوَّلًا: علوم القرآن، باعتبار أنَّ الوحي هو المصدر الأوَّل للعلم من المحمول إلى الحامل.

ثانيًا: علوم الحديث، باعتبار الحديث هو المصدر الثاني للعلم، وكيفيَّة تحويله من نقد السَّند إلى نقد المتن.

ثالثًا: علوم التفسير وكيفيَّة فهمها، من التفسير الطوليّ إلى التفسير العرضيّ.

رابعًا: علوم السيرة، عودًا إلى المصدر الثاني، وكيفيَّة تصحيح مساره، من الرسول صلى الله عليه وآله إلى الرسالة.

خامسًا: علوم الفقه، باعتبارها تقنيًّا للسلوك، اعتمادًا على المصدَرَين الأوَّلَين، وكيفيَّة قلب الأولويَّة من العبادات إلى المعاملات.

فالسيرة ليست عملًا لاهوتيًّا ولا فلسفيًّا ولا صوفيًّا ولا فقهيًّا، بل هي تاريخ إخباريّ خالص، من التأويل والتنظير والتوجيه الفكريّ[1].

والسيرة: هي الطريقة، يُقال سار بهم سيرة حسنة، والسيرة أيضًا الامتياز، المسيرة[2].

السيرة لغةً:

عند تعريف الكلمة السِّيرة (بكسر السين وفتح الراء)، لا بدَّ من الرجوع إلى كتب اللغة ومعاجمها؛ للوقوف على مدلول هذا اللفظ عند اللغويِّين، وذلك لكي يتَّضح ما يتضمَّنه هذا المصطلح الذي إذا أُطلق ذهب المعنى تلقائيًّا إلى سيرة المصطفى صلى الله عليه وآله.

---

(١) د. حسن حنفي، من النقل إلى العقل علوم السيِّدة من الرسول صلى الله عليه وآله إلى الرسالة، مكتبة مدبولي، ٢٠١٢، ص١١-١٧.

(٢) أبي نصر إسماعيل بن حمَّاد الجواهريّ الفارابّي، الصِّحاح، الجزء الثاني، دار إحياء التراث الإسلاميّ، بيروت، لبنان، ١٤٢٦هـ/ ٢٠١٥م، ص٣٨٢.

إنَّ مفهوم السيرة يعطي بُعدًا تاريخيًّا أكثر من إعطائه بُعدًا أدبيًّا، وذلك بكون حياة الفرد وخصوصيَّتها هي المحور الذي تعالجه كتابة السيرة، وهذا المحور جزء لا يتجزأ.

ومنها السيرة: تعني السنَّة والطريقة والحالة التي يكون عليها الانسان وغيره، يقال فلان له سيرة حسنة، وقال تعالى: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾.

السيرة اصطلاحًا:

تعني قصة الحياة وتاريخها، وكتبها تسمَّى كتب السِّيَر، يقال قرأت سيرة فلان، أي تاريخ حياته[1].

مصطلح السِّيرة (أصله اللغويّ)

الحمد لله ولي النعمة والأفضال، العزيز الجبَّار الكبير المتعال، والصلاة والسلام على من حاز خصال الشرف جميعًا على جهة الكمال، وعلى آله إلى يوم المآل. إنَّ مصطلح السيرة أحوج ما يكون إلى الكشف الإبراز، وإنَّ ما نال مصطلح الحديث من ذلك قد بلغ حدًّا أشعر الناس أنَّ مصطلح السيرة مجرَّد فرع عنه، وأشرت هناك إلى وجوه تميِّز مصطلح السيرة ومسوِّغات استحقاقه الاستقلال.

وأشرع بإذن الله هاهنا في تفصيل ذلك: يذكر أصل معناه في اللغة وحقله الدلاليّ الذي سوَّغ انتقاله من عجوم اللغة إلى خصوص الاصطلاح.

١. **دلالة السير**: السير في اللغة هو «الذهاب كالمسير، والسيرورة، والاستيار).

٢. **دلالة السيرة**: ذكر أهل اللغة لاسم «السيرة أربع دلالات، فقالوا: السيرة: الضرب من السير. والسيرة: السنَّة، والسيرة، الطريقة، والسيرة: الهيئة. قال الراغب في مفرداته: وسنَّة الله تعالى قد تُقال لطريقة حكمته، وطريقة طاعته، نحو ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾، فيظهر بهذا أنَّ السنة المضافة إلى الله

(١) مجلَّة منتدى الونشريس، المنتديات العامَّة، السيرة لغةً واصطلاحًا.

تعالى أو إلى النبيّ صلى الله عليه وآله، تكون إلَّا حسنة مستقيمة محمودة، والسنَّة ايضًا: «الطريق القويم، قال في اللسان: وسنَّ الله سنَّة، أي بيَّن الله طريقًا قويمًا»[1].

ولا يخفى ما بين علم الاصطلاح وعلم اللغة من وثيق الصلة، وأنَّ اللغة قاعدة الاصطلاح، ومادَّته الأولى الرابط بين شطرَي (اللفظ والمعنى)، وقد ظهر من خلال العرض أنَّ السيرة تتألَّف من:

١. السين والياء والراء: أصل يدل على وفى وجريان.
٢. التاء اللاحقة بلفظ السيرة نقلته من المصدريَّة إلى الاسميَّة.
٣. هذا النقل قاعدة المراد من استعمال هذا الاطلاق في الاصطلاح، ومن ذلك:

- صيغة من السير، وصفة منه، وصنف منه، ومثال منه.
- سيرة السائر، وسنَّته وطريقته وهيئته أو صورة سيره، وطبيعة وجهه.
- تعلُّق اسم السيرة بإحدى هذه الدلالات على وجهٍ أخص منه في سائرها، فقول أهل اللغة: «طريقة القوم: ماثلهم وخيارهم»، فيه معنى (الإمامة في الخير).
- هذه الدلالات هي اللآلئ الناظمة لعقد الصلة بين معنى السيرة في اللغة، ومعناها في الاصطلاح [2].

والسيرة: يراد بها طريقة سَير الانسان في هذه الحياة، ومعنى سيرة فلان، أي طريقته وسيرته، وما كان عليه شأنه في حياته[3].

(١) الدكتور عبد الرزاق مرزوك، مصطلح السيرة، أصله اللغويّ وحقله الدلاليّ، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) عليّ بن عمر بادحدح، السيرة النبويَّة، مقالة، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

وتعدُّ السيرة صورة صادقة شفَّافة للتجربة الإنسانيَّة على اختلاف زمانها ومكانها، وهي مصدر غنيّ من مصادر المعرفة والمتعة، المتعة في الاطِّلاع على دخائل النفس البشريَّة وأسرارها، وصراعها مع الحياة، فقد استُعمِلت لفظة السيرة في القرآن الكريم ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾، كما أنَّ السيرة لغةً هي جمع السِّير، وهي الطريقة سواء كانت خيرًا أو شرًّا، يقال فلان محمود السيرة، وفلان مذموم السيرة.

أمَّا اصطلاحًا: ما هي إلَّا قصة قديمة تتداخل فيها الحقيقة مع الخيال، ترجع بين الأسطورة والتاريخ، وما هي إلَّا قصة طويلة تتطلَّب من الدارسين البحث الدائم والتنقيب المستمر، ينبثق منها كلُّ ما هو مدفون فيها من واقع جديدة، وقيم عريقة، والسيرة هي نوع أدبيّ يعرِّف بحياة علم أو مجموعة من الأعلام، أو هي السرد المتابع لحياة شخص، وذِكر الوقائع التي جرت له أثناء مراحل هذه الحياة، وليس تعريف السير أصطلاحيًّا قادرًا على الإلمام بكلِّ تفصيلاتها، أو صورها المختلفة[1].

وهذا هو مجمل ما يقتضيه بيان معنى مصطلح السيرة، بدلالته اللغويَّة، ومحيطه الـدلاليّ، وهـي سبيل أهـل كـلِّ علم وديدنهم حين يسألون عن دلالـة مفردة من المفردات.

ونحن في بحثنا هذا نشرع في مسيرة عظيمة، لا تتصور مدى رفعتها، وارتقاء هذه السيرة العطرة، فمصطلح السيرة مهما فصَّلنا وكتبنا، لا نستطيع أن نلمَّ بكلِّ تفاصيل سيِّدة نساء العالمين، مولاتنا فاطمة الزَّهراء عليها السلام.

المطلب الثاني: السيرة الفاطميَّة في ظلِّ الرسالة

من يتتبَّع الروايات، يجد أنَّ النبيّ استخدم كلَّ المصطلحات التي تدلُّ على أنَّ الزَّهراء عليها السلام جزء لا يتجزَّأ منه صلى الله عليه وآله، فهي (منه)، وهي بضعةٌ وشجنةٌ منهُ، وقلبهُ وروحهُ، فهذا التعدُّد يكشف عن مراد النبيّ الحقيقيّ لما يقوله، لا على سبيل التجوُّز، كما أدَّعى

(١) منتديات ستار تايمرز، تطور في السيرة عبر العصور، ٢٠١١م.

البعض[1]. فما عسى أن يبتكر محرِّر سيرتها العطرة ؟ وماذا تستطيع ريشة الفنان من تصوير حقيقتها، ولها من جلالها وهيبتها وقداستها ما يجعل البليغ عاجزًا عن الافصاح.. ويدع الفصيح متردِّدا في الأداء.

بعد خمس سنوات من البعثة النبويَّة المباركة، كانت ولادة هذا الكوكب الدرِّيّ الهادي، فاطمة بنت محمَّد بن عبد الله صلى الله عليه وآله، وذلك في العشرين من جمادى الآخرة، وحكمت البهجة بيت النبوَّة، ومختلف الملائكة، واحتفى رسول الله صلى الله عليه وآله وأمُّ المؤمنين عليها السلام بهذا الوليد الجديد، بما يتناسب والأهميَّة الكبرى التي تنتظر هذا الوليد الضخم[2].

وفي السنة الخامسة للمبعث المبارك، وقعت حادثة الإسراء ومعراج النبيّ صلى الله عليه وآله، والعروج به لمشاهدة ملكوت السماء، وليريه الله تعالى الآيات الكبرى، ثمَّ إنَّ رسول الله في ليلة المعراج انتهى مع جبريل إلى سدرة المنتهى، فناوله من ثمارها فأكلها، وبعد عودته إلى الأرض، انعقدت نطفة السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام من تلك الثمار، فتكوَّنت فاطمة عليها السلام من ثمار الجنَّة، ولحم ودم رسول الله وأمَّها خديجة الكبرى عليها السلام، شرَّفت الزَّهراء عالم الدنيا لترفع وحشة ذلك البيت الطاهر، الذي ظلَّ تحت سقفه سيِّد الأنبياء والمرسلين محمَّد بن عبد الله الأمين صلى الله عليه وآله، وسيِّدة نساء عصرها، خديجة الكبرى عليها السلام، لتكون أُنس دائم للأبوَين السعيدَين.

ولِدت فاطمة الزَّهراء عليها السلام يوم الجمعة، وقت الصبح، في آخر جزء من ليلة الجمعة، وهي الساعة الأخيرة التي هي أفضل الساعات، ومحلّ استجابة الدعاء، ولدتها خديجة عليها السلام بعد تسعة أشهر من الحمل، وذلك في العشرين من جمادى الآخرة في السنة

(١) أحمد مسلحان، فاطمة الزَّهراء أحداث ما بعد رحيل الخاتم، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م، ص٢٨.

(٢) الزَّهراء عليها السلام من الوجه الآخر، الدكتور محمَّد حسين عليّ الصغير، النجف الأشرف، ١٤٣٣هـ، مؤسَّسة البلاغ، ٢٠١٢، ص٢١.

الخامسة للمبعث، على أكثر الروايات، وكانت ولادتها في دار خديجة عليها السلام[1].

أراد الله عزّ وجلّ للنبيّ صلى الله عليه وآله الاستمرار في وجوده الإنسانيّ والرساليّ من خلال ذريَّته، ولم ينقطع في حركته الرساليَّة من ذريَّته، كما كتب ذلك لنوح عليه السلام أو موسى عليه السلام أو عيسى عليه السلام، وقدَّر أن تكون هذه الذريَّة متمثِّلة في امرأة، هي فاطمة الزَّهراء عليها السلام، وكان يمكن أن يكون الاستمرار لرسول الله صلى الله عليه وآله في ذريَّته من خلال أولاد ذكور، كما حصل لإبراهيم الخليل عليه السلام، لكن شاء الله سبحانه وتعالى أن تنحصر ذريَّته بالزَّهراء[2].

الزَّهراء عليها السلام هي ثالث الأنوار الأربعة عشر، سيِّدتنا ومولاتنا فاطمة الزَّهراء عليها السلام التي في حياتها وسيرتها الشريفة الكثير من الحوادث والوقائع التي تستلزم معرفتها وتحليلها بالمقدار الممكن، سواء كانت في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله أم بعد استشهاد رسول الله صلى الله عليه وآله، وما صدر منها من فضائل ومعاجز وكرامات حجيَّتها على الخلق أجمعين[3].

الحديث عن الزَّهراء يمثل حديثًا عن النبوَّة في آنٍ واحد، فهي الكائن الذي انفصل من جسد الرسالة، أو تمثَّلها روحًا وفكرًا و سلوكًا، ولشدَّة التداخل بين الصورَتَين، كان يصفها الرسول الكريم صلى الله عليه وآله بـ«روحي التي بين جنبي». لقد ولدت الزَّهراء عليها السلام ودرجت في ذلك البيت المقدَّس الذي كان بحق مدرسة لكلِّ الاجيال، وسيظل كذلك إلى يوم القيامة؛ لأنَّ ما فيه من قول أو فعل أصبح سُنَّة متَّبعة، وآية تهدي الناس إلى طريق الحقِّ[4].

---

(١) الأمانة العامَّة للعتبة الكاظميَّة المقدَّسة، أسماء فاطمة الزَّهراء عليها السلام دلائل ومقامات، الشؤون الفكريَّة، ١٤٣٣هـ، ص٣-٧ .

(٢) مؤسَّسة تراث الشهيد الحكيم قدس سره، الزَّهراء عليها السلام أهداف، مواقف، نتائج، مطبعة العترة الطاهرة، النجف الأشرف، الطبعة الاولى، ٢٠٠٦، ص١٧.

(٣) ميثم العقيليّ، سيرة فاطمة الزَّهراء عليها السلام، ص٢.

(٤) شهيد المحراب آية الله العظمى السيِّد محمَّد باقر الحكيم قدس سره، الزَّهراء عليها السلام أهداف، مواقف،=

إنَّ سعادة الإنسان والبشريَّة جمعاء في المعرفة وعبادة الله من طريق رسالات السماء المتمثِّلة بالنبوَّة العظمى، وديمومتها إلى يوم القيامة بالإمامة الكبرى، ثمَّ حلقة الوصل بين النبوَّة والإمامة إلى يوم المعاد، هي سيِّدة النساء فاطمة الزَّهراء، فإنَّها جمعت بين نورَي النبوَّة والإمامة، فهي من صُلب رسول الله النبيّ الأعظم محمَّد صلى الله عليه وآله، وزوجة وليّ الله الإمام عليّ، وأمُّ الأئمَّة النجباء الأحد عشر عليهم السلام، ومنها المهدي الموعود المنتظر عجل الله فرجه، يملأ الأرض قسطًا وعدلًا بعدما مُلئت ظلمًا وجورًا، فأصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أُكُلها كلَّ حين بإذن ربِّها، فكانت فاطمة الزَّهراء عليها السلام مشكاة أنوار الله من آدم إلى الخاتم محمَّد صلى الله عليه وآله، ومن سيِّد الوصيِّين إلى قائمهم صلوات الله عليهم أجمعين(١).

كان النور القبلي أنها الزَّهراء.. فماذا يصوِّر القلم.

عالمان متقابلان اكتفا مسيرة الزَّهراء عليها السلام الزاخرة بالهبة والعطاء، تلك النغمات الراقصة على مفهم الزمن، والومضات المحرقة في لفح الهجير، والبسمات الحزينة من الثغر الشاحب، قاسم مشترك احتدم أيَّام الزَّهراء عليها السلام، وما وهبت من حباء ووفاء، وما عانت من جفاء وتجاهل وما قاست من قلق.

فالعبرة تكمن بالنتائج، فالعزَّة هي العزَّة، والكرامة هي الكرامة، فلا امتهان ولا إذلال ولا تنازع ولا إذعـان، فالنهج السويّ يتعالى في خطٍّ واحـدٍ على كبرياء الجراح، والإصرار الخلَّاق يصارع القدر المعاكس، والفتح الأبديّ يستمر على الظفر المؤَّقت(٢).

=نتائج، مطبعة العترة الطاهرة، النجف الأشرف، ٢٠٠٦، ص٧.

(١) السيِّد عادل العلويّ، فاطمة الزَّهراء عليها السلام مشكاة الأنوار، المؤسَّسة العامَّة للتبليغ والإرشاد، مطبعة النهضة، قم المقدَّسة، ١٤٢٣هـ، ص١٢٠.

(٢) الدكتور محمَّد حسين عليّ الصغير، الزَّهراء عليها السلام من الوجه الآخر، مطبعة النهضة، قم المقدَّسة مؤسَّسة البلاغيّ، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢، ص١٣٣.

وحينما نبحث في رحاب آيات القرآن الكريم، نجده يحدِّثنا عن عظمة سيِّدة نساء العالمين فاطمة الزَّهراء عليها السلام، إذ يعرِّفها الله سبحانه بأجمل تعريف، وأدق مفهوم، وأعمق معنى، حيث يعرِّفها في سورة النور بأنَّها المشكاة التي ضمَّت في حقيقتها الأنوار النبويَّة والولويَّة.

لماذا عرَّف الله صفيَّه ومظهر عصمته وطهارته فاطمة الزَّهراء عليها السلام بالمشكاة؟ إذ إنَّ كمال النبيّ الجامع لجماله وجلاله، أي الصفات الجماليَّة والصفات الجلاليَّة إنَّما تتجلَّى في فاطمة الزَّهراء عليها السلام.

ما أروع مقولة آية الله العظمى السيِّد الخمينيّ قدس سره أنَّه لو كان بعد النبيّ نبيَّة، لكانت فاطمة، فإنَّه أشار إلى هذا المعنى، كما يقول الشاعر: هي أحمد الثاني[1].

كانت بيئة قريش ومناخ جزيرة العرب عامَّة لا يريدان للمرأة وزنًا، ولا يجدان لها أهميَّة، بل وليس لها الحقّ في الوجود والبقاء على قيد الحياة، وإنَّما يُدسُّ بها في التراب، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ (سورة التكوير: ٨-٩)، وإذا بوعيدة هذا البيت، في ذروة الاعتزاز وأوج الاعتداد، والعرب تنتظر صنيع رسول الله صلى الله عليه وآله في الاحتفاء الرفيع بابنته، فيعتريها العجب الشديد، وإذا بالرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وهو الصادق الأمين، يقول: «**فاطمة بضعة منِّي، فمن أغضبها فقد أغضبني**».

فوجئت قريش بهذا المنظور للمرأة، والمرأة عندهم لا تساوي شيئًا، ولكن هذه المرأة بضعة من أبيها، يغضبه ما يغضبها، وهي روحه التي بين جنبيه[2]. ومن هذا الأفق الرَّحب انبعثت الزَّهراء ملاكًا في العفَّة والشرف والآباء، وبلغ بها حبُّ أبيها درجة الإيثار، وحبُّ زوجها درجة الفداء، وحبُّ ولديها مرتبة الشغف، فعاشت حياة حبٍّ رهيف تأصلَّت جذوره وتشابكت أغصانه وأينعت ثماره، فعاد متن الصلة عميق النزعة، إنسانيّ العائديَّة، وهكذا يكون الحبُّ المتبادَل جذوة من المشاعر لا تخبو

(١) السيِّد عادل العلويّ، فاطمة الزَّهراء مشكاة الأنوار، ص٦٤-٦٩.

(٢) الدكتور محمَّد حسين عليّ الصغير، الزَّهراء من الوجه الآخر، ص٢٣- ٢٨.

ونفحة من الضمائر ينبض بالشفقة والألفة والتواصل.. ولم تكن هذه الحياة الحرَّة الرقيقة إلَّا تعبيرًا مثاليًّا عن تلك النفوس المثاليَّة التي اكتفًا بجشوبة العيش وخشونة الملبس وبساطة المقتنيات، مشاركة لبني الإنسان في الشدَّة والحرج.

طفولة فاطمة الزَّهراء عليها السلام:

لم تزل فاطمة تشبُّ في اليوم كالجمعة، وفي الجمعة كالشهر، وفي الشهر كالسنة، فلمَّا هاجر الرسول الله صلى الله عليه وآله من مكَّة المكرَّمة إلى المدينة المنورَّة، وابتنى بها مسجدًا، وأنس به أهل المدينة، ظهر الإيمان، ودرّس القرآن، وتزوَّج الرسول صلى الله عليه وآله من أمِّ سلمة، فقالت أمُّ سلمة: تزوَّجني رسول الله صلى الله عليه وآله وفوَّض أمر ابنته إليَّ، فكنت أود بهاء كانت والله آدب منِّي وأعرف بالأشياء كلَّها، وتذكَّرت هذا المقام قول النبي صلى الله عليه وآله «**فاطمة بضعة منِّي**»:

١. تارة كان يقول تنبيه على ما لفضلها من الفضل، وهكذا فهم جملة من الحفاظ الذين فضَّلوا فاطمة الزَّهراء عليها السلام على الخلفاء، كما تقدَّم عن ذلك.
٢. تارة كان يتحف به أسماع صحابته به من أجل التحذير عن فضلها وأذيَّتها أنَّ من آذاها فقد آذاه؛ لأنَّها بضعة منه صلوات الله عليها.
٣. كان يقول لتحديد ثواب فعل من يصلِّي على فاطمة، فقد صلَّى على النبيّ؛ لأنَّها بضعة منه.
٤. إنَّ فاطمة كالنبيّ في القول، فما قالته فاطمة فهو قوله صلى الله عليه وآله، وما فعلته فهو فعله[1].

وليس بغريب على قلب محمَّد صلى الله عليه وآله وروحه أن تكون قدرة للعالمين؛ لما خُصَّت به من مزايا وكرامات وأخلاق عالية، كما يأتي مفصَّلًا، وعناية الله تعالى بها عناية خاصَّة

(١) السعيد، عادل عليّ عاشور، موسوعة فاطمة الزَّهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، حياة فاطمة ومناقبها، ج١، مطبعة دار نظير عبود، ط١، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م، ص٢٩، ٧٢.

كانت رحمة الله تحوط فاطمة ما درَّت معايشها، كما اشار إلى ذلك المصطفى صلى الله عليه وآله في حديث طويل جاء فيه «**يا فاطمة لا تحزني فإنَّ الله عزّ وجلّ أرحم بك وأرقُّ عليك منِّي، وذلك لمكانك منِّي وموضعك في قلبي**». وهذا الوسام نالته فاطمة بعملها وأخلاقها وعبادتها وجهادها.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**أدِّبوا أولادكم على حبِّ ثلاث خصال: حبِّ نبيِّكم وحبِّ أهل بيته، وقراءة القرآن**»، فقد أخذت الزَّهراء عليها السلام الكثير من الأحاديث بما تسمعه منه أو ما كان يأمر بكتابته لها، وقد ساعدها على ذلك أنَّها ألـمَّت بالكثير من علوم القرآن، وأحاطت بأمور الشرائع السابقة، وكانت تعرف القراءة والكتابة، وقد فطمها الله بالعلم، وكان أبوها رسول الله صلى الله عليه وآله يكتب لها الصحف التي تسترشد بها في أمر دينها، وتبصِّرها بأمور دنياها[1].

وكان النبيّ يعلِّم ابنته، في الكافي: عليّ، عن ابيه عن ابن أبي عمير عن اسراق بن عبد العزيز عن أبي عبد الله قال: «**جاءت فاطمة تشكو إلى رسول صلى الله عليه وآله بعض أمرها، فأعطاها رسول الله صلى الله عليه وآله كربة وقال: تعلَّمي ما فيها، فاذا فيها: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو فليسكت**».

قال العلَّامة المجلسيّ: كرب النخل أصول السعف أمثال الكتف.

هذا خُلُق رسول صلى الله عليه وآله، والذي هو خُلُق القرآن، جميل بالأب أن يحادث ابنته ويعلِّمها ويثقِّفها؛ لتكون قويَّة في مجتمعها، عزيزة بين أقرانها[2].

مواقفُ من نبيّ الإسلام الذي ذاب في دعوته، وكان للناس أسوة، فأصبحت الزَّهراء خفقان قلبه، ونظرات عينه، ولمسات يده، وخطوات سعيه وفكره، وقوله

(١) مكرر، الجزء الثاني ص ٢٩، ٢٢، ١٠ ص٧، ٢٩

(٢) عليّ عاشور، موسوعة فاطمة الزَّهراء عليها السلام، ج٤، دار نظيرعبود، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ.

وفعله، وتقدير وجوده كلّه، فأصبحت تعاليم الدين وأحكام الله، ومصابيح الهداية وسُبل النجاة، أوسمة من الخاتم المرسل على صدر فاطمة الزَّهراء، تزداد تألُّقًا كلَّما مرَّ الزمن، وكلَّما تطورت المجتمعات، وكلَّما لاحظنا المبدأ الأساس في الإسلام في كلامه لها «**يا فاطمة اعملي لنفسك، فإنِّي لا أُغني عنك مِن الله شيئًا**».

إنَّ معرفة فاطمة الزَّهراء عليها السلام فصل من كتاب الرسالة الإلهيَّة، وان دراسة حياتها محاولة لفقه الإسلام، وذخيرة قيِّمة للإنسان المعاصر[1].

المطلب الثالث: السيرة العباديَّة للزَّهراء عليها السلام

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

إذن لا بدَّ من عبادة المنعم لتتكامل بهذه العبادة، إلَّا أنَّ هذه العبادة على أقسام، فمنها عبادة الأحرار، ومنها عبادة التجَّار، ومنها عبادة العبيد، ولكن كلُّها تؤدِّي إلى كمال الإنسان. ما هو كمال الإنسان؟ وبأيِّ شيء يتكامل؟.

يأتي الجواب من الإمامَين الصادقَين عليهما السلام «**الكمال كلُّ الكمال التفقُّه في الدين، والصبر على النائبة، والتقدير في المعيشة**»[2]، فإنَّه يكمن سرُّ العبادة في منح القدرة للعابد؛ لإحساسه بالاتِّصال الوثيق وتعلُّقه بقدرة أزليَّة لا متناهية، وخالق لكلِّ القدرات، يتعلَّق الإنسان عن طريق العبادة بعزَّة الله، ويطلب التوفيق منه، يلجأ إليه هربًا من النوب.

فالعمل والسلوك مهمَّان في العبادة، فلا تؤثِّر في الطفل مئة كلمة حول العبادة بمقدار ذرَّة من عمل لا يستغرق إلَّا لحظات، ولا تعادل مئات البحوث عن الصلاة صلاة واحدة.. فيجب غرس الروح الدينيَّة في الطفل عن طريق العمل لا القول، فلا مناص للأمِّ إن أرادت أن تربِّي جيلًا خاضعًا وخاشعًا لله، إلَّا أن تكون هي النموذج

(١) الدكتور السيِّد محمَّد حسين المعموريّ، الزَّهراء عليها السلام (صوت كثر واتره وقلَّ ناصره)، شبكة كتب الشيعة ٣، ربيع الثاني، ١٤٣٦هـ، ص٣٦-٣٧

(٢) الشيخ عليّ الفتلاويّ، النوران الزَّهراء والحوراء عليهما السلام، منشورات الاجتهاد، قم المقدَّسة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، ص٢٥.

العمليّ للخضوع والخشوع في الحضرة الإلهيَّة، ويكون سلوكها وسيرتها قرآنيًّا، وتراعي كافَّة الشؤون الإسلاميَّة، وما أجمل أن تندمج العبادة مع كلِّ مراحل الطفل[1].

ويصل بناء الحديث عن عبادة سيِّدتي ومولاتي فاطمة الزَّهراء عليها السلام. عرفت فاطمة عليها السلام العبادة منذ نعومة أظافرها، فكيف لا وهي التي تربَّت في أطهر حجر على الإطلاق من الأوَّلين والآخِرين.. وكانت نورًا في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهَّرة، لم تنجِّسها الجاهليَّة بأنجاسها، ولم تُلبسها من مدلهمَّات ثيابها، وأنَّها من دعائم الدين وأركان المؤمنين، فهي العابدة لله بإتقان، والمخلصة له بإيمان، وقلبها ينبض بمعرفة الله، وبنانها يسبِّح ويقدِّس ويهلِّل بعظمة الله وكبريائه وعزِّ جلاله، فهي العارفة والعالمة بالله، وبحقائق الكون، وفلسفة الحياة، وهذا ما تختزله من العلوم اللدنيَّة، فهي التي كانت تفقه كنه وماهيَّة وفلسفة الصلاة ومعناها؛ لذلك عندما تقدم على الصلاة، يكتنفها الذهول والخشية، وترتعد فرائصها؛ لأنَّها تقف أمام ربٍّ عظيمٍ متعالٍ، ويعتريها الخشوع والخضوع والتذلُّل لله عزَّ وجلَّ[2].

إنَّ سيِّدتنا فاطمة الزَّهراء عليها السلام جعلت من نفسها قدوة صالحة لأولادها، كي تمنحهم حقَّهم في عبادة الخالق تعالى، فهي التقيَّة النقيَّة الورعة التي شهد لها القرآن الكريم (سورة الدَّهر)، على كمال إخلاصها وخشيتها لله سبحانه وتعالى، وعظيم إيمانها به وباليوم الآخر، وكانت تخصِّص الساعات الأخيرة من نهار الجمعة للدعاء، كما كانت لا تنام بالليل في العشرة الأخيرة من شهر رمضان المبارك، وكانت تحرِّض جميع مَن في بيتها بإحياء الليل بالعبادة والدعاء، فكلُّ ما قامت به سيِّدتنا من عبادة الله وطاعته أمام أولادها، يرتسم في أذهانهم ما تقوم به، وتعلو في صوتها، كي تسمع آذانهم، وتحثُّهم على

(١) الدكتور عليّ القائمي، دور الأم في التربية، الطبعة الخامسة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، دار النبلاء، بيروت، لبنان، حارة حريك، ص١٥٤-١٥٥.

(٢) الدكتور عليّ الحدَّاد، فاطمة سرُّ أبيها، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، دار المحجَّة البيضاء، بيروت، لبنان، ص٢٥-٢٦.

القيام به، فتفرح بهم، وهذا حقٌّ من حقوقهم..[1].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله «**أفضل الناس من عشق العبادة فعانقها وأحبَّها بقلبه وباشرها بجسده وتفرَّغ لها، فهو لا يبالي على ما أصبح من الدنيا، على عسر أم يسر**». كذلك فإنَّ الزَّهراء عليها السلام عشقت العبادة.

ومعرفة الزَّهراء عليها السلام وعلمها بالله سبحانه لا يمكننا أن نفهمه، فهم أولياء الله وخاصَّته من عباده، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله عن الله تعالى، حيث خاطب ملائكته قائلًا: «**يا ملائكتي انظروا إلى أَمَتي فاطمة سيِّدة إمائي قائمة بين يديَّ، ترتعد فرائصها من خيفتي، وأقبلت بقلبها على عبادتي، أُشهدكم أنِّي قد أَمَّنت شيعتها من النار..**»[2].

لقد أنشأت فاطمة بطريقتها التربويَّة أعلى مدرسة مثاليَّة، تخرَّج منها الحسنان وزينب عليهم السلام، وكانت تحرص على اصطحاب أولادها إلى محراب عبادتها، وتعلِّمهم أنواع التبتُّل والتهجُّد، حيث يروي الحسن عليه السلام أنَّ والدته أجلسته إلى سجَّادتها وهي تتضرَّع إلى الله وتدعوه.

وذكرت الروايات أنَّ الزَّهراء عليها السلام كانت تعلِّم ولديها خطب رسول الله صلى الله عليه وآله، وهما لم يبلغا الخامسة، وكانت تطلب منهم أعادة ما سمعاه من خطاب رسول الله صلى الله عليه وآله على مسامعها ثمَّ يعيدانه بحضور أبيها، وأخذت زينب عليها السلام إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله عندما ألقت خطبتها العصماء هناك.. إنَّ اهتمام فاطمة عليها السلام بولديها هو ترجمة لاهتمام رسول الله صلى الله عليه وآله بهما، إذ هما وصيَّتاه العظمى، وهما منبع نهر كوثره صلى الله عليه وآله، الذي يمتدُّ إلى آخر الدنيا، ليخرج من ذريَّتهم من يحمل الهدى، ويجاهد الطغاة، وينصر المستضعفين، ويعيد الإسلام قرآنيته وروحيته..[3].

(١) الطفولة وحقوق الطفل عند فاطمة الزَّهراء عليها السلام، الأستاذ المساعد حميد جعفر، جامعة الكوفة، كليَّة التربية الأساسيَّة، ص٣٠٠-٣٠١.

(٢) شذرات من حياة فاطمة الزَّهراء عليها السلام، إعداد شعبة التبليغ في قسم الشؤون الدينيَّة، العتبة العلويَّة المقدَّسة، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م، ص٤٣-٤٤.

(٣) تلك هي فاطمة الزَّهراء عليها السلام، حمود عبد الله الأهنوميّ، مطبعة المجلس الزيديّ الإسلاميّ،=

وهذه سيِّدتنا الزَّهراء عليها السلام المتهجِّدة في ليلها أسوة لنا، هذا إضافة إلى النتائج التربويَّة التي يحملها سلوك كهذا على العائلة والأولاد، فرؤية الأطفال لأمِّهم تصلِّي وتراعي المستحبَّات أفضل تربية لهم على الصعيد العباديّ، فلا تتوقَّع الأم أن يحسن أولادها صلاتهم، ويهتمُّون بالجانب العباديّ دون أن تكون قد بنيت سلوكها اهتمامها الشديد بالعبادة، عندها لن تحتاج حتَّى إلى الكلام، فهم سوف يحذون حذوها[1].

ومع أنَّها الناجية المنجية لشيعتها، وما من أحد يدخل الجنَّة دون شفاعتها، فإنَّها تقف بين يدي ربّها، ترتعد فرائصها من خيفته، فهي العارفة بربِّها وحقِّه جلَّ وعلا، فهيبتها تأخذ بمجامع قلبها، حتَّى أنَّها تهابه وتخافه، فالوقوف أمام العظيم يقتضي ذلك لمن كان له لب. ومع أنَّ الله عزَّ وجلَّ دائم الحضور في حياتها، إلَّا أنَّها تقبل بقلبها على العبادة تمسي بكلِّ وجودها في محضر الله، إنَّه الوقت الخاص، وقت الانقطاع إلى الله، وقت ملاقاة المحبوب دون الالتفات إلى الكثيرات.

لم تكن حياة السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام لله فحسب، بل إنَّها المعصومة الكاملة والأمَّة الحقيقيَّة التي قارن وجودها لله عزَّ وجلَّ، فوجودها الحقاني يبيِّن لنا أنَّ كلَّ فعل، بل كلّ خاطرة، بل كل نفس صدر عنها عليها السلام لم يكن سوى تجلٍّ لأراده الله عزَّ وجلَّ، وما يريده الله ويحبُّه هو مدار حياتها، فحياتها كلُّها عبادة بالمعنى العام، ومع ذلك نراها تسعى جاهدة لقيام الليل، والقيام بالمستحبَّات، وكثرة الصلاة والدعاء[2].

كانت فاطمة الزَّهراء عليها السلام أعبد نساء زمانها، وقد ضربت المثل الأعلى بعبادتها وإيمانها وطاعتها وانقطاعها إلى الله سبحانه وتعالى.. عن الامام الباقر عليه السلام في حديث

=صنعاء الجمهوريَّة اليمنيَّة، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م، ص١٣٧، ١٣٨٤.

(١) السيِّدة فاطمة الزَّهراء قدوة وأسوة، إعداد مركز المعارف للتأليف والتحقيق، إصدار دار المعارف الإسلاميَّة الثقافية، الطبعة الأولى، ٢٠١٨م، ص١٣٢-١٣٤.

(٢) السيِّدة فاطمة قدوة وأسوة، إعداد مركز المعارف للتأليف والتحقيق، إصدار دار المعارف الإسلاميَّة الثقافيَّة، الطبعة الأولى، ٢٠١٨م، ص١٢٨-١٣١.

قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنَّ ابنتي فاطمة ملأ الله قلبها وجوارحها إيمانا ويقينًا إلى مشاشها ففرغت لطاعة الله».

وسأل النبيّ صلى الله عليه وآله عليًّا عليه السلام: «كيف وجدت أهلك؟ فقال عليّ عليه السلام: نِعم العون على طاعة الله»، وعن الطبرسيّ.. قال: «سمِّيت فاطمة عليها السلام بالبتول لانقطاعها إلى عبادة الله».

ومن مظاهر عبادتها عليها السلام طول قيامها في الصلاة، وكثرة خشوعها.. قال الدليميّ والفهد: «روي أنَّ فاطمة عليها السلام كانت تنهج في صلاتها من خيفة الله تعالى». ومن المظاهر البارزة في عبادتها عليها السلام كثرة الصلوات والأدعية والأذكار التي خصَّها بها رسول الله صلى الله عليه وآله، وكانت تواظب على أدائها في محرابها، رغم أنَّها كانت تباشر شؤون المنزل وتربية الأولاد بنفسها. فعن الإمام الصادق عليه السلام: أنَّ أمَّه الزَّهراء كانت تصلِّي للأمر المخوف العظيم ركعتين.. تقرأ في الأولى الحمد وقل الله هو الله أحد خمسين مرَّة، وفي الثانية مثل ذلك، فإذا سلَّمت صلَّت على النبيّ صلى الله عليه وآله، ثمَّ ترفع يديها بالدعاء «اللهمَّ إنِّي أتوجَّه بهم إليك، وأتوسَّل إليك بحقِّهم العظيم الذي لا يعلم كنهه سواك، ويحق في حقِّه عندك عظيم.. وبأسمائك الحسنى، وكلماتك التامَّات التي أمرتني أن أدعوك بها..»، إلى آخر الدعاء، وعن الإمام الصادق عليه السلام أنَّها كانت تصلِّي صلاة الأوَّابين، وهي أربع ركعات، تقرأ في كلِّ ركعة خمسين مرَّة (قل هو الله أحد)[1].

إنَّ التوازن والاعتدال أمران مطلوبان في كلِّ شيء، وفي المقام لا بدَّ من التوازن في موضوع العبادة، وهذا ما نراه في حياة فاطمة الزَّهراء عليها السلام، فمع أهميَّة العبادة التي تبرز في حياة السيِّدة فاطمة عليها السلام، إلَّا أنَّنا لا نرى أنَّها قصَّرت في أداء أدوارها المختلفة في حياتها، فلم تكن تمارس عبادتها على حساب أولادها وأهلها، بل كانت توازن بين الجميع.

(١) سيِّدة النساء فاطمة الزَّهراء عليها السلام، عليّ موسى الكعبيّ، مطبعة ستاره، قم، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ، ص١١٣-١١٥.

ففي رواية أنَّ الرسول صلى الله عليه وآله دخل عليها يومًا وهي تصلِّي، فسمعت صوته، فتوقَّفت عن الصلاة، وحرجت من المصلَّى وسلَّمت عليه، فمسح يده على رأسها وقال: «**يا بنية كيف أمسيت رحمك الله؟ عشينا غفر الله لك وقد فعل**».

فالرواية تشير إلى أنَّها كانت منشغلة بتعبُّدها لله عزَّ وجلَّ، إلَّا أنَّها لـمَّا سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله قد أتى دارها ويريد الطعام، توقَّفت عن أداء مستحبَّاتها، وخرجت إليه لتقدِّم له ما يحتاج إليه، وفي ذلك إشارة إلى كيفيَّة ترتيب الأولويَّات في حياة الفرد[1].

ممكن القول فيما يخصُّ العبادة، وما لها من تأثير في حياة الأبناء، إذ إنَّه ممكن أن نجعل من بيتنا مسجدًا، وممكن أن نجعل أولادنا يلتزمون بأداء الواجبات من العبادات المفروضة، ونزرع حبَّ أداء الصلوات، لتكون هذه العبادة سببًا في تقويم السلوك واستقامة الأبناء، وتعويدهم على الالتزام منذ نعومة أظافرهم على ما يعود عليهم وعلى المجتمع كلّه بالنفع الدنيويّ والأخرويّ معًا، وهذا الأمر يعود على الأسرة في غرس هذه السلوكيَّات والتربية داخل البيت، مستمدًّا الالتزام والاهتمام بالعبادة من الوالدين.

(١) السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام قدوة وأسوة، إعداد مركز المعارف للتأليف والتحقيق، إصدار دار المعارف الإسلاميَّة الثقافيَّة، الطبعة الأولى، ٢٠١٨م، ص١٣٢-١٣٤.

المبحث الثاني

سيرة الزَّهراء عليها السلام بعد وفاة ابيها

استشهاد النبي صلى الله عليه وآله في حجر عليّ عليه السلام:

في مسند أحمد والمستدرك عن أمِّ سلمة قالت: والذي أحلف به، إنَّ عليّ بن أبي طالب لأقرب الناس عهدًا برسول الله صلى الله عليه وآله، اعدنا رسول الله صلى الله عليه وآله غداة، وهو يقول: «**جاء عليّ، جاء عليّ**» مرارًا، فقالت فاطمة: **كأنَّك بعثته في حاجة؟** قالت: فجاء بعد، قالت أمُّ سلمى: فظننت أنَّ له إليه حاجة، فخرجنا من البيت، فقعدنا عند الباب، وكنت أدناهم إلى الباب، فأكبَّ عليه رسول الله صلى الله عليه وآله، وجبريل يساره ويناجيه، ثمَّ قبض رسول الله صلى الله عليه وآله من يومه ذلك، فكان عليّ عليه السلام أقرب عهدًا.

ولـمَّا حضره الموت، كان أمير المؤمنين عليه السلام حاضرًا عنده، فلمَّا قرب خروج نفسه صلى الله عليه وآله، قال له: **ضع يا عليّ رأسي في حجرك، فقد جاء امر الله تعالى، فاذا فاضت نفسي فتناولها بيدك، فامسح بها وجهك، ثمَّ وجِّهني إلى القبلة، وتولَّ أمري، وصلِّ عليَّ أوَّل الناس، ولا تفارقني حتَّى تواريني في رمسي، واستعن بالله تعالى.** فأخذ عليّ رأسه صلى الله عليه وآله، فوضعه في حجره فأغمي عليه، فاكبَّت فاطمة عليها السلام تنظر في وجهه وتنحبه وتبكي.

فبكى طويلًا، وأومأ إليها بالدنوِّ فيه، فدنت منه فأسرَّ إليها شيئا تهلَّل وجهها له، ثمَّ قُبِض صلى الله عليه وآله ويد أمير المؤمنين عليه السلام تحت حنكه، ففاضت نفسه صلى الله عليه وآله فيها، فرفعها إلى وجهه فمسحه بها، ثمَّ وجَّهه وفحصه ومدَّ عليه إزاره، واشتغل بالنظر في أمره[1].

(١) خادمة الزَّهراء عليها السلام، نور صالح، فاطمة صدِّيقة شهيدة عليها السلام الموسوعة، ص٢٣، ٢٧-٢٨.

وهكذا فبعد رحيل خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله، ماذا حلَّ بالسيِّدة الزَّهراء عليها السلام؟ لقد كانت الزَّهراء عليها السلام كغيرها من عامَّة المسلمين ترى عليًّا أحقّ الناس بالخلافة بعد أبيها؛ لأنَّها سمعت أباها، كما سمعها غيرها، ينصُّ عليه بصراحة لا تقبل التأويل، ولم تكن هي، ولا بقيَّة بني هاشم، والغالبية العظمى في المسلمين ينتظرون ما حدث من المفاجأة، والنبيّ صلى الله عليه وآله لا يزال جثَّة هامدة لم يوارَ الثرى، وأهله مشغولون عن كلِّ شيء بتجهيزه إلى مقرِّه الأخير[1].

بعد أن التحق أبي الزَّهراء محمَّد صلى الله عليه وآله بالرفيق الأعلى، فقدت تلك الرعاية والاحترام، وانهالت عليها المصائب والأحزان حزن فقد الوالي العطوف، حزن تخلِّي الأمَّة عن إحقاق حقِّها، حزن إقصاء زوجها من منصبه الذي وضعه الله فيه، حزن إهدار كرامتها بالهجوم على دارها، حزن ضربها وإسقاط جنينها، والكارثة الكبرى هو الحزن على ضياع ما تحمَّل الرسول صلى الله عليه وآله من المتاعب في إرساء قواعد الدين، وإرساء ونشر مبادئ الإسلام، ورجوع الأمَّة الإسلاميَّة إلى الوراء.

إنَّ المسلم المتتبِّع للتاريخ والسيرة قد يتفاجأ بهذه الأحداث الكثيرة بعد رحيل خاتم الأنبياء والمرسَلين محمَّد صلى الله عليه وآله، فإنَّها أحداث تدهش النفوس، وتحيِّر العقول، وتجعل الإنسان يعيد النظر في كثير من الأمور، ولعلَّ شخصًا مسلمًا يسأل ويقول في نفسه: هل هذه الحوادث عندما أقرأها تغيِّر في مسيرة حياتي؟.

إنَّ المسلم إذا جال فكره في هذه التساؤلات، فالجواب يأتيه في القرآن ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

(١) هاشم معروف الحسنيّ، سيرة الأئمَّة الاثني عشر، الطبعة الأولى، (١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م)، الطبعة الثانية (١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨ م)، القسم الأوَّل، دار القلم، بيروت، لبنان.

المطلب الأوَّل: الزَّهراء عليها السلام في خضمِّ الأحداث

لقد ورد عن الرسول صلى الله عليه وآله أحاديث بيَّن فيها ظلامة أهل بيته مِن بعده، مِن قِبَل أمَّته، والأحاديث من كتب السنَّة فقط، لكي ينتبه القارئ إلى كلام رسول الله صلى الله عليه وآله:

١. منها ما جاء في كتاب كشف الغمَّة: ١/ ٤١٦، قال صلى الله عليه وآله: «**احفظوني في عترتي وذريَّتي، فمن حفظني فيهم حفظه الله، ألا لعنة، ألا لعنة الله على من آذاني فيهم**» يقولها ثلاثًا.

٢. ومنها ما جاء في كتاب ذخائر العقبى: ١٨، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**استوصوا بأهل بيتي خيرًا، فإنِّي أخاصمكم عنهم غدًا، ومن أكن خصمه أخصمه، ومن أخصمه دخل النار**».

٣. ومنها ما جاء في المستدرك للحاكم النيسابوري: ٨٧/ ٤/ ٦/ ٤، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**سيلقى أهل بيتي الله بيته من بعدي تطريدًا وتشريدًا**».

٤. ما جاء في كتاب المناقب لابن المغازليّ: ٤٠٣/ ٦٦ حديث ٩٤٠، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**الويل لظالمي لأهل بيتي، عذابهم مع المنافقين في الدَّرك الأسفل من النار**».

٥. ومنها ما جاء في ذخائر العقبى: ٢٠، قال صلى الله عليه وآله: «**إنَّ الله حرَّم الجنَّة على من ظلم أهل بيتي أو قاتلهم أو أغار عليهم أو سبَّهم**».

٦. ومنها ما جاء في كنز العمَّال: ١٢/ ٩٣، قال صلى الله عليه وآله: «**اشتدَّ غضب الله على مَن آذاني في عترتي**».

٧. وأيضًا في كنز العمَّال: ١٢/ ١٠٣، قال صلى الله عليه وآله: «**مَن آذاني في أهلي فقد آذى الله**»[1].

(١) الأستاذ شبير، الوثائق المخفيَّة في ظلامة السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام، الجزء الأوَّل، ص٤-٥.

لماذا اخترنا هذه الفترة؟ والسؤال الآخر: لماذا خصَّصنا البحث بهذه الفترة، أي في الأحداث التي وقعت بُعَيد استشهاد النبيّ صلى الله عليه وآله دون بقيَّة الأحداث التي وقعت في هذه الأمَّة؟.

والجواب: إنَّ هذه الفترة هي أكثر الفترات حساسيَّة في تاريخنا، ويمكن إثبات أهميَّتها من جهتَين، الأولى: هي أنَّ الفترة الأولى التي تتلو موت أيِّ زعيم في العالم، سواء كان زعيمًا دينيًّا أو سياسيًّا أو حتَّى اقتصاديًّا، تكون مهمَّة لأتباعه؛ لأنَّ غيابه يترك فراغًا كبيرًا بينهم، سيعون لسدِّه في أسرع وقت، وهذا يسبِّب في العادة ربكة في الوضع العام، وهذا ما حصل في الدولة الإسلاميَّة، حيث كان غياب النبيّ صلى الله عليه وآله بمثابة زلزال قوي لهذه الدولة الفتيَّة كشف عن حقيقة كثير من الصحابة الذين اتّضحت نواياهم من خلال ردود أفعالهم. الثانية: هي أنَّ الافتراق الذي يعيشه المسلمون اليوم هو وليد تلك الخلافات إلى حصلت في الأيَّام الأولى من وفاته صلى الله عليه وآله[1]. من هنا تعلم أنَّ الزَّهراء عليها السلام طالبت بعدَّة أمور، وهي: الخُمس، الفيء، والميراث، وصدقات النبيّ صلى الله عليه وآله، ومطالبتها بميراثها أو بفدك، كما يحاول أن يصوِّر البعض. ونورد هنا توضيحًا لهذه المفردات:

١. الخمس: هو عبادة ماليَّة افترضها الله تعالى على المسلمين في كتابه، حيث قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٢. الفيء: الفاء والهمزة مع معتل بينهما كلمات تدلُّ على الرجوع، يقال: فاء الفيء رحل الظلّ من جانب المشرق إلى جانب المغرب، وكلُّ رجع في فيء، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾، وهذه الصدقات التي طلبتها فاطمة عليها السلام من أبي بكر

(١) أحمد سلمان، فاطمة الزَّهراء عليها السلام أحداث ما بعد رحيل الخاتم صلى الله عليه وآله، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م، ص٢٣، دار المحجَّة البيضاء، دار الأولياء، ص٦.

وكذلك سهمه صلى الله عليه وآله بخيبر وفدك.

٣. فدك: وهذه أشهر ما يُذكَر عادة ،وهي ملك لفاطمة عليها السلام، وقد انتزعها أبو بكر وعمر منها. وسنفرد بابًا كاملًا في هذه المسالة، لاسيما في بيان أنَّها نِحلة وليست ميراثًا للمصطفى صلى الله عليه وآله.

٤. ميراث النبيّ صلى الله عليه وآله: وهي جملة أملاكه وتركته التي بقيت بعد استشهاده، وانتقاله للرفيق الأعلى صلى الله عليه وآله[١].

حادثة الدَّار:

إنَّ عمر هجم مع ثلاثمائة رجل على بيتها، أقبل عمر بقبس من نار إلى دار فاطمة عليها السلام، فجاء عمر ومعه فتيلة، فقالت فاطمة عليها السلام: **أتراك محرقًا عليَّ بابي؟**.

قال: نعم، وذلك أقوى فيما جاء به أبوك.

فقالت فاطمة عليها السلام: **يا ابن الخطَّاب اجئتِ لتحرق دارنا؟**.

قال: نعم أخرجي من في البيت وإلَّا أحرقته.

فحملوا حطبًا وحمل معهم، فجعلوه حول منزلها، وكان يصيح: أحرقوا دارها، فهجموا عليه وأحرقوا بابها، واستخرجوه منه كرهًا، فضرب عمر الباب برجله فكسره ثمَّ دخلوا.

قال عمر ابن الخطاب: .. فركلت الباب، وقد ألصقت أحشائها بالباب تترسه..

فقالت فاطمة عليها السلام: آه يا فضَّة إليك فخذيني، فقد والله قتلوا ما في أحشائي من حمل.. ودخلت البيت، فأسقطت سقطًا سمَّاه عليّ عليه السلام (محسنًا)[٢].

---

(١) أحمد سلمان، فاطمة الزَّهراء (٨)، أحداث بعد رحيل الخاتم صلى الله عليه وآله، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م، مطبعة دار المحجَّة البيضاء.

(٢) عبد الله عبد العزيز الهاشميّ، فاطمة الزَّهراء عليها السلام من قبل الميلاد إلى بعد الاستشهاد، ص٢٢٨- ٢٣٠

ما كانت الزَّهراء عليها السلام تنتظر أن ترى في حياتها يومًا كذلك اليوم، ومأساة كتلك المأساة، وإن كان أبوها الرسول صلى الله عليه وآله قد أخبرها بذلك إجمالا أو تفصيلًا، ولكنَّ السماع شيء والرؤية شيء آخر، وتأثير المصيبة يختلف سماعًا ورؤيةً، وترى الشعراء يتألَّمون من هذه المأساة المروِّعة، ويتحدَّثون عنها، يقول أحدهم:

فأسقطت بنت الهدى وا حزنا
جنينها ذاك المسمَّى مُحسنا

ويقول الآخر:

أوَ تدري ما صدر فاطم ما المسما
ر ما حال ضلع المكسور
ما سقوط الجنين؟ ما حمرة
العين؟ ما بال قرطها المنشور[1]

لـمَّا جاءت فاطمة عليها السلام خلف الباب لتردَّ عمر وأصحابه، عصر عمر (فاطمة) خلف الباب، حتَّى أسقطت جنينها، وبقي مسمار الباب في صدرها، وسقطت مريضة حتَّى ماتت.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**اللهمَّ العن من ظلمها، وعاقب من أغضبها، وأذلَّ من أذلَّها، وخلِّد في نارك من ضرب جنينها حتَّى ألقت ولدها**»[2].

ومن رواية لابن جرير الطبريّ، قال:

حدَّثنا جرير عن زياد بن كليب قال: أتى عمر بن الخطَّاب إلى منزل عليّ عليه السلام وبه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين، وقال: والله لأحرقنَّ عليكم أو لتخرجنَّ إلى البيعة، فخرج عليه الزبير معلنًا بالسيف، فسقط السيف من يده، فوثبوا عليه فأخذوه..

(١) محمَّد كاظم القزوينيّ، الزَّهراء عليها السلام من المهد إلى اللحد، ص٢٦٧-٢٧٠.

(٢) عبد الله عبد العزيز الهاشميّ، فاطمة الزَّهراء عليها السلام من قبل الميلاد إلى بعد الاستشهاد، ص٢٣٠-٢٣١.

إلى آخر كلامه، وقد روى الشهرستاني عن النظام قال: إنَّ عمر ضرب بطن فاطمة عليها السلام يوم البيعة حتَّى ألقت الجنين (المحسن) من بطنها، وكان يصيح أحرقوا دارها بمن فيها، وما كان في الدار غير عليّ وفاطمة عليها السلام والحسن والحسين عليهما السلام، فقالت فاطمة: **أفتحرق عليّ ولدي؟**.

فقال: إي والله أو ليخرجنَّ وليبايعنَّ[1].

هذا ما ظفرت به المصادر المذكورة في كتب أهل السنَّة والجماعة. بعد عرض هذه النصوص التاريخيَّة انكشف لنا موقف بعض المسلمين تجاه أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله، واتَّضح لنا أنَّ بعض الأفراد لم يراعوا حرمة السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام، ولا حرمة بيتها، ولا راقبوا كرامة زوجها أمير المؤمنين عليه السلام، ولا كرامة ولديها الحسن والحسين عليهما السلام، ولم يحفظوا فيهم حرمة الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله.

المطلب الثاني: فاطمة الزَّهراء عليها السلام تتصدَّى للمعارضة

هناك مجموعة أهداف مهمَّة كانت وراء طلب الزَّهراء عليها السلام لحقِّها، وهي:

أوَّلًا: أرادت الزَّهراء عليها السلام استرجاع حقّها المغصوب، وهذا أمر طبيعيّ لكلِّ إنسان غُصب حقَّه أن يطالب به بالطُّرق المشروعة.

ثانيًا: كان الحاكم قد استولى على جميع الحقوق السياسيَّة والاقتصاديَّة لبني هاشم، وألغى جميع امتيازاتهم الماديَّة والمعنويَّة.

وبالنسبة للأموال فقد منعوا بني هاشم فدك والميراث والخُمس، أي سهم ذوي القربى، واعتبروهم كسائر الناس.

وجعلت الزَّهراء عليها السلام من مطالبة بحقِّ بني هاشم وقتها، ومدافعة عنهم اعتمادًا على فضلها وشرفها وقربها من رسول الله صلى الله عليه وآله.

---

(١) السيِّد محمَّد كاظم القزويني، الزَّهراء عليها السلام من المهد إلى اللحد، ص٢٦٥-٢٦٦.

ثالثًا: استهدفت الزَّهراء عليها السلام، هي مطالبتها الحثيثة بفدك، فسح المجال أمامها للمطالبة بحقِّ زوجها. والواقع فدك صارت تتمشَّى مع العلاقة جنبًا إلى جنب، كما صار لها عنوان كبير، وسعة في المعنى، فلم تبقَ فدك قرية زراعيَّة محدودة بحدودها في عهد الرسول صلى الله عليه وآله، بل صار معناها الخلافة والرقعة الإسلاميَّة بكاملها، وممَّا يدلُّ على هذا تحديد الأئمَّة لفدك، فقد حدَّها عليّ عليه السلام في زمانه بقوله: حدٌّ منها جبل أُحد، وحدٌّ منها عريش مصر، وحدٌّ منها سيف البحر، وحدٌّ منها دومة الجندل، وهذه الحدود التقريبية للعالم الإسلاميّ آنذاك.

رابعًا: أرادت الزَّهراء عليها السلام هي بمنازعة أبي بكر، إظهار حاله وحال أصحابه للناس وكشفهم على حقيقتهم، ليهلك من هلك عن بيِّنة، ويحيى من حي عن بيِّنة، وإلَّا فبضعة الرسول صلى الله عليه وآله أجلُّ قدرًا وأعلى شأنًا من أن تقلب الدنيا على أبي بكر؛ حرصًا على الدنيا، ولاسيما أنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله أخبرها بقرب موتها، وسرعة لحاقها به صلى الله عليه وآله.

ولذا لم ينهها الإمام عليّ عليه السلام عن منازعة أبي بكر في فدك، وهو القائل: «**وما أصنع بفدك وغير فدك، والنفس مكانها في غد جدث**»(١).

وهنا نتساءل، ما سبب إعطاء النبيّ صلى الله عليه وآله أرض فدك لفاطمة الزَّهراء عليها السلام أنَّ النبي صلى الله عليه وآله كان يرى أنَّ فاطمة عليها السلام مثل أمِّها خديجة الكبرى عليها السلام، التي دعمت النبيّ صلى الله عليه وآله ودين الله تعالى بأموالها، فهي أيضًا تعاضد عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ولا شكَّ أنَّ الشيء الوحيد الذي يقدر على جذب السواد الأعظم من الناس إلى شخص ما، أو يرفع العراقيل التي يضعها الأعداء في طريقه، هو وجود المال وإنفاقه عليهم، وكان إيراد فدك سنويًّا أربعة وعشرين ألف دينار، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يعلم أنَّ فاطمة وعليّ عليهما السلام، لو عاشا بعده فقيرَين، فإنَّ سواد الناس لا يعاضدونهما فحسب، بل يصبحون عقبة في طريق هداية الناس.

(١) عبد الله عبد العزيز الهاشميّ، فاطمة الزَّهراء عليها السلام من قبل الميلاد إلى الاستشهاد، ص٢٥٥-٢٥٧.

ولذا وهب النبيّ محمَّد صلى الله عليه وآله فدكًا لفاطمة الزَّهراء عليها السلام، لكي تبقى بإشرافها معمورة، وتستغل فوائدها في الدعوة إلى الإسلام، والعمل على انتشاره[1].

لقد أوضحت الزَّهراء عليها السلام أنَّ إمامة عليّ عليه السلام هي بعد الرسول صلى الله عليه وآله، هي الامتداد الحقيقيّ للرسالة المحمَّديَّة، وكلَّفها هذا الموقف التضحية بنفسها الطاهرة، فظلامتها لم تكن من أجل قضيَّة هامشيَّة، بل من أجل قضيَّة كبرى، ألا وهي الإمامة والخلافة.

والجدير بالذِّكر أنَّ مظلوميَّة الزَّهراء عليها السلام تعدُّ من المسائل الثابتة والحوادث المهمَّة التي وقعت بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، وجاء في صحيح البخاريّ: «**إنَّ فاطمة غضبت على أبي بكر، ومات وهي غضبى عليه**»، وقد طُرحت مظلوميَّتها من قِبَل أئمَّة أهل البيت عليهم السلام، ومن خلال أحاديثهم المتواترة، ومن هنا لم تعد هذه المظلوميَّة مسألة عاطفيَّة أو مجرَّد حادثة تاريخيَّة، لذا أخذت مظلوميَّة الزَّهراء عليها السلام بُعدًا آخر؛ لأنَّها ذات محتوى ومضمون خاص[2].

ذكر الأستاذ عبد الفتاح عبد المقصود في كتابه (الإمام عليّ بن أبي طالب)، ص٥٥: «واجتمعت جموعهم آونة في الخفاء وأخرى على ملأ، يدعون إلى ابن أبي طالب؛ لأنَّهم رأوه أولى الناس بأن يلي أمور الناس، ثمَّ تألَّبوا حول داره يهتفون باسمه، ويدعونه أن يخرج إليهم، يردُّوا عليه تراثه المسلوب.. فإذا المسلمون أمام هذا الحدث مخالف أو نصير، وإذا بالمدينة حزبان، وإذا بالوحدة المرجوَّة شقَّان أوشكا على انفصال، ثمَّ لا يعرف غير الله ما سوف تؤول إليه بعد هذا الحال، فهلا كان عليّ (كابن عبادة) حريًّا في نظر ابن الخطَّاب بالقتل حتَّى لا تكون فتنة، ولا يكون انقسام».

(١) آية الله السيِّد حسن الأبطحيّ، أنوار الزَّهراء عليها السلام، الطبعة الثانية، مطبعة أفق، إيران، ص٤٢.

(٢) كاظم التصيدي الواسطيّ، أهل البيت عليهم السلام في الكتاب المقدَّس، الطبعة الأولى إيران، قم المقدَّسة ١٣٨٣ش/ ١٤٢٤هـ.ق، ص٨٨

وذكر ابن قتيبة في (الإمامة والسياسة)، ص١٩:

كيف كانت بيعة عليّ بن أبي طالب (كرَّم الله وجهه)؟ قال: وإنَّ أبا بكر تفقَّد قومًا تخلَّفوا عن بيعته عند عليّ (كرَّم الله وجهه)، فبعث إليهم عمر، فجاء فناداهم وهم في دار عليّ، فأبوا أن يخرجوا، فدعا بالحطب وقال: والذي نفس عمر بيده، لتخرجنَّ أو لأحرقها على مَن فيها، فقيل له: يا أبا حفص إنَّ فيها فاطمة؟ قال: وإن. فخرجوا فبايعوا، إلَّا عليًّا، فإنَّه زعم أنَّه قال: حلفتُ أن لا أخرج ولا أضع ثوبي على عاتقي حتَّى أجمع القرآن. فوقفت فاطمة على بابها، وقالت: **لا عهد لي بقومٍ حضروا أسوأ محضر منكم، تركتم رسول الله صلى الله عليه وآله جنازة بين أيدنيا، وقطعتم أمركم بينكم، لم تستأمرونا، ولم تردُّوا لنا حقًّا**[1].

ما هي فدك؟

فدك اسم قرية معمورة بالكاد، مزروعة بالأشجار، في ضواحي المدينة المنوَّرة، وكانت هذه القرية تُعرَف بهذا الاسم منذ القِدَم أيضًا، وكانت فدك بحوزة اليهود، إلَّا أنَّه حين فتح المسلمون خيبر في العام السابع للهجرة، خاف يهود قرية (فدك)، فبعثوا رسولًا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وطلبوا الصلح، فلبَّى رسول الله صلى الله عليه وآله طلبهم، وعقد معهم الصلح، وفي مقابل ذلك أعطى هؤلاء نصف أموالهم من بساتين وأراضي فدك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، أي إنَّهم خصُّوه بها دون سواه.

ومِن الأحكام الإسلاميَّة المتَّفق عليها، هو أنَّه إذا فتح المسلمون موضعًا دون أن يوجفوا عليه بخيل أو ركاب، فإنَّه يعتبر من الصوافي التي تخصُّ رسول الله، وليس لمسلم أن يشاركه فيه، وبما أنَّ اليهود هم الذين قدَّموا (فدك) إليه بأنفسهم، فهي اذًا مُلك خاص به، ولا تتعلَّق بأي مسلم من المسلمين[2].

(١) محمَّد كاظم القزوينيّ، فاطمة الزَّهراء من المهد إلى اللحد، المطبعة العلميَّة قم، شارع ارم، ١٤١٤هـ.ق، ص٢٦٢، ٢٦٤-٢٦٥.

(٢) السيِّد حسن الأبطحيّ، أنوار الزَّهراء عليها السلام الطبعة الثانية، مطبعة أفق، ص٤٠-٤١.

حقُّ الزَّهراء عليها السلام في فدك:

فاطمة الزَّهراء عليها السلام هي الوريثة الوحيدة الشرعيَّة لأبيها رسول الله صلى الله عليه وآله، عن أبي سعيد الخدريّ قال: لـمَّا نزلت آية ٢٦ من سورة الإسراء: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾، دعا رسول الله صلى الله عليه وآله: فاطمة سلام الله عليها فأعطاها فدكًا[١].

ومن جملة ما غنمه المسلمون أموال يهود خيبر، فاخذ النبيّ صلى الله عليه وآله سهمه وسهم الله، قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ سورة الأنفال، آية: ٤١.

استولى أبو بكر بعد موت الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله على الحوائط السبعة، وعلى فدك، وعلى حقِّها في خمس خيبر. إنَّ أبا بكر منع فاطمة عليها السلام وبني هاشم سهم ذوي القربى، وجعله في سبيل الله في السلام والكراع.

عن عائشة: إنَّ فاطمة عليها السلام بنت النبيّ صلى الله عليه وآله أرسلت إلى أبي بكر فسألته ميراثها من رسول الله صلى الله عليه وآله.. إلى أن قالت: فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة عليها السلام منها شيئًا، فوجَدَت (أي غضبت) فاطمة عليها السلام على أبي بكر في ذلك، فهجرته فلم تكلِّمه حتَّى توفِّيت[٢].

روى صاحب الاحتجاج والشيخ الأجل عليّ بن ابراهيم القمِّي، عن حمَّاد بن عثمان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لـمَّا بويع أبو بكر واستقام له الأمرعلى جميع المهاجرين والأنصار، بعث إلى فدك أن أخرِج وكيل فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله منها.

فجاءت فاطمة عليها السلام إلى أبي بكر فقالت: **لـمَ تمنعني ميراثي من أبي رسول الله صلى الله عليه وآله؟** فقال: هاتي على ذلك بشهود، فجاءت بأمِّ أيمن، فقالت: لا أشهد يا أبا بكر حتَّى أحتجَّ عليك بما قال رسول الله صلى الله عليه وآله. فقالت: أنشدك بالله، ألست تعلم أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

(١) عبد الله عبد العزيز الهاشميّ، فاطمة الزَّهراء من قبل الميلاد إلى بعد الاستشهاد، ص٢٤٩-٢٥٠.

(٢) المصدر نفسه.

إنَّ أمَّ أيمن من أهل الجنَّة؟ فقال بلى. قالت: فأشهد أنَّ الله عزَّ وجلَّ أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾، فجعل فدك لفاطمة بأمر الله. وجاء عليّ عليه السلام فشهد بمثل ذلك، فكتب كتابًا لها ودفعه إليها.

فدخل عمر فقال: ما هذا الكتاب؟ فقال أبو بكر: إنَّ فاطمة عليها السلام ادَّعت في فدك. وشهدت لها أم أيمن وعليّ فكتبته. فأخذ عمر الكتاب من فاطمة ومزَّقه، وقال: هذا فيء المسلمين[1].

وقال مالك بن أوس بن الحدثان، وعائشة وحفصة، يشهدون على رسول الله صلى الله عليه وآله بأنَّه قال: إنَّا معاشر الأنبياء لا نورِّث، ما تركناه صدقة، فإنَّ عليًّا عليه السلام يبحر إلى نفسه، وأم أيمن فهي امرأة صالحة، لو كان معها غيرها لنظرنا فيه.

وعن عليّ بن أسباط قال: لـمَّا ورد أبو الحسن موسى عليه السلام على المهدي العبَّاسيّ، رآه يردُّ المظالم، فقال: «يا امير المؤمنين، ما بال مظلمتنا لا تُرد. فقال له: و ما ذاك أبا الحسن؟ قال: إنَّ الله تبارك وتعالى لـمَّا فتح على نبيِّه صلى الله عليه وآله فدكًا وما والاها، لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، فانزل الله على نبيه صلى الله عليه وآله ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾، فلم يدرِ رسول الله صلى الله عليه وآله مَن هُم، فرجع في ذلك إلى جبرئيل، وراجع جبرئيل عليه السلام ربَّه فأوحى الله اليه أن ادفع فدكًا إلى فاطمة عليها السلام، فدعاها رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال لها: **يا فاطمة إلى الله أمر بأن أدفع إليك فدكًا**. فقالت: **قد قبلت يا رسول الله من الله ومنك**. فلم يزل وكلاؤها فيها حياة رسول الله صلى الله عليه وآله. فلـمَّا ولي أبو بكر أخرج منها وكلاءها، فأتته فسألته أن يردَّها عليها. فقال لها: أئتيني بأسود أو أحمر يشهد لكي، فجاءت بأمير المؤمنين وأم أيمن فشهدا لها. فكتب لها بترك التعرُّض، فخرجت والكتاب معها، فلحقها عمر فقال: ما هذا معك يا بنت محمَّد؟ قالت: كتاب كتبه لي ابن أبي قحافة، قال: أرينيه، فأبت فانتزعه من يدها، ونظر

(١) هشام آل قطيط، سلوا فاطمة عليها السلام عن مصائبها، طبعة أولى، بيروت، لبنان، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨، ص٣١٨-٣١٩.

فيه، ثمَّ تفل فيه ومحاه وخرقه، فقال لها: هذا لم يوجف عليه أبوك بخيل ولا ركاب، فضعي الحبال في رقابنا[1].

إنَّ أنكار أبي بكر فدك خالصة لرسول الله صلى الله عليه وآله مع كونه مخالفًا للآية والإجماع وأخبارهم. وإلى أنَّه انتزع فدك من يد وكلاء فاطمة عليها السلام، وطلب منها الشهود مع أنَّها لم تكن مدَّعية.

فحكم بغير حكم الله وحكم الرسول صلى الله عليه وآله، وصار بذلك من الكافرين بنصٍّ قرآنيّ. وإلى طلب الشاهد الثالث من المعصومة، وردَّ شهادة المعصومين الذين أنزل الله تعالى فيهم ما أنزل، وقال فيهم النبيّ صلى الله عليه وآله ما قال، ومنعها ميراثها، خلافا لحكم الكتاب وافترائه على الرسول صلى الله عليه وآله بما شهد الكتاب والسنَّة بكذبه، فتبوَّأ مقعده من النار، وظلمه عليها صلوات الله عليها في منع سهم ذوي القربى، خلافًا لله تعالى ومناقضته لما رواه، حيث مكَّن الأزواج من التصرُّف في الحجر وغيرها. ممَّا يستنبط من فحاوي ما ذكر من الأخبار. ولا يخفى طريق استنباطها على أولي الأبصار[2].

فخرجت فاطمة صلوات الله عليها من عندهما باكية حزينة، فلمَّا كان بعد ذلك [هذا] جاء عليّ عليه السلام إلى أبي بكر وهو في المسجد وحوله المهاجرون والأنصار، فقال: يا أبا بكر منعت فاطمة ميراثها من رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد ملكته في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله. فقال أبو بكر: هذا فيء المسلمين، فإن أقامت شهودًا أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله جعله لها، وإلَّا فلا حقَّ لها فيه، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: يا أبا بكر تحكم فينا بخلاف حكم الله في المسلمين؟ قال: لا، قال: فإن كان في يد المسلمين شيء يملكونه، ثمَّ ادَّعيت أنا فيه، هل تسأل البيِّنة؟ قال: إيَّاك كنت أسأل البيِّنة، قال: فما بال فاطمة عليها السلام سألتها البيِّنة على ما في يدها، وقد

(١) آية الله العظمى السيِّد محمَّد الحسينيّ الشيرازيّ، فاطمة الزَّهراء عليها السلام في السُّنَّة المطهَّرة، الطبعة الأولى (١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م)، مطبعة العراق، كربلاء، ص٢٤-٢٥.

(٢) العلَّامة المولى الشيخ محمَّد باقر المجلسيّ، العزيزة في لوعة الشهيدة عليها السلام، موسوعة بحار الأنوار، الطبعة الأولى، نكارش، إيران، قم، ص٣٨٣.

ملكته في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وبعده، ولم تسأل المسلمين البيِّنة على ما ادَّعوها شهودًا، كما سألتني على ما ادَّعيت عليهم. فسكت أبو بكر، فقال عمر: يا عليّ دعنا من كلامك فإنَّا لا نقوى على حجَّتك، فإن أتيت بشهود عدول وإلَّا فهو فيء للمسلمين، لا حقَّ لك ولا لفاطمة.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: يا أبا بكر تقرأ كتاب الله؟ قال نعم. قال: أخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، نزلت فينا أم في غيرنا؟ قال: بلى فيكم. قال: فلو أنَّ شهودًا شهدوا على أنَّ فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله أتت بفاحشة ماكنت صانعًا بها؟ قال: كنت أقيم عليها الحد، كما أقيم على نساء المسلمين، قال: إذًا كنتَ عند الله من الكافرين. قال: ولم؟ قال: لأنَّك رددت شهادة الله لها بالطهارة، وقبلت شهادة الناس عليها، كما رددت حكم الله وحكم رسول الله صلى الله عليه وآله، إذ جعل لها فدك وقبضته في حياته، ثم قبلت شهادة اعرابي بائل على عقبيه عليها، وأخذت منها فدك وزعمت أنَّها فيء للمسلمين[1].

لما أجمع أبو بكر على منع فاطمة عليها السلام فدك، وبلغها ذلك لاثت خمارها على رأسها واشتملت بجلبابها، وأقبلت في لـمَّة من حفدتها ونساء قومها، تطأ ذيولها، ما تخرم مشيتها مشية رسول الله صلى الله عليه وآله، حتَّى دخلت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والأنصار وغيرهم، فنيطت دونها ملاءة، فجلست، ثمَّ أنَّت أنَّةً أجهش القوم لها بالبكاء، فارتجَّ المجلس، ثمَّ أمهلت هُنيئة حتَّى إذا سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم، افتتحت الكلام بحمد الله تعالى والثناء عليه، والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله، فعاد القوم في بكائهم، فلمَّا أمسكوا عادت في كلامها، فقالت عليها السلام[2]:

(١) هشام آل قطيط، سلوا فاطمة عن مصابها، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ٣١٩-٣٢٠.

(٢) آية الله سيِّد حسن الأبطحيّ، أنوار الزَّهراء عليها السلام، الطبعة الثانية مطبعة أفق، قم، ص٥٠.

«الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم، والثناء بما قدم من عموم نِعم ابتداها، وسبوغ آلاء أسداها، وتمام منن أولاها جمٍّ على الإحصاء عددها، ونأى من الجزاء أمدها، وتفاوت في الإدراك أبدها وندبهم لاستزادها بالشكر لاتصالها، واستحى الخلائق بإجزالها وثنى بالندب من أمثالها. وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له كلمة جعل الإخلاص تأويلها، وضمن القلوب وصولها، وأنار في الفكر معقولها، الممتنع من الإبصار رؤيته، ومن الألسن صفته، ومن الأوهام كيفيَّته، ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، وأنشأها بلا أحتذاء أمثلة امتثلها»، إلى أن قالت سلام الله عليها: «أيُّها الناس اعلموا أنِّي فاطمة وأبي محمَّدﷺ أقول عودًا وبدءًا، ولا أقول ما أقول غلطًا، ولا أفعل ما افعل شططًا ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، فإن تعزروه وتعرفوه تجدوه أبي دون نسائكم، و أخا ابن عمِّي دون رجالكم، ولنعم المعزى إليهﷺ، فبلَّغ الرسالة صادعًا بالنذارة، مائلًا عن مدرجة المشركين، ضاربًا ثَبَجهم، آخذًا بأكظامهم، داعيًا إلى سبيل ربِّه بالحكمة والموعظة الحسنة، يكسر الأصنام، وينكث الهام، حتَّى انهزم الجمع وولُّوا الدُّبر، حتَّى تفرَّى الليل عن صبحه، وأسفر الحقُّ عن محضه، ونطق زعيم الدين، وخرست شقاشق الشياطين، وطاح وشيظ النفاق، وانحلَّت عقد الكفر والشقاق، وفهتم بكلمة الإخلاص في نفر من البيض الخماص، الَّذينَ أَذْهَبَ الله عَنْهُمُ الرِّجس وَطَهَّرهُمْ تَطْهِيرًا، ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾، مذقة الشارب، ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، وموطئ الأقدام، تشربون الطَّرَق، وتقتاتون القدَّ أذلَّة خاسئين [صاغرين]، تخافون أن يتخطَّفكم الناس من حولكم، فأنقذكم الله تبارك وتعالى بأبي محمّدﷺ بعد اللّتيّا والّتي، وبعد أن مني ببهم الرجال وذؤبان العرب، ومردة أهل الكتاب»[1].

(١) هشام آل قطيط، سلوا فاطمةعليها السلام عن مصائبها، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، ص٣٢٩-٣٣٠.

هناك مجموعة أهداف مهمَّة كانت وراء طلب الزَّهراء عليها السلام لحقِّها، وهي:

أوَّلًا: أرادت الزَّهراء عليها السلام استرجاع حقَّها المغصوب، وهذا أمر طبيعيّ لكلِّ إنسان غُصِب حقُّه أن يطالب به بالطُّرق المشروعة.

ثانيًا: كان الحاكم قد استولى على جميع الحقوق السياسيَّة والاقتصاديَّة لبني هاشم، وألغى جميع امتيازاتهم الماديَّة والمعنويَّة.

وبالنسبة للأموال، فقد منعوا بني هاشم فدك والميراث والخمس، أي سهم ذوي القربى، واعتبروهم كسائر الناس.

وجعلت الزَّهراء عليها السلام من مطالبة بحقِّ بني هاشم وقتها، ومدافعة عنهم، اعتمادًا على فضلها وشرفها وقربها من رسول الله صلى الله عليه وآله.

ثالثًا: استهدفت الزَّهراء عليها السلام في مطالبتها الحثيثة بفدك، فسح المجال أمامها للمطالبة بحقِّ زوجها. والواقع فدك صارت تتمشَّى مع الخلافة جنبًا إلى جنب، كما صار لها عنوان كبير وسعة في المعنى، فلم تبقَ فدك قرية زراعيَّة محدودة بحدودها في عهد الرسول صلى الله عليه وآله، بل صار معناها الخلافة والرقعة الإسلاميَّة بكاملها، وممَّا يدلُّ على هذا تحديد الأئمَّة لفدك، فقد حدَّها عليّ عليه السلام في زمانه بقوله: **حدٌّ منها جبل أُحد، وحدٌّ منها عريش مصر، وحدٌّ منها سيف البحر، وحدٌّ منها دومة الجندل**. وهذه الحدود التقريبيَّة للعالم الإسلاميّ آنذاك.

رابعًا: أرادت الزَّهراء عليها السلام بمنازعة أبي بكر إظهار حاله وحال أصحابه للناس، وكشفهم على حقيقتهم، ليهلك من هلك عن بيِّنة، ويحيى من يحيى عن بيِّنة. وإلَّا فبضعة الرسول صلى الله عليه وآله أجلُّ قدرًا وأعلى شأنا من أن تقلب الدنيا على أبي بكر حرصًا على الدنيا. ولاسيما أنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله أخبرها بقرب موتها، وسرعة لحاقها به صلى الله عليه وآله.

ولذا لم ينهها الإمام عليّ عليه السلام عن منازعة أبي بكر في فدك، وهو القائل: «**وما أصنع بفدك وغير فدك، والنفس مكانها في غدٍ جدث**»[1].

وهنا نتساءل ما سبب إعطاء النبيّ صلى الله عليه وآله أرض فدك لفاطمة الزَّهراء عليها السلام؟

إنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان يرى أنَّ فاطمة عليها السلام مثل أمِّها خديجة الكبرى عليها السلام التي دعمت النبيّ صلى الله عليه وآله ودين الله تعالى بأموالها، فهي أيضًا تعاضد عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ولا شكَّ أنَّ الشيء الوحيد الذي يقدر على جذب السواد الأعظم من الناس إلى شخص ما، أو يرفع العراقيل التي يضعها الأعداء في طريقة، هو وجود المال وإنفاقه عليهم، وكان إيراد فدك سنويًا أربعة وعشرين ألف دينار، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يعلم أنَّ فاطمة وعليّ عليهما السلام لو عاشا بعده فقيرَين، فإنَّ سواد الناس لا يعاضدونهما فحسب، بل يصبحون عقبة في طريق هداية الناس.

ولذا وهب النبيّ محمَّد صلى الله عليه وآله فدكًا لفاطمة الزَّهراء عليها السلام، لكي تبقى بإشرافها معمورة، وتستغل فوائدها في الدعوة إلى الإسلام، والعمل على انتشاره[2].

المطلب الثالث: خطبة الزَّهراء عليها السلام مع نساء المهاجرين والأنصار

لقد انتشر خير استياء فاطمة الزَّهراء عليها السلام من السلطة ونقمتها على الذين آزروا الحزب الحاكم بسكوتهم وصمتهم، وتناسوا كلَّ النصوص التي نزلت في آل الرسول صلى الله عليه وآله. وأعرضوا عن كلِّ حديث سمعوه من شفَتَي الرسول صلى الله عليه وآله في حقِّ الزَّهراء عليها السلام وزوجها وولديها، وأخيرًا تولَّد شيء من الوعي عند الناس، وعرفوا أنَّهم مخطؤون في دعم السلطة الحاكمة التي لم تعترف بشرعيَّة الزعامة لآل الرسول صلى الله عليه وآله، ولا تعير للحقِّ اهتمامًا، ولا للمنصف موقعًا، سوى القوَّة وحدّ السيف.

---

(١) عبدالله عبد العزيز الهاشميّ، فاطمة الزَّهراء عليها السلام من قبل الميلاد إلى الاستشهاد، ص٢٥٥-٢٥٧.

(٢) آية الله سيِّد حسن الأبطحيّ، أنوار الزَّهراء عليها السلام، الطبعة الثانية، مطبعة أفق، إيران، ص٤٢.

عيادة النساء للسيِّدة الزَّهراء عليها السلام:

لا نعلم بالضبط السَّير الحقيقي والدافع الأصليّ الذي دعا بنساء المهاجرين والأنصار لعيادة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، فهل كان ذلك بإيعاز من رجالهنَّ؟ وما الذي دعا أولئك الرجال لإرسال نسائهم إلى دار السيِّدة الزَّهراء عليها السلام؟ وهل حصل الوعي عند النساء وشعرن بالتقصير والخذلان[1] لبنت رسول الله صلى الله عليه وآله، فانتشر هذا الشعور بين النساء، فحضرن للعيادة والمجاملة، أو إرضاءً لضمائرهنَّ المتألِّمة ممَّا حدث وجرى على سيِّدة النساء؟.

كانت هناك أسباب سياسيَّة فُرِضت عليهنَّ، فحضرن لتلطيف الجوِّ وتخفيف التوتُّر في العلاقات بين بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وبين السلطة الحاكمة في ذلك اليوم؟ خاصَّة وأنَّ الموقف الاعتزاليّ الذي اختارته السيِّدة فاطمة عليها السلام لنفسها، وانسحابها عن ذلك المجتمع لم يكن خاليًا عن التأثير، بل كان عاملًا مساعدًا لانتباه الناس، وبالأخص حين حمل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام السيِّدة فاطمة عليها السلام يطوف بها على بيوت الأنصار، تستنجد بهم وتستنهضهم، فلم تجد منهم الإسعاف، بل وجدت التخاذل[2].

إنَّ عدد النساء اللاتي حضرن لعيادة الزَّهراء لم يكن قليلًا، فانتهزت السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام الفرصة، واستغلت اجتماع النساء عندها لأن تضع النقاط على الحروف، وتكتب في سجلِّ التاريخ الأعمال البشعة التي قام بها بعض المسلمين تجاه عترة نبيِّهم وذريَّته الطاهرة، فإنَّ النساء يشكِّلن نصف المجتمع أو اكثر من نصف، وكلُّ امرأة مرتبطة برجل من زوج أو أخ أو ابن، فهي بإمكانها أن تقوم بدور فعَّال في المجتمع، وخاصَّة في حقل الدعاية والإعلام والنشر، وهنا أجابت الزَّهراء عليها السلام على أسئلة النسوة كما تقتضي الحال فلا تتعجب إن كانت السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام ما نسيت أصول

(١) هشام آل قطيط، سلوا فاطمة عن مصائبها، الطبعة الاولى، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، بيروت، لبنان، ص٥٩٨.

(٢) مجلَّة الصفحة الرئيسيَّة، مكتبة الموقع، مكتبة فاطمة الزَّهراء عليها السلام.

الفصاحة والبلاغة والأدب الرفيع والمستوى الأعلى بسبب انحراف صحَّتها بل قالت.. فاطمة الزَّهراء عليها السلام تضع النقاط على الحروف[1].

حدَّثنا أحمد بن الحسن القطَّان، قال حدَّثنا عبد الرحمن بن محمَّد الحسين، قال حدَّثنا أبو الطيِّب محمَّد بن الحسين بن حميد اللخميّ، قال حدثنا أبو عبد الله محمَّد بن زكريَّا، قال حدثنا محمَّد بن عبدالرحمن المهلَّبيّ، قال حدثنا عبدالله بن محمَّد بن سليمان عن أبيه عن عبد الله بن الحسن، عن أمِّه فاطمة بنت الحسين عليه السلام قال: لـمَّا اشتدت علَّة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله اجتمع عندها نساء المهاجرين والأنصار فقلن لها: يا بنت رسول الله كيف أصبحتي من علَّتك؟.

فقالت: «**اصبحت والله عائفة لدنياكم، قالية لرجالكم، لفظتهم قبل أن عجمتهم، وشنئتهم بعد أن مبرتهم، فقبحًا لفلول الحدِّ وخورة القناة وخطل الرأي ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾، لا جرم لقد قلدتهم رمقتها وشننت عليهم عارها مجدعات عقرا وسحقا للقوم الظالمين ويحهم انى زحزحوها عن رواسي الرسالة وقواعد النبوة ومهبط الوحي الامين والطبّين بأمر الدنيا والدين**[2]، **﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾، وما نقموا من أبي الحسن؟! نقموا والله من نكير سيفه وشدَّة وطئه وثكال وقعته وتنمُّره في ذات الله عزَّ وجلَّ، والله لو تكافوا عن زمان نبذة رسول الله صلى الله عليه وآله إليه لاعتقله ولسار بهم سيرًا مسججًا لا يكلم خشاشة ولا يتعتع راكبه ولأوردهم منهلًا نميرًا صافيًا رويًّا فضفاضًا تطفح ضفتاه ولا يترنق جانباه ولا صدرهم بطانا ونصح لهم سرًّا وإعلانًا، ولم يكن يحلى من الغنى بطائل ولا يحظى من الدنيا بنائل غير ري الناهل وشبعة الكافل ولبان لهم الزاهد من الراغب والصادق من الكاذب ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن**

(١) هشام آل قطيط، سلوا فاطمة عن مصائبها، ص٥٩٨.

(٢) سماحة الشيخ صالح الكرباسيّ، مجلَّة مركز الإشعاع الإسلاميّ للدراسات والبحوث الإسلاميَّة.

كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾[1].

ألا هلمَّ فاستمع، وما عشت أراك الدهر عجبًا، وإن تعجب فعجب قولهم ليت شعري إلى أيِّ إسناد استندوا، وعلى أيِّ عمادٍ اعتمدوا، وبأيِّ عروة تمسَّكوا، وعلى أيِّ ذريَّة أقدموا واحتنكوا، لبئس المولى ولبئس العشير، وبأسًا للظالمين بدلًا، استبدلوا والله الذنابى بالقوادم والعجزة بالكاهل، فرغمًا لمعاطس قوم يحسبون أنَّهم يحسنون صنعًا، ألَّا أنَّهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون، ويحهم أفمَن يهدي إلى الحقِّ أحقُّ أن يتَّبع أمَّن لا يهدي إلى أن يهدى فما لكم كيف تحكمون، أما لعمري لقد لقحت فنظرة ريثما تنتج ثمَّ احتلبوا ملء القعب دمًا عبيطًا وذعافًا مبيدًا، هنالك يخسر المبطلون ويعرف التالون غب ما أسَّس الأوَّلون، ثمَّ طيبوا عن دنياكم أنفسًا واطمئنوا للفتنة جأشًا وأبشروا بسيف صارم وسطوة معتد غاشم وبهرج شامل واستبداد من الظالمين، يدع فيئكم زهيدًا وجمعكم حصيدًا، فيا حسرة لكم وأنَّى بكم وقد عميت عليكم انلزمكموها وأنتم كارهون».

قال سويد بن غفلة: فأعادت النساء قولها على رجالهنَّ، فجاء إليها قوم من وجوه المهاجرين والأنصار معتذرين وقالوا: يا سيِّدة النساء لو كان أبو الحسن ذكر لنا هذا الأمر من قبل أن نبرم العهد ونحكم العقد لما عدلنا إلى غيره. فقالت: «**إليكم عنِّي فلا عذر بعد تعذيركم ولا أمر بعد تقصيركم**»[2].

من المعلوم والجليِّ أنَّ الخطبة كانت في بيتها الشريف، وذلك ظاهر لما جاء في متن الخطبة، وهو قول عدَّة من الرواة «لـمَّا مرضت فاطمة الزَّهراء عليها السلام المرضة التي توفِّيت

(١) ٦١ م، سماحة الشيخ عبدالله البحراني، الجزء الثاني، مجلة موقع الشيعة، العوالم، خطبة فاطمة الزَّهراء عليها السلام امام نساء المهاجرين والانصار.

(٢) ٦٢ م، هشام ال قطيط، سلوا فاطمة عن مصائبها، الطبعة الاولى، ١٤٢٩ه_٢٠٠٨م، بيروت _ لبنان ص ٤١٢_٤١٣_٤١٤.

بها، ودخل نساء المهاجرين والانصار عليها فقلن..»، وعلى الرغم من قصر الخطبة إلَّا أنَّها اشتملت على اسمى درجات البلاغة والفصاحة وفنون الأدب، واتَّخذت من آي القرآن ما يزيد في حسنها حسنًا وبلاغتها بلاغةً، بل لو إنَّ القارئ لا يعرف ما تلت في بعض مواضع خطبتها من آي القران لظنَّ أنَّه من كلامها دون القرآن؛ لأنَّها رقت سماء البلاغة والجزالة بما لا نظير له على مرِّ العصور، ولا عجب فإنَّها ابنة من قال: «**أنا أفصح مَن نطق بالضاد**»، وكذلك بعلها أمير المؤمنين عليه السلام يبيِّن حالها وحاله، حيث يقول: «**نحن أمراء الكلام، وفينا نشبت عروقه، وعلينا تهدَّلت غصونه**).

الخاتمة

بعد ان انتهينا من البحث، توصلنا إلى مجموعة من الاستنتاجات والتوصيات، كما يأتي:

١. إنَّ لهذه السيِّدة الجليلة العظيمة من المنزلة الفضيلة السامية ممَّا جعلها أن تكون سيِّدة نساء العالمين، ويكون لها دور مهم في الرسالة المحمَّديَّة.

٢. إنَّ العامل الإنسانيّ هو المحرِّك الوحيد للسيِّدة الزَّهراء عليها السلام في إرشاد الأمَّة لأصالة النظريَّة الإسلاميَّة في مرحلة ما بعد النبوَّة.

٣. لقد ركَّز البحث على المستوى الإنسانيّ المثالي لدى الزَّهراء عليها السلام، وعرض إلى الكيان الذاتيّ لها تكوينًا، ووقف قدر المستطاع عند جهادها وجهودها في سبيل الدين الجديد، واعلاء كلمة الله في الأرض.

٤. أعطى الله سبحانه وتعالى فاطمة الزَّهراء عليها السلام أوفر حظٍّ من العظمة وأوفى نصيب من الجلالة، فهي زهرة أولياء الله الذين عرفت لهم السماء بالعظمة قبل أن يعرفهم أهل الأرض.

٥. إنَّ الزَّهراء عليها السلام هي الشخصية التي التزمت بالإسلام عقيدةً ونظامًا وفكرًا وسلوكًا، وكيف لا وهي أمُّ ابيها، وحجَّة الله الكبرى، ربيبة المكرمة العفيفة المعصومة، آية الله العظمى.

التوصيات

١. أن ننتهج نهج سيِّدة نساء العالمين فاطمة الزَّهراء عليها السلام، حيث إنَّها لم تعش لنفسها أو تفكِّر في نفسها، وإنَّما كإنسانة عاشت لنهج الإسلام الأصيل.

٢. ضرورة إدخال سيرة الزَّهراء عليها السلام بكلِّ ما قدَّمته، والأدوار التي قامت بها داخل أسرتها، وإدخال هذه السيرة في مفاهيم الدراسة المدرسيَّة.

٣. توجُّه الإعلام لبيان دور السيِّدة الزَّهراء عليها السلام من خلال برامج الأطفال والبرامج التربويَّة.

٤. الدعوة بجعل اليوم العالميّ للمرأة هو يوم الزَّهراء عليها السلام، كونها تمثِّل كلَّ نساء العالمين.

٥. الخروج من عمليَّة الدفاع إلى عمليَّة التأسيس والتأصيل لتراث أهل البيت عليهم السلام وفق منهجٍ تربويٍّ منظَّم.

٦. تكثيف دور طلَّاب الحوزات العلميَّة في نشر سيرة الزَّهراء عليها السلام في المدارس الابتدائيَّة والمتوسِّطة والاعداديَّة، عن طريق محاضرات إرشاديَّة أثناء الدوام الرسميّ للطالبات.

٧. التنظيم والتنسيق بين إدارات المدارس الحوزويَّة وإدارات الجامعات للقيام بزيارة الجامعات حسب وقت وجدول محدَّد، لتوضيح ونشر سيرة الزَّهراء عليها السلام بين الطالبات؛ للاقتداء بها.

المصادر

١. د. حسن حنفي، من النقل إلى العقل، علوم السيرة من الرسول صلى الله عليه وآله إلى الرسالة.
٢. أبو نصر إسماعيل بن حمَّاد الجواهريّ الفارابيّ، الصِّحاح، الجزء الثاني.
٣. عبدالله عبد العزيز الهاشميّ، فاطمة الزَّهراء عليها السلام من قبل الميلاد إلى الاستشهاد.
٤. آية الله سيِّد حسن الابطحيّ، أنوار الزَّهراء عليها السلام.
٥. هشام آل قطيط، سلوا فاطمة عليها السلام عن مصائبها.
٦. سماحة الشيخ صالح الكرباسيّ، مركز الإشعاع الإسلامي للدراسات والبحوث الإسلاميَّة.
٧. سماحة الشيخ عبدالله البحرانيّ، خطبة فاطمة الزَّهراء عليها السلام أمام نساء المهاجرين والأنصار.
٨. العلَّامة الشيخ محمَّد باقر المجلسيّ، الفريدة في لوعة الشهيدة عليها السلام.
٩. آية الله العظمى السيِّد محمَّد الحسينيّ الشيرازيّ، فاطمة الزَّهراء عليها السلام في السنَّة المطهَّرة.
١٠. كاظم النصير الواسطيّ، أهل البيت عليهم السلام في الكتاب المقدَّس.
١١. محمَّد كاظم القزوينيّ، فاطمة الزَّهراء عليها السلام من المهد إلى اللحد.
١٢. الدكتور عبد الرزَّاق مرزوك، مصطلح السيرة، أصله اللغويّ وحقله الدلاليّ.

١٣. عبد الواحد بآمري، أستاذ مساعد في قسم المعارف الإسلاميَّة، دراسة في طريق الاقتداء بالتركيز على التأسِّي بالسيرة الصحيحة للسيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام.

١٤. أحمد مسلحان، فاطمة الزَّهراء عليها السلام، أحداث ما بعد رحيل الخاتم.

١٥. محمَّد حسين عليّ الصغير، الزَّهراء عليها السلام من الوجه الآخر.

١٦. ميثم العقيليّ، سيرة فاطمة الزَّهراء عليها السلام.

١٧. السيِّد محمَّد باقر الحكيم، الزَّهراء عليها السلام أهداف مواقف نتائج.

١٨. عادل العلويّ، فاطمة عليها السلام مشكاة الأنوار.

١٩. السعيد عادل عليّ عاشور، موسوعة فاطمة الزَّهراء عليها السلام.

٢٠. السيِّد محمَّد حسين المعموريّ، الزَّهراء عليها السلام كثر واتره وقلَّ ناصره.

٢١. عليّ الفتلاويّ، النوران الزَّهراء والحوراء عليهما السلام.

المجلات والمقالات:

٢٢. مجلَّة السير والتاريخ، نفحات في علوم المسلم.

٢٣. مجلَّة منتدى الوتشريس، المنتديات العامَّة، السيرة لغةً واصطلاحًا.

٢٤. مجلَّة مكتبة الموقع، مكتبة ناطحة الزَّهراء عليها السلام.

٢٥. منتديات ستار تايمز، تطوُّر السيرة عبر العصور.

٢٦. مقالة عليّ بن عمر بادحدح، السيرة النبويَّة.

الفكر التربويّ في سيرة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام

الباحثة لقاء عبد الحكيم عبد الشهيد الأسديّ
إحدى طالبات مدرسة بنت الرسول صلى الله عليه وآله

الملخَّص

الحمد لله الذي لا يبلغ حمده الحامدون، ولايعدُّ نعمه العادُّون، والصلاة والسلام على من كان دنوُّه قاب قوسين أو أدنى من ربِّه الأعلى، وعلى مَن هي روحه التي بين جنبيه، وعلى سبطيه وخلفائه أئمَّة الإسلام بالحقِّ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

من منن الله وآلائه علينا أن وفَّقنا للكتابة عن سيرة الزَّهراء عليها السلام في التربية تحت عنوان (الفكر التربويّ في سيرة الزَّهراء عليها السلام)، وخصوصًا ونحن نعيش في زمن يكثر فيه معوقات التربية الإسلاميَّة القويمة، إذ يتناول بحثنا بيان الدور الإسلاميّ في التربية للوصول بأولادنا نحو الكمال الذي يهدف إلى صناعة الإنسان الكامل منذ فترة طفولته الأولى، متَّخذين من سيرة الزَّهراء عليها السلام أنموذجًا ونبراسًا نستنير به، فالأهل هم الدعامة الأساسيَّة لأولادهم في مسيرة حياتهم، وهذا ما أكد عليه الكثير من روايات المعصومين عليهم السلام «**علِّموا أولادكم**..»، فإنَّ الأمر موجَّه إلى الوالدين لا إلى غيرهما، وإن ساعداهما الغير في تلك المهمَّة، فمن أساليب الرقيِّ والتكامل وجود الأسوة الحسنة، وخير إسوة لنا بنت النبيِّ الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه.

يتناول بحثنا في المبحث الأوَّل أهم مقوِّمات التربية الإسلاميَّة الأصيلة، وفي مبحثه الثاني معوِّقات تلك التربية في زمننا الحاضر.

سائلين المولى عز وجل أن يوفِّقنا لذلك، إنَّه سميع مجيب

الكلمات المفتاحيَّة: فاطمة الزَّهراء، الفكر التربوي، سيرة الزَّهراء.

المقدِّمة

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، والصلاة والسلام على خير الخلق محمَّد وعلى عترته وورثته وحَمَلة علمه، الذين أوجب الله مودَّتهم، وفرض على الخلق طاعتهم وولايتهم.

أوَّلًا: موضوع البحث

إنَّ تتبُّع سيرة الزَّهراء عليها السلام في التربية تعدُّ إحدى اللبنات الأساسيَّة لسلَّم البناء العقائديّ والفكريّ والإجتماعيّ الذي ارتضاه الإسلام طريقًا ومنهجًا لتقويم العقيدة وتنظيم السلوك والسير نحو التكامل المطلوب، فمن المعلوم عاشت السيِّدة الزَّهراء عليها السلام حياة قاسية، إلَّا أنَّها ضربت مثلًا قلَّ نظيره في التربية الدينيَّة الأصيلة، وما زالت عليها السلام النموذج الأرقى الذي قدَّمته السماء، والمثال الذي نحته الإسلام، ونفخ في روحه.

ثانيًا: أهميَّة البحث

١. يوضِّح البحث ضرورة التدقيق، واختيار الزوج أو الزوجة الصالحة في الأسر الكريمة.
٢. يوضِّح البحث أهميَّة التربية بالحبِّ والعطف.
٣. يوضِّح البحث معوِّقات التربية الصحيحة في عصرنا الحاضر.

ثالثًا: إشكاليَّة البحث

١. هل لتربية الزَّهراء عليها السلام تأثير وانسجام مع التربية في الوقت الحاضر، مع بُعد المدَّة الزمنيَّة؟.

٢. ما مدى تأثير الصفات الوراثيَّة على التربية؟

رابعًا: منهجيَّة البحث

للوصول إلى أهداف بحثنا هذا، سوف نتَّبع المنهج التحليليّ الوصفيّ.

خامسًا: خطَّة البحث

للوصول الى أهداف البحث، ارتأينا أن نقسِّمه على مبحَثَين:

١. **المبحث الأوَّل**: مقوِّمات التربية الدينيَّة الأصيلة. ويندرج تحته ثلاثة مطالب:
- **المطلب الأوَّل**: التربية الجسديَّة.
- **المطلب الثاني**: التربية العقائديَّة.
- **المطلب الثالث**: التربية الأخلاقيَّة.

٢. **المبحث الثاني**: معوِّقات التربية الدينيَّة في الوقت الحاضر. ويندرج تحته ثلاثة مطالب:
- **المطلب الأوَّل**: العوامل الوراثيَّة.
- **المطلب الثاني**: الأبوَّة والأمومة الفاشلة.
- **المطلب الثالث**: البيئة الاجتماعيَّة.

المبحث الأوَّل

مقوِّمات التربية الدينيَّة الأصيلة

قبل البدء في البحث عن مقوِّمات التربية الدينيَّة، سوف نتعرَّف عن المفهوم اللغويّ للتربية، وهي اسم مشتق من الربِّ، والربُّ هو المالك والسيِّد والمربِّي والقيِّم، ولا يُطلق غير المضاف إلَّا على الله تعالى، وإذا أُطلق على غيره أُضيف، فيُقال: ربُّ كذا[1].

والمفهوم الإصطلاحي: هو الزيادة والإنماء، حين يتزوَّد الطفل بأنواع المعرفة وألوان الثقافة، فيتغذَّى عقله، وتكبر مدركاته، فيزكو ويسمو، علاوةً على نماء جسمه؛ بسبب تغذيته ورعايته صحيًّا، وتأمين ما يحتاج إليه من مأكل ومشرب، ليترعرع بعافية جيِّدة، وقد تربَّى جسمه، ونما عقله، وصفت نفسه، وزكت روحه[2].

فالتربية دواء ناجح للأسقام والأمراض البشريَّة، وشفاء للأجيال، وبها يرتقي الإنسان إلى أوج مدارج الكمال، وهي الأكسير الأعظم لتبديل الأرواح وتهذيبها، وهي العامل المهمّ في سعادة البشر، والفن المتمُّ للقوى الإنسانيَّة، تحرِّك الإنسان نحو الأهداف السامية، وتطلع إلى قمم الفضائل والمكرمات، وتؤمِّن حياة الأجيال القادمة بقوانينها الرصينة، ولكي يتحقَّق ذلك الأمان، لا بدَّ للمربِّي من أن يوفِّر الأرضيَّة المناسبة والبنية التحتيَّة الأساسيَّة في التربية، وبناء شخصيَّة الطفل، بترسيخ المبادئ العقائديَّة والأخلاقيَّة مع مراعاة عمره ومراحل نموه الديني فمعرفة مدركاته العاطفية والأخلاقية تساعد

(١) عليّ بن حسن الحلبيّ، النهاية في غريب الحديث والأثر، دار ابن الجوزيّ، الدمَّام، ١٤٢١هـ، ص٣٣٨.

(2) https://apap.ahlamontada.com/t13079-topic.

المربِّي بأيَّة طريقة، وفي أيِّ وقت يمكنه التدخُّل في تربيته، وتنمية المفاهيم المعرفيَّة لديه، وبالتالي هداية عقل الطفل إلى الطريق المطلوب يكون أسهل وأسرع.

المطلب الأوَّل التربية الجسديَّة

إنَّ القصد من التربية الجسديَّة هو تهيئة الأرضيَّة المناسبة بتوفير أفضل أسباب البناء الجسديّ المتوازن، وتأمين احتياجاته المهمَّة في تسيير الفعاليَّات الحياتيَّة والروحانيَّة للإنسان.

إنَّ تقديم التربية الجسديَّة ليس دليلًا على أولويَّة قيمتها، بل هو انسجام مع الطريق الطبيعيّ لخلق الإنسان، الذي يبدأ من البناء البدنيّ، ويرتقي إلى المراحل الأخرويَّة، يبدأ من الأسس الأولى من تراب ثمَّ نطفة ثمَّ علقة، قال تعالى في مُحكم كتابه العزيز: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ..﴾[1].

فقد أولى الإسلام أهميَّة خاصَّة لحقيقة التكوين الإنسانيّ، وأنَّه مركَّب من جسد وروح وعقل، وأعطى لكلٍّ منها تعاليم خاصَّة في تطويرها والحفاظ على سلامتها، فقد دعا الإسلام إلى العناية بالجسم وإشباع حاجاته ودوافعه، فالشخص السليم الجسم يستطيع أن يتحمَّل أعباء الحياة، ولا يكون عالة على غيره، سواء في عباداته، كالوضوء والصلاة والطواف وغيرها، فاللبدن والنفس حقٌّ على صاحبها، قال النبيّ محمَّد صلى الله عليه وآله: «**إن لنفسك عليك حقًّا، وإنَّ لجسدك عليك حقًّا، وإن لزوجك عليك حقًّا، وإن لعينك عليك حقًّا**»[2].

فمن الضروري الحفاظ والاهتمام بصحَّة البدن؛ لأنَّ صحَّته هي أساس ومقدِّمة للصحَّة العقليَّة، فالجسم المريض لا يستطيع التركيز، ويكون منشغلًا بآلامه وطرق

(١) سورة غافر: الآية ٦٧.

(٢) مها نادر، التربية عند أئمَّة أهل البيت، العتبة الحسينيَّة المقدَّسة، كربلاء المقدَّسة، ٢٠١٧م، ص٩٠.

العلاج، بعد إهماله وتركه فريسة سهلة لتفشِّي الأمراض، فليس من المعقول أن ينتظر الفرد وقوعه في الأمراض، ثمَّ يبدأ في العلاج، فالوقاية خير من العلاج.

إذن التربية الجسديَّة تقتضي الاهتمام بالجسد، فالعقل السليم في الجسم السليم، والجسم السليم من الغذاء الصحِّيّ المفيد، فالأسرة هي المسؤولة الأولى عن صحَّة أبنائها وتغذيتهم، من خلال تقديم الرعاية، كتوفير الغذاء الصحِّيّ والمتوازن لهم، فسوء التغذية لا يكون من قلَّة الطعام فقط، بل بقلَّة تنوُّعه أيضًا، فنقصه يورث أمراضًا تمتدُّ إلى أعمار الإنسان المختلفة، وطالما الطعام قوت الأجسام، فلا بدَّ من الإهتمام به من جهتَين، صحيًّا من جهة، وحلالًا طيِّبا من جهة أخرى، فمن واجب الأب أن يتحرَّى الطعام الذي لا شبهة فيه؛ لما له من تأثير بالغ على مستقبل الطفل، بحيث إذا انعقدت النطفة من الحرام سيكون ذلك بمثابة الأرض الصلبة لتعاسة الطفل وشقائه، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنَّه قال: «**كسب الحرام يبين في الذريَّة**»[1]، وتعليمهم الآداب الإسلاميَّة للطعام، فمِن نِعَم الإسلام علينا أنَّه لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلَّا أحصاها، ووضع لها تعاليم وآداب، وعلى المربِّي أن يطبِّق ويعلِّم تلك القيم؛ ليصل بهم إلى طريق الصلاح والإصلاح، فعلى الأهل توضيح آداب المائدة منذ نعومة أظافر أطفالهم، كالتسمية وغسل اليدين والأكل ممَّا يليه، وغير ذلك، ليكونوا قادرين على إظهار اللباقة وحسن الخلق، وتكون لديهم عادة، سواء داخل البيت أو خارجه، وبطبيعة الحال كلُّ مايتعلَّمه الطفل من صغره يبقى راسخًا، فمن شبَّ على شيء شاب عليه، لكن يبقى التذكير والمتابعة لها الدور الكبير في تطبيق ذلك، فكثير من الأهل تعاني من تنبيه أولادها لكثير من الأمور، لكنَّهم ينسون ويتناسون تلك الإرشادات والتوصيات، لكن في الواقع فإنَّ المربِّين هم من نَسوا أنَّ الأولاد بحاجة إلى تلقين مستمر من جهة، وتطبيق الكبار لتلك الأمور الإرشاديَّة من جهة أخرى، لكي تترسَّخ الصورة وتكون حاضرة في أذهانهم.

(١) الشيخ محمَّد الشهابيّ، أكل الحرام وآثاره، مدرسة الإمام الصادق للعلوم الدينيَّة، ص٦.

وقد أولت السيِّدة الزَّهراء عليها السلام عناية في ذلك، ولم تهمل شيئًا من تطبيق قواعد العناية بالبدن ورعاية آداب المائدة إلَّا وقد رسَّخته في عقول أولادها، فمن أقوالها عليها السلام: «**في المائدة اثنتا عشرة خصلة، يجب على كلِّ مسلم أن يعرفها، أربعٌ فيها فرض، وأربعٌ فيها سنَّة، وأربعٌ فيها تأديب، فأمَّا الفرض: فالمعرفة والرضا والتسمية والشكر، وأمَّا السنَّة: فالوضوء قبل الطعام، والجلوس على الجانب الأيسر والأكل بثلاثة أصابع، وأمَّا التأديب: فالأكل ممَّا يليك، وتصغير اللقمة، والمضغ الشديد، وقلَّة النظر في وجوه الناس**»[1]، وهذا الحديث شامل وجامع لكلِّ آداب الطعام.

كما ذكرت عن أبيها صلى الله عليه وآله في توخِّي الحذر وعدم الإسراف في تناول الأطعمة الغنيَّة بالدهون؛ لما لها من تأثير على صحَّة الإنسان، فقالت عليها السلام في هذا الشأن: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**لا يلومنَّ إلَّا نفسه من بات وفي يده غمر**»[2]، والغمر: الدَّسم والزهومة من اللحم، إشارةً إلى الأثر السيِّئ الذي يتركه الإسراف في تناول الدهون واللحوم على الجسم، والدعوة والتركيز على ممارسة العادات الصحيَّة، كالنوم المبكِّر وممارسة الرياضة والنظافة البدن، وتشجيعهم على أداء بعض المستحبَّات، كتقليم الأظافر في أيَّام مخصَّصة وغسل الجمعة، لكي يعتادوا عليها منذ الصِّغر، وتعليمهم طريقة التطهير من النجاسات؛ خشية من وقوعهم في الأمراض، وهذا مادعت إليه الشريعة الإسلاميَّة، وكلُّ مايصبُّ في صالح الفرد؛ لتنشئة مجتمعٍ خالٍ من العاهات والأمراض.

المطلب الثاني: التربية العقائديَّة

ويُقصَد بها التربية التي تقوم على التفكير السليم، عن طريق ممارسة الاستدلال

(١) كفاح الحدَّاد، قراءة في السيرة الفاطميَّة، قسم الشؤون الفكريَّة والثقافيَّة في العتبة الحسينيَّة المقدَّسة، ط١، كربلاء المقدَّسة، ١٤٣٦هـ، ص٧٧٧.

(٢) المصدر نفسه، ص٧٧٨.

للوصول إلى الحقيقة، وممارسة طرائق التفكير الصحيح والتدبُّر في قوانين وسنن الطبيعة والكون والحياة[1].

فكلُّ معرفة أو تصوُّر صحيح لحقائق الوجود الكبرى، ينبغي أن يعقبه تصديق واقتناع، فعقول البشر مهيَّئة ومعَدَّة للتصديق بمجرَّد أن تلاحظ الرابطة السببيَّة، وحين يحصل التصديق بواسطة الإثبات العقليّ، تصل الدعوة إلى الإيمان بما صدَّق به العقل، فإذا كانت النفس مستعدِّة، يتحقَّق الإيمان مباشرةً، وبعدها تبدأ رحلة الحياة وامتحاناتها وما فيها من مواقف لتثبيت الإيمان وتقويته؛ ولأنَّ المعرفة الواعية الممتزجة بالقناعة والدليل، هي النواة الأساسيَّة لبناء الشخصيَّة، فإنَّ أوَّل مهمات التربية ينبغي أن تتركَّز على بناء الرؤية الكونيَّة التي تتضمَّن الإجابات المقنعة والمنطقيَّة عن الأسئلة المصيريَّة في الحياة، وقد اختُصِرت بثلاث مسائل وقضايا أساسيَّة، هي أن نعرف من أين جئنا (قضيَّة مُبدِأ العالم وخالقه)، ونعرف إلى أين نحن متَّجهون (قضيَّة غاية الخلق والمصير)، وأن نعرف الطريق الموصِل إلى الهدف الصحيح (الصِّراط والشريعة والمنهاج)[2].

ولأنَّ العقل تلك القوَّة التي أودعها الله تعالى في عباده لكي يصلوا إلى أعلى درجات الكمال، فعلى المربِّي أن يجعل من التعقُّل نقطة انطلاق في التربية، وخصوصًا التربية العقائديَّة التي تهدف إلى تشجيع الطفل على التأمُّل بآيات الله، فقد حدَّد القرآن الكريم طريقة لمعرفة الخالق عبر التدبُّر والتفكير في آيات الله، كالاشجار والأنفس والجبال، ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[3] التي من خلالها يتمُّ التوصُّل إلى معرفة الله وإدراك قدرته وهيمنته على هذا العالم الكبير.

(١) مها نادر، التربية عند أئمَّة أهل البيت، ص ٩٨.

(٢) عبَّاس النوريّ، تربية الأولاد، قناة على التلكرام:
https://t.me/baakids.

(٣) سورة فصِّلت: الآية ٥٣.

ومن جدير بالذِّكر أنَّ لا تتوقَّف معرفة الله في وقت محدَّد، بل استغلال كلِّ فرصة متاحة ليكون الله حاضرًا في أذهانهم، عند هطول المطر مثلًا، أو تساقط أوراق الشجر، أو أي حدث طبيعيّ آخر، واستغلال فرصة الذهاب إلى الأماكن المقدَّسة، وتعريفهم قداسة تلك الأمكنة، واصطحابهم إلى المساجد، ومشاهدة صلاة الكبار، والاحتفال بالمناسبات الدينيَّة، وتعريفهم عن أصحاب المناسبة، وقص حياته بأسلوب قصصيّ، إذ تعدُّ القصَّة من أهمِّ الأساليب لنقل وترسيخ المفاهيم الأساسيَّة، وهذه الطريقة نجدها واضحة في كتاب الله من خلال سرد بعض القصص؛ لأجل التعليم ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾[1]، كقصَّة أصحاب السبت، وقصص الأنبياء عليهم السلام، وغير ذلك كثير، وقد يتساءل البعض عن العمر المناسب للتربية الدينيَّة، والجواب نستلهمه من أحاديث أئمَّتنا المربِّين، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**قلب الحَدَث كالأرض الخالية، ما أُلقي فيها من شيء قبلته**»[2]

لقد تلقَّينا الجواب، فالتربية الدينيَّة تبدأ من الطفولة الأولى، ومن بعد الولادة مباشرةً، فعندما نكبِّر في أذنه اليمنى، ونقيم في اليسرى، فإنَّنا نُلقي عليه أوَّل بذور التربية من (التوحيد، والنبوَّة والإمامة..)، بالطبع هذا التعليم غير مباشر، لكن له تأثير كبير في الطفل، والتربية المباشرة تبدأ من سنِّ الثانية؛ لأنَّ الإحساس الدينيّ يبدأ من هذا العمر، من خلال تلقينه حبُّ النبيِّ وآله و..

ولا بدَّ من الإلتفات إلى الزمان والمكان المناسبَين، فيجب اختيار أفضل الأزمنة والأمكنة، وأفضلها عندما يكون الطفل مسرورًا، ولا نوصي عندما يكون متعبًا، أو عندما يريد النوم، أو منزعجا، فإلقاء المفاهيم الدينيَّة في هذه الحالة سيولِّد ردَّة فعل

(١) سورة يوسف: الآية ١١١.

(٢) د. أكرم بركات، كيف تجعل ولدك صالحًا، بيت السراج للثقافة والنشر، بيروت، ٢٠١٧م، ص١٠٦.

عكسيَّة عند أبنائنا[1]، وكذلك مراعاة مراحل النموِّ الدينيّ لديه، فقد قُسِّمت المراحل العمريَّة بحسب التربية الإسلاميَّة إلى:

١. **المرحلة الأولى من الولادة حتَّى سنِّ السابعة:** وهي مرحلة السيادة واللعب وتنمية الخيال عبر القصص والأناشيد والتعرف على الشخصيات العظيمة كالأئمَّة والأنبياء.

٢. **مرحلة السبعة الثانية (من ٧ إلى ١٤ عامًا):** مرحلة التأديب والتعليم والتمهيد للتربية، من خلال توفير الظروف التي تخلق الأُنس بالقرآن، وتوضيح محوريَّة الصلاة، وتوضيح الفروقات بين الجنسين، ومراعاة أحكام المحارم والنَّظر وغيرها.

٣. **المرحلة الثالثة من سن ١٤ إلى بداية العشرينات:** وهي مرحلة الوزارة والمشاورة والتفكُّر والاستدلال[2].

وعندما نستقرئ سيرة الزَّهراء عليها السلام في التربية، نجدها (سلام الله عليها) تحثُّ ولدَيها كثيرًا للذهاب إلى المسجد، وتعلُّم ما كان ويكون في المسجد، فقد روي «أنَّ الحسن بن عليّ عليهما السلام كان يحضر مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وهو ابن سبع سنين، فيسمع الوحي فيحفظه، فيأتي أمَّه فيلقي إليها ماحفظه، وكلَّما دخل عليّ عليه السلام وجد عندها علمٌ بالتنزيل..»[3]. ومن هنا يجدر الانتباه إلى أنَّ الزَّهراء كانت تحثُّ أولادها على الذهاب إلى المساجد؛ لكي يتزوَّدوا ويتعلَّموا الأحكام، علاوة على ذلك، كانت تضرب مثالًا في العقيدة من خلال عبادتها لله تعالى بإخلاص وإيمان عالٍ، إذ كان قلبها ينبوعًا متفجِّرًا بمعرفة الله والارتباط به سبحانه وتعالى، والخوف من أهوال يوم القيامة، فكانت تخشى من يوم

(١) أميمة عليق، ألف باء الحياة، دار الولاء، الطبعة الثانية، بيروت، ص٢٥-٢٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٨ ومابعدها.

(٣) شعبة التبليغ في قسم الشؤون الدينيَّة، شذرات من حياة فاطمة، العتبة العلويَّة المقدَّسة، الطبعة الأولى، ٢٠١٦م، ص٥١.

الحشر والعرض عليه سبحانه، كلُّ هذه المعتقدات قد رسَّختها في أذهان أولادها بشكل عمليّ، فكانت تراعي أن يرى الأبناء أمَّهم وهي تؤدِّي العبادات وتقرأ الأدعية بصوتٍ عالٍ ومسموع، فكانت مثلًا يحتذي به أولادها. ومن سيرة الزَّهراء هذه تعطي لنا درسًا في حثِّ أولادنا في الذهاب إلى المساجد، والتزوُّد بالتقوى، ومعرفة الأحكام الشرعيَّة التي تتذاكر هناك، ووجوب أداء التكاليف الشرعيَّة أمامهم، لكي يترعرعوا في ظلِّ تلك القيم والتكاليف، ويكون عليهم الأمر هيِّنًا عند تكليفهم به.

المطلب الثالث: التربية الأخلاقيَّة

الأخلاق حسب المدلول اللغويّ: هو السجيَّة والطبع.

وحسب المدلول الاصطلاحيّ: ضرورة ترويض النفس على فعل الخير، والحذر من ميولها إلى الجانب المهلك، إذ كلُّ صفة تميل إلى الجانب السلبيّ؛ لقصور في المقدِّمات التربويَّة الأخلاقيَّة[1]، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾[2].

إنَّ الرصيد الأكبر في التربية هي تلك الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فالإنسان بطبيعته مجبول على حبِّ الخير واتِّصافه بالفضائل الحسنة من الكرم والجود والاحترام والتواضع، وابتعاده عن كلِّ ما هو قبيح، وهذا ممَّا سهَّل وأعان الوالدين كثيرًا، لكن إن تركت تلك الفطرة دون متابعة، فسوف تضمحل وتصدأ؛ لأنَّ من طبع الأبناء تكون ميَّالة للأهواء والشهوات التي تخالف فطرتهم، فمن الطبيعيّ أن يصدر منهم الكثير من المخالفات، فلا بدَّ من ترسيخ تلك الفطرة الإنسانيَّة في نفوسهم من خلال تطبيقنا نحن لتلك القيم الدينيَّة التي سرعان ما تنتقل لهم، فالأبناء يقفون وقفة المتربِّص والمتابعة لأفعالنا وأقوالنا، فيقولون ما نقول نحن، ويفعلون ما نفعله نحن، ويعيشون ما نعيشه نحن، فالوالدين هم القدوة الحسنة الأولى للأولاد، وتمتاز هذه القدوة بمزايا، منها قدوة

(١) محمَّد العامليّ، فلسفة التربية الفقهيَّة عن الإمام الصادق، الطبعة الأولى، بيروت، ص٨٠.
(٢) سورة العلق: الآية ٦.

تلقائيَّة يبتعد فيها الوالدان عن التصنُّع والتكلُّف، فعادة مايكونون أحرارًا في ممارساتهم في البيت الأسريّ، إضافة إلى ذلك، فهي قدوة شبه دائمة، حيث يكون الطفل كثير الالتصاق بالوالدين في سنواته الأولى، وكثير التأثُّر بهما، فهي قدوة فكريَّة عاطفيَّة تحمل أواصر الحبِّ والمودَّة للأولاد، وبذلك تكون قدوة فاعلة قد يمتدُّ تاثيرها طوال الحياة، وتنبع فكرة القدوة من وجود غريزة المحاكاة والتقليد عند الإنسان، وخاصَّة في مرحلة الطفولة، حيث ينظر الطفل إلى والديه على أنَّهم الحقُّ كلُّه والعصمة كلُّها، فكلُّ ما يصدر منهم يكون من مسلَّمات الأمور، فيتسابقون إلى الاقتداء بهم، فالقدوات تساعد على التعليم السريع وإيصال الفكرة وتوضيحها، وتصحح الأخطاء فيها، ولهذا فالقدوة الصالحة من عوامل الرقيِّ والتكامل، والعكس صحيح[1].

وقد أشار القرآن الكريم إلى أسلوب القدوة، قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[2]، وعليه لا بدَّ من الوالدين يقتدون بقدوة حسنة، وخير القدوات بنت نبيِّ الرحمة صلى الله عليه وآله، فلننظر إلى بيت الزَّهراء عليها السلام، وماذا كانت تصنع؟ للزَّهراء عليها السلام بيت محاط بالقداسة، مغمور بالروحانيَّة، مليئٌ بالنور، مكتظٌّ بالتبجيل والتجليل، شُيِّد على الفضائل والأخلاق السامية، طبَّقت كلَّ معاني الإيثار والزهد التي قدَّمت أروع صورها ونماذجها في التاريخ البشريّ، وسطَّرت بسيرتها ما يعجز الزمان أن يأتي بمثله، قال تعالى في محكم كتابه العزيز: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾[3].

نعم فقد ثمَّنت السماء موقفها البطوليّ حينما آثرت المسكين واليتيم والأسير على نفسها وصبيتها، وقد أعطت لأبناءها درسًا في الإيثار، ومساعدة الفقير، واحترام الكبير بتطبيقٍ عمليّ واضح، وانعكست هذه الأخلاق على أولادها، وكيفيَّة تعاملهم

(١) كفاح الحدَّاد، قراءة في السيرة الفاطميَّة، ص٤٥٠.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٩٠.

(٣) سورة الإنسان: الآية -٩٨.

مع الآخرين، فاتَّصفوا بالأخلاق والروح العالية منذ صغرهم، فقد روي «أنَّ الحسن والحسين عليهما السلام مرَّا على شيخ يتوضَّأ ولا يحسن الوضوء، فاظهرا تنازعًا، يقول كلٌّ منهما للآخر أنت لا تُحسن الوضوء، وقالا: أيُّها الشيخ كن حكما بيننا. فتوضَّأ وقالا أيُّنا يحسن الوضوء. فقال الشيخ: كلاكما تحسنان الوضوء، ولكن هذا الشيخ الجاهل هو الذي لم يحسن، وقد تعلم منكما الآن، وتاب على يديكما ببركتكما وشفقتكما على أمَّة جدِّكما»[1]. وقد أعطت لأبناءها درسًا في الإيثار، ومساعدة الفقير، واحترام الكبير، بتطبيقٍ عمليّ واضح، علاوة على ذلك حبّها للمؤمنين وجيرانها، فكانت تدعو لجارها قبل دعائها لأهل بيتها، روي عن ولدها الحسن عليه السلام أنَّه قال: «**رأيت أمِّي فاطمة قامت في محرابها ليلة جمعتها، فلم تزل راكعة ساجدة حتَّى اتَّضح عمود الصبح، وسمعتها تدعو للمؤمنين والمؤمنات وتسمِّيهم، وتكثر الدعاء لهم، ولا تدعو لنفسها بشيء، فقلت:يا أمَّاه لم لا تدعين لنفسك كما تدعين لغيرك؟ فقالت: يا بني الجار ثمَّ الدار**»[2]

فالتربية الزهراويَّة تربية متكاملة، جمعت كلَّ أقسام التربية، فتربيتها الاجتماعيَّة واضحة، من خلال تعليمهم الآداب الاجتماعيَّة، والحث على احترام حقوق الآخرين، إضافة إلى أدوات التربية، من خلال الحوار والسلام والإنصات والتزاور والاستئذان، وتربيتها البدنيَّة واضحة، من خلال ما امتلكه الأولاد من حريَّة الحركة والعناية بالبدن، وتربيتها النفسية نجدها في أكثر من زاوية، بحضور ساعات الاحتضار الأخيرة مع الرسول صلى الله عليه وآله، وتربيتها السياسيَّة، فلقد كان أولادها معها في فتح مكَّة، وفي بيت الأحزان، وكذلك اصطحبتهم إلى المسجد عندما ألقت خطبتها مطالبةً بحقِّ الإمامة وإرثها المغصوب[3].

(١) محسن الأمين، أعيان الشيعة، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ص٥٦٣.
(٢) محمَّد القزوينيّ، فاطمة الزَّهراء من المهد إلى اللحد، المطبعة العلميَّة، قم، ١٤١٤هـ، ص٢٠٨.
(٣) كفاح الحدَّاد، قراءة في السيرة الفاطميَّة، ص٤٥٣.

فيجدر بنا كمربِّين أن نتَّخذ من سيرة الزَّهراء في التربية عنوانًا ومنهاجًا نسير على خطواتها في التربية، وتأسيس جيل واعي مثقَّف وممهِّد للإصلاح، متحصِّنًا بالحصانة الأخلاقيَّة من الورع والعدالة والتقوى؛ ليكون أمينًا بعيدًا عن الأهواء الدنيويَّة.

المبحث الثاني

معوِّقات التربية الدينيَّة في عصرنا الحاضر

تربية الأولاد مسؤوليَّة شرعيَّة واجتماعيَّة، تقع على عاتق الوالدين، فإن أهملاها فقد ارتكبا جريمة بحقِّ أولادهم؛ لأنَّ بتربيتهم المغلوطة، وفَّرا لهم أسباب الضياع والشقاء، وجرّه إلى حياة في غابة موحشة، علاوة على ذلك أصبحا شريكَين في تصرُّفاته المنحرفة، وابتعاده عن الوصول إلى طريق الكمال، ولا يفرَّا من تفريطهم لأسس التربية القويمة بلا حساب، بل تترك أثرًا إمَّا دنيويًّا، والذي يتمثَّل ببرِّ الوالدين والإحسان إليهم، والعطف عليهم، وحسن معاشرتهم، وخاصَّة عند تقدمهما في السنِّ، والحاجة إلى أولادهم، وأثرًا برزخيًّا وأُخرويًّا، فإنَّ عمل الإنسان ينقطع بعد موته وانتقاله إلى عالم البرزخ أو القبر، إلَّا من ثلاثة أمور كما روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنَّه قال: «**ليس يتَّبع الرجل بعد موته من الأجر إلَّا ثلاث خصال: صدقة أجراها في حياته، فهي تجري بعد موته، وسنَّة هديٍ سنَّها، فهي يعمل بها بعد موته، وولد صالح يستغفر له**»[1]، وهما سوف يحرمان من تلك الأثار بسبب سوء التربية لأولادهم.

ومن آثار التربية ما يعود على نفس الشخص واستقامته، وتعلُّقه بدينه وعقيدته، وطهارة قلبه، وقوَّة شخصيَّته، وعقله الفطن الذي يعرف ما يريد، وأين يذهب، إذ توكَل إليه الأمور الصعبة، ويُعتمَد عليه في المهمَّات، فيؤسِّس في المستقبل أسرة جديدة يعتني بها كما اعتنى به أهله، وربَّياه تربية سليمة، والعكس صحيح، بفشله تفشل أسرته ومجتمعه المحيط به، نعم إنَّ التربية الفاشلة تعمُّ المجتمع؛ لأنَّ فشل المجتمع مرهون

(١) د. أكرم بركات، كيف تجعل ولدك صالحًا، ص٩.

بفشل أفراده، ولكي تكون تربية صحيحة لا بدَّ من التعرُّف عن المعوِّقات تلك التربية، وإيجاد الحلول الجذريَّة لها.

المطلب الأوَّل: الصفات الوراثيَّة

إنَّ تكوين الشخصيَّة من خلال الإنماء العقليّ والسلوكيّ، بالإضافة إلى العامل الوراثيّ من أهمِّ ما يتطلَّع المربُّون والمصلحون الذين جاهدوا وثابروا في تحديد سلوكيَّات وتصرُّفات الأفراد بالاتِّجاه الإيجابيّ الفعَّال، ونزع أسباب التردِّي والانحطاط في الشخصيَّة السلوكيَّة، وباتت مسؤوليَّة التقويم لأفعال الأفراد من أهمِّ أولويَّات العلماء في التاريخ البشريّ، ولكنَّ الرسالات السماويَّة سبقت ذلك كلَّه، ولم تهمل الجانب التربويّ.

فالإسلام كشف قانون الوراثة قبل أن يكتشفها علماء النفس والوراثة، ووضَّح أنَّ لها تأثير إيجابيّ في التكوين السليم، فهي تؤثِّر ذاتيًّا في الشخص من بداية وجوده إلى مماته، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1]، إذ يرى الإسلام أنَّ سلوك الآباء والأمَّهات له تأثير كبير على سلوك أبنائهم الذين يرثون صفاتهم الصالحة أو الطالحة، فالموجود الحيّ ينقل كثيرًا من الصفات والخصائص إلى الأجيال التي تليها، فالجيل اللاحق يكسب صفات الجيل السابق، كلون الشعر ووضع الأنف والجنون والبلادة والحمق[2]، ولذلك نجد أنَّ القرآن الكريم يحكي على لسان النبيّ نوح هذه الحقيقة الصادمة، إذ يقول بعد أن يأس من هداية قومه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[3].

(١) سورة ال عمران: الآية ٣٣.

(٢) محمَّد تقي فلسفي، الطفل بين الوراثة والتربية، ج١، مطبعة دار التعارف، بيروت، ١٣٨٦هـ، ص٥١.

(٣) سورة نوح: الآية ٢٦.

فلقد وضع الإسلام كثيرًا من الأحكام، لكي يمنع من حدوث أولاد أشقياء وأجيال فاسدة، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «**السعيد من سعد في بطن أمِّه، والشقي من شقي في بطن أمِّه**»(١). والمقصود من الشقاء والسعادة في بطن الأم، هو تلك الانعكاسات التي تطرأ على الجنين تأثُّرًا بالحالة الصحيَّة والجسديَّة والنفسيَّة للأم، فتولِّد فيه استعدادًا للشقاء أو السعادة، فبعض الأمراض الجسديَّة تؤثِّر على الجنين، فيولد مصابًا ببعضها، وتلازمه الإصابة إلى الكِبَر فتكون مصدر شقاء له، أو يكون سالمًا من الأمراض فتكون السلامة ملازمة له، كذلك الحالة النفسيَّة والعاطفيَّة، فالقلق أو الاطمئنان، والاضطراب أو الاستقرار، والخوف وعدمه، وغيره، يؤثِّر في الجنين، ويبقى ملازمًا له ما لم يتوفَّر له المحيط الاجتماعيّ المثالي الذي ينقذه من آثار الماضي(٢).

الإسلام وضع الطرق الإرشاديَّة، وسلك أدقَّ السبل اللازم إتِّباعها لكي يمنع انتقال الصفات الرذيلة في أعقابهم، ويستأصل الأسر المنحطَّة في المجتمع التي تضعف شوكة الإسلام والمسلمين، فقد أكَّد على اختيار الزوجة من الأسر التي تمتلك الصفات النبيلة والكريمة لتأثير الوراثة على تكوين المرأة والطفل الذي تلده، وعلى هذا الأساس كانت خديجة هي زوجة النبيّ الأعظم التي ولدت سيِّدة نساء العالمين من الأوَّلين والآخِرين، وفاطمة عليها السلام بدورها أنجبت أفضل الخلق وأكملهم إيمانًا وأخلاقًا.

وقد أكمل الإسلام خطوته في الإرشاد عندما كره تزويج الرجل بالحمقاء، أو المجنونة، فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «إيَّاكم وتزوُّج الحمقاء، فإنَّ صحبتها بلاء، وولدها ضياع»(٣).

(١) محمَّد تقي فلسفي، الطفل بين الوراثة والتربية، ص٦٧.
(٢) الشيخ ياسين عيسى والسيِّد عليّ عاشور، التربية الفاشلة وطرق علاجها، دار البلاغة للنشر، بيروت، لسنة ٢٠١١م، ص٧٧.
(٣) د. أكرم بركات، كيف تجعل ولدك صالحًا، ص١٦.

وكما حذَّر من الزواج بالمجنونة، فالجنون ينتقل بالوراثة من الآباء إلى الأبناء، فالآباء المصابين بالجنون لا ينتجان إلَّا مجانين مثلهم، وهذا قانون طبيعيّ غير قابل للتبديل، والمولود المجنون ليش شقيًّا لنفسه فحسب، بل يسبب شقاوة المجتمع أيضًا[1]، ولكي لا ينتشر في المجتمع الحماقة والشذوذ والعاهات، أوصى النبيّ محمَّد صلى الله عليه وآله بزواج من ذات الدين، وترك زواج المرأة لجمالها أو مالها، فقد لا يرى فيهما خيرًا «**مَن تزوَّج امرأة لا يتزوَّجها إلَّا لجمالها لم يرَ فيها ما يحب، ومَن تزوجها لمالها لا يتزوجها إلَّا له وكله الله إليه، فعليكم بذات الدين**»[2].

كما أكَّد على المرأة أن تتعرَّف على حال، الرجل قبل الارتباط به من أن يكون من الذي لديه سوء خلق أو عاهات، فينتقل إلى أولادها، فإنَّ فساد أحد الوالدين يؤثِّر سلبًا على سلوكيَّات الأبناء ونموه العقليّ، إذا نشأ في جوٍّ أسريّ مليئ بالتصادمات وإشاعة الخوف والاضطراب النفسيّ، وهذا يعدُّ من معوِّقات التربية التي حذَّر الإسلام من الوقوع فيها، من خلال وصاياه الكثيرة في اختيار الزوجة الصالحة، لكون الأم هي التي تعدُّ الأجيال، وتنقل القيم، وتصون الأبناء، وبصلاحها يصلح المجتمع، وبفسادها يفسد المجتمع، وعندما يصلح المجتمع تسود الأخلاق والقيم الإنسانيَّة التي تأخذ بيده نحو طريق الكمال، وهذا الهدف المنشود، ومراعاة التسمية والدعاء عند مباشرة الزوجة، فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «**إذا جامع أحدكم فليقل بسم الله وبالله، اللهمَّ جنِّبني الشيطان، وجنِّب الشيطان مارزقتني..**»[3].

والاهتمام بغذاء الحامل، فقد نبَّه الإسلام إلى دور الغذاء في مستقبل الولد وحسنه، فعن النبيِّ الأكرم صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «**أطعموا حبالكم السفرجل، فإنَّه يحسِّن من أخلاق**

(١) محمَّد تقي فلسفي، الطفل بين الوراثة والتربية، ص ٦٨.

(٢) السيِّد عليّ السيستانيّ، منهاج الصالحين، ج٣، مطبعة دار التعارف، بيروت، لسنة ١٤٣٩هـ، ص٦٨.

(٣) د. أكرم بركات، كيف تجعل ولدك صالحًا، ص١٨-١٩.

أولادكم)[1]، وكذلك الدقَّة في اختيار المرضعة من غير الأم، لما للَّبن من تأثير في أخلاق الرضيع.

المطلب الثاني: الأبوَّة والأمومة الفاشلة

تعدُّ تربية الأبناء من أصعب الوظائف وأكثرها مسوؤليَّة، وأشقّها جهدًا، إذ يعدُّ الوالدان المؤسَّسة التربويَّة الأولى والنواة الإساسيَّة لتنشيتة الأبناء وتربيتهم، فالوالدين بطبيعة الحال مجبولون على حبِّ أبنائهم والاهتمام بهم، لكنَّ الجهل بالتربية والخطوات غير المدروسة منهم تحول دون التربية الصالحة، بل تعطي نتائج عكسيَّة غير مُرضية.

فالطفل إلى جانب تأثُّره الوراثيّ بوالديه، كذلك سلوك كلٍّ منهما يلعب دورًا بالغًا في التربية، فإذا عرف الولد مِن والديه الكذب، فإنَّه لا يتورَّع عنه، طالما قدوته في حياته تكذب، وهكذا سائر الصفات، وقد نبَّهت أحاديث أهل البيت عليهم السلام بضرورة الصدق في التعامل مع الأطفال، فقال النبي محمَّد صلى الله عليه وآله مخاطبًا الآباء: «**أحبُّوا الصبيان وارحموهم، فإذا وعدتموهم شيئًا فأفوا لهم..**»[2].

وقد يتأثَّر الطفل بوالديه عندما يراهما في تشاجر دائم، فهذا سيولِّد انعكاسًا سلبيًّا على شخصيَّته، بخلاف لو أعتاد على حالة الودِّ والوئام، ولعلَّه إلى هذا يشير أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: «**مودَّة الآباء قرابة بين الأبناء**»[3].

ومن أهمِّ معوِّقات التربية عدم تعليم الولد الحلال والحرام، ويبقى تركيز الأهل على تعليم أولادهم علوم الدنيا فقط، بل يمنعوهم في بعض الحالات من تعلُّم أحكام الإسلام، وهذا ما تنبَّأ به رسول الله صلى الله عليه وآله حينما قال: «**ويلٌ لأولاد آخر الزمان من آبائهم**. فقيل: يا رسول الله من آبائهم المشركين؟ فقال صلى الله عليه وآله: **من آبائهم المؤمنين لا يعلمُّونهم شيئًا**

(١) د. أكرم بركات، كيف تجعل ولدك صالحًا، ص ٢١.

(٢) الشيخ ياسين عيسى، والسيِّد عليّ عاشور، التربية الفاشلة وطرق علاجها، دار البلاغة للنشر، بيروت، لسنة ٢٠١١م، ص١٢٢.

(٣) د. أكرم بركات، كيف تجعل ولدك صالحًا، ص٨٦.

من الفرائض، وإذا تعلَّم أولادهم منعوهم،ورضوا عنهم بعرض يسيرٍ من الدنيا، فأنا منهم بريءٌ وهم منِّي براء»[1].

كما على الآباء مسؤوليَّة انتقاء أفضل الأسماء، إذ من حقوق الأبناء على آبائهم حسن التسمية، فقد ورد أنَّ رجلًا جاء إلى النبيّ محمَّدﷺ وسأله: ما حقُّ ابني هذا؟ فأجابﷺ: «**تحسن اسمه وأدبه وتضعه موضعًا حسنًا**»[2].

ومن معوِّقات التربية عدم الأخذ بتعاليم الدين القويم، وهو بدوره يوفِّر لنا الملاذ الآمن من جميع المشكلات، لكن ما نراه اليوم الكثير من الآباء يميلون إلى أسماء الفنَّانين وأسماء المشهورين من الأجانب في تسمية فلذات أكبادهم، غير مكترثين بالنتائج السلبيَّة، وتأثُّر الطفل بتلك الشخصيات، فهم بمثابة القدوة السيِّئة لهم، وبئس القدوة تلك.

ومن مظاهر التربية الهدَّامة إلقاء الأبناء في أحضان الشقاء بدافع إسعادهم، وترسيخ دعائم الكذب في نفسيَّاتهم من خلال تعليمهم طابع الصدق، إذ بعض الأولياء والمربِّين الحريصين يتسبَّبون أحيانا بتشدُّدهم المتزمِّت أو إسنادهم الزائد أو بقلَّة تمرُّسهم برمي أطفالهم في حضيض الانحطاط، يقول جان جوك: «يريد المربُّون تعليم الطفل نمط سلوك الراشدين، ولكن بما أنَّ تحليل هذا النمط السلوكيّ مازال متعذِّرا على الطفل، وحتَّى لا يستوعبها كما ينبغي، فإنَّه لا يتعلَّم من الدروس الأخلاقيَّة إلَّا التعوُّد على الكذب والمراوغة والتظاهر»[3].

وكذلك من مصادق التربية الهدَّامة والفاشلة هو الإهمال، وهنا تنقلب المعادلة، فإنَّ إهمال الوالدين، أي السكوت عن القول أو الفعل السيِّئ للأبناء دون الوعظ والتنبيه، وعلى فترات طويلة، تقع المشكلة، ويحصل ما لم نتوقَّع! ويزداد الأمر تعقيدًا عندما يكون

(١) د. أكرم بركات، كيف تجعل ولدك صالحًا، ص٧٩.

(٢) المصدر السابق، ص٣٧.

(٣) د.عبدالعظيم كريمي، التربية الصادمة، دار الهادي، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٧ م، ص١١.

أفعالهم تؤثِّر سلبًا على الفرد ومجتمعه، كالسرقة أو الإنجرار نحو العقائد الباطلة، أو تعاطي المخدِّرات، فالمسؤوليَّة الشرعيَّة والاجتماعيَّة تقتضي من المربِّين أن يستنهضوا هممهم، ويستيقظوا من سباتهم في ترك الإهمال، وإيجاد الحلول، ولو باللجوء إلى ذوي الخبرة والاختصاص لحلِّ تلك المشاكل.

وتعدُّ التربية بالقسوة من مصاديق التربية الهدَّامة، فإنَّ الأب سيِّئ الخلق الذي يبطش في عائلته ويتحكَّم بالأسرة على أساس القسوة، وبلغة السبِّ والشتيمة والضرب على أبسط الهفوات، لا يجني إلَّا أسرة بعيدة كلَّ البعد عن مبادئ الحصانة الأخلاقيَّة، يكون هدفها هو إرضاء ذلك الأب الظالم، دون أن تترسَّخ في أذهانهم تلك الأدبيَّات، فتكون أخلاقهم سطحيَّة لا جوهريَّة، ولوقت قصير، فالقسوة تعطي نتائج سريعة في طاعة الأبناء بدافع الخوف، لا بدافع الاعتقاد، لكن سرعان ما يزول، فالذي يأتي بسرعة يزول ويضمحل بسرعة، ليس هذا فحسب، وإنَّما يتحوَّل الطفل إلى مخلوق سلبيّ ضعيف الشخصيَّة، قليل الثقة، خائف لا يستطيع الدفاع عن نفسه، مخذول بين أصدقائه، وهذه التربية فقدت كلَّ مقوِّماتها الأساسيَّة، وتزيد الطفل شعورًا بالعداء والابتعاد عن المربِّي في أسرة يسودها جوُّ الخوف والقلق النفسيّ، ولهذا دعا الإسلام الوالدين إلى تفهُّم تغيير الزمان، عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «**لا تقسروا أولادكم على آدابكم، فإنَّهم مخلوقون لزمان غير زمانكم**»[1]. ولأنَّ غايتنا هو الوصول بأبنائنا نحو طريق الكمال، فلا بدَّ من التربية بالحبِّ والعطف، حبُّ الآباء لأبنائهم أمر فطريّ لاخلاف فيه، لكنَّ الحبَّ شيء والتعبير عنه شيء آخر، فلا بدَّ أن يشعر الطفل بذلك الحبّ والمودَّة، وهو أغلى شيء في حياتهم، هذا ممَّا يزيد الطفل قوَّة ومناعة، وهناك الكثير من الأحاديث التي وردت في فضل حبِّ الآباء لأبنائهم، والإحسان إليهم، والشفقة والرحمة، بهم فعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «**إنَّ الله ليرحم العبد لشدَّة حبِّه لولده**»[2].

(١) د. أكرم بركات، كيف تجعل ولدك صالحًا، ص٩٧.

(٢) الشيخ الكلينيّ، الكافي، دار الكتب الاسلاميَّة، الطبعة الثالثة، طهران، ١٣٦٧هـ، ص٥٠.

فالحبُّ داخل الأسرة هو بمثابة العمود الفقريّ لإنجاح التربية المتميِّزة، وهذا نراه واضحًا في تصرُّف السيِّدة الزَّهراء عليها السلام في حديث الكساء، عندما دخل عليها أبوها وزوجها وولديها، وهي تردُّ السلام عليهم بكلِّ حبٍّ وعطف، فنجد أدب الحوار والسلام واضحًا داخل الأسرة الزَّهراويَّة، وهي تُشعِر أولادها بحبِّها واحترامها لهم، بقولها عندما سلَّم عليها ولديها «**وعليك السلام يا قرَّة عيني، وثمرة فؤادي**»[1].

المطلب الثالث: البيئة الإجتماعيَّة

تشمل البيئة الاجتماعيَّة البيئات الكائنة خارج نطاق الأسرة، كالحارة والأقارب والجمعيَّات والنوادي ودور العبادة وغيرها، فمثل هذه البيئات قد تعمل سلبًا أو إيجابًا في السلوك عند الأفراد[2].

فالتعامل مع البيئات الإيجابيَّة تضفي على الشخص طابع تلك البيئة وتؤثر به، وتسلك به سلوكا طيِّبًا، عكس الأماكن المعدَّة للهو واللعب، تترك في نفس الإنسان الازدواجيَّة، وتترك أثرًا سلبيًّا في نفسه، وتعرِّفه على زملاء السوء، فالأصدقاء يشكِّلون حالة إساسيَّة في حياة الفرد، إذ يميل الإنسان بطبيعته إلى إنشاء علاقات مع غيره من الأفراد، واكتساب صدقات، ويكره العيش بمفرده في عزلة عن الآخرين، لكن تكمن المشكلة عند مصادقة الصديق المسموم، فالصداقة السامَّة من أهمِّ ما يميِّزها كلُّ ما هو سلبيّ لا يدفع إلى الأمام، وكلُّ ما يعطي للطرف الآخر عدم الشعور بالارتياح أو المساواة[3]، فالصداقة لها تأثير خطير على حياة كلِّ شخص منَّا، فهي تؤثِّر على المستوى الصحِّيّ والدينيّ والأخلاقيّ والعلميّ، بل تتشعَّب في مختلف نواحي الحياة، ويدخل الفرد في معترك بين السلوكيَّات والأفكار الجديدة التي اكتسبها من صديقه، وبين

(١) عبَّاس القمِّيّ، مفاتيح الجنان، المجمع العالميّ لأهل البيت، بيروت لبنان، الطبعة التاسعة، ١٤٣٢هـ، ص٦١٤.

(٢) مها نادر، التربية عند أئمَّة اهل البيت، ص٢٣٣.

(٣) د. إبراهيم الفقيّ، كيف تكسب الأصدقاء، الإبداع للنشر والتوزيع، ٢٠١٠ م، ص٦٠.

سلوكيّات أسرته، فمن واجب المربّي أن يتعرّف على أصدقاء أولاده، سواء أصدقاء المدرسة أو الجيران، وخصوصًا عندما تنتقل الأسرة إلى مدينة أخرى، سيبحث الولد عن أصدقاء جدد، إذن لا بدَّ من الدقَّة والانتباة في علاقاته الجديدة منعًا من الوقوع في مشاكل كبيرة، عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «**صحبة الأشرار تكسب الشرّ كالريح إذا مرَّت بالنتن حملت نتنًا**»(١).

كما أكَّد ابن سينا على ضرورة النظر في أقران الصبيّ، إذ إنَّه يتعلَّم منهم الكثير، فلا بدَّ أن يحاط الصبي مع مَن هم حسنة آدابهم، مرضيَّة عاداتهم، كما قيل: «**لأنَّ الصبي عن الصبيِّ ألقن، وهو عنه آخذ، وبه يأنس**»(٢).

ومن مؤثِّرات البيئة الاجتماعيَّة وأكبرها تهديدًا للبشريَّة وصول العادات الغربيَّة إلى بيوتنا بشكل مكثَّف، من خلال سوء استخدام وسائل التواصل الأجتماعيّ، وما يبثُّ فيها من قنوات تصل إلى درجة الانحطاط الانحدار بكلِّ معانيه، وقلَّة المتابعة من الوالدين، وجلوس الطفل لفترات طويلة، وتركه على هواه يسمع ويرى مايشاء وما يدور حول العالم، بدون مراقبة من قِبَل الأسرة. نعم إنَّ استخدام الانترنت والكمبيوتر والجوَّال بدأت تفرض وجودها علينا، وأصبح التعامل معها بشكلٍ طبيعيّ، والأطفال كذلك، فهم ليسوا ببعيدين عنها، بل غزت عالم الأطفال وخيالهم، وبدأت توثِّر عليهم بشكلٍ مباشر، فهي تفيد الطفل، وترفع مستواه، لكن تكمن المشكلة من عدم التوجيه والمراقبة من قِبَل الأسرة والاستخدام السيِّئ لها تحول دون الاستفادة منها، بل تكون أداة دمار وقتل للطفولة، كذلك للتلفاز أضرار، تقول الباحثة بدريَّة أحمد: إنَّ التلفاز يحاول جذب الصغار إلى عالم الرسوم المتحرِّكة، وهذه الرسوم تخلق عوالم مثيرة صاخبة

(١) عبدالواحد التميميّ، غرر الحكم ودرر الكلم، مؤسَّسة الأعلى للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ، ص١٦٤.

(٢) مها نادر، التربية عند أئمَّة أهل البيت، ص٢٣٣.

من مخلوقات وحركات غير منطقيَّة تتحدَّى كلَّ قوانين الحركة والزمن والحياة، وهذه الرسوم معظمها مستوردة من الدول الأجنبيَّة، والطفل مخلوق بريء، يقتبس كلَّ ما يشاهد بعفويَّة من قيم وعادات ومضامين، فهذه القنوات تقدِّم برامج الرسوم لكلِّ أطفال العالم وفق منظورها الخاص، ولايمكن للطفل العربيّ أن يتقبَّل كلَّ ما يطرح على تلك الفضائيَّات، فلكلِّ مجتمع عاداته وتقاليده، يتربَّى وسطها الأطفال، ومن الصعب تغيير هذه القيم التي تُعرض في الفضائيَّات»[1].

إذن على المربِّي أن يجد البدائل، ولا يترك الطفل لساعات يجلس على تلك الوسائل، فلا بدَّ أن يشغل الطفل في دورات ممارسة الرياضة مثلًا، وتوفير الألعاب الكافية، كذلك عدم حرمانه من الانترنت بشكلٍ كامل، وإنَّما نجد الحلول، فالبديل الذي نوفِّره لأطفالنا هو الانترنت نفسه! لكن نوفِّر فيه مواقع عربيَّة إسلاميَّة مثيرة وجذَّابة، تحتوي على كلِّ جديد ومفيد، ولا بدَّ أن نجاري العصر، ونركب سفينة النجاة، باستخدام سلاح العصرنة والتقدُّم، وهناك الكثير من الأساليب التي تهيِّأ لحماية الأطفال من التعرُّض للمواقع الإباحيَّة والخلاعيَّة أو ذات المعتقدات الخطيرة، وغيرها من المواقع غير المناسبة على مواقع الانترنت، لذا فمن الضروري التعرُّف على البرامج التي تتيح رقابة أبويَّة على الانترنت؛ لمنع برامج معيَّنة، بتهيئة الجهاز بطريقة لا تسمح للأطفال باستخدام الانترنت إلَّا كمصدر للتعليم، وليس جهاز للتفاعل، وتذكير الاطفال أنَّ قيمة الانترنت كلُّها تكمن في الجانب التعليميّ والثقافيّ وليس في جوانب أخرى، وإن لم تكن لدينا معرفة بكيفيَّة تهيئة الجهاز وضبطه لهذا الغرض، اتَّصل على الشركة لتشرح لك ذلك خطوة بخطوة[2].

(١) الشيخ ياسين عيسى والسيِّد عليّ عاشور، التربية الفاشلة وطرق علاجها، ص١٠٣-١٠٤.
(٢) المصدر نفسه، ١٠٦-١٠٧.

الخاتمة

الاستنتاجات

١. التربية الجسديَّة توفِّر أفضل أسباب البناء الجسديّ المتوازن، وتأمين احتياجاته، وقد عنت السيِّدة الزَّهراء عليها السلام كثيرًا بآداب المائدة، وحذَّرت من الإسراف في تناول الأطعمة الغنيَّة بالدهون.

٢. المعرفة الواعية الممتزجة بالقناعة والدليل هي النواة الأساسيَّة لبناء شخصيَّة الفرد.

٣. التربية الزَّهراويَّة تربية متكاملة جمعت كلَّ أقسام التربية، فتربيتها الأخلاقيَّة واضحة من أدب الحوار والحثِّ على مساعدة الفقير والأسير واحترام حقوق الآخرين.

٤. إنَّ تكوين الشخصيَّة يكون من خلال الإنماء العقليّ والسلوكيّ، بالإضافة إلى العامل الوراثيّ، ولذلك دعا الإسلام إلى ضرورة الفحص عن التربة الصالحة في الزواج.

٥. إنَّ التربية بالقسوة تعطي نتائج أسرع، لكن سرعان ما تزول؛ لكونها سطحيَّة لا جوهريَّة، وهذا يخالف ما ربت عليها الزَّهراء من احترام الطفل والثناء عليه.

التوصيات

نوصي بنشر فكر السيِّدة الزَّهراء عليها السلام في التربية، عن طريق إقامة مؤتمرات أو ندوات، أو بطباعة كتيبات تحوي طرق التربيَّة الزَّهراويَّة.

المصادر

* القران الكريم

١. أميمة عليق، ألف باء الحياة، دار الولاء، الطبعة الثانية، بيروت.

٢. عليّ السيستانيّ، منهاج الصالحين، ج٣، مطبعة دار التعارف، بيروت، ١٤٣٩هـ.

٣. محمَّد تقي فلسفيّ، الطفل بين الوراثة والتربية، ج١، مطبعة دار التعارف، بيروت، سنة ١٣٨٦هـ.

٤. محمَّد القزوينيّ، فاطمة الزَّهراء عليها السلام من المهد إلى اللحد، المطبعة العلميَّة، قم إيران، ١٤١٤هـ.ق.

٥. كفاح الحدَّاد، قراءة في السيرة الفاطميَّة، قسم الشؤون الفكريَّة والثقافيَّة في العتبة الحسينيَّة المقدَّسة، ط١، كربلاء المقدَّسة، ١٤٣٦هـ.

٦. عبَّاس القمِّيّ، مفاتيح الجنان، المجمع العالميّ لأهل البيت، بيروت، لبنان، الطبعة التاسعة، ١٤٣٢هأ.

٧. عليّ بن حسن الحلبيّ، النهاية في غريب الحديث والأثر، دار ابن الجوزيّ، الدمَّام، ١٤٢١هـ.

٨. مها نـادر، التربية عند أئمَّة أهل البيت، العتبة الحسينيَّة المقدَّسة، كربلاء المقدَّسة، ٢٠١٧ م.

٩. الشيخ محمَّد الشهابيّ، أكل الحرام وآثاره، مدرسة الإمام الصادق للعلوم الدينيَّة.

١٠. عبَّاس النوريّ، تربية الأولاد، قناة على التلكرام:

https://t.me/baakids.

١١. أكرم بركات، كيف تجعل ولدك صالحًا، بيت السراج للثقافة والنشر، بيروت، ٢٠١٧م.

١٢. شعبة التبليغ في قسم الشؤون الدينيَّة، شذرات من حياة فاطمة، العتبة العلويَّة المقدَّسة، الطبعة الأولى، ٢٠١٦م.

١٣. محمَّد العامليّ، فلسفة التربية الفقهيَّة عن الإمام الصادق، الطبعة الأولى، بيروت.

١٤. محسن الأمين، أعيان الشيعة، دار التعارف للمطبوعات، بيروت.

١٥. ياسين عيسى وعليّ عاشور، التربية الفاشلة وطرق علاجها، دار البلاغة للنشر، بيروت، ٢٠١١م.

١٦. عبدالعظيم كريمي، التربية الصادمة، دار الهادي، الطبعة الاولى -بيروت، ٢٠٠٧ م.

١٧. الكلينيّ، الكافي، دار الكتب الإسلاميَّة، الطبعة الثالثة، طهران، ١٣٦٧هـ.

١٨. إبراهيم الفقيّ، كيف تكسب الأصدقاء، الإبداع للنشر والتوزيع، ٢٠١٠م.

١٩. عبد الواحد التميميّ، غرر الحكم ودرر الكلم، مؤسَّسة الأعلى للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ.

20. https://apap.ahlamontada.com/t13079-topic.

محور الدِّراسات القانونيَّة والسِّياسيَّة والإعلاميَّة

فاطمة الزَّهراء عليها السلام والمشهد السياسيّ في فكر المستشرقين

د. كريم جهاد الحسَّانيّ
جامعة بغداد/ كليَّة العلوم الإسلاميَّة/ قسم العقيدة والفكر الإسلاميّ

ملخص البحث

يوصَف مشروع دراسة قضيَّة من القضايا المهمَّة، والمُختَلف عليها عند المسلمين، من الدراسات والبحوث الحسَّاسة التي تُثير المشاعر في النفوس، وتبعثُ الفُرقة في الدين الواحد.

ونحنُ اليوم نخرجُ عن هذا الإطار المُتعارَف في الديانة الواحدة، ونُحلِّق في سماء المستشرقين أصحاب الديانات المختلفة؛ لكي نتعرَّف على آرائهم في القضايا التي اختلفَ عليها المسلمون، وربَّما يعتقد البعض أنَّ هذه الآراء ليست بتلك الأهميَّة التي يترتَّب عليها حكمٌ من الأحكام ضمن الأُطر الإسلاميَّة، وهذا مع شديد الأسف غير وارد؛ لأنَّه لو تهيَّأ لباحثٍ مُجدٍّ؛ لَكشفَ عن جوانب خفيَّة ودقيقة ربَّما لم يتطرَّق لها الباحثون المسلمون.

وقضيَّتنا المُختَلف في فهم نصِّها عند المسلمين، والتي هي رحلتنا في عالم الاستشراق، تاريخ المشهد السياسيّ بعد رحيل نبيِّ الاسلام محمَّد صلوات الله وسلامه عليه، وهي محاولة متواضعة لرسم صورة متكاملة، وبالخصوص عن تلك المشاهد التي عاصرتها السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام، من خلال الرؤية الغربيَّة لتلك الفترة الزمنيَّة.

وقد هدفت الدراسة إلى الابتعاد عن هذه الاختلافات، والبحث في أروقة مفكِّري الاستشراق، على اختلاف مدارسهم وأزمانهم، والتي أسهمت أقلامهم بمعالجة هذا البحث المهمِّ، ومن خلال هذه المواقف تَشكَّلت لدينا وثيقة تاريخيَّة في الاستدلال على أصالة ومشروعيَّة هذه الواقعة خارج الأُطر الإسلاميَّة.

وقد بُنيَت الدراسة على مقدِّمة ومبحثَين، تتخلَّلها محاور عدَّة للموضوع الذي نحن بصدده، وتوصَّلنا في نهاية المطاف إلى أنَّ المنظومة الاستشراقيَّة اتَّسمت بعض دراساتها حول هذه القضية بالتتبُّع الدقيق والاستنتاجات الواضحة.

الكلمات الافتتاحية: الزَّهراء عليها السلام والمشهد السياسي بعد رحيل النبيّ صلى الله عليه وآله، فاطمة عليها السلام الناشطة والمعارضة السياسيَّة، الحراك السياسيّ حول الخلافة، طرق مواجهة الانتقال السياسيّ، الخاتمة، ونتائج البحث.

المقدِّمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين محمَّد وآله الطيِّبين الطاهرين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وبعد..

لقد أصبح الاستشراق اليوم علمًا له كيانه ومنهجه، ومدارسه وفلسفته، وأغراضه وأتباعه، ومعاهده ومؤتمراته، فصار حقًّا على الباحث أن يُعنى بتحديد المفاهيم والأفكار التي تبنَّتها تلك الأقلام؛ فقد لعب الاستشراق دورًا خطيرًا في حياة الأمَّة الإسلاميَّة، عبر قرون طويلة، وكان له من النتائج السلبيَّة والإيجابيَّة على واقع العلم والدرس، بل المجتمع والسياسة، ما يجب التوُّقف عنده طويلًا.

وكان من تلك البحوث الإستشراقيَّة دراسة تاريخ عدد من الشخصيَّات الإسلاميَّة في الصدر الأوَّل، والتي لعبت دورًا في تاريخ المسلمين، واتُّخِذَ من هذه البحوث منهجًا سارَ عليه المُهتمُّون في الشؤون الإسلاميَّة.

وموضوع بحثنا هو الدراسات التي كُتبت عن رائدة البيت النبويّ السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام، وبالخصوص المشهد السياسيّ بعد رحيل رسول الإنسانيَّة صلوات الله وسلامه عليه، من خلال المنظر الاستشراقيّ، فالمستشرقون ينظرون إليها بمنظار يختلفُ عمَّا عهدناهُ وآمنَّا به، وسلَّمنا بصحَّته، ومن حقِّنا، بل من واجبنا، التعرُّف على ما يقوله القوم عن قادتنا وأئمَّتنا وأسوتُنا، حتَّى نتمكَّن بعد ذلك من بيان بعض المُخالفات التي وردت في أفكارهم الناظرة بوجهٍ واحدٍ، دون النظر إلى الأوجه الأُخرى التي يجب على الباحث الاطِّلاع عليها.

فالتعرُّف على الاتِّجاهات الاستشراقيَّة حول هذه الشخصيَّة العظيمة أمرٌ مهمٌّ؛ لأنَّه في الحقيقة يُجسِّد الرؤيا الغربيَّة لبيت نبيِّ الإسلام محمَّد صلى الله عليه وآله، فكان السبب الذي دعاني إلى الخوض في فكرة هذا الموضوع.

لذلك تمَّ طرح تلك الآراء ودراستها دراسة تحليليَّة، بعيدًا عن الحقد والعصبيَّة؛ للوصول إلى الحقيقة التاريخيَّة التي لا بدَّ للباحث منها، فجاء البحث على مبحثَين، هما:

١. **المبحث الأوَّل**: حملَ عنوان: (الزَّهراء عليها السلام والمشهد السياسيّ بعد رحيل النبيّ صلى الله عليه وآله)، تناولنا فيه مطلبَين مهمَّين، هما:
   - فاطمة عليها السلام الناشطة السياسيَّة.
   - فاطمة عليها السلام المعارِضة السياسيَّة
٢. **المبحث الثاني**: وعنوانه: (الحراك السياسيّ حول الخلافة)، وحملَ في طيَّاته عدَّة مطالب، هي:
   - طرق مواجهة الانتقال السياسيّ.
   - احتواء المعارضة- الدعوة لطلب النُّصرة.
   - ثورة الدموع- المطالبة بفدك.

وأخيرًا أسأل الله سبحانه وتعالى أن أكون قد وفِّقت في إكمال هذه الدراسة على أكمل وجه، دون تَعصُّبٍ أو ميلٍ عاطفيٍّ على حساب الأمانة العلميَّة والتاريخيَّة الملقاة على عاتق الباحث الأمين.

المبحث الأوَّل

الزَّهراء عليها السلام والمشهد السياسيّ بعد رحيل النبيّ محمَّد صلى الله عليه وآله

إنَّ الأحداث الرهيبة التي جرت في العصر الإسلاميّ الأوَّل من الانقلابات بعد رحيل الرسول الأعظم محمَّد صلى الله عليه وآله، هي التي امتُحِنَ بها المسلمون امتحانًا عسيرًا، وأصبحت مصدر الفتنة الكبرى، وفرَّقت الكلمة فيما بينهم على امتداد تاريخهم، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الإنقلاب قبل وقوعه، وحذَّرَ من مَغَبَّته، وأنَّه سوف يكون البذرة الأولى لشقِّ وحدة المسلمين، بقوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[1].

والانقلاب هنا إشارةٌ إلى ذلك الارتداد، أي: كفرتم، ويُقال لمن كان على شيء ثمَّ رجع عنه: قد انقلب على عقبه، ومنه قيل للكافر بعد إسلامه: مُرتدٌّ[2]، وفي الآية أيضًا استعارة، والمراد بها الرجوع عن دينه، والتقاعس عن اتِّباع طريقه، فَشَبَّه سبحانه الرجوع في الارتياب بالرجوع على الأعقاب[3].

هذا الارتداد الذي أشارت إليه الآية الكريمة قد وَقَعَ مرَّتَين، مرَّةً في حياة النبيّ

(١) سورة آل عمران، ١٤٤.

(٢) ابن قتيبة، أبي محمَّد عبد الله بن مسلم (ت٢٧٦هـ)، تفسير غريب القرآن، تحقيق: السيِّد أحمد صقر، (المكتبة العلميَّة، بيروت، ١٤٢٨هـ)، ص١١٣.

(٣) الشريف الرضيّ، محمَّد بن الحسين (ت٤٠٦هـ)، تلخيص البيان في مجازات القرآن، حقَّقه وقدَّم له: محمَّد عبد الغني حسن، (ط٢، دار الأضواء، بيروت، ١٤٠٦هـ)، ص١٢٥.

الأعظم محمَّدصلى الله عليه وآله، وذلك يوم وقعة أُحد، لـمَّا أُرجفَ بأنَّه صلوات الله وسلامه عليه قد قُتل، فارتدَّ بعضهم، وانهزم البعض الآخر.. كما هو المعروف من هذه الواقعة، ومرَّةً أُخرى وقع الارتداد بعد رحيله، وفي هذا المقام يقول ابن القيِّم الجوزيَّة: «إنَّ وقعة أُحد كانت مُقدِّمةً وإرهاصًا- أي: لومًا- بين يدي موت رسول اللهصلى الله عليه وآله، فنبَّأهم الله ووبَّخهم على انقلابهم على أعقابهم إن مات رسول الله أو قُتل»[1].

ونقلَ صاحب تفسير المنار عن أُستاذه محمَّد عبده أنَّ جملة ﴿أَنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ عامَّة تشمل الارتداد عن الدين، والارتداد عن تأييد الحقِّ، ثمَّ علَّقَ صاحب المنار عن ذلك بقوله: «هذا هو الصَّواب»[2]، فالانقلاب المقصود بالآية لا ينحصر بترك كلمة التوحيد، بل يشمل العمل بالحقِّ الذي أوصى به النبيّصلى الله عليه وآله، ويُعزِّزُ ذلك ما أوردَهُ البُخاريُّ في صحيحه، إنَّ رسولَ اللهصلى الله عليه وآله يقول يوم القيامة: **أي وربِّي أصحابي**. فيُقال له: لا تدري ما أحدثوا بعدك[3].

لقد بدأت البذرة الأولى لشقِّ وحدة المسلمين بعد التحاق النبيّ الأعظم بالرفيق الأعلى مباشرةً، واجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة، ولحاق المهاجرين بهم، والنبيُّ بعدُ لم يُدفن، ثمَّ اختيار أبي بكر خليفةً لرسول اللهصلى الله عليه وآله، وفقَ آليةٍ شرحها المؤرِّخون[4]،

(١) ابن القيِّم الجوزيَّة، محمَّد بن أبي بكر (ت٧٥١هـ)، زاد المعاد في هَدي خير العباد، حقَّقه وأخرجه وعلَّق عليه: شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الارنؤوط، (ط٥، مؤسَّسة الرسالة، بيروت، ١٤١٢هـ)، ج٢، ص٢٢٤.

(٢) رشيد، محمَّد رضا (ت١٣٥٤هـ)، تفسير المنار، (ط٢، دار الفكر، بيروت)، ج٤، ص١٦٠-١٦٢.

(٣) البخاريّ، محمَّد (ت٢٥٦هـ)، صحيح البخاريّ، شرح وتحقيق: قاسم الشمَّاعيّ الرفاعيّ، (دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د.ت)، كتاب تفسير القرآن- باب تفسير قوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ﴾، ج٥، ص١٩١، وأخرى باب في سورة الأنبياء، ج٥، ص٢٤٠.

(٤) ينظر للتفاصيل في حوادث عام ١١ للهجرة بعد رحيل النبيّ: الطبريّ، محمَّد (ت٣١٠هـ)، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق أمراجعة وتصحيح وضبط: نخبة من العلماء الأجلَّاء، (مؤسَّسة=

فاستُبعدَ الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام وأهل البيت عليهم السلام عن الحياة السياسية، إذ يرى الإمام عليّ عليه السلام وأهل بيته وشيعته، بأنَّه أحقُّ بالخلافة من غيره، من خلال ترشيحه لهذا المنصب من قِبَل النبيّ صلى الله عليه وآله في مؤتمر الغدير الذي أخذَ فيه النبيُّ صلى الله عليه وآله البيعة علنًا له، مُخاطبًا الحاضرين من المسلمين: «**ألستُ أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟**»، قالوا: بلى، يا رسول الله. فقال: «**من كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه**»(١).

وفي هذا المضمار يعتمدُ الألماني (هاينس هالم Heinz Halm)(٢)على قول الشيعة بأنَّ هذا: «نصٌّ صريحٌ وواضحٌ تعيين عليّ، إمامًا وخليفةً»(٣). ويؤيِّد البريطانيّ

=الأعلميّ، بيروت، د.ت)، ج٢، ص٤٤٠-٥٥٢، ابن الأثير، عليّ (ت٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، (دار صادر، بيروت، ١٣٨٥هـ)، ج٢، ص٣٢٥-٣٣١، ابن كثير، إسماعيل (ت٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، تحقيق: عليّ شيري، (دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ١٤٠٨هـ)، ج٥، ص٢٦٥-٢٦٧.

(١) للاطِّلاع بما وردَ من حديث الغدير بألفاظٍ متعدِّدةٍ عن طُرقٍ متعدِّدة ينظر:
حنبل، أحمد (ت٢٤١هـ)، مسند أحمد، (دار صادر، بيروت، د.ت)، ج٢، ص٩٦١، الحسكانيّ، عبيد الله (ت٤٥٠هـ)، شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، تحقيق: محمَّد باقر المحموديّ، (ط١، طهران، ١٤١١هـ)، ج١، ص١٩٠و٢٤٥-٢٤٧، الهيثميّ، عليّ (ت٨٠٧هـ)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق: عبد الله محمَّد الدرويش، (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٤هـ)، كتاب المناقب، باب قوله صلى الله عليه وآله: «من كنت مولاه فعلي مولاه»، رقم الحديث (١٤٦٠)، ج٩، ص١٢٨، اليعقوبيّ، أحمد (ت٣٨٤هـ)، تاريخ اليعقوبيّ، (ط٢، شريعت، منشورات دار الاعتصام، قم، ١٤٢٥هـ)، ج٢، ص٩٣، الزرنديّ، محمَّد (ت٧٥٠هـ)، نظم درر السمطين في فضائل المصطفى والمرتضى والبتول والسبطين، (ط١، د.مط، ١٣٧٧هـ)، ص١٠٩.

(٢) ولد هاينس عام ١٩٤٢م في مدينة أندرناخ على نهر الراين في ألمانيا، بدأ في عام ١٩٦٢م دراسة كلٍّ من العلوم الإسلاميَّة والساميَّة والعصور الوسطى في جامعة توبنغن، من أعماله: الإسلام الشيعيّ من الدين إلى الثورة، والفاطميُّون وتقاليدهم في التعليم، والإسلام ماضٍ وحاضر.
ينظر: هالم، هاينس، الغنوصيَّة في الاسلام، ترجمة: رائد الباش، (ط١، منشورات الجيل، ١٤٢٣هـ)، المقدِّمة.

(٣) هالم، هاينس، الشيعة، ترجمة: محمود كبيبو، (ط١، بيت الورَّاق، بغداد، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م)، ص٢١.

(برنارد لويس Bernard Lewis)[1] القول بحصول أزمة في الوسط الإسلاميّ بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله، إلَّا أنَّه يُنكر إستخلافه حاكمًا للدولة الإسلاميَّة قبل رحيله، بقوله: «حدثت أوَّل أزمة في الاسلام بعد وفاة النبيّ في عام ٦٣٢م.. ولم يترك أيَّة أوامر صريحة بمن يخلفه كزعيم للجماعة الإسلاميَّة، وحاكم للدولة الإسلاميَّة الوليدة، ولم يكن أمام المسلمين ما يرشدهم سوى التجربة السياسيَّة الهزيلة ما قبل الإسلام»[2].

لكن، وفي إستعراضٍ للمستشرقة الفرنسيَّة مدام (ديولافوا Dulafwa)[3] عن عقيدة الشيعة في أحقيَّة الإمام عليّ عليه السلام لخلافة المسلمين، وإنَّ نبيّ الإسلام قد اختار لخلافته، قُبيل انتقاله إلى الملأ الأعلى، ابن عمِّه وصهره عليّ بن أبي طالب عليه السلام، إلَّا أنَّ المسلمين لم يحترموا ولم يُنفِّذوا وصيَّة النبيّ صلى الله عليه وآله بعد انتقاله إلى جوار ربِّه، واغتصبوا بذلك حقَّ عليّ، ومن هنا وقع الخلاف وتضَّخمَ الحقد بين أبناء المسلمين، عندها أخذت (مدام ديولافوا) تسأل قائلةً:

---

(١) ولد من أسرة يهوديَّة في لندن سنة ١٩١٦م، درس اللغات والتاريخ منذ سنٍّ مبكرة، تخرَّج سنة ١٩٣٦م من كليَّة الدراسات الشرقيَّة والإفريقيَّة في جامعة لندن، وحصل على الدكتوراه بعد ثلاث سنوات، انتقل إلى الولايات المتَّحدة الأمريكية ليصبح محاضرًا بجامعة برستون بعد أن حصل على الجنسية هناك سنة ١٩٨٢م، يعتبر أحد أهمِّ علماء الشرق الأوسط، وكان أحد مستشاري الرئيس الأمريكيّ جورج بوش، توفِّي سنة ٢٠١٨م، من آثاره: أصول الإسماعيليَّة، العرب في التاريخ، ظهور تركيا الحديثة، وغيرها. ينظر:

https://www.nytimes.com.

(٢) لويس، برنارد (ت١٤٣٩هـ)، الحشَّاشون، تعريب: محمَّد العزب موسى، (ط٢، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٤٢٨هـ)، ص٤١.

(٣) جان ديولافوا: ولدت في فرنسا سنة ١٨٥١هـ، رحَّاله وأديبة ومؤرِّخة مولعة في التاريخ، صحبت زوجها ديولافوا مارسل في رحلاته إلى مصر والجزائر والمغرب وسوريا ولبنان والعراق وإيران، حاءت إلى العراق سنة ١٨٨١م في ولاية تقي الدين باشا، توفِّيت سنة ١٩١٦م.
مراد، يحيى، معجم أسماء المستشرقين، (ط١، دار الكتب العلميَّة، بيروت١٤٢٤هـ)، ص٣٧٦.

«يا ترى مع مَنْ الحق؟ أَمعَ الطائفة الأُولى أم الثانية، وعقيدة أيّ منهما هي الصادقة؟ ينبغي لنا أن نتجرَّد من العاطفة ونُحكِّم عقلنا في هذا الأمر»[1].

عندها أجابت بكلِّ صراحة وجرأة في ردِّ هذه الشُّبهة، مُستعينةً بما ذَكره القرآن الكريم في العناية والخصوصيَّة التي خصَّ بها آل محمَّد صلى الله عليه وآله، وأنَّ شخص الإمام عليّ عليه السلام أولى بالفضيلة من أيِّ شخصيَّة غريبة أُخرى، قائلةً: «والواقع إنَّنا لا نحتاج إلى الاستعانة بأصول الفلسفة أو علوم ما وراء الطبيعة للإجابة عمَّا تقدَّم، بل سرعان ما يظهر أنَّ الحقَّ كان مع عليّ وأولاده، وأوَّل دليل على هذا هو ما ذكره القرآن الكريم[2] من العناية بأفراد عائلة النبيّ، وما خصَّهم به من حقوق في أموال المسلمين والغنائم الحربيَّة التي يجب صرفها للمحافظة على أعقابه والترفيه عنهم.. على هذا الأساس كيف يمكن أن يُرِّجح النبيّ شخصًا غير عليّ، الذي كان من المقرَّبين إليه، وابن عمِّه وصهره.. كيف يمكن أن يُفضِّل عليه شخصًا غريبًا؟»[3].

وعلى الرغم من محاولة بعض المستشرقين التقليل من أهميَّة حقيقة الغدير، إلَّا أنَّنا نُلاحظ الباحث الفرنسي (ماسينيون Massignon)[4] يميل إلى إبراز رأيه بشأن هذه

(١) ديولافوا، جان (ت١٣٣٤هـ)، رحلة مدام جان ديولافوا، ترجمة: د. مصطفى جواد، (دار منشورات البصريّ، بغداد، ١٣٧٧هـ)، ص١٢٩.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الأنفال: ٤١.

(٣) رحلة مدام ديولافوا، ص١٣٠.

(٤) ولد سنة ١٨٨٣م، من أعضاء المجمَعَين العربيَّين في دمشق والقاهرة، تعلَّم العربيَّة والفارسيَّة والتركيَّة والألمانيَّة والإنكليزيَّة، وعني بالآثار القديمة، وأدَّت مشاركته في التنقيب عنها بالعراق إلى اكتشاف قصر الأخيضر، توفِّي سنة ١٩٦٢م، من أعماله: تاريخ الاصطلاحات الفلسفيَّة، وأخبار الحلاج، وغيرهما. ينظر: بدر، عليّ، ماسينيون في بغداد، (منشورات الجمل، ألمانيا، ١٤٢٥هـ)، ص٣١-٩٩، الزركليّ، خير الدين (ت١٤١٠هـ)، الأعلام، (ط٥، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤٠٠هـ)، ج٥، ص٢٤٧.

الخلافة بشكلٍ مختصرٍ وصريحٍ في معرض بحثه عن الصَّحابيّ الجليل سلمان الفارسيّ، كما يذكر لنا ذلك عبد الرحمن بدوي؛ إذ إنَّه- ماسينيون- يرى فيها بيعةً علنيَّةً ثابتةً للإمام عليّ عليه السلام، لم يستطع أهل السنَّة إزاءها أن يعترفوا بصحَّتها، ويقولوا بها مع التقليل من أهميَّتها[1].

هذا الانشقاق الذي يعود كما يراه (الفرنس دومينيك Dominique)[2] من جرَّاء فصل الخلافة عن الأسرة النبويَّة، بقولهم: «تعود أهمُّ أسباب الشقاق في ذلك العصر إلى إبعاد عليّ، ابن عمِّ النبيّ وصهره، الذي لم يزل يُناصرهُ ويشدُّ أزره منذ بداية الإسلام»[3].

وراحَ (هنري ماسيه Henri Masse)[4] يرسم لنا خريطة أسباب الأحداث السياسيَّة الحقيقيَّة والصراع بعد وفاة الرسول محمَّد صلى الله عليه وآله، بقوله: «إندلعت أزمة سياسيَّة حول موضوع خلافة محمَّد، وتصارعَ المدنيُّون والمكِّيُّون على السلطة»[5]. إلَّا أنَّ (ماسيه) على الرغم تجنُّبِهِ عن التصريح بالأسباب الحقيقيَّة التي نشبت بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله حول

(١) بدوي، عبد الرحمن (ت١٤٢٢هـ)، شخصيَّات قلقة في الاسلام، (ط٢، دار النهضة العربيَّة، القاهرة، ١٣٨٣هـ)، ص٣٥.

(٢) دومينيك سورديل، ولدت في باريس عام ١٩٢١م، عُرفت بكثرة تآليفاتها وتحقيقاتها، منها: وصفة الدواة والقلم وتعريفهما لأبي القاسم البغداديّ، وحوليَّات الآثار السوريَّة عام ١٩٥٢م، ولها في مجلَّة أرابيكا: سيرة ابن المقفَّع ١٩٥٤م، ولها: مفهوم الإمامة في مطلع القرن الحادي عشر في رأي الشيخ المفيد. ينظر: مراد، معجم أسماء المستشرقين، ص٤٥٦.

(٣) سورديل، دومينيك، الحضارة الإسلاميَّة في عصرها الذهبيّ، (ط١، دار الحقيقة، بيروت، ١٤٠٠هـ)، ج١، ص٣٢.

(٤) ولد سنة ١٨٨٦م، حصل على دبلوم في العربيَّة والفارسيَّة والتركيَّة، أصبح أستاذًا في المدرسة الوطنيَّة للغات الشرقيَّة، توفِّي سنة ١٩٦٩م، من أعماله: تحقيق كتاب (تاريخ مصر) لمحمَّد بن المُيسَّر، وغيرها. بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٥٣٦-٥٣٧.

(٥) ماسيه، هنري (ت١٣٨٧هـ)، الإسلام، ترجمة: بهيج شعبان، علَّق عليه: د. مصطفى الرافعيّ ومحمَّد جواد مغنية، (منشورات عويدات، بيروت، ١٤٠٨هـ)، ص٩٩.

خلافته إلَّا أنَّه اعترف بأحقيَّة الإمام عليّ عليه السلام وأبنائه بأنَّهم الأصحاب الشرعيِّين لتسنُّم السلطة، بالرغم من أنَّهم أُبعدوا عنها، بقوله: «وقاعدة المذهب الشيعيّ في السياسة هي الشرعيَّة: إنَّ عليًّا أُبعد بغيرٍ حقٍّ عن الخلافة، وكذلك أعقابه»[1].

كلُّ هذا المشهد السياسيّ لم تكن السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام بعيدةً عمَّا آلت إليه التهاترات السياسيَّة آنذاك، والتي كانت نتيجتهُ إبعاد زوجها عليّ عليه السلام عن سُلَّم خلافة أبيها في حُكم المسلمين، وهو ما أكَّدهُ الكَنَدي (فيناي Vinay)[2] من أنَّ فاطمة كان لها أهميَّة سياسيَّة في الوضع المُضطرب في خلافة محمَّد[3].

فاطمة عليها السلام الناشطة والمعَارِضة السياسيَّة

رُبَّما يُفهَم من العنوان الاستشراقيّ الذي وضعناهُ، أنَّ السيِّدة فاطمة عليها السلام كانت من النساء اللواتي خِضنَ غِمار السياسة في الإسلام، والسياسة كما هو معروف فنٌّ الكذب، فكيفَ تكون ابنة النبيّ صلى الله عليه وآله وسط هذا الفن؟.

إنَّ السياسة الإسلاميَّة تُباين السياسة العالميَّة، اليوم، وتختلف في أصولها وفروعها، فالسياسة الإسلاميَّة هي غير السياسة التي غايتها القدرة على إدارة دفَّة الحُكم وتسيير الناس، والأخذ بزمام الأمور مهما كلَّفها ذلك من إهدار الكرامات، وإراقة الدماء، وكبتٍ للحُريَّات، وابتزاز الأموال.. وظُلمٍ وإجحاف، ونحو ذلك، وإنَّما هي السياسة التي نادى بها القرآن الكريم في مضمون قوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ

(١) ماسيه، هنري (ت١٣٨٧هـ)، الإسلام، ص١٩٣.

(٢) فيناي كتيا (ختيا)، ولد في كندا، حصل على الماجستير في التاريخ وفلسفة الدين، وبعدها حصل على الدكتوراه من جامعة ماك ماستر بأطروحته الموسومة (فاطمة كحافز للمُعاناة والتنازع في الفكر الإسلاميّ). ينظر:

http://vinaykhetia.com/cv/ Academic CV.

(3) Fatima as a Motif of Contention and Suffering in Islamic Sources. Thesis in the Department of Religion. p. 41-42. (with modification).

﴿الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[1]، ولذا فهي تسعى لتنظيم أمور دُنيا الناس على أحسن وأرفه وجه، من خلال بناء أُسس العدل الكامل.. والكرامة الإنسانيَّة.. والعفو والصمود والقوَّة، وهي من أُسس الدين التي يجب على كلِّ فردٍ من المسلمين السعي لتطبيقها على العالم كلِّه.

ففي الشريعة الإسلاميَّة نصوصٌ كثيرةٌ تدلُّ على أنَّ السياسة جزءٌ لا يتجزَّأ من الإسلام، منها ما وردَ في كلام الإمام عليّ الرضا عليه السلام: «**الإمام عالِم لا يجهل.. مُضطلعٌ بالإمامة، عالِمٌ بالسياسة**»[2]، وفي حديثٍ آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: «**ثمَّ فوَّضَ إلى النبيّ أمر الدين والأمَّة؛ ليسوس عباده**»[3]، وفي كتاب الإمام عليّ عليه السلام إلى مالك الأشتر النخعيّ، قوله: «**فاصطَفِ لولاية أعمالك أهل الورع والعلم والسياسة**»[4]، وقال في كتابٍ له إلى معاوية بن أبي سفيان: «**ومتى كنتم يا معاوية ساسة الرعيَّة وولاة الأُمَّة**»[5].

هذه الكلمات من الأحاديث والمخاطبات تُعطينا فكرة وافية عن الرصيد الفكريّ السياسيّ الضخم الذي تركه الإسلام للمسلمين وللعالم أجمع، وهي منظار لتاريخ

(١) سورة الأعراف: ١٥٧.
(٢) الصدوق، أبي جعفر (ت٣٨١هـ)، الأمالي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلاميَّة، مؤسَّسة البعثة في قم، (ط١، مركز الطباعة والنشر في مؤسَّسة البعثة، قم، ١٤١٧هـ)، المجلس السابع والتسعون، ص٧٧٨.
(٣) الكلينيّ، أبي جعفر (ت٣٣٩هـ)، الأصول من الكافي، تحقيق وتصحيح: عليّ أكبر الغفاري، (ط٥، حيدري، طهران، ١٣٨٨هـ)، كتاب الحجَّة، باب التفويض إلى رسول الله، ج١، ص٢٦٦.
(٤) النعمان، محمَّد (ت٣٦٣هـ)، دعائم الإسلام، تحقيق: آصف بن عليّ أصغر فيضي، (دار المعارف، القاهرة، ١٣٨٣هـ)، ج١، ص٣٦١، النوري، حسين (ت١٣٢٠هـ)، مستدرك الوسائل ومستنبط السائل، تحقيق: مؤسَّسة أهل البيت عليهم السلام لاحياء التراث، (ط٢، قم ١٤٠٨هـ)، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، باب ما ينبغي للموالي العمل به، ج١٣، ص١٥٣.
(٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٣، ص١١.

النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله، وتاريخ الأئمَّة عليهم السلام من أهل بيته من نسل ابنته فاطمة عليها السلام، وعلى هذا نُلاحظ أنَّ السياسة من واقع الإسلام تتقدَّم بصورة ثابته لترسم كلَّ معالم الواقع السياسيّ، فهي لا تفترض إمكانيَّة مفتوحة لأن يكون كلُّ مَن هبَّ ودبَّ سياسيًّا بالمعنى الإسلاميّ.

ولهذا فإنَّ السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام عندما خرجت تُطالب ببعض الحقوق من خليفة المسلمين آنذاك، كما سنُلاحظ ذلك، ما هي إلَّا مطالبُ السياسة الشرعيَّة التي تعتقد وتجزم بها جزمًا قاطعًا، لا مطالب السياسة الدنيويَّة من الحُكم وغيره، كما عبَّر عنه السيِّد محمَّد باقر الصدر رحمه الله بتعليقةٍ له، قائلًا: «عندما نُطلق عبارة السياسة لا نعني مفهومها الرائج في أذهان الناس هذا اليوم والمُركَّز على الالتواء والافتراء، وإنَّما المقصود بها مفهومها الحقيقيّ الذي لا التواء فيه. فالمُمعن في دراسة خطوات النزاع وتطوُّراته، والأشكال التي اتَّخذها، لا يُفهم منه ما يُفهم من قضيَّة مُطالبة بأرض، بل يتجلَّى له منها مفهوم أوسع من ذلك، ينطوي على غَرَضٍ طموح يبعث إلى الثورة، ويهدف إلى استرداد عرشٍ مسلوبٍ، وتاجٍ ضائعٍ، ومجدٍ عظيمٍ، وتعديل أمَّة انقلبت على أعقابها»[1].

وأمَّا المستشرقون[2] فهم عادةً ينظرون إلى كلِّ الجهود المُطالبة بسدَّة الحكم، وما يتعلَّق به، يدخل ضمن نطاق السياسة بمختلف أشكالها، وتبرز خطاباتهم مُعَنوَنة بهذه العناوين المُعاصرة، فمصاديق مفردات الفكر الاستشراقيّ للواقع السياسيّ بعد رحيل النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله، هي من منظور رؤيتهم لا من منظورٍ إسلاميّ.

---

(١) الصدر، محمَّد (ت١٤٤٠هـ)، فدك في التاريخ، تحقيق: عبد الجبَّار شرارة، (ط١، مركز الغدير، ١٤١٥هـ)، ص٦٣.

(٢) للاطِّلاع ينظر: سعيد، إدوارد (ت١٤٢٣هـ)، الاستشراق المفاهيم الغربيَّة للشرق، ترجمة: د. محمَّد عناني، (ط١، القاهرة، ١٤٢٦هـ)، ص٥٤-٦٢.

المبحث الثاني

الحراك السياسي حول الخلافة

يتَّفق المستشرقون، كما أسلفنا سابقًا، بأنَّ هناك حراكًا سياسيًّا حادًّا، حصل بين الأُسرة النبويَّة العلويَّة والمهاجرين والأنصار بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله، حول مَن يخلفهُ على المسلمين، وادَّعى كلٌّ منهم أحقيَّته بالخلافة، ويتحدَّث هنا المستشرق (كارل بروكلمان Carl Brockelmann)(١) عن طبيعة الخلاف في بيعة السقيفة، والأحقيَّة بالخلافة، قائلًا: «وما كادَ الرسول يلحق بالرفيق الأعلى حتَّى أحدقت الأخطار بالرسالة التي وقف عليها حياته، أعني توحيد بلاد العرب دينيًّا وسياسيًّا.. والحقُ أنَّ جميع الأحقاد السياسيَّة التي كان النبيّ قد كبَتَها بنفوذه الأدبيّ، لم تلبث أن ذرَّت قِرنها، فمن ناحيةٍ كان عددُ المنافقين لا يزال في المدينة كبيرًا جدًّا، ومن ناحية ثانية كان الأنصار العريقون في المدينة يتوقون إلى التحرُّر من سلطان الأغلبيَّة المُتمثِّلة في المهاجرين.. ثمَّ إنَّ عليًّا، ابنُ عمِّ النبيِّ وزوج ابنته، ادَّعى لنفسه الحقَّ في خلافته كرئيس دولة، بوصفه أقرب رَحِمًا إليه، ولكنَّه كان، كسعد بن عبادة سيِّد الأنصار.. لا يملك من القوَّة أو من النفوذ ما يساعده على تحقيق طلبته»(٢).

(١) مستشرق ألمانيّ، ولِد في سنة ١٨٦٨م، حصل على الدكتوراه الأولى سنة ١٨٩٠م، انتُخب بروكلمان في مجاميع: برلين وليبزيج وبودابست وبون ودمشق، وغيرها، توفِّي سنة ١٩٥٦م عن عمر يناهز ٨٧ سنة، من مؤلَّفاته: العلاقة بين كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير، وكتاب أخبار الرسل والملوك للطبريّ، وديوان لبيد مترجَم، وأهل الآثار في مختصر السِّير والأخبار، وغيرهما. بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٩٨.

(٢) بروكلمان، كارل (ت١٣٧٥هـ)، تاريخ الشعوب الإسلاميَّة، ترجمة: نبيه أمين فارس ومنير=

أمَّا الفرنسي (سيِّديو Sedillot)[1]، فإنَّه يرى بصلاح الأمَّة لخلافة نبيِّ الإسلام بمبدأ الوراثة المُتمِّثل بزوج ابنته الإمام عليّ عليه السلام، وكان من الممكن، لو التزم المسلمون به؛ لتجنَّبوا الوقوع في الفتنة التي أغرقت البلاد، بقوله: «وما كانت الحوادث التي تواترت بعد ذلك لتحقِّق أمل أولئك الحرَّاص الذين أوجبوا ذلك القتل، فاشتعلت الفتن في كلِّ ناحية.. جمع زوج فاطمة في شخصه حقوق الوراثة وحقوق الانتخاب، ووجب على كلِّ واحدٍ أن ينحني أمام صاحب هذا المجد العظيم الخالص»[2].

كما تحدَّث المستشرق (لابيدس Lapides)[3]، عن مسألة السقيفة، ومحاولة قبيلة الخزرج ترشيح زعيمٍ منهم، وهو سعد بن عبادة، إلَّا أنَّ محاولتهم باءت بالفشل، بقوله: «.. عند وفاة محمَّد في العام ٦٣٢م، تعرَّضَ إنجاز عمره كلُّه للتهديد، في غياب أيِّ توافق فيما يخصُّ الخلف.. فقرَّر خزرج المدينة انتخاب زعيمٍ منهم، ومسلمون آخرون، ولاسيما المهاجرون، أبناء عشائر المدينة الأضعف، والعديد من الأفراد الذين كانوا قد تخلّوا عن عشائرهم للالتحاق بركب محمَّد، رأوا أنَّ من شأن هذا أن يفضي إلى استئناف الحزازات والضغائن، فحاولوا قطع الطريق على الخزرج، وفي أثناء جدالٍ دام الليل

=البعلبكيّ، (ط ٦، دار العلم للملايين، بيروت، ١٣٩٣هـ)، ص٨٣.

(١) لويس بيير سيديو، ولد في باريس سنة ١٨٠٨م، درس على أبيه اللغات الشرقيَّة والرياضيَّات، واهتمَّ بأبحاث أبيه في تاريخ الفلك والرياضيات عن الشرقيِّين، توفِّي سنة ١٨٧٥م، من أعماله: مقدِّمة لوحات أولج الفلكيَّة، وأبحاث في تاريخ الفلك عند العرب، ورسالة للحسن بن الهيثم، وغيرها. بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٣٤٥- ٢٤٧.

(٢) سيِّديو، لويس (ت١٢٩٢هـ)، تاريخ العرب العام، ترجمة: عادل زعيتر، (ط١، دار طيبة للطباعة والنشر، مصر، ١٤٣٤هـ)، ص١٢٩.

(٣) البروفيسور أيرا م. لابيدس، ولد في بروكلين بنيويورك، أستاذ التاريخ بجامعة كاليفورنيا منذ ١٩٦٥م، عمل لسنوات عديدة رئيسًا لمركز دراسات الشرق الأوسط في بيركلي، محرِّر مدن الشرق الأوسط، وله أعمال تاريخيَّة من مقالاتٍ وكتب، منها: الإسلام، السياسة، والحركات الاجتماعيَّة، والحركات الإسلاميَّة المعاصرة من منظور تاريخيّ. ينظر:
https://en.wikipedia.org/wiki/Ira_M._Lapidus.

كلّه، ولِدت فكرة الخلافة..»[1]. وقد أفضى هذا المشهد إلى أن يتسلَّم مقاليد الخلافة أبو بكر على المسلمين. هذا الحِراك السياسي كما يراه الكَنَدي فيناي، أصبح فيما بعد مصدرًا لانقسامٍ طائفيٍّ عميق بين المسلمين[2].

ولـمَّا كانت الزَّهراء عليها السلام تُمثِّل مع زوجها الإمام عليّ عليه السلام وريثة الأُسرة النبويَّة، فهي على خُطى أبيها النبيّ صلى الله عليه وآله في تحمُّل مسؤوليَّة الدفاع عن مبادئ الإسلام وقيمهِ العُليا، وبما أنَّ المساحة السياسيَّة في فكر أهل البيت عليهم السلام هي مساحة واسعة تضمُّ الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومواجهة الحُكَّام والأنظمة، فلقد لعِبت فاطمة الزَّهراء عليها السلام دورًا بارزًا ومهمًّا، بحسب المصادر التأريخيَّة، كما يقول المستشرق فيناي:

«في النصوص التاريخيَّة، فاطمة لعبت دورًا في النزاع، إمرأة جدليَّة في مركزٍ أُنتجَ من قوَّةٍ تبعت وفاة محمَّد»[3].

إذ وجدت نفسها طرفًا في بعض الأحداث، كما تقول الإيطاليَّة (فاغليري Vaglieri)[4] التي أعقبت وفاة أبيها[5]، فهي ترى أحقيَّة زوجها الإمام عليّ عليه السلام بالخلافة دون غيره، فاجتهدت من أجل بيان الحقِّ المُغتصب في هذا الحراك، وهو

(١) ايرا، لابيدس، تاريخ المجتمعات الإسلاميَّة، ترجمة: فاضل جتكر، (ط١، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م)، ج١، ص٩٨.

(2) Fatima as a Motif of Contention and Suffering in Islamic Sources. P. 39. (with modification).

(3) Ibid. P. 90.

(٤) لورا فيشيا فاغليري، ولدت سنة ١٨٩٣م، حصلت على الدكتوراه في آداب اللغة العربيَّة من جامعة روما سنة ١٩١٥م، وعملت بعدها على تدريس اللغة العربيَّة بالمعهد الشرقيّ بنابولي، وأصبحت مديرة القسم حتَّى وفاتها سنة ١٩٨٩م، لها عدَّة مؤلَّفات، منها: الإسلام، ومطالعات عربيَّة، والمسلمون في سردينا، وغيرهما. ينظر: حمدان، عبد الحميد صالح، طبقات المستشرقين، (د.مط، منشورات مكتبة مدبولي، مصر، د.ت)، ص١٦٧.

(5) The Encyclopaedia of Islam. Volume II. ٤. 844. (with modification).

ما سجَّلهُ لها الفرنسي (جين كالمارد Jane Kalmard)[1] بتخصيص أعمالٍ لها كانت ذات أهميَّة سياسيَّة، منها دفاعها عن قضيَّة الخلافة، ومعارضتها الشديدة للخليفة المُنتخب، والذي أوردته- والقول لكالمارد- أغلب مصادر المسلمين من كِلَا الفريقَين تقريبًا، وإن كان في إصدارات مختلفة[2].

وذهبت الدكتورة (دنيس لويس صوفي Denise L. Soufi)[3] إلى القول بأنَّ الأحاديث تؤكِّد دخول فاطمة عليها السلام في النزاع الذي حصل بعد رحيل النبيِّ الأكرم صلى الله عليه وآله، وهذه الأحاديث مع ميلها وتحيُّزها- حسب قولها- إلَّا أنَّها لا تخلوا من الحقيقة؛ والدليل على ذلك أنَّ أهل السنَّة لم يتمكَّنوا من تطهير تاريخهم ممَّا يُشينه، فلا ريب أنَّ فاطمة عليها السلام نازعت أبا بكر، واعترضت عليه؛ لتصدِّيه للخلافة، وضبطه لأموال الرسول، وقد ماتت وهي واجِدة عليه، بل لا يبعد أن يكون إخفاء موتها مدَّة، وإخفاء مراسم تشييعها ودفنها يُعدُّ وسيلة للغمز من الخليفة، ومن الواضح أنَّ أهل السنَّة أهملوا هذه الكوَّة [النافذة] الصغيرة من حياة فاطمة، أو التقليل من شأنها، بينما ركَّز عليها الشيعة، وأكَّدوا عليها كثيرًا[4].

(١) ولد في باريس سنة ١٩٣١م، خدم لسنوات في البحرية الفرنسية، ثم حصل على الدكتوراه من جامعة طهران سنة ١٩٦٧م في أطروحته حول طقوس الاحتفال بكربلاء في بلاد فارس، عمل في التدريس في كلية الدراسات العليا، وفي جامعة السوربون، توفي سنة ٢٠١٧م.

(2) Calmard, Jean. Fatimah: In myth, folklore, and popular devotion. Encyclopaedia Iranica. (Encyclopaedia Iranica Foundation, 2018).P. 2.

(٣) دنيس لويس صوفي، ولدت سنة ١٩٦٩م، وحصلت على شهادة الدكتوراه من جامعة برنستين سنة ١٩٩٧م لها اهتمامات واسعة في الشؤون الاسلامية، من أعمالها أطروحتها: فاطمة في الفكر المسلم الكلاسيكي.

(4) Soufi L. Denise. The Image of Fatima in Classical Muslim Thought. A Dissertation presnted to The Faculty of Princeton University in Candidacy for The Degree of Doctor of Philosophy. Recommended for Acceptance by the Department of near Eastern Studies.(June,1997).P. 206.

وقد اتَّجهت فاطمة عليها السلام نتيجة هذا المشهد باتِّجاهاتٍ عدَّة، أهمُّها:

أوَّلًا: احتواء المُعارضة

غدا منزل السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام مركزًا لتجمُّع المُعارضين الذين رفضوا بيعة الخليفة الجديد أبو بكر، ممَّن طالبوا بتعيين زوجها الإمام عليّ عليه السلام خليفةً للمسلمين، إذ يصف الفرنسيّ ماسينيون هـؤلاء الثلَّة بالفرسان أصحاب التمرُّد النقيّ ضدَّ السلطة السياسيَّة، بقوله: «وكان من المتمرِّدين الشيعة أمثال: أبو ذر وحجر بن عدي، اللذَين لم يكونوا أُمراء، بل كانوا مُناوئين بسطاء، تحوَّلوا إلى فرسان للدفاع عن الفقراء والمستضعفين ضدَّ السلطة السياسيَّة ومَن معها، الذين حاولوا إضعاف هذا الصوت، والوقوف بالضدِّ من تأسيس الخلافة الفاطميَّة، فقد كان أصل تمرُّد هؤلاء نقيًّا ومشابهًا لترنيمة التمجيد المريميّ[1]؛ لِما تعرَّضت له فاطمة من اعتداءٍ عليها، وهي بضعة الرسول»[2].

وهذا يُفصح عند المستشرق الإنكليزيّ (وليم موير William Muir)[3] عن مركزيَّة فاطمة عليها السلام في توجيه الرأي العامِّ الإسلاميّ المُعارض للانقلاب[4]، فقد وردَ: أنَّ عليًّا عليه السلام، والزبير، كانا يدخُلان على فاطمة عليها السلام، فيُشاورانها ويرتجعان في أمرهم،

(١) ترنيمة التمجيد، أو النشيد المريميّ، هي إحدى الترانيم الموجودة في الكتاب المقدَّس، المنسوبة إلى مريم عليها السلام، والتي تُستعمل في الصلوات والأدعية في جلِّ الكنائس.

(2) Opera Minora. L'oratoire de Marie A L'aqca,Vu Sous Le Voile de Deuil de Fatima.1956. P. 597.

(٣) ولد في جلاسجو الإنكليزيَّة سنة ١٨١٩م، عُني بالتاريخ الإسلاميّ، لكنَّه كان شديد التعصُّب للمسيحيَّة، تولَّى إدارة جامعة أدنبرة في إسكتلنده من عام ١٨٨٥م، توفِّي في أدنبرة سنة ١٩٠٥م، من آثاره: حياة محمَّد وتاريخ الإسلام، وحوليَّات الخلافة. ينظر: حمدان، طبقات المستشرقين، ص٢٠٣.

(4) Muir, William.The Life of Mahoet.Volme IV. (London: Smith, Elder and Co., 65, Cornhill, 1861) .P. 291. (with modification).

فلمَّا بلغَ ذلك عمر بن الخطَّاب خرجَ حتَّى جاء إلى فاطمة عليها السلام، فقال: والله ما من أحد أحبُّ إلينا من أبيكِ، وما من أحد أحبُّ إلينا بعد أبيكِ منكِ، وأيم والله ما ذاكَ بمانعي إن اجتمعَ هؤلاء النفر عندكِ، أن آمر بتحريق البيت عليهم[1].

وبسبب فاعليَّة ذلك الحضور والتواجد الفاطميّ، أصدرت السلطة أوامرها بأن يُخرَجوا من البيت بالقوَّة، ويُقاتلوهم إن هم رفضوا البيعة، كما يؤكِّدهُ الألمانيّ (مادولنك Madelung)[2] من خلال المصادر التاريخيَّة، بقوله: « تذكر المصادر أنَّ القوَّة استُعملت ضدَّ الزبير فقط، فإنَّه مع جمعٍ آخر من المهاجرين تجمَّعوا في بيت فاطمة، فهدَّدهم عمر إن لم يخرجوا للبيعة فإنَّه سوف يحرق البيت، فخرجَ الزبير مُصلتًا سيفهُ، لكنَّهُ عثرَ ووقع السيفُ من يده، فقيَّدهُ أصحابُ عمر. وتوجد شواهد[3]على أنَّ بيت فاطمة قد

(١) ينظر: الصنعانيّ، عبد الرزَّاق (ت٢١١هـ)، المُصنَّف، تحقيق وتخريج وتعليق: حبيب الرحمن الأعظمي، (د.مط، د.ت، منشورات المجلس العلميّ)، ج٥، ص٤٤٢، ابن أبي شيبة، عبد الله (ت٢٣٤هـ)، المصنَّف في الأحاديث والآثار، تحقيق: سعيد محمَّد اللحَّام، (ط١، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٩هـ)، ج٨، ص٥٧٢، ابن حنبل، مسند أحمد، ج١، ص٥٦، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص٣٢٧، المتَّقي الهنديّ، علاء الدين (ت٩٧٥هـ)، كنز العمَّال في سنن الأقوال والأفعال، ضبطه وصحَّحه: بكري حيَّاني وصفوة السقَّا، (ط١، مؤسَّسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤٠٩هـ)، كتاب الخلافة، مسند عمر، رقم الحديث (١٤١٣٨)، ج٥، ص٦٥١.

(٢) ويلفرد فرديناند ماديلونغ، ولد سنة١٩٣٠م، حصل على الدكتوراه في عام ١٩٥٧م، شغل منصب أستاذ التاريخ الإسلاميّ بجامعة شيكاغو، من مؤلَّفاته: الحركات الدينيَّة، خلفاء الرسول، المدارس والمذاهب الإسلاميَّة، وغيرها. ينظر: موقع ولفرد_مادلنج: wikipedia.org/wiki.

(٣) البلاذريّ، أحمد (ت٢٧٩هـ)، أنساب الاشراف، تحقيق: محمَّد حميد الله، (دار المعارف، مصر، ١٣٧٨هـ)، ج١، ص٥٨٦، اليعقوبيّ، تاريخ اليعقوبيّ، ج٢، ص٨٥-٨٦، الجوهريّ، أبي بكر (ت٣٢٣هـ)، السقيفة وفدك، تقديم وجمع وتحقيق: محمَّد هادي الأمينيّ، (ط٢، شركة الكتبيّ للطباعة والنشر، بيروت،١٤١٣هـ)، ص٧٣، ابن عبد ربَّه، أحمد (ت٣٢٨هـ)، العقد الفريد، تحقيق: مفيد محمَّد قميحة، (ط١، المجلس العلميّ، بيروت، لبنان، ١٣٩٢هـ)، ج٥، ص١٣، أبي الفداء، عماد الدين (ت٧٣٢هـ)، المختصر في أخبار البشر، (دار المعرفة للطباعة والنشر،=

كُشِف»[1].

لذا يجزم ماسينيون بأنَّه قد تمَّ توثيق هذه المشاهد من قِبل المستشرقين، رغمَ تشكيك البعض في صحتِّها، بقوله: «وفي حقيقة الأمر أكاد أُجزم أنَّ جميعَ المستشرقين وثَّقوا المشهد الذي تحدَّى فيه عمر لفاطمة.. رغمَ الشكوك الكثيرة التي تحاول أن تنفي هذه الرواية»[2].

ثانيًا: التحرُّك والدعوة لطلب النُّصرة

إنَّ من أوضح الأدلَّة على دور المرأة في بيان حقوقها السياسيذَة في الإسلام، ما صرَّحَ به القرآن الكريم في آيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وآيات الولاية الشاملة للرجال والنساء، والتي استدلَّ بها المفكِّر الإسلاميّ السيِّد محمَّد باقر الصدر رحمه الله على أنَّ كلَّ مؤمن ومؤمنة مؤهَّلٌ للولاية السياسيَّة، وأنَّ الرجال والنساء سواء فيها، بقوله: «وتمارس الأمَّة دورها في الخلافة في الإطار التشريعيّ للقاعدَتَين القرآنيَّتَين التاليَتَين: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[3]، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[4]، فإنَّ النصَّ الأوَّل يُعطي للأمَّة صلاحيَّة ممارسة أمورها عن طريق الشورى، ما لم يرد نصٌّ خاصٌّ على خلاف ذلك. والنصُّ الثاني يتحدَّثُ عن الولاية، وأنَّ كلَّ مؤمن وليُّ الآخرين، ويريد بالولاية تولِّي أموره، بقرينةِ تفريع الأمر

=بيروت، د.ت)، ج١، ص١٥٦، وأمَّا من المعاصرين فقد ذكر الحادثة: سالم، عبد العزيز، تاريخ الدولة العربيَّة، (دار النهضة العربيَّة، بيروت، د.ت)، ص٤٣١-٤٣٢، وقريب منه أورده: عزَّة، محمَّد، تاريخ الجنس العربيّ، (المكتبة العصريَّة، لبنان)، ج٧، ص٨-٢٥.

(١) مادولنك، ويلفرد، خلافة محمَّد، عرض ونقد: هاشم الميلانيّ، (ط١، دار الكفيل، كربلاء، ١٤٣٦هـ)، ص٥٩.

(2) Opera Minora. L'oratoire de Marie A L'aqca,Vu Sous Le Voile de Deuil de Fatima.1956. P. 596.

(٣) سورة الشورى: ٣٨.

(٤) سورة التوبة: ٧١.

بالمعروف والنهي عن المنكر عليه، والنصُّ ظاهر في سريان الولاية بين كلِّ المؤمنين والمؤمنات بصورة متساوية»[1].

لذا فقد شكَّلت السيِّدة فاطمة عليها السلام عند بعض المستشرقين[2] ذلك الوجود العقديّ والسياسيّ إلى جانب زوجها الإمام عليّ عليه السلام، ومُساندته في تحرُّكه وموقفه السياسيّ المُعارض، لتذكير الأمَّة الإسلاميَّة بالحقِّ الطبيعيّ لآل البيت عليهم السلام، والموقع الحقيقيّ لهم في الكيان الإسلاميّ، فقد ذكرت بعض المصادر التاريخيَّة، أنَّ الإمام عليًّا عليه السلام خرجَ يحمل فاطمة عليها السلام بنت رسول الله صلى الله عليه وآله على دابَّةٍ ليلًا في مجالس الأنصار وبيوتهم، تسألهم النُّصرة، فكانوا يقولون: يا بنت رسول الله، قد مضت بيعتُنا لهذا الرجل، ولو أنَّ زوجكِ وابن عمِّكِ سبق إلينا قبل أبي بكر ما عدلنا به، فيقول الإمام عليّ عليه السلام: **أفكنتُ أدَعُ رسولَ الله في بيته لم أدفنه، وأخرج أنازع الناس سلطانه؟** فقالت فاطمة: **ما صنع أبو الحسن إلَّا ما كان ينبغي له، ولقد صنعوا ما الله حسيبهم وطالبهم**[3].

وتُعرِّج الإيطاليَّة فاغليري على هذه الرواية، قائلةً: «وإذا كانَ ما وردَ صحيحًا، فإنَّ فاطمة قد لعبت دورًا سياسيًّا في هذه الفترة.. وقد يكون في هذه الروايات بعض المبالغة أو بعض التفاصيل الزائدة، إلَّا أنَّه لا بدَّ من أصلٍ لها، وهذه الرواية توضِّح الدور السياسيّ الوحيد الذي قامت به فاطمة»[4].

وقد استطاعوا عليهم السلام أن يكسبوا من خلال تلك الحملة الإعلاميَّة والتذكيريَّة ثلَّة من

---

(١) الصدر، محمَّد باقر (ت١٤٤٠هـ)، خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء، سلسلة الإسلام يقود الحياة، (ط٢، دار التعارف، بيروت، ١٣٩٩هـ)، ص٥١-٥٢.

(2) The New Encyclopaedia Britannica.Volume 4. P. 679.

(٣) ينظر: ابن قتيبة، عبد الله (ت٢٧٦هـ)، الإمامة والسياسة، تحقيق: طه محمَّد الزينيّ، (مؤسَّسة الحلبيّ، القاهرة، مصر، ١٣٨٧هـ)، ص١٩، الجوهريّ، السقيفة وفدك، ص٦٣-٦٤، ابن أبي الحديد، محمَّد (ت٦٥٦هـ)، شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمَّد أبو الفضل إبراهيم، (ط١، دار إحياء الكتب العربيَّة، القاهرة، مصر، ١٣٧٨هـ)، ج١١، ص١٣-١٤.

(4) The Encyclopaedia of Islam. Volume II. P. 844. (with modification).

المُناصرين التي أثَّرت فيهم تلك الحقيقة الفاطميَّة، ويؤيِّد ذلك ما جاء في كتاب معاوية ابن أبي سفيان في أيَّام خروجه على إمامِ زمانه وخليفة المسلمين الإمام عليّ عليه السلام، إذ ورد فيه تعييرهُ له بهذا الموقف، قائلًا:

«.. وأعهدك أمس تحملُ قعيدةَ بيتك ليلًا على حمار، ويداك في يدَي ابنَيك الحسن والحسين يوم بويع أبو بكر الصدِّيق، فلم تدع أحدًا من أهل بدر والسوابق إلَّا دعوتهم إلى نفسك، ومشيت إليهم بامرأتك، وأدليت إليهم بابنيك، واستنصرتهم على صاحب رسول الله، فلم يُجبكَ منهم إلَّا أربعة أو خمسة»[1].

ثالثًا: ثورة الدموع

التحرُّك العاطفيّ وإثارة الشجون نوعٌ من أنواع المُطالبة بالحقوق الشرعيَّة، وهذا الدور لعبتهُ السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام لتأجيج العاطفة في المجتمع لعلَّهُ يفيق من غفلته، فقد تبنَّتهُ بشخصيَّتها الطاهرة، بكثرة بُكائها الذي استمرَّ لفترة سنة كاملة، حسب رأي الفرنسي (لويس غارديه Louis Garde)[2] [3]، وإن كانت تبكي لخسارتها والأمَّة الإسلاميَّة لقائدهم العظيم النبيّ محمَّد صلى الله عليه وآله، وما آلت إليه هذه الأُمَّة من نكبةٍ عظيمة، إلَّا أنَّ الزَّهراء عليها السلام كانت ترمي بأهدافٍ عالية المضامين، نَفعُها يعودُ إلى الأمة نفسها.

فالقضيةُ ليست مُجرَّد بكاءٍ وألم، فقد أثَّرت ببكائها تأثيرًا بالغًا في المجتمع، وكادت أن

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٢، ص٤٧.

(٢) مستشرق فرنسيّ، درس الفلسفة المقارنة بالكليَّة الدوليَّة للفلسفة بمدينة تولوز، متخصِّص في مجال دراسات الفكر الإسلاميّ، ألقى عدَّة محاضرات في روما والجزائر والقاهرة وبيروت وغيرها، توفِّي في باريس سنة ١٩٨٦م، من مؤلَّفاته: التفكير الدينيّ عند ابن سينا، والتجارب الصوفيَّة في البلاد المسيحيَّة، ورجال الإسلام، وغيرها. ينظر: حمدان، طبقات المستشرقين، ص١١٠.

(٣) غارديه، لويس، الإسلام أمَّة النبيّ، ترجمة وتعليق وتعقيب: لويس صليبا، طبع ضمن كتاب الإسلام في قراءة الاستشراق المسيحيّ- دراسة نصوص مترجَمة، (دار ومكتبة بيبلون، جبيل، لبنان، ١٤٣٦هـ)، ص٤٥٩.

توقظهُ من سُباتهِ وغفلتهِ، لولا أنَّ البعض من المسلمين ثَقُلَ عليه بُكاؤها؛ لأنَّ منزلها مجاورٌ إلى جامع الرسول صلى الله عليه وآله، فطلبوا من الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام أن تجعل لبكائها وقتًا خاصًّا؛ لأنَّهم لا يهجعون ولا يستريحون، فكلَّمها أميرُ المؤمنين عليه السلام فأجابته إلى ذلك، فكانت في نهارها تخرج خارج المدينة وتصحب معها ولديها الحسن والحسين عليهما السلام، فتجلس تحت شجرة من أراكٍ فتستظلُّ تحتها، وتبكي أباها طيلة النهار، فإذا أوشكت الشمسُ أن تغرب تقدَّمها الحسنان مع أبيهما ورجعوا قافلين إلى الدار التي خَيَّمَ عليها الحزن والأسى، وعمدَ القومُ إلى تلك الشجرة فقطعوها، فكانت تبكي في حرِّ الشمس، فقام الإمام عليه السلام فبنى لها بيتًا أسماهُ (بيتَ الأحزان) ظلَّ رمزًا لأساها على مرِّ العصور[1].

وهنا يَصوغُ لنا الألمانيّ (جرهارد كونسلمان Gerhard Kunslman)[2] الطريقة الاعتراضيَّة الترتيبيَّة المُنظَّمة التي تُدلِّل على عُمق الألم، بقوله: «كانت فاطمة قد قرَّرت الكفاح من أجل حقوق زوجها، فكان يصدر عن بيتها لأيَّامٍ عديدة نحيبٌ، على شكلٍ اعتراضٍ رتيبٍ على ظلم المؤمنين»[3].

---

(١) ينظر: القرشيّ، باقر (ت١٤٣٣هـ)، موسوعة أهل البيت عليهم السلام: فاطمة الزَّهراء عليها السلام، تحقيق: مهدي باقر القرشيّ، (ط١، دار المعروف، قم، ١٤٣٠هـ)،ج٩، ص٣٦٣، الأربـلِّيّ، عليّ (ت٦٩٣هـ)، كشف الغمَّة في معرفة الأئمَّة، (ط٢، دار الأضواء، بيروت، ١٤٠٥هـ)، ج٢، ص٩٠. وفيه يذكر حديث الإمام الصادق عليه السلام، قائلًا: «**البكَّاؤون خمسة: آدم ويعقوب ويوسف وفاطمة بنت محمَّد وعليّ بن الحسين عليه السلام**» إلى أن يقول: «**وأمَّا فاطمة فبكت على رسول الله صلى الله عليه وآله حتَّى تأذَّى بها أهل المدينة، فقالوا لها: قد آذيتينا بكثرة بكائك، فكانت تخرج إلى مقابر الشهداء، فتبكي حتَّى تقضي حاجتها، ثمَّ تنصرف**».

(٢) باحث، ومن أشهر الصحفيِّين الألمان، عملَ لوقت طويل محقِّقًا بالتلفزيون الألمانيّ، ومن خلال عمله هذا صار على دراية كبيرة بالتطوُّرات السياسيَّة في منطقة الشرق الأوسط، وخاصة في المنطقة العربيَّة، له مؤلَّفات كثيرة منها: العرب والقدس، وأغنياء الشرق، والحرب غير المقدَّسة (لبنان)، والنيل، وغيرها. ينظر: كونسلمان، جرهارد، سطوع نجم الشيعة، ترجمة: محمد أبو رحمه، (ط١، مدبولي، القاهرة، ١٤١٢هـ)، المقدمة.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٥.

رابعًا: المُطالبة بفدك

اتَّجهت أنظارُ المستشرقين الذين أولجوا في الكتابة عن بعض المضامين المهمَّة من حياة السيِّدة فاطمة عليها السلام إلى موضوعٍ في غاية الأهميَّة، وليس من الممكن تجاهلهُ، وهو مُطالبتها بعد وفاة أبيها من سُلطة خلافة المسلمين أبي بكر بأرض (فدك)، إذ يُصوِّر لنا الفرنسيّ (هنري لامنس Henri Lammens)[1] النزاع الذي حصل في تقسيم إرث نبيِّ الإسلام بعد وفاته، قائلًا: «.. حصلَ نزاع لتقسيم أملاك وعقارات والدها- فاطمة- الذي يبدو أنَّه مات بدون وصيَّة، ومن بين العديد من أملاك محمَّد، طالبت بوجهٍ خاصٍّ بواحة فدك»[2].

هذا التوجُّه من فاطمة عليها السلام في مُطالبتها بفدك، اعتبرهُ الكندي فيناي البداية والشرارة الأولى لانطلاق المُعارضة عند فاطمة عليها السلام، بقوله: «هي- فدك- بداية تأسيس نزعة قويَّة جدًّا للمُعارضة»[3]، وأدَّى- كما تذكر الإيطاليَّة فاغليري- إلى نشوء الخلاف بين فاطمة والخليفة أبي بكر، وكانت عواقب هذا الخلاف استمراره لأكثر من قرنَين[4].

فما هي فدك؟ وكيف وصلت إلى فاطمة عليها السلام؟

يقول الحمويّ: « فدك: قرية بالحجاز، بينها وبين المدينة يومَان، وقيل ثلاثة، أفاءها اللهُ على رسوله صلى الله عليه وآله، في سنة سبعٍ صُلحًا، وذلك أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لـمَّا نزل خيبر، وفتح

(١) ولِد سنة ١٨٦٢م، وغادر لبنان وهو في عمر الخامسة عشر، وبدأ حياة الرهبنة سنة ١٨٧٨م في دير لليسوعيِّين في لبنان، تنقَّل شرقًا وغربًا لدراسة علم اللاهوت، وقام برحلات عديدة في سوريا ولبنان وفلسطين ومصر، توفِّي سنة ١٩٣٧م، من آثاره: مهد الإسلام، ومكَّة عشيَّة الهجرة، والمعابد قبل الإسلام، وغيرها. ينظر: العقيقيّ، نجيب (ت١٤٠٢هـ)، المستشرقون، (ط٤، دار المعارف، القاهرة١٣٨٤هـ)، ج٣، ص٢٩٣-٢٩٥.

(2) Lammens,Fatima,the Encyclopedia of Islam, Vol. 3. P. 87.

(3) Fatima as a Motif of Contention and Suffering in Islamic Sources. P. 31.

(4) The Encyclopaedia of Islam. Volume II. P. 844.

حصونها، ولم يبق إلَّا ثلث، واشتدَّ بهم الحصار، راسلوا رسول الله ﷺ، يسألونه أن ينزلهم على الجلاء وفعل، وبلغ ذلك أهل فدك، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ أن يُصالحهم على النصف من ثمارهم وأموالهم، فأجابهم إلى ذلك، فهي ممَّا لم يوجف عليه بخيل، ولا ركاب، فكانت خالصةً لرسول الله ﷺ، وفيها عينٌ فوَّارة ونخيلٌ كثيرة، وهي التي قالت فاطمة: إنَّ رسول الله ﷺ، نحلنيها»[1].

ويذكر الخليليّ في موسوعته فدك، قائلًا: «فدك عينٌ فوَّارة، ونخيلٌ كثيرة، هي أشهر عيون يثرب.. ولمياهها شهرة كثيرة»[2]. وتُعرف فدك حاليًّا ضمن المُخطَّط البلدي لمحافظة الحاكية في السعودية، ضمن أودية المحرَّة الشرقية، أودية الحويط (يديع)، والحائط هو الاسم الجديد الذي سُمِّيت به فدك في الوقت الحاضر[3].

روى ابن هشام: «فلمَّا فرغَ رسول الله ﷺ من خيبر، قذفَ اللهُ الرُعبَ في قلوب أهل فدك حين بلغهم ما أوقع الله تعالى بأهل خيبر، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يُصالحونه على النصف من فدك، فقدِمت عليه رُسُلهم بخيبر أو بالطائف أو بعدما قدِمَ المدينة، فقبِلَ ذلك منهم، فكانت فدك لرسول الله ﷺ خالصةً؛ لأنَّه لم يوجف عليها بخيلٍ، ولا ركاب»[4].

ويتَّفق البريطانيّ وليم مويير[5] مع الإيطاليّ

(١) الحمويّ، ياقوت (ت٦٢٦هـ)، معجم البلدان، (دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ١٣٩٩هـ)، ج٤، ص٢٣٨.

(٢) الخليلي، جعفر (ت١٤٠٦هـ)، موسوعة العتبات المقدَّسة، (ط٢، مؤسَّسة الأعلميّ، بيروت، ١٤٠٧هـ)، ص٦٠، ٨٩.

(٣) اليوسف، عبد الله، فدك في الماضي والحاضر، (ط١، دار الهادي للطباعة، بيروت، ١٤٢١هـ)، ص١٤.

(٤) ابن هشام، عبد الملك (ت٢١٨هـ)، السيرة النبويَّة، حقَّقها وعلَّق عليها: محمَّد محيي الدين عبد الحميد، (مطبعة المدنيّ، القاهرة، ١٣٨٣هـ)، ج٣، ص٨١٣.

(5) The Life of Mahoet.Volme IV. P. 73. (with modification).

(گبرييلي Gabriell)[1] على أنَّ ماحدثَ في خيبر وفدك بيَّن قوَّة وسلطة الإسلام آنذاك، بوجود النبيّ القائد العظيم في الفتح، بعد الحصار الذي أُطبقَ عليها، ثمَّ إخضاع أراضيها لضريبة نصف الإنتاج، كما يقول گبرييلي:

«يُمكننا ملاحظة قوَّة وسلطة محمَّد، وهي تتعاظم على نحوٍ لا يمكن مقاومته، سواء في داخل الحجاز أم خارجها. وحتَّى ذلك الحين، وبعد بضعة أشهر من صُلح الحديبية، كان قد قادَ أتباعهُ لفتح واحة خيبر الخصبة، الواقعة شمال المدينة، والتي كانت حتَّى ذلك الوقت مُمتلَكة ومزرعة من قِبل اليهود، وكانت نتيجة هذه الحملة أن استمرَّ اليهود في زراعتها، ولكن بوصفهم مُستأجرين من أصحاب الأراضي الجُدد المسلمين، إذ توجَّب أن يدفعوا النصف..»[2].

وإستكمالًا لحديث گبرييلي، أشارت فاغليري إلى أنَّ فدك كانت خالصة لمحمَّد، يوزِّعها على مساكين المسلمين وبني هاشم، على عكس خيبر التي كانت توَّزع على عامَّة المسلمين[3].

إذن فدك مزرعة يهوديَّة تقع على مَقربة من المدينة، امتلكها رسول الله صلى الله عليه وآله بنصِّ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ

(١) فرانشيسكو گبرييلي، ولد سنة ١٩٠٤م، مارس التدريس في جامعة روما والمعهد الشرقيّ في نابولي أُستاذًا للغة العربيَّة، اهتمَّ بدراسة الشعر العربيّ قبل الاسلام، وحقَّقَ عددًا من المخطوطات الإسلاميَّة، وانتُخبَ عضوًا مراسلًا في المجمع العلميّ العربيّ بدمشق سنة ١٩٤٨م، توفِّي سنة ١٩٩٦م. ينظر: موقع فرانسيسكو غابريلي:

https://en.wikipedia.org/wiki.

(٢) گبرييلي، فرانشيسكو (ت١٤١٦هـ)، محمَّد والفتوحات الإسلاميَّة، تعريب وتقديم وتعليق: عبد الجبَّار ناجي، (ط١، دار المحجَّة البيضاء، بيروت ١٤٣٢هـ)، ص١٦٦.

(3) Vaglieri, Fadak, The Encyclopaedia of Islam. Volume II. P. 725.

وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[1]، ثمَّ علَّل القرآنُ الكريم سببَ هذا الحكم؛ بكون الفيء لله وللرسول ولِذي قُرباه ولليتامى والمساكين وابن السبيل، علَّلهُ بكلِّ صراحةٍ ووضوح، فقال: «كي لَا يَكُونَ دولَةً بَيْنَ الْأَغنِيَاءِ مِنكُمْ».

وهذا هو واقع هذه القطعة الزراعيَّة في فكر المستشرق فيناي حين قال: «طبقًا لهذه الأحداث وغيرها، فدك تختلف عن خيبر التي أُخذت بوسيلةٍ من المعاملة، وليست عن طريق الحرب، ولأجل هذا لم تُعامل كغنيمة، وعلاوةً على ذلك اعتُبِرت كفيء»[2]. وجاءت من خلال الاتِّفاق والعقد الذي أبرمه النبيّ صلى الله عليه وآله مع أهالي فدك، بعد مُطالبتهم المُصالحة في ذلك، ومن هنا يتبيَّن عند الدكتورة فاغليري سبب اكتساب فدك تلك الشهرة في التاريخ، من خلال حقيقة كونها موضوعًا لاتِّفاق، وأنَّه قرارٌ خاصٌّ من قِبل نبيِّ الإسلام[3].

فدك نِحلةً لفاطمة عليها السلام:

صرَّحَ كُبَّار مُفسِّري وأعلام المسلمين: أنَّ النبي محمَّد صلى الله عليه وآله لـمَّا رجع إلى المدينة، نزل عليه جبرئيل من الربِّ الجليل بالآية الكريمة: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾[4]، فانشغلَ فكرُ النبيّ صلى الله عليه وآله بذي القُربى، مَن هُم؟ وما حقُّهم؟ فنزلَ جبرئيل ثانيًا، وقال: **إنَّ الله سبحانه يقول لك أن تُعطي فدكًا لفاطمة.** فطلبَ النبيُّ ابنتهُ فاطمة وقال: **إنَّ الله أمرني أن أدفعَ إليكِ فدكًا.** فمنحها، وتصرَّفت هي فيها، وأخذت حاصلها، فكانت تُنفقُها على المساكين[5].

(١) سورة الحشر: ٦-٧.

(2) Fatima as a Motif of Contention and Suffering in Islamic Sources. P. 13.

(3) The Encyclopaedia of Islam. Volume II. P. 725.

(٤) سورة الإسراء: ٢٦.

(٥) ينظر: أبي يعلى، أحمد (ت٣٠٧هـ)، مسند أبي يعلى، تحقيق: حسين سليم أسد، (ط١، دار المأمون=

ولم تنسَ فاطمة عليها السلام إنَّ أباها كان قد تركَ لها (ذكرى)، وهي عبارة عن ملكيَّة زراعيَّة أو البستان، كما يقول الفرنسيّ (تشارلز فيروليود Charles Virolleaud)[1]، رغم تأثُّرها الشديد وحُزنها على فراق أبيها[2]. ويُستفاد من تصريحاتِ المؤرِّخين والمحدِّثين أنَّ فدك كانت في يد السيِّدة فاطمة عليها السلام، يعمل عليها عُمَّالها، ويأتون إليها بحاصلها في حياة النبيّ صلى الله عليه وآله، وهي كانت تتصرَّف فيها كيفما شاءت، تُنفق على نفسها وعيالها، أو تتصدَّق بها على الفقراء والمعوزين، وتصرَّفت فيها تصرُّف المالك في أملاكه[3]، ولم يكن لأهل البيت عليهم السلام مورد اقتصاديّ غيرها؛ حسبما يقول الإمام عليّ عليه السلام: «**بلى، كانت في أيدينا فدك من كل ما أظلَّتهُ السماء**»[4]، وهو ما رآهُ المستشرق (آرثر بوهلر Arthue F. Boehler)[5] من تحسُّن الحالة الماديَّة لعائلة النبيّ صلى الله عليه وآله بعدما حصلت فاطمة عليها السلام على فدك، بقوله: «وتحسَّنت الحياة الماديَّة لفاطمة وعليّ بعد أن أعطاها

=للتراث، دمشق ١٤٠٨هـ)، ج٢، ص٣٣٤، الحسكانيّ، شواهد التنزيل، ج١، ص٤٣٧-٤٤٢، ابن كثير، إسماعيل (ت٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم، تفسير ابن كثير، تقديم: يوسف عبد الرحمن المرعشليّ، (دار المعرفة، بيروت، ١٤١٢هـ)، ج٣، ص٣٩، وكذا أخرجه السيوطيّ، جلال الدين (ت٩١١هـ)، الدرُّ المنثور في التفسير بالمألوف، (دار المعرفة، بيروت، د.ت)، ج٣، ص٧٦٧، وأخرجه القندوزيّ، سليمان (ت١٢٩٤هـ)، ينابيع المودَّة لذوي القربى، تحقيق: سيِّد عليّ جمال الحسينيّ، (ط١، مطبعة سودة، قم، ١٤١٦هـ)، ج١، ص١٣٨.

(١) مؤرِّخ فرنسي، وعالم بالآثار، من أعماله في تاريخ الأديان، وفي تاريخ الديانة المسيحيَّة على الخصوص.

(2) Virolleaud,Charles. La Iegende de Fatima, fille de Mahomet. (Joumal des Savants, Annee 1945, 2). P. 64. (with modification).

(٣) المفيد، محمَّد(ت٤١٣هـ)، الاختصاص، تحقيق: عليّ أكبر الغفاريّ والسيِّد محمود الزرنديّ، (ط٢، دار المفيد، بيروت، ١٤١٤هـ)، ص١٨٣.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٥، ص٩٩.

(٥) الدكتور آرثر بوهلر، محاضر أوَّل في الدراسات الدينيَّة بجامعة فيكتوريا في ولنجتون بنيوزيلندا، باحث في الشبكات الصوفيَّة عبر الأقاليم، ونقل أفكار إحياء إسلاميَّة، من أعماله: الاعتراف بالصوفيَّة: التأمل في التقليد الإسلاميّ، وورثة الرسول الصوفيّ: النقشبنديَّة الهنديَّة وصعود=

والدها العائدات من قرية فدك»[1].

وفي ما وردَ في مصادر المسلمين دلالةً واضحة على أنَّ فاطمة عليها السلام كانت تملك فدك في حياة أبيها، وتتصرَّفُ بها تصرُّفَ المالكين، فاليدُ أمَّارةٌ على الملكية.. هذا ما يؤكِّدهُ علماء المسلمين، وعلى هذه القاعدة ينصُّ قضاء الإسلام.

تأميم فدك:

من الإجـراءات القاسية التي اعتبرتها فاطمة عليها السلام في حقِّها من قِبَل السلطة المتمثِّلة بخليفة المسلمين أبي بكر، حيازة فدك وتأميمها، بعد أن عمدت السلطة إلى طرد عُمَّالها الذين يشتغلون في أرضها بطريقة مُباغتة، ودون سابق إنـذار[2]، ثمَّ مصادرة الموقع لبيت المال؛ باعتبار أنَّها تدخل ضمن إرث النبيّ صلى الله عليه وآله، وما يعود له بعد وفاته يرجع إلى بيت مال المسلمين، علمًا أنَّ فدكًا ليست من مواريث النبيّ صلى الله عليه وآله؛ لأنَّه أعطاها هبةً في حياته لابنتهِ كما أسلفنا سابقًا، وما خلَّفهُ من إرثٍ لا يعدو، كما يُشير إليه الكونت (هنري دي كاستري Henry de Castre)[3]، عن بيتٍ بناهُ،

=الوسيط الصوفيّ، بالتعاون مع الالمانية آنا ماري شيمل، وغيرها. ينظر:
http://victoria.academia.edu/ArthurBuehler.
https://www.youtube.com/watch?v=oHc1uuxm_Rs.

(1) Fttzpatrick, Coeli. Muhammad in History, Thought, and Culture. An Encyclopedia of the prophet of God. Volume I. (ABC-CLIO. USA. 2014). P. 186.

(٢) ينظر: المفيد، الاختصاص، ص١٨٣، الطبرسيّ، أبي منصور أحمد بن عليّ (ت٥٤٨هـ/ ١١٥٣م)، الاحتجاج، تعليق وملاحظات: السيِّد محمَّد باقر الخرسان، (مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ١٩٦٦م)، ج١، ص١١٩.

(٣) ولد سنة ١٨٥٠م، كاتب مسيحيّ فرنسيّ، ويُعدُّ من أكثر المستشرقين إنصافًا للإسلام، عاش زمنًا طويلًا في الجزائر، إذ كان مُقدَّمًا في الجيش الفرنسيّ بالجزائر ومن هنا جاء اهتمامه بالإسلام، توفِّي سنة ١٩٢٧م، من مؤلَّفاته: الأشراف السعديُّون، ورحلة هولندي إلى المغرب. ينظر:
https://wordpress.com.creativity507.

وبِضعُ نياقٍ آلت إلى بيت المال[1].

لذا فإنَّ المستشرقين متَّفقين على أنَّ ردَّةُ فعل السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام سريعةً جدًّا في المُطالبة بحقِّها من فدك، إذ بادرت إلى خليفة المسلمين أبي بكر مُطالبةً منه إرجاعها إليها، فدبَّ الخلاف بين الطَّرَفين، كما تقول الباحثة فاغليري، بادِّعاء فاطمة الزَّهراء عليها السلام بأنَّه إرثٌ لها، وأبو بكر يدَّعي بأنَّه كما كان في وقت النبيّ، باعتبارها ليست من الصدقات[2].

وتحدَّثَ المستشرق (دوايت رونلدسن Dwight Ronaldsen)[3] عن فدك وميراث فاطمة عليها السلام بقوله: «ولم يمض على وفاة الرسول زمن طويل حتَّى جاءت فاطمة ومعها عليّ إلى أبي بكر تسألهُ ميراثها من أبيها»[4]. أمَّا المستشرق (شلايفر Schleifer)[5] فإنَّه يذكر: «عند وفاة محمَّد، طالبت ابنته فاطمة بخيبر وفدك، وينبغي أن يعطي لها ميراث والدها، لكنَّ أبا بكر رفضَ إعطاءَها هذه البساتين، وذكَّرها بكلماتٍ لمحمَّد، قال فيها: لا يجوز لأيِّ أحد أن يرثني، وأترك ما ورائي ليعود

(١) كاستري، هنري (ت١٣٤٥هـ)، الاسلام خواطر وسوانح، ترجمة: أحمد فتحي زغلول باشا، (مطبعة الشعب، مصر، ١٣٢٩هـ)، ص٢٩.

(2) The Encyclopaedia of Islam. Volume II. P. 725. (with modification).

(٣) هو دوايت نيوتن رونلدسن، مستشرق بريطاني، ولد سنة ١٨٨٤م، نال شهادة الماجستير في اللاهوت سنة ١٩٢٧م، وخلال هذه الفترة اختير من قبل الكنيسة كمبشر إلى إيران واستقرَّ في مشهد حتَّى سنة ١٩٤٠م، توفِّي في مدينة لكيلاند سنة ١٩٧٦م. ينظر: مراد، معجم أسماء المستشرقين، ص٣٤٢.

(٤) رونلدسن، دوايت (ت١٣٩٥هـ)، عقيدة الشيعة، ترجمة: ع.م، (ط١، مؤسَّسة المفيد، بيروت، ١٤١٠هـ)، ص٣٦.

(٥) مستشرق امريكي، ولد في نيويورك سنة ١٩٣٥م، حصل على بكالوريوس علوم سياسيَّة من جامعة بنسلفاتيا سنة ١٩٥٦م، وشهادة الماجستير من الجامعة الأمريكيَّة في بيروت سنة ١٩٨٠م، خبير بارز في الشرق الأوسط، زميل أقدم في المعهد الملكيّ، من مؤلَّفاته: آل البيت للفكر الإسلاميّ في الأردن. ينظر:
https://en.wikipedia.org/wiki/Abdallah_Schleifer.

للفقراء»[1]. وقد أكدَّت ابنة النبيّ فاطمة عليها السلام، كما جاء في مُتابعات آرثر بوهلر لهذا الحدث، عندما ذهبت إلى أبي بكر لاستعادة فدك، بأنَّ محمَّدًا قد أعطاها إيَّاها[2].

أمَّا الألمانيُّ كونسلمان فيُشير إلى أنَّ فاطمة عليها السلام دافعت عن حقِّها في فدك بعد استبعاد وكيلها في الأرض من قِبَل الخليفة الأوَّل، إلى أن يقول: «إلَّا أنَّ أبا بكر لم يخشَ هذا، فهو أيضًا يتذكَّر جُملًا قالها الرسول اكتسبت الآن فجأة قيمة التعاليم، ونصَّ أحد هذه التعاليم على التالي: بعد موت رسول الله يكون ما يملك مُلكًا للفقراء، وللتوزيع العادل لنصيب الفقراء يكون الخليفة هو المختص، وكان الخليفة هو أبو بكر، واستنادًا لهذا التوكيل الذي يعرفهُ هو وحده فقط، قام الخليفة أبو بكر بنزع مُلكيَّة أراضي واحتَي فدك وخيبر الخصبة، والتي كانت مُلكًا للنبيّ، وصارت مُلكًا لفاطمة»[3].

ويتَّضح من نصِّ كونسلمان أنَّ آل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله بعد أن سُلبَ منهم الحقّ السياسيّ في الخلافة، اتَّجهت أنظار السلطة صوب الحقّ الاقتصاديّ لهم، وتمَّ سلب فاطمة عليها السلام واحتَي فدك وخيبر.

وهنا يرى الألمانيّ مادولنك، طبقًا لرواية عائشة، أنَّ أبا بكر قد حلَّ جميع مشاكله مع كلِّ ما يتَّصل بأهل البيت عليهم السلام دون إثارة المشاكل، بقوله: «فتخلَّصَ أبو بكر بهذه الطريقة من مشكلة أهل البيت، وحلَّها من دون أن يطعن بسمعته. وطِبقًا لهذا الجواب، فإنَّ محمَّدًا لم يكتفِ بمنع أهل بيته من الإرث، بل وافق على أخذهم الصدقات عند الحاجة، والحال أنَّهُ بنفسه حرَّم عليهم في حياته أخذ الصدقة لطهارتهم، ولكنَّ أهل البيت عند أبي بكر لا بدَّ وأن يأخذوا سهمهم من الصدقة كسائر الناس، من دون أن يفسح لهم أخذ حقّهم القرآنيّ من الخمس والفيء»[4].

(1) Schleifer, Fadak, The Encyclopaedia of Islam. Volume. III. P. 87.

(2) Muhammad in History, Thought, and Culture. An Encyclopedia of the prophet of God. Volume I. P. 186.

(٣) سطوع نجم الشيعة، ص١٨.

(٤) خلافة محمَّد، ص٩٠-٩١.

ويرى فيناي المراقب للروايات المُبكِّرة حول قضيَّة فدك، أنَّ التشكُّل التأريخيّ للصراعات الأولى بين فاطمة وأبي بكر في المصادر المُبكِّرة عند المسلمين، جاء من خلال رواية أم هاني التي ذكرها ابن سعد في طبقاته، والذي أوردَ بالتفصيل الخصومة حول ملَكيَّة فدك، برواية أمّ هاني، واعتبرها مصدرًا ثقةً لقرابتها من النبيّ صلى الله عليه وآله[1]، ثمَّ يستعرض لنا فيناي الرواية عن ابن سعد، بعد أن يؤكِّد أنَّ فاطمة جاءت وتحمل معها سلسلة من الأسئلة الاستنتاجيَّة، والرواية هي: أخبرنا عفان بن مسلم أخبرنا حمَّاد بن سلمة، حدَّثني الكلبيّ عن أبي صالح عن أمّ هاني: أنَّ فاطمة قالت لأبي بكر: **مَن يرثك إذا متَّ؟!**

قال: ولدي وأهلي.

قالت: **فما لكَ ورثت النبيّ دوننا؟**.

فقال: يا بنت رسول الله إنِّي ما ورثت أباكِ أرضًا ولا ذهبًا ولا فضَّةً ولا غُلامًا ولا مالًا.

قالت: **فسهمُ الله الذي جعله لنا وصافيتنا التي بيدك ؟**.

فقال: إنِّي سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إنَّها طعمة أطعمنيها الله، فإذا متُّ كان بين المسلمين[2].

ويستنتج المستشرق فيناي من خلال فِكره التحليليّ لهذه الرواية الآتي:

---

(1) Fatima as a Motif of Contention and Suffering in Islamic Sources. P. 16.

(٢) ابن سعد، محمَّد (ت٢٣٠هـ)، الطبقات الكبرى، (دار صادر، بيروت، د.ت)، ج٢، ص٣١٤. أيضًا رواها ابن حنبل، مسند أحمد، ج١، ص١٠، البلاذريّ، أحمد (ت٢٧٩هـ)، فتوح البلدان، فهرسة: صلاح الدين المنجد، (مطبعة لجنة البيان العربيّ، القاهرة، ١٣٧٥هـ)، ج١، ص٣٥، السيوطيّ، عبد الرحمن (ت٩١١هـ)، مسند فاطمة الزَّهراء عليها السلام وماوردَ في فضلها، حقَّقه وخرَّج أحاديثه: فوَّاز أحمد زمرلي، (ط١، دار ابن حزم للطباعة والنشر، بيروت، ١٤١٤هـ)، ص٧١-٧٢.

أوَّلًا: فاطمة هي التي بدأت بالسؤال لأبي بكر في حقِّها بالإرث، حالها حال أولاد أبي بكر؛ باعتبار أنَّ محمَّدًا النبيَّ هو نفسه محمَّد الأب، ويبدو عقلًا أنَّ فاطمة كانت تُمثِّل في السؤال حتَّى توضِّح رغبتها في الحصول على جوابٍ معيَّن، بأنَّها من الممكن أن ترث أباها.

ثانيًا: توضِّح الرواية رغبةَ فاطمة في الحصول على نفس حقوق أولاد أبي بكر.

ثالثًا: افتراض فاطمة على كون محمَّدٍ نبيًّا، إلَّا أنَّ قوانين الإرث يجب أن تُطبَّق على الجميع.

رابعًا: الاستثناءات الواردة في القرآن الكريم حول النبيّ، مثل جواز زواجه بأكثر من أربعة نساء[1]، ولم يذكر استثناء الإرث، وبشكلٍ أدقّ هذا الاستثناء القرآنّي كان يُمثِّل قلب الخلاف حول فدك.

خامسًا: فاطمة كانت تحتفظ بامتيازها وشرفها كونها بنت النبيّ، لكن هذا الامتياز حرمها من الحصول على حقِّها في الإرث.

سادسًا: كلمات فاطمة: «**التي بيدك**» تعبير على فرض اغتصاب السلطة- أي: سلطة فاطمة في الإرث- وهو نوع من التمييز[2].

ثمَّ إنَّ المؤرِّخين ذكروا أنَّ أبا بكر طلبَ منها الشهود على ذلك، فجاءت بالإمام عليّ عليه السلام، والسيِّدة أمُّ أيمن مولاة رسول الله صلى الله عليه وآله حاضنتهُ، وأُم أُسامة بن زيد التي قال في

(١) يُشير المستشرق فيناي في هامش كتابه إلى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ الأحزاب: ٥٠.

(2) Fatima as a Motif of Contention and Suffering in Islamic Sources. P.18-19.

حقّها النبيّ صلى الله عليه وآله: «**إنّها من أهل الجنّة**»(١). وبعد أن أدلوا بشهادتهم، لم يقبل أبو بكر تلك الشهادة، بقوله: «قد علمتِ يا بنت رسول الله أنّه لايجوز إلّا شهادة رجلَين، أو رجلٌ وامرأتين، وأُم أيمن إمرأة وشهادتها لوحدها لا تكفي، يجب أن تشهد معها إمرأة أخرى، أو أتني برجلٍ بدلًا عنها»(٢). لذا اعتبر أبو بكر، كما استنتجت الإيطاليّة فاغليري، هذا الدليل غير مُلائم، مُعترفًا بأنّه يجب أن يكون هناك دخلًا لعائلة النبيّ، ولكن ليس من فدك(٣).

ثمّ إنّ السيّدة فاطمة عليها السلام بعد أن رُدّت تلك الشهادة، عضدتها بشهادة ولدَيها الإمامَين الحسن والحسين عليهما السلام، وبذلك يصبح العدد أربعة شهود، كما جاء في رواية اليعقوبيّ(٤)، والمسعوديّ(٥). وهنا يُعلّق الباحث فيناي على هذا المشهد، بقوله: «وبحسب هذه الرواية، إنّ أبا بكر لم يرفض شهادة فاطمة فقط؛ بل اعترض على شهادة كلّ أهل بيت النبيّ، ممّا أدّى إلى نشوبِ صراعٍ سياسيّ بين الهاشميّين من جهة، وبين أبي بكر وأنصاره من جهة أخرى»(٦).

الخطبة الفدكيّة:

يوصَف الخطاب التاريخيّ الذي ألقتهُ السيّدة فاطمة عليها السلام في بهو جامع أبيها على المسلمين، بعد مُصادرة حقّها في فدك، من الخطابات النسائيّة البالغة الأهميّة في تاريخ

(١) ينظر: الكلينيّ، الكافي، كتاب الايمان والكفر، باب المستضعف، ج٢، ص٤٠٥.

(٢) ينظر: ابن شبة، عمر (ت٢٦٢هـ)، تاريخ المدينة المنوَّرة، تحقيق: فهيم محمَّد شلتوت، (مطبعة قدس، قم، ١٤١٠هـ)، ج١، ص١٩٩، فتوح البلدان، ج١، ص٣٥، الحلبيّ، نور الدين (ت٩٧٥هـ)، السيرة الحلبيّة، (دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٤٠٠هـ)، ج٣، ص٥١١.

(3) The Encyclopaedia of Islam. Volume II. P. 726.

(٤) تاريخ اليعقوبيّ، ج٢، ص٣٣٠.

(٥) المسعوديّ، عليّ (ت٣٤٦هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، (ط٢، دار الهجرة، قم، ١٤٠٤هـ)، ج٣، ص٢٣٧.

(6) Fatima as a Motif of Contention and Suffering in Islamic Sources. P. 28.

المسلمين، والذي وضعت فيه النقاط على الحروف في مسألة إرثها من النبيّ صلى الله عليه وآله، كما أعربت فيه عن الأخطار الهائلة التي ستُعانيها الأمَّة في مسيرتها، ولشهرة هذه الخطبة الروائيَّة، فقد عُني بها جملة من علماء أبناء الجمهور، وأوردوها كُلًّا أو بعضًا في كُتبهم المُعتبرة[1].

ولم تَغفَل هذه الخطبة عن فكر عدد من المستشرقين الذي أشادوا فيها إلى شجاعة مُلقيها، كما يظهر ذلك من كلام الأمريكيّ (جورج وارنر George Warne)[2]، حين قال: «إنَّ الخطبة التي تُعطيها فاطمة بعد وفاة والدها، هي بالتأكيد، مهمَّة شجاعة وفعَّالة في حدِّ ذاتها»[3]. كما وصف خطبتها بأنهَّا كانت شديدة اللهجة، والتوبيخ للمسلمين، وكانت قاسيةً جدًا، وتخلَّلتها الكثير من

(١) ينظر: ابن طيفور، أبو الفضل (ت٢٨٠هـ)، بلاغات النساء، (مطبعة شريعت، قم١٣٧٨هـ)، ص٢٣، الجوهريّ، السقيفة وفدك، ص١٠٠-١٠٢، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج١٦، ص٢١١-١١٣، ابن الأثير، محمَّد (ت٦٠٦هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: محمود محمَّد الطناحي، (ط٤، مؤسَّسة إسماعيليان، قم، ١٤٠٦هـ)، ج٤، ص٢٧٣، مادة: (لـمَّة)، أيضًا كتابه: منال الطالب في شرح طوال الغرائب، تحقيق: محمَّد محمود الطناجي، (ط١، مركز البحث العلميّ لإحياء التراث الإسلاميّ، مكَّة المكرَّمة، السعودية، ١٣٩٩هـ)، ج٢، ص٥٠١-٥٠٧، ابن منظور، محمَّد (ت٧١١هـ)، لسان العرب، (د.مط، قم، ١٤٠٥هـ)، ج١٢، ص٥٤٨، مادَّة: (لـمَّة)، وفيه قال: «في حديث فاطمة، رضوان الله عليها، أَنَّها خرجت في لُـمَّةٍ من نسائها، تَتوطَّأ ذَيْلَها، إلى أَبي بكر، فعاتبته، أَي في جماعة من نسائها». كحالة، عمر رضا، أعلام النساء، (ط٢، مطبعة الهاشميَّة، دمشق، ١٣٧٨هـ)، ص١١٧-١١٩.

(٢) جورج وليام وارنر، ولد في واشنطن سنة ١٩٢٧م، محامي وسياسي، شغل منصب وزير البحريَّة الأمريكيّ سنة ١٩٧٢م، حصل على شهادة القانون من جامعة جورج واشنطن سنة ١٩٥٣م، حصل على عضوية مجلس الشيوخ الأمريكيّ من ولاية فرجينيا سنة ١٩٧٩م. ينظر: https://en.wikipedia.org/wiki/John_Warne.

(3) Warner, George, Tragedy, History, and the Sacred: The Hujjah Fatimat Al-Zahra'. Magazine Journal of Shi'a Islamic Studies. (University of Cambidge, UK., Spring 2011, Vol. IV. No. 2, P. 150.

الأقوال القرآنيَّة لدعم حُجَّتها[1].

وأشارَ الكَنَدي فيناي إلى مجيء فاطمة عليها السلام، والمشاهد والأفعال والتصرُّفات التي قامت بها من حين خروجها من البيت، ووصولها إلى المسجد، فهي تهدف بوضوحٍ إقناع الآخرين بجديَّتها المطالبة بفدك، ثمَّ يُصرِّح برأيه حول دلالات هذه الخطبة، قائلًا: «توضِّح هذه الخطبة مُجابهة فاطمة لأبى بكر بأنَّ فاطمة تُمثِّل إمرأة ذكيَّة مع طموحات سياسيَّة واضحة، إذ تَضَعُ نفسها في دور قائد الجيش، عن طريق حثِّ الآخرين للالتزام بالأخلاقيَّات التي يحملها الرجال»[2].

وتضمَّنت الخطبةُ عدَّة مضامين مهمَّة، إلَّا أنَّنا سنكتفي بالإشارة إلى بعض تلك المضامين، وخاصَّةً ما يتعلَّق بحقِّها في فدك، وإشاراتِ المستشرقين لمحتواها. إذ روي أنَّه لـمَّا أجمع أبو بكر على منع السيِّدة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله فدكًا، وبلغ ذلك فاطمة عليها السلام، لاثت خمارها على رأسها، واشتملت بجلبابها، وأقبلت في لـمَّة من حفدتها ونساء قومها، تطأ ذيولها، ما تخرم مشيتُها مشيةَ رسول الله صلى الله عليه وآله شيئًا، حتَّى دخلت على أبي بكر وهو في حشدٍ من المهاجرين والأنصار وغيرهم، فنيطت دونها مُلاءة، فجلست ثمَّ أنَّت أنَّةً أجهشَ القومُ لها بالبكاء، فارتَجَّ المجلسُ، ثمَّ أمهلت هُنيئة حتَّى إذا سكن نشيجُ القوم وهدأت فورتُهم، افتتحت الكلام بحمد الله، والثناء عليه والصلاة على رسوله، فعادَ القومُ في بكائهم، فلمَّا أمسكوا عادت في كلامها، إلى أن قالت:

«أيُّها الناس اعلموا أنِّي فاطمة، وأبي محمَّد صلى الله عليه وآله، أقول عودًا وبدوًا، ولا أقول ما أقول غلطًا، ولا أفعل ما أفعل شططًا ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[3]، إلى

(1) Warner, George, Tragedy, History, and the Sacred, P. 135-137.

(2) Fatima as a Motif of Contention and Suffering in Islamic Sources. P. 58.

(٣) سورة التوبة: ١٢٨.

أن قالت: أيُّها المسلمون: وأنتم الآن تزعمونَ أن لا إرثَ لنا، ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[1]، بلى قد تجلَّى لكم كالشمس الضاحية أنِّي ابنته..».

ثمَّ التفتت نحو أبي بكر، فقالت: يا ابن أبي قحافة أفي كتاب الله ترثُ أباك ولا أرثُ أبي؟ لقد جئت شيئا فريًّا! أفعلى عمدٍ تركتُم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم؟ إذ يقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾[2]، وقال: فيما اقتصَّ من خبر يحيى بن زكريَّا، إذ قال: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾[3]، وقال: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[4]، وقال: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾[5]، وقال: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾[6].

وزعمتم أن لا حظوة لي ولا إرث من أبي، ولا رحم بيننا، أفخصَّكم الله بآيةٍ أخرج أبي منها؟ أم هل تقولون: إنَّ أهل ملَّتَين لا يتوارثان؟ أو لستُ أنا وأبي من أهل ملَّةٍ واحدة؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمِّي؟ فدونكها مخطومة مرحولة، تلقاك يوم حشرك، فنعم الحَكمُ الله، والزعيمُ محمَّد، والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون، ولا ينفعكم إذ تندمون، و﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[7]، ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾[8].

(١) سورة المائدة: ٥٠.
(٢) سورة النمل: ١٦.
(٣) سورة مريم: ٥-٦.
(٤) سورة الأنفال: ٧٥.
(٥) سورة النساء: ١١.
(٦) سورة البقرة: ١٨٠.
(٧) سورة الأنعام: ٦٧.
(٨) سورة هود: ٣٩.

فأجابها أبو بكر، وقال: إنِّي سمعتُ رسولَ الله يقول: نحن معاشر الأنبياء لا نورث ذهبًا ولا فضَّة، ولا دارًا ولا عقارًا، وإنَّما نورث الكتاب والحكمة والعلم والنبوَّة، وما كان من طعمة، فلوليِّ الأمر بعدنا أن يحكم فيه بحُكمه..»[1].

يُلاحَظ بعد استعراض المستشرق فيناي لهذا المشهد من الخطبة، بأنَّ الآيات القرآنيَّة التي ذُكرت دليلٌ واضحٌ على أنَّ أولاد الأنبياء ورثوا من آبائهم، ويؤكِّد بقوله:

«وهذا الإرث هو إشارة إلى المواد، وليس العلم فقط»[2].

كما يَفهم الباحث فيناي من ردِّ أبي بكر بحديث النبيّ صلى الله عليه وآله: « نحن معاشر الأنبياء لا نورِّث»، ثلاثة احتمالات:

الأوَّل: إمَّا أن يكون النبيّ قد أخطأ في إخباره لأبي بكر بهذه المعلومة.

الثاني: أو أن يكون أبا بكرٍ أساءَ فهم قول النبيّ.

ثالثًا: أو أن يكون أبو بكر ابتدعَ هذا الحديث؛ ليحرم أُسرة النبيِّ من الإرث[3].

وأخيرًا تستخلص الإيطاليَّة فاغليري من قضيَّة فدك بأنَّها مهمَّة من وجهة نظر الشَّرع، فقد ثبتت من الزمن المبكِّر للإسلام، إذ كان هناك اختلافًا بين الملكيَّة الخاصَّة والعامَّة، وإدراكًا للواجبات والحقوق التي تتعلَّقُ بكلٍّ منهما[4].

خامسًا: سلاح الغضب والاعتصام

بعد أن خطبت الزَّهراءُ عليها السلام تلك الخطبة في المُطالبة بحقوقها، فلم تلقَ آذانًا صاغيةً من قِبَل السلطة الحاكمة، فاتَّخذت سلاحًا آخر للتعبير عن المعارضة، واختارت سلاحَ الصَّمتِ والاعتصام مُعلنةً غَضَبَها على أبي بكر أمام الملأ، بقولها: «**والله لا أُكلّمكَ بكلمةٍ**

(١) الجوهريّ، السقيفة وفدك، ص١٠٠-١٠٢، ابن طيفور، بلاغات النساء، ص٢٣-٣٢.

(2) Fatima as a Motif of Contention and Suffering in Islamic Sources. P. 29.

(3) Ibid. P. 29.

(4) Fadak, The Encyclopaedia of Islam. Volume II. P. 727.

ما حييت»[1]، وأكَّد البخاريُّ[2]، ومسلم[3] خبر غضبها في صحيحَيهما، فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمةَ منها (ميراثها)، فَوجَدت فاطمةُ عليها السلام على أبي بكر في ذلك فهَجَرته، فلم تُكلِّمهُ حتَّى توفِّيت[4].

لذا فالمستشرق مادولنك يُشير إلى حَيرة وتعجُّب فاطمة عليها السلام بعد إقصاءها من قِبَل أبي بكر، فعَمَدَت إلى الهجر، بقوله: «وقد تحيَّرت وتعجَّبت فاطمةُ بنتُ النبيّ من ادِّعاء أبي بكر هذا، فإنَّها لم تتمكَّن من اتِّخاذ موقفٍ صريحٍ اعتراضًا على هذا الحُكم، ولكن على ما روت عائشة: «فهجرتهُ فاطمة فلم تُكلِّمهُ في ذلك حتَّى ماتت، فدفنها عليّ ليلًا، ولم

(١) قال أبو عثمان الجاحظ: «.. فلمَّا منعها ميراثها، وبخسها حقَّها، واعتلَّ عليها، وجلح أمرها، وعاينت التَّهضُّم، وأيست في التورُّع، ووجدت نشوة الضعف وقلَّة الناصر، قالت: **والله لأدعونَّ الله عليك، والله لا كلَّمتك أبدًا**».
الجاحظ، عمرو (ت٢٥٥هـ)، الرسائل السياسيَّة، قدَّم له وبوَّبها: عليّ بو ملحم، (مطبعة دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٢٥هـ)، ص٤٦٧.

(٢) صحيح البخاريّ، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم الحديث (٧٠٤)، ج٥، ص٢٥٢. وفيه رواه مرفوعًا إلى عائشة، قائلًا: عن عائشة، إنَّ فاطمة بنت النبيّ صلى الله عليه وآله أرسلت إلى أبي بكر تسأله ميراثها من رسول صلى الله عليه وآله ممَّا أفاء الله عليه بالمدينة وفدك وما بقي من خمس خيبر، فقال أبو بكر: إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: لا نورِّث ما تركنا صدقة، إنَّما يأكل آل محمَّد في هذا المال، وأنا والله لا أُغيِّر شيئًا من صدقة عن حالها التي كان عليها في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، ولأعملنَّ فيها بما عمل به رسول الله صلى الله عليه وآله، فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة منها شيئًا، فوجدت فاطمة على أبي بكر في ذلك؛ فهجرته فلم تكلِّمه حتَّى توفِّيت.

(٣) النيسابوريّ، مسلم (ت٢٦١هـ)، صحيح مسلم، تعليق وإشراف: محمَّد فؤاد عبد الباقي، (ط١، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ١٣٧٤هـ)، كتاب الجهاد والسير، باب قول النبيّ: لا نورث ما تركناه صدقة، رقم الحديث (١٧٥٨)، ج٣، ص١٣٧٩.

(٤) ينظر: الصنعانيّ، مصنَّف عبد الرزاق، ج٥، ص٤٧٢، حديث رقم (٩٧٧٤)، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢، ص٣١٥، ابن حنبل، مسند أحمد، ج١، ص٦، الجوهريّ، السقيفة وفدك، ص١٠١-١٠٢، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج١٦، ص٢١٤، السيوطيّ، مسند فاطمة الزَّهراء عليها السلام، ص٦٨.

يؤذن بها أبا بكر»[1].

ويذهَبُ الإنكليزيّ وليم موير إلى أنَّ فاطمة عليها السلام فشلت في تقديم أيِّ دليلٍ على قصد والدها أن يَـهَبَ هذه الملكيَّة إليها، والخليفة تمسَّكَ بكُلِّ ما أُوتي من قوَّة، فإنَّ الأمر يجب أن يُحجز لأغراض الطبقة أو المنزلة التي خصَّصها محمَّد في فترة حياته. فتأثَّرت فاطمةُ تأثُّرًا شديدًا إزاء هذا الرفض، بحيث إنَّها لم توافق على الاتِّصال بأبي بكر خلال البقيَّة القصيرة من حياتها[2].

وفي مُتابعة روايات هجران وغضب السيِّدة فاطمة عليها السلام لخليفة المسلمين أبو بكر ومُستشاره عمر بن الخطاب، اعتمدت الباحثة فاغليري على كتاب الإمامة والسياسة لابن قُتيبة في شرح الواقعة، قائلة: «وقد رفضت فاطمة السماح لأبي بكر وعمر بدخول بيتها عندما عادا إليها مرَّةً ثانية، ولـمَّا سمحَ لهما عليّ بالدخول، أشاحت فاطمة بوجهها حتَّى لا تنظر إليهما»[3].

لذا يصف هنا الكنَدَي فيناي غضب فاطمة عليها السلام، قائلًا: «يبدو بأن لاشيء استطاع تغيير إرضاء قلب فاطمة على غضبها الشديد على أبي بكر وعمر»[4]

إنَّ هذا الحراك السياسيّ الذي قادتهُ السيِّدة فاطمة عليها السلام، للمُطالبة بفدك، قد حوَّلها من صورتها التقليديَّة الضعيفة في وسط الظلم، إلى البطل الثوريّ الذي قاتل من أجل الحقوق السياسيَّة والقانونية، وهذا هو التصوير المُبكِّر الذي سجَّلتهُ المستشرقة (راشيل فيدر Rachel Feder)[5] في مقالتها من وجهة نظر المفكِّر السيِّد محمَّد باقر

(١) خلافة محمَّد، ص٩٠-٩١.

(2) The Life of Mahoet.Volme IV. P. 291.

(3) The Encyclopaedia of Islam. Volume II. P. 844.

(4) Fatima as a Motif of Contention and Suffering in Islamic Sources. P. 34.

(٥) الدكتورة راشيل كانتز فيدر، باحثة في مركز موشيه ديان للدراسات الشرق أوسطيَّة والإفريقيَّة، ومحاضرة في عدد من برامج الدرجات الدوليَّة بجامعة تل أبيب.

الصدر[1]، لمطالبة فاطمة بفدك، يُمثِّل واحدةً من أولى الجهود لإعادة تفسير الأدبيَّات الشيعيَّة إلى ناشطة[2].

ولهذا استغربت المستشرقة الباحثة الأمريكيَّة (لندا والبرج landa walburj)[3] عن الصور الفاطميَّة التي قدَّمها البعض من أنَّها إمرأة ضعيفة ومستسلمة للأمر الواقع! بل إنَّ في صورتها الحقيقيَّة هي تلك المرأة الناشطة السياسيَّة، بقولها: «وتتكوَّن بهذا لدينا صورةٌ عن إمرأةٍ ناشطةٍ سياسيًّا، إمرأةٍ قادرة على إلهام الآخرين على القيام بالشيء ذاته. ولذلك وممَّا يُثير الاستغراب في ضوء هذه المُعطيات ارتباط واحدةٍ من الصور الشائعة عن فاطمة بصورة المرأة الضعيفة، والمريضة، والضَّحيَّة المُستسلمة! وتُعدُّ قضيَّة فدكٍ إحدى القضايا الأخرى البارزة في مسيرة فاطمة السياسيَّة»[4].

(١) أشار السيِّد محمَّد باقر الصدر﵀ إلى أنَّ ثورة الزَّهراء﵄ انطلاقتها من خلال قضيَّة فدك، قوله: «إنَّنا نحسُّ إذا درسنا الواقع التاريخيّ لمشكلة فدك ومنازعاتها، فإنَّها مطبوعة بطابع تلك الثورة، ونتبيَّن بجلاء أنَّ هذه المنازعات كانت في واقعها ثورة على السياسة العليا وألوانها التي بدت للزَّهراء﵄بعيدة عمَّا تألفهُ من ضروب الحكم». فدك في التاريخ، ص٥٩.

(2) Feder, Rachel. Fatima's Revolutionary Image in Fadak fi al-Ta'rikh: The Inception of Muhammad Baqir Al-Sadr's Activism. (British Journal of Middle Eastern Studies, Vol. 41, Issue 1, 2014). P. 79-96.

(٣) باحثة وأستاذة زائرة في جامعة لاهور للعلوم الإداريَّة في الباكستان، لها مجموعة أعمال منها: من دون نسيان الإمام: الإسلام الشيعيّ في مجتمع محلِّي أمريكيّ. ينظر: والبرج، لندا، الأعلم عند الشيعة، دراسة في مؤسَّسة ومرجعيَّة التقليد، ترجمة: د. هناء خليف غني، بحث منشور للمستشرق ماثيو بيرس بعنوان (إحياء ذكرى فاطمة: طرائق جديدة لإضفاء صفة الشرعيَّة على السلطة الأنثويَّة في الخطاب الشيعيّ المعاصر)، (د.مط، بيروت، ١٤٣٨هـ)، المقدِّمة.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٠١.

ويتَّفق معها بهذا الرأي زُملاؤها المستشرقون، ومنهم الكندي (تود لاوسن Todd Lawson)[1]، الذي يقول: «ونحنُ نرى بشخصيَّة فاطمة إمرأة نشطة سياسيًّا، شخصٌ يُمكن أن يُلهم الآخرين بسهولة لاتِّخاذ إجراءات مُماثلة»[2].

(١) مستشرقٌ كنديّ، حاصل على شهادة البكالوريوس سنة ١٩٧٦م من جامعة كولومبيا، وأكمل دراساته العليا في جامعة ماكجيل فحصل على الدكتوراه سنة ١٩٨٧م، وهو الآن استاذ مشارك في جامعة تورنتو الكندية في قسم الحضارات القريبة والوسطى، له عدد من الدراسات والبحوث. ينظر:

http://toddlawson.ca/cv.

(2) Lawson, Todd. The Authority of the Feminine and Fatima's Place in an Early Work by the Bab. (Online Journal of Baha'I Studies. Volume 1. 2007). P. 152.

الخاتمة (نتائج البحث)

وأخيرًا، وبعد أن وصلنا في رحلتنا وجولتنا المُتشعِّبة في سفينة المستشرقين، سوف نحطُّ رحالنا الآن لنرسم نتائج ما خطَّتهُ أناملهم، من أفكارٍ أخرجناها من جعبتهم عن أنموذج لشخصيَّةٍ نسائيَّةٍ إسلاميَّةٍ عظيمة، لطالما قورنت سيرتها التَّقويَّة عندهم بسيرة ومقام السيِّدة مريم العذراء عليها السلام، ألا وهي السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام، وما توالى عليها المشهد السياسيّ آنذاك، وممَّا تقدَّم من معلوماتٍ واردة في هذه الدراسة، وما توَّصل إليه البحث من استنتاجاتٍ يمكن إدراجها في النقاط الآتية:

١. أشادَ عدد من المستشرقين بالشخصيَّة العظيمة والفذَّة للسيِّدة فاطمة عليها السلام، إذ اتَّفقت أقوالهم على أنَّها أنموذجًا رائعًا للشخصيَّة النسائيَّة التي عرفها العالم العربيّ والإسلاميّ، وحظيت عندهم كواحدةٍ من أكثر النساء المُسلمات قداسةً.

٢. يكاد يتَّفق المستشرقون أنَّ الأحداث التي وقعت بعد رحيل النبي محمَّد صلى الله عليه وآله في مسألة الخلافة، قد ولَّدت شرخًا كبيرًا في السياسة الإسلاميَّة، إذ تعدَّدت الصرخات التي تدَّعي أحقيَّتها في هذا الأمر، وكلٌّ أصبح يدلو بدلوه في سقيفة بني ساعدة.

٣. تعاملَ المستشرقون مع السيِّدة فاطمة عليها السلام نتيجةً للحراك السياسيّ الذي نتجَ بعد وفاة أبيها النبيّ صلى الله عليه وآله، على أنَّها أوَّل ناشطة، وأوَّل مُعارضة سياسيَّة في الإسلام؛ لما آلت إليها السياسة من إبعاد زوجها الإمام عليّ عليه السلام، كما تعتقد، عن سدَّة الخلافة.

٤. يرى المستشرقون أنَّ السيِّدة فاطمة عليها السلام وجدت نفسها طرفًا في تلك الأحداث السياسيَّة، لذا اتَّجهت باتِّجاهاتٍ مُتعدِّدة، لبيان موقفها الحقيقيّ، فكان أهمَّها احتواء رجال المعارضة الذين رفضوا البيعة لغير زوجها عليّ عليه السلام في منزلها، وكذا خروجها مع زوجها وابنيها الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام لدعوة المسلمين المطالبة بالنصرة.

٥. يتَّفق المستشرقون جميعًا على أنَّ خلافًا وَقَعَ في التاريخ الإسلاميّ، بين فاطمة عليها السلام، وخليفة المسلمين أبي بكر، نتيجة مُطالبتها بحقِّها من أرض فدك التي وهبها لها النبيّ صلى الله عليه وآله أيَّام حياته، بعد مُصادرتها من قِبل السلطة وإدخالها في ديوان المسلمين، وتشهدُ عندهم بذلك الخُطبة الفدكيَّة التي نصَّ عليها رواة المسلمين، والتي تُعتبر الإعلام الفاطميّ الذي حوَّلها من إمرأة ضعيفة، كما يسوَّغ ذلك عند البعض، إلى البطلة الثوريَّة المُطالبة بالحقوق السياسيَّة والقانونيَّة.

قائمة مصادر البحث

* القرآن الكريم.

أوَّلًا: المصادر والمراجع العربيَّة

ابن هشام، أبو محمَّد عبد الملك(ت٢١٨هـ/ ٨٣٣م).

١. السيرة النبويَّة، حقَّقها وعلَّق عليها: محمَّد محيي الدين عبد الحميد، (مطبعة المدنيّ، القاهرة، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م).

ابن أبي الحديد، أبو حامد بن هبة الله محمَّد(ت٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م).

٢. شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمَّد أبو الفضل ابراهيم، (ط١، دار إحياء الكتب العربيَّة، القاهرة، مصر، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٩م).

ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمَّد (ت٢٣٤هـ/ ٨٤٨م).

٣. المصنَّف في الأحاديث والآثار، تحقيق: سعيد محمَّد اللحام، (ط١، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م).

ابن الأثير، أبى السعادات المبارك بن محمَّد الجزريّ(ت٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م).

٤. النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: محمود محمَّد الطناحيّ، (ط٤، مؤسَّسة إسماعيليان، قم، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م).

ابن الأثير، أبي الحسن عليّ بن أبي الكرم(ت٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م).

٥. الكامل في التاريخ، (دار صادر، بيروت، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م).

ابن الأثير، المبارك بن محمَّد الجزريّ(ت٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م).

٦. منال الطالب في شرح طوال الغرائب، تحقيق: محمَّد محمود الطناجيّ، (ط١، مركز البحث العلميّ لإحياء التراث الإسلاميّ، مكَّة المكرَّمة، السعوديَّة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م).

ابن سعد، محمَّد بن سعد (ت٢٣٠هـ/ ٨٤٥م).

٧. الطبقات الكبرى، (دار صادر، بيروت، د.ت).

ابن شبة، أبو زيد عمر بن شبة النميريّ(ت٢٦٢هـ/ ٨٧٥م).

٨. تاريخ المدينة المنـوَّرة، تحقيق: فهيم محمَّد شلتوت، (مطبعة قدس، قم، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م).

ابن طيفور، أبو الفضل بن أبي طاهر(ت٢٨٠هـ/ ٨٩٤م).

٩. بلاغات النساء، (مطبعة شريعت، قم، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٩م).

ابن عبد ربَّه الأندلسيّ، أحمد بن محمَّد(ت٣٢٨هـ/ ٩٣٩م).

١٠. العقد الفريد، تحقيق: مفيد محمَّد قميحة، (ط١، المجلس العلميّ، بيروت، لبنان، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م).

ابن قتيبة، أبو محمَّد عبد الله بن مسلم(ت٢٧٦هـ/ ٨٨٩م).

١١. الإمامة والسياسة، تحقيق: طه محمَّد الزينيّ، (مؤسَّسة الحلبيّ، القاهرة، مصر، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م).

١٢. تفسير غريب القران، تحقيق: السيِّد أحمد صقر، (المكتبة العلميَّة، بيروت، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م).

ابن قيِّم الجوزيَّة، محمَّد بن أبي بكر(ت٧٥١هـ/ ١٣٥٠م).

١٣. زاد المعاد في هَدي خير العباد، حقَّقه وأخرجه وعلَّق عليه: شعيب الأرنؤوط وعبدالقادر الأرنؤوط، (ط٥، مؤسَّسة الرسالة، بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م).

ابن كثير، اسماعيل بن عمر(ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م).

١٤. البداية والنهاية، تحقيق: عليّ شيري، (دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).

١٥. تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير، تقديم: يوسف عبد الرحمن المرعشليّ، (دار المعرفة، بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م).

ابن منظور، محمَّد بن مكرم(ت٧١١هـ/ ١٣١٢م).

١٦. لسان العرب، (د.مط، قم، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م).

أبي الفداء، عماد الدين إسماعيل(ت٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م).

١٧. المختصر في أخبار البشر، (دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، د.ت).

أبي يعلى، أحمد بن عليّ(ت٣٠٧هـ/ ٩١٩م).

١٨. مسند أبي يعلى، تحقيق: حسين سليم أسد، (ط١، دار المأمون للتراث، دمشق ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).

الأربلِّيّ، عليّ بن أبي الفتح (ت٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م).

١٩. كشف الغمَّة في معرفة الائمَّة، (ط٢، دار الأضواء، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).

البخاريّ، أبي عبد الله محمَّد بن إسماعيل(ت٢٥٦هـ/ ٨٦٩م).

٢٠. صحيح البخاريّ، شرح وتحقيق: قاسم الشمَّاعي الرفاعيّ، (دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د.ت).

بدر، عليّ.

٢١. ماسينيون في بغداد، (منشورات الجمل، ألمانيا، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م).

بدوي، عبد الرحمن(ت١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م).

٢٢. شخصيَّات قلقة في الإسلام، (ط٢، دار النهضة العربيَّة، القاهرة، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م).

البلاذريّ، أحمد بن يحيى بن جابر(ت٢٧٩هـ/ ٨٩٢م).

٢٣. أنساب الاشراف، تحقيق: محمَّد حميد الله، (دار المعارف، مصر، ١٣٧٨هـ/ ١٩٧٧م).

٢٤. فتوح البلدان، فهرسة: د. صلاح الدين المنجد، (مطبعة لجنة البيان العربيّ، القاهرة، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م).

الجاحظ، عمرو بن بحر(ت٢٥٥هـ/ ٨٦٨م).

٢٥. الرسائل السياسيَّة، قدَّم له وبوَّبها: د. عليّ بو ملحم، (مطبعة دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م).

الجوهريّ، أبي بكر أحمد بن عبد العزيز(ت٣٢٣هـ/ ٩٣٤م).

٢٦. السقيفة وفدك، تقديم وجمع وتحقيق: د. محمَّد هادي الأمينيّ، (ط٢، شركة الكتبيّ للطباعة والنشر، بيروت،١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م).

الحسكانيّ، عبيد الله بن عبد الله بن أحمد(ت٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م).

٢٧. شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، تحقيق: محمَّد باقر المحموديّ، (ط١، طهران، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م).

حمدان، عبد الحميد صالح.

٢٨. طبقات المستشرقين، (د.مط، منشورات مكتبة مدبولي، مصر، د.ت).

الحمويّ، ياقوت بن عبد الله البغدادي(ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م).

٢٩. معجم البلدان، (دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م).

حنبل، أحمد بن حنبل(ت٢٤١هـ/ ٨٥٥م).

٣٠. مسند أحمد، (دار صادر، بيروت، د. ت).

الخليليّ، جعفر بن صادق(ت١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م).

٣١. موسوعة العتبات المقدَّسة، (ط٢، مؤسَّسة الأعلميّ، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م).

رشيد، محمَّد رضا (ت١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م).

٣٢. تفسير المنار، (ط٢، دار الفكر، بيروت).

الزركليّ، خير الدين(ت١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م).

٣٣. الاعلام، (ط٥، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م).

سالم، عبد العزيز.

٣٤. تاريخ الدولة العربيَّة، (دار النهضة العربيَّة، بيروت، د.ت).

سعيد، إدوارد(ت١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م).

٣٥. الاستشراق المفاهيم الغربيَّة للشرق، ترجمة: د. محمَّد عناني، (ط١، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م).

السيوطيّ، جلال الدين عبد الرحمن(ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م).

٣٦. الدرُّ المنثور في التفسير بالمأثور، (دار المعرفة، بيروت، د.ت).

٣٧. مسند فاطمة الزَّهراء عليها السلام وماوردَ في فضلها، حقَّقه وخرَّج أحاديثه: فوَّاز أحمد زمرلي، (ط١، دار ابن حزم للطباعة والنشر، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).

الشريف الرضيّ، محمَّد بن الحسين(ت٤٠٦هـ/ ١٠١٥م).

٣٨. تلخيص البيان في مجازات القرآن، حقَّقه وقدم له: محمَّد عبد الغني حسن، (ط٢، دار الأضواء، بيروت، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م).

الصدر، محمَّد باقر بن حيدر(ت١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م).

٣٩. خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء، سلسلة الإسلام يقود الحياة، (ط٢، دار التعارف، بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م).

٤٠. فدك في التاريخ، تحقيق: د. عبد الجبَّار شرارة، (ط١، مركز الغدير للدراسات الإسلاميَّة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م).

الصدوق، أبي جعفر محمَّد بن عليّ(ت٣٨١هـ/ ٩٩١م).

٤١. الأمالي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلاميَّة، مؤسَّسة البعثة في قم، (ط١، مركز الطباعة والنشر في مؤسَّسة البعثة، قم، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م).

الصنعانيّ، عبد الرزاق بن همام(ت٢١١هـ/ ٨٢٦م).

٤٢. المُصنَّف، تحقيق وتخريج وتعليق: حبيب الرحمن الأعظميّ، (د.مط، د.ت، منشورات المجلس العلميّ).

الطبريّ، محمَّد بن جرير(ت٣١٠هـ/ ٩٢٢م).

٤٣. تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: مراجعة وتصحيح وضبط: نخبة من العلماء الأجلَّاء، (مؤسَّسة الأعلميّ، بيروت، د.ت).

عزَّه، محمَّد.

٤٤. تاريخ الجنس العربيّ، (المكتبة العصريَّة، لبنان).

العقيقيّ، نجيب(ت١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م).

٤٥. المستشرقون، (ط٤، دار المعارف، القاهرة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م).

القاضي النعمان، النعمان بن محمَّد المغربيّ(ت٣٦٣هـ/ ٩٧٣م).

٤٦. دعائم الإسلام، تحقيق: آصف بن عليّ أصغر فيضي، (دار المعارف، القاهرة، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م).

القرشيّ، باقر بن شريف (ت١٤٣٣هـ/ ٢٠١١م).

٤٧. موسوعة أهل البيت عليهم السلام- فاطمة الزَّهراء عليها السلام، تحقيق: مهدي باقر القرشيّ، (ط١، دار المعروف، قم، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م).

كحالة، عمر رضا.

٤٨. أعلام النساء، (ط٢، مطبعة الهاشميَّة، دمشق، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٩م).

الكلينيّ، أبي جعفر محمَّد بن يعقوب(ت٣٣٩هـ/ ٩٥٠م).

٤٩. الأصول من الكافي، تحقيق وتصحيح: عليّ أكبر الغفاري، (ط٥، حيدري، طهران، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م).

المتَّقي الهنديّ، علاء الدين عليّ بن حسام الدين(ت٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م).

٥٠. كنز العمذَال في سنن الأقوال والأفعال، ضبطه وصحَّحه: بكري حيَّاني وصفوة السقَّا، (ط١، مؤسَّسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م).

مراد، يحيى.

٥١. معجم أسماء المستشرقين، (ط١، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م).

المسعوديّ، أبي الحسن عليّ بن الحسين(ت٣٤٦هـ/ ٩٥٧م).

٥٢. مروج الذهب ومعادن الجوهر، (ط٢، دار الهجرة، قم، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).

المفيد، محمَّد بن محمَّد العكبري(ت٤١٣هـ/ ١٠٢٢م).

٥٣. الاختصاص، تحقيق: عليّ أكبر الغفاريّ والسيِّد محمود الزرنديّ، (ط٢، دار المفيد، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م).

النيسابوريّ، مسلم بن الحجَّاج(ت٢٦١هـ/ ٨٧٤م).

٥٤. صحيح مسلم، تعليق وإشراف: محمَّد فؤاد عبد الباقي، (ط١، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ١٣٧٤هـ/ ١٩٩٥م).

الهيثميّ، عليّ بن أبي بكر (ت٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م).

٥٥. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق: عبد الله محمَّد الدرويش، (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).

اليعقوبيّ، أحمد بن أبي يعقوب العبَّاسيّ(ت٣٨٤هـ/ ٩٩٤م).

٥٦. تاريخ اليعقوبيّ، (ط٢، شريعت، منشورات دار الاعتصام، قم، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م).

اليوسف، عبد الله أحمد.

٥٧. فدك في الماضي والحاضر، (ط١، دار الهادي للطباعة، بيروت، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م).

ثانيًا: المصادر المترجمة:

ايرا، لابيدس.

٥٨. تاريخ المجتمعات الإسلاميَّة، ترجمة: فاضل جتكر، (ط١، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م).

بروكلمان، كارل(ت١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م).

٥٩. تاريخ الشعوب الإسلاميَّة، ترجمة: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكّيّ، (ط٦، دار العلم للملايين، بيروت، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٤م).

ديولافوا، جان(ت١٣٣٤هـ/ ١٩١٦م).

٦٠. رحلة مدام جان ديولافوا، ترجمة: د. مصطفى جواد، (دار منشورات البصريّ، بغداد، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م).

رونلدسن، دوايت(ت١٣٩٥هـ/ ١٩٧٦م).

٦١. عقيدة الشيعة، ترجمة: ع. م، (ط١، مؤسَّسة المفيد، بيروت،١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م).

سورديل، دومينيك.

٦٢. الحضارة الإسلاميَّة في عصرها الذهبيّ، (ط١، دار الحقيقة، بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م).

سيِّديو، لويس(ت١٢٩٢هـ/ ١٨٧٥م).

٦٣. تاريخ العرب العام، ترجمة: عادل زعيتر، (ط١، دار طيبة للطباعة والنشر، مصر،١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م).

غارديه، لويس.

٦٤. الإسلام أمَّة النبيّ، ترجمة وتعليق وتعقيب: د. لويس صليبا، طبع ضمن كتاب الإسلام في قراءة الاستشراق المسيحيّ- دراسة نصوص مترجمة، (دار ومكتبة بيبلون، جبيل، لبنان ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٣م).

كاستري، هنري(ت١٣٤٥هـ/ ١٩٢٧م).

٦٥. الإسلام خواطر وسوانح، ترجمة: أحمد فتحي زغلول باشا، (مطبعة الشعب، مصر، ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م).

گبرييلي، فرانشيسكو(ت١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م).

٦٦. محمَّد والفتوحات الإسلاميَّة، تعريب وتقديم وتعليق: د. عبد الجبَّار ناجي، (ط١، دار المحجَّة البيضاء، بيروت ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م).

كونسلمان، جرهارد.

٦٧. سطوع نجم الشيعة، ترجمة: محمَّد أبو رحمه، (ط١، مدبولي، القاهرة، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م).

لويس، برناد(ت١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م).

٦٨. الحشَّاشون، تعريب: محمَّد العزب موسى، (ط٢، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٨).

مادولنك، ويلفرد.

٦٩. خلافة محمَّد، عرض ونقد: هاشم الميلانيّ، (ط١، دار الكفيل، كربلاء، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م).

ماسيه، هنري(ت١٣٨٧هـ/ ١٩٦٩م).

٧٠. الإسلام، ترجمة: بهيج شعبان، علَّق عليه: د. مصطفى الرافعي ومحمَّد جواد معنية (منشورات عويدات، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).

هالم، هاينس.

٧١. الغنوصيَّة في الإسلام، ترجمة: رائد الباش، (ط١، منشورات الجيل، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م).

والبرج، لندا.

٧٢. الأعلم عند الشيعة- دراسة في مؤسَّسة ومرجعيَّة التقليد، ترجمة: د. هناء خليف غني، بحث منشور للمستشرق ماثيو بيرس بعنوان (إحياء ذكرى فاطمة: طرائق جديدة لإضفاء صفة الشرعيَّة على السلطة الأنثويَّة في الخطاب الشيعيّ المعاصر، (د.مط، بيروت، ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م).

رابعًا: المصادر الأجنبيَّة:

73. Fatima as a Motif of Contention and Suffering in Islamic Sources.
74. Thesis In The Department of Religion.
75. The Encyclopaedia of Islam.(Leiden-New York, E.J. Brill,1993).

76. Calmard, Jean. Fatimah: In myth, folklore, and popular devotion.
77. Encyclopaedia Iranica. (Encyclopaedia Iranica Foundation, 2018).
78. Soufi L. Denise. The Image of Fatima in Classical Muslim Thought. Adissertation Presnted To The Faculty of Princeton university in candidacy for The Degree of Doctor of Philosophy.Recommended for Acceptance by The Department of near eastern Studies. (June,1997).
79. Opera Minora. L'oratoire de Marie A L'aqca,Vu Sous Le Voile de Deuil de Fatima.1956.
80. Muir, William. The Life of Mahoet. Volme IV. (London:Smith, Elder and Co., 65, Cornhill, 1861).
81. Virolleaud, Charles. La Iegende de Fatima, fille de Mahomet. (Joumal des Savants, Annee 1945).
82. Fttzpatrick, Coeli. Muhammad in History,Thought, and Culture. An Encyclopedia of the prophet of God. (ABC-CLIO. USA. 2014).
83. Warner, George. Tragedy, History, and the Sacred: The Hujjah Fatimat Al- Zahra'. Magazine Journal of Shi'a Islamic Studies. (University of cambidge,UK. Spring 2011. Vol. IV. No.2.
84. Lawson, Todd. The Authority of the Feminine and Fatima's Place in an Early Work by the Bab. (Online Journal of Baha'I Studies. Volume 1. 2007).

خامسًا: مواقع الانترنيت

85. https://www.nytimes.com 82.
86. http://vinaykhetia.com/cv/Academic CV 83.
87. https://en.wikipedia.org/wiki/Ira_M._Lapidus 84.
88. wikipedia.org/wiki https://85.
89. https://en.wikipedia.org/wiki 86.
90. http://victoria.academia.edu/ArthurBuehler 87.
91. https://www.youtube.com/watch?v=oHc1uuxm_Rs 88.
92. https://creativity507.wordpress.com 89.
93. https://en.wikipedia.org/wiki/Abdallah_Schleifer 90.
94. https://en.wikipedia.org/wiki/John_Warne 91.
95. https://dayan.org/author/rachel-kantz-feder 92.
96. http://toddlawson.ca/cv 93.

الفَلسفةُ السِّياسيَّةُ لنظَام الحُكم في الإسْلاَم
(دراسةٌ تطبيقيةٌ للخُطْبَةِ الفَدَكيَّة)

أ.م.د. أحمد حسن قاسم
جَامِعَةُ ذِي قَار/ كليَّة التَّربيَّة للبنَّات

ملخَّص البحث

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، والصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ والْمُرْسَلِينَ أَبِي الْقَاسِمِ مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ والطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ.

تشكِّل الخلفيَّة الفكريَّة والمعرفيَّة المنطلق الأساسيّ في العمل السِّياسيّ الذِّي يتصدَّى له كلُّ مفكِّرٍ أو فيلسوفٍ أو مصلحٍ اجتماعيّ، ينطلقُ من الثَّوابت التِّي يعتقد بصحَّتها وسلامتها؛ ليطبِّقها في واقعه السَّياسيّ، فيخرجُ ما يحاكي القلوب، وهي (الثَّوابت العقديَّة) إلى ما يحاكي الأجسام، وهي (السِّياسيةُ التَّدبيريَّةُ)، وعليِّه لا يمكنُ بشكلٍ مِن الأشكال أنْ نفصلَ بينَّهما من حيث الوَّاقع، فهما صنوان قويَّان، بيَّنهما رابطةُ الحاجة لإدارة الإنسان ما يريده ويحتاجه.

والدِّين الاسلاميّ، بكلِّ تضحياته الجسيمة، منذ بزوغه إلى يوم القيامة، يسعى لتحقيق هدفه الـذِّي رسمه الله تعالى له، وهو تطبيق الثَّوابت في مجالِ الوَّاقع، من خلالِ إقامة حكومة تحقِّقُ العدالةَ الاجتماعيَّة، وتضمنُ كرامةَ الإنسان، قالَ تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣]. وهنا نسأل: ما فائدة إظهار الدين وتسيِّده على الأرضِ،

فقد أجابَ القرآنُ الكريمُ في موضع آخر بقوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. فهذه الثَّوابت (الهدى ودين الحقِّ) هي من تضع الإصرَ والأغلالَ عنهم في مجالِ الوَّاقعِ، وهي التِّي انطلق منَّها النَّبي الأكرم صلى الله عليه وآله في تطبيقها بإقامة دولة كريمة يسودُها العدل الاجتماعيّ والإنسانيّ.

من هذا المنطلق أيضًا أعلنتْ السِّيدة الزَّهراء عليها السلام انتفاضتها ضدَّ السَّلطة التِّي تسلَّمت زمام الحكم بعد النَّبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله؛ لتبيِّن الفلسفة الحقيقيَّة لمسألة الحكم في الإسلام، بأنَّ الثَّابت والمنطلق الأساسيّ الذِّي ينبغي الارتكاز عليه في الحكم، هو الدِّين، ولا بدَّ أن توظَّف السِّياسية لأجله، لا العكس، فقد عرَّت السَّلطان الحاكم من الشَّرعيَّة، وكشفت زيفه الدِّيني الذِّي تجلببَت به، وانطلقت بصياغة قرآنيَّة تشرح فيها فلسفة الحكم الإسلاميّ، وترسم له سياسته الشَّرعيَّة الحقيقيَّة التِّي أرادها الله تعالى له.

المقدِّمة

تشكِّل الخلفيَّة الفكريَّة والمعرفيَّة المنطلق الأساسيّ في العمل السِّياسيّ الذِّي يتصدَّى له كلُّ مفكِّرٍ أو فيلسوفٍ أو مصلحٍ اجتماعيّ، ينطلقُ من الثَّوابت التِّي يعتقد بصحَّتها وسلامتها؛ ليطبِّقها في واقعه السَّياسيّ، فيخرجُ ما يحاكي القلوب، وهي (الثَّوابت العقديَّة) إلى ما يحاكي الأجسام، وهي (السِّياسيةُ التَّدبيريَّةُ)، وعليِّه لا يمكنُ بشكلٍ مِن الأشكال أنْ نفصلَ بينَّهما من حيث الوَّاقع، فهما صنوان قويَّان، بيَّنهما رابطةُ الحاجة لإدارة الإنسان ما يريده ويحتاجه.

والدِّين الاسلاميّ، بكلِّ تضحياته الجسيمة، منذ بزوغه إلى يوم القيامة، يسعى لتحقيق هدفه الـذِّي رسمه الله تعالى له، وهو تطبيق الثَّوابت في مجالِ الوَّاقع، من خلالِ إقامة حكومة تحقِّقُ العدالةَ الاجتماعيَّة، وتضمنُ كرامةَ الإنسان، قالَ تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣]. وهنا نسأل: ما فائدة إظهار الدين وتسيِّده على الأرضِ، فقد أجابَ القرآنُ الكريمُ في موضع آخر بقوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. فهذه الثَّوابت (الهدى ودين الحقِّ) هي من تضع الإصرَ والأغـلالَ عنهم في مجالِ الوَّاقعِ، وهي التِّي انطلق منَّها النَّبي الأكرمﷺ في تطبيقها بإقامة دولة كريمة يسودُها العدل الاجتماعيّ والإنسانيّ.

من هذا المنطلق أيضًا أعلنتْ السِّيدة الزَّهراءعليها السلام انتفاضتها ضدَّ السَّلطة التِّي تسلَّمت زمام الحكم بعد النَّبيّ الأكرمﷺ؛ لتبيِّن الفلسفة الحقيقيَّة لمسألة الحكم في

الإسلام، بأنَّ الثَّابت والمنطلق الأساسيّ الذِّي ينبغي الارتكاز عليه في الحكم، هو الدِّين، ولا بدَّ أن توظَّف السِّياسية لأجله، لا العكس، فقد عرَّت السَّلطان الحاكم من الشَّرعيَّة، وكشفت زيفه الدِّيني الذِّي تجلببتَ به، وانطلقت بصياغة قرآنيَّة تشرح فيها فلسفة الحكم الإسلاميّ، وترسم له سياسته الشَّرعيَّة الحقيقيَّة التِّي أرادها الله تعالى له.

ويعود اختيار الموضوع لسببينِ؛ هما:

١. التأصيلُ لدراسةٍ أكاديميَّةٍ مختصَّةٍ في مفهوم الحكم الصَّالح عندَ السِّيدة الزَّهراء عليها السلام.

٢. التَّأسيس لأوَّل معارضة شرعيَّة ضدَّ السَّلطة الدِّينيَّة والسِّياسيَّة، ومعرفة ظروفها الزَّمانيَّة والمكانيَّة التي انطلقت منها السِّيدة الزَّهراء عليها السلام في انتفاضتها.

أهمية الموضوع: تكمن أهميَّة الموضوع في أمرَين، هما:

١. بيان معالم السِّياسية الشَّرعيَّة وأسسها التِّي انطلقت منها السِّيدة الزَّهراء.

٢. الوَّقوف على خطورة الموقف الذِّي واختطاف شرعيَّة الحكم.

هدف البحث: يهدف البحث إلى أمرَين أساسيَّين، هما:

١. كشف زيف ممَّن جلسَ على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله، وأدعى بأنَّه خليفته.

٢. إظهار الدَّور الرَّسالي التِّي مارسته السِّيدة الزَّهراء في انتفاضتها، ضدَّ الحكم السَّياسي، وطرح البديل عنه.

مشكلة البحث: أحاول أنْ أجيبَ عن الأسئلة من خلال البحث، وهي:

١. لماذا انتفضتْ السِّيدة الزَّهراء على النَّظام السِّياسي؟.

٢. متى يجبُ على المرأةِ أنْ تعارض؟.

٣. هل توجد فلسلفة سياسية خاصة بنظام الحكم الاسلامي؟.

٤. كيف عرَّتْ السَّيدة الزَّهراء السَّلطة الحاكمة من الشَّرعية.

٥. ما هي أهم الأسس التي وضعتها السِّيدة الزَّهراء في إرساء الحكم الصَّالح؟.

هيكليَّة البحث: ينقسم البحث على ما يأتي:

- **المقدَّمة**: تناولتُ فيها أهميَّة البحث، وهدفه، ومشكلته، وهيكليته.
- **التمهيد**: وضَّحتُ فيه أهمَّ المفاهيم التَّأسيسيَّة للبحث.
- **المطلب الأوَّل**: فلسفة العقيدة وأثرها على نظام الحكم.
- **المطلب الثَّاني**: فلسفة الأخلاق وأثرها على نظام الحكم.
- **المطلب الثَّالث**: فلسفة التَّشريعات وأثرها على نظام الحكم
- **الخاتمة**: جمعت فيها أهمَّ النَّتائج التِّي توصَّلت إليها من خلال البحث.

أسال الله تعالى أنْ يمَّدَّ لي العون في إتمام بحثي، وإكماله بأحسن صورة.. فالله وليُّ كلَّ نعمة، ومنتهى كلِّ رغبة، والحمد لله أوَّلًا وآخرًا.

مفاهيم تأسيسيَّة

بَادِئَ ذِي بَدْءٍ، وقبلَ خوض غمارَ الدَّراسة، لا بدَّ من بيِّان المفاهيم التَّأسيسيَّة للبحث، فهي تشكِّلُ القواعدَ العامَّة في فهم مدلولاته، كمَّا أنَّ بيَّانها يعدُّ تفكيكًا لرموز عنوانِ البحث، ومن هنا يُلزمُ الباحث أنْ يقدِّمَ إيضاحًا يبيَّن فيه، ويفكِّك المقاصد التِّي يروم إليها من دَراسته.

والمفاهيم التي ينبغي ذِكرها أربعة، هي:

أوَّلًا: الفَلسَفة (Philosophy)

يكادُ يجمعُ المؤرِّخونَ على أنَّ أوَّلَ منْ أستعملَ كلمةَ الفَلسَفة هم حكماءُ اليونانِ، وقد اختلفوا في أوَّل من استعملها من أولئك الحُكْماء، فذهب بعضهم إلى (فيثاغورس Phythagoves) (ت ٤٩٧ق.م)، وذهب فريق آخر من مؤرِّخي الفلسفة إلى (هيرودوتس Herodotus) (ت ٤٢٥ق.م)[١]، والمعنى الاشتقاقيّ لكلمة الفلسفة هو (حبُّ الحكمة)، مكوَّنة من كلمَتَين يونانيَّتَين (فيلو) وتعني (حب)، و(سوفيا) وتعني الحكمة[٢]. وتسمَّى في الفكر الإسْلَاميِّ بـ(الحكمة الإلهيَّة)، و(الفلسفة الأولى)، وكذلك بـ(العلم الأعلى)، و(أمُّ العلوم)، وتعرَّف على أنَّها: العلم الباحث عن أحوال الموجود بما هو موجود[٣]. ومن خصائص الفلسفة أن الإنسان يحصل على المعيار الذِّي يميِّز به بين العلوم الأمور الحقيقيَّة، والأشياء الوهميَّة والاعتباريَّة. كما أنَّها تتكفَّل بإثبات المبادئ

(١) التومي، مقدِّمة في الفلسفة: ١٨.
(٢) دبوس، تبسيط الفلسفة: ١٥.
(٣) الطباطبائيّ: بداية الحكمة: ٦.

التصديقيَّة لسائر العلم، وهذا أحد وجوه احتياج سائر العلوم للفلسفة[1].

ثانيًا: السِّياسة (Politics)

عرِّفت السِّياسة لغةً: «السَّوْسُ: الرِّياسَةُ يقال: ساسوهم سَوْسًا، وإذا رَأَّسُوه قيل سَوَّسُوه وأَسَاسوه، وسَاس الأَمرَ سِياسةً قام به.. وسُوِّسَ الرجلُ أُمور الناس.. إذا مُلِّكَ أَمرَهم. وفي الحديث «**كان بنو إسرائيل يَسُوسُهم أنبياءهم**»[2]، أَي تتولَّى أُمورَهم، كما يفعل الأُمَراء والوُلاة بالرَّعِيَّة، والسِّياسةُ القيامُ على الشيء بما يُصْلِحه..»[3].

وقدْ أوردَ الفيروز آباديّ معنًى آخرًا: «سُستُ الرعية سياسية؛ أمرتها ونهيتها»[4]. كلُّ من يتتبَّع تعريف السياسية في للغة يجد أنَّها لا تخرج عن المعاني التالية: (الولاية، والرياسة، والقيادة، والأمر، والنهي، والرعاية، والتدبير، والقيام بالإصلاح)، وكلُّ هذه المعاني تنتهي لمعنًى واحدٍ، هو تزعُّم أمر الرعيَّة، وهذا ما قالته حرقة بنت النعمان بن المنذر[5] لسعد بن أبي وقاص:

فبينما نسوس الناس والأمر أمرنا

إذا نحن فيهم سوقة ليس نعرفُ

---

(١) اليزديّ، المنهج الجديد في تعليم الفلسفة: ١/ ٨٤.

(٢) الحديث رواه البخاريّ في صحيحه عن فرات القزَّاز، قال سمعت أبا حازم قال قاعدتُ أبا هريرة خمس سنين، فسمعته يحدِّث عن النَّبيّ ﷺ قال: «**كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلَّما هلك نبيّ خلفه نبيّ، وأنَّه لا نبيَّ بعدى، وسيكون خلفاء، فيكثرون**». قالوا فما تأمرنا؟ قال «**فوا ببيعة الأوَّل فالأوَّل، أعطوهم حقَّهم، فإنَّ الله سائلهم عمَّا استرعأَهَم**» الحديث: (٣٤٥٥).

(٣) ابن منظور، لسان العرب: ٦/ ١٠٨.

(٤) الفيروز آباديّ، القاموس المحيط: ١/ ٥٥١.

(٥) شاعرة عربية عاشت قبل الإسلام، وهي هند بنت النعمان بن المنذر آخر ملوك مملكة المناذرة في الحيرة، وأمُّها اسمها ماريَّة الكنديَّة، وهي عربيَّة مسيحيَّة. كانت تلقَّب بالحرقة للتفريق بينها وبين هند بنت الحارث، توفِّيت سنة (٦٩٣م). ينظر: موسوعة تراجم الأعلام الإلكترونيَّة: ٨/ ٩٨.

فـــأُفٍ لـدنـيـا لا يـــدوم نـعـيـمـهـا
تـقـلـب تـــارات بـنـــا وتـــصرف[1]

والسياسة في اصطلاحها العام تعرَّف على أنَّها: «عمليَّة عامَّة تتفاعل فيها قوى وجماعات مختلفة ومتصارعة، وهي ظاهرة توزيع القيم على الأفراد والمواطنين داخل كلِّ تنظيمٍ سياسيّ»[2]. أمَّا تعريفها في الفكر الإسلاميِّ، فهي: «رعاية شؤون الأمَّة داخليًّا وخارجيًّا، فالدَّولة هي تباشرُ هذه الرَّعاية عمليًّا، والأمَّة هي تحاسب بها الدولة»[3]. وعرِّفت أيضًا: «فنُّ الحُكْم برعاية شؤون الناس العامَّة والخاصَّة في الدولة على الصعيد الداخليّ، والصعيد الخارجيّ، بتنظيم علاقات الدولة ورعاياها بالدول الأخرى»[4]. ولا يختلف المدلول الاصطلاحيّ بشقَّيه العام والإسلاميِّ كثيرًا عن المدلول اللغويّ سوى سعة العبارات.

ثالثًا: الفلسفة السياسيَّة (Political Philosophy)

الفلسفة والسياسةُ مصطلحان متغايران من حيث الماهيَّة والموضوع، وكذلك يتغايرًا في مفهوم ومصداق، بمعنى أنَّ مفهوم الفلسفة لا ينطبق على أفراد السياسة، ولا مفهوم السياسة ينطبق على مفردات الفلسفة، فالنسبة المنطقيَّة بينهما هي نسبة التَّباين، إلَّا أنَّه يمكن الاستفادة منهما بشكلها العام، فالفلسفة تعني حبُّ الحكمة التي تؤدِّي إلى تقصي جذور الحقائق العليا، كما أنَّها تجيب عن الأسئلة الكبرى، فهي إعمال العقل للإجابة عن تلك الأسئلة. والسياسة هي تدبير أمور الرَّعية، وتنظيم علاقاتهم داخليًا وخارجيًا. ومن خلال إعمال العقل في البحث النَّظريّ تتولَّد في ذهن الفيلسوف مجموعة من الأفكار الكليَّة والنَّظرات القيميَّة المعياريَّة التي تصنع القواعد والمقاييس

(١) المسعوديّ، مروج الذهب: ٢/ ١٠٩.
(٢) زيتون، المعجم السياسيّ: ٢١٥.
(٣) النبهانيّ، مفاهيم سياسيَّة: ٥.
(٤) سمارة، النظام السياسيّ في الإسلام: ١٤.

لتركيب المجتمعات الإنسانيَّة، وتدلُّ على ما يجب أن يكون عليه حال تلك المجتمعات من أسس ومقوِّمات صحيحة وفق ما يراها[١].

وعليه فإنَّ الفلسفة السياسيَّة هي فرع من فروع الفلسفة، الذِّي يركِّز بحثه حول اكتشاف الحكمة والحقيقة المتعلِّقة بالمبادئ الأساسيَّة للحياة السياسيَّة، ومعرفة علاقات هذه المبادئ بعضها ببعض، وعلاقات المبادئ السياسيَّة بمبادئ الحياة الدِّينيَّة والاجتماعيَّة والاخلاقيَّة. وقد عرَّفها العالم السياسيّ الهنديّ (فارما Pharma) بأنَّها: «توليد وتركيب الآراء والمعلومات، والتأمُّلات، والبديهيَّات، والافتراضيَّات، والقواعد، والتعميمات المتَّصلة بتوزيع واستخدام القوَّة في المجتمع»[٢]، أي إنشاء نظام يأخذ على عاتقه رعاية المجتمع من حيث السلطة، وتأصيل المبادئ والغايات، التي من شأنها أن تخلق العدالة المجتمعيَّة.

رابعًا: موضوع الفلسفة السياسيَّة

(The Subject of Political Philosophy)

تعرَّض الفلاسفة المسلمون كالفارابيّ[٣]، وإخوان الصفا[٤]، ونصير الدِّين الطوسيّ[٥]، والشيرازيّ[٦]، وغيرهم ممَّن تناول التنظير السياسيّ، وكتب فيه، بأنَّ سياسة المدن وموضوعها هو علاقة السلطة الحاكمة وأحوال الرعيَّة المحكومِين طوال المنهج السياسيّ والإسلاميِّ، وقد «اهتمَّ به الفلاسفة لمدَّة من الزمن، على الرغم من اختلاف تعبيراتهم وألفاظهم عن المعنى»[٧]. وموضوع الفلسفة السياسيَّة هو ذاته

(١) أحمد، مدخل إلى الفلسفة السياسيَّة: ٢٧.
(٢) المصدر نفسه: ٢٨.
(٣) السياسة المدنيَّة، وإحصاء العلوم.
(٤) رسائل إخوان الصفا.
(٥) أخلاق ناصري.
(٦) المبدأ والمعاد.
(٧) بزشكي، ماهيَّة الفلسفة السياسيَّة: ٧١.

موضوع سياسة المدن، فهو ايضًا يتناول فيه الحاكم، وطبيعة علاقته برعيَّته، ومميِّزات المجتمع الخاضع تحت إرادة السَّلطة، فالفلسفة السياسيَّة بدورها تعالج الموضوع نفسه، وتبحث عن العوارض الذَّاتية لتلك العلاقة.

خامسًا: مسائل الفلسفة السياسيَّة

(Questions of Political Philosophy)

إنَّ موضوع كلِّ علم هو ما يبحث فيه عن الأعراض الذاتيَّة للموضوع، والمراد بالعرض الذاتيّ هو ما كان منشأه الذات أو يساوي الذات، وبعبارة أخرى: هو المحمول الذِّي يقتضيه نفس ذات الموضوع، فليس ثمَّة واسطة غير ذات الموضوع سبَّبت حمل العرض على معروضه، وهو الموضوع، مثالُه: العقل مدرك للكليَّات، فإنَّ إدراك الكليَّات ناشئٌ عن مقام الذات للعقل، ومنتزَع عن هويَّته وماهيَّته، ولم تكن ثمَّة واسطة غير ذات العقل سبَّبت حمل إدراك الكليَّات على العقل[1]. وغير ذلك سمِّي بالأعراض الغريبة. وبناءً على هذا التصوُّر للعرض الذاتيّ، يتبيَّن أنَّ المراد من العروض الذاتيَّة هو العروض على موضوع العلم نفسه لا على موضوعات مسائله[2]، والتفريق بينهما، فإنَّ مسائل أيّ علم هي عبارة عن تلك القضايا التي تدخل موضوعاتها تحت عنوان جامع كلِّيّ. بينما موضوع العلم هو عبارة عن ذلك العنوان الجامع الذي يشمل موضوعات المسائل[3]. ومن نافلة القول بأن يغدو عنوانًا واحدًا موضوعًا لعلَمَين أو أكثر، كما حصل في موضوع الفلسفة السياسة، وسياسة المدن، ويصبح اختلافهما بالمسائل والغايات، أو أساليب البحث.

ومسائل الفلسفة السياسيَّة هي:

---

(١) صنقور، المعجم الأصوليّ: ٢/ ٣٠٨.

(٢) بزشكي، ماهيَّة الفلسفة السياسيَّة: ١٤٤.

(٣) اليزديّ، المنهج الجديد: ١/ ٧٦-٧٧.

١. المجتمع وطبيعة تركيبه وأصوله ومقوماته.
٢. السَّلطة الحاكمة ومصدرُ شرعيتها وصِفَاتها ومؤهلاتها وواجباتها.
٣. العدالة الاجتماعيَّة وتحقيقها، وبسط التوازن الاجتماعيّ.
٤. المباني الفكريَّة والعقديَّة في تكوين عقل الفرد وأثرها في سلامة المجتمع.
٥. الأخلاق وأهميَّتها في تنشأة الفرد وأثرها في المجتمع.
٦. الدِّين ودوره في تنظيم علاقات الأفراد وانعكاساتها صلاح المجتمع.
٧. القانون وفلسفة تشريعاته، ومقاصده في صناعة سعادة المجتمع المثالي.
٨. قداسة الإنسان وحقه الطبيعي في العيش الكريم.

سادسًا: الخطبة الفدكيَّة (Alkhutbah Alfadakiah)

للسِّيدة الزَّهْرَاءُ عليها السلام خطبتان خطبتها بعد رحيل ابيها رسول الله صلى الله عليه وآله، الأولى: خطبتها أمام الصحابة في مسجد النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، والثانية خطبتها أمام نساء الصحابة من المهاجرين والأنصار عندما عدنها في مرضها.

وموضوع البحث هو الخطبة الأولى المسمَّاة بالخطبة الفدكيَّة، وسبب تسميتها نسبةً لأرض (فدك)[1] التي انتزعها الخليفة الأوَّل من السيِّدة الزَّهراء، بوصفها نِحلة من النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله. والخطبة الفدكيَّة جاءت في مصادر كثيرة من كِلَا الفريقَين، وهي كثيرة، أذكر أهمها هي:

(١) قال ياقوت الحمويّ في معجم البلدان: وفدك قرية بالحجاز، بينها وبين المدينة يومان، وقيل ثلاثة، أفاءها الله على رسوله صلى الله عليه وآله في سنة سبع صلحًا، وذلك أنَّ النبيّ لـمَّا نزل خيبر وفتح حصونها، ولم يبقَ إلَّا ثلث، واشتدَّ بهم الحصار، راسلوا رسول الله يسألونه أن يُنزلهم على الجلاء وفعل، وبلغ ذلك أهل فدك، فأرسلوا إلى رسول الله أن يصالحهم على النصف من ثمارهم وأموالهم، فأجابهم إلى ذلك، فهي ممَّا لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، فكانت خالصة لرسول الله صلى الله عليه وآله، وفيها عين فوَّارة ونخيل كثيرة، وهي التي قالت فاطمة عليها السلام: **إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله نَحَلنِيها**. فقال أبو بكر: أريد لذلك شهودًا. ٦/ ٤١٧.

مصادر أهل السنَّة:

١. أبو الفضل ابن أبي طاهر، ابن طيفور (ت ٢٨٠هـ) في كتابه (بلاغات النساء).
٢. أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ (ت ٣٢٣هـ) في كتابه (السَّقيفة).
٣. أبو الحسن عليّ بن الحسين المسعوديّ (ت ٣٤٦هـ) في كتابه (مروج الذهب).
٤. أبو بكر أحمد بن مردويه (ت ٤١٠هـ) في كتابه (المناقب).
٥. ابن الأثير (ت ٦٠٦هـ) في كتابه (منال الطالب في شرح طوال الغرائب).
٦. ابن أبي الحديد المعتزليّ (ت ٦٥٦هـ) في كتابه (شرح نهج البلاغة).

مصادر الشيعة:

١. أبو جعفر محمَّد بن جرير الطَّبريّ الشِّيعيّ (ت ٤١١هـ) في كتابه (دلائل الإمامة).
٢. أبو القاسم الشَّريف المرتضى علم الهدى (ت ٤٣٦هـ) في كتابه (الشَّافي).
٣. أبو جعفر محمَّد بن الحسن الطوسيّ (ت ٤٦٠هـ) في كتابه (تلخيص الشَّافي).
٤. أبو منصور أحمد بن عليّ الطبرسيّ (ت ٥٤٨هـ) في كتابه (الاحتجاج).
٥. أبو القاسم السِّيد علي بن موسى بن طاووس (ت ٦٤٤هـ) في كتابه (الطرائف).
٦. ابن أبي الفتح بهاء الدِّين الأربلِّيّ (ت ٦٩٢هـ) في كتابه (كشف الغمَّة).

المطلب الأوَّل

الفكر وأثره على فلسفة النظام السياسيّ في الإسلام

لا شكَّ أنَّ كلَّ نظام سياسيّ يُبنى على مبادئ وأصول ينطلق منها الواضع أو المنشئ لذلك النظام، فمثلًا إذا جاء النظام عن طريق الثورة أو الانقلاب، فيكون النظام أسسه هي أفكار ورؤى صاحب الثورة أو الانقلاب، وتكون هي انعكاسة تطبيقيَّة على النظام، وهكذا هو حال الأنظمة السائدة، فهي تستمدُّ أصولها ومبادئها من الأفكار التي بنيت عليها. والنظام الإسلاميِّ هو نظام دينيّ إلهيّ، فبالطبع تكون أسسه وقواعده هي الشريعة التي جاء بها النبيّ صلى الله عليه وآله، وأوَّل أسس الدين وقواعده الأساسية التعرُّف عليه، لذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**أوَّل الدِّين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده..**»[1]. وعليه لا يمكن لأحد أن يتجاهل المعرفة بالمباني الفكريَّة والعقديَّة لأيِّ نظام سياسيّ حاكم في دراسته، لأنَّ النتائج والمخرجات مرتبطة بتلك الأسس والمباني التي وضعت لذلك النظام. وقد يسأل: ما علاقة الدِّين بالسياسة؟ فأجيب بأنَّ السياسة وليدة الدِّين، فإذا صحَّ الدِّين صحَّت السياسة، وسقم الدِّين سقمت السياسة. وكلُّ ما يحدث من استبداد سياسيّ فله أصوله الدينيَّة، والذي يستمدُّ شرعيَّته منها بحسب ما يراه، لذا قال عبد الرَّحمن الكواكبي: «تضافرت آراء أكثر العلماء النَّاظرين في التَّأريخ الطبيعيّ للأديان، على أنَّ الاستبداد السياسيّ متولِّد من الاستبداد الدِّينيّ، والبعض يقول: إن لم يكن هناك توليد، فهما اخوان؛ أبوهما التغلُّب وامهما الرياسة، أو هما صنوان قويَّان؛ بينهما رابطة الحاجة على التعاون لتذليل الإنسان، والمشاكلة بينهما إنَّهما حاكمان؛

(١) الشريف الرضيّ، نهج البلاغة، الخطبة رقم: (١).

أحدهما في مملكة الأجسام، والآخر في عالم القلوب»[1]. ومن هنا صحَّ لي أن أبيِّن الأسس التي وضعتها السيِّدة الزَّهراء عليها السلام في خطبتها الفدكيَّة كمنظومة فكريَّة دينيَّة، ومؤسِّسة لمبادئ الحُكْم السياسيّ الإسلاميِّ، ويستمدُّ منها شرعيَّته في إدارة دولته.

أوَّلًا: المعرفة الأساس الفكريّ للمجتمع

قال السيِّدة الزَّهراء عليها السلام: «**الحمدُ لله على ما أنعم، ولَهُ الشُّكرُ على ما أَلْهَم، والثناءُ بما قدَّم، مِن عمومِ نِعَمٍ ابتدأها، وسُبوغِ آلاءٍ أسْداها، وتَمام مِنَنٍ أَوْلاها، جَمَّ عن الإحصاءِ عددُها، ونأى عن الجزاءِ أمَدُها، وتفاوَتَ عَنِ الإدْراكِ أَبَدُها، وَنَدَبَهُمْ لاستزادَتِها بالشُكرِ لاتِّصالها، وَاسْتحْمَدَ إلى الخلائِقِ بإجْزالِها، وثنى بالندبِ إلى أمثالِه**».

المعرفة تشكِّل الأساس الفكريّ لكلِّ ما سواها من العلوم والمعارف الأخرى، و«تحتلُّ مركزًا رئيسًا في الفلسفة، وخاصَّة الفلسفة الحديثة، فهي نقطة الانطلاق الفلسفيّ لإقامة فلسفة متماسكة عن الكون والعام، فإذا لم تحدَّد مصادر الفكر البشريّ ومقاييسه وقيمه، لا يمكن القيام بأيَّة دراسة مهما كان لونها»[2]. والمعرفة منهج العقل في التَّفكير، فالوقوف عليها لدى شخص معيَّن، أو مدرسة فكريَّة معيَّنة، تمكِّن الدارس من قراءة عقل الشَّخص أو المدرسة، وما ذلك إلَّا لأنَّها تمثِّل العمود الفقريّ لكلِّ منهجٍ أو تفكير[3].

وأوَّل الطرق في معرفة خالق الكون، هو لزوم شكر المنعم؛ لأنَّ العقل النظريّ يحكم على الأشياء بالنظر إلى ماهيَّتها، فيدرك بلزوم ما يترتَّب عليها من آثار، وهذا هو نداء فطريّ موجود في كلِّ إنسان، وتحكم به كلُّ العقول، فكلُّ من أنعم عليك نعمة، يجب عليك شكره بما يتناسب مع النعمة التي منحك إيَّاها، وإذا تخلَّف عن الشكر، فيحكم على صاحب العقل بالجحود. وهذا مبدأ عقلائيّ تتَّفق عليه كلُّ العقول بغضِّ

(١) الكواكبيّ، طبائع الاستبداد: ١١٤.
(٢) الصدر، فلسفتنا: ٦٧.
(٣) الدمنهوريّ، نظريَّة المعرفة: ١٨.

النظر عن ألوانهم ولغاتهم ومجتمعاتهم. وهذا الطريق- الشُّكر- كفيلٌ بأن يقود صاحبه إلى المعرفة بخالقه، وهدايته إلى طريق الصواب.

ولكن المسلمين اختلفوا في هذه البديهيَّة المسلَّمة، فذهب الإماميَّة والمعتزلة حيث ما ذهب إليه العقلاء بأنَّ الحجَّة في المعرفة هو العقل دون غيره، لذا قال الشهرستانيّ: «وقال أهل العدل[1]، المعارف كلُّها معقولة بالعقل، واجبة بنظر العقل، وشكر المنعم واجب قبل ورود السمع»[2]. بينما الأشاعرة وأهل الحديث شطُّوا عنهم، ولجؤوا إلى تقديم النقل على العقل، قال الدَّكتور السَّراجيّ: «فيبالغ هذا الاتِّجاه في رفض العقل والتمسُّك بالنقل كأداة وحيدة للمعرفة الدينيَّة، حتَّى أنَّهم يتباهون ويفتخرون به على غيرهم»[3]. وهذا ما جاء على لسان عبد الله بن أحمد بن حنبل أبيات قال فيها:

ديـــن الـــنـــبـــيّ محـــمَّـــد آثـــار

نـعـم المـطـيـة لـلـفـتـى الأخـبـار

لا تخـدعـن عـن الحـديـث وأهـلـه

فـالـرأي لـيـل والحـديـث نهـار[4]

والسياسةُ هي العامل الأساسيّ في ظهور هذه الأفكار وتفشِّيها في المجتمع، وجعل من أصحابها أئمَّة يُشار لهم، فالمتوكِّل العبَّاسيّ هو من «انتصر لأهل الحديث، وإمامهم أحمد بن حنبل، بعدما كان مذهب المعتزلة هو السائد، وتبنَّى افكارهم، إذ أمعن في اضطهاد المعتزلة، وألقى بهم في دياجير السجون، وأعلن براءة الإمام أحمد بن حنبل، وكرَّمه لقاء ما لقي من سلفه من عنتٍ وقسوة»[5]، ممَّا حدا به إصدار فتاوى تقضي

(١) المعتزلة والإماميَّة يسمَّون بالعدليَّة؛ لأنَّهم جعلوا صفة العدل لله تعالى أصلًا من أصول الدِّين.
(٢) الشهرستانيّ، الملل والنحل: ١/ ٣٨.
(٣) السراجيّ، الأسس الدينيَّة: ١٥٩.
(٤) ابن القيم الجوزيَّة، أعلام الموقعين: ١/ ٦٣.
(٥) السراجيّ، الأسس الدينيَّة للاتِّجاهات السلفيَّة: ٥٣.

بشرعية الحاكم والوقوف معه بكلِّ الأحوال بره وفجوره، قال: «ومن غلب عليهم بالسيف حتَّى صار خليفة وسُمِّي أمير المؤمنين لا يحلُّ لأحد يؤمن بالله أنْ يبيت ولا يراه عليه إمامًا عادلًا كان أو فاجرًا، فهو أمير المؤمنين»[1]. فهذه المحطَّة المهمَّة التي استُغِلَّت من السلطة السياسة انعكست على مسألة الحكم، وآلت إلى نتائج وخيمة، بسبب هذه الأفكار التي لم تُسقَى من معينها الحقيقي الذِّي أسَّسته السيِّدة الزَّهراء بوصفها الامتداد الطبيعيّ للنبوَّة، فالشكر الذي انطلقت منه في خطبتها، هو ما أوجبه العقل على صاحبه من النِّعم الظاهرة والباطنة، وأعطاه قابليَّة الفهم والعلم على معرفتها.

ثانيًا: التَّوحيد وأثره في توحيد المجتمع

قالتْ السيِّدة الزَّهراء: «**وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له، كلمةً جَعَلَ الإخلاصَ تأويلَها، وَضَمَّنَ الْقُلُوب مَوْصولهَا، وأنارَ في التفكُّرِ معقولهَا. الممتنعُ من الأبصارِ رؤيَتُه، ومِنَ الألسُنِ صِفَتُه، ومن الأوْهامِ كيفيَّتُهُ، ابتدعَ الأشياءَ لا من شيءٍ كان قَبْلَها، وأنشأها بلا احتذاءِ أمْثِلَةٍ امتَثَلَها، كَوَّنَها بقدرتِه، وذَرَأَها بمشِيَّتِه، من غيرِ حاجَةٍ منهُ إلى تكوينِها، ولا فائدةٍ لَهُ في تصويرِها، إلا تثبيتًا لحكمتِه، وتنبيهًا على طاعتِه، وإظهارًا لقدرتِه، وتعبُّدًا لبريَّتِه، وإعزازًا لدعوتِه، ثم جعلَ الثوابَ على طاعتِه، ووضعَ العقابَ على معصيتِه، ذِيادةً لعبادِهِ عن نقمتِه، وحياشَةً لهم إلى جَنَّتِه**».

اتَّفق المسلمون من الفلاسفة والمتكلِّمين والمتصوِّفين وسائر المدارس الأخرى بأنَّ الله تعالى واحد لا شريك له، متَّصف بصفات الكمال الواجبة، وأنَّه يتنزَّه عن الصفات القبيحة، وهذا بمجمله لا غبار عليه لقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]، إلَّا أنَّهم اختلفوا اختلافًا كبيرًا في تحديد العلاقة بين الصفات والذات الإلهيَّة، وذلك أنَّ الفلاسفة والمعتزلة والجهميَّة قالوا: إنَّ إثبات صفات قديمة وأزليَّة على الذَّات لله تعالى يدخل الكثرة والتَّعدد في الذَّات الإلهيَّة، فعليه صِفَاته هي عين ذاته

(١) الحنبليّ، الأحكام السلطانيَّة: ٢٠.

لا زائدة عنها. في حين قالت الأشاعرة والماتريديَّة أنَّ صفات الله تعالى هي قديمة زائدة على ذاته، وأنَّ هذا الإثبات لا يؤدِّي إلى تعدُّد وكثرة[١].

وهذا الاختلاف كان عاملًا أَسَاسيًا في شتات الأمَّة، حيث مزَّقها شرَّ ممزَّق، وجعل منها جماعات متناحرة، يكفِّر البعض بعضها الآخر، وتطوَّر الخلاف، وظهرت فرق عُرِفت بالمجسِّمة والجبريَّة والقدريَّة والباطنيَّة والحلوليَّة وغيرهم، وكلُّ هذه الفرق كانت تنطلق من منطلق تفسير صفات الخالق، ومن شدَّة الخلافات وكثرتها، عُرِفت العقيدة الإسلاميِّة بـ(التوحيد والصفات)، بوصفه أشهر أجزائها وأكثرها جدلًا هي العلم[٢].

ولا ننسى بأنَّ العامل السياسيّ كان له دورًا بارزًا في تنمية هذه الخلافات وسقيها وتقريب أصحابها على الحساب الآخر، وهذا ما حدث في إبان حكم المأمون والواثق، قال الشيخ أبو زهـرة: «فلمَّا جاء المأمون، وقد كان يعتبر نفسه من علماء المعتزلة، شايعهم وقرَّبهم وأدناهم، وجعل منهم حجَّابه ووزراءه، وكان يعقد المناظرات بينهم وبين الفقهاء.. ثمَّ انتقل من المناظرات العلميَّة إلى التهديد بالأذى الشَّديد، بل إنزاله بالفعل، فقد كانت فيه المحاولة بالقوَّة لحمل الفقهاء والمحدِّثين على رأي المعتزلة.. لقد حاول أن يحمل الفقهاء على القول بان القرآن مخلوق، فأجابه بعضهم إلى رغبته تقيَّةً ورهبًا، لا إيمانًا واعتقادًا. وتحمَّل آخرون العنت والإرهاق والسجن الطويل، ولم يقولوا غير ما يعتقدون، واستمرَّت تلك الفتنة طول مدَّة المعتصم والواثق، وذلك لوصيَّة المأمون بذلك»[٣]. كلُّ ما حدث إزاء هذه المسألة هو تشظِّي للمجتمع وأرباك أمنه وتعايشه السَّلميّ بين الأفـراد؛ لأنَّ الكفر له تداعيات خطيرة، منها استباحة الدماء.

(١) ينظر: عبد الحميد، دراسات في الفرق والعقائد الإسلاميِّة: ٢٣٢.
(٢) ينظر: التفتازانيّ، شرح المقاصد: ١/ ١٦٤.
(٣) أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلاميِّة: ١٤٠.

فكلُّ ما ذكرته السيِّدة الزَّهراء عليها السلام لم يكن مجرَّد شهادة تُدلى للتبرُّك في صدارة كلامها، كلَّا، بل نابعة من فلسفة قويمة ما أن يلتزم بها المسلمون، تكون لهم نجاة في الدنيا والآخرة، وينعمون بمجتمع آمن خالٍ من المناكفات التي يتغذَّى عليها طلَّاب السلطة. وقد أشار امير المؤمنين عليه السلام لهذا المضمون قائلًا: «**وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات**»[1]. فجعل الإخلاص متمِّماً لنفي الصفات. قال ابن أبي الحديد: «إنَّ الإخلاص له تعالى قد يكون ناقصًا، وقد لا يكون، فالإخلاص الناقص هو العلم بوجوب وجوده، وأنَّه واحد ليس بجسم ولا عرض، ولا يصحُّ عليه ما يصحُّ على الأجسام والأعراض، والإخلاص التَّامُّ هو العلم بأنَّه لا تقوم به المعاني القديمة، مضافًا إلى تلك العلوم السابقة؛ وحينئذ تتمُّ المعرفة وتكمل»[2].

ثالثًا: النَّبوة النظام الأصلح لرئاسة المجتمع

قالت السيِّدة الزَّهراء عليها السلام: «**وأشهدُ أنَّ أبي مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ اختارَهُ قبلَ أنْ أَرْسَلَه، وسَمَّاه قبلَ أَن اجْتباه، واصطفاهُ قبلَ أَنِ ابتعثَه، إِذِ الخلائِقُ بالغيبِ مكنونَة، وبِسترِ الأهاويلِ مصونَة، وبنهايَةِ العَدَمِ مقرونَة، عِلمًا من الله تعالى بمآيِلِ الأُمور، وإحاطةً بحوادثِ الدَّهُور، ومعرفةً بمواقعِ الأُمور، ابتعثَهُ اللهُ إتمامًا لأمرِه، وعزيمةً على إمضاءِ حُكْمِه، وإنفاذًا لمقاديرِ حَتْمِه، فرأى الأُمَمَ فِرَقًا في أديانِها، عُكَّفًا على نيرانِها، عابِدَةً لأوثانِها، مُنْكِرةً لله مع عِرفانِها**».

إنَّ الإنسان مجبولٌ على حبِّ الذَّات، وهذا يجرُّه إلى تخصيص كلِّ شيء بنفسه من دون أن يراعي غيره، والحياة الاجتماعيَّة بهذا الوصف تنتهي إلى التنافس والتناحر بين أبناء الجنس الواحد، فلأجل ذلك لا يقوم للحياة الاجتماعيَّة أساس إلَّا بوضع نظام دقيق ومحكم ومتكامل، يقوم بتحديد وظائف كلِّ فرد وحقوقه، ويشرِّع الحدود والقيود

(١) الشريف الرضيّ، نهج البلاغة: رقم الخطبة (١).
(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١/ ١٢٥.

التي يجب تحرُّك الجميع من أجلها[1]. وتنفيذ ذلك يقضي وجود قانون أو شريعة تأمر وتنهى، ووجود الشريعة يقتضي وجود مشرِّع. وهذا المشرِّع يجب أن يكون مؤيَّدًا من الله تعالى للقيام بهذه المهمَّة الصعبة. ولا يمكن أن يؤتى به عن طريق الانتخاب؛ لأنَّ الانتخاب موقع في الاختلاف[2]. لذا اقتضت حكمة الله تعالى بإرسال الأنبياء لإقامة نظام تنظَّم فيه حياة الإنسان، ويضمن فيه سعادته الدنيويَّة والأخرويَّة.

وقد اختلف المتكلِّمون في الاقتضاء هل إنَّه واجب على الله تعالى أم إنَّه جائز؟ فقد ذهب المعتزلة والماتريديَّة إلى الوجوب، وذهب الأشاعرة إلى الجواز[3]، ولا أدري كيف قالوا بالجواز والنبوَّة تعني النِّظام السعيد للإنسان، وبدونها يكون عرضة للضياع، بل تنتفي حكمة الخالق، وهذا مستحيل على الله تعالى، فينبغي أن يتنزَّه عن فعل ما لا ينبغي فعله من اللهو والعبث. لذا قالت السيِّدة الزَّهراء عليها السلام: «**ابتعثَهُ اللهُ إتمامًا لأمرِه، وعزيمةً على إمضاءِ حُكْمِه، وإنفاذًا لمقاديرِ حَتْمِه**». فقد بيَّنت الرؤية الفكريَّة الصحيحة لتكوين عقلٍ واعٍ ينسج منظومة عقديَّة يعتقد بها المسلم، حتَّى لا يتعرَّض للضياع وامتطاء سياسات الملوك، فهذه الأفكار هي ممَّن ساعدت على إرساء حكم الملوك، وتقوية شوكتهم، وإضفاء الشرعيَّة إلى سلطانهم بأنَّهم ظلُّ الله في أرضه.

مخرجات النبوَّة في الإصلاح المجتمعيّ:

بيَّنت السيِّدة الزَّهراء عليها السلام الإصلاح المجتمعيّ الذِّي مارسه النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله خلال نبوتَّه، حيث قالت: «**فأَنارَ اللهُ بأبي محمَّدٍ ظُلَمَها، وكَشَفَ عن الْقُلُوب بُهَمَها، وجَلى عن الأبصارِ غُمَمَها، وقامَ في الناسِ بالهدايَة، فأنقذَهُمْ من الغوايَة، وبَصَّرَهُمْ من العَمايَة، وهَداهم إلى الدِّين القويم، ودعاهم إلى الطريقِ المستقيم**». فهذه المعالم المشار إليها هي

(١) ينظر: السبحانيّ، الإلهيَّات: ٣/ ٢٤.
(٢) مقلد، نظام الحكم في الإسلام: ٢٢٠.
(٣) ينظر: التفتازانيّ، شرح العقائد النسفيَّة: ١٦٠.

الكفيَّلة بإصلاح المجتمعات وسعادتها، كما أنَّها تعكس أسس الفلسفة السياسيَّة لمبادئ الحكم الصالح في الإسلام، وهذه المعالم هي:

١. الاستنارة من الظلم
٢. الكشف في الإبهام
٣. الجلاء من الغم.
٤. القيام بالأمر.
٥. الهداية من الضلال
٦. الإنقاذ من الغي.
٧. الإبصار من العمى.
٨. الدَّعوة إلى جادة الاستقامة.

هذه النتائج حقَّقها نظام النبوَّة في إدارة المجتمع، بعدما كان في ظلم وضلال وعمى، جاء هذه النظام ليبسط العدالة الإنسانيَّة في المجتمعات، وهذا ما ذكرته السيِّدة الزَّهراء في لاحق كلامها من الخطبة، إذ بيَّنت فيه ملامح وصفات المجتمع الجاهليّ الذِّي سبق مجيء النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، فكانَ حريصًا على إفشاء هذه المخرجات وتطبيقها في أرجاء المجتمعات؛ لتعمَّ السعادة وتحلَّ العدالة الاجتماعيَّة، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

المطلب الثاني

الدستور وفلسفة القانون التَّشريعي في نظام الحكم الإسلاميِّ

مفردة دستور لم ترد في قواميس اللغة العربيَّة، فهي مفردة أصلها فارسيّ، دخلت اللغة العربيَّة عن طريق اللغة التركيَّة. وتعني في اللغة العربيَّة الأساس أو القاعدة، كما تفيد أيضا معنى الإذن والترخيص، ويقابل مفردة دستور في اللغة العربيَّة (القانون الأساسيّ). وأمَّا في اللغة الفرنسيَّة، فتعني (**Constitution**) التأسيس أو التكوين[1].

يعدُّ الدستور الوثيقة الرئيسة التي توضِّح معالم خريطة القوَّة في المجتمع، وله الأوَّليَّة على ما عداه من وثائق أو قوانين، إذا تعارضت القوانين مع أحكامه، فتعتبر باطلة. وجاءت هذه الأوَّليَّة من سيادة النظام المطلق في كثير من بلدان العالم، وكانت جميع السلطات تتركز في السلطة الحاكمة التي تجمع في قبضتها جميع الوظائف التشريعيَّة والتنفيذيَّة والقضائيَّة. وكان أساس هذه السلطة المطلقة أن الحكَّام يستمدُّون حقَّهم من حكم الآلهة، وأنَّهم ظلُّ الله في الأرض، فيفعلون ما يطيب لهم دون حساب أو رقابة. لذلك ليس لأفراد الشعب الظهور بجانب من استمدُّوا حقَّهم من الله، والاشتراك معهم في شؤون الحكم، فنشأ الصراع بين الحاكم والمحكومين، وانتصرت في نهاية الأمر إرادة المحكومين، وباشرت الحكومات سلطتها وفق قواعد موضوعة، وفُرِضت هذه القواعد العليا على الحكَّام وحدَّدت سلطتهم، فظهر نظام

(١) ينظر: المفرجيّ، النظريَّة العامَّة في القانون الدستوريّ: ١٦١.

الدستور[1]. ولهذا عرِّف الدستور على أنَّه: «مجموعة القواعد الأساسيَّة التي تبيِّن شكل الدولة، ونظام الحكم فيها، ومدى سلطتها إزاء الأفراد»[2].

إنَّ وجود الدستور في الدولة يعدُّ الضمانة الأساسيَّة لخضوع السلطة الحاكمة للقواعد الموجودة في الدستور، التي من شأنها أن تنظِّم العلاقة بين الحاكم والمحكومين؛ لتضمن للمحكومين حقوقهم كالحريَّة الفرديَّة والعدالة الاجتماعيَّة وغيرها، فالدستور أحد المقوِّمات الأساسيَّة في الفلسفة السياسيَّة لمبادئ الحكم وإدارة الدولة، وهو مبدأ عقلائيّ يتَّفق عليه عامَّة الناس. ولذا قرن الله تعالى الأنبياء بالشرائع التي تمثِّل الدستور الشامل لجميع القواعد الأساسيَّة التي تنظِّم علاقة الفرد بالمجتمع، من حيث الحقوق والواجبات، ومن أهم تلك القواعد الأساسيَّة، القرآن الْكَرِيم، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨].

أوَّلًا: الدستور الإسلاميّ

قالت السيِّدة الزَّهراء عليها السلام: «**كتابُ الله الناطِق، والقرآن الصادِق، والنورُ الساطِع، والضياءُ اللامِع، بَيِّنَةٌ بصائِرُه، منكشفةٌ سرائِرُه، مُنْجَلِيَةٌ ظواهِرُه، مغتَبِطَةٌ به أشياعُه، قائدٌ إلى الرضوانِ أتّباعُه، مؤدٍّ إلى النجاةِ استماعُه، بِه تُنالُ حُجَجُ الله المُنَوَّرَة، وعزائِمُهُ المُفَسَّرَةُ، ومحارِمُهُ المُحَذَّرَة، وبَيِّناتُهُ الجالية، وبراهينُهُ الكافية، وفضائِلُهُ المندوبَة، ورُخَصُهُ الموهوبَة، وشرائِعُهُ المكتوبَة**».

القرآن الكريم أغنى من أن يعرَّف، والأحكام الواردة فيه، دستوريَّة أو غيرها، تمتاز بالكمال والسُّمو، ولها من القدسيَّة والهيبة والاحترام ما يضمن لها قوَّة الإلزام وحسن الالتزام. ففيه آيات تتكلَّم عن الحكم، والإمارة، والملك، والسلطان،

(١) زيتون، المعجم السياسيّ: ١٧٠.
(٢) رأفت، القانون الدستوريّ: ٣.

والولاية، والسيادة، والقضاء، والحرب، والسلم، والاستشارة، والمعاهدة، وحقوق الأفراد وحريَّاتهم، وحقوق الحاكم، وحقوق أهل الذمَّة من المواطنين، أي مركز الأقليَّات[1].

والسيِّدة الزَّهراء عليها السلام ذكرت خصائص القرآن بوصفه المرجع الشرعيّ الذِّي ترجع إليه الأمَّة من الحكَّام والمحكومين، كما أنَّ الدستور الوثيقة المهيمنة على السلطة الحاكمة، فيُفترض أن يكون القرآن الكريم كذلك، فكلُّ حكمٍ يعارض القرآن الكريم يردُّ على صاحبه مهما علا وكبر؛ لأمورٍ منها:

١. يتَّفق جميع المسلمين في عصمة القرآن الكريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذه العقيدة راسخة في نفوسهم، فالقرآن الكريم هو الحجَّة الكبرى على الجميع، ولا قول فوق قوله.

٢. المخاطب هي فاطمة بنت النبيّ محمَّد صلى الله عليه وآله نزل القرآن الكريم في بيتها، فهي تعلم العام منه الخاص والمجمل والمفصَّل، والمحكم والمتشابه، لا يضاهيها أحد في ذلك، علاوة على هذا مكانتها عند النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، وهذا ما قالته في خطبتها بعد بيان خصائص القرآن الكريم: «**أيُّها الناسُ اعلموا أنِّي فاطمةُ وأبي محمَّد، أقولُ عودًا وبدوًا، ولا أقولُ ما أقولُ غلطًا، ولا أفعلُ ما أفعلُ شَطَطًا**».

٣. المخَاطب هم صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله فهم أهل العلم بالقرآن والتقوى، فليس مثلهم من يجهل أحكام القرآن الكريم، أو أن يتركه خلف ظهرانيهم، لذا قالت: «**أنتُمُ عِبادُ الله نَصْبَ أمرِه ونهيِه، وحَمَلَةُ دينهِ وَوَحْيِه، وأُمناءُ الله على أنفسِكُم، وبُلَغاؤُهُ إلى الأُمَم، زعيمُ حَقٍّ لَهُ فيكُم، وعهدٌ قَدَّمَهُ إليكُم، وبقيَّةٌ استخلفَها عليكُم**».

(١) ينظر: البياتيّ، النظام السياسيّ الإسلاميّ: ٤٩.

٤. إنَّ السيِّدة الزَّهراء عليها السلام استدلَّت في الحِجاج بآيات قرآنيَّة صريحة لا تحتمل للتأويل، أو تحتاج لتعدُّد القراءات، فهي آيات نازلة بلغتهم التي يفهمونها، لم تكن ذات ايحاءات فلسفيَّة أو غيبيَّة، وخصوصًا وأنَّ المخاطبين، وهم الصحابة، كانوا أقرب للنَّبي الأكرم صلى الله عليه وآله من سائر الناس في فهمها.

وأفهم من خصائص القرآن التي ذكرتها السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، وهي لا ليست منحصرة فيه، بل أرادت بُعدًا آخرًا منه، وهو خصائص العِدل الثاني والملازم له، فذكرت الشيء وأرادت منه الشيء الملازم له. وهذا الأسلوب البلاغيّ يرد كثيرًا في كلام العرب؛ لأنَّ القرآن الكريم والعترة الشريفة، هما متلازمان في المفهوم عند الصحابة؛ لأنَّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، ذكر هذا الحديث مرارًا وتكرارًا: «**إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي، أَحَدُهُمَا أَعْظَمُ مِنَ الآخَرِ، كِتَابُ اللهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ، وَعِتْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الحَوْضَ، فَانْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُفُونِي فِيهِمَا**»[1]. فالخصائص التي ذكرتها السيِّدة الزَّهراء هي خصائص أهل البيت، بقرينة قولها: «**كتاب الله الناطق**»، فالقرآن الكريم لم يكن ناطقًا، بل العِدل الثاني، هو من ينطق عنه، وهذا ما ذكره الإمام عليّ عليه السلام في تمرُّد الخوارج ولجوئهم، حيث قال: «**هذا كتاب الله الصامت، وأنا المعبِّر عنه، فخذوا بكتاب الله الناطق، وذروا الحكم بكتاب الله الصامت؛ إذ لا معبِّر عنه غيري**»[2].

وأفهم أيضًا من ذِكر السيِّدة الزَّهراء عليها السلام خصائص القرآن، والاحتجاج به باسترداد حقِّها، وبسط العدالة الاجتماعيَّة، هو وضع المقابل بزاوية حرجة لا يمكن الخروج منها، وهي: إمَّا أن تقبلوا بالقرآن كوثيقة دستوريَّة يلجأ إليها المتخاصمون وتوافقون بمخرجات الحكم بوصف آياته صريحة، وغير قابلة للتأويل. وإمَّا تقولون

(١) سنن الترمذيّ، أبواب المناقب عن رسول الله صلى الله عليه وآله، باب مناقب أهل بيت النبيّ، رقم الحديث: (٣٧٨٨).

(٢) ابن بطريق الحِلِّيّ، العمدة: ٢/ ٢٤٨.

تحتاج إلى تأويل وتفسير، فلا يوجد أحد أفقه وأعلم منها بأحكام القرآن الكريم، وعليه لا بدَّ من أن توافقوا على الشارح للقرآن الكريم، إذا اعترضتم على عدم وضوح الآيات، وأنَّها تحتاج إلى تفسيرٍ خاصٍّ.

وكيف كان، أرادت السيِّدة الزَّهراء عليها السلام أن تعرِّي هؤلاء النفر من الشرعيَّة الدينيَّة التي تلبَّسوا بها، فعدم ركونهم إلى القرآن الكريم، وقبول أحكامه بوصفه دستور معصوم عن الخطأ، هذا بحدِّ ذاته انتهاك لأُطر نظام الحكم الإسلاميِّ، وأنَّ السلطة لا تحترم دستورها، فمن هنا أرادت السيِّدة الزَّهراء أن تقول للأمَّة الإسلاميِّة أنَّ فلسفة النظام السياسيّ في الإسلام ينبغي أن يقوم على أساس صحيح في إدارة الحكم، فكتاب الله هو من يضمن استقامة النظام المجتمعيّ.

ثانيا: الأحكام وفلسفتها

قالت السيِّدة الزَّهراء عليها السلام: «**فجعلَ اللهُ الإيمانَ تطهيرًا لكُمْ من الشرك، والصلاةَ تنزيهًا لكُمْ عن الكِبَر، والزكاةَ تزكيةً للنفس، ونماءً في الرزق، والصيامَ تثبيتًا للإخلاص، والحجَّ تشييدًا للدِّين، والعدلَ تنسيقًا للقلوب، وطاعتَنا نظامًا للمِلَّة، وإمامَتَنا أمانًا للفُرقَة، والجهادَ عزًّا للإسلام، والصبرَ معونَةً على استيجابِ الأجر، والأمرَ بالمعروفِ مصلحَةً للعامَّة، وبِرَّ الوالدَّين وقايَةً من السَّخَط، وصِلَةَ الأرحامِ مَنْسَأَةً في العمرِ ومَنْمَاةً للعَدَد، والقِصاصَ حقنًا للدماء، والوفاءَ بالنَّذْرِ تعريضًا للمَغفرة، وتوفيَةَ المكاييلِ والموازينِ تغييرًا للبَخْس، والنهيَ عن شُرْبِ الخمرِ تنزيهًا عن الرجس، واجتنابَ القَذْفِ حجابًا عن اللعنة، وتركَ السرقَةِ إيجابًا للعِفَّة، وحَرَّمَ اللهُ الشِّرْكَ إخلاصًا لَهُ بالربوبيَّة**».

الدِّين الإسلاميِّ جوهره وحقيقته هو تنظيم حياة الإنسان ونجاته يوم القيامة، لذا فرض الله سبحانه وتعالى مجموعة من الأوامر والنواهي، وهي بمثابة القوانين التي ينبغي الالتزام بها، وجاءت هذه الأحكام أو القوانين في القرآن الكريم، وكذلكَ في

أقوال النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام، وهذه الأحكام على نوعَين: أحكام يراد بها إقامة الدِّين، وهذه أحكام العقائد والأخلاق، وأحكام يراد بها تنظيم الدولة والمجتمع، وتنظيم علاقات الأفراد بعضهم ببعض، وهذه تشمل أحكام المعاملات والعقوبات والأحول.. الخ، ويمكن فهرستها على النحو الآتي:

١. **أحكام عقديَّة**: وهذه الأحكام تتعلَّق بما يجب الإيمان به على المكلَّف اعتقاده في الله والملائكة والكتب والأنبياء والمعاد. أي إنقاذ الإنسان من الشِّرك.
٢. **أحكام خُلقيَّة**: وهذه الأحكام تتعلَّق بما يجب على المكلف أن يتحلَّى به من الفضائل والكمالات، وأن يتخلَّى عن الرذائل والموبقات؛ ليكون إنسانًا صالحًا في المجتمع.
٣. **أحكام عمليَّة**: وهذه الأحكام تتعلَّق بما يصدر عن الإنسان من أقوالٍ وأفعالٍ وعقودٍ وتصرُّفات.

والأحكام العمليذَة تنظم نوعين: تنظيم العلاقة بين الإنسان وربِّه، وهي أحكام العبادات من صلاة وصوم و زكاة وحج ونذر ويمين ونحوها، ومنها: ما ينظِّم العلاقة بين الناس بعضهم ببعض، سواء كانوا أفرادًا أم جماعات أم أممًا، وهي أحكام المعاملات من عقود وتصرُّفات وعقوبات وجنايات وغيرها.

وما يميِّز السيِّدة الزَّهراء عليها السلام في ذكرها لهذه الأحكام أو القوانين الشرعيَّة، هي أنَّها تذكر الحكم وتبيِّن فلسفته الغائيَّة الذي وضع من أجله الحكم أو القانون، وما يراد منه، وكذلك تبيِّن الآثار الاجتماعيَّة أو الأخلاقيَّة المترتِّبة على ذلك الحكم. وهذا يعطي انطباعًا مستساغًا لدى المتلقِّي. ومثاله: إنَّ رئيس الدولة عندما ينهى المرور بهذا الشارع، الناس يمتثلون لهذا النهي، ولكن تبقى في أنفسهم أسئلة لماذا حصل المنع، فالإنسان بطبعه ميَّال إلى التعرُّف على علل الاشياء والوقوف على حقيقتها، ولكن إذا أخبرهم بأنَّ

الشارع فيه صيانة ونريد إخراجه في أبهى صوره، فهنا الإنسان لا تراوده تلك الأسئلة الكامنة في نفسه؛ لأنَّه تعرَّف على سبب المنع.

وأفهم بأنَّ السيِّدة الزَّهراء عليها السلام ذكرت هذه الأحكام، وبيَّنت فلسفتها التشريعيَّة وآثارها العمليَّة؛ لأنَّ موقفها كان موقفًا سياسيًّا معارضًا للسلطة الحاكمة التي تبوَّأت سلطة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله في إدارة الدَّولة، تحت مسمَّى (خليفة رسول الله). نعم بلا شك بأن أساس انطلاقها هي المسؤوليَّة الدينيَّة التي أُلقيت على عاتقها، لكن فيه جنبة سياسيَّة، التي من طريقها أرادت وضع معالم النظام السياسيّ للحاكم الذي يخلف رسول الله صلى الله عليه وآله، وبيان فلسفته التي يقوم عليها، فبيَّنت الأحكام التي هي عبارة عن قوانين لتنظيم علاقة الإنسان، سواء مع ربَّه، أو نفسه، أو مع الآخرين.

المطلب الثالث

الرئاسة والمجتمع في نظام الحكم الإسلاميِّ

السؤال الأهم عن الشخص أو الجهة الأصلح لتولِّي قيادة السلطة السياسيَّة، فقد كان أحد الأسئلة الاكثر ترددًا وبحثًا في الفلسفة السياسيَّة على مرِّ العصور، فقد مال بعض الفلاسفة، مثل الفيلسوف الصينيّ كونفوشيوس، إلى وضع السلطة في يد الإنسان الأرجح عقلًا، الرزين المتَّزن (The Gentleman)، في حين نادى أفلاطون تسليم زمامها إلى الفيلسوف، ومال آخرون إلى وضعها في يد الأقوى، وهذا ما ذهب إليه السفسطائيِّين اليونانيِّين، فانطلقوا من مبدأ (القوَّة هي الحقّ)، إذ جعلوا همَّهم تعليم الناس فنون المنطق والجدل والمغالطة، وبحسبان أنَّ الإنسان كلَّما كانت حجَّته أقوى، فإنَّه سينتصر لا محالة على الآخرين في أيِّ جدال، ويتمكَّن من دحض آرائهم، ولا بأس أبدًا بأن يكون الإنسان مخطأً، ولكن المهم هو من يُفحم خصمه بحجَّته القويَّة. ووفقًا لهذا المبدأ سرت فكرة الأقوى للسلطة السياسيَّة[1]، وهناك ثمَّة أراء لا مجال لذِكرها، كـ(النخبة المثقَّفة)، و(إمضاء الإرادة الشعبيَّة).

ولم يغب عن الفلاسفة التنظير لمسألة طبيعة المجتمع وخصائصه في الفلسفة السياسيَّة وإدارة نظام الحكم، بل جعلوه من أهم المسائل في أبحاثهم، حيث تناولوا نشأته وخصائصه وأقسامه، وكذلك صفاته التي يقيَّم على أساسها بأنَّه مجتمع فاضل أو لا. ومن خلال بحثي ودراستي لخطبة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، وجدت بأنَّها قد حدَّدت

(١) ينظر: أحمد، مدخل إلى الفلسفة السياسيَّة: ٢١٧.

رئيس الدولة، وبيَّنت صفاته التي لم يشاركه أحد فيها، وكذلك بيَّنت طبيعة المجتمع وصفاته وخصائصه، وهذا كلُّه يعطي عاملًا إيجابيًا بأنَّ هذه الخطبة كانت بحقّ خارطة طريق للفلسفة السياسيَّة لمبادئ الحكم في الإسلام.

أوَّلًا: رئيس الدولة

قالت السيِّدة الزَّهراء عليها السلام: «**قَذَفَ أخاهُ في لَهَواتِها، فلا يَنكَفِئ حَتَّى يَطأَ جَناحَها بأَخْمصِه ويُخْمِدَ لَهَبَها بِسَيْفِه، مَكدودًا في ذاتِ الله، مجتهدًا في أمرِ الله، قريبًا من رسول الله، سَيِّدًا في أولياءِ الله، مُشَمِّرًا ناصِحًا، مُجِدًّا كادِحًا، لا تأْخُذهُ في الله لومَةُ لائِم، وأنتُمُ في رفاهيَّةٍ من العيش، وادِعونَ فاكِهونَ آمِنون، تَتَرَبَّصونَ بِنا الدوائِر وتَتَوكَّفُونَ الأخبْار، وتَنْكِصونَ عِنْدَ النزال، وتَفِرُّونَ مِنَ القِتال**».

ذكرت السيِّدة الزَّهراء عليها السلام ملامح القيادة الصَّالحة في التصدِّي للأمر، والأخذ بزمام الحكم، وهذه الملامح هي الخاصَّة بأمير المؤمنين الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، الرئيس الشَّرعي لإدارة الدَّولة ونظام الحكم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو الامتداد الطَّبيعيّ للنِّظام الأصلح (النبوَّة) في الإسلام، الضامن الحقيقيّ لمبدأ سعادة المجتمعات في الدَّنيا والآخرة، كما تقدَّم.

والحديث هنا عن صفات الإمام عليّ عليه السلام بوصفه رئيسًا، كالمحدث عن ضوء النهار الباهر، والقمر الزاهر، الذِّي لا يخفى على الناظر، فمهما أسهبت بالحديث وأطلت بالكلام، فهو ينتهي إلى العجز، ولا يصل إلى الغاية. وأذكر ما ذكره ابن أبي الحديد المعتزليّ: «وما أقول في رجلٍ تُعزى إليه كلُّ فضيلة، وتنتهي إليه كلُّ فرقة، وتجاذبه كلُّ طائفة، فهو رئيس الفضائل وينبوعها، وأبو عذرها، وسابق مضمارها، ومجلي حلبتها؛ كلُّ من بزغ فيها بعده فمنه أخذ، وله اقتفى، وعلى مثاله احتذى»[1].

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١/ ٥٩.

أبرزت السيِّدة الزَّهراء عليها السلام أهمَّ الملامح القياديَّة التي ينبغي أن تتوفَّر في رئيس الدولة، ضمن الفلسفة السياسيَّة لإدارة نظام الحكم في الإسلام. كما بيَّنت الملامح المضادَّة التي تصف بها من تقلَّد الحكم وسادة أمره. فيوجد لدينا اتِّجاهان من قيم الحاكم وصفاته، يختلفان في تحديد مسار الحكم، وينعكسان على أفعاله وإدارته للدولة.

الاتِّجاه الأوَّل: الشَّجاعة، الكدُّ في ذات الله، الاجتهاد في أمر الله، القرب من رسول الله، السيادة، التَّشمير، النصح، الجدّ، الكدح، الحزم.

هذا الاتِّجاه هو الأساس الذِّي انطلق منه كلُّ من كتب في الفلسفة السياسيَّة والتنظير لرئاسة الدولة، ابتداءً من أفلاطون في جمهوريَّته إلى يومنا هذا. نعم تختلف ألفاظهم وتعبيراتهم، إلَّا أنَّ محتوى ما يرمون إليه واحد، فمثلًا بدلًا من أن يذكروا (الله)، يعبِّرون بـ(الفضيلة)، وكلُّ ما ذُكر في الاتِّجاه الأول يندرج تحت مفهوم الزَّهد في الدَّنيا، أو عدم الرَّكون اليها. فاشترط أفلاطون على رئيس الجمهوريَّة «أن يتحرَّروا من حبِّ المال والجاه والأسرة، وأن ينذروا أنفسهم لخدمة البلاد فقط، فلا يجوز أن يكون لهم مال أو عقار أو مخزن، وينبغي أن يتقاضوا أجرهم، بحيث لا يحتاجون إلى مزيد ولا يستفضلون، وليربؤوا بأنفسهم عن الحرص والطمع بالذَّهب والفضَّة»[1].

ومن صفات الإمام عليّ عليه السلام الذاتيَّة التي لم تنفك عنه طيلة عمره، زهده التام في الدنيا، فلم يخضع لمتعة من متع الدنيا، ولم ينعم بنعيمها، حتَّى أنَّهم ذكروا الزَّهاد عند عمر بن عبد العزيز، فقال قائلون: فلان وفلان. فقال عمر بن عبد العزيز: أزهد الناس في الدَّنيا عليّ بن أبي طالب[2]. بل شهد بذلك ألدُّ أعدائه، معاوية بن أبي سفيان، عندما جاءه الثقفيّ، فقال له: جئت من البخيل، ويقصد به الإمام عليّ عليه السلام، فردَّه معاوية قائلًا: «فو الله لو كان له بيتان، أحدهما من تبر، والآخر من تبن، لأنفد تبره قبل تبنه»[3].

(١) مرحبا، من الفلسفة اليونانيَّة إلى الفلسفة الإسلاميِّة: ١/ ١٤٥.
(٢) الدمشقيّ، جواهر المطالب: ١/ ٣١٦.
(٣) الدنيوريّ، الإمامة والسياسة: ١١٢.

ولم نجد رئيسًا في هذا العالم فعل كالإمام عليّ عليه السلام، يكشف عن ذمَّته الماليَّة، كما كشف هو، فقال أبو مخنف: لـمَّا توجَّه أمير المؤمنين عليه السلام إلى الكوفة، قام في أهل البصرة، فقال: **ما تنقمون عليَّ يا أهل البصرة؟** وأشار إلى قميصه وردائه، فقال: **والله إنَّهما لمن غزل أهلي. ما تنقمون منِّي يا أهل البصرة؟** وأشار إلى صرَّة في يده، فيها نفقته. فقال: **والله ما هي إلَّا من غلَّتي بالمدينة؛ فإن أنا خرجت من عندكم بأكثر ممَّا ترون، فأنا عند الله من الخائنين**[1].

فهذه الملامح التي ذكرتها السيِّدة الزَّهراء عليها السلام كفيلة للحكم الصالح لإدارة الدولة، وضامنة لسعادة المجتمع الإنسانيّ؛ لأنَّ الحكومة في نظر هذا الاتِّجاه ليست سوى وسيلة لخدمة المجتمع وصلاحهم، فلم تكن هي المطلوبة بذاتها.

أمَّا الاتِّجاه الثاني: فمؤهلاته هي رفاهية العيش، والترف، والتربُّص بالصالحين، والنكوص، والجبن في المنازلة، والفرار من الجهاد، وهذه كلُّها في الفلسفة السياسيَّة من مظاهر الرَّذيلة.

ثانيا: طبيعة المجتمع

قالت السيِّدة الزَّهراء عليها السلام: «**وكنتُمْ على شَفا حُفرَةٍ من النار، مِذْقَةَ الشارِب، ونهزَةَ الطامِع، وقَبْسَةَ العَجْلان، ومَوْطِئَ الأقدام، تشْرَبونَ الطَرَق، وتَقتاتونَ القِدَّ أذِلَّةً خاسِئين، تخافونَ أنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النّاسُ مِن حَوْلِكُم، فأنقذَكُمُ اللهُ تبارَكَ وتعالى بمحمَّدٍ** صلى الله عليه وآله»[2].

الرَّكيزة الثانية الأساسيَّة في الفلسفة السياسيَّة، هي طبيعة المجتمع الذِّي تسوده الحكومات، والخصائص التي تميِّزه فيما بينه. فكان الهدف التنظيريّ الفلسفيّ السياسيّ هو إيجاد المدينة الفاضلة ضمن شروط هم يضعونها، وإذا لم تتحقَّق تلك الشَّروط، فيحلُّ مكانها المدن الأخرى (التغلُّب)، و(اليسار)، و(الجماعيَّة)، وغيرها.

(١) المفيد، الجمل: ٢٢٤.

بيِّنتْ السيِّدة الزَّهراء عليها السلام طبيعة المجتمع الذِّي سبق مجيء النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، فهو مجتمع مفكَّك متفرِّق، كشربة ماء للعطشان، وسهل كالأكل للجائع، فيطمع بهم كلُّ من يريد ذلك، فهو مجتمع ذليل خسيس، لهم من العادات السيِّئة والأعراف المقيتة هتكت كلَّ المعايير الإنسانيَّة.

إنَّ ثمَّة عوامل مختلفة، كالجهل، وضيق ذات اليد، وجشوبة العيش، وعدم وجود قانون صحيح يحكم الحياة الاجتماعيَّة، وحالة البداوة الموجبة للتوحُّش، والكسل والبطالة، وغير ذلك من الرذائل الأخلاقيَّة كانت قد حوَّلت جوَّ الجزيرة العربيَّة إلى جوٍّ فاسد قاتم، حتَّى أنَّ أمورًا يندى إليها الجبين قد أخذتْ طريقها إلى حياة الجماعة، وراحت تتَّخذ شيئًا فشيئًا صفة العادات المتعارفة، فكانت الغارات وعمليَّات النهب، والقمار، والرِّبا، والأسر، والسَّبي، والوأد، والاعتداء، من الأعمال والممارسات الرَّائجة في حياة ذلك المجتمع، وكان شربُ الخمر ومعاقرتها لا حدود له، هو الآخر من الأعمال القبيحة الشَّائعة لديهم، ولقد ترسَّخت هذه العادة القبيحة في حياتهم إلى درجة أنَّها صارت جزءًا من طبيعتهم[1]، حتَّى قال شاعرهم:

إذا متُّ فادفنِّي إلى جنب كرمةٍ
تروي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنِّي في الفلاة فإنَّني
أخاف إذا ما متُّ أن لا أذوقها[2]

جاء النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله فغيَّر تلكم الطبيعة المترسِّخة، والأعراف الاجتماعيَّة، والعادات القذرة، إلى أمَّة مباركة مرحومة، مدحها الله تعالى، بل جعل منها خير الأمم، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، والحاصل الذِّي

(١) ينظر: السبحانيّ، سيِّد المرسَلين: ١/ ٦٦.
(٢) الجزريّ، النهاية في غريب الحديث والأثر: ٣/ ٤٧٥.

ذكرته السيِّدة الزَّهراء عليها السلام من طبيعة المجتمع، وتحوُّله لأكمل مجتمع، هو راجع إلى القيادة الصَّادقة التي بذلت ما عندها في هدايته، ولذلك أصرَّت السيِّدة الزَّهراء على أن تواصل القيادة ذات المشروع الذي بذله النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، حتَّى لا تضيع جهوده، وفعلا عندما تسنَّم هؤلاء النفر غير المؤهَّلين، أوَّل ما فعلوه هو الهجوم على دار منقذهم من الضَّلال، وحرقه، وقتل السيِّدة الزَّهراء ومصادرة حقِّها. فهذا ما دعاها بأن تنتفض وتضع الخطوط الأساسيَّة لمسألة الحكم في إدارة الدولة، لأنَّ التنازل عنها له تبعات وخيمة يدفعها الإسلام.

ثالثا: العدالة الاجتماعيَّة (The Social Justice)

قالتْ السيِّدة الزَّهراء عليها السلام: «**وأنتُمُ الآنَ تَزْعَمون أَنْ لا إرْثَ لَنا، أَفَحُكْمَ الجاهِلِيَّةِ تَبْغونَ؟ ومَن أحْسَنُ مِنَ الله حُكمًا لِقَوْمٍ يوقِنون! أَفَلا تعلمون؟! بلى قَدْ تَجَلَّى لَكُمُ كالشمسِ الضاحِيَةِ، أَنِّي ابنَتُه، أيُّها المسلمونَ أَأُغْلَبُ على إرْثي؟ يا ابنَ أبي قُحافة، أَفي كتابِ الله تَرِثُ أباكَ ولا أَرِثُ أبي؟ لَقَدْ جئتَ شيئًا فريًا!**».

إنَّ التنظير لمسألة العدالة أحد الركائز الأساسيَّة في الفلسفة السياسيَّة، وهي، العدالة، أهمُّ مسألة بحثها الفلاسفة في التأصيل لإدارة الحكم وبناء الدولة. نجد بأنَّ أفلاطون الذي اشترط أن يكون الحاكم المدينة حكيمًا، فجعل العدالة هي الحكمة التي هي شرط أساسيّ في الحاكم قال: «إنَّ العدالة حكمة وفضيلة، والتعدِّي جهل مطبق، فبسهولة يثبت أنَّها أقوى من التعدِّي»[1]، وقد أسهب الكلام عنها وتناولها بكلِّ حيثياتها.

والعدالة في الفكر الفلسفي السياسيّ هي: فضيلة نفسانيَّة تقوم على ثلاثة أوجه: إذا نُسِبت إلى صاحبها سمِّيت فضيلة، وإذا نُسبت إلى من يعامله سمِّيت عدالة، وإذا اعتُبِرت بذاتها سمِّيت مَلَكة نفسانيَّة، فاستعمال المرء العاقل العدالة على نفسه وعلى

(١) أفلاطون، الجمهوريَّة: ٣٧.

غيره، واجب عليه، وذلك بأنَّ يعدل قواه الكثيرة؛ لأنَّها إن غلبته أهلكته، وهكذا سبيل كلِّ مركب من كثرة، إذا لم يكن له رئيس واحد ينظِّمه ويقوده نحو سعادة الوحدة، التي هي ظلُّ الله، هلك. تتمحور العدالة عند الفلاسفة بالطبع، حول الرئيس العادل الذي يعرف كيف يحكم بين الناس بعدل، وليس العدالة غاية بنفسها، بل هي وسيلة لبلوغ السعادة[1].

أمَّا تحقيقها في المجتمع فـ«إنَّ حفظ العدالة فيما بين الناس لا يتصوَّر بدون هذه الأشياء الثَّلاثة، أي النَّاموس الإلهيّ، والحاكم الإنسانيّ، والدِّينار. وقال أرسطاطاليس: إنَّ الدِّينار ناموس عادل. ومعنى الناموس في لغته هو التدبير والسياسة»[2].

إنَّ الفكرة الأساسيَّة من مضامين العدالة التي طالبت السيِّدة الزَّهراء عليها السلام بتحقيقها في النظام السياسيّ يتجلَّى بأنحاءٍ ثلاث:

الأوَّل: طالبت بتحقيق العدالة على المستوى الشَّخصيّ، وهي إرجاع أرضها المسَّاة (فدك)، فقد صادرتها السلطة الحاكمة دون وجه حقٍّ. وهذا الفعل الشنيع يعدُّ خرقًا لمبادئ الحكم في ظلم أفراد المجتمع.

الثاني: أرادت تحكيم كتاب الله تعالى، بوصفه الدستور الذي يلجأ إليه المتخاصمون في تحقيق العدالة، والمحور الأساسيّ في استقامة النظام السياسيّ الإسلاميِّ، لذا قدَّمت الكثير من الآيات القرآنيَّة في تحقيق مبادئ العدالة، في مسألة الحكم والإرث، إلَّا أنَّ السَّلطة الحاكمة أغلقت قلوبها قبل أسماعها، ولجأت إلى تحكيم الأهواء النفسيَّة، وأضاعوا العدالة.

الثالث: إنَّ السيِّدة الزَّهراء عليها السلام شخَّصت المشكلة الحقيقيَّة في النظام الذي أعقب رسول الله صلى الله عليه وآله، بأنَّه يفتقر إلى العدالة في نفوذ حكمه وسلطته، وهذه المسألة المهمَّة التي

(١) ينظر: مقلد، نظام الحكم في الإسلام: ١٥٢.
(٢) الطوسيّ، أخلاق ناصريّ: ١٩٣.

بحثتها الفلسفة السياسيَّة في التنظير لمسألة الحاكم والمجتمع، وعليه لا يمكن تحقيق السعادة الاجتماعيَّة للمجتمع إذا تعرَّى الحاكم عن العدالة؛ لأنَّ الحكم لا يُطلب لذاته، بل يُطلب لغيره، وهو تحقيق العدالة؛ ليضمن به السعادة للمجتمعات. وهذا ما قاله أفلاطون: «إنَّ الضرورة تحتِّم علينا أن نسلِّم أنَّ كلَّ حكومة لا تُطلب كحكومة، إلَّا ما هو لخير المحكومين، الذِّين أُنيط بها أمرهم»(١).

وهذا ما أكَّدته حكومة الإمام عليّ عليه السلام الصالحة، قال ابن عبَّاس: «دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام بذي قار، وهو يخصف نعله، فقال لي: **ما قيمة هذا النعل؟** فقلت: لا قيمة لها. فقال عليه السلام: **والله لهي أحبُّ إليَّ من إمرتكم إلَّا أن أقيم حقًّا أو أدفع باطلا**»(٢). هذه الفلسفة التي سار عليها الإمام عليّ في ترسيخ مبادئ الحكم وإدارة الدولة، وهذا ما أرادته السيِّدة الزَّهراء عليها السلام من الحكومة التي خلفت النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله.

(١) أفلاطون، الجمهوريَّة: ٣٠.

(٢) الشريف الرضيّ، نهج البلاغة: رقم الخطبة: (٣٣).

النتائج

بعد الخوض في السياسة، وفلسفتها التي أصَّلت ماهيَّة مبادئ الحكم في الإسلاميّ، وحدَّدت طبيعة النظام الذي مارسته السلطة في بناء الدولة، وبيان مشروعيَّة الحاكم في تسنُّمه تلك السلطة، وما له من حقوق وواجبات تجاه المحكومين، وكذلك الوقوف على كينونة المجتمع وخصائصه، فنصل إلى لملمة موضوعات البحث عبر النتائج الآتية:

١. إنَّ الفلسفة السياسيَّة التي رسمتها السيِّدة الزَّهراء عليها السلام في تأصيل الحكم بعد رحيل النَّبي الأكرم صلى الله عليه وآله هي فلسفةٌ نابعةٌ من تلك الأسس التي خطَّها النَّبي الأكرم صلى الله عليه وآله في حياته العمليَّة التي مارسها في إدارة دولته، فكانت عليها السلام بمثابة الخط الطوليّ في امتداد رسالته، والحلقة التكميليَّة لما أراد صلى الله عليه وآله، فنهضتها في حقيقة الأمر هي استرداد تلك الجماعة التي شطَّت عن جادَّة الصواب، وإرجاع النصاب إلى محلِّه الذي أراده الله له، فعليه نستطيع القول بأنَّ فلسفة السِّيدة الزَّهراء السياسيَّة هي فلسفة الإسلام لمسألة الحكم بعينه، وكلُّ ما عداها هو انحرافٌ عن طريق الإسلام الأصيل.

٢. أولت السِّيدة الزَّهراء عليها السلام في فلسفتها السياسيَّة الفكر اهتمامًا بالغًا، وقد فصَّلت القول بمسألة التَّوحيد، وصفات الخالق وأفعاله، كما اشترط من قبل فيلسوف اليِّونان أفلاطون في فلسفته السياسيَّة أن يكون رئيس المدينة حكيمًا، أي يكون ذا فلسفة ونظرة إزاء الوَّجود، فالفكر له علاقة مباشرة في مسألة

نظام الدَّولة، فيكون مدعاةً لهدمها، أو ركيزةً لبنائها. وإذا نظرنا نظرةً سريعةً إلى التَّاريخ الإسلاميّ، نحكم بأهميَّة الفكر وعلاقته بالأنظمة السياسيَّة، وكيف وظَّفت السلطة الفكر في تدعيم الدَّولة.

٣. كلُّ ما كُتب في الفلسفة السياسيَّة، سواء عند السِّيدة الزَّهراء عليها السلام، أو ذكرها المفكِّرون، يتمحور في مثلَّث متساوي الأبعاد، الأوَّل منه: الحاكم، والثاني: المحكومين، والثالث: العلاقة بين الأوَّل والثاني، ولهذا فإنَّ موضوع الفلسفة السياسيَّة لا يتعدَّى هذه الأبعاد الثلاثة، فكلُّ المسائل متعلِّقة بأحد أبعاده، لا غير.

المصادر والمراجع

* خير ما نبتدئ به القرآن الكريم.

ابن أبي الحديد، عز الدِّين عبد الحميد بن هبة الله المعتزليّ (ت ٦٥٦هـ):

٤. شرح نهج البلاغة: (أنوار الهدى، قم المقدَّسة)، ط١، ١٤٢٩هـ.

ابن البطريق، شمس الدِّين يحيى بن الحسين الحِلِّيّ (ت ٦٠٠هـ):

٥. عمدة عيون صحاح الأخبار في مناقب إمام الأبرار: (مكتبة العلَّامة المجلسيّ، قم المقدَّسة)، ط١، ١٤٢٦هـ.

ابن القيم الجوزية، محمَّد بن أبي بكر (ت ٧٢١هـ):

٦. أعلام الموقعين عن ربِّ العالمين: (دار الكتب العلميَّة، بيروت)، ط١، ١٩٩١م.

ابن قتيبة، أبو محمَّد عبد الله بن عبد المجيد الدنيوريّ (ت ٢٧٦هـ):

٧. الإمامة والسياسة: (مؤسَّسة الأعلميّ للمطبوعات، بيروت)، ط١، ٢٠٠٦م.

ابن منظور، أبو الفضل محمَّد بن مكرم الإفريقيّ (ت ٧١١هـ):

٨. لسان العرب: (دار صادر، بيروت)، ط٣، ١٩٩٤هـ.

أبو زهرة، محمَّد:

٩. تاريخ المذاهب الإسلاميَّة: (دار الفكر العربيّ، القاهرة)، ط١، ٢٠٠٩م.

أحمد، محمَّد وقيع الله:

١٠. مدخل إلى الفلسفة السياسيَّة: (دار الفكر، دمشق)، ط١، ٢٠١٣م.

أفلاطون:

١١. جمهوريَّة أفلاطون: ترجمة: حنَّا خباز، (دار القلم للطباعة والنشر، بيروت)، د.ط. د.س.

البخاريّ، أبو عبد الله محمَّد بن إسماعيل بن المغيرة (ت ٢٥٦هـ):

١٢. صحيح البخاريّ: (دار الكتب العلميَّة، بيروت)، ط٦، ٢٠٠٩م.

بزشكي، محمَّد:

١٣. ماهية الفلسفة السياسيَّة في الحضارة الإسلاميِّة: (مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلاميِّ، بيروت)، ط١، ٢٠١٥م.

البياتيّ، منير:

١٤. النظام السياسيّ الإسلاميِّ: (دار النفائس، الأردن)، ط٤، ٢٠١٣م.

الترمذيّ، أبو عيسى محمَّد بن عيسى (ت ٢٩٧هـ):

١٥. الجامع الصحيح سنن الترمذيّ: (دار إحياء التراث العربيّ، بيروت)، ط١، د.س.

التفتازانيّ، سعد الدِّين مسعود بن عمر (ت ٧٩١هـ)

١٦. شرح العقائد النسفيَّة: (انتشارات إمام ربَّاني، إيران)، ط١، ١٣٩٣هـ.ش.

١٧. شرح المقاصد: (عالم الكتب، بيروت)، ط٢، ١٩٩٨م.

التومي، عمر محمَّد الشيبانيّ:

١٨. مقدِّمة في الفلسفة الإسلاميِّة: (دار العربيَّة للكتاب، القاهرة)، ط٣، ١٩٨٢م.

الجزريّ، أبو السعادات المبارك بن محمَّد (ت ٦٠٦هـ):

١٩. النهاية في غريب الحديث والأثر: (المكتبة العلميَّة، بيروت)، ط١، ١٩٧٩م.

الحمويّ، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ):

٢٠. معجم البلدان: (دار إحياء التراث العربيّ، بيروت)، د.ط، د.س.

الحنبليّ، أبو يعلى محمَّد بن الحسين الحنبليّ (ت٤٥٨هـ):

٢١. الأحكام السلطانيَّة: (دار الكتب العلميَّة، بيروت)، ط١، ٢٠٠٠م.

دبوس، بو رجب:

٢٢. تبسيط الفلسفة: (دار الجماهريَّة للنشر والتوزيع، بنغازي)، ط١، ١٤٢٥هـ.

الدمشقيّ، أبو البركات محمَّد بن أحمد الشافعيّ (ت ٨٧١هـ):

٢٣. جواهر المطالب في مناقب الإمام عليّ بن أبي طالب: (مجمع إحياء الثقافة الإسلاميِّة، قم المقدَّسة)، ط١، ١٤١٦هـ.

الدمنهوريّ، أحمد سعد:

٢٤. نظريَّة المعرفة عند أهل السنَّة والجماعة: (دار النور، د.م)، ط١، ٢٠١٨م.

رأفت، وحيد وآخرون:

٢٥. القانون الدستوريّ: (المطبعة العصريَّة، مصر العربيَّة)، ط١، ١٩٣٧م.

زيتون، وضَّاح:

٢٦. المعجم السياسيّ: (دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن)، ط١، ٢٠١٠م.

السبحانيّ، جعفر:

٢٧. الإلهيَّات على هدى الكتاب والسنَّة والعقل: (دار هشام، بيروت)، ط١، ٢٠٠٥م.

٢٨. سيِّد المرسلين: (مؤسَّسة النشر الإسلاميِّ، قم المقدَّسة)، ط٣، ١٤٢٧هـ.

السراجيّ، كريم:

٢٩. الأسس الدينيَّة للاتِّجاهات السلفيَّة: (دار السَّلاَم، بيروت)، ط١، ٢٠١٠م.

سمارة، إحسان عبد المنعم:

٣٠. النظام السياسيّ في الإسلام: (دار يافا العلميَّة، الأردن)، ط١، ٢٠٠٠م.

الشريف الرضيّ، أبو الحسن محمَّد بن الحسين (ت ٤٠٦هـ):

٣١. نهج البلاغة: (مؤسَّسة دار الهجرة، قم المقدَّسة)، ط٣، ١٤٢٥هـ.

الشهرستانيّ، أبو الفتح محمَّد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨هـ):

٣٢. الملل والنحل: (دار الكتب العلميَّة، بيروت)، ط٨، ٢٠٠٩م.

الصدر، محمَّد باقر:

٣٣. فلسفتنا: (مركز الأبحاث والدراسات التخصصيَّة للشهيد الصدر، قم المقدَّسة)، ط٢، ١٤٢٧هـ.

صنقور، محمَّد:

٣٤. المعجم الأصوليّ: (منشورات نقش، قم المقدَّسة)، ط٢، ٢٠٠٥م.

الطباطبائي، محمَّد حسين:

٣٥. بداية الحكمة: (مؤسَّسة النشر الإسلاميِّ، قم المقدَّسة)، ط٢٢، ١٤٢٦هـ.

الطوسيّ، نصير الدِّين (ت ٦٧٢هـ):

٣٦. أخلاق ناصري: (دار الهادي، بيروت)، ط١، ٢٠٠٨م.

عبد الحميد، عرفان:

٣٧. دراسات في الفرق والعقائد الإسلاميِّة: (مطبعة أسعد، بغداد)، ط١، د.س.

الفيروز آباديّ، أبو طاهر محمَّد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ):

٣٨. القاموس المحيط: (مؤسَّسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت)، ط٨، ٢٠٠٥م.

الكواكبيّ، عبد الرحمن:

٣٩. طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد: (دار الكتاب العربيّ، القاهرة)، ط١، ٢٠١٢م.

مرحبا، محمَّد عبد الرحمن:

٤٠. من الفلسفة اليونانيَّة إلى الفلسفة الإسلاميَّة: (عويدات للنشر والطباعة، بيروت)، د.ط، ٢٠٠٧م.

المفيد، أبو عبد الله محمَّد بن محمَّد النعمان (ت ٤١٣هـ):

٤١. الجمل: (د.ن، د.م)، ط١، ١٩٨٣م.

المسعودي، أبو الحسن عليّ بن الحسين (ت ٩٥٧هـ):

٤٢. مروج الذهب ومعادن الجوهر: (دار الكتاب العربيّ، بيروت)، ط١، ٢٠٠٤م.

المفرجيّ، إحسان حميد، وآخرون:

٤٣. النظريَّة العامَّة في القانون الدستوريّ: (المكتبة القانونيَّة، بغداد)، ط٢، ٢٠٠٧م.

مقلد، عليّ:

٤٤. نظام الحكم في الإسلام: (دار الأضواء، بيروت)، ط١، ١٩٨٦م.

النبهانيّ، يوسف بن إسماعيل:

٤٥. مفاهيم سياسيَّة: (منشورات حزب التحرير، د.م)، ط٤، ٢٠٠٥م.

اليزديّ، محمَّد تقي مصباح:

٤٦. المنهج الجديد في تعليم الفلسفة: (مؤسَّسة النشر الإسلاميِّ، قم المقدَّسة)، ط٦، ١٤٢٥هـ.

سماتُ الفكر السياسيّ عند السيِّدة الزَّهراء عليها السلام

الباحثة أحلام كاظم جواد الهنداويّ
طالبة في جامعة النجف الحوزويَّة النسويَّة الإلكترونيَّة

ملخَّص البحث

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله الواحد المعبود، الذي عمَّ بحكمته الوجود، وشملت رحمته كلَّ موجود، وأزكى الصلاة والسلام على نبيِّنا صاحب المقام المحمود والحوض المورود، وعلى آله الرُّكَّع السجود، وعجلَّ يا ودود فرجهم المنشود.

إنَّ للسيِّدة الزَّهراء عليها السلام مكانة ترقى عن محاولاتنا الضعيفة في توثيق ذرَّة من كثيب تراثها الباهر، لكن هي محاولة للتبرُّك بطيب آثارها، وسعي للسَّير على سليم نهجها في متاهات الحاضر المليء بالأشواك والمنغِّصات.

هي سليلة النبوَّة وذبالة مشكاة الأنوار، كانت السَّند لأبيها في كلِّ مفاصل حياته حين قال عنها صلوات ربِّي وسلامه عليهما: «**فاطمة بضعة منِّي فمن أغضبها أغضبني**»، ثمَّ قدَّمت للأمَّة خير ذريَّة بعد مماته، يختم الله بقائمهم الساحة السياسيَّة الكونيَّة والتشريعيَّة.

الحوراء الإنسيَّة التي نصرت إمامها في أصعب منزلقات المسلمين بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله، حيث مزجت بين فكر الحشمة، وضرورة فرض حقِّ إمام زمانها، فانبرت خاطبة ومبيِّنة لما اختلط على المسلمين، كسياسيَّة بارعة تخوض كلَّ الميادين بفكرها وفصاحة لسانها.

من هذا المفصل في حياتها الشريفة، انبثقت فكرة هذا البحث المتواضع (سمات الفكرالسياسيّ للسيِّدة الزَّهراء عليها السلام؛ لبيان إمكانيَّة خروج المرأة إلى معتركات المجتمع للضرورات العقائديَّة، متزيِّنة بحشمة وعفاف السيِّدة الزَّهراء سلام الله عليها، وتوضيح النهج الصحيح في تغيير أفكار المجتمعات، ومواكبة العصرنة بمفاهيم فاطميَّة خالصة.

ويتناول البحث ثلاثة محاور، الأوَّل: توضيح معنى الفكر السياسيّ اصطلاحًا، وإنحاء هذا الفكر في الاتِّجاهات المختلفة، خاصَّة الاتِّجاه الإسلاميّ، والمناهج الأكثر شيوعًا لدى سياسيِّي هذه الاتِّجاهات، ثمَّ يتخصَّص المحور الثاني ببيان الفكر السياسيّ للمذهب الإماميّ، ليتبلور موضوع البحث ببيان فكر السيِّدة الطاهرة، أمَّا المحور الثالث فهو يلملم الفكرة الرئيسة بربط النهج الفاطميّ مع خيارات المرأة المعاصرة، واتِّخاذ السيِّدة الطاهرة أنموذجًا في محاولة التأثير في المجتمع.

الكلمات المفتاحيَّة: سمات الفكر السياسيّ، السيِّدة الزَّهراء عليها السلام.

المقدِّمة

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله ربِّ العالمين عدد أنفاس الخلائق، وأشهد أن لا إله إلَّا الله، وحده لا شريك له، كلمة جعل الإخلاص تأويلها، اللهمَّ صلِّ وسلِّم وزد وبارك على فاطمة وأبيها وبعلها وبنيها والسرِّ المستودع فيها كأفضل ما صلَّيت وسلَّمت وباركت وتحنَّنت على أحد من أنبيائك ورُسلك وخاصَّة عبادك من خلقك.

اللهمَّ وصلِّ على وليِّ أمرك القائم المؤمَّل، والعدل المنتظر، وحفّه بملائكتك المقرَّبين، وأيِّده بروح القدس يا ربَّ العالمين.

«يقول الإمام الخمينيّ قدس سره مخاطبًا زوجة ولده السيِّد أحمد عندما طلبت منه أن يكتب شيئًا عن سيِّدة نساء العالمين عليها السلام: ابنتي العزيزة فاطمة، تريدين من عجوزٍ بائس، خالي الوفاض من المعارف والمعالم الإلهيَّة، ما لا يستطيع العرفاء الكبار والفلاسفة العظام الاقتراب منه. وماذا يستطيع المرء أن يقول أو يُدرك حول شخصيَّة تتمتَّع بآلاف الأبعاد الإلهيَّة، يعجزعن تبيان كلٍّ منها القلم واللسان»[1].

لذا ستكون أي محاولة عقيمة من الأساس للكتابة حول أي مفصل من حياة السيِّدة الطاهرة الزَّهراء عليها السلام، ولكن سأتناول في هذا البحث المتواضع ذرَّة من كثيب فضائل هذه الحوراء الإنسيَّة، لعلِّي أتبرَّك به، ويكون ذخرًا في يومٍ لا ينفع مالٌ ولا بنون، إلَّا من أتى الله عزَّ وجلَّ بحبِّ فاطمة وأبيها وبعلها وبنيها.

(١) الإمام الخمينيّ قدس سره، روح الله، من معين الزَّهراء عليها السلام، شبكة المعارف الإسلاميَّة، ٢٨ تشرين الثاني ٢٠٢٢.

عرفناها الدرَّة المكنونة صغيرة في حضن والدها، تبثُّ النساء عذب عفافها، وقمَّة حيائها، دروس وعبر، تكبر معانيها يومًا بعد آخر بتقادم أيَّام منبعها وكبر سنِّها، فتستتر من الأعمى لتقول إن كان لا يراني فهو يشمُّ ريحي وأنا أراه، وتخرج لتضمِّد جراح أبيها عائدًا من المعارك، منهكًا ممَّا يلاقيه من المشركين، ويغادر قمر سمائها الحياة، ويتركها في مهبِّ رياح الغدر والحقد الجاهليّ.

في هذه المحنة، تنبري عليها السلام لمواجهة الغاصبين لحقِّها، لتطالب بحقِّ إمام زمانها بالتبع، فتتألَّق كسياسيَّة محنَّكة، تقلب الطاولة على رؤوس المعارضين للمنصب الإلهيّ بخطاباتها المؤثِّرة وبيانها اليليغ.

من هذا المحور من حياتها الطاهرة، يتجلَّى موضوع البحث باستقراء النبوغ الذهنيّ والقدرة اللامتناهية على إدارة الأحداث لدى سيِّدة العفاف، وكيف حافظت على الانسجام التامِّ بين العفَّة والانتفاض ضدَّ الظلم، وبين حفظ حقوقها ونصرة زوجها كونه إمام زمانها.

هنا تكمن **أهميَّة البحث** في توعية النساء في وقتنا الحاضر، دراسة تداعيات تلك الفترة لأخذ الخطوط العامَّة للقيام بدورها المنشود الذي أسَّست ركائزه المعلِّمة الأولى للأجيال، التي حرصت على مواكبة التغيُّرات الأخلاقيَّة والسياسيَّة، ومناصرة للقائد الشرعيّ، والدفاع عنه بكلِّ الطرق والوسائل، فينعكس هذا على الواقع الحالي لتكون النساء حريصات على الدفاع عن معارف ومعتقدات إمام زمانها عجل الله فرجه.

أمَّا **إشكاليَّة البحث** فتمحورت حول كون العفاف والستر هو مانع للمرأة من الخروج لتؤدِّي الوظائف التي يتطلَّبها الواقع، ويفرضها التطوُّر الحاصل في المجتمع على كافَّة الأصعدة، وبيان خطأ هذا الادِّعاء، وجعل السيِّدة الزَّهراء قدوة حين خرجت تدافع عن حقوقها المسلوبة.

فكانت **منهجيَّة البحث** متمثِّلة في مبحثَين أساسيَّين:

المبحث الأوَّل: يتناول بيان الأفكارالأساسيَّة للبحث على مطلَبَين، الأوَّل يتكلَّم عن مفهوم الفكر السياسيّ، ماهيَّة الفكر لغةً واصطلاحًا، تعريف الفكر السياسيّ ثـمَّ مفهوم الفكر السياسيّ في الأسـلام، ثـمَّ يضيق نطاق المحور ليتطرَّق للفكر السياسيّ الإسلاميّ عند أبناء العامَّة، ثمَّ الفكر السياسيّ للشيعة الإماميَّة أتباع أهل البيت عليهم السلام.

أمَّا **المبحث الثاني**: سيتخصَّص الكلام هنا ليطرح أمامكم في المطلب الأول ركائز انطلاق فكرة البحث بربط الفكر السياسيّ للسيِّدة الزَّهراء عليها السلام بواقع المرأة المعاصرة، وبيان قبسات من النهج الفاطميّ الرساليّ، لتكون هذه القبسات نورًا ينعكس على سلوك المرأة في مواجهة تحدِّيات الواقع، لتنهض بدورها وتقوم به على أتمِّ وجه، وبأفضل النتائج. والمطلب الثاني في المبحث قطفٌ للثمار بآليَّات ووسائل لمنهجة تغيير سلبيَّات واقع المرأة المعاصرة.

وخاتمة البحث ستحتوي على الفوائد المهمَّة المبتنية على محاور هذا البحث المتواضع الذي كتبته أناملي على مفاتيح حاسوبي، فعذرًا لضعف كتابته؛ لأنَّه مجهود شخصيّ أقدِّمه بين يدي مولاي صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف «كبضاعة مزجاة، ليوف لنا الكيل، وتتصدَّق علينا جدَّته الصدِّيقة عليها السلام، ليجزي الله المتصدِّقين شرفًا فوق الشرف، ورفعةً عند ذي العرش المتين، والحمد لله ربِّ العالمين».

تمهيد

عن أبي عبد الله، عن ابائه عليهم السلام قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **خلق الله نور فاطمة قبل أن يخلق الأرض والسماء.**

فقال بعض الناس: يا نبيَّ الله، فليست هي إنسيَّة؟ فقال: **فاطمة حوراء إنسيَّة.**

قالوا: يا نبيَّ الله، وكيف هي حوراء إنسيَّة؟ قال: **خلقها الله عز وجل من نوره قبل أن يخلق آدم، إذ كانت الإرواح، فلمَّا خلق الله عز وجل آدم، عُرِضَت على آدم.**

قيل: يا نبيَّ الله وأين كانت فاطمة؟ قال: **كانت في حقَّة تحت ساق العرش.**

قالوا: يا نبي الله فما كان طعامها؟ قال: **التسبيح والتقديس والتهليل والتحميد ؛ فلمَّا خلق الله عز وجل آدم وأخرجني من صُلبه، وأحبَّ الله أن يُخرجها من صُلبي، جعلها تفَّاحة في الجنَّة، وأتاني بها جبرئيل عليه السلام، فقال لي: السلام عليك ورحمة الله وبركاته يا محمَّد، قلت وعليك السلام ورحمة الله حبيبي جبرئيل.**

فقال: يا محمَّد، إنَّ ربَّك يقرئك السلام، قلت: منه السلام وإليه يعود السلام، قال: يا محمَّد إنَّ هذه تفَّاحة أهداها الله عز وجل إليك من الجنَّة، فأخذتها وضممتها إلى صدري، قال: يا محمَّد يقول الله جلَّ جلاله كُلها، ففلقتها فرأيت نورًا ساطعًا ففزعت منه، فقال: يا محمَّد ما لك لا تأكل؟ كُلها ولا تخف، فإنَّ ذلك النور للمنصورة في السماء، وهي في الأرض فاطمة[1].

(١) الشيخ عبد الله البحرانيّ، كتاب العوالم، السيِّدة الزَّهراء، ج١١، شبكة الفكر للكتب الإلكترونيَّة.

وانتقلت المنصورة من صُلب النبيّ صلوات ربِّي وسلامه عليه إلى أطهر رحم لسيِّدة نصرت الإسلام بنفسها ومالها، وساندت نبيَّها في دعوة الحقِّ، هي السيِّدة خديجة بنت خويلد عليها السلام، مناضلة بالفطرة، احتضنت في أحشائها المنصورة لتنمو متغذِّية على أسمى المكارم وأرقى القيم، وتزداد نورًا أرضيًّا إلى نورها السماويّ الذي أشرق على الدنيا في العشرين من جمادي الآخرة؛ ليملأها خيرًا متَّصلًا إلى يومنا هذا.

لتبقى المنصورة فاطمة سلام الله عليها قدوة لكلِّ من تريد أن ترتقي مدارج الكمال، نحو سعادة الدَّارَين.

المبحث الأوَّل

المطلب الأوَّل: مفهوم الفكر السياسيّ

يعتبر الفكر السياسيّ من أهمَّ الجوانب التي تضمُّ جملة من النظريَّات والأفكار التي يتمُّ من خلالها توزيع القوَّة والسلطة في المجتمعات والدول، ونشرع ببيان ذلك من خلال:

الفرع الأوَّل: ماهيَّة الفكر لغةً واصطلاحًا

أوَّلًا: الفكر في اللغة:

هو إعمال البال والخاطر لاستخراج الفكرة، قال ابن منظور: الفكر إعمال الخاطر في الشيء.

وقال ابن فارس: الفاء والكاف والراء تردُّد القلب في الشيء.

ثانيًا: تعريف الفكر اصطلاحًا

تعريفه في علم المنطق: المقصود منه «إجراء عمليَّة عقليَّة في المعلومات الحاضرة عنده المناسبة لنوع المشكل، وعندئذ يبحث فيها ويتردَّد بينها بتوجيه النظر إليها، ويسعى إلى تنظيمها في الذهن حتَّى يؤلِّف المعلومات التي تصلح لحلِّ المشكل.

فإذا استطاع ذلك ووجد ما يؤلِّفه لتحصيل غرضه، تحرَّك عقله حينئذ منها إلى المطلوب، أعني معرفة المجهول وحلِّ المشكل.

فتمرُّ على العقل، إذًا، بهذا التحليل خمسة أدوار:

١. مواجهة المشكل (المجهول).

٢. معرفة نوع المشكل، فقد يواجه المشكل ولا يعرف نوعه.

٣. حركة العقل من المشكل إلى المعلومات المخزونة عنده.

٤. حركة العقل، ثانيًا، بين المعلومات للفحص عنها، وتأليف ما يناسب المشكل، ويصلح حاله.

٥. حركة العقل، ثالثًا، من المعلوم الذي استطاع تأليفه ممَّا عنده إلى المطلوب»[١].

«أمَّا المعنى العام للفكر: يُطلق على كلِّ ظاهرة من ظواهر الحياة العقليَّة، ومناط الفكر هو العقل والعقل: (هو قوَّة للنفس، بها تستعد للعلوم والإدراكات)، وعرَّفوه بأنَّه (جوهر تُدرك به الغائيات بالوسائط والمحسوسات المشاهدة).

والتفكير: (هو نقل الحسِّ بالواقع إلى الدماغ بواسطة الحواس، ووجود معلومات سابقة يفسَّر بواسطتها هذا الواقع).

فلا يمكن أن يكون هنالك تفكير في قضيَّة ما إلَّا بوجود أربعة أشياء:

أ. دماغ إنسان. ب. واقع محسوس. ج. الحواس السليمة. د. المعلومات أو المعرفة الأوليَّة السابقة.

فالواقع ينتقل بما له من صفات بواسطة الحواس إلى الدماغ، والدماغ يربط بين المعاني والمحسوسات، معتمدًا على المعلومات الأوليَّة السابقة، ثمَّ بعد ذلك يصدر حكمه على الواقع، ذلك الحكم يسمَّى (فكرًا)، وبأصدار الحكم تتمُّ عمليَّة التفكير، وبدون وجود المعلومات السابقة لا يمكن أن يحصل التفكير»[٢].

(١) الشيخ المظفر، محمَّد رضا، كتاب المنطق، ص٢٤-٢٥، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ١٩٦٨.

(٢) الدكتور أيسر فائق الحسنيّ الآلوسّي، المدخل لدراسة الفكر الإسلاميّ، ص٢، محاضرات للمرحلة الأولى، كليَّة العلوم الإسلاميَّة، الرمادي.

الفرع الثاني: الفكر السياسيّ

فهو مجموعة من الأفكار والمبادئ والآراء السياسيَّة التي تعاقب المفكِّرون من الناحية التاريخيَّة في طرحها طبقا لاحتياجات مجتمعاتهم وظروفهم التي تأثَّروا بها وعاشوا فيها.

ولذلك فإنَّ أبرز ما يميِّز الفكر السياسيّ ارتباطه الدائم بالتطوُّر الذي شهدته المجتمعات، والظروف التي مرَّت بها ودفعتها إلى طرح وابتكار أفكار سياسيَّة متنوِّعة كانت محلَّ جدل ونقاش واسع، وكانت أيضًا موضع التجربة باستمرار.

مراحل الفكر السياسيّ:

المرحلة الأولى: تعدُّ مرحلة الفكر السياسيّ القديم ممَّا قدَّمته لنا الحضارة اليونانيَّة والحضارة الرومانيَّة، وكذلك الحضارة الصينيَّة القديمة، حيث تركَّز الفكر في هذه المرحلة على تحديد طبيعة العلاقات بين المواطنين والدولة، وضرورة وجود قيم وأخلاقيَّات للحكم في المجتمعات.

ومن أشهر سياسيي هذه المرحلة المفكِّر اليوناني سقراط الذي تتلمذ على يد سقراط.

المرحلة الثانية: هي مرحلة العصور الوسطى التي ساد فيها الفكر السياسيّ المسيحيّ والإسلاميّ، وركَّزت على البحث في العلاقة بين الدين والدولة، وكيفيَّة تنظيمها.

حيث ركَّز المفكِّرون السياسيُّون المسيحيُّون، ومن أهمِّهم المفكِّر مارسيليو دي بادوا، على ضرورة فصل الدين عن الدولة، بسبب إساءة الكنيسة استخدام الدين، ممَّا أدَّى إلى عدم استقرار الدول في أوروبا، ومرورها بعصور الظلام والتخلُّف.

أمَّا الفكر السياسيّ الإسلاميّ، فقد ركَّز على أهميَّة ارتباط الدين بالدولة، حيث ترى الشريعة الإسلاميَّة عدم إمكانية الفصل بينهما، بل يجب أن تخضع الدولة لتعاليم

الإسلام وممارساته في مختلف مناحي الحياة. وهذا الارتباط يعد عامل استقرار الدولة.

المرحلة الثالثة: هي مرحلة عصر النهضة في أوروبا، حيث شهدت قيام الثورة الصناعيَّة، وظهور الدول القوميَّة.

تركَّز الفكر السياسيّ في هذه المرحلة على كيفيَّة البحث في الشكل الأفضل والأنسب للحكم، واهتمَّ المفكِّرون بتحديد القيم والحريَّات العامَّة التي يجب أن تسود في كلِّ مجتمع، ومن أبرزها قيم الحريَّة والديمقراطيَّة.

المرحلة الرابعة: هي المرحلة الممتدَّة من مطلع القرن العشرين وحتَّى يومنا المعاصر، تميَّزت بظهور الثورة العلميَّة التكنولوجيَّة والاتِّصاليَّة في العالم بالشكل الذي نعرفه اليوم.

في هذه المرحلة ظهرت المذاهب السياسيَّة الكبرى المعاصرة، وأبرزها المذهب الليبراليّ الرأسماليّ، والمذهب الاشتراكيّ[1].

المطلب الثاني: الفكر السياسيّ الإسلاميّ

الفرع الأوَّل: الفكر السياسيّ عند أبناء العامَّة

هو الفكرالمنظِّم، أي الذي ينهج أصحابه أحد مناهج المعرفة السياسيَّة الثلاثة: المنهج الاستنباطيّ، والمنهج الاستقرائيّ، والمنهج العلميّ التجريبيّ، وإلى جانب كونه منظِّم، فهو أصيل إن صاحبه ابتدَعَه، ولم ينقله عن أحد.

أمَّا أصل الفرق بين الفكر السياسيّ عند أبناء العامَّة والفكر الشيعيّ، من منظور أبناء العامَّة، وفقا للباحث محمَّد يسري أبو هدور، فإنَّ علماء الشيعة حاولوا قديمًا وحديثًا أن يثبتوا أنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله قد أوصى بالخلافة لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ومن بعده تكون الإمامة في الأئمَّة الأحد عشر، حسب الأدلَّة العقليَّة والنقليَّة، ويرفض

(١) الدكتورة حنَّا عيسى، مقالة في مجلَّة المدينة الإخباريَّة الإلكترونيَّة.

الشيعة مبدأ الشورى يوم السقيفة، وما تبعه من فكر سياسي للدولة.

وهنا نقرر، إعمالًا للموضوعيَّة، أنَّ مفكِّري أهل السنَّة والجماعة لم يكونوا على درجة واحدة في تمثيلهم للأصالة المستمدَّة من القرآن والسنَّة، لذلك يمكن تصنيف المفكِّرين فيهم إلى ثلاثة فرق:

الفريق الأوَّل: وهو الفريق الذي تأثَّر تأثُّرًا بالغًا بالفكر اليونانيّ (أو بالثقافة الفارسيَّة)، ولا أصالة لهذا الفريق في الفكر السياسيّ الإسلاميّ فهم مجرَّد ناقلون، أمثال الكنديّ، والفارابيّ.

الفريق الثاني: وهو الفريق الذي كتب أصحابه كتبًا مداراةً ومراءاةً ونفاقًا للحكَّام، ويقول أصحاب هذا الفريق (أصحاب مدرسة الصبر): في حالة خروج الحاكم في قراراته عن الكتاب والسنَّة أن يصبر المحكومين على جَوره، وألَّا يثوروا عليه، وعلى الله الجزاء، ومن هذا الفريق ابن المقفع في كتابه الأدب الكبير، والغزالي في كتابه التبر المسبوك في نصيحة الملوك[1].

الفريق الثالث: وهو الفريق الذي يمثِّل أصالة الفكر السياسيّ الإسلاميّ، المستمد من الكتاب والسنَّة، وهم مجموعات، **الاولى**: تمثِّل قمَّة الأصالة الإسلاميَّة باتِّخاذها الكتاب والسنَّة مصدرًا لا تحيد عنه أبدًا، مثل: شهاب الدين ابن الربيع، وآخرون اتَّبعوا المنهج الاستنباطيّ.

المجموعة الثانية: ويمثِّلها، لوحده، ابن ظفر الصقلِّيّ في مؤلَّفه سلوان المطاع في عدوان الاتباع، حيث انطلق في كتابه هذا في تصوير قواعد لفن أصول الحكم من الواقع، فكان إمامًا للواقعيَّة السياسيَّة، لارتباطه الشديد بالواقع عند تصويره لقواعد فن أصول الحكم، لذا فإنَّ منهجه يعتبر منهجًا استقرائيًّا (اختباريًّا)، وله السبق على

(١) الدكتور عادل فتحي عبد الحافظ، كتاب الفكر السياسيّ الإسلاميّ، ص٨، دار الجامعة الجديدة، الإسكندريَّة، ٢٠٠٢.

يافلي الإيطاليّ بحوالي أربعة قرون.

المجموعة الثالثة: نهج أصحابها منهجًا جديدًا لم يسبقهم إليه أحد، حيث تناولوا عالم السياسة بواقعه الحقيقيّ، وليس بما يجب أن يكون، مستهدفين تفسير ظواهره، فكانوا بذلك نموذجًا للمنهج العلميّ التجريبيّ في الفكر الإسلاميّ، وفي مقدِّمتهم ابن خلدون في مقدِّمته الشهيرة[1].

الفرع الثاني: الفكر السياسيّ الإسلاميّ عند الشيعة

إنَّ السياسة بمعنى «تنظيم أمور دنيا الناس على أحسن وأرفه وجه»، هي من صميم الإسلام، وهو مضمون قوله تعالى في وصف الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[2].

وإذا أمعنَّا النظر في التاريخ الإسلاميّ المشرق عبر القرون المتمادية، وبشكل خاص تاريخ رسول الله صلى الله عليه وآله، وتاريخ وصيِّه أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام وأولاده الأئمَّة الطاهرين عليهم السلام، سنطَّلع على مكان السياسة الصحيحة في الإسلام.

وعند مطالعة القرآن الكريم وكتب التفسير والحديث، سنرى الرصيد الفكريّ السياسيّ الضخم الذي تركه الإسلام للمسلمين، وللعالم اجمع.

جاء في الحديث الشريف في وصف الأئمَّة عليهم السلام: «**انتم ساسة العباد**»[3].

وأوَّل مصداق لهذه السياسة هي شجاعة الرسول صلى الله عليه وآله الأكرم في مواجهة المشركين ونشر الدعوة بثبات، متجاهلًا أذاهم ومحاولاتهم في إغرائه حتَّى لو جعلوا الشمس عن يمينه والقمر عن شماله، واستمرَّ النهج السياسيّ المحمَّديّ في مسيرته متسلِّحا بنصرٍ من الباري عزَّ وجلَّ، ليصل إلى قمَّة الازدهار، ويبني أعظم حضارة شهدها العالم، مستعملًا

(١) الدكتور عادل فتحي عبد الحافظ، كتاب الفكر السياسيّ الإسلاميّ، ص١٦.

(٢) سورة الأعراف: ١٥٧.

(٣) الشيخ أبو جعفر محمَّد الطوسيّ، تهذيب الاحكام: ج٦، ص٩٥، باب٢٢، دار الكتب الإسلاميَّة، طهران، ١٣٦٥هـ.

الرحمة والوفاء والصبر، فهو حقًّا صاحب الخلق العظيم الـذي لم يدانيه أحد من الخلق.

«كان رسول الله محمَّد صلى الله عليه وآله سيِّدًا لساسة العالم، وأكبر سياسيّ محنَّك، فهو تلميذ الله تعالى، وأستاذ جبرئيل، وسيِّد الأنبياء عليهم السلام ومعلِّم البشريَّة أجمعين.

حيَّرت سياسته العقول، وأشخصت أبصار العالمين، وبهذه السياسة الحكيمة استطاع الرسول صلى الله عليه وآله أن يجمع حول الإسلام أكبر عدد ممكن من البشر، في مدَّة قصيرة أدهشت التاريخ، وأركعت حكماء العالم لها إجلالًا وتقديرًا، حيث نسجِّل بعض النماذج والمقتطفات من سياسة النبيّ صلوات ربِّي وسلامه عليه:

سياسة الاستقامة والصمود، سياسة الشجاعة، سياسة العفو العظيم، سياسة إكرام الوفود، سياسة الوفاء، سياسة الرحمة الشاملة، سياسة العفو للعدو والصديق»[1].

إنَّ جذور الفرق بين الفكر الإسلاميّ عند الشيعة وأبناء العامَّة هو يوم السقيفة، يوم غصب حقِّ الإمامة الإلهيّ من مولانا عليّ بن أبي طالب عليه السلام، لكنَّ أبناء العامَّة يقولون إنَّه حقٌّ ديمقراطيّ للخلافة الراشدة.

وحقيقة الخلاف في الإمامة كاتِّجاه سياسيّ فاصل بين السنَّة والشيعة يتَّسع باتِّساع المسافة الفاصلة بين الإسلام كدين ينطلق من الوحي، وبين الإسلام كتجربة ساهم في تكوينها الظرف التاريخيّ والبُعد النفسي، وعليه من الصعب العثور على قواسم مشتركة تقرِّب مفهوم الإمامة بين الطَّرَفين، فالمفهوم الشيعيّ للإمامة يتأسَّس على حالة من القطيعة مع واقع التجربة التأريخيَّة، بعكس المدارس الأخرى التي استلهمت وعيها من واقع تلك التجربة.

(١) آية الله السيِّد صادق الشيرازيّ، السياسة من واقع الإسلام، ص٤٥، ٥٠، ٧٣، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠.

«منذ وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله وانتقاله إلى الرفيق الأعلى، بدأ تباين حاد على مستوى الحكم والإدارة، ليشمل التباين تفاصيل العمل السياسيّ، في تحديد هويَّة الحاكم، وانتمائه القبليّ. فهل هو محصور بالمهاجرين والأنصار؟ وهل هناك معايير حدَّدها الإسلام لبيان شخصيَّة الحاكم؟ أم كلّ واحد من الصحابة يصلح أن يكون حاكمًا؟ وكيف يمكن الوصول إليه؟ هل عن طريق أهل الحلِّ والعقد، أم بالشورى المطلقة، أم بالشرعيَّة لمن غلب؟.

كلُّ هذه الأسئلة يكتنفها الكثير من الغموض في التاريخ السياسيّ لأهل السنَّة الذين رجَّحوا مشروع الشورى على مشروع الإمامة، ممَّا يعني أنَّ المسار السياسيّ عندهم لم يكن يسير وفقًا لخطط أرست معالمها الرسالة، وإنَّما كانت خطوات مرتجَلة تمليها الظروف التأريخيَّة.

إن كانت الشورى هي الطريق لاختيار الحاكم، واعتبرنا السقيفة هي أوَّل تجربة للشورى، كيف يمكن أن نفهم اختيار الخليفة الثاني؟ وإن تجاوزنا المرحلة الأولى لندخل إلى النظام الملكيّ الذي أسَّس له بنو أميَّة وبنو العبَّاس، تتزاحم حينها الأسئلة والإشكالات.

وهكذا لا يمكن أن نضع اليد على تصوُّر واضح ومنضبط لنظام الحكم في الإسلام، ومع ذلك نجدهم قد أصبغوا حالة من القداسة على ما وقع وأصبح هو المرجع لأي عمل سياسيّ إسلاميّ.

في مقابل ذلك نجد الرؤية السياسيَّة الشيعيَّة تسير عكس ما وقع تأريخيًّا، وقدَّموا تصوُّرهم الذي ينطلق من فكرة الإمامة القائمة على النصِّ والتعيين، والبُعد العقديّ لهذه الفكرة، هو أنَّه لا يمكن صناعة نظام للحكم وفرضه بوصفه تعبيرًا عن إرادة الله، طالما لم يكن بأمر من الله وتعيينه»[1].

(١) محمَّد فاضل المسعودي، الأسرار الفاطميَّة، ص٢٧١-٢٧٢، مؤسَّسة الأنوار الفاطميَّة.

سيكون الكلام اختصارًا لآهات وغصص مرَّت بسياسة علويَّة مكمَّمة، نراها جليَّة في كلماته عليه السلام في بعض خطبه، حيث قال: «**أما والله لقد تقمَّصها فلان، وإنَّه ليعلم أنَّ محلِّي منها محلَّ القطب من الرحى، ينحدر عنِّي السيل، ولا يرقى إليَّ الطير؛ فسدلت دونها ثوبًا، وطويت عنها كشحًا. وطفقت أرتئي بين أن أصول بيدٍ جذَّاء أو أصبر على طخية عمياء، يهرم فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير، ويكدح فيها مؤمن حتَّى يلقى ربَّه، فرأيت أنَّ الصبر على هاتا أحجى، فصبرت وفي العين قذى، وفي الحلق شجى**»[1].

وبالرغم من رفض الإمام عليه السلام للفكر السياسيّ للخلفاء، لكنَّه كان خير عون لهم وللمسلمين في حلِّ المشاكل والأمور التي تصعب على القضاة، وثبتت له مواقف عديدة في إحقاق الحقِّ والحكم الفصل، واستمرَّ الأئمَّة عليهم السلام على ذات النهج، مطبِّقين لشريعة جدِّهم رسول الله صلى الله عليه وآله، متحمِّلين جَور الحكَّام، وقضوا عليهم السلام بين مسمومٍ ومقتولٍ، وآخرهم عجل الله فرجه نازح يرى الخلق ولا يرونه، يملأ الأرض قسطًا وعدلًا بعد أن امتلأت ظلمًا وجورًا.

وبين كلِّ هذه الظلامات، نلحظ الأثر البالغ للظليمة الأساس في تاريخ الإسلام، وهي ظلامة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام بعد غياب قمرها وذهاب حضنها الدافئ، أنكر المسلمون حقَّ إمامهم الإلهيّ بالامامة، وغصبوا حقَّها باستملاك نحلتها فدك بأحاديث موضوعة.

من هنا تصدَّت البضعة الطاهرة عليها السلام لتنبيه المسلمين بضرورة استرجاع عقيدتهم المغفول عنها بمراحل سيشرحها بعونه تعالى المبحث الثاني.

---

(١) الشيخ محمَّد عبده، شرح نهج البلاغة،خطب الإمام عليّ عليه السلام، ج١، ص٣١. دار الذخائر، قم، إيران، ١٤١٢.

المبحث الثاني

الفكر السياسيّ للنهج الفاطميّ

إنَّ من أبرز المراحل التي تجسَّد فيها الفكر السياسيّ للنهج الفاطميّ، هي مرحلة ما بعد وفاة النبيّ صلوات ربِّي وسلامه عليه؛ لأنَّها كانت أمام موقف عصيب، لتخلِّي القوم عن الدفاع عنها، وعن التنصيب الإلهيّ للامام عليّ عليه السلام، وغصب نحلتها، فقامت عليها السلام بالمطالبة بحقِّها في فدك، تمهيدًا للمطالبة بحقِّ الإمامة المغصوب، فسيكون الحديث عن هذا في مطلبَين:

المطلب الأوَّل: تجلِّيات الفكر السياسيّ للسيِّدة الزَّهراء عليها السلام

الفرع الأوَّل: سمات النهج الفاطميّ في حياة أبيها صلى الله عليه وآله وبعد وفاته

إنَّ الإحاطة بتفاصيل النهج الفاطميّ، وفهم معطياته، أمر صعب ممتنع ذاتًا، فهو كمن يريد أن يحتوي ضوء الشمس في بودقة، لكن لا بأس بفتح كوَّة صغيرة نطلُّ منها على غيض من فيض، نستلهم منه دروس وعبر ترفع الهمَّة وتقوِّي العزيمة.

أوَّلًا: معنى كلمة سمات

مفردها (سمة)، لغةً: هي المصدر من وسم، هي علامة، وتأشيرة (سمة دخول).

سمة شخصيَّة: خصلة أو سجيَّة، ما يمكن أن يُعتَمد عليه في التفريق بين شخص وآخر.

ثانيًا: مفهوم السمة اصطلاحا

تعتبر نظريَّات السمة من أبرز النظريَّات التي حاولت دراسة الشخصيَّة وفهم أبعادها وجوانبها، والتنبُّؤ بسلوكها، والتي اهتمَّ بها الباحثون في الكثير من المجالات؛ لأنَّها وسيلة أو أداة مهمَّة لفهم وتحليل السلوك البشريّ، وهناك ثلاث مراحل يمكن المرور بها من أجل الوصول إلى مفهوم السمة.

المرحلة الأولى: تعزى السمة إلى السلوك الذي يقوم به الفرد في العديد من المواقف، إذ إنَّنا نميل إلى وصف السلوك بجملة وصفيَّة، كأن تقول إنَّه يعمل بثقة، أو إنَّه حذر في معاملاته أو إنَّه عدوانيّ عندما يتنافس مع آخرين، أي إنَّنا في هذه المرحلة نعزي السمة إلى سلوك لا إلى نفس الشخص.

المرحلة الثانية: تتضمَّن أن نقوم بنسب السمة إلى الشخص الـذي يقوم بالسلوك، كأن تقول إنَّ الشخص واثق من نفسه، أو شخص حـذر، أو شخص عدوانيّ.

المرحلة الثالثة: يمكن تعيين مفهوم الصفة أو السمة بعد إمكانيَّة وصف الشخص نتيجة ملاحظة سلوكه لمرَّات متكرِّرة، فنشير إلى هذه الصفة ونعطيها اسم، فنقول إنَّ الشخص لديه سمة الثقة بالنفس أو سمة الحذر(١).

ونتطرَّق الآن إلى النهج الفاطميّ، حيث ترجمت الصدِّيقة الطاهرة عليها السلام بحياتها القصيرة الأمد، النهج المحمَّديّ الأصيل، والتعاليم الإسلاميَّة الحقَّة.

ولدت السيِّدة الزَّهراء عليها السلام في العشرين من جمادى الآخرة من السنة الخامسة للبعثة النبويَّة، في أحضان النبوَّة، ترتوي من معين الأب الحنون أصول الرسالة ومعارف الوحي، ومن أمِّها السيِّدة خديجة عليها السلام دروس الصبر والإيثار، فنشأت فاطمة الإنسيَّة عليها السلام سيِّدة متكاملة الصفات ومتناسقة التصرُّفات.

(١) الديوان، لمياء، مقالة عن معنى السمة في علم النفس الرياضي، مركز الكتاب للنشر، ٢٠٠٩.

كانت عليها السلام ومنذ نعومة أظافرها رمزًا للعفَّة والحياء، ودرسًا للنساء، حين صرَّحت أن خيرًا للمرأة أن لا ترى رجلًا ولا يراها رجل، وهي التي تلبس الحجاب أمام الأعمى؛ لأنَّها تراه، وإن لم يكن يراها.

كانت خير سند لأبيها صلوات ربِّي وسلامه عليه، في نشر رسالته، وتسليته عمَّا كان يبدر من الأذى وسوء التصرُّف من المشركين، كانت تؤازره في السلم والحرب، تودِّعه إلى ساحات الحرب بوجهها المستبشر، وتستقبله بعد عودته، تمسح وتضمِّد جروحه الكريمة، وتهوِّن آلامه ومتاعبه.

كلُّ هذه العناية والرفق بنبيِّ الرحمة صلى الله عليه وآله جعلتها سلام الله عليها تستحقُّ وبجدارة كنيتها «أمّ أبيها»[1]، الاسم الذي يتضمَّن العديد من الدلالات والاستحقاقات، «فكلمة أم هو الأصل كما هو معروف في لسان القران الكريم، حيث عبَّر عن مكَّة المكرمة بـ(أم القرى)، أي أصل القرى في الجزيرة العربيَّة. ومنها انطلقت روح الحياة كي تغذِّي القرى ومن حولها وتقوم برعايتها، وذلك لما لها من موقع جغرافيّ مهم في قلب الجزيرة العربيَّة، ممَّا جعلها قطب الرحى لبقيَّة القرى.. على هذا الأساس نفهم معنى هذا الحديث (أم أبيها)، حيث نستطيع تفسير أنَّ فاطمة عليها السلام كانت مصدر ذريَّة رسول الله صلى الله عليه وآله ومنبع نسله، والامتداد الطبيعيّ له سيكون عن طريقها امتدادًا للرسالة السماويَّة، لذا كان الرسول يقول: (**حسين منِّي وأنا من حسين، أحبَّ الله من أحبَّ حسينًا**)، أي إنَّ الحسين ابني وامتدادي الطبيعيّ، فهو قرَّة عيني وثمرة فؤادي، وفي نفس الوقت أنا من حسين. إنَّ هذا الامر يعني استمرار الرسالة وإحياء معالم الدين والعقيدة، إنَّما هو بوجود الحسين وذريَّة فاطمة من الأئمَّة المعصومين، لذلك قيل إنَّ الإسلام محمَّديّ الوجود حسينيّ البقاء»[2].

---

(١) ابن المغازليّ، عليّ بن محمَّد، المناقب، ص٣٩٢، دار الآثار، صنعاء، اليمن، ٢٠٠٣.

(٢) الشيخ محمَّد فاضل المسعوديّ الأسرار الفاطميَّة، ص٢٧١-٢٧٢.

هذا التقرير المحمَّديّ لحجيَّة السيِّدة الطاهرة عليها السلام، هو إسناد لدورها بعد وفاة أبيها وغياب قمرها، لتتصدَّى وحيدة لاسترداد حقِّها، ليس فقط الماديّ في فدك، بل حقّ زوجها وإمام زمانها العقائديّ في الولاية الإلهيَّة.

فبعد أن تمادى القوم، صار لزاما عليها أن تقف وقفتها، وتخرج بنفس تلك العفَّة والحياء التي تستَّرت بها عن الأعمى، لتخطب فيهم وترجعهم لرشدهم، وتبيِّن انحرافهم التشريعيّ والعقائديّ كسياسية محنَّكة عكست مقدرة فذَّة في أدارة المواقف.

الفرع الثاني: الأدوار الرساليَّة في النهج الفاطميّ

عاشت السيِّدة الزَّهراء عليها السلام منذ طفولتها آلام أبيها صلوات ربِّي وسلامه عليه، وتفاعلت مع هذه الآلام، حيث كانت تواسيه باستقباله عند عودته من المسجد، والقوم قد ألقوا أمعاء الجزور على ظهره، بالعاطفة، وتغسل ذلك عنه.

تفجَّرت حنانًا عليه، وغمرته بحنان عوَّضه عن آلام فراق والديه في الطفولة، وفَقد السيِّدة خديجة عليها السلام في الكبر، حيث شعر بأمومتها لا أمومة الجسد، لكن أمومة الروح، فهي منبع للعطف على جميع الناس.

وتتطوَّر حركتها الإصلاحيَّة بتعليم النساء كلُّ ما ينهل به عليها أبوها ومعلِّمها، لتصنع جيلًا مستعدًّا لاعداد مجتمع قياديّ في رحاب هذه الأمَّة التي جعلها الله خير أمَّة أُخرجت للناس، ثمَّ تنتقل عليها السلام من مكَّة إلى المدينة مع الفواطم؛ لتدخل ميدانًا جديدًا تكميليًّا لدورها الرساليّ الذي خلقها الله عزّ وجلّ لتؤدِّيه، ودرَّبها نبيّها وأبيها لتستمرَّ به في زمانها حاضرةً وبعد رحيلها، سراجًا للنساء، بل لكلِّ الخلق من بعدها.

«تحملَّت عليها السلام مع الفواطم مشاقَّ السفر وآلام الترقُّب لما كان ينتظر المسلمين في المدينة من تحدِّيات جديدة مع تهديدات قريش المستمرَّة، فدخلت بيتها مع زوجها عليًّا عليه السلام لتكمل معاناتها في إرساء دعائم أكمل مثال للأسرة المسلمة، هي تعجن وتخبز، ووهو يكنس ويستقي ويحتطب، فمن منكم مستعد لأن يكنس البيت؟ استمرَّ النهج

الفاطميّ بالتغيُّر تبعًا لاحتياجات الواقع؛ لتكون مثالًا رائعًا للمرأة المعاصرة، وليس للمرأة في زمانها فقط»[1].

وتستمرُّ المعاناة بعد فقدان حضنها الدافئ وقمرها الزاهر؛ لتتحوَّل لياليها وأيَّامها ظلامًا وظلمًا، لتنبري باتِّخاذ موقفها الحاسم ضدَّ مشروع السقيفة، وترفض محاولات القوم اغتصاب الحقِّ المنصوص عليه لزوجها وإمام زمانها، حيث تجلَّت الأحقاد الجاهليَّة والنعرة العنصريَّة، وترك القوم نبيَّهم مسجَّى، ولم يبادروا لدفنه، إلَّا عليًّا عليه السلام، واسرعوا لتقاسم السلطة.

«وقد آل موقفها الرافض بشكلٍ صريح لمشروع السقيفة إلى المشادة والتجاذب بنحوٍ كان مهيِّجًا لجماعة السقيفة ومُربكًا لهم، كما هو ملحوظ في إقدامها على الخطبة في مسجد النبيّ صلى الله عليه وآله، والذي كان يعتبر الساحة الأولى لتدبير الحكومة والخلافة، وموقع الصفوف الأولى لإدارة الدولة الإسلاميَّة، وما ألقته من كلمات وتعبئة مثيرة للأنصار ولعموم المسلمين.

حتَّى أنَّ ابن أبي الحديد ينقل حالة الوضع بعد خطبتها، أنَّ الانصار صاروا في حالة نفسيَّة معبَّأة للتحرُّك في وجه الخليفة الأوَّل، حتَّى خشي من انقلاب الوضع.. وكانت في هذه المواجهة وحيدة انفردت عليها السلام بها، إلى درجة لم يكن أمير المؤمنين عليه السلام تسمح له الظروف القيام بها، بسبب اشتباك الأحوال من تعقيدات يصعب، بل يمتنع، على عامَّة الناس التفكير في الموازنة، واتِّخاذ الموقف المناسب، والتمييز بين الحقِّ منها والزائف الزائغ، بحيث لو قام عليه السلام بهدم الزيغ، ما ازداد الأمر إلَّا تعقيدًا.

وعدم انبرائه للدفاع عن فاطمة عليها السلام كان بسبب الخوف من تعقيد الأمور في بصيرة المسلمين والأجيال اللاحقة، فيزداد التباس الحقِّ بالباطل، وتختلط الأوراق، ويظنُّون بعليّ عليه السلام انجراره نحو الدنيا كما هو حال أصحاب السقيفة،

(١) السيِّد محمَّد حسين فضل الله، مقالة في الموقع الرسميّ عن السيِّدة الزَّهراء عليها السلام (بتصرُّف).

همُّهم الحرص على الدنيا والرئاسة، فيدبُّ الشكُّ في أهل الدين، فتتزلزل العقيدة بالإسلام»[1].

من هنا يتَّضح أنَّ قعود الإمام عليه السلام عن نصرة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام ليس ضعفًا، بل هو عين القوَّة في معالجة الأزمة، وكان تصدِّي الصدِّيقة أكثر جدوى في التأثير في النفوس؛ لمكانتها الكبيرة، حيث نرى القوم استنكروا قول الرجل: وإن.. حين طلب إحراق الدار، وردُّوه قائلين: إنَّ فيها فاطمة.

وسط كلِّ هذه الظروف العصيبة، تجسَّدت بجلاء الشخصيَّة السياسيَّة للسيِّدة الزَّهراء فكرًا وسلوكًا، فكان لخطبتها عليها السلام صدى في النفوس إلى وقتنا هذا، ليس كونها سيِّدة نساء العالمين فقط، بل كانت حينها سيِّدة الخلق والامتداد الإلهيّ لابيها صلوات ربِّي وسلامه عليه.

حيث دخلت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والإنصار، حين ألقت خطبتها المعروفة بالفدكيَّة، كانت تذكر البيان للتوحيد بما ليس ملموسًا عند الأذهان البشريَّة، وتكشف أسرارًا لظرائف التوحيد ما لم يكن معروفا في العرفان المتداوَل آنـذاك، ثمَّ بيَّنت ضرورة الـشرع والشريعة، وبيَّنت مقامات النبيّ صلى الله عليه وآله في العوالم السابقة والتعينات الخلقيَّة للأشياء، وهذه من المعارف التي لم يزاح الستار عنها من قبل.

استطاعت روحي فداها بكلماتها فضح المشاريع المستقبليَّة التي قد تتَّخذ السقيفة أساسًا، وحمت الصيغة الإسلاميَّة المحمَّديَّة في نظام الحكم، لئلَّا تختلط الأوراق وتتشابك الدعاوى، وقد استفادت عليها السلام من مقامها ومكانتها في نفوس المسلمين، والتي بناها القرآن الكريم، وكذلك تأكيدات النبيّ صلى الله عليه وآله.

---

(١) السيِّد محمَّد عليّ الحلو والسيِّد محمَّد صالح الموسويّ التبريزيّ، الوراثة الاصطفائيَّة، ص٣٦٩-٣٧١، الأميرة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ٢٠١٢.

استنهضت عليها السلام الأنصار عسكريًّا للوقوف أمام تواطؤ السقيفة، وأخذت تعبِّئهم بقولها عليها السلام: «أيها بني قيلة، أأهضم تراث أبي وأنتم بمرأى منِّي ومسمع، ومنتدى ومجمع».

وأمَّا كلامها في حثِّهم على المواجهة المسلَّحة مع جماعة السقيفة، فقولها عليها السلام للأنصار أيضًا: «**سرعان ما أحدثتم، وعجلان ذا إهالة، ولكم طاقة بما أحاول، وقوَّة على ما أطلب وأزاول؟ أتقولون: مات محمَّد؟ فخطب جليل..** ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، **تلبسكم الدعوة، وتشملكم الخبرة، وانتم ذوو العدد والعدة، و الاداة والقوة، وعندكم السلاح والجنة، توافيكم الدعوة فلا تجيبون، وتأتيكم الصرخة فلا تغيثون، وانتم موصوفون بالكفاح، معروفون بالخير والصلاح**».

وهذه الالفاظ في خطبتها صريحة في دعوتها لاستنهاض الانصار عسكريا[1].

وقد ذكر ابن ابي الحديد:

«أنَّه سأل أستاذه النقيب أبي يحيى جعفر بن يحيى بن أبي زيد البصريّ، قلت: فما مقالة الأنصار؟ قال: فهتفوا بذِكر عليّ، فخاف، أي أبا بكر، من اضطراب الأمر فنهاهم»[2].

من خلال الطرح المتقدِّم اتَّضح لنا الدور الرساليّ السياسيّ للصدِّيقة الكبرى سلام الله عليها، وتجلِّيات هذا الفكر والسلوك السياسيّ في الساحة قديمًا وحديثًا، وانعكاسه على واقع المرأة المعاصرة، في حين جعلت من هذا النهج طريقًا عمليًّا لحياتها، وحين تراعي المرأة الوسطيَّة والاعتدال في ترسيخ الإيمان الحقيقيّ والإخلاص في متعلِّقات حياتها كافَّة، ستكون قد عكست النهج الفاطميّ في مفاصل حياتها، وللحديث تتمَّة

(١) السيِّد محمَّد عليّ الحلو والسيِّد محمَّد صالح الموسويّ، الوراثة الاصطفائيَّة، ص٢٧٥.

(٢) ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢١٥: ١٦. المكتبة الشيعية الالكترونية.

في المطلب الثاني، حيث سنذكر بتفصيل أكثر محوريَّة دور المرأة المعاصرة كترجمة حديثة للنهج الفاطميّ.

المطلب الثاني: انعكاس النهج الفاطميّ في شخصية المرأة الممهدة

طالما كان هناك سعي حثيث للثبات على التطبيق الحقيقيّ للسنَّة النبويَّة المتمثِّلة بتعاليم أهل البيت عليهم السلام، وخصوصًا مدرسة الصدِّيقة الكبرى عليها السلام لتكون السبيل الأمثل للفوز بسعادة الدَّارَين، والحصول على رضا إمام زماننا عجل الله فرجه، وأبرز الخصائص لهذا الموضوع تتجلَّى في:

الفرع الأوَّل: دور المرأة المعاصرة وتحدِّيات الواقع

لقد تميَّز الخطاب القرانيّ باحترام دور المرأة وتفعيله بشكلٍ واضحٍ في مختلف مجالات الحياة، وحين ابتدع الله الإنسان وخلقه وجعله في أحسن تقويم، كانت المرأة شريكته في نعمة الوجود، نشأت معه من نفسٍ واحدةٍ، وبحقيقة واحدة وجوهر إنسانيّ واحد وتجلَّى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾.(1)

وجعل لها الشأن الملموس في تهيئة الأجيال لأداء الدور الأسمى في مسار الحياة ومعتركاتها، لذا توجَّب عليها أن تتصدَّى للتعلُّم وإحراز أرقى الدرجات في العلوم؛ لأنَّ لها ذلك الأثر الفعَّال في الأسرة بشكل خاص، والمجتمع بشكل عام.

وأهميَّة دورها لا تقلُّ عن دور الرجل في وقتنا هذا في التمهيد للظهور المبارك من خلال الإعداد النفسيّ والسلوكيّ من أجل التغيير، وساعدت النظرة الإسلاميَّة المحوريَّة على مرِّ التاريخ في كون المرأة شريكة الرجل في الإنجاز والكسب وحقِّ التعلُّم؛

(1) سورة الحجرات: ١٣.

لتتمكَّن من مواجهة الهجمة الإعلاميَّة الشرسة، ونلحظ هذا من خلال الحديث النبويّ الشريف في كتاب بحار الأنوار «**العلم فريضة على كلِّ مسلم ومسلمة**».

ومن أهمِّ العلوم الواجب على المرأة أن تتعلَّمها ما يتعلَّق بالمعارف اللازمة للدفاع عن كيان الإسلام، حيث تستعين بها لحماية معتقداتها، والتصدِّي للغزو الثقافيّ، أمَّا باقي العلوم، وأن تتسلَّح دائمًا بالإخلاص في النيَّة في عملها؛ لأنَّه الأساس في نجاح الأعمال، والأمر الثاني هو الالتزام بالعفَّة والحياء في ميادين الاختلاط والتعلُّم؛ لتحافظ على ميزان منضبط من التطوُّر في ظلِّ الالتزام بالتعاليم الدينيَّة، وأن تتَّخذ من المناسبات الدينيَّة والشعائر فرصة لبثِّ الوعي وتطبيق الشريعة.

«المرأة جزء من الكيان البشريّ، تشملها عوامل التغيير، وتنشأ لدى ذاتها الرغبة في التكامل، وهي قابلة للتأثير والتأثُّر خلال مسيرتها الحياتيَّة، ولا بدَّ من توافر العوامل المساعدة لينعكس دورها الإيجابيّ في تحويل فكر المجتمع نحو الحاجة لوجود الإمام عجل الله فرجه الشريف، والعمل على التمهيد لظهوره بإعداد الإنسان المهِّد.

ومن المعلوم أهميَّة ما يمثِّله الدور الدعويّ في المجتمعات، سواء كانت كبيرة أو صغيرة، لأنَّ المجتمع الإيمانيّ يعي أهميَّة التمهيد للظهور، بيد أنَّه قد ينزلق وراء زخم الحضارة والتمدُّن، لذا يبرز أهميَّة دور المرأة في مجتمعها، غير أنَّ هذه المرأة الرساليَّة حين تنهض بهموم هذا المجتمع، وتنتهج منهج التمهيد، تستعمل تعاليم دينها، وكذلك قوَّة المنطق.

فالمدرسة التي اعتمدت على مثل السيِّدة زينب صلوات ربِّي وسلامه عليها، لتقوم بذلك الدور المحوريّ الحاسم الذي لعبته في ثورة الامام الحسين عليه السلام، حيث عاشت معه آلامه قبل استشهاده، وتعرَّضت لما هو أقسى حين سُبِيت، لكنَّها وقفت صامدة أمام الأعداء بثبات الإيمان وقوَّة الفصاحة، لتثبت للأمَّة قوَّة المنهج الذي تنطلق منه سلام الله عليها.

وبالنظر لدور أمّها البتول الطاهرة صلوات ربّي وسلامه عليها، حين مطالبتها بفدك، لم تكن هي مقصد فاطمة عليها السلام، بل الخلافة الإسلاميّة التي كانت حقًّا لزوجها عليّ ابن أبي طالب عليه السلام، ولا نغفل دورها عليها السلام في المجتمع حين تصدَّت لتعليم النساء أحكام الشريعة، ودورها داخل بيتها في تنشأة جيل من الأئمّة والأوصياء، وقيامها بواجبها تجاه زوجها والعناية بمنزلها؛ هذه المدرسة تعطي للمرأة نموذجًا هامًّا يوضِّح أهميَّة الدور الذي يمكن أن تشغله المرأة في غرس قيم الثورة العالميَّة في المجتمع، وفي بنات جنسها بتوجيهه نحو أهداف التمهيد، واتَّجهت جهوده للتغييرالذي يحقِّق آمال البشريَّة»[1].

وإحدى ثمار هذه المدرسة العريقة في يومنا هذا، هو المشروع التبليغيّ للزيارة الأربعينيَّة، حيث حظي باهتمام كبير؛ لما يمثِّله من دور بارز في النهوض بالواقع المتردِّي بتطبيق النهج الفاطميّ، وتمثَّلت الجهود بمدارس تتولَّى إعداد المبلِّغات، بالاضافة إلى المجهود الجبَّار في تغطية الساحة ماديًّا ومعنويًّا أثناء أيَّام الزيارة.

وهنا نتساءل: ما هي نسبة تحقيق غرض هذا المشروع في الواقع؟ ما هو سقف الطموح؟ وما هي حيثياته؟ وجواب هذه الأسئلة سيكون موضوع الفرع الثاني.

الفرع الثاني: التبليغ الدينيّ أبرز تجلِّيات النهج الفاطميّ

الخطاب الدينيّ هو سمة الأنبياء والأوصياء، حيث كان ومازال وسيلة إيصال أوامر الإله إلى خلقه، وتطوَّرت أساليبه واختلفت ميادينه بتطوُّر الواقع، وصولًا إلى يومنا الحاضر؛ حيث تبلورت فكرة مشروع التبليغ الدينيّ وإعداد مبلِّغات قادرات على إيصال المعرفة الدينيَّة إلى المجتمع؛ ليكون انعكاسًا للنهج الفاطميّ في التوعية والتعليم.

(١) الصالح، هدى محمَّد مهدي، بحث: محورية دور المرأة ونمط الحياة، مؤسَّسة اينده روشن، ١٣٩٦.

أوَّلًا: معنى التبليغ

هو الإيصال، وبإضافة الدين إلى مفردة التبليغ، فيؤوَّل المعنى إلى إيصال ما يرتبط بالدين من معارف إلى قلوب الناس، لتحصيل عنصر الهداية والخضوع لله سبحانه فيهم، فيؤوَّل المعنى إلى إيصال ما يرتبط بالدين من معارف إلى قلوب الناس، لتحصيل عنصر الهداية والخضوع لله سبحانه فيهم.

فيكون خطاب التبليغ مؤثِّرًا على العقل والقلب، وهو الخطاب الاقتضائيّ، لا الفعليّ بما هونحو خطاب يؤثر.

في صحيحة الحلبيّ عن الإمام أبي عبد الله عليه السلام، قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«**ألا أخبركم بالفقية، حق الفقية من لم يُقنِط الناس من رحمة الله، ولم يؤمِّنهم من عذاب الله، ولم يرخِّص لهم في معاصي الله، ولم يترك القرآن رغبةً عنه إلى غيره**»[1].

ذكرت هذه الرواية أهم النقاط المطلوبة في أسلوب التبليغ، المبلِّغة، بشكل خاص، وإن كانت ذكرت الفقيه بالخطاب، فليس المقصود اقتصار ذلك على الفقيه التخصُّصيّ، بل يمكن التعدِّي منها إلى غيره، فيشمل (المبلِّغ) بنحوه الأعم.

وحينئذ ينبغي الالتفات إلى ما تنطوي عليه حقيقة التبليغ، فهي ليست ظاهرة معلوماتيَّة بحته، بل هي الإفهام والبناء والتغيير؛ ليلامس خطابها العقل أو القلب أو كلاهما معا، فيتحقَّق هدف الأنبياء.

«إذن: خطاب التبليغ (منهجٌ للتغيير والأصلاح)، وهو المعلِّم الأوَّل لهويَّته، والذي يتمحور حول:

١. زيادة المعرفة الدينيَّة عند المخاطَب.

٢. تفعيل القيم الدينيَّة في المجتمع.

(١) الكلينيّ، محمَّد بن يعقوب، كتاب الكافي، ج١، ص٢٦، مكتبة نور الإلكترونيَّة، قسم عقيدة الشيعة، ٢٠٢٠.

ملاحظة: ينبغي عدم استهلاك الخطاب الدينيّ في تكرار بعض القضايا الفقهيَّة، فإنَّ من أشدِّ ما يحتاجه المجتمع المعاصر هو إحياء المبادئ والقيم، ولا بدَّ من الذكاء العاطفيّ في الترويج لها، وعدم الاعتماد على الكتب الأخلاقيَّة المتخصِّصة في تهذيب النفس، واتِّخاذ الاستفادة من المصادر الأخلاقيَّة التي تعالج المنظومة الاجتماعيَّة»[1].

قد ذكرت الرواية المباركة مبدأ الأعتدال، وتجنُّب الإفراط والتفريط تجاه الصفات الجماليَّة والجلاليَّة للباري سبحانه، ورغم ذِكرها لصفَتَي الغضب والرحمة؛ إلَّا أنَّ ذلك لايقتضي الجموديَّة، بل يمكن انتزاع صفات أخرى ترسم خارطة الخطاب، وإليك بيان ذلك:

١. (صفة الرحمة تستدعي مجانبه الإقناط من رحمته تعالى): جَرت العادة في الخطاب الداعويّ الدينيّ على الإفراط في استعمال مبدأ التخويف من عذابه سبحانه، رغم أنَّ صفة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله البشيرالنذير.

٢. صفة الغضب تستدعي عدم التأمين من مكره تعالى: ما ذكرناه سابقًا لا يعني قبول نظريَّة (الأسلام الرحمانيّ)، وتغييب صفات الجلال الباري سبحانه، بل ينبغي الحفاظ على قوَّة الدين، وقد ورد في الموروث الدينيّ (مَن أَمِن العقوبة أساءَ الأدب).

وقد يتوهَّم المبلِّغ ضرورة جذب الناس وإن كان على حساب الدين، فيكون مبدأ المجاملة حكمًا للجذب، ولكنَّه مبدأ مرفوض، فالإسلام لا يعجزه الجمع بين حقَّانيَّته وحدوده، وبين كسب العقول والقلوب، فيتعيَّن إدراك تلك المعادلة للموازنة بينهما.

---

(١) الموسويّ، عالية، بحث: التبليغ الدينيّ بين الطموح والواقع الفعليّ، ص٥، ألقته في مؤتمر في حسينيَّة الحجَّة عجل الله فرجه بكربلاء، بتاريخ ١٥/ ٩/ ٢٠٢٢.

ثانيا: آليَّات في تطوير العمل التبليغيّ

يعُتبر الكلام من أهمِّ الوسائل المؤثِّرة في النفوس، فهو يحاكي العقل والنفس، وقد تتضيَّق في بعض الظروف سبل الاستعانة بغيره، كما في الزيارة المليونيَّة التي تضطرب فيها كلُّ وسائل التعبير والتحشيد والخطاب، وتبقى الكلمة هي الناشطة بين الحشود، ممَّا يستدعي ذلك الاهتمام بتقويته، وإجادة مادَّته وأساليبه، ولذلك ينبغي:

- سعي المبلِّغ الشخصيّ لتطوير مهارته البحثيَّة والكتابة والتأليف.
- إعداد لجنة علميَّة ينخرط تحت لواءها مجموعة من المبلِّغين لإعدادهم بشكل علميّ وممنهج لهذا الهدف، وتعليمهم فنَّ الكتابة والتأليف.
- الاستعانة بالمنبر الحسينيّ لاستقطاب النفوس والانتباه، فإنَّه خير معين لتهيأة ظرف إصغاء واستماع الجمهور.
- تمظهر الخطاب الدينيّ (بالقصَّة الواقعيَّة أو الرمزيَّة)، وقد كانت التجربة دليل على نجاح هذا الأسلوب.
- تأسيس منظومة تبليغيَّة تعالج مشاكل التواصل الاجتماعيّ، فكما أنَّنا نملك ولله الحمد التبليغ الحسيني الذي أنعش المذهب الشيعيّ، فكذلك نحتاج تأسيس تبليغ اجتماعيّ يرصد الإيجابيَّات والسلبيَّات والمشاكل والظواهر فيه[1].

بعد بيان آليَّات تطوير المشروع التبليغيّ الذي ساهمت فيه ولسنين طويلة العديد من الجهات الفاعلة بدءًا بالمرجعيَّة الدينية، وحتَّى أبسط مدرسة دينية، سنتطرق لموضوع مهم من صميم واقع المجتمع المعاصر، والتطوُّر السلبيّ في عادات مجتمعنا.

(١) الموسويّ، عالية، بحث: التبليغ الدينيّ بين الطموح والواقع الفعليّ، ص٢٥.

وسائل وأفكار للتبليغ في مناسبات الفرح والأعياد[1]:

- إظهار الفرح ونشر مظاهره في الأعياد الإسلاميَّة ومناسبات فرح المسلمين، واستغلال هذه الأيَّام بصلة الرحم والتزاور ونبذ الخلافات والأضغان، ممَّا يعكس صورة الإسلام المشرقة ورحيميَّة الدين.
- مجانبة أجواء اللَّهو والمجون والخلاعة والمخالطة ومظاهرها، والنهي عنها بالنحو المقدور.
- حملات توعية ضدَّ مظاهر الاحتفال المزعجة والمؤذية والمنبوذة كالألعاب الناريَّة، والسهرات الماجنة، والتعدِّي على راحة الناس.
- ترك الاحتفال والمشاركة بما كرَّسته الثقافات الغربيَّة من الأعياد، حتَّى على مستوى المسايرة والمُدارة؛ وإظهار جميع مستويات الإنكار لها يدًا وقلبًا ولسانًا.
- إقامة ندوات ومحاضرات وحوارات في المناسبات المذكورة في الفقرة السابقة تعرِّف المسلمين إلى الموقع الذي ينبغي أن يكونوا فيه، والموقف الذي لا بدَّ من اتِّخاذه بالنسبة إلى هذه الدخيليَّات المتطفِّلة، ودورها في انحلال روابط الدِّين والمجتمع.
- اعتماد سياسة الإعلام المضادِّ، لمنع تكريس الثقافة الغربيَّة وفسادها، فمعلوم للجميع ما للإعلام التابع من تأثير في نفوس الناس، فضلًا عن أساليبه المتقنة.
- دخول البيوت وتحذير الناس من مغبَّة الدخول في متاهات التبعيَّة، وخطر ذلك على مستقبل الإسلام والأخلاق الاجتماعيَّة، إضافة إلى إضعاف جبهة الإسلام.

(١) التبليغ الدينيّ، مفهومه، مضمونه، أساليبه، شبكة المعارف الإسلاميَّة، ٢٠١٩.

- إقامة مجالس عامَّة ذات عناوين رنَّانة وجذَّابة، والإعلان الواسع في الدعوة إليها، تكون مناهضة للأجواء الموبوءة في المضامين والأهداف، محورها ذكر الآخرة.

وصلنا إلى نهاية البحث الذي يبقى فارغًا مهما حوت سطوره، وبسيطًا مهما تعقَّدت فروعه؛ لأنَّه يحكي عن صرح شامخ في تاريخ البشريَّة، الحوراء الإنسيَّة التي جسَّدت روعة الخلق المحمَّديّ وتألُّق الفكر الإسلاميّ، وعظمة النعمة الإلهيَّة، المنصورة في السماء، تفَّاحة الفردوس، فاطمة الزَّهراء عليها الصلاة والسلام.

الخاتمة

بعد هذا العرض الذي مهما طال الإسهاب والبيان فيه، يبقى ضئيلًا ومتواضعًا أمام سموِّ عنوانه وعلوِّ مضامين فكرته الأساسيَّة، من ربط بسيط لعمق النهج الفاطميّ وترامي سعته مع متطلَّبات المرأة المعاصرة، وجعل سيرة السيِّدة الطاهرة الزَّهراء عليها السلام سراجًا في ظلام يومنا الحاضر.

فكرة البحث تبلورت من خلال رغبة الباحثة ببيان الدور السياسيّ البارز للسيِّدة الزَّهراء عليها السلام، والدروس التي تركتها للأجيال، وعمق أثر هذا الدور في سلوك المرأة المعاصرة، لتلبس جلباب العفاف الفاطميّ حين تقف داعية ومبلِّغة ومصلحة للمجتمع، الذي أصبح اليوم بأمسِّ الحاجة للرجوع على المسار الإسلاميّ الصحيح.

شرحت الباحثة في المبحث الأوَّل معنى الفكر، ثمَّ الفكر السياسيّ، وأوردت تقسيمَين للفكر السياسيّ الإسلامي:

الأوَّل: عند أبناء العامَّة وآرائهم السياسيَّة العامَّة، وانتقاداتهم للرفض الشيعيّ لمبدأ الخلافة، والثاني: عند الشيعة الإماميَّة، وأصول الخلافة الإلهيَّة، والتناقض في خلافة السقيفة وما تبعها من تنصيب بالشورى تارةً، وبرأي أهل الحلِّ والعقد تارةً أخرى.

أمَّا في المبحث الثاني فقد بيَّنت الباحثة أوَّلًا معنى السمات، ثمَّ تعطَّرت صفحات البحث بذكر أدوار السيِّدة الطاهرة، تفَّاحة الفردوس، الزَّهراء البتول عليها السلام قبل وفاة

والدها صلوات ربِّي وسلامه عليه، وبعد غيابه عن سماء حياتها، وبيان أبرز تجلِّيات النهج الفاطميّ في الساحة السياسيَّة، حين مطالبتها بنِحلتها، لتتدرج بالمطالبة بحقِّ المنصب الإلهيّ للامام عليّ عليه السلام.

وبيان بعض طيب كلامها في الخطبة الفدكيَّة.

وعالج البحث مشكلة المجتمع في النظر لسيرة العفاف الزهرائيّ المقتصر على الجلوس في البيت، وعدم الاختلاط بالمجتمع المتهالك دينيًّا، وبيان خطأ هذه النظرة الجزئيَّة، بدليل خروجها عليها السلام حينما تطلَّبت الظروف، وليس أي خروج، بل وقفت لتقرع أنوف المتقاعسين عن نصرة إمام زمانهم، وتعنِّف المتصدِّين للسلطة جورًا وعدوانًا.

حيث شرحت الباحثة هذا الدور في المبحث الثاني، لتنهيه بأهمِّ ثمار النهج السياسيّ الفاطميّ، إلَّا وهو المشروع التبليغيّ، وبيان أساليبه وأهمِّ آليَّات تطويره، وقد تمَّت كتابة البحث بالاعتماد على مصادر ورقيَّة وإلكترونيَّة لتوثيق الموضوع.

ومهما حاولنا أن نكتب وندوِّن، ستبقى جهودنا ذرَّة رمل في صحراء لا متناهية، لكن أملنا بأن تكون هذه الوريقات ذخـرًا لنا في يوم تطاير الصحف، لتأتي بها الزَّهراء عليها السلام، وتضعها سدًّا أمام أبواب النيران.. يا مولاتنا يا وجيهةً عند الله، اشفعي لنا عند الله.

المصادر

* القرآن الكريم.

١. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، المكتبة الشيعيَّة الإلكترونيَّة.

٢. أبو جعفر محمَّد الطوسيّ، تهذيب الأحكام، دار الكتب الإسلاميَّة، طهران، ١٣٦٥.

٣. أيسر فائق الحسنيّ الآلوسيّ، المدخل لدراسة الفكر الإسلاميّ، محاضرات للمرحلة الأولى كليَّة العلوم الإسلاميَّة، رمادي.

٤. التبليغ الدينيّ، مفهومه ومضامينه وأساليبه، شبكة المعارف الإسلاميَّة، ٢٠١٩.

٥. حنَّا عيسى، مقالة في مجلَّة المدينة الإخباريَّة الإلكترونيَّة.

٦. روح الله الإمام الخمينيّ قدس سره، من معين الزَّهراء عليها السلام، شبكة المعارف الإسلاميَّة، ٢٨ تشرين الثاني ٢٠٢٢.

٧. صادق الشيرازيّ، السياسة من واقع الإسلام، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان ، ٢٠٠٠.

٨. صحيح البخاريّ، ج٤، في باب مناقب فاطمة عليها السلام.

٩. عادل فتحي عبد الحافظ، كتاب الفكر السياسيّ الإسلاميّ، دار الجامعة الجديدة، الإسكندريَّة ، ٢٠٠٢.

١٠. عالية الموسويّ، بحث بعنوان التبليغ الدينيّ بين الطموح والواقع الفعليّ،

ألقته في مؤتمر في حسينيَّة الحجَّة، بكربلاء بتاريخ ، ١٥/ ٩/ ٢٠٢٢.

١١. عبد الله البحرانيّ، كتاب العوالم، السيِّدة الزَّهراء، ج١١، شبكة الفكر للكتب الإلكترونيَّة.

١٢. عليّ بن محمَّد بن المغازليّ، كتاب المناقب، دار الآثار، صنعاء، اليمن، ٢٠٠٣.

١٣. لمياء الديوان، مقالة عن معنى السمة في علم النفس الرياضيّ، مركز الكتاب للنشر، ٢٠٠٩.

١٤. محمَّد بن يعقوب الكلينيّ، كتاب الكافي، مكتبة نور الإلكترونيَّة، قسم عقيدة الشيعة، ٢٠٢٠.

١٥. محمَّد حسين فضل الله، مقالة في الموقع الرسميّ عن السيِّدة الزَّهراء (بتصرُّف)

١٦. محمَّد رضا المظفَّر، كتاب المنطق، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ١٩٦٨.

١٧. محمَّد عبده، شرح نهج البلاغة، خطب الامام علي _ ج١_ص٣١. دار الذخائر، قم، ايران، ١٤١٢.

١٨. محمَّد علي الحلو والسيِّد محمَّد صالح الموسويّ التبريزيّ، الوراثة الاصطفائيَّة، الأميرة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان ، ٢٠١٢.

١٩. محمَّد فاضل المسعوديّ، الأسرار الفاطميَّة، مؤسَّسة الأنوار الفاطميَّة.

٢٠. هدى محمَّد مهدي الصالح، بحث بعنوان محوريَّة دور المرأة ونمط الحياة، مؤسَّسة اينده روشن، ١٣٩٦.

الأبعاد القانونيَّة والنفسيَّة لقضيَّة فدك الزَّهراء عليها السلام

د. عامر عبادي العبادي
استشاريّ نفسيّ
م.م. نضال إسماعيل الربيعيّ
مستشار قانونيّ مساعد

ملخَّص البحث

كما هو متعارَف عليه شرعًا وقانونًا، يحقُّ لكلِّ شخصٍ طبيعيّ هبة ماله لمن يشاء، لاسيما إذا كانت فيه مصلحة ما، والنبيّ محمَّد صلى الله عليه وآله معصوم من الزلل، فلا يُقدِم على فعل إلَّا وفيه مصلحة للمسلمين. إذ كانت أرض فدك من الصوافي التي تخصُّ الرسول صلى الله عليه وآله، وبمشيئة الله وهبها إلى فاطمة عليها السلام، فأمره تعالى في كتابه المجيد: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾، وبما أنَّ النبيّ محمَّد صلى الله عليه وآله رأى صفات فاطمة عليها السلام تماثل صفات والدتها خديجة الكبرى عليها السلام، حينما دعمت الإسلام بأموالها، وأعانت النبيَّ صلى الله عليه وآله فيه، فلا شكَّ أنَّ فاطمة عليها السلام سيكون سلوكها بعد وفاة أبيها صلى الله عليه وآله، وتولِّي زوجها أمر المسلمين، هو ذات موقف والدتها عليها السلام. ولا شكَّ أنَّ إرث فدك يشكِّل عنصر جذب للسواد الأعظم من الناس، ويرفع العراقيل التي يصطنعها أعداء الإسلام بوجه أمير المؤمنين عليه السلام، فكانت هبته فدك لفاطمة عليها السلام، ذات غاية تصبُّ في مصلحة المسلمين.

وبما أنَّ عامَّة القوم يجهلون قامة آل بيت محمَّد عليهم السلام، وينكرون حقَّهم، فهم عبيد أهوائهم والأموال، فليس لهم من العلم والتقوى ما يميِّزون فيه بين الحقِّ والباطل، ممَّا

دفعهم إلى إنكار وصيَّة النبيّ صلى الله عليه وآله في خلافة أمير المؤمنين عليه السلام، وغصب حقِّ الزَّهراء عليها السلام في فدك، وانتزاعها بالقوَّة والهيمنة عليها، وحرمان فقراء المسلمين من خيراتها؛ لذا فإنَّ حادثة غصب فدك جريمة اقتصاديَّة، وجريمة قانونيَّة في ذات الوقت، فأراضي فدك لم تكن قليلة الإنتاج، بل كان لها وارد كثير، وهذا ما أشار إليه العلَّامة المجلسيّ في كتابه: إنَّ وارد فدك كان أربعة وعشرين ألف دينار في كلِّ سنة، وفي رواية أخرى سبعين ألف دينار، وعلى أيِّ حال، فهذه ثروة طائلة واسعة، لا يصحُّ التغاضي عنها على ضوء سياسة السلطة الجائرة آنذاك، ممَّا أدَّى بالضرر في مصالح فقراء المسلمين.

أمَّا من الناحية القانونية، فتسمَّى بجريمة غصب العقار، والتي تكون بالاستيلاء على عقار دون رضا مالكه، والقانون يهدف إلى حماية حقِّ الإنسان في ملكيَّته التي حماها الشارع المقدَّس في كتابه الكريم، والقوانين الوضعية والعهود والمواثيق الدوليَّة، فالقانون المدنيّ العراقيّ أكَد على (المغصوب إن كان عقارًا يلزَم الغاصب ردَّه إلى صاحبه مع أجر مثله، وإذا تلف العقار أو طرأ على قيمته نقص ولو بدون تعدٍّ من الغاصب؛ لزمه الضمان). وفي قانون العقوبات العراقي، نلاحظ أنَّ المشرِّع العراقي تشدَّد في معاقبة من يتولَّى تنظيم أو ترؤُّس عصابة أو يشترك فيها، تستهدف غصب الأموال سواء كانت عقاريَّة أم منقولة، وسواء كانت عامَّة أو خاصَّة، إذ نصَّ في قانون العقوبات (يعاقَب بالإعدام كلُّ من نظَّم أو ترأَّس أو تولَّى قيادة ما في عصابة مسلَّحة هاجمت فريقًا من السَّكان أو استهدفت منع تنفيذ القوانين أو اغتصاب الأراضي أو نهب الأموال المملوكة للدولة أو لجماعة من الناس بالقوَّة أو قاوم بالسلاح رجال السلطة العامَّة، أمَّا من انضمَّ إليها دون أن يشترك في تأليفها أو يتولَّى فيها قيادة ما فيعاقَب بالسجن المؤبَّد أو المؤقَّت). فأرض الزَّهراء غُصِبت من عصابة وباستعمال طرق القوَّة، ولم تكن تعدُّ مالًا خاصًّا فحسب، بل هي مال عام، كون فائدة الأرض تساهم في تخفيف نسبة الفقر في المجتمع الإسلاميّ.

المقدِّمة

أوَّلا: موضوع البحث

تمثِّل فدك قطعة من الأرض الواقعة على مسافة من المدينة المنوَّرة، قضيَّة أساسيَّة ومفصليَّة في سيرة آل بيت محمَّد صلى الله عليه وآله، وهناك أسباب عديدة تدعو إلى تمسُّكهم عليهم السلام بهذا الإرث على مدى سنوات بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله، إذ كانت بيد الزَّهراء وتحت تصرُّفها، ويُستدلُّ على أنَّ فدكًا كانت بيد آل الرسول، من تصريح الإمام عليّ عليه السلام في كتابه الذي أرسله إلى عثمان بن حنيف عامله على البصرة: «**بلى كانت في أيدينا فدك من كلِّ ما أظلَّته السماء، فشحَّت عليها نفوس قوم، وسخت عنها نفوس قوم آخرين، ونِعم الحكم الله**»[1].

ولـمَّـا تولَّـى أبـو بكر الخلافة بعد رسـول الله صلى الله عليه وآله، استولى على أرض فدك، وقـد حاججته الزَّهراء عليها السلام، وطالبت بحقِّها منه، لكنَّه لم يستمع إلى حجَّتها، ومضى إلى غصب أرضها ظلمًا وعدوانًا، مخالفًا شريعة الله ورسوله صلى الله عليه وآله، وهو بفعله هذا عُـدَّ مرتكبًا لفعل محـرَّم شرعًـا وقانونًا، وفعله هـذا، بموجب الـشرع، يخالف آيـات الله الكريمة التي تحـرِّم التعدِّي على حقوق الغير، إذ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾[2]، أمَّـا بموجب القانون الوضعيّ، فتُعدُّ جريمة قانونيَّة يستحق فاعلها العقاب عليها.

(١) نهج البلاغة، الكتاب رقم (٤٥).
(٢) سورة النساء، الآية (١٠).

ثانيًا: مشكلة البحث

حينما استولى أهل السقيفة بقيادة أبي بكر على أرض فدك، وطردوا العاملين فيها، واستولوا عليها غصبًا دون وجه حقٍّ، شكَّل فعلهم هذا مظلوميَّة كبيرة بحقِّ الزَّهراء عليها السلام وآل بيتها الأطهار، وبما أنَّ أبا بكر لم يكن خليفة المسلمين الشرعيّ، كونه غصب الخلافة من الإمام عليّ عليه السلام، لذا فإنَّ فعله هذا لم يكن مصادرة بالمصطلح القانونيّ، بل كان فعل غصب واستيلاء على أموال أحد المسلمين مِن قِبَل جماعة استولت على الحكم دون وجه حق، وبموجب التأصيل القانونيّ لهذا الفعل، نلاحظ أنَّه يشكِّل فعلًا جرميًّا وفقًا لأحكام القوانين الوضعيَّة، يستوجب الردَّ والتعويض بموجب أحكام القانون المدنيّ، والعقاب وفقًا لأحكام القانون الجزائيّ.

ثالثًا: أهميَّة البحث

لقضيَّة مصادرة فدك أهميَّة تاريخيَّة ذات أبعاد دينيَّة، كونها جريمة غصب وظلم لحقِّ بنت نبيِّ الأمَّة صلى الله عليه وآله، وسياسيَّة، إذ تعدُّ دليلًا واضحًا على الانقلاب الذي نفَّذه أهل السقيفة على وليِّ أمر المسلمين الإمام عليّ عليه السلام، لغصب الخلافة منه، فضلًا عن الاستيلاء على فدك، ومن الناحية النفسيَّة، زاد غصب فدك في أحزان الزَّهراء عليها السلام وأتباعها، إذ غلُّوا يدها عن أرضها، ومنعوها من إعانة المسلمين، الأمر الذي سبَّب لها ألمًا نفسيًّا وشعورًا بالظلم، وكذلك بقيَّة المسلمين حين شهدوا سلب الخلافة مِن وليِّ أمرهم عنوةً وظلمًا، وسلب ممتلكات زوجته، ممَّا سبَّب تولُّد الشعور بالذعر والخوف في نفوسهم من بطش السلطة غير الشرعيَّة الحاكمة لشؤونهم، وفي البعد القانونيّ، ففي كلِّ فعل جرميّ يقع على مال معيَّن، يجابَه بالعقوبة الجزائيَّة، وحقّ الردِّ، والتعويض المدنيّ، وأوَّل القواعد القانونيَّة في الإسلام، التي تنظِّم حقوق المسلمين وتحافظ عليها من الغصب، هي القرآن الكريم، ومن بعدها السنَّة النبويَّة الشريفة، ومن بعدها أحاديث آل بيت محمَّد صلى الله عليه وآله، وقد تأسَّست القواعد القانونيَّة الوضعيَّة مستندة إلى الإسلام الذي يعدُّ

المصدر الأوَّل لها، إذ ورد في الدستور العراقيّ عام (٢٠٠٥) أنَّ الإسلام دين الدولة الرسميّ، وهو مصدر أساس للتشريع، ولا يجوز سنُّ قانون يتعارض مع ثوابت أحكام الإسلام[١]، وبناءً على ذلك تعدُّ قضيَّة فدك أبرز قضيَّة ظلم وإجحاف وقعت على أحد المسلمين، ووقوعها لا يعدُّ مخالفًا لشريعة الإسلام فحسب، بل إنَّها تخالف قواعد القانون الوضعيّ، وتعدُّ جريمة قانونيَّة تخضع لأحكام المادَّة (١٩٤) من قانون العقوبات العراقيّ، وهذه الجريمة مستمرَّة منذ زمن وقوعها إلى يومنا هذا، إذ لم يُعاقب مرتكبها، ولم تُردَّ إلى مالكيها الشرعيِّين من ورثة الزَّهراء عليها السلام، ولا تزال مستلَبة منهم إلى يومنا هذا، لذا فالخصومة القانونيَّة لا تزال قائمة ويمكن لمن يمتلك حقَّ المطالبة مقاضاة السلطة المسيطرة عليها، والمطالبة باستردادها والتعويض.

(١) المادة (٢/ أوَّلاً/ أ)، دستور جمهورية العراق، ٢٠٠٥.

المبحث الأوّل

ماهيَّة فدك

أمر الله سبحانه وتعالى رسوله محمَّد صلى الله عليه وآله، أن يبلِّغ كافَّة الناس ويوصيهم بالزَّهراء عليها السلام وآل بيتها الأطهار بالخير والمودَّة؛ وفاءً لمقام النبيّ صلى الله عليه وآله ومحبَّةً له، إذ نزل في محكم كتابه الكريم: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾[1]، فقد كان الرسول محمَّد صلى الله عليه وآله يعلم ما سيجري على الزَّهراء عليها السلام وآل بيتها من ظلم وجَور بعد وفاته، فبادر إلى بيان مكانة الزَّهراء عليها السلام، إذ قال: «**فاطمة بضعة مني من آذاها فقد آذاني، ومن أحبَّها فقد أحبَّني**»، وهذه وصيَّة صريحة من الرسول محمَّد صلى الله عليه وآله لكافَّة الناس بغلِّ أيديهم عن إيذاء فاطمة عليها السلام، وإن لم يحسنوا إليها، ومن المؤمنين من التزم بوصيَّة النبيّ محمَّد صلى الله عليه وآله في حفظ مكانة فاطمة والحفاظ على مركزها الاجتماعيّ والدينيّ، كونها بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وبضعته، وقسم آخر من مدَّعي الإسلام نقضوا الوصيَّة، وسلبوا الزَّهراء البتول عليها السلام حقَّها الذي وهبها ملكيَّتها، وهم يعلمون جيِّدًا بملكيَّة فدك للزَّهراء عليها السلام، لكنَّهم أعموا بصيرتهم، وصمُّوا آذانهم، وأخرسوا ألسنتهم عن قول الحقِّ، ولم يكتفوا بذلك فحسب، بل تمادوا حتَّى سلبوها فدك قهرًا وعنوةً، مخالفين شريعة الله تعالى ووصيَّة رسوله الأعظم صلى الله عليه وآله.

وبناءً على ذلك سيتناول المبحث مفهوم فدك في المطلب الأوَّل، أمَّا المطلب الثاني فسيكون عن حجيَّة فدك.

---

(١) سورة الشورى، الآية ٢٣.

المطلب الأوَّل: مفهوم فدك

تعدُّ فدك أرض عقاريَّة مملوكة ملكيَّة خاصَّة للزهراء عليها السلام، حيث آلت إليها بهبة من والدها الرسول صلى الله عليه وآله، لكن بعد وفاته، تآمر أهل السقيفة على سلب ملكيَّتها من الزَّهراء عليها السلام بالقوَّة والعدوان، كون فدك تشكِّل أهميَّة اقتصاديَّة وسياسيَّة مهمَّة، وبسيطرة القوم عليها تتحقَّق لهم ثروة ماليَّة كبيرة، وسلطة سياسيَّة واسعة.

وبناءً على ذلك سيُقسَّم المطلب إلى ثلاثة فروع، يتناول الفرع الأوَّل تعريف فدك، أمَّا الفرع الثاني فيتناول القيمة الماليَّة والنفسيَّة لفدك، والفرع الثالث سيتناول خصائص فدك.

الفرع الأوَّل: تعريف فدك

تعرَّف فدك بأنَّها: قرية في الحجاز، بينها وبين المدينة يومان، وقيل: ثلاثة أيَّام، وهي أرض يهوديَّة في مطلع تأريخها المأثور، إذ كان يسكنها طائفة من اليهود، ولم يزالوا على ذلك حتَّى السنة السابعة، إذ قذف الله الرعب في قلوب أهلها، فصالحوا رسول الله صلى الله عليه وآله بفدك[1]، وعُرِّفت أيضًا بأنَّها: «إحدى القرى المثمرة، تقع في أطراف المدينة المنوَّرة (في الحجاز)، وتبعد عن المدينة المنورَّة يومان، وقيل ثلاثة أيَّام، وهي أرض يهوديَّة لبني النضير»[2].

وبدأ بذلك تاريخها الإسلاميّ، فقد كانت ملكًا لرسول الله صلى الله عليه وآله؛ لأنَّها لم يوجف عليها بخيلٍ ولا ركاب، وهذا مقتضى ما قاله تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ

(١) آية الله العظمى السيِّد محمَّد باقر الصدر، فدك في التأريخ، الطبعة الأولى، شريعت، قم، ١٤٢٩، ص٢٥.

(٢) الشيخ محمَّد إبراهيم المبشر، قضيَّة فدك، بحث منشور، مجلَّة رسالة القلم، العدد الثالث، ص١.

وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[1]، ثمَّ قدَّمها لابنته الزَّهراء عليها السلام، وبقيت عندها حتَّى توفِّي أبوها صلى الله عليه وآله، فانتُزعت منها عليها السلام بموجب مؤامرة السقيفة.

الفرع الثاني: القيمة الماديَّة والنفسيَّة لفدك

أوَّلا. القيمة الماديَّة: إنَّ فدك لم تكن أرضًا صغيرة، أو مزرعة متواضعة، إذ كانت تدرُّ على أصحابها أموالًا طائلة تشكِّل ثروة هامَّة، ومن ثمَّ، فإنَّ مردودها عالٍ جدًّا، ودلائل ذلك:

١. إنَّ عمر بن الخطَّاب منع أبا بكر من ترك فدك للزَّهراء؛ لضعف وضع دولتهم الخاوية، مع الحاجة إلى تقوية مركزها أمام حروب الردَّة وثورات العصاة، ومن الواضح أنَّ أرضًا يُستعان بها على تعديل ميزانيَّة دولة، وتقوية موقفها ماليًّا في ظروف الطوارئ، إنَّما يدلُّ على كِبر مساحتها وعَظمة إنتاجيَّتها.

٢. ما قاله الخليفة الأوَّل لسيِّدة نساء العالمين عليها السلام: إنَّ هذا المال لم يكن للنبيّ صلى الله عليه وآله، وإنَّما كان مالًا من أموال المسلمين، يحمل النبيّ به الرجال، وينفقه في سبيل الله، ومن هذا القول نستدلُّ على ثقل إنتاجيَّة فدك من الناحية الماليَّة، وقوَّتها الاقتصاديَّة في الاسلام.

٣. ما سبق ليزيد بن معاوية (لعنه الله) من تقسيم فدك إلى ثلاثة أقسام بينه وبين مروان وعمرو بن عثمان، وهذا دليل ثالث لأثر فدك على الاقتصاد، والثروة المجتناة من تلك الأرض، حيث كانت جديرة بالتوزيع على ثلاث أمراء آنذاك من أصحاب الثراء والأموال الطائلة[2].

ثانيًا. القيمة النفسيَّة لفدك: ممَّا لا شكَّ فيه هو وجود تلازم بين الجانب المادِّيّ

(١) سورة الحشر، الآية (٦).

(٢) آية الله العظمى الشهيد السيِّد محمَّد باقر الصدر، مصدر سابق، ص٣١.

والجانب النفسيّ للكائن الحي، فأي خلل أو نقص بالحالة الماديَّة ينعكس سلبًا على حالته النفسيَّة، وتبعًا لما سبق ذكره من الفائدة الماديَّة لفدك، فحرمان الزَّهراء عليها السلام له تأثير بالغ عليها وعلى أهل بيتها وتابعيهم، ويمكننا أن نستدلّ على ذلك بعدَّة أدلَّة منها:

١. قوله تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾[١]، ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[٢]، ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾[٣]، وإن كنَّا لسنا في مورد تفسير للآيات الكريمات، ولكن المعنى واضح، ويشير إلى الربط الكبير بين توفير الجانب المادِّيّ المتمثِّل بقوت الإنسان وزاده، وبين أمنه واطمئنانه النفسيّ، فالجانب المادِّيّ أحد الشروط الأساسيَّة لتحقق الأمن النفسيّ.

٢. قول النبيّ صلى الله عليه وآله: «**من أصبح معافى في جسده، آمنًا في شربه، عنده قوت يومه، فكأنَّما حيزت له الدنيا**»[٤]، أي إنَّ الصحَّة الجسديَّة، والحصول على القوت اليوميّ، يعَدَّان مقدِّمات لتحقيق الطمأنينة والسعادة.

٣. أشار بعض المنظِّرين والعلماء الوضعيِّين إلى هذه العلاقة المتبادلة بين الغذاء والأمن، فقد وضع أحد منظِّري النظريَّة الإنسانيَّة، وهو العالم (إبراهام ماسلو) هرمًا مقلوبًا أسماه هرم الحاجات، قسَّم فيه الحاجات الضروريَّة للإنسان، وفقًا لأهميَّتها، من الأسفل إلى الأعلى، فهو يرى أنَّ الانسان يولد ولديه خمسة أنظمة من الحاجات مرتَّبة في هذا الشكل الهرميّ تصاعديًّا، ويرى أنَّ جميع البشر يمرُّون بهذه الحاجات على نفس الترتيب، فتبدأ قاعدة الهرم بالحاجات الفسيولوجيَّة، كالحاجة إلى الطعام والماء والإفراغ والأوكسجين

(١) سورة قريش، الآية (٤).
(٢) سورة البقرة، الآية (١٢٦).
(٣) سورة القصص، الآية (٥٧).
(٤) الشيخ محمَّد بن الحسن الطوسيّ، الأمالي، مؤسَّسة البعثة، ١٩٩٤، ص٤٢٨.

والنوم والجنس، وتأتي بعدها الحاجة إلى الأمن كالطمأنينة وغياب الأخطار، ثمَّ الحاجة إلى الحبِّ والانتماء، كالانتساب والقبول، ثمَّ الحاجة إلى الاحترام والتقدير، كالاستحسان والرِّضا، وأخيرًا الحاجة إلى تحقيق الذات[1]، وعن طريق هذا الهرم المقلوب الذي وضعه هذا المنظِّر، يبدو أنَّ الإنسان إذا حُرِم من حاجاته الفسيولوجيَّة في أسفل الهرم، سُلبت منه حاجاته وحقّه في الأمن والطمأنينة والحبِّ والانتماء والاحترام والتقدير وتحقيق الذات.

ويعتقد ماسلو أنَّ الحاجات هي التي توجِّه سلوك البشر، وتدفعه لإشباع تلك الحاجات، ولذلك يتباين هذا السلوك من فرد إلى آخر، ومن وقت إلى آخر، ومن ثقافة إلى أخرى[2].

وحرمان الفرد من أي حاجة من هذه الحاجات، يؤدِّي إلى تدهور حالة الإنسان نفسيًّا واجتماعيًّا، لذا نجد أنَّ الفرد في بحث مستمر عن إشباع حاجاته الفسيولوجيَّة، فعدم إشباعها يؤثِّر سلبًا على سلوكه[3].

إذ يقول السيِّد الشهيد الصدر رحمه الله، ويدلُّنا على مدى ما بلغته فدك من القيمة المعنويَّة في النظر الإسلاميّ قصيدة دعبل الخزاعيّ التي أنشأها حينما ردَّ المأمون فدكًا، ومطلعها:

أصبح وجه الزمان قد ضحكا
برد مأمون هاشمٍ فدكا

(١) لندال دافيدوف، مدخل علم النفس، ترجمة سيِّد طوب واخرون، ط(٤)، مكتبة التحرير، القاهرة، ١٩٨٣، ص٤٤١.

(٢) داون شلتز، نظريات الشخصيَّة، ترجمة حمد دلي كربولي وعبد الرحمن القيسيّ، مطبعة جامعة بغداد، بغداد، العراق، ١٩٨٣، ص٨٩.

(٣) زيد بهلول سمين، الأمن والتحمُّل النفسّي وعلاقتها بالصحَّة النفسيَّة، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كليَّة الآداب، الجامعة المستنصريَّة، بغداد، العراق، ١٩٩٧، ص٤٧.

وقد بقيت كلمة بسيطة، وهي: إنَّ فدكًا لم تكن أرضًا صغيرة أو مزرعةً متواضعةً كما يظنُّ البعض، بل الأمر الذي أطمئنُّ إليه أنَّها كانت تدرُّ على صاحبها أموالًا طائلة تشكِّل ثروة مهمَّة، وليس عليَّ بعد هذا أن أحدِّد الحاصل السنويّ منها، وإن ورد في بعض طرقنا الارتفاع به إلى أعداد عالية جدًّا[1].

ورُبَّ قائل يقول: متى كان للزَّهراء عليها السلام وأهل بيتها الكرام حاجة بهذه الدنيا الفانية، لكي يتأثَّروا بفقدان فدك وريعها، وهم ينفقون كلَّ ما لديهم ليطعموا الفقراء والمساكين ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[2]، إلَّا أنَّ غصب فدك كان مقصودًا لإفقار أهل البيت عليهم السلام، لكي ينصرف العوام عنهم.

الفرع الثالث: خصائص أرض فدك

أوَّلًا. فدك كأرض: كانت أرضًا ذات فضاء واسع وتراب خصب وماء وفير، يمنحها الأهليَّة الكافية لتكون أرضًا غزيرة الزرع، الأمر الذي يرتقي بها لتكون عاملًا من عوامل الإنتاج الزراعيّ، ذو غلَّة عالية.

ثانيا. اليد العاملة: بما أنَّ فدك أرض ذات مواصفات زراعيَّة عالية وإنتاجيَّة وفيرة، فهي بحاجة إلى أيدي عاملة كثيرة من شأنها القضاء على البطالة، وتوفير فرص عمل كبيرة لفئات المجتمع الإسلاميّ.

ثالثا. قوتها الاقتصاديَّة: تعدُّ رأسمالًا وفيرًا لمالكها، وقوَّة اقتصاديَّة كبيرة، ممَّا تؤهِّل مالكها بما تملكه من رأسمال قوي أن تكون لها يدًا عليا في العطاء، وإعانة فقراء المسلمين دون الاضطرار لمدِّ أيديهم للآخرين، ممَّا يمنح الإسلام ضمانًا أمنيًّا واقتصاديًّا واضحًا.

---

(١) السيِّد محمَّد باقر الصدر، فدك في التاريخ، دار الصدر، شريعت، قم، إيران، ٢٠٠٨، ص، ٣٠.
(٢) سورة الإنسان، الآية (٨-٩).

رابعًا. أثر فدك على السياسة: كانت فدك تشكِّل قوَّة سياسيَّة، إضافة إلى كونها قوَّة اقتصاديَّة، ولذلك كانت الخشية من قبل قريش أن تُستَثمر تلك القوَّة السياسيَّة لزحزحتهم عن مقاعدهم، والمُلكية في الإسلام يحميها القانون الشرعيّ على أساس قاعدة اليد، أو قاعدة الانتقال عن طريق الإرث، بمعنى أنَّ فدكاً لو لم تغتصبها قريش لبقيت بيد أهل البيت عليهم السلام تنتقل من جيلٍ لآخر، بخيراتها وثرواتها التي كانت تُشبِع عدداً هائلاً من الفقراء والمحرومين.

المطلب الثاني: حجيَّة ملكيَّة فدك

فدك كعقار مملوكة إلى الزَّهراء عليها السلام، آلت إليها بوصيَّة من والدها النبيّ محمَّد صلى الله عليه وآله، وقد سُلبت من ظالميها عنوة وظلمًا، وقد ثارت سيِّدة نساء العالمين عليها السلام، وطالبت بحقِّها، ووقفت كطود في الإعصار بوجه مَن ظلمها ومَن سلب حقَّها، وحقّ الملكيَّة ثابت في المواثيق والإعلانات الدوليَّة التي حمت حقَّ ملكيَّة الإنسان في أمواله المنقولة والعقاريَّة (غير المنقولة)، وعلى هذا الأساس سوف نقسِّم مطلب هذا البحث إلى فرعَين، يتناول الفرع الأوَّل حماية حقِّ الملكيَّة في الإعلانات والمواثيق الدوليَّة، أمَّا الفرع الثاني فيتناول حجيَّة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام في مطالبتها بفدك.

الفرع الأوَّل: حماية حقِّ الملكيَّة في الإعلانات والمواثيق الدوليَّة

دافع الإعلان العالميّ لحقوق الانسان الصادر عام (١٩٤٨) عن حقِّ الإنسان في ملكيَّته، إذ ورد في المادة (١٧) منه: «١. لكلِّ فرد حقٌّ في التملُّك بمفرده أو الاشتراك مع غيره. ٢. لا يجوز تجريد أحد من ملكه تعسُّفًا»[1]، أمَّا البروتوكول الإضافيّ الملحَق باتِّفاقيَّة حماية حقوق الإنسان والحريَّات الأساسيَّة، فقد نصَّ في المادَّة (١) على: «لكلِّ شخص طبيعيّ أو اعتباريّ الحقّ في احترام ممتلكاته، ولا يجوز حرمان أيِّ إنسان من

(١) المادة (١٧)، الإعلان العالميّ لحقوق الإنسان، ١٩٤٨.

ملكيَّته بسبب المنفعة العامَّة..»[1]، كما أكَّد إعلان حقوق الإنسان والمواطن الفرنسّي في المادَّة (١٧) على: «ما دامت الملكيَّة حقًّا مقدَّسًا لا يجب انتهاكه، فلن يُسلَب أحد ممتلكاته أو يُجَرَّد منها إلَّا على وفق ما تمليه المصلحة العامَّة، وهو الأمر الذي يحدِّده القانون بوضوح، وفي حالة نزعها- أي الملكيَّة- لا بدَّ من تقديم تعويض عادل ومُنصف للمنزوع ملكيَّته»[2]، أمَّا الميثاق العربّي لحقوق الإنسان، فلم يخلُ من كفالة الإنسان في حقِّه بالملكيَّة الخاصَّة كحقٍّ من حقوقه الخاصَّة، إذ ورد في المادَّة (٣١) منه: «حقُّ الملكيَّة الخاصَّة مكفول لكلِّ شخص، ويحظر في جميع الأحوال مصادرة أمواله كلَّها أو بعضها بصورة تعسفيَّة أو غير قانونيَّة»[3].

ومن خلال النصوص أعلاه يظهر لنا مبدأ عالميَّة الحقِّ في الملكيَّة، إذ كان ولازال الحقُّ في الملكيَّة يحظى بالحماية القانونيَّة على الصعيد الدوليّ والصعيد الإقليميّ والصعيد الوطنيّ، إذ نصَّ الدستور المصريّ على: «للملكيَّة العامَّة حرمة لا يجوز المساس بها، وحمايتها واجب وفقًا للقانون»، و(الملكيَّة الخاصَّة مصونة، وحقُّ الإرث فيها مكفول، ولا يجوز فرض الحراسة عليها إلَّا في الأحوال المبيَّنة في القانون، وبحكم قضائيّ، ولا تُنزع الملكيَّة إلَّا للمنفعة العامَّة ومقابل تعويض عادل يُدفَع مقدَّمًا وفقًا للقانون»[4]، والدستور السعوديّ له ذات الموقف، إذ نصَّ على: «تكفل الدولة حريَّة الملكيَّة الخاصَّة وحرمتها، ولا يُنزَع من أحد ملكه إلَّا للمصلحة العامَّة، على أن يعوَّض المالك تعويضًا عادلًا»، «تُحظر المصادرة العامَّة للأموال، ولا تكون عقوبة المصادرة الخاصَّة إلَّا بحكمٍ قضائيّ[5]، وكذلك الدستور العراقيّ حمى الملكيَّة الخاصَّة، إذ نصَّ على: «الملكيَّة

(١) المادَّة (١)، البروتوكول الإضافيّ الملحق باتِّفاقية حماية حقوق الإنسان والحريَّات الأساسيَّة، باريس، ٢٠، آذار، ص١٩٥.
(٢) المادَّة (١٧)، إعلان حقوق الإنسان والمواطن الفرنسيّ، ١٧٨٩.
(٣) المادَّة (٣١)، الميثاق العربيّ لحقوق الإنسان، ٢٣/ ٥/ ٢٠٠٤.
(٤) المادَّتَين (٣٤، ٣٥)، الدستور المصريّ لسنة ٢٠١٤ المعدَّل في ٢٠١٩.
(٥) المادَّتَين (١٨، ١٩)، دستور المملكة العربيَّة السعوديَّة.

الخاصَّة مصونة، ويحقُّ للمالك الانتفاع بها واستغلالها والتصرُّف بها في حدود القانون»، «لا يجوز نزع الملكيَّة إلَّا لأغراض المنفعة العامَّة، مقابل تعويض عادل، وينظَّم ذلك بقانون»[1]، والأهمُّ من هذا هو حماية حقِّ الملكيَّة في الشريعة الإسلاميَّة، إذ إنَّ المبدأ هو أنَّ الناس مسلَّطون على أملاكهم، وكذلك الحديث الشريف: «**لا يحلُّ مال امرئ مسلم إلَّا عن طيبة نفسه**»، وهو حديث مشهور ومتداوَل من الفقهاء كثيرًا، ويُضاف إلى ذلك حُرمة في الشريعة الإسلاميَّة، وفي كلِّ مذاهبها، ومن هذا يتَّضح أنَّ الملكيَّة الخاصَّة مصونة في الشرائع السماويَّة والدساتير القديمة، وكذلك الدساتير المعاصرة، أي إنَّ هذا المبدأ ثابت إلَّا في حالات استثنائيَّة يجوز فيها نزع الملكيَّة للمصلحة العامَّة، ومقابل تعويضٍ عادلٍ يُدفَع للمالك مسبقًا، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾[2].

الفرع الثاني: حجَّة الزَّهراء عليها السلام في ملكيَّة فدك

لقد كانت فدك ملكًا للزَّهراء عليها السلام، وقد تحقَّق ذلك بعدد من الطرق الشرعيَّة المعتبرة، وقد روى ابن عبَّاس وأبي سعيد الخدريّ أنَّه لـمَّا نزل قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾[3]، دعا رسول الله فاطمة فأعطاها فدكًا والعوالي، وقال: «**هذا قسم قسمه الله لك ولعقبك**»[4]، يضاف إلى ذلك أنَّـها (أي فدك) كانت بيد الزَّهراء عليها السلام وعائلتها، كما ورد في نهج البلاغة من كتاب أمير المؤمنين عليه السلام لعثمان بن حنيف، قال عليه السلام: «**بلى كانت في أيدينا فدك من كلِّ ما أظلَّته السماء، فشحَّت عليها نفوس قوم، وسخت عنها نفوس قوم آخرين، فنِعم الحكم الله**»[5].

(١) المادَّة (٢٣/ أوَّلاً، ثانيًا)، الدستور العراقيّ، ٢٠٠٥.
(٢) سورة البقرة، الآية (١٨٨).
(٣) سورة الاسراء، الآية (٢٦).
(٤) السيِّد مرتضى الرضويّ، بضعة المصطفى، ط(٢)، مؤسَّسة السبطَين العالميَّة، قم، إيران، ١٤٢٧، ص٢٧٠ وما بعدها.
(٥) محمَّد إبراهيم، شرح نهج البلاغة، مكتبة المجتبى، النجف الأشرف، ١٤٢٨، ص٣٥٨=

ويؤيِّد ذلك ما ادَّعته الزَّهراء عليها السلام بمواجهة أبي بكر بأنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله قد أعطاها فدكًا في حياته، ودعمت قولها بشهادة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام وشهادة أمِّ أيمن، لكنَّ أبا بكر لم يعتدّ بكفاية الأدلَّة الثبوتيَّة المقدَّمة من الزَّهراء عليها السلام، وطلب شهادَتَين مثلهما، ولـمَّا كان ذلك متعذِّرًا على الزَّهراء عليها السلام، رُفِضت دعواها من أبي بكر وغُصبَت منها فدكًا، فقد شكَّك أبو بكر بشهادَتَي الإمام عليّ عليه السلام وأمِّ أيمن، رغم عِظَم مكانتهما في الإسلام، وذهاب الرجس عنهم بنصِّ القرآن.

ففي الرواية عن ابن أبي الحديد أنَّ أبا بكر حين انتزع فدكًا من فاطمة عليها السلام، أتت إليه فقالت له: **إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله أعطاني فدكًا**، فردَّ عليها: هل عندك بيِّنة على ما تقولين؟ فشهد لها الإمام عليّ عليه السلام، ثمَّ أتت بأمِّ أيمن فقالت أمُّ أيمن: ألستما تشهدان أنِّي من أهل الجنَّة؟ فقالا (أبو بكر وعمر): بلى، قالت: فأنا أشهد أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله أعطاها فدكًا، فردَّ أبو بكر: فرجل آخر وامرأة أخرى؛ لتستحقِّي بها القضية. وعن أبي الأسود: أنَّ فاطمة عليها السلام أرادت فدك وسهم ذوي القربى، فأبى أبو بكر، وجعلهما في مال الله[1].

وروى ابن أبي الحديد أنَّ أبا بكر منع فاطمة عليها السلام وبني هاشم سهم ذوي القربى، وجعله في سبيل الله في السلاح والكراع، وقال السيِّد الصدر الأوَّل: وردت عدَّة أحاديث كافية وشافية عن أنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله قد دفع فدكًا لابنته فاطمة عليها السلام في حياته، عند نزول قولة تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾[2]، وأنَّ أبا بكر سلب منها هذا الحقَّ عنوة، وأنَّها غَضبت عليه وهجرته، وأوصت ألَّا يصلِّي عليها، وقال أبو داوود السجستانيّ:

= وما بعدها.

(١) السيِّد مرتضى الرضويّ، مصدر سابق، ص٢٧٠.

(٢) سورة الإسراء، الآية (٢٦).

وكـان أبو بكر يقسِّم الخمس، ولم يكن يعطي قربى رسـول الله صلى الله عليه وآله ما كان النبيّ يعطيهم.

كما أخرج السيوطيّ في تفسيره عن أبي أمامه الحارثيّ أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**مَن قطع حقَّ امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب الله له النار، وحرَّم عليه الجنَّة**»[1].

(١) السيِّد مرتضى الرضويّ، مصدر سابق، ص٢٧٣.

المبحث الثاني

التكييف القانونيّ والنفسيّ لقضيَّة فدك

لقضيَّة فدك بُعد قانونيّ ونفسيّ، فمن الناحية القانونيَّة تعدُّ قضيَّة غصب فدك جريمة في القانونَين الجزائيّ والمدنيّ، ويعدُّ حقُّ الملكيَّة الخاصَّة من أوسع الحقوق العينيَّة، فمَن له حقُّ ملكيَّة شيء له، عليه سلطة الاستئثار دون غيره وله حقُّ ردِّ الاعتداء بكلِّ الوسائل القانونيَّة، إذ يسمح القانون لمالك العقار المعتدى عليه حقُّ مراجعة المحاكم المدنيَّة والجزائيَّة لمواجهة هذا الاعتداء على حقِّه، وإنَّ الهدف من الحماية القانونيَّة هو ردع كلِّ اعتداءٍ أو إتلاف، إذ يعدُّ التجريم لغصب حقِّ الملكيَّة إحدى وسائل الحماية الناجعة للحفاظ على الملكيَّة الخاصَّة، وإنَّ استرداد صاحب الحقِّ لحقِّه له أثر نفسيّ ومعنويّ لصاحب الحقِّ؛ لاستشعاره بقوَّة القانون وسيادته في المجتمع، وشيوع الأمن القانونيّ لحماية حقِّ الإنسان في حياته وملكيَّته، للحفاظ على استقرار المجتمع وأمانه.

وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ قضيَّة غصب فدك تعدُّ من أبرز جرائم الاعتداء على حقِّ الملكيَّة الخاصَّة، إذ لم يكترث غاصبوا أرض فدك لمكانة مالكتها الدينيَّة والاجتماعيَّة، كونها بنت نبيِّهم، ووديعته التي أوصى بها وآل بيتها عليهم السلام طيلة فترة نبوَّته صلى الله عليه وآله، فما احترموا وصيَّته، وما التزموا بالقانون الذي تجسَّد بكتاب الله الكريم في حفظ ملكيَّة الناس وحرمة الاعتداء عليها بأيِّ صورة، إذ قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ

تَعْلَمُونَ﴾[1]، وقد أكّد رسول الله صلى الله عليه وآله على حرمة الاعتداء على حقّ الملكيَّة، إذ قال: «**لا يحلُّ مال امرئ مسلم إلّا بطيب نفسه**»، كما قال في خطبة الوداع: «**إنَّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرامٌ كحرمة يومكم هذا**»، ولم يترك غصب حقّ الزَّهراء عليها السلام أثرًا قانونيًّا يتمثَّل في الاعتداء على حقّ الملكيَّة فحسب، بل امتدَّ ليترك أثرًا اقتصاديًّا على فقراء المسلمين، إذ كانت أرض فدك مصدر للعيش والرزق بالنسبة لهم، ممَّا أرخى بظلاله على نفوس المسلمين الذين باتوا بلا مصدر رزق بعد غصب أرض فدك من مالكتها الشرعيَّة الزَّهراء عليها السلام.

وبناءً على ذلك سنقسِّم هذا المبحث إلى مطلبَين، يتناول المطلب الأوَّل التكييف القانونيّ لقضيَّة غصب أرض فدك، أمَّا المطلب الثاني فسيتناول الأثر النفسيّ لقضيَّة غصب فدك.

المطلب الاول: التكيييف القانوني لقضية غصب فدك

بعد أن بينَّا ملكيَّة الزَّهراء عليها السلام لفدك، فإنَّ غصبها منها وحرمانها من ملكيَّتها يختلف تكييفه باختلاف النظر إلى مدى شرعيَّة السلطة آنذاك، وبمقتضى واقع الحال الذي آلت به السلطة إلى أصحاب السقيفة، فإنَّها سلطة باطلة؛ لانعدام الأساليب الشرعيَّة والقانونيَّة المتَّبعة لانتقال سلطة ولاية أمر المسلمين إليهم، وبناءً على ما تقدَّم يكون التكييف القانونيّ لانتزاع أرض فدك من مالكتها الشرعيَّة باطلًا ولا تنطبق عليه أحكام المصادرة، بل هي واقعة غصب من قِبَل عصبة استولت على السلطة بطرق غير شرعيَّة، ومن المنظور القانونيّ فإنَّ قضيَّة غصب فدك تشكِّل جريمة من الجنبة القانونيَّة، إذ تشكِّل جريمة تستوجب العقاب على الغاصب بموجب القانون الجزائيّ، كما تُلزمه بإعادة الحال إلى ما كان عليه، والتعويض بنوعيه المادِّيّ والمعنويّ بموجب القانون المدنيّ، كما تشكِّل واقعة غصب فدك جريمة اقتصاديَّة، كونها قد

(١) سورة البقرة، الآية (١٨٨).

أثَّرت على فقراء المسلمين الذين كانوا يشكِّلون السواد الأعظم في المجتمع الإسلاميّ، إذ كانت تشكِّل مصدر رزق وعيش لكافَّة فقراء المسلمين، وبغصبِها من مالكتها الشرعيَّة عليها السلام، حُرِم فقراء المسلمين من خيراتها التي كانت الزَّهراء عليها السلام توزِّعها عليهم.

وبناءً على ذلك سنقسِّم هذا المطلب إلى فرعَين، يتناول الفرع الأوَّل تكييف واقعة غصب فدك بموجب أحكام القانون المدنيّ، أمَّا الفرع الثاني فسيتطرَّق إلى التكييف الجزائيّ لواقعة فدك.

الفرع الأوَّل: تكييف واقعة فدك بموجب أحكام القانون المدنيّ

أمَّا عن القول بأنَّ السلطة لم تكن شرعيَّة، وأنَّ مغتصبي السلطة قد غصبوا فدك من مالكتها، فتكون الواقعة واقعة غصب، وانطلاقًا من ذلك سنتناول غصب الملكيَّة بالتعريف القانونيّ، إذ يعرِّف القانون غصب الملكيَّة بأنَّه: «الاستيلاء على مال الغير أو حقِّه عدوانًا بدون سببٍ شرعيّ»[1].

ولم تتطرَّق بقيَّة القوانين العربيَّة إلى تعريف غصب الملكيَّة، ولغصب ملكيَّة فدك كأرض أربع أركان:

١. **الغاصِب**: والذي يتمثَّل في العصابة التي غصبت أرض فدك من مالكتها الشرعيَّة الزَّهراء عليها السلام.
٢. **عمليَّة الغصب**: والتي تتمثَّل في فعل الاستيلاء على حقِّ الزَّهراء عليها السلام عدوانًا وظلمًا.
٣. **المغصوب منه**: وتتمثَّل في شخص الزَّهراء عليها السلام باعتبارها صاحبة الحقِّ الشرعيّ.
٤. **المغصوب**: ويتمثَّل بأرض فدك.

(١) المادَّة (١١١٨)، القانون المدنيّ اليمنيّ المرقم (١٤) لسنة ٢٠٠٢.

ووفقا للقانون الوضعي، فقد اتَّفقت القوانين الوضعيَّة على تحريم التعدِّي على مال الغير ظلمًا وعدوانًا، وأبرزها القانون المدنيّ العراقيّ الذي منع حرمان أحد من ملكه إلَّا وفقًا لحدود القانون، إذ نصت المادَّة (١١٥٠) على: «لا يجوز أن يُحرم أحد من ملكه، إلَّا في الأحوال التي قرَّرها القانون، وبالطريقة التي يرسمها، ويكون ذلك مقابل تعويض عادل يُدفع إليه مقدَّمًا»[١].

من خلال استعراض المادَّة أعلاه، يتَّضح لنا عدم الجواز لأي شخص الاستيلاء أو حرمان شخص من حقِّ ملكيَّته حتَّى لو كانت سلطة عامَّة، فلا يحقُّ لأيِّ سلطة عامَّة أو أيِّ جهة حكوميَّة الاستيلاء على حقِّ شخص معيَّن في ملكيَّته إلَّا بموجب مسوِّغ وحدود قانونيَّة، وقد حدَّد المشرِّع العراقيّ شروط استيلاء السلطة العامَّة على عقار معيَّن، والتي وردت في قانون الاستملاك العراقي، وأهمها:

١. أن يكون الاستيلاء للمنفعة العامَّة.
٢. أن يكون رضائيّ، أي برضا مالك العقار.
٣. أن يكون بموجب قانون.
٤. أن يكون بقرار قضائيّ.
٥. أن يكون المستولي سلطة عامَّة.
٦. أن يكون بتعويض عادل يقدَّم لمالك العقار[٢].

كما نلاحظ أنَّ شروط نزع الملكيَّة لم تنطبق على قضيَّة أرض فدك، فالاستيلاء لم يكن للنفعة العامَّة، ولو كان للمنفعة العامَّة لتُرِكت فدك بيد مالكتها الشرعيَّة فاطمة الزَّهراء عليها السلام، كونها كانت تشكِّل مصدر رزق وعمل لفقراء المسلمين، فلو بقيت فدك بيد الزَّهراء عليها السلام ما بقي فقيرٌ بين المسلمين قطُّ، وهذا يدلُّ على الإضرار بالمنفعة العامَّة، إذ

(١) المادَّة (١١٥٠)، القانون المدني العراقي (٤٠) لسنة ١٩٥١.
(٢) المواد (٤، ٥، ٢٩)، قانون الاستملاك العراقيّ المرقَّم (١٢) لسنة ١٩٨١.

كان الغرض من سلبها لمصلحة العصابة التي ظلمت الزَّهراء عليها السلام، وتجرَّأت على دارها، وكسرت ضلعها الشريف، وفي هذا القول بحثٌ آخر.

أمَّا بالنسبة للشرط الثاني الذي اشترط أن يكون الاستيلاء برضا مالك العقار، وهذا ما لم يتحقَّق أيضًا، إذ سُلبت فدك من مالكتها الشرعيَّة الزَّهراء عليها السلام ظلمًا وعدوانًا وقهرًا، بعد مؤامرة مريرة من القوم الظالمين.

أمَّا الشرط الثالث الذي اشترط أن يكون بموجب قانون، فقد ورد في كافَّة الأحاديث الشرعيَّة أحقيَّة الزَّهراء عليها السلام بأرض فدك، ومن ثمَّ فإنَّ انتزاعها لم يستند إلى نصٍّ شرعيّ لا في القرآن الكريم، ولا في السنَّة النبويَّة، ولا في القواعد الشرعيَّة، وهو باطل، ولا ينطبق عليه وصفٌ إلَّا وصف الغصب والاستيلاء بغير وجه حقٍّ، ومن ثمَّ فإنَّ الاستيلاء على فدك وقع باطلًا، ويوجب الردَّ والتعويض بموجب الشريعة والقانون.

أمَّا الشرط الرابع الذي يوجِب على السلطة المستولية على العقار استحصال قرار حكم قضائيّ بعد انطباق الشروط القانونيَّة الواردة في القانون، أمَّا غصب أرض فدك فلم يُسمَح للقضاء بالتدخُّل سواء كان حكمًا أو إفتاءً، ولو سُمِح لقضاءٍ عادلٍ بالتدخُّل في قضيَّة فدك؛ لحكم بإعادة الأرض إلى الزَّهراء عليها السلام باعتبارها مالكتها الشرعيَّة، والتعويض العادل عمَّا أصاب مالكتها من خسارة لاحقة وكسب فائت.

أمَّا الشرط الخامس الذي أوجب أن يكون الاستيلاء من السلطة العامَّة التي تمثِّل الشعب، وتؤول إليها السلطة بالطرق الشرعيَّة والسلميَّة وبرضا المسلمين، ولم ينطبق هذا الشرط أيضًا على من غصب فدك، فمن استولوا عليها كانوا عصابة تآمرت على أمير المؤمنين عليه السلام، وغصبوا منه الولاية التي أوصى بها رسول الله صلى الله عليه وآله عند غدير (خم)، حين رفع يد الإمام عليّ عليه السلام أمام الملأ، ونادى بأعلى صوت النبوَّة: «**مَن كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه**»، وهذا دليلٌ قاطعٌ على إيلاء شؤون المسلمين وخلافاتهم إلى وليِّ أمرهم الشرعيّ،

الذي عنه رسول الله صلى الله عليه وآله بالاسم، وبصريح العبارة، فهو وحده وليُّ أمر المسلمين من بعد النبيّ صلى الله عليه وآله، ومَن بعده همج رعاع، وعصابة تآمرت على سلب الولاية وأرض فدك من مالكيها الشرعيِّين.

أمَّا الشرط السادس، فإنَّه يشترط أن يكون الاستيلاء بتعويضٍ عادلٍ، والكلُّ يعلم أنَّ فدك نُزعت من الزَّهراء عليها السلام دون أيِّ تعويض، بل كان تعويض تلك العصابة هي حرق باب دار الزَّهراء عليها السلام، وكسر ضلعها.

ومن خلال تحليل النصِّ أعلاه، وقياسه على قضيَّة فدك، يتَّضح أنَّ انتزاع ملكيَّة فدك من مالكتها الشرعيَّة لم يكن قانونيًّا ولا شرعيًّا، وهو باطل من الناحيَتَين الشرعيَّة والقانونيَّة، ويوجِب الردَّ والتعويض في القانون العراقيّ، وفي قوانين كافَّة دول العالم، ولذلك فإنَّ غصب الزَّهراء عليها السلام لحقِّها في فدك لا يجوز من منظور الشريعة الإسلاميَّة الغرَّاء، مثلما هو غير جائز من منظور الدساتير والقوانين المعاصرة، لذلك فإنَّ الغصب لم يُزِل ملكيَّة الزَّهراء عليها السلام لفدك طالما كان إجراءً متعسِّفًا يتَّصف بالبطلان، غير أنَّ المصالح السياسيَّة ومجريات الصراع في صدر الإسلام وما بعده، لم يُتِح أيَّة فرصة لتصحيح هذا الإجراء الباطل، وإعادة فدك للزَّهراء عليها السلام.

الفرع الثاني: التكييف الجزائيّ لقضيَّة فدك

نصَّت المادَّة (١٩٤) من قانون العقوبات العراقيّ على: «يُعاقَب بالإعدام كلُّ من نظَّم أو ترأَّس أو تولَّى قيادة ما في عصابة مسلَّحة هاجمت فريقًا من السكَّان، أو استهدفت منع تنفيذ القوانين أو اغتصاب الأراضي، أو نهب الأموال المملوكة للدولة أو لجماعة من الناس بالقوَّة، أو قاوم بالسلاح رجال السلطة العامَّة، أمَّا من انضمَّ إليها دون أن يشترك في تأليفها أو يتولَّى فيها قيادة ما، فيُعاقَب بالسجن المؤبَّد أو المؤقَّت»[1].

وحين نتناول قضيَّة غصب أرض فدك بموجب قانون العقوبات العراقيّ، نلاحظ

(١) المادَّة (١٩٤)، قانون العقوبات العراقيّ المرقم (١١١) لسنة ١٩٦٩.

انطباق أحكام المادَّة (١٩٤) منه على قضيَّة غصب أرض فدك، ولهذه الجريمة المكتملة ثلاثة أركان، هي:

أوَّلًا. الركن المادِّيّ: تناول قانون العقوبات العراقيّ هذا الركن بالتعريف، إذ عرَّفه بأنَّه: «سلوك إجراميّ بارتكاب فعل جرَّمه القانون، أو الامتناع عن فعلٍ أمر به القانون»[1]، إذ اشترط القانون لتحقُّق الركن المادِّيّ إصدار سلوك مادَّيّ من مرتكب الجريمة، وقد سمِّي بماديَّات الجريمة، كونه يمثِّل السلوك المادِّيّ المحسوس الداخل في كيان الجريمة، ومن ثمَّ لا يعدُّ من ماديَّات الجريمة الأفكار والنوايا التي تدور في ذهن الجاني، ما لم تنفَّذ على أرض الواقع على شكل سلوكٍ مادِّيٍّ محسوس، وقد كان لواقعة غصب أرض فدك سلوكًا ماديًّا محسوسًا ظاهرًا مرئيًّا ومسموعًا، حين سيطروا على أرض فدك بالقوَّة، ومنعوا الزَّهراء عليها السلام من الاستئثار بها كمالكه شرعيَّة لها حين أبلغها أبو بكر أنَّ فدكًا لم تعد ملكًا لها، محتجًّا بمقولته الشهيرة: «إنَّ الأنبياء لا يورِّثون».

ولم يكتفِ القانون الجزائيّ بالسلوك المادِّيّ المرتكَب، بل اشترط تحقُّق نتيجة جرميَّة لهذا السلوك، والعلاقة السببيَّة بين الفعل الجرميّ والنتيجة الجرميَّة المتحقِّقة نتيجةً لهذا الفعل، إذ نصَّ القانون على: «١. لا يُسأل شخص عن جريمة لم تكن نتيجة لسلوكه الإجراميّ، لكنَّه يُسأل عن الجريمة ولو كان قد ساهم مع سلوكه الإجراميّ في إحداثها سبب آخر سابق أو معاصر أو لاحق ولو كان يجهله»[2]، وفي حادثة غصب فدك نلاحظ أنَّ النتيجة الإجراميَّة قد تحقَّقت لفعل الغاصبين، إذ حُرِمت الزَّهراء عليها السلام من ملكيَّة أرضها نتيجة لما صرَّح به أبو بكر، وسانده في تصريحه بقيَّة المتآمرين من أهل السقيفة، وبناءً على هذا الفعل حُرِم فقراء المسلمين من ريع فدك الذي كانت تتبرَّع به الزَّهراء عليها السلام لهم لسدِّ فقرهم وإعانتهم على العيش الكريم، كما توافرت الرابطة السببيَّة بين فعل

(١) المادَّة (٢٨)، قانون العقوبات العراقيّ المرقم (١١١) لسنة ١٩٦٩.

(٢) المادَّة (٢٩/ ١)، قانون العقوبات العراقيّ المرقم (١١١) لسنة ١٩٦٩.

غصب الأرض، وبين النتيجة الجرميَّة المتمثِّلة بمنع مالكتها الشرعيَّة من إدارة شؤونها، وتوزيع غلَّتها على الفقراء من المسلمين، إذ حدثت النتيجة الجرميَّة بناءً على تصريح أبي بكر وعصابته بتحريم أرض فدك على الزَّهراء عليها السلام.

ومن خلال ما توصَّلنا إليه، يتَّضح لنا اكتمال الركن المادِّيّ لحادثة غصب أرض فدك من الزَّهراء عليها السلام، من حيث الفعل والنتيجة والرابطة السببيَّة بينهما.

ثانيًا. الركن المعنويّ: والذي يتمثَّل بالقصد الجرميّ الذي دفع غاصبي أرض فدك إلى ارتكاب الفعل المادِّيّ الذي تناولناه سابقًا، وقد تناول المشرِّع العراقي القصد الجرميّ بالتعريف بأنَّه: «توجيه الفاعل إرادته إلى ارتكاب الفعل المكوِّن للجريمة، هادفًا إلى النتيجة التي وقعت أو أيَّة نتيجة جرميَّة أخرى»[1].

ولهذا الركن أهميَّة لا تقلُّ عن سابقه، فلا يمكن أن تنهض المسؤوليَّة الجزائيَّة ما لم تكتمل كافَّة أركانها، بما فيها الركن المعنويّ، فهو وسيلة المشرِّع في تحديد مَن هو المسؤول جزائيًّا، حتَّى يتسنَّى للقاضي تحديد العقوبة الملائمة لجسامة الجريمة، وحين تناول المشرِّع القصد الجرميّ بالتعريف، نلاحظ أنَّه حدَّد لهذا الركن شرطَين أساسيَّين، هما: العلم والإرادة، فالعلم يعني: تحديد الوقائع والعناصر الواجب التيقُّن منها لتوفِّر القصد الجرميّ، وهو مفهوم معاكس للجهل بالشيء، أمَّا الإرادة فتعني القوَّة النفسيَّة التي توجِّه كلُّ أو بعض أعضاء الجسم لتحقيق غرض غير مشروع، وبانتفائها ينتفي القصد الجرميّ[2].

ومن خلال ما ورد، نلاحظ أنَّ العصابة التي تآمرت على الاستيلاء على أرض فدك قد توفَّر لديها القصد الجرميّ في عنصرَيه، الإرادة والعلم، عندما توفَّرت لديهم القوَّة النفسيَّة الموجِّهة لهم لارتكاب جريمة الاستيلاء على أرض فدك، وهم عالمين

(١) المادَّة (٣٣/ ١)، قانون العقوبات العراقيّ المرقم (١١١) لسنة ١٩٦٩.

(٢) د. أكرم نشأت إبراهيم، القواعد العامَّة في قانون العقوبات المقارن، الدار الجامعيَّة للطباعة والنشر، بيروت، بلا سنة، ص٢٧٣-٢٧٤.

ومتيقِّنين بعودة ملكيَّة الأرض إلى مالكتها الشرعيَّة، ولا غبار على مشروعيَّة ملكيَّة الزَّهراء عليها السلام لفدك، ورغم ذلك ابتدعوا الحجج الواهية، وتبجَّحوا بشريعة الإسلام، واختلقوا الذرائع الكاذبة لانتزاعها من الزَّهراء عليها السلام ظلمًا وعدوانًا، والجميع يعلم أنَّ انتزاع هذه الأرض لم تكن للصالح العام، بل كانت لصالح شخصيّ، هو الاستيلاء عليها للاستئثار بريعها دعمًا لمصالح عصبتهم وتقويةً لموقفهم الذي وقفوه ضدَّ ولاية أمير المؤمنين، وإضعافًا لموقف أمير المؤمنين عليه السلام أمامهم.

ثالثًا. الركن الشرعيّ: أوجدت الشريعة الإسلاميَّة الركن الشرعيّ في كتاب الله الكريم، إذ قال تعالى: ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾[1]، وقوله تعالى توجيهٌ إلى الناس كافَّة لهدايتهم إلى الإيمان، وإرشادهم إلى السير على نهج رسول الله صلى الله عليه وآله، والالتزام بوصيَّته، ولكنَّ القوم كانوا يعرفون ذلك ويعزفون عنه.

وفي القانون الوضعيّ، هو الصفة غير المشروعة، وهو وصف أو تكييف يضفيه القانون على السلوك، وبهذا يتميَّز الركن الشرعيّ عن الركن المادِّيّ والنفسيّ، وأساسه انطباق السلوك على نصٍّ أو قاعدةٍ عقابيَّةٍ تجرِّمه، وللركن الشرعيّ عنصرَين، هما: أوَّلًا: انطباق السلوك على قاعدة قانونيَّة جزائيَّة إيجابيَّة، أي نص تجريم جزائيّ. ثانيًا: عدم توافر سبب من أسباب الإباحة بالنسبة لهذا السلوك، أي عدم انطباق قاعدة مبيحة له[2]. وفي واقعة غصب فدك، فإن غصب الأرض كان مطابقا لقاعدة شرعيَّة تجرِّمه، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ

(١) سورة الإسراء، الآية (١٥).

(٢) د. عليّ حسين الخلف، د. سلطان عبد القادر الشاوي، المبادئ العامَّة في قانون العقوبات، ط٢، العاتك لصناعة الكتاب، القاهرة، ٢٠١٠، ص١٥٢.

(٣) سورة البقرة، الآية (١٨٨).

﴿بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾[1]، ومن خلال الاطّلاع على الآيات الشريفة التي تحرِّم غصب حقوق الآخرين، يتَّضح لنا أنَّ أبا بكر وعصابة السقيفة قد ارتكبوا جريمة تستوجب العقوبة الشرعيَّة والقانونيَّة بموجب القانون الوضعيّ، فبموجب المادَّة (١٩٤) من قانون العقوبات العراقيّ: «يعاقبَ بالإعدام كلُّ من نظَّم أو ترأَّس أو تولَّى قيادة ما في عصابة مسلَّحة هاجمت فريقًا من السكَّان، أو استهدفت منع تنفيذ القوانين، أو اغتصاب الأراضي، أو نهب الأموال المملوكة للدولة أو لجماعة من الناس بالقوَّة..»[2]. ومن خلال الاطِّلاع على هذا النصِّ، يتَّضح لنا أنَّ أحكام هذه المادَّة تتطابق مع السلوك الجرميّ لعصابة السقيفة الذين تآمروا على سلب أرض الزَّهراء عليها السلام بالقوَّة وباستعمال السلاح، لذا فهم يستحقُّون عقوبة الإعدام كجزاء على جريمة غصب أرض فدك، وقهر الزَّهراء عليها السلام بعد وفاة أبيها.

المطلب الثاني: الإثر النفسيّ لقضيَّة فدك

ذكرنا في محور القيمة النفسيَّة لفدك فيما لو لم تُغتصب فإنَّ وارداتها ستكون سببًا في تحقيق الاطمئنان والاستقرار النفسيّ للزَّهراء وأهل بيتها عليهم السلام؛ لأنَّ وارداتها ستكون معينًا في تلبية حاجات الأتباع والموالين في معرفة الحقِّ، وزيادة تعلُّقهم بأهل النبوَّة؛ لأنَّ الأنسان بطبيعته إذا تحقَّقت حاجاته الفسيولوجيَّة، أصبح يفكِّر بالحاجات الأرقى منها، وستزول عنه العقبات التي تحول دون وضوح الحقيقة أمامه، وسيتوصَّل حتمًا إلى أنَّ الحقَّ لا محالة مع عليّ وأهل بيته الكرام، وبذلك تقوى شوكة أمير المؤمنين، ويزداد أتباعه، وهذا ما كانت تخشاه الجهة الحاكمة آنذاك.

فقد قال ابن أبي الحديد: سألت ابن الفارقيّ مدرِّس المدرسة الغربيَّة ببغداد، وقلت له: أكانت فاطمة صادقة؟ قال: نعم. قلت: فلِمَ لم يدفع إليها أبو بكر فدكًا، وهي عنده

(١) سورة النساء، الآية (٢).
(٢) المادَّة (١٩٤)، قانون العقوبات العراقيّ رقم (١١١) لسنة ١٩٦٩.

صادقة؟ فتبسَّم ثمَّ قال كلامًا لطيفًا مُستحسنًا: لو أعطاها اليوم فدكًا لمجرَّد دعواها، لجاءت إليه غدًا وادَّعت لزوجها الخلافة، ولزحزحته عن مقامه، ولم يمكن الاعتذار والموافقة؛ لأنَّه يكون قد سجَّل على نفسه أنَّها صادقة فيما تدَّعي كائنًا ما كان، من غير حاجة إلى بيِّنة وشهود[1].

وعليه يمكن تقسيم مطلبنا إلى فرعَين، يتناول الفرع الأوَّل ضعف الحال وقلَّة الموارد لدى الزَّهراء عليها السلام نتيجة غصب فدك، والفرع الثاني يتناول الشعور بالإحباط نتيجة العزلة ونفور الأتباع؛ لخوفهم من البطش والقتل.

الفرع الأوَّل: ضعف الحال وقلَّة الموارد

فقد قال أبو بكر[2]: «قلتُ لمتكلِّم من متكلِّمي الإماميَّة، يُعرف بعليّ بن تقي، من بلدة النيل: وهل كانت فدك إلَّا نخلًا يسيرًا وعقارًا ليس بذلك الخطير، فقال لي: ليس الأمر كذلك، بل كانت جليلة جدًّا، وكان فيها من النخل نحو ما للكوفة الآن من النخل، وما قصد أبو بكر وعمر بمنع فاطمة عنها إلَّا ألَّا يتقوَّى عليّ بحاصلها وغلَّتها على المنازعة في الخلافة[3]. وهذا يوضِّح كيف كانت الزَّهراء وأهل بيتها عليهم السلام يعيشون في سعة من الحال، وبحبوحة من العيش، ما يجعلهم ذوي قدرة على الإنفاق وإعانة الفقراء وقضاء حوائجهم، فضلًا عن كون هذه الوفرة تجعل الزَّهراء وذريَّتها عليهم السلام في غِنى عن الحاجة للآخرين، ويحقِّق لهم الطمأنينة والاستقرار، فمتى ما تحقَّقت حاجات الإنسان الأساسية تيسر له تحقيق الحاجات الأعلى منها مرتبة.

(١) المجمع العالميّ لأهل البيت عليهم السلام، أعلام الهداية (٣) فاطمة الزَّهراء (سيِّدة النساء)، ط(٦)، بيروت، لبنان، ٢٠٠٩، ص١٦١.

(٢) هو أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ، وهو عالم محدِّث كثير الأدب، ثقة ورع، أثنى عليه المحدِّثون، ورووا عنه مصنَّفاته. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، المجلَّد الثامن (١٥-١٦)، ٢٠٠٧، ص ٣١٩.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمَّد إبراهيم، مكتبة المجتبى، النجف الأشرف، العراق، ٢٠٠٧، ص٣٣٧.

ويبدو أنَّ إضعاف حال الزَّهراء وأهل بيتها عليهم السلام كان مقصودًا ومخطَّطًا له، فالأمر لم يقتصر على حرمانهم من فدك ومواردها، بل أيضًا طال حقَّها كونها من ذوي القربى الذين خصَّهم الله تعالى في محكم كتابه الحكيم؛ للإمعان في فقرهم وقلَّة مواردهم.

فإنَّ فاطمة عليها السلام أتت أبا بكر فقالت: **لقد علمت الذي ظلمتنا عنه أهل البيت من الصدقات، وما أفاء الله علينا من الغنائم في القرآن من سهم ذوي القربى.** ثمَّ قرأت عليه قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ ..﴾[1]، فقال لها أبو بكر: وأنا أقرأ من كتاب الله الذي تقرئين منه، ولم يبلغ علمي منه أنَّ هذا السهم من الخمس مسلَّم إليكم كاملا[2]. وهذا ما اتَّبعه أغلب الحكَّام الذين حكموا الأمَّة الإسلاميَّة من الذين ناصبوا العداء لأهل البيت عليهم السلام.

الفرع الثاني: الشعور بالخذلان لقلَّة الناصر

فقد كتب الأنصاريّ في هذا الشأن: «لقد اقتضت مصلحة أمر الخلافة والحكومة أن يظلموا بغصبها عن تلك المعصومة المظلومة، ليكون عليّ عليه السلام وأولاده فقراء مبتلين بقلَّة الرياش، وضنك المعيشة، وضيق المعاش؛ لتكون وجوه الناس عنهم منصرفة، ورأس الجماعة عن التوجُّه إليهم منحرفة، فلا يتمكَّن عليّ عليه السلام من المنازعة في الخلافة، ولا يصل إليه الناس بالمرَّة حتَّى لا يشتعل ناره، ويقلّ أعوانه وأنصاره، ويتسلَّم أمر الخلافة لأبي بكر ومَن معه، فيكون في أيديهم الحلّ والقبض في الجميع، ويخضموا مال الله خضم الإبل نبتة الربيع، ويعطوا منه من شاؤوا، ويمنعوه ممَّن شاؤوا، وأيم الله ما أشبه حالهم بحال كفَّار قريش حين قالوا في مثله: «لا تُنفقوا على من عند رسول الله حتَّى ينفضُّوا من حوله»، رأى عمر بهذا الرأي بعد أن بُويع أبو بكر بالخلافة، فاستحسنه أبو بكر، وأرسل إلى وكيل فاطمة عليها السلام في فدك والعوالي ومنعه»[3].

(١) سورة الأنفال، الآية (٤١).

(٢) السيِّد مرتضى الرضويّ، مصدر سابق، ص٢٨٢.

(٣) المولى محمَّد عليّ بن أحمد القراجه داغي التبريزيّ الأنصاريّ، اللمعة البيضاء في شرح خطبة=

ولذلك انبرت الزَّهراء عليها السلام لتوضِّح حالة الإحباط الذي أصاب أهل البيت عليهم السلام وورثة النبوَّة، لما أصاب المسلمين من انحرافٍ في الدين وابتعادٍ عن الحقِّ باغتصاب حقِّها من أبيها صلى الله عليه وآله في فدك، وخذلان المسلمين لها ولابن عمِّها، فور رحيل المصطفى صلى الله عليه وآله.

إذ قالت الزَّهراء عليها السلام وهي تخاطب الناس: «**معاشر المسلمين المسرعة إلى قيل الباطل، والمغضية على الفعل القبيح الخاسر، أفلا تتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها؟ كلَّا بل ران على قلوبكم ما أسأتم من أعمالكم، فأخذ بسمعكم وأبصاركم ولبئس ما تأوَّلتم، ساء ما أشرتم، وشرَّ ما اغتصبتم، لتجدنَّ والله محمله ثقيلًا وغبّه وبيلًا، إذا كُشف لكم الغطاء وبان ما وراءه الضرَّاء، وبدا لكم من ربِّكم ما لم تكونوا تحتسبون** ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[1]»[2].

فقد ذكر السيِّد حيدر الآمليّ رواية عن الإمام الصادق عليه السلام، قال فيها: «لـمَّا ولي أبو بكر بن أبي قحافة، قال له عمر: إنَّ الناس عبيد هذه الدنيا، لا يريدون غيرها، فامنع عن عليّ وأهل بيته الخمس والفيء وفدكًا، فإنَّ شيعته إذا علموا ذلك تركوا عليًّا، وأقبلوا إليك رغبةً في الدنيا وإيثارًا لها ومحاماة عليها، ففعل أبو بكر ذلك، وصرف عنهم جميع ذلك[3].

=الزَّهراء، ط ٢، دار التبليغ الإسلاميّ، بيروت، لبنان، ٢٠١١، ص٣٠٦-٣٠٧.

(١) سورة غافر، الآية (٧٨).

(٢) المجمع العالميّ لأهل البيت عليهم السلام، مصدر سابق، ص١٦٠.

(٣) السيِّد حيدر بن عليّ الحسينيّ الآمليّ، الكشكول فيما جرى على آل الرسول، منشورات الرضيّ، قم المقدَّسة، إيران، ٢٠١٩، ص٢٠٣.

الخاتمة

أوَّلًا: الاستنتاجات

١. لا تزال قضيَّة غصب أرض فدك قائمة، فما دام الحقُّ لم يرد إلى أصحابه الشرعيِّين، تبقى الخصومة القانونيَّة والشرعيَّة قائمة حتى تُسترد فدك لأصحابها الشرعيين (وَرَثة الزَّهراء عليها السلام).

٢. تعدُّ فدك من أبرز أنواع المظلوميَّة في التاريخ لغصب الأموال، وممَّا يبقيها شاخصة إلى هذا الوقت، هو بقاءها في قبضة ورثة الغاصِبين وإصرارهم على عدم إعادتها إلى أصحابها الشرعيِّين من ورثة الزَّهراء عليها السلام.

٣. إنَّ غصب أرض فدك ليس جريمة قانونيَّة فحسب، بل جريمة اقتصاديَّة، لما تشكِّله من مصدر رزق لفقراء المسلمين، ولو بقيت فدك بيد الزَّهراء عليها السلام، ما تمكَّن الفقر من المسلمين.

٤. غصب فدك شكَّل ردّ فعل نفسيّ لمالكتها الشرعيَّة، وبقية المسلمين.

٥. مَن هان عليه ظلم الزَّهراء عليها السلام ومصادرة حقِّها، وهي بضعة رسول الله صلى الله عليه وآله، هان عليه ظلم العوام ومصادرة حقوقهم، وعلى إثر ذلك أصبح المسلم غير آمن على نفسه وماله وممتلكاته.

٦. إذا صلُح القائد صلُحت الرعيَّة، والعكس بالعكس، فإذا كانت صفة القائد الظلم ومصادرة حقوق الآخرين، فكيف تكون صفة الرعيَّة، ومن هنا تحوَّل

رجل الأمن من مصدر أمان واطمئنان، إلى مصدر خوف وارهاب، وأصبحت كلمة (أمن) تعني الخوف والرعب.

ثانيا: التوصيات

١. بما أنَّ قضيَّة غصب فدك لا تزال قائمة، يحقُّ لأصحاب الحقِّ الشرعيّ من وَرَثة الزَّهراء عليها السلام إقامة الدعاوى القانونيَّة أمام المحاكم المختصَّة للمطالبة باسترداد فدك والتعويض.

٢. تكثيف الندوات والمؤتمرات على كافَّة الأصعدة؛ لبيان مظلوميَّة فدك على المستوى الوطنيّ والإقليميّ والدوليّ.

٣. لـمَّا كانت الرسالة المحمَّديَّة عامَّة لجميع البشر، فيجب أن يكون هناك إعلام بمستوى المسؤوليَّة؛ ليوضِّح للعالم أجمع بأنَّ الإسلام هو دين العدل والإنصاف وإحقاق الحقِّ، ولا علاقة له بمن تسلَّق إلى هرم السلطة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ظلمًا وجورًا.

٤. نظرًا لما عانت منه سيِّدة نساء العالمين من ظلم وعدوان من قِبَل أعلى سلطة في زمانها، توجَّب على عامَّة الناس في هذا الزمان أن يمعِنوا النظر جيِّدًا في اختيار من يحكمهم، وأن يكون معيارهم العدل، ومخافة الله تعالى، والتفاني في خدمة بلدهم وشعبهم.

قائمة المصادر

* القرآن الكريم.

أوَّلًا: الكتب

١. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمَّد ابراهيم، مكتبة المجتبى، النجف الأشرف، العراق، ٢٠٠٧.
٢. أكرم نشأت إبراهيم، القواعد العامَّة في قانون العقوبات المقارن، الدار الجامعيَّة للطباعة والنشر، بيروت، د.ت.
٣. السيِّد حيدر بن عليّ الحسينيّ الآمليّ، الكشكول فيما جرى على آل الرسول، منشورات الرضيّ، قم المقدَّسة، إيران، ٢٠١٩.
٤. السيِّد محمَّد باقر الصدر، فدك في التاريخ، دار الصدر، شريعت، قم، إيران، ٢٠٠٨.
٥. السيِّد مرتضى الرضويّ، بضعة المصطفى، ط(٢)، مؤسَّسة السِّبطَين العالميَّة، إيران، قم، ١٤٢٧.
٦. الشيخ محمَّد بن الحسن الطوسيّ، الأمالي، مؤسَّسة البعثة، ١٩٩٤.
٧. الشيخ محمَّد إبراهيم المبشّر، قضيَّة فدك، بحث منشور، مجلَّة رسالة القلم، العدد الثالث، ٢٠٢٠.
٨. المجمع العالميّ لأهل البيت عليهم السلام، أعلام الهداية (٣) فاطمة الزَّهراء (سيِّدة النساء)، ط(٦)، بيروت، لبنان، ٢٠٠٩.

٩. المولى محمَّد عليّ بن أحمد القراجه داغي التبريزيّ الأنصاريّ، اللمعة البيضاء في شرح خطبة الزَّهراء، ط٢، دار التبليغ الإسلاميّ، بيروت، لبنان، ٢٠١١.

١٠. آية الله العظمى السيِّد محمَّد باقر الصدر، فدك في التأريخ، ط(١)، شريعت، قم، ١٤٢٩.

١١. داون شلتز، نظريَّات الشخصيَّة، ترجمة: حمد دلي كربولي، وعبد الرحمن القيسيّ، مطبعة جامعة بغداد، بغداد، العراق، ١٩٨٣.

١٢. زيد بهلول سمين، الأمن والتحمُّل النفسي وعلاقتهما بالصحَّة النفسيَّة، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كليَّة الآداب، الجامعة المستنصريَّة، بغداد، العراق، ١٩٩٧.

١٣. د. عليّ حسين الخلف، د. سلطان عبد القادر الشاوي، المبادئ العامَّة في قانون العقوبات، ط٢، العاتك لصناعة الكتاب، القاهرة، ٢٠١٠.

١٤. لندال دافيدوف، مدخل علم النفس، ترجمة: سيِّد طوب وآخرون، ط(٤)، مكتبة التحرير، القاهرة، ١٩٨٣.

١٥. محمَّد إبراهيم، شرح نهج البلاغة، مكتبة المجتبى، النجف الأشرف، ١٤٢٨.

ثانيًا: الإعلانات والوثائق الدوليَّة والدساتير والقوانين

١. إعلان حقوق الإنسان والمواطن الفرنسيّ، ١٧٨٩.

٢. الميثاق العربيّ لحقوق الإنسان، ٢٣/ ٥/ ٢٠٠٤.

٣. البروتوكول الإضافيّ الملحق باتِّفاقيَّة حماية حقوق الإنسان والحريَّات الأساسيَّة، باريس، ٢٠ آذار ١٩٥٢.

٤. الإعلان العالميّ لحقوق الإنسان، ١٩٤٨.
٥. الدستور العراقيّ، ٢٠٠٥.
٦. الدستور المصريّ لسنة ٢٠١٤ المعدَّل في ٢٠١٩.
٧. دستور المملكة العربيَّة السعوديَّة.
٨. القانون المدنيّ اليمنيّ المرقَّم (١٤) لسنة ٢٠٠٢.
٩. قانون الاستملاك العراقيّ المرقَّم (١٢) لسنة ١٩٨١.
١٠. القانون المدنيّ العراقيّ المرقَّم (٤٠) لسنة ١٩٥١.
١١. قانون العقوبات العراقيّ المرقَّم (١١١) لسنة ١٩٦٩.

ملكيَّة فدك من المنظور القانونيّ والشرعيّ

عذراء عبَّاس حسن المعمار
مبلِّغة في مدرسة بنت الرسول صلى الله عليه وآله

ملخَّص البحث

بسم الله والحمد لله الذي لولاه ما جرى قلم ولا تكلَّم لسان، والصلاة والسلام على خير الخلق أجمعين من الأوَّلين والآخرين محمَّد وآله الطيِّبين الطاهرين.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**يا عليّ أما علمت أنَّ فاطمة بضعةٌ منِّي وأنا منها، فمن آذاها فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذاها بعد موتي كان كمن آذاها في حياتي، ومن آذاها في حياتي كان كمن آذاها بعد موتي**».

تجلَّت العصمة الإلهيَّة في جمال فاطمة الزَّهراء عليها السلام، إذ جمعت بين نورَي النبوَّة والإمامة، فعصمتها بالمعنى الأخص، المختَّصة بالأربعة عشر معصوم، وأنَّ هذه المعصومة لا تنسى ولا تسهو، وممَّا يدلُّ على عصمتها:

أوَّلًا: الإجماع القطعيّ، كما ذكر المشايخ، كالصدوق والمفيد والطوسيّ.

ثانيًا: آية التطهير، فالله طهَّر أهل البيت بإرادة تكوينيَّة، ومنهم فاطمة عليها السلام، وعصمتها مطلقة واجبة عقلًا ونقلًا.

ثالثًا: آية المباهلة، حيث قدَّم النساء على الأنفس.

رابعًا: أنَّها حُجَّة الحجج؛ لما ورد في الأخبار الشريفة.

ومرَّت الأحداث المؤلمة على قلب الزَّهراء عليها السلام بعد رحيل أبيها صلى الله عليه وآله، وقامت بإطلاق موقفها الجهادي الأوَّل، وهو المطالبة بنحلتها (فدك)، ولم تطالب بتلك البقعة من أرض الحجاز، بل كانت تطلب البقعة من الأرض التي ترمز إلى السلطة التي كانت لأبيها في جميع الشؤون السياسيَّة والماليَّة وغيرها.

في حديث عن أبي سعيد الخدريّ في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾، ورد أنَّ النبيّ محمَّد صلى الله عليه وآله أعطى فدك للزَّهراء عليها السلام عند نزول هذه الآية، وبقيت عندها حتَّى رحل والدها، فانتزعها أبو بكر بعد استيلائه على السلطة بعد عشرة أيَّام من رحيل النبيّ محمَّد صلى الله عليه وآله.

الكلمات المفتاحية: رسول الله صلى الله عليه وآله، فاطمة الزَّهراء عليها السلام، فدك، غصب، العصمة، أبو بكر.

المقدِّمة

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على محمَّد وآله الطيِّبين الطاهرين، واللعن الدائم على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

اللهمَّ صلِّ على فاطمة وأبيها وبعلها وبنيها والسرِّ المستودع فيها، قد طفحت كلمات العلماء من الخاصَّة جميعهم، ومن العامَّة كثير منهم، بأنَّ اصل مادَّة الزَّهراء الطاهرة عليها السلام ليست من مادَّة هذا العالم، بل هي من الجنَّة من أعلى أشجارها وثمارها، وأمَّا الروح المتناسبة مع هذا البدن التي اختارها الله تعالى لفاطمة الزَّهراء عليها السلام، فهي من أسرار الله التي لا نستطيع أن نفهمها، وإنَّما نفهم بواسطة الأخبار أنَّ روح فاطمة خُلِقت من نور وعظمة الله تعالى، فقد روى الامام الصادق عليه السلام عن جدِّه سيِّد الرُّسل صلى الله عليه وآله، كما جاء في معاني الأخبار للصدوق، ص٣١٦، أنَّه صلى الله عليه وآله قال: «**خلق نور فاطمة قبل أن يخلق الأرض والسماء**. فقال بعض الناس: يا نبيَّ الله أ فَليست هي أنسيَّة؟ فقال صلى الله عليه وآله: **فاطمة حوراء إنسيَّة، خلقها الله عزَّ وجلَّ من نوره قبل أن يخلق آدم، إذ كانت الأرواح..**»، وبذلك يحلُّ ما في الحديث القدسيّ المرويّ في كثير من كتب الأخبار: « **لولاك لما خلقت الأفلاك، ولولا عليّ لما خلقتك، ولولا فاطمة لما خلقتكما**».

وعظمتها هذه ومنزلتها عند الله ورسوله، فقد ظُلمت وغُصب حقُّها، كما قال فيها رسول الله صلى الله عليه وآله: «**كأنِّي بها وقد دخل المذل بيتها، وانتُهِكت حرمتها، وغُصِبت حقَّها، ومُنِعت إرثها، وكُسِر جنبها، وأسقطت جنينها، وهي تنادي يا محمَّد فلا تُجاب، وتستغيث فلا تُعان**». الأمالي للصدوق، ص١٧٦، إرشاد القلوب، ج٢، ص٢٩٥. بشارة المصطفى، ص٣٠٧، بحار الأنوار، ص٢٨، ٣٨.

لذا فإنَّ حياة فاطمة الزَّهراء عليها السلام الاجتماعيَّة والأخلاقيَّة، والمدافعة عن حقوق آل البيت، وبأحقيَّتهم بما ترك رسول الله صلى الله عليه وآله، والمطالبة بالخلافة لأمير المؤمنين عليه السلام، لا بسبب كونها ابنة المصطفى محمَّد صلى الله عليه وآله، إنَّما كان لزامًا على الباحثين أعطاء أهميَّة كبيرة في أبحاثهم في هذا المجال، ويرمي البحث إلى تسليط الضوء على مظلوميَّة فاطمة الزَّهراء وغصب حقِّها ومعاداتها من قِبَل بعض المسلمين في ذلك الوقت.

المبحث الأوَّل

إطلالة على فدك

فدك هذه أرض حجازيَّة تقع على مقربة من مدينة الرسول صلى الله عليه وآله، وهي أرض زراعيَّة غنيَّة بمائها[1]. وكانت لليهود حتَّى السنة السبعة للهجرة، حيث أصبحت بعد هذا التاريخ دارًا للإسلام، وذلك بعد أن تجلَّت مكائد اليهود ودسائسهم ونقضهم للعهود التي أبرمها الرسول صلى الله عليه وآله معهم، وحين ظهر سوء طويَّتهم واتِّصالاتهم المفضوحة مع المعسكر الوثنيّ، واشتراكهم في حرب المسلمين إلى جانب قوى الضَّلال، صمَّم الرسول صلى الله عليه وآله على محاربتهم؛ لأنَّهم أصبحوا خطرًا فعليًّا على الدولة الإسلاميَّة الفتيَّة، وركيزة من ركائز التآمر على سلامة الكيان الإسلاميّ، وحين علم اليهود بتصميم النبيّ وإعلانه محاربتهم، استحوذ عليهم الذعر ودبَّ الفزع في نفوسهم قبل أن يسير إليهم الرسول بخيل ورجال، وقد طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وآله الصلح تاركين له فدية (فدك)، ولـمَّا كانت الأرض التي يفرُّ عنها أعداء الإسلام دون أن يوجف عليها بخيل ولا ركاب، ينطبق عليها حكم ملكيَّة الدولة[2]، في الاصطلاح الاقتصاديّ، أو الأنفال في الاصطلاح الفقهيّ، فقد أصبحت ملكًا للرسول صلى الله عليه وآله بصفته رئيس الدولة الإسلاميَّة، وحكم مثل هذه الأرض ليس موضوعًا اجتهاديًّا، إنَّما هو موضوع في إطار مذهبيّ رصين، رسم القرآن الكريم حدوده وطابعه، كما رود ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ

(١) الاحتجاج، الطبرسيّ.
(٢) اقتصادنا، محمَّد باقر الصدر.

وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾[1]. وقد صرَّح القرآن الكريم أنَّ الفيء هو المال الذي يحصل من دون عناء ومشقَّة من قِبَل المسلمين، أمره راجع إلى النبيّ بناءً على الآية المتقدِّمة، فكان أمره مفوَّضًا إلى الرسول صلى الله عليه وآله [2]، فوهبها النبيّ صلى الله عليه وآله لبضعته فاطمة الزَّهراء عليها السلام[3]، وقيل إنَّ أمير المؤمنين عليه السلام كان جنب النبيّ صلى الله عليه وآله في فتح فدك[4]، وأكَّد بعض المفسِّرين منهم الشيخ الطوسيّ[5]، والطبرسيّ[6]، والحسكانيّ[7]، والسيوطيّ[8] أنَّ النبي وهب فدكًا لفاطمة عليها السلام عند نزول الآية ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾[9].

المطلب الأوَّل: فدك في القرآن الكريم

ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾[10]، وقال تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴾[11]، والشاهد في الآيتَين هو قوله: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾، فأشغل فكر رسول الله صلى الله عليه وآله من هم؟ وما حقُّهم؟ فنزل جبرائيل ثانيًا عليه صلى الله عليه وآله وقال: **إنَّ الله سبحانه يأمرك أن تعطي فدكًا لفاطمة عليها السلام**، فطلب النبيّ صلى الله عليه وآله ابنته فاطمة عليها السلام، وقال: إنَّ الله تعالى أمرني أن أدفع إليك فدكًا، فمنحها إيَّاها، وتصرَّفت

(١) سورة الحشر، آية ٦.
(٢) فخر الرازي، مفاتيح الغيب، ج٢٩، ص٥٠٦، الطباطبائيّ، الميزان، ج٩، ص٢٠٣.
(٣) الكلينيّ، الكافي، ج١، ص٥٤٣، المفيد، المقنعة، ص٢٨٩-٢٩٠، شهيدي زندگاني، فاطمة زهراء عليها السلام، ص٩٦-٩٧.
(٤) الكلينيّ، الكافي، ج١، ص٥٣٨.
(٥) الطوسيّ، التبيان في تفسير القرآن، ج٦، ص٤٦٨.
(٦) الطبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٦، ص٦٣٤-٦٣٣.
(٧) الحسكانيّ، شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، ج١، ص٤٣٩-٤٣٨.
(٨) السيوطيّ، الدرُّ المنثور، ج٤، ص١٧٧.
(٩) الإسراء، آية ٢٦.
(١٠) سورة الروم، آية ٣٨.
(١١) سورة الإسراء، آية ٢٦.

هي فيها، وأخذت حاصلها، فكانت تنفقها على المساكين، وهذا الكلام قد ورد في كتاب التفسير لأهل السنَّة، كالثعابيّ في تفسير كشف البيان، وجلال الدين السيوطيّ في الدرّ المنثور، ج٤.

ورواه عن الحافظ ابن مردويه أحمد بن مسلم المتوفَّى في عام ٣٥٢هـ، وأبو القاسم الحاكم الحسكانيّ، والمتَّقي الهنديّ في كنز العمَّال، وابن كثير الدمشقيّ الفقيه الشافي في تاريخه، والشيخ سلمان الحنفيّ في ينابيع المودَّة (باب٣٩)، نقلًا عن الثعلبيّ، وعن جمع الفوائد وعيون الأخبار أنَّه لـمَّا نزلت: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ دعا النبيّ صلى الله عليه وآله فاطمة عليها السلام، فأعطاها فدك الكبير.

آية المودَّة، وهي قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[1]، أخرج أبو نعيم، والديلميّ من طريق مجاهد عن أبي عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ **أن تحفظوني في أهل بيتي وتودُّوهم لي**. وعلى هذا، فإذا كان أجر الرسالة هو المودَّة في القربى، وإذا كان المسؤول عنه الناس يوم القيامة، هو المودَّة لاهل البيت عليهم السلام، فبماذا نفسِّر ما حصل للزَّهراء عليها السلام بعد وفاة أبيها صلى الله عليه وآله من اهتضام، وجسارة، وغصب حق!.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[2]، فقوله تعالى: ﴿أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾، أي ردَّ الله ما كان للمشركين على رسوله بتمليك الله إيَّاه منهم ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ﴾، أوجف خيله أي أزعجه في السير، والرِّكاب هنا الإبل، والمعنى: إنَّكم لم تستولوا على تلك الأموال بخيولكم، وما ركبتم خيولكم وإبلكم

(١) سورة الشورى، آية ٢٣.

(٢) سورة الحشر، الآيتين ٦-٧.

لأجل الاستيلاء عليها، ولكنَّ الله يمكِّن رسله من عدوِّهم من غير قتال، فجعل الله أموال بني النضير، وهي (فدك)، لرسوله خالصة، يفعل بها ما يشاء، وليست من قبيل الغنائم التي توزَّع على المقاتلين، وبهذا يتَّضح أن فدك ملك خالص لرسول الله صلى الله عليه وآله.

فقد ذكر ابن حجر في الصواعق المحرقة الخليفة الثاني عمر قال: إنِّي أحدِّثكم عن هذا الأمر (أي فدك): إنَّ الله خصَّ نبيَّه في هذا الفيء بشيء لم يعطيه أحدًا غيره، فقال: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، فكانت هذه خالصة لرسول الله صلى الله عليه وآله، هذا ما حدَّثنا عنه التاريخ الإسلاميّ عن قضيَّة فدك، وأنَّها كانت ملكًا خالصًا لرسول الله صلى الله عليه وآله[1]، ثمَّ قدَّمها لابنته الزَّهراء عليها السلام بأمر من الله سبحانه وتعالى، وبقيت عندها حتَّى رحيل والدها صلى الله عليه وآله، فانتزعها أبو بكر بعد استلامه السلطة بعشرة أيَّام.

المطلب الثاني: فدك في السنَّة

وقبل الدخول في هذا المطلب، لا بدَّ من بيان عصمة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، وأنَّ عصمتها عليها السلام عصمة تكوينيَّة، ووجوبها واجب عقليّ ونقليّ، وممَّا يدلُّ على عصمتها عليها السلام أمور:

أوَّلًا: الإجماع القطعيّ، كما ذكر المشايخ، كالصدوق والمفيد والطوسيّ.

ثانيًا: آية التطهير، فالله طهَّر أهل البيت بإرادة تكوينيَّة، ومنهم فاطمة عليها السلام، وعصمتها مطلقة واجبة عقلًا ونقلًا.

ثالثًا: آية المباهلة، حيث قدَّم النساء على الأنفس.

رابعًا: أنَّها حُجَّة الحجج؛ لما ورد في الأخبار الشريفة.

فلا يجوز لأيِّ شخص يشكُّ في عصمتها ويكذِّبها، أو يعترض على أيِّ قول أو فعل لها عليها السلام؛ لأنَّ المعصوم منزَّه عن الخطأ والسهو والنسيان، فعصمتها بالمعنى الأخص المختصَّة بالأربعة عشر معصوم.

(١) ابن حجر، في الصوقع المحترقة، الشيخ السموديّ في تاريخ المدينة.

ومرَّت الأحداث المؤلمة على قلب الزَّهراء عليها السلام بعد رحيل أبيها صلى الله عليه وآله، فقامت بإطلاق موقفها الجهاديّ الأوَّل، وهو المطالبة بنحلتها من أبيها صلى الله عليه وآله، أو ميراثها (فدك)، ولم تطلب بتلك البقعة من أرض الحجاز، بل كانت تطلب الأرض التي ترمز إلى الولاية التي كانت لأبيها في جميع الشؤون السياسيَّة والماليَّة وغيرها، بعد إعلان أبي بكر بُعَيد واقعة السقيفة أنَّ (فدك) ليس ملكًا لأحد، وانتزعها لمصالحه، فجاءته عليها السلام معترضة، ووقع نزاع بينهما، كماتذكره المصادر التاريخيَّة والروائيَّة.

وإنَّ وقائع الدعوى، كما يذكر لنا التاريخ، تتجسَّد فيما يأتي:

وفق المصادر ينسب أبو بكر رواية إلى النبيّ صلى الله عليه وآله، وادَّعى أنَّ النبيّ لا يورِّث، إلَّا أنَّ السيدة الزَّهراء عليها السلام قالت إنَّ النبي وهبها فدك في حياته، فطلب أبو بكر منها الشهود، فأتت ببعلها عليّ عليه السلام، وأمُّ أيمن، فلم يقنع أبو بكر بشهادة أمّ أيمن وحدها، ورفض إرجاع فدك، فتركت فاطمة المجلس وألقت في الصحابة خطبة تدعى الفدكيَّة، عرَّفت فيها نفسها، وأبدت من خلالها اعتراضها على الخليفة الأوَّل الذي انتزع فدك منها[1]، لكن أبو بكر لم يردَّ فدك إلى الزَّهراء عليها السلام.

وورد في الكثير من الروايات أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قدَّم فدك لابنته فاطمة عليها السلام، ومن هذه الروايات:

أخرج البزَّاز وأبو بعلي وابن حاتم وابن مردويه عن أبي سعد الخدريّ، قال: لـمَّا نزلت هذه الآية ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾، دعا رسول الله فاطمة فأعطاها فدك[2].

أخرج ابن مردويه عن ابن عبَّاس قال: لـمَّا نزلت ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾، قطع رسول الله فاطمة فدكًا[3].

(١) البلاذريّ، فتوح البلدان، ج١، ص٣٦، البلاذريّ، أنساب الأشراف، ص٥١٩، شهيدي زنداكني، فاطمة الزَّهراء، ص١٥٥.

(٢) جلال الدين، الدرُّ المنثور في تفسير بالمأثور، ص٣٢٠، في تفسير آية ٢٦، سورة الإسراء.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٢١، في تفسير آية ٢٦، سورة الإسراء.

فوهب رسول الله صلى الله عليه وآله بأمر من الله عزّ وجلّ فدكًا لابنته فاطمة عليها السلام، فكان العاملون بها يأتون بالحصاد أو قيمته من المال لفاطمة عليها السلام في حياة النبيّ صلى الله عليه وآله وحتّى وفاته صلى الله عليه وآله، حتّى استولى أبو بكر عليها، فمنع الزّهراء حقّها. ويروي ابن أبي الحديد خلال تحليلٍ له أنّه سأل عليّ ابن الفارقيّ مدرِّس المدرسة الغربيّة ببغداد، حول صدق فاطمة عليها السلام مطالباتها بفدك، فأجابه بصدقها، فسأله فلمَ لم يدفع إليها أبو بكر فدك، وهي عنده صادقة؟ فقال: لو أعطاها اليوم فدك بمجرّد دعواها، لجاءت إليه غدًا وادّعت لزوجها الخلافة، وزحزحته عن مقامه، ولم يكن يملنه أنّها صادقة فيما تدّعي كائنًا من كان، من غير حاجة إلى بيِّنة ولا شهود.. يتابع ابن أبي الحديد بأنّ هذا الكلام وإن كان إخراجه مخرج الدعاية والهزل[1].

المطلب الثالث: تعريف فدك وبيان أهميّتها

فَدَك بفتح الفاء والدال من فدكت القطن تفديكًا، أي نفشته، وهي لغة أزديّة[2]، ويعود تأسيسها في بعض التواريخ إلى أكثر من ألف سنة قبل الإسلام بيد الزهّاد الذرخاء من حواري موسى بن عمران عليه السلام[3]، الذي أوصى أحفاده بقوله: «إنّ هذا فدك أسّستها لكم وفي أيديكم من أولادي وأحفادي يدًا بيد حتّى يُبعث نبي آخر الزمان اسمه أحمد[4]، وابن عمِّه عليّ، بعدي بخمسين وخمسمائة وألف سنة»، كما تعتبر فدك من المواقع الأثريَّة المهمَّة، إذ تحتوي على بقايا القلاع والقصور المشيَّدة بالأحجار المأخوذة من المنطقة، ولا يزال بعضها قائمًا حتّى الآن، إذ إنّ سور المدينة القديم لا يزال

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج١٦، ص٢٨٤.

(٢) إسماعيل الأنصاريّ، الرنجانيا نخوئيني، الموسوعة الكبرى عن فاطمة الزّهراء، ج٢، قم المقدّسة، ٢٠٠٦، ص٢٣.

(٣) عليّ يوسف، موسى عليه السلام، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٧، ص٢٧، ٤٦-٥١، ٦٣-٧١.

(٤) ينظر: أبي محمّد عبد الغنيّ بن عبد الواحد المقدسيّ، مختصر سيرة النبيّ صلى الله عليه وآله وسيرة أصحابه العشرة، تحقيق: خالد عبد الرحمن بن حمد الشايع، ط٢، بلنسية للنشر، الرياض، ٢٠٠٣، ص٣٥-٣٩، ٥٨، ٦٥، ٦٩-٧٦، ٨٣-٨٤.

موجودًا[١]. أمَّا تسميتها بفدك فتعود إلى (فدك بن حام)، وهو أوَّل من سكن هذه الأرض، وقد عُرِفت باسمه، أمَّا اليوم فتدعى باسم الحائط[٢]، وأصبحت متروكة بعد انقطاع وجفاف مياه العيون التي كانت ترويها، تبلغ مساحتها في أقصى طول لها ١٢٠٠م واقصى عرض ٦٠٠م، ويعدُّ الموقع من المواقع الأثريَّة في المنطقة، إذ تضمُّ القلاع والحصون والقصور الحجريَّة السوداء[٣]. النظر لموقعها الإستراتيجيّ كانت منطقة عسكريَّة عند اليهود في الحجاز[٤]، تقع في القرب منها تحصينات عسكريَّة لحصن شمروخ[٥].

وفدك اليوم مدينة عامرة تسمَّى (الحائط)، وهي تتكوَّن من ٢١ قرية حتَّى سنة ١٩٧٥، وكان عدد سكَّانها ١٤٠٠ نسمة، حسب إحصائيَّة أُجريت سنة ٢٠٠٧م[٦]. وفدك مع أنَّها مجاورة لأراضي الحرِّ القاحلة، إلَّا أنَّها ذات أراضي زراعيَّة خصبة ومليئة بالمزارع والنخيل[٧]، وتشير المصادر إلى أنَّ اليهود سكنت فدك حتَّى أيَّام عمر بن الخطَّاب، حيث أجلاهم عنها[٨]. لـمَّا جلى عمر بن الخطاب اليهود من فدك دفع إليهم قيمة النصف الذي لهم، وكان مبلغ ذلك خمسين ألف درهم أعطاهم إيَّاها من مال أتاه من العراق، وأجلاهم إلى الشام[٩]. وقد كانت فدك في عصر بزوغ الإسلام تضمُّ المزارع

(١) إسماعيل، الرنجانيا لخوئيني، مصدر سابق، ص١١-٢٢.
(٢) محمَّد باقر الأنصاريّ، تقرير عن قضيَّة فدك بلحظة، ت: مرداني بور النعمانيّ، مؤسَّسة أنصاريان للنشر، قم المقدَّسة، ص٢.
(٣) آثار منطقة حائل، سعيد بن فايز السعيد وآخرون، وزارة المعارف، وكالة الآثار والمتاحف، الرياض، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، ص١٧١.
(٤) البلاذريّ، معجم الحجاز (الحائط)، ج٢، ص٢٠٥-٢٠٦، الجواهري البغداديّ، السقيفة وفدك، ج٧، ص٢٣.
(٥) السبحانّي، فرارهابي حساس اززندكاني أمير مؤمنان عليه السلام، ص١٤.
(٦) محافظة الحائط.
(٧) البلاذريّ، معجم معالم الحجاز، ج٧، ص٢٧.
(٨) مرجاني، بهجة النفوس والأسرار، ج١، ص٤٣٨.
(٩) الجواهريّ، السقيفة وفدك، ص٩٥.

والبساتين الواسعة نظرًا لما تتمتَّع بها من أراضي خصبة غنيَّة بالمياه الجوفيَّة، لذلك كانت الأرباح الناتجة من الزراعة في فدك جيِّدة جدًّا[1].

قال ابن ابي الحديد: إنَّ فدك فيها من النخيل نحو ما في الكوفة الآن (أي في القرن السابع)[2]. ليس هناك معلومات دقيقة عن الدخل السنويّ لفدك، إلَّا أنَّ بعض المصادر يقدِّر ذلك في زمن الرسول صلى الله عليه وآله نحو ٢٤ إلى ٧٠ ألف دينار[3]. ويرى بعض الباحثين أنَّ الموارد الناتجة عن فدك كانت تبلغ نحو ٢٤ إلى ألف دينار، ويرى بعض الباحثين أنَّ الموارد الناتجة عن فدك كانت تبلغ حدًّا يستغني به بنو هاشم عن أموال بيت المال، وعن الخليفة[4].

نستنج ممَّا سبق أنَّ فدك مهمَّة ومرتبطة بقضايا ومسألة الإمامة والخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ارتباطا وثيقًا.

ثمَّ إنَّها تمَّ ذكرها في القرآن الكريم، وفي أحاديث الرسول صلوات الله عليه. كما أنَّ الاهتمام بخصوص فدك من الزَّهراء عليها السلام نفسها وأئمَّة أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم منذ اليوم الأوَّل، لم يكن لمجرَّد كونها بستان، أو مزرعة، لكنَّها تعني الكثير.

(١) الحمويّ، معجم البلدان، ج٤، ص٣٨، ابن منظور، لسان العرب، ج١٠، ص٤٣٧.
(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج١٦، ص٢٣٦.
(٣) قطب راوندي، الخرائج والجرائح، ج٥١، ص١١٣، ابن طاووس، كشف المحجَّة، ص١٢٤، قد وشاني، فدك دار نشنامة، ج١، ص٢٩٧.
(٤) شهيدي، فاطمة دختر، محمَّد صلى الله عليه وآله، ص٣٩١-٣٩٠.

المبحث الثاني

أدلَّة الزَّهراء عليها السلام في ملكيَّة فدك

روى ابن عبَّاس، وأبو سعيد الخدريّ أنَّه لـمَّا نزل قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾[1]، دعا رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمة عليها السلام فأعطاها فدكًا والعوالي، وقال صلى الله عليه وآله: «**هذا قسم قسمه الله لك ولعقبك**»[2]. وقد ذكر الحاكم الحسكانيّ، وهو من أعلام القرن الخامس الهجريّ طرقًا سنَّة لرواية أبي سعيد الخدريّ المتقدِّمة الذِّكر، وطريقًا واحدًا لرواية ابن عبَّاس[3]. وهناك نصٌّ آخر يثبت ملكيَّة الزَّهراء عليها السلام لفدك، وهو ما ورد في نهج البلاغة في كتاب أمير المؤمنين عليه السلام لعثمان بن حنيف، قال عليه السلام: «**بلى كانت في أيدينا فدك، ومن كلِّ ما أظلَّته السماء، فشحَّت عليها نفوس قوم، وسخت عنها نفوس قوم آخرين، فنِعم الحكم لله**»[4]. ونقول: فإذا كانت (فدك) حين مات النبيّ صلى الله عليه وآله في يد الزَّهراء عليها السلام، فكيف يحقُّ لأبي بكر مطالبتها بالبيِّنة، وبيِّنة ذي اليد هي أرجح من كلِّ بيِّنة، إذا تعارضت النصوص في الملكيَّة، وقد حاجج الإمام عليّ عليه السلام أبا بكر في هذه المسألة.

وقال له عليه السلام اتحكم فينا بخلاف ما حكم الله في المسلمين ؟ قال: لا

قال عليه السلام: **فإن كان في المسلمين شيء يملكونه ادَّعيت أنا فيه من تسأل البيِّنة؟**

قال: إيَّاك أسال البيِّنة على ما تدَّعيه على المسلمين.

(١) الإسراء، آية ٢٦.

(٢) الدرُّ المنثور، للسيوطي: ٥/ ٢٧٣، روح المعاني للآلوسيّ: ١٥/ ٦٢، كنز العمَّال: ٣/ ٧٦٧.

(٣) شواهد التنزيل: ١/ ٣٤، ٢٣٨، ٤٤٣.

(٤) نهج البلاغة، ص٤١٦، صبحي الصالح.

قال عليه السلام: **فإذا كان في يدي شيء فادَّعى فيه المسلمين تسألني البيِّنة على ما في يدي وقد ملكته في حياة الرسول صلى الله عليه وآله، وبعهده لم تسأل المؤمنين البيِّنة على ما ادَّعوه كما سألتني البيِّنة على ما ادَّعيت عليهم**[1]. فلولا أنَّ لليد أثر في إفادة الملك لما كان لذكره وجه، ثمَّ إنَّ النوري نسب إلى جمهور المسلمين من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم الحكم بشهادة ويمين في الأموال، ونقل ذلك عن أبي بكر نفسه، فهلا طلب أبو بكر ذلك من الزَّهراء عليها السلام، ولكن لـمَّا أصرَّ القوم على موقفهم المخالف للشريعة في أحكام الدعاوى، اضطرَّت الزَّهراء عليها السلام إلى الاستعانة بالشهود، وكان عدد الشهود الذين استعانت بهم سبعة أشخاص، وليس ثلاثة. واليكم الأسماء مع المصادر التي ذكرت ذلك:

١. عليّ بن أبي طالب[2].
٢. أمُّ أيمن[3].
٣. رباح مولى البنيّ صلى الله عليه وآله[4].
٤. أسماء بنت عيسى زوج أبي بكر آنذاك[5].
٥. الحسنان عليهما السلام.
٦. وأمُّ كلثوم[6].

وكلَّما تعدَّد الشهود بحسب الروايات المتقدِّمة، تتعدَّد أجوبة أبو بكر للزَّهراء بعد إحضارها للشهود.

(١) تفسير القمِّيّ: ٢/ ١٥٦، الاحتجاج للطوسيّ، ص٩٢، الوسائل أبواب كيفيَّة الحكم وأبواب الدعوى، ب٢٥، ج٣.
(٢) فتوح البلدان للبلاذريّ، ص٤٠، السيرة الحلبيَّة: ٣/ ٣٦٢، بحار الأنوار: ٢٩/ ١٩٧.
(٣) شرح نهج البلاغة للمعتزليّ: ١٦/ ٢٢٠، فتوح البلدان، ص٤٠، تاريخ اليعقوبيّ: ٢/ ٣٦٢، التفسير الكبير للفخر الرازي: ٢٩/ ٢٨٤.
(٤) فتوح البلدان، ص٤٠، التفسير الكبير للرازي: ٢٦/ ٢٨٤.
(٥) فاطمة الزَّهراء لعبد الفتاح عبر المقصود: ٢/ ٢١٨.
(٦) السيرة الحلبيَّة، ٣/ ٣٦٢، المواقف للإيجيّ، ص٤٠٢.

فتارةً: إنَّ هذا المال لم يكن للنبيّ، وإنَّما كان من أموال المسلمين.

وثانية: احضر أبو بكر عمر وعبد الرحمن بن عوف فشهدا على أنَّ النبيّ كان يقسِّمها.

وثالثة: إنَّ هذا الأمر لا يجوز فيه شهادة رجل وامرأتَين.

ورابعة: إنَّها شهادة غير مقبولة؛ لأنَّها ترد نفعًا، أمَّا عليّ فهو زوجها، وأمَّا الحسنان فهما إبناها، وأمَّا أسماء بنت عميس فإنَّها تجر إلى بني هاشم؛ لأنَّها كانت زوجًا لهاشميّ وهو جعفر بن أبي طالب (مع أنَّ جفعر استشهد، وهي متزوِّجة فعلًا من أبي بكر)، وهنا نريد أن نعلِّق على من يدَّعي أنَّ كلَّ شهادة تجر نفعًا فهي مرفوضة، إذًا ما هو مستند هذا الحكم؟ هل هو حديث لم يسمع به إلَّا أبي بكر، أو حكم قضى به رسول الله صلى الله عليه وآله لم ينقله أحد؟!

مع أنَّ المحدثون والفقهاء ردُّوا هذه الدعوى، ففي الحديث عدُّوه عن عائشة الذي فيه: «لا يجوز شهادة.. ولا ذي غم لأخيه ولا مجرب شهادة ولا القانع (التابع) أهل بيت لهم ولا ظنين في ولاء ولا قرابه». قال عنه الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلَّا من حديث زياد الدمشقيّ، ويزيد ضعيف في الحديث، ولا نعرف هذا الحديث من حديث الزهريّ إلَّا من حديثه، وفي الباب عن عند الله بن عمر وقال: «ولا صحيح عندي من قبل إسناده والعمل عند أهل العلم في هذا أنَّ شهادة القريب جائزة لقريبه، ولم يختلفوا في شهادة الأخ لأخيه، أنَّها جائزة، وكذا شهادة كلِّ قريب لقريبه[1].

وقال النوريّ: وتُقبَل شهادة أحد الزوجَين للآخر؛ لأنَّ النكاح سبب لا يعتق به أحد على الآخر بالملك، فلم يمنع من شهادة أحدهما للآخر[2]. وفي (إعانة الطالبيين) تُقبل شهادة الزوج لزوجته وبالعكس؛ لأنَّ الحاصل بينهما عقد يطرأ ويزول، فلا يمنع

(١) سنن الترمذيّ: ٤/ ٥٤٥.

(٢) المجموع: ٢٠/ ٢٣٥.

قبول شهادة[1]، بل هناك التفاتة لطيفة ذكرها الفقهاء، وهي إنَّ أبا بكر في جوابه الثاني أقرَّ شهادة أمير المؤمنين عليه السلام، وهذا ما يمكن استخلاصه ممَّا ورد في به الروايات دون أن نصل إلى نتيجة حاسمة في ضوء ذلك، ولكن لا بدَّ من محاكمة هذه المعطيات في ضوء التشريع الإسلاميّ، وهل انطلق أبو بكر من نطاق شرعيّ قانونيّ ليدفع به حقَّ الزَّهراء عليها السلام؟! أم إنَّها سياسية فرضت على القانون تسير في خدمتها ولتؤسِّس واقعًا يستعين بقوَّة الحكم، ولو على سحاب الشرع، في سبيل الوصول إلى غايات يراها أهلها أنَّه الأصلح في إدارة شؤون البلاد والعباد؟![2].

المطلب الأوَّل: ملكيَّة فدك من المنظور القانونيّ

بعد تملُّك فاطمة الزَّهراء عليها السلام لفدك، بادرت شؤونها للسنوات الأربع الأخيرة من حياة النبيّ حتَّى اتَّخذت حكومة أبو بكر قرار بمصادرة فدك، حيث أرسل الخليفة رجالاته تطرد وكلاء السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام ومصادرة فدك، وهنا دخلت فاطمة الزَّهراء عليها السلام في جدال عقائديّ فقهيّ؛ لإثبات حقِّها وبطلان تصرُّف حكومة أبو بكر[3].

ونستدلُّ على ذلك الفعل:

هو كون فدك نحلة من الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله إلى ابنته السيِّدة الزَّهراء عليها السلام في حال حياته بأمر من الله عزَّ وجلَّ، فتصرَّفت السيِّدة الزَّهراء عليها السلام فيها، فبعثت عمَّالها ليعملوا، وكانوا يأتون إليها بحاصلها في حياة النبيّ صلى الله عليه وآله، وهي كانت تنفق على نفسها وعيالها أو التصدُّق به على الفقراء والمعوزين، ولكن بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله، أرسل أبو بكر جماعة فأخرجوا عمَّال فاطمة الزَّهراء عليها السلام من فدك، وغصبوها وتصرفوا فيها، وذكر الطبرسيّ في الاحتجاج: «فجاءت فاطمة الزَّهراء عليها السلام إلى أبي بكر قالت عليها السلام: **لِمَ تمنعني ميراثي**

(١) إعانة الطالبيين: ٤/ ٣٢٩.

(٢) مقتبس من مركز البحوث العقائديَّة.

(٣) انتصار عبد الواحد العوَّاد، محمَّد باقر الأنصاريّ، تقرير عن فضيحة فدك، لحظة بلحظة، ت٢، مرداني بور النعمانيّ، مؤسَّسة أنصاريان للنشر، قم المقدَّسة، ص٥٨٧.

من رسول الله صلى الله عليه وآله وأخرجت وكيلي من فدك، وقد جعلها لي رسول الله صلى الله عليه وآله بأمر الله تعالى؟. لعلَّ السيِّدة الزَّهراء عليها السلام ذكرت هذا؛ لأنَّها رأت أبو بكر يعمل بقاعدة اليد التي قد حصلت عبر طريق النِّحله.

فقال: هاتي على ذلك شهود. فجاءت أمّ أيمن، وقالت: لا أشهد يا أبا بكر حتَّى احتجَّ عليك بما قال رسول الله صلى الله عليه وآله، أنشدك بالله ألست تعلم أنَّ رسول الله قال: «**أمّ أيمن من أهل الجنَّة**»؟ فقال: بلى. فقالت: فأشهد أن الله عز وجل أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ﴿**وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ**﴾، فجعل فدك طعمة لها بامر الله تعالى.

فجاء عليّ عليه السلام فشهد بمثل ذلك، فكتب لها كتابًا ودفعه إليها عليها السلام، فدخل عمر فقال: ما هذا الكتاب؟ فقال: إنَّ فاطمة ادَّعت في فدك وشهدت لها أمّ أيمن وعليّ فكتبته لها، فاخذ عمر الكتاب من فاطمة الزَّهراء عليها السلام فتفل فيه فمزَّقه، فخرجت فاطمة الزَّهراء عليها السلام تبكي. وفي سيرة الحلبيّ أنَّ عمر أخذ الكتاب فشقَّقه[1]، والرواية المذكورة تُشير إلى نِحلة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله للسيِّدة الزَّهراء عليها السلام».

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنَّ السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام جاءت إلى أبي بكر بأمر من أمير المؤمنين عليه السلام، وقالت له: **ادَّعيت مجلس أبي وأنَّك خليفته، وجلست مجلسه، ولو كانت فدك لك، واستوهبتها منك؛ لوجب عليك ردها عليَّ**.

فقال: صدقت.

ودعا بكتاب فكتب فيه بإرجاع فدك، فخرجت والكتاب معها، فلقيها عمر فقال: يا بنت محمَّد ما هذا الكتاب الذي معك؟.

قالت: **كتاب كتب لي أبو بكر بردِّ فدك**. فقال: سلِّميه إليّ.

فأبت أن تدفعه إليه، فرفسها برجله فلطمها، ثمَّ أخذ الكتاب فخرقه[2]، ويكفي

(١) سيرة الحلبيّ، ج٣، ص٣٩١.

(٢) الاختصاص للشيخ المفيد، الشافعيّ للسيِّد المرتضى، ص٢٣٦، تلخيص الشافعيّ للطوسيّ،=

ما ذكر ابن حجر في الصواعق المحرقة في الباب الثاني أنَّ أبا بكر انتزع من فاطمة عليها السلام فدكًا.. إلى آخر الكلام ابن حجر.

ومعنى هذا أنَّ فدك كانت في يد السيِّدة الزَّهراء عليها السلام من عهد أبيها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

ويلاحَظ من مجمل الروايات ما يلي:

١. طلب أبو بكر من بضعة رسول الله صلى الله عليه وآله إقامة البيِّنة، وهي صاحبة اليد، مخالف لضرورات الفقه الإسلاميّ، بل تجب عليه هو إقامة البيِّنة؛ لأنَّه هو المدَّعي.

٢. يستلزم من الكلام أبي بكر وفعل عمر أنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله لم يعمل الشرعيّ عندما أعطى فاطمة الزَّهراء عليها السلام.

٣. يستلزم من الكلام أبو بكر الحديث الذي يقول فيه إنَّ الأنبياء لا يورِّثون، يصطدم مع آيات في القرآن الكريم.

وجاء احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام على طلب البيِّنة من صاحبة اليد عليها السلام، حيث جاء عليّ عليه السلام إلى أبي بكر وهو في المسجد، وحوله المهاجرون والأنصار، فقال: **يا أبا بكر لـمَ منعت فاطمة ميراثها من رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد ملكته في حياة رسول الله؟** فقال أبو بكر: هذا فيء للمسلمين، فإن أقامت شهودًا أنَّ رسول الله جعله لها وإلَّا فلا حقَّ لها فيه.

فقال عليه السلام: **يا أبا بكر تحكم بيننا بخلاف حكم الله في المسلمين؟** قال: لا.

قال عليّ عليه السلام: **فإن كان في يد المسلمين شيء يملكونه، فادَّعيت أنا فيه من تسأل البيِّنة.** قال: إيَّاك اسأل، قال عليّ عليه السلام: **فما بال فاطمة سألتها البيِّنة على ما في يدها وقد ملكته في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وبعده، ولم تسأل المسلمين البيِّنة على ما ادَّعوها شهودًا كما سألتني على ما ادَّعيت عليهم؟**.

=ص٤٨، وذكر ابن حجر العسقلانيّ في لسان الميزان، ج١، ص٢٦٨، والذهبيّ في ميزان الاعتدال، ج١، ص١٣٩.

فسكت أبو بكر. فقال: يا عليّ دعنا من كلامك، فإنَّا لا نقوى على حجَّتك، فإن أتيت بشهود عدول، وإلَّا هي فيء للمسلمين، لا حقَّ لك ولا لفاطمة فيه.

فقال عليّ عليه السلام: **يا أبا بكر تقرأ كتاب الله؟** فقال: نعم.

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1]، **فيمن نزلت؟ فينا أو في غيرنا؟** قال: بل فيكم.

قال عليّ عليه السلام: **فلو ان شهودًا شهدوا على فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله بفاحشة ما كنت صانعًا بها؟** قال: كنت أقيم عليها الحدّ كما أقيم على نساء المسلمين. قال عليه السلام: **كنت إذن عند الله من الكافرين**. قال: ولـمَ؟.

قال عليه السلام: **لأنَّك رددت شهادة الله بالتطهير، وقبلت شهادة الناس عليها، كما رددت حكم رسوله أن جعل لها فدك، وزعمت أنَّها فيء للمسلمين، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «البيِّنة على المدَّعي، واليمين على من ادَّعى عليه»**[2]. قال: فدمدم الناس، وأنكر بعضهم بعضًا، وقالوا: صدق والله علي عليه السلام.

المطلب الثاني: ملكيَّة فدك من المنظور الشرعيّ

وبعد رفض أبو بكر لشهود السيِّدة فاطمة والبيِّنة منها، التجأت إلى إثبات حقِّها عن طريق الإرث، ولكنَّ القوم واجهوها بحديث مبتدَع وموضوع، قد اصطدم بآيات

(١) سورة الأحزاب، الآية ٣٣.

(٢) روي محبّ الدين الطبريّ في ذخائر العقبي، ص٢١، عن عمر بن أبي سلمة ربيبة رسول الله صلى الله عليه وآله قال نزلت آية التطهير في بيت أمّ سلمة (رضي الله عنها)، فدعى فاطمة وحسنًا وحسينًا فجعلَّلهم بكساء وعليّ خلف ظهره، ثمَّ قال: «**الله هؤلاء أهل بيتي فأذهِب عنهم الرجس وطهِّرهم تطهيرًا**»، قالت أمُّ سلمة: وانا معهم يا رسول الله؟ قال: «**أنتِ مكانك وأنتِ على خير**». ومن المصادر التي ذكرت ذلك، راجع: صحيح كتاب فضائل الصحابة، بفضائل أهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله، ج٤، ص١٨٨٣، ح٦١، سنن الترمذيّ، ج٥، ص٣٢٧، ح٣٢٠٥، المستدرك للحاكم، ج٣، ص١٣٣، شواهد التنزيل للحسكانيّ، ج٢، ص١٨-١٣٩، ج٦٣٨-٧٧٤، وغيرها الكثير من المصادر المعتمدة عند الجمهور.

القرآن، ألا وهو حديث القرآن، ألا وهو حديث «نحن معاشر الأنبياء لا نورِّث ذهبًا ولا فضَّة ولا دارًا ولا عقارًا، وإنَّما نورِّث الكتاب والحكمة والعلم». وقد جاء هذا الحديث بعدَّة عبارات، والشاهد فيه أنَّ الرسول صلى الله عليه وآله لا يورِّث، من هنا تذكر القصة بتفاصيلها.

نقل أبي الحديد[1] عن أبي بكر الجوهريّ بإسناده عن طرق مختلفة تصل إلى زينب الكبرى بنت فاطمة الزَّهراء، وإلى الحسين بن عليّ بن أبي طالب عن أبيه عليهما السلام، وإلى الإمام الباقر أبي جعفر محمَّد بن عليّ عليه السلام، وإلى عبد الله بن الحسن المثنى ابن الحسن السبط عليه السلام، قالوا جميعًا: «لـمَّا بلغ فاطمة عليها السلام إجماع أبي بكر منعها فدكًا، لاثت خمارها وأقبلت في لـمَّة من حفدتها ونساء قومها، تطأ في ذيولها، ما تخرم مشيتها مشية رسول الله صلى الله عليه وآله، حتى دخلت على أبي بكر وقد حشد الناس من المهاجرين والأنصار، فضرب بينها ربطة بيضاء، وقال بعضهم قبطيَّة، وقالوا قبطيَّة بالكسر والضمِّ، ثمَّ أنَّت أنَّة أجهش لها القوم بالبكاء، ثمَّ أمهلت طويلًا حتَّى سكنوا من فورتهم، ثمَّ قالت: «**ابتدئ بحمد من هو أولى بالحمد والطول والمجد الحمد لله على ما أنعم وله الشكر بما ألهم**».. إلى أن قالت في آخر خطبتها: «**فاتقوا الله حقَّ تقاته وأطيعوا فيها أمركم به، فإنَّما يخشى الله من عباده العلماء، وأحمدوا الله الذي بعظمته ونوره يبتغي مَن في السماوات والأرض، وإليه الوسيلة، ونحن وسيلة في خلقه، ونحن خاصَّته ومحلَّ قدسه، ونحن حجَّته في غيبه، ونحن ورثة الأنبياء**. ثمَّ قالت: **أنا فاطمة بنت محمَّد، أقول عودًا على بدء، وما أقول ذلك سرفًا ولا شططًا، فاسمعوا بأسماع واعية وقلوب راعية**».

ثمَّ قالت: «﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2]، **فإن تعزروه وتعرفوه تجدوه أبي**

(١) شرح نهج البلاغة، ج١٦، ص٢١١، طبع دار إحياء التراث العربيّ.
(٢) سورة التوبة، آية ١٢٨.

دون نسائكم، وأخا ابن عمِّي دون رجالكم..»، ثم ذكرت كلامًا طويلًا تقول آخره: «**ثمَّ أنتم الآن تزعمون أن لا إرث لي، ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾**[1]. **أيُّها المسلمون أأغلب على إرثي يا بن أبي قحافه! أ في كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي! لقد جئت شيئًا فريا..**» إلى آخر خطبتها.

وجاء في بعض الروايات عن السيِّد محمَّد باقر الصدر قدس سره، أنَّ الحديث الذي رواه أبو بكر إذا صحَّ، فهو يضرب بعضه بعضًا، فإذا كان الأنبياء لا يورِّثون إلَّا العلم والحكمة، وليس المال، فإنَّ فاطمة بنصِّ الحديث ترث علم النبيّ وحكمته، وبالتالي تكون مطالبتها بإرثها حجَّة على أبي بكر، بوصفها أعلم بدين محمَّد صلى الله عليه وآله بنصِّ الحديث الذي ذكره أبو بكر، وأيضًا يترتَّب على أنَّه إذا كانت فاطمة وعليّ عليهما السلام يرثون علم وحكمة النبيّ، فلماذا مُنِعوا أيضًا من ميراثهم هذا بإبعادهم عن الإمامة، إذ لو صحَّ الحديث، فهو حجَّة عليهم[2].

لـمَّا جاءت فاطمة إلى أبي بكر وعمر تسأل عن ميراثها من رسول الله صلى الله عليه وآله، فقالا: سمعنا رسول الله: «أنِّي لا أورِّث)، قالت عليها السلام: **والله لا أكلِّمكما أبدًا**. فماتت عليها السلام ولم تكلِّمهما[3].

إنَّ الخلاف مع فاطمة عليها السلام ليس كأيِّ خلاف، بل فيه محاذير كثيرة وأحاديث متواترة، تحذِّر من مغبَّة إغضابها وإيذائها وحربها عليها السلام.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**فاطمة بضعة منِّي، فمن أغضبها أغضبني**»[4].

وقول رسول الله صلى الله عليه وآله جعلها جزء منه (بضعة منِّي)، وجعل إغضابها إغضاب

(١) سورة المائدة، آية ٥٠.

(٢) فدك في التاريخ، محمَّد باقر الصدر قدس سره.

(٣) الرواي، أبو هريرة، خلاصة الدرجة، صحيح، المحدِّث الألبانيّ، المصدر: صحيح الترمذيّ الصفحة أو الرقم ١٦.

(٤) صحيح البخاريّ، كتاب بدء الخلق، باب مناقب قرابة الرسول ومنقبة فاطمة عليها السلام.

لرسول الله صلى الله عليه وآله، وإيذاؤها إيـذاء لرسول الله، لهو الدليل القاطع والبيان الواضح على إرادة عصمة الزَّهراء عليها السلام لما ذكر آنفًا في طيَّات البحث عن عصمة الزَّهراء عليها السلام، وإطلاق الحديث ومحاولة تخطيئها عليها السلام خصوصًا في قضيَّة أبي بكر بدا بوضوح على أنَّها تصرَّفت عن علمٍ ويقينٍ وحقٍّ مبين، ولم تُخطئ في أيِّ شيء أبدًا، بل أصرت وأكدَّت عليه.

وإنَّ الصدِّيقة (سلام الله عليها) غضبت لا لأجل فدك فقط، أو كان غضبها لأمر دنيويّ، إنَّما أرادت أن تدافع بخطبتها هذه عن خطِّ الولاية والإمامة المتمثِّلة آنذاك بالإمام عليّ عليه السلام، فلذا فهم القوم ذلك، وكانت عاقبة الأمور ما جرى، وشهادة الزَّهراء عليها السلام[1].

المطلب الثالث: أهداف الزَّهراء عليها السلام للمطالبة بفدك

١. أرادت الزَّهراء عليها السلام استرجاع حقّها المغصوب، وهذا أمر طبيعيّ لكلِّ إنسان غُصِب حقّه أن يطالب به بالطرق المشروعة.
٢. كـان الحـزب الحـاكـم قـد اسـتـولى عـلى جميـع الحـقـوق الـسـيـاسـيَّـة والاقـتـصـاديَّـة لبني هـاشـم، وألـغى جميع امتيازاتهم المـاديَّـة والمعنويَّة والمـيراث والخـمـس، أي سـهـم ذوي الـقـربـى، واعـتـبـارهـم كسائر الناس.
٣. استهدفت الزَّهراء عليها السلام من مطالبتها الحثيثة بفدك فسح المجال أمامها للمطالبة بحقِّ زوجها المغلوب على أمره، والواقع أنَّ فدك صارت تتمشَّى مع الخلافة جنبًا إلى جنب، كما صار لها عنوان كبير، وسعة في المعنى، فلم تبقَ فدك قرية زراعيَّة محدودة بحدودها في عصر الرسول صلى الله عليه وآله، بل صار معناها الخلافة والرقعة الإسلاميَّة بكاملها، ففدك تعتبر ثاني عن الخلافة الإسلاميَّة، والزَّهراء

(١) الطوسيّ، ج٣، ص٧٦.

جعلت فدك مقدِّمة للوصول إلى الخلافة، فأرادت استرداد الخلافة عن طريق استرداد فدك.

٤. أرادت الزَّهراء عليها السلام بمنازعة أبي بكر إظهار حاله وحال أصحابه للناس، وكشفهم على حقيقتهم؛ ليهلك من هلك عن بيِّنة، ويحيى من يحيى على بيِّنة، وإلَّا فبضعة الرسول صلى الله عليه وآله أجلُّ قدرًا وأعلى شأنًا من أن تقلب الدنيا على أبي بكر، حرصًا على الدنيا، ولاسيما أنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله أخبرها بقرب موتها[1].

(١) مجلَّة الروضة الحسينيَّة، العدد ٦١.

الخاتمة

أوَّلًا: النتائج

١. ما نقله أهل الحديث والتفسير والتأريخ من إعطاء رسول الله فدك لفاطمة وتصرُّفها عليها السلام فيها (أي فدك) في حياة أبيها صلى الله عليه وآله، وهذا يبطل دعوى بعضهم.

٢. إثبات فاطمة حقَّها في فدك تارةً بنفسها، والذي تمثَّل بالمطالبة وإظهار الخصومة والغضب على القوم، وأخرى إثبات الحقِّ بجلب الشهود على صدق دعواها من أنَّها لا تحتاج إلى ذلك، فهي صاحبة اليد، مع أنَّ أبا بكر قد أعطى بعض الصحابة بمجرَّد الدعوى بالدَّين أو العدَّة، دون أن يطلب منهم البيِّنة.

٣. عدم إمكان مطالبة فاطمة عليها السلام أبو بكر بما ليس لها، خصوصًا بملاحظة من هي فاطمة عليها السلام، وبما نزل في حقِّها في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة عن النبيّ صلى الله عليه وآله على عصمتها، خصوصًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، وعلى لسان النبيّ في حقِّها: «**فاطمة بضعة منِّي ومَن آذاها فقد آذاني ومَن آذاني فقد آذى الله**».

٤. بطلان دعوى الإجماع وعمل أبو بكر وعمر طبق هذا الحديث، مع إمكان القول ببطلان الحديث بما يعارضه من القرآن الكريم، وافعال أصحاب النبيّ وزوجاته.

٥. وقوع أبو بكر في التناقض في محاجَّته لفاطمة عليها السلام أمور:

- إذا كانت فاطمة عليها السلام قد طالبت بفدك وتدَّعي أنَّ اباها نحلها إيَّاها احتاجت إلى إقامة البيِّنة، فلم يبقَ لقول أبي بكر المنسوب للرسول صلى الله عليه وآله «نحن معاشر الأنبياء لا نورِّث» من معنى.
- وإن كانت عليها السلام تطالب بميراثها، فلا حاجة إلى شهود، إلَّا كانت فاطمة عليها السلام من ملَّة غير ملَّة أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله.

وعلى كلِّ حال، سيأتي اليوم الذي ستعود فيه كلَّ حقوق أهل البيت عليهم السلام، وكذلك الأخذ بالثأر ممَّن ظلمهم.

ختامًا وبعد هذا العرض، يخرج القارئ بالحقيقة على أنَّ فدك كانت ملكًا للسيِّدة الزَّهراء عليها السلام.

ثانيًا: التوصيات

١. ضرورة الإفادة من سيرة الزَّهراء عليها السلام، لتعزيز دور المرأة وعدم غبن حقِّها في الميراث، كما يحدث في أغلب المجتمعات.

٢. تضمين بعض مواقف الزَّهراء عليها السلام من حياتها ضمن المناهج الدراسيَّة.

٣. إفادة مؤسَّسات الدولة، وبخاصَّة المراكز الإرشاديَّة من سيرة الزَّهراء عليها السلام، ونشر مواقفها ضدَّ الظلم والظالمين والغاصبين لحقِّها، ونشر مثل هكذا بحوث لبيان مظلوميَّتها عليها السلام.

والحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على أشرف خلق الله محمَّد وآله الطيِّبين الطاهرين، ولاسيما أمُّ أبيها فاطمة الزَّهراء عليها السلام وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

المصادر

١. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة.
٢. ابن حجر، في الصوقع المحترقة،.
٣. ابن طاووس، كشف المحجة.
٤. ابن منظور، لسان العرب، ج١٠.
٥. ابي محمَّد عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي، مختصر سيرة النبي (صل الله عليه واله وسيرة اصحابه العشرة، تحقيق: خالد عبد الرحمن بن حمد الشايع، ط٢،.
٦. اثار منطقة حائل، سعيدين فايز السعيد واخرون وزارة المعارف، وكالة الاثار والمتاحف، الرياض ١٤٣٢، ٢٠٠٢.
٧. الاحتجاج للطوسي.
٨. الاحتجاج، الطبرسي.
٩. الاختصاص للشيخ المفيد، الشافعي للسيد المرتضى.
١٠. اسماعيل الانصاري، الرنجانيا نخوئيني.
١١. اعانة الطالبيين.
١٢. اقتصادنا، محمَّد باقر الصدر.
١٣. انتصار عبد الواحد العواد، محمَّد باقر الانصاري، تقرير عن فضيحة فدك، لحظة بلحظة ت٢ مرداني بور النعماني، مؤسسة انصاريان للنشر، قم المقدسة، ص٥٨٧.

١٤. بحار الانوار.
١٥. البلاذري، معجم معالم الحجاز، ج٧.
١٦. تاريخ اليعقوبي.
١٧. التفسير الكبير للرازي.
١٨. التفسير الكبير للفطر الرازي.
١٩. تلخيص الشافعي للطوسي.
٢٠. جلال الدين، الدر المنثور في تفسير بالمأثور.
٢١. الجواهري البغدادي، السقيفة وفدك،ج٧.
٢٢. الجواهري، السقيفة وفدك.
٢٣. الحسكاني، شواهد التنزيل لقواعد التفضيل.
٢٤. الحموي، معجم البلدان، ج٤.
٢٥. الدر المنثور للسيوطي،.
٢٦. الرازي، مفاتيح الغيب.
٢٧. روح المعاني للالوسي.
٢٨. السبحاني، فرارهابي حساس اززندكاني امير مؤمنان عليه السلام.
٢٩. سنن الترمذي.
٣٠. السيرة الحلية.
٣١. السيوطي، الدر المنثور.
٣٢. شهيدي زندكَاني، فاطمة زَّهراء عليها السلام.
٣٣. شهيدي، فاطمة دختر، محمَّد صلى الله عليه وآله.
٣٤. شواهد التنزيل للحسكاني.

٣٥. الشيخ السمودي في تاريخ المدينة.

٣٦. صبحي الصالح. تفسير القمي.

٣٧. صحيح البخاري كتاب بدء الخلق باب مناقب قرابة الرسول ومنقبة فاطمة عليها السلام.

٣٨. صحيح كتاب فضائل الصحابة.

٣٩. الطباطبائي، الميزان.

٤٠. الطباطبائي، الميزان.

٤١. الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن.

٤٢. الطوسي، التبيان في تفسير القرآن.

٤٣. علي يوسف، موسى عليه السلام، دار الجيل، بيروت.

٤٤. فاطمة الزَّهراء للعبد الفتاح عبر المقصود.

٤٥. فتوح البلدان للبلاذري.

٤٦. فخر الرازي، مفاتيح الغيب.

٤٧. فدك في تاريخ محمَّد باقر الصدر.

٤٨. قد وشاني، فدك دار نشنامة، ج١.

٤٩. قطب راوندي، الخرائج والجرائح.

٥٠. الكليني، الكافي.

٥١. كنز العمال.

٥٢. المجموع.

٥٣. محافظة الحائط.

٥٤. محب الدين الطبريّ، في ذخائر العقبي.

٥٥. محمَّد باقر الانصاري، تقرير عن قضية فدك بلحظة.

٥٦. مرجاني، بهجة النفوس والأسرار، ج١.

٥٧. مرداني بور النعماني، مؤسسة انصاريان للنشر، قم المقدسة.

٥٨. المستدرك للحاكم.

٥٩. مجلة الروضة الحسينية.

٦٠. المفيد، المقنعة.

٦١. مقتبس من مركز البحوث العقائدية.

٦٢. المواقف للايجي.

٦٣. الموسوعة الكبرى عن فاطمة الزَّهراء.

٦٤. نهج البلاغة.

٦٥. الذهبي في ميزان الاعتدال.

٦٦. ابن حجر العسقلاني في لسان الميزان، ج١.

٦٧. الوسائل ابواب كيفية الحكم وابواب الدعوى

محور دِّراسات اللغة العربيَّة

وآدابها

الإمام عليّ عليه السلام في خطبتَي فاطمة الزَّهراء عليها السلام
قراءة تأويليَّة

الأستاذ المتمرِّس الدكتور حاكم حبيب الگريطي
الجامعة الإسلاميَّة/ النجف الأشرف

ملخَّص البحث

ابتداءً لا بدَّ من القولِ: إنَّ ما نريدهُ بالقراءةِ التأويليَّةِ في هذا البحثِ، هو الوقوفُ المتأنِّي على كلامِ الصدِّيقة فاطمة الزَّهراء عليها السلام الذي يتعلَّقُ بأميرِ المؤمنين عليه السلام؛ لنستخرجَ بعضًا ممَّا فيه من علومٍ ومعارف، مستعينين بما يُعطيه المعجمُ العربيُّ من دلالاتٍ للألفاظ التي تتحرَّكُ في حقولٍ دلاليَّةٍ متقاربةٍ، ثمَّ النظر الفاحص في طبيعةِ علاقاتِ الألفاظِ مع بعضها، وما يُنتجه هذا النظرُ من دلالاتٍ ومعانٍ ستكون ناتجًا مقنعًا لهذه القراءةِ. وهذا ما أُمرنا به من حيث التدبُّرِ فيما نسمعُ ونقرأُ. واستنادًا إلى هذا فإنَّنا لا نقفُ في القراءةِ على المعنى الظاهرِ الذي يستقبله المتلقِّي من أوَّل وهلة، وإنَّما نذهبُ مع الوجوهِ الدلاليَّةِ التي يرتضيها السياقُ من دون جورٍ عليه، أو تحميله ما لا يطيقُ حمله، وهنا يتجسَّدُ بالجزءِ الثاني من العنوان (القراءة التأويليَّة).

ليس من شكٍّ أنَّ موقفَ الزَّهراءِ عليها السلام ممَّا وقع بعد انتقالِ النبيّ صلى الله عليه وآله إلى أكرمِ جوارٍ، كان ينصرفُ في حقيقته إلى أمرَين: الأوَّل: إرثُها في فدك، والثاني: حقُّ الإمامِ عليّ عليه السلام في الولايةِ على المسلمين بعد رحيلِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله، على الرغمِ من أنَّ الأمرَين المشار إليهما أمرٌ واحدٌ، وهذا ما جاء بيانٌ له فيما بعد في قولٍ للإمامِ موسى بن جَعفر عليه السلام،

فقد ورد أنَّ هارون الرشيدَ قال له: «حُدَّ فدكًا حتى أردَّها... فقال عليه السلام: **لا آخذها إلَّا بحدودِها**، قال: وما حدودُها؟ قال: **إنْ حددتُها لم تردَّها**، قال: بحقِّ جدِّك إلَّا فعلتَ؟ قال: **أمَّا الحدُّ الاوَّلُ فعدن**، فتغيَّر وجهُ الرشيد وقال: ايهٍ، قال: **والحدُّ الثاني سمرقند**، فاربدَ وجهُه، قال: **والحدُّ الثالثُ أفريقية**، فاسودَّ وجهُه وقال: هيه، قال: **والرابعُ سِيفُ البحرِ ممَّا يلي الخزر وأرمينية**، قال الرشيدُ: فلم يبقَ لنا شيءٌ، فتحوَّلْ إلى مجلسي، قال موسى: **قد أعلمتُك إنَّني إنْ حددتُها لم تردَّها**، فعند ذلك عزم على قتلِهِ».

تبدأُ الزَّهراءُ عليها السلام خطبتها الأولى بتذكيرِ المسلمين بما كان عليه حالُهم قبل الإسلامِ، لتخلص من ذلك إلى ما جاء به أبوها صلى الله عليه وآله، وما نهض به بعلُها عليه السلام من مساندةٍ له في ذلك كلِّهِ، كما عُرف ذلك عنه.

واستنادًا إلى ما تقدَّم، فإنَّنا سننظرُ فيما سيردُ في خطبتَي الزَّهراءِ عليها السلام من إشاراتٍ إلى أميرِ المؤمنين عليه السلام من هذه الوجهةِ؛ لأنَّ هذا الأمرَ سيجرُّ المسلمين إلى الانحرافِ عمَّا فرضه اللهُ تعالى عليهم، وما أمر به النبيّ صلى الله عليه وآله في ذلك.

لقد جمعتْ السيِّدةُ فاطمةُ عليها السلام في خطبتها ما واجههُ المسلمون في تلك السنواتِ من شدائدَ وأهوال أثقلتْ كواهلَهم، وكان النبيُّ صلى الله عليه وآله هو من يكشفُ تلك الأهوالَ بعليّ بن أبي طالب عليه السلام. وبعد أنْ استتبَّ أمرُ الدين، كان الإمامُ عليه السلام المقدَّم على المسلمين بأمرِ الله تعالى، حتَّى انتهى الحالُ إلى بيعةِ الغدير التي أكمل اللهُ تعالى بها دينه، وأتَّمَ نعمتَه على المسلمين جميعًا.

الإمام عليّ عليه السلام في خطبتي فاطمة الزَّهراء عليها السلام قراءة تأويليَّة

الخطبة الأولى

ابتداءً لا بدَّ من القولِ: إنَّ ما نريدهُ بالقراءةِ التأويليَّةِ في هذا البحثِ، هو الوقوفُ المتأنِّي على كلامِ الصدِّيقة فاطمة الزَّهراء عليها السلام الذي يتعلَّقُ بأميرِ المؤمنين عليه السلام؛ لنستخرجَ بعضًا ممَّا فيه من علومٍ ومعارف، مستعينين بما يُعطيه المعجمُ العربيُّ من دلالاتٍ للألفاظ التي تتحرَّكُ في حقولٍ دلاليَّةٍ متقاربةٍ، ثمَّ النظر الفاحص في طبيعةِ علاقاتِ الألفاظِ مع بعضها، وما يُنتجه هذا النظرُ من دلالاتٍ ومعانٍ ستكون ناتجًا مقنعًا لهذه القراءةِ. وهذا ما أُمرنا به من حيث التدبُّرِ فيما نسمعُ ونقرأُ. واستنادًا إلى هذا فإنَّنا لا نقفُ في القراءةِ على المعنى الظاهرِ الذي يستقبله المتلقِّي من أوَّل وهلة، وإنَّما نذهبُ مع الوجوهِ الدلاليَّةِ التي يرتضيها السياقُ من دون جورٍ عليه، أو تحميله ما لا يطيقُ حمله، وهنا يتجسَّدُ بالجزءِ الثاني من العنوان (القراءة التأويليَّة).

ليس من شكٍّ أنَّ موقفَ الزَّهراءِ عليها السلام ممَّا وقع بعد انتقالِ النبيِّ صلى الله عليه وآله إلى أكرمِ جوارٍ، كان ينصرفُ في حقيقته إلى أمرَين: الأوَّل: إرثُها في فدك[1]، والثاني: حقُّ الإمامِ عليّ عليه السلام

(١) فدك: قريةٌ بالحجازِ، بينها وبين المدينة مسيرة يومَين، أفاءها اللهُ تعالى على رسولهِ صلى الله عليه وآله في سنة سبع للهجرةِ صُلحًا، وذلك أنَّ أهلَ فدك أرسلوا إلى رسولِ الله صلى الله عليه وآله، أنْ يصالحَهم على النصفِ من ثمارِهم وأموالِهم، فأجابهم إلى ذلك، من دون حرب، فكانت خالصةً لرسول الله صلى الله عليه وآله. وفي فدك عينٌ فوَّارةٌ ونخيلٌ كثيرةٌ، وهي نِحلةُ رسول الله صلى الله عليه وآله. فلمَّا ولي عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ الخلافةَ كتب إلى عامله بالمدينة يأمره بردِّ فدك إلى ولد فاطمة عليها السلام، فكانت في أيديهم في أيَّام عمر بن عبد العزيز، فلمَّا ولي يزيدُ بن عبد الملك قبضها، فلم تزل في أيدي بني أميَّة حتَّى ولي أبو العبَّاس السفَّاح الخلافة، فدفعها إلى الحسن المثنَّى بن الحسن ابن الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فكان هو=

في الولايةِ على المسلمين بعد رحيلِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله، على الرغمِ من أنَّ الأمرَين المشار إليهما أمرٌ واحدٌ، وهذا ما جاء بيانٌ له فيما بعد في قولٍ للإمامِ موسى بن جَعفر عليه السلام، فقد ورد أنَّ هارون الرشيدَ قال له: «حُدَّ فدكًا حتَّى أردَّها.. فقال عليه السلام: **لا آخذها إلَّا بحدودِها**، قال: وما حدودُها؟ قال: **إنْ حددتُها لم تردَّها**، قال: بحقِّ جدِّك إلَّا فعلتَ؟ قال: **أمَّا الحدُّ الاوَّلُ فعدن**، فتغيَّر وجهُ الرشيد وقال: ايهٍ، قال: **والحدُّ الثاني سمرقند**، فاربدَ وجهُه، قال: **والحدُّ الثالثُ أفريقية**، فاسودَّ وجهُه وقال: هيه، قال: **والرابعُ سِيفُ البحرِ ممَّا يلي الخزر وأرمينية**، قال الرشيدُ: فلم يبقَ لنا شيءٌ، فتحوَّلْ إلى مجلسي، قال موسى: **قد أعلمتُك إنَّني إنْ حددتُها لم تردَّها**، فعند ذلك عزم على قتلهِ»[1].

واستنادًا إلى ما تقدَّم، فإنَّنا سننظرُ فيما سيردُ في خطبتَي الزَّهراءِ عليها السلام من إشاراتٍ إلى أميرِ المؤمنين عليه السلام من هذه الوجهةِ؛ لأنَّ هذا الأمرَ سيجرُّ المسلمين إلى الانحرافِ عمَّا فرضه اللهُ تعالى عليهم، وما أمر به النبيّ صلى الله عليه وآله في ذلك.

تبدأُ[2] الزَّهراء عليها السلام خطبتها الأولى بتذكيرِ المسلمين بما كان عليه حالهُم قبل الإسلامِ،

=القيّم عليها يُفرِّقها في بني عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فلمَّا ولي المنصورُ، خرج عليه محمَّد ذو النفس الزكيَّة وإبراهيم ابنا عبد الله بن الحسن المثنَّى؛ قبضها عنهم، فلمَّا ولي المهدي بنُ المنصور الخلافةَ أعادها عليهم، ثمَّ قبضها موسى الهادي، ومن بعده إلى أيَّام المأمون، فجاءه رسولُ بني عليّ بن أبي طالب فطالَب بها، فأمر أن يُسجَّل لهم بها، فكتب السجلّ وقُرئ على المأمون، فقام دعبل الشاعر وأنشد:

أصبحَ وجهُ الزمانِ قد ضحكا بردِّ مأمون هاشم فدكا

ينظر: المقنعة ٢٨٩، رسائل المرتضى ٢/ ١٤١، الاقتصاد ٢١٤، والبيت في ديوان دعبل بن عليّ الخزاعيّ ١٠٦.

(١) بحار الأنوار ٤٨/ ١٤٤.

(٢) جاء في بلاغات النساء ١٦: لـمَّا أجمعوا على «منع فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وعليها، فدك، وبلغ ذلك فاطمة، فلاثتْ خمارَها على رأسِها، وأقبلتْ في لـمَّةٍ من حفدتِها، تطأُ ذيولَها، ما تخرم من مشية رسول الله صلى الله عليه وآله شيئًا حتَّى دخلتْ على أبي بكر، وهو في حشدٍ من المهاجرين والأنصارِ، فنيطت دونَها ملاءةً، ثمَّ أنَّتْ أنَّةً أجهشَ القومُ لها بالبكاءِ، وارتجَّ المجلسُ، فأمهلتْ حتَّى سكنَ=

لتخلص من ذلك إلى ما جاء به أبوها صلى الله عليه وآله، وما نهض به بعلُها من مساندةٍ له في ذلك كلّهِ، فتقول: «.. **وكنتم على شفا حُفرةٍ من النارِ، مُذقةَ الشَّاربِ، ونُهزةَ الطامعِ، وقبسةَ العجلانِ، وموطئ الأقدامِ، تشربون الطرقَ، وتقتاتون القدَّ، أذلَّةً خاسئين، تخافون أنْ يتخطَّفكم الناسُ من حولكم، فأنقذكم اللهُ تبارك وتعالى بمحمَّد** صلى الله عليه وآله»[1].

تُشيرُ السيِّدةُ الزَّهراء عليها السلام إلى ما كان عليه حالُ الناسِ قبل إسلامهم؛ لكفرهم الذي كانوا عليه قبل أنْ يهديهم اللهُ تعالى للإسلامِ بنبوَّةِ النبيّ صلى الله عليه وآله، وهذا هو بعضُ مدلولِ قوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ آل عمران ١٠٣، فالمسلمون عامَّةً ليس بينهم وبين الوقوعِ في نارِ جهنَّم إلَّا أنْ يموتوا على كفرهم[2]، كمن سبقهم من المشركين، ولكنَّ اللهَ تعالى لطف بهم، فأنقذهم من هولِ ما كادوا يقعون فيه بمحمَّدٍ صلى الله عليه وآله، على وفقِ القراءةِ المرويَّةِ عن الإمامِ أبي عبدِ الله الصادقِ عليه السلام، حيث ورد عنه عليه السلام قولُه: «**وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا بمحمَّد.. هكذا والله نزل بها جبريلُ عليه السلام على محمَّد** صلى الله عليه وآله»[3].

إنَّ ما يمكن أنْ نتأوَّله هنا أنَّ السيِّدةَ فاطمة عليها السلام استحضرتْ هذه الآيةَ خاصَّةً، لتبصِّر مَن على عينيه غِشاوةٌ من المسلمين من أنَّهم على شفا الحفرةِ الأولى التي أنقذهم اللهُ تعالى منها بمحمَّد صلى الله عليه وآله، إنْ هم لم ينتصروا لها، وتركوا ما أمرَ بهِ اللهُ تعالى للمنقذِ (النبيّ صلى الله عليه وآله) وذريَّته، من خلالِ منعها من إرثِ أبيها في فدك، بدلالتها التي مرَّتْ قبل

=نشيجُ القومِ وهدأتْ فورتُهم فافتتحتْ الكلامَ بحمدِ الله والثناءِ عليه، والصلاةِ على رسول الله صلى الله عليه وآله، عاد القومُ في بكائِهم، فلمَّا أمسكوا عادتْ في كلامِها».

(١) الاحتجاج ١/ ١٣٥.

(٢) ينظر: تفسير الثعلبيّ ٣/ ١٢١.

(٣) يُنظر: شرح أصول الكافي ١٢/ ٢٣٩.

هُنيهة، ولعلَّها تعني الأنصارَ قبل المهاجرين هنا؛ لأنَّ الآيةَ نزلتْ بحقِّهم أوَّل مرَّةً[1]، وإنْ كان حكمُها عامًّا يشملُ جميعَ المسلمين في العصور المختلفةِ.

ويبقى من المقطعِ السابقِ من قولِ السيّدةِ الزَّهراءِ عليها السلام إشارتُها إلى حالةِ الذلِّ والهوانِ التي كان عليها المسلمون في مكَّة قبلَ الهجرةِ، إذْ كانوا يخشَونَ أنْ يتخطَّفَهم الناسُ الذين يُحيطون بهم، لأنَّهم كانوا أعداءً لهم، وهذا القولُ هو استلهامٌ لقولهِ تعالى: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2]. وهذه الآيةُ خاصَّة بقريش[3]، كما كانتْ الآية السابقة خاصَّةَ بالأنصارِ كما أشرنا، فاللهُ تعالى آوى المسلمين وأيَّدهم بنصره بالأنصارِ بعد الهجرة. وهنا اجتمع كلامُ الزَّهراء عليها السلام من خلال الآيتَينِ وبدلالتيهما ليشملَ المهاجرين والأنصارَ على السَّواءِ. وهذا الاستلهامُ لمعاني القرآنِ الكريمِ آتٍ من الثقلِ الثاني، لأنَّه وحده المحيطُ بما يُريده الله تعالى في الثقل الأوَّل.

ومن هنا يتبيَّنُ لنا أنَّ استشهادَ السيِّدة فاطمة عليها السلام بهاتَين الآيتَين خاصَّةً، وما سيأتي عامَّة، يهدفُ إلى إقامةِ الحجَّةِ على جميع المسلمين (المهاجرين والأنصار) إنْ لم ينتصروا لحقِّها وحقِّ أميرِ المؤمنين عليه السلام.

إنَّ وصفَ السيِّدة فاطمة عليها السلام الذي مرَّ ذكرُه يكتسبُ دلالته المبتغاة بما جاء بعده من قولها من أنَّ الانقاذَ كان «**بعد اللتيَّا والتي، وبعد أنْ مُني ببُهمِ الرجالِ وذؤبانِ العربِ، ومَرَدةِ أهلِ الكتابِ، كلَّما أوقدوا نارًا للحربِ أطفأها اللهُ، أو نجم قرنٌ للشيطان، وفغرتْ فاغرةٌ من المشركين**»[4].

(١) ينظر: تفسير البغويّ ١/ ٤٨٦.
(٢) الأنفال ٢٦.
(٣) يُنظر: تفسير الأصفى ١/ ٤٣١.
(٤) الاحتجاج ١/ ١٣٥.

و«**بعد اللتيَّا والتي**» أيْ بعد الشدَّةِ والداهيةِ التي كانوا يعيشون في أتونها على وفقِ ما يؤدِّيه هذا المثلُ بإيجازهِ[1]، وبعد أنْ واجهَ النبيُّ صلى الله عليه وآله شجعانَ الرجالِ من عتاةِ قريش، وذؤبانِ العرب، «**وهم صعاليكُ العربِ ولُصُوصُها وسُمُّوا بهذا الاسمِ؛ لأنَّهم كالذِّئابِ**»[2]، وما فعله هؤلاءِ مع مردةِ أهلِ الكتاب أطفأهُ اللهُ تعالى، وهنا تستحضُر الزَّهراءُ عليها السلام قولَه تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾[3].

لقد جمعتْ السيِّدةُ فاطمةُ عليها السلام فيما مرَّ من خطبتها ما واجههُ المسلمون في تلك السنواتِ من شدائدَ وأهوال أثقلتْ كواهلَهم، وكان النبيُّ صلى الله عليه وآله هو من يكشفُ تلك الأهـوالَ بعليّ بن أبي طالب عليه السلام، تقولُ عليها السلام متمِّمةً خطبتها: «**قذف أخاه في لهواتها، فلا ينكفئ حتَّى يطأ صماخَها بأخمصِهِ، ويُخمدُ لهبَها بسيفهِ**»[4].

ومن أجلِ بيانِ ما نتأوَّلُ به كلامَ الزَّهراء عليها السلام، نعودُ إلى المعجمِ لبيانِ معاني الكلمات المركزيَّةِ في النصِّ، والتي تكشفُ عمَّا كان ينهضُ به أميرُ المؤمنين عليه السلام.

فالنبيُّ صلى الله عليه وآله كان يُلقي (أخاه) في لهواتِها، وهنا نقولُ إنَّ الزَّهراءَ عليها السلام انتقتْ لفظةَ (أخـاه) للإشارةِ إلى أميرِ المؤمنين عليه السلام، من دون أنْ تذكرَ اسمَه؛ لأنَّ الدلالةَ عليه واضحةٌ، ولا تنصرفُ أذهانُ السامعين إلى غيره، فهو أخوهُ من قراباتٍ ثلاث، قرابةِ

(١) يُنظر: مجمع الأمثال ١/ ٩٢، وفيه تفسيرُ المثلِ هكذا: «اللتيا والتي هما الداهية الكبيرة والصغيرة، وكَنَّى عن الكبيرة بلفظ التصغير تشبيهًا بالحيَّة، فإنَّها إذا كثر سمُّها صغرت؛ لأنَّ السُّمَّ يأكل جَسَدها، وقيل: الأصلُ فيه أنَّ رجلًا من جَدِيس تزوَّج امرأةً قصيرةً، فقاسى منها الشَّدائدَ، وكان يُعبِّرُ عنها بالتصغير، فتزوَّج امرأةً طويلةً، فقاسى منها ضعفَ ما قاسى من الصغيرةِ، فطلَّقها، وقال: بعد اللَّتَيَّا والَّتِي لا أتزوَّج أبدًا، فجرى ذلك على الداهية، وقيل: إنَّ العربَ تصغِّر الشيءَ العظيمَ، كالدُّهَيْم واللُّهَيْم، وذلك منهم رَمْز».

(٢) يُنظر: لسان العرب (ذأب).

(٣) المائدة ٦٤.

(٤) الاحتجاج ١/ ١٣٥.

النسبِ، وقرابةِ (أهلِ البيت) التي جمعتهم بأمرِ الله تعالى آيةُ التطهيرِ، وقرابةِ المؤاخاة، حيث استأثرَ النبيُّ صلى الله عليه وآله به من بين المهاجرين والأنصارِ، على الرغمِ من أنَّ ما وضعه النبيُّ صلى الله عليه وآله من شروط للمؤاخاة أن تكون بين مهاجرٍ وأنصاريٍّ، أمَّا بين مهاجرٍ ومهاجرٍ، فهذا شأنٌ خاصٌّ بالنبيّ صلى الله عليه وآله وبأمير المؤمنين عليه السلام.

أمَّا (اللهواة) التي ذكرتها الزَّهراءُ عليها السلام، فنعودُ فيها إلى المعجمِ لنقفَ على دلالاتها ونتأوَّلَ المرادَ منها. جاء في لسان العرب المعاني الآتية تحت الجذر (لهو)[1]:

١. اللُّهْوةُ واللَّهْوةُ: ما أَلقَيْتَ في فَمِ الرَّحى من الحُبوب للطَّحْن.
٢. أَلْهَى الرَّحى وللرَّحى وفي الرَّحى: أَلقى فيها اللَّهوة، وهو ما يُلقِيه الطاحن في فم الرَّحى بيده.
٣. اللُّهْوةُ واللُّهْيةُ: العَطِيَّةُ، وقيل أَفضلُ العطايا وأَجْزلُها، ويُقال: إِنَّه لِمِعْطاء لِلُّها إِذا كان جَوادًا يُعطي الشيء الكثير.
٤. عِظام اللُّها: أَيْ عظام العَطايا، يقال أَلهَيْت له لُهْوَةً من المال كما يُلْهَى في خُرْتَي الطَّاحُونة.

إنَّ القراءةَ الأولى لهذه المعاني تجسِّدُ هولَ الخطرِ الذي كان يواجهُ أميرِ المؤمنين عليه السلام، وهو يضعُ نفسَه بين خُرتَيْ رحى الحربِ؛ استجابةً لأمرِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله، وهو يُعطي للحربِ أفضلَ من معه من المسلمين ليعودَ منتصرًا مفتوحًا بسيفهِ ما يسدّه الأعداء. ومواقفُ عليّ عليه السلام في حروب المسلمين ممَّا يقرُّه السامعون لخطابِ الزَّهراء عليها السلام، ولا جدال ولا مراء فيه، بل لعلَّ في مقدِّمةِ أسبابِ ما حصلَ، هو ما فعلُهُ أميرُ المؤمنين عليه السلام بمشركي قريش ومَن حالفهم في حروبهم.

واستنادًا إلى هذه القراءة، فقد خَصَّتْ الزَّهراءُ عليها السلام بالذِّكرِ خصلتَين من خصالِ الإمامِ عليه السلام، وهما: الأفضليَّة، وهذه تحرمُ غيره ممَّا هو حقٌّ له

(١) يُنظر: لسان العرب (لهى).

(فدك بمفهومها الذي أشرنا إليه)، وحتَّى لا يدَّعي مُدَّعٍ بشيءٍ من هذه الخصلةِ.

أمَّا الخصلةُ الثانيةُ، فهي الشجاعةُ، وقد أرادتْ الزَّهراءُ عليها السلام من خلالها أنْ تؤكِّدَ أنَّه عليه السلام قادرٌ على أخذِ حقِّهِ إنْ أرادَ أنْ يستندَ إلى شجاعته المعهودة عند المسلمين جميعًا، وراحتْ تبرهنُ على ما تُريد ببسطِ صورِ شجاعةِ الإمام عليه السلام، فهو لا «**ينكفئ حتى يطأَ صماخَها بأخمصِهِ، ويُخمدُ لهبَها بسيفهِ**»، فهو عليه السلام يعودُ منتصرًا ظافرًا، وكنَّتْ عن ذلك بهذا التعبيرِ الذي يُظهرُ استهانةِ أميرِ المؤمنين عليه السلام بالحربِ، وما يمكن أنْ يكون فيها من هلعٍ ورعبٍ وخوفٍ لغيرِهِ.

والإمامُ في هذا كلّه يظهرُ «**مكدودًا في ذاتِ الله، ومُجتهدًا في أمرِ الله، قريبًا من رسولِ الله، سيدَ أولياءِ الله، مُشمِّرًا ناصحًا، مُجِدًّا كادحًا**»[1]. وسنعودُ هنا إلى الاستعمالِ الاجتماعيّ للمفرداتِ الرئيسةِ في هذا المقطعِ، فالإمامُ عليه السلام كان مكدودًا في ذاتِ الله، فما دلالة (المكدود) في اللغة؟ جاء في لسانِ العرب تحت الجذر (كدد) المعاني الآتيةُ التي تأتلفُ مع السياقِ[2]:

١. الكَدُّ: الشدَّةُ في العَمَلِ وطَلَبُ الرزقِ، والإلحاحُ في مُحَاوَلَةِ الشيءِ.
٢. كَدَّهُ يَكُدُّه كَدًّا واكْتَدَّهُ واسْتَكَدَّه: طَلَبَ منه الكَدَّ.
٣. كَدَّ لسانَه بالكلام وقَلْبَه بالفكر، وهو مثل ما تقدَّم.
٤. الكَدِيدُ: ما غَلُظَ من الأَرضِ، والكِدَّةُ: الأَرضُ الغليظةُ لأَنّها تَكُدُّ الماشيَ فيها، والكَدِيدُ: المكانُ الغليظُ.
٥. الكَدُّ: ما يُدَقُّ فيه الأَشياءُ كالهاوُن.

(١) الاحتجاج ١/ ١٣٥.
(٢) يُنظر: لسان العرب (كدد).

إنَّ المعنى العامَ الذي تنتظمُ فيه المعاني الجزئيةُ هو الشدَّةُ في العملِ والفكرِ، والإمامُ على وفقِ هذه المعاني مكدودٌ في العملِ العباديّ من صومٍ وصلاةٍ وجهادٍ.. ومكدودٌ في إعمارِ الأرضِ وإصلاحها لإنفاقِ ما يأتي من عمله في سبيلِ الله، ومكدودٌ في تدبُّرِهِ وتفكيرِهِ بآلاءِ الله تعالى، فصار على وفقِ هذه الدلالةِ موطنًا للكدِّ المُجهِدِ، وهذا كلُّه في ذاتِ الله، فصار مكدودًا في هذه الذاتِ المقدّسةِ. بل إنَّ الأمرَ لا ينتهي عند هذا الحدِّ، إذ إنَّه عليه السلام قال لمعاوية بن أبي سفيان في إحدى رسائلِهِ عن شدَّته في ذات الله: «**وإنَّى لو قُتلتُ في ذاتِ الله وحييتُ، ثمَّ قُتلتُ ثمَّ حييتُ سبعين مرَّةً، لم أرجع عن الشِّدةِ في ذاتِ الله، والجهادِ لأعداءِ الله**»[1]. ومن يكن هذا حاله لا يمكنُ إلَّا أنْ يكون مكدودًا في ذاتِ الله تعالى، ومُجتهدًا في أمرِ الله عزّ وجلّ.

ثمَّ يأتي قولُها عليها السلام «**قريبًا من رسولِ الله**»، للتذكيرِ بالقُربَينِ معًا، القربِ المادِّيّ الوجدانيِّ المعهودِ، والقربِ الروحيّ، فالقربُ المادِّيُّ الوجدانيُّ من النبيِّ صلى الله عليه وآله يتجسَّدُ في نشأتهِ منذ أبصرَ نورَ الحياةِ، وهو والنبيُّ صلى الله عليه وآله في بيتِ أبي طالب بعد رحيلِ عبدِ المطَّلب[2]، وكانتْ أمُّ أمير المؤمنين عليه السلام فاطمة بنت أسد أُمًّا للنبي صلى الله عليه وآله على وفقِ هذه الروايةِ التي تقول: «لَـمَّا مَاتَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ أَسَدِ بْنِ هَاشِمٍ أُمُّ عَلِيٍّ- رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- دَخَلَ عَلَيْهَا رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله، فَجَلَسَ عِنْدَ رَأْسِهَا، فَقَالَ: **رَحِمَكِ اللهُ يَا أُمِّي، كُنْتِ أُمِّي بَعْدَ أُمِّي، تَجُوعِينَ وَتُشْبِعِينِي، وَتَعْرَيْنَ وَتَكْسِينِي، وَتَمْنَعِينَ نَفْسَكِ طَيِّبًا وَتُطْعِمِينِي، تُرِيدِينَ بِذَلِكَ وَجْهَ الله وَالدَّارَ الْآخِرَةَ**». ثُمَّ أَمَرَ أَنْ تُغَسَّلَ ثَلَاثًا، فَلَمَّا بَلَغَ الْمَاءَ الَّذِي فِيهِ الْكَافُورُ سَكَبَهُ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله بِيَدِهِ، ثُمَّ خَلَعَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله قَمِيصَهُ فَأَلْبَسُهَا إِيَّاهُ، وَكَفَّنَهَا بِبُرْدٍ فَوْقَهُ، ثُمَّ دَعَا رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله.. فَحَفَرُوا قَبْرَهَا، فَلَمَّا بَلَغُوا اللَّحْدَ حَفَرَهُ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله بِيَدِهِ، وَأَخْرَجَ تُرَابَهُ بِيَدِهِ، فَلَمَّا فَرَغَ دَخَلَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله فَاضْطَجَعَ فِيهِ، فَقَالَ: «**اللهُ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَهُوَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، اغْفِرْ لِأُمِّي فَاطِمَةَ بِنْتِ أَسَدٍ، وَلَقِّنْهَا حُجَّتَهَا، وَوَسِّعْ عَلَيْهَا مُدْخَلَهَا**

(١) وقعة صفّين ٤٧١.

(٢) يُنظر: سيرة ابن هشام ١/ ١٦٤.

بِحَقِّ نَبِيِّكَ وَالْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِي؛ فَإِنَّكَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ». وَكَبَّرَ عَلَيْهَا أَرْبَعًا، وَأَدْخَلُوهَا اللَّحْدَ»[1].

لقد آثرنا هنا أنْ نثبتَ الروايةَ بتمامها، لأنَّها تجسِّدُ القربَ الحقيقيَّ الذي يوحِّدُ بين النبيّ صلى الله عليه وآله، وأمير المؤمنين عليه السلام، فأمُّهما واحدةٌ في الوجدان، وإنْ كانتْ ليست واحدةً في الواقعِ المادِّيّ، وما فعله النبيُّ صلى الله عليه وآله من تكريمٍ لها عند موتها، كما في الروايةِ، يجعلنا نقفُ مبهورين ونحنُ ننظر إلى هذه المرتبةِ التي أرادها الله تعالى لأمير المؤمنين وأمِّه عليهما السلام بفضلِ هذا الفعلِ من النبيّ صلى الله عليه وآله، وبفضلِ الزَّهراءِ عليها السلام في هذا الجزء من خطبتها، التي أعادتْ إلى أذهانِ المسلمين ما ندَّ عنها من حقِّها، ومن حقِّ أميرِ المؤمنين عليه السلام فيما تكرِّسهُ في خطبتها هذه.

وهذا القربُ الذي نحنُ بصددهِ قرَّر أميرُ المؤمنين عليه السلام بعضَ وجوههِ في موقفٍ آخرَ، أظهرَ توحُّدهُ مع النبي صلى الله عليه وآله، يقولُ عليه السلام واصفًا تلك الصلة، وذلك القُرب: «.. **وقدْ علمتم موضعي من رسولِ الله صلى الله عليه وآله بالقرابةِ القريبةِ والمنزلةِ الخصيصةِ، وضعني في حجرهِ وأنا وليدٌ، يضمنِّي إلى صدرهِ، ويُكنِّفني في فراشهِ، ويُمسُّني جسده، ويُشمني عُرفَه، وكان يمضغُ الشيءَ ويُلقمُنيه، وما وجد لي كذبةً في قولٍ ولا خطلةٍ في فعلٍ**»[2].

وهذا يعرفُه السامعونَ بتفاصيله كلّها من دون أيِّ ريبٍ، ولا شكَّ أنَّ كثيرًا منهم سمعوا النبيَّ صلى الله عليه وآله يقولُ لعليٍّ عليه السلام: «**أنا وأنت يا عليّ كهاتينِ**»، وأشار إلى إصبعيهِ[3]، وهذا الحديثُ يحتضنُ ما أشرنا إليه من قربٍ روحيٍّ ووجدانيٍّ وعقائديٍّ بين النبي صلى الله عليه وآله والإمام عليه السلام، مع الإشارة إلى أنَّ المساواةَ التي تُستوحى من مثلِ الإصبعينِ، لا تعني المساواةَ في الفضلِ حتمًا، «فالنبيُّ صلى الله عليه وآله، وإنْ كان أفضلَ وأكثرَ ثوابًا من أميرِ

(١) مجمع الزوائد ٩/ ٢٥٦-٢٥٧.
(٢) نهج البلاغة ٢/ ١٥٧.
(٣) رسائل المرتضى ٣/ ١٣٤.

المؤمنين، فمن حيث تقاربُ فضلهما، ولم يكنْ فيهما تفاوتٌ، جاز اطلاقُ ألفاظِ المساواة»[1].

ويُختتمُ القربُ الواقعيُّ بين النبيّ صلى الله عليه وآله والإمام عليه السلام يومَ رحيلِ النبيّ صلى الله عليه وآله، إذْ كان الإمامُ عليه السلام آخر الناسِ عهدًا بالنبيّ صلى الله عليه وآله، يقولُ عليه السلام مصوِّرًا ذلك: «**ولقد قُبِضَ رسولُ الله، وإنَّ رأسَه لعَلَى صدري، ولقد سالتْ نفسُه في كفِّي فأمررتُها على وجهي**»[2].

يظهرُ من قولِ الإمام عليه السلام هذا أنَّه كان آخرَ الناسِ عهدًا برسول الله صلى الله عليه وآله في الحياة الدنيا، إذ وضعُه في حجرِه، ورأسُه صلى الله عليه وآله على صدرِه، وما من شكٍّ، أنَّ النبي صلى الله عليه وآله أخبرَ الإمامَ عليه السلام، بقربِ رحيلِه ودنوِّ أجلِه، وأراد أنْ يكونَ قريبًا منه، على هذا النحو من القربِ المكانيّ؛ لتتأكدَ من خلالِه حقيقةُ القربِ الروحيّ بينهما، فضلًاعن القرب الإيمانيّ والاجتماعيّ والأُسريّ الذي جَلَّته هذه البرهةُ من الزمن. وعلى الرغمِ من حضورِ آخرين من بني هاشم، فإنَّهم يعرفون لعليٍّ عليه السلام هذهِ المرتبةَ الربَّانيَّةَ، فلم يطلبوا منه التشرُّفَ بهذا المقامِ؛ لأنَّه مقامٌ يتَّصل بالعقيدةِ أوَّلًا، وبالأنماطِ الأخرى من القرب المشار إليها ثانيًا.

أمَّا القربُ الروحيّ للإمام عليه السلام من النبيّ صلى الله عليه وآله، الذي يرتبطُ بعقيدةِ التوحيدِ، فضلًا عمَّا ذكرنا، فقد بدأ منذ كان النبيّ يتعبَّدُ الله تعالى في غارِ حراء قبل البعثةِ، يقولُ عليه السلام عن هذه المرحلةِ: «.. **أرى نورَ الوحيّ والرسالةِ، وأشمُّ ريحَ النبوَّةِ، ولقد سمعتُ رنَّةَ الشيطانِ حين نزل الوحيُّ عليه** صلى الله عليه وآله، **فقلتُ: يا رسولَ الله ما هذه الرَّنَّة؟ فقال: هذا الشيطانُ آيسَ من عبادتهِ، إنَّك تسمعُ ما أسمعُ وترى ما أرى، إلَّا أنَّك لستَ بنبيٍّ، ولكنَّك وزيرٌ، وإنَّك لعلى خيرٍ**»[3].

(١) رسائل المرتضى ٣/ ١٤٣.
(٢) نهج البلاغة ٢/ ١٧٢.
(٣) نهج البلاغة ٢/ ١٥٨.

ويبقى من قولِ السيِّدةِ الزَّهراءعليها السلام السابق إشارتها إلى ولايةِ أميرِ المؤمنينعليه السلام: «**سيدَ أولياءِ الله، مُشمِّرًا ناصحًا، مُجِدًّا كادحًا**»، فكيف نتأوَّل بعضَ ما تريده في هذا المقطعِ من قولها؟.

إنَّ الإجابةَ هنا تستدعي أنْ نعود إلى المعجم للوقوف على معاني الجذر (ولي). جاء في لسان العربِ المعاني الآتيةِ[1]:

١. الوليُّ: القريبُ والدنّو.

٢. الوليُّ: الصديقُ والنصيرُ.

٣. الوليُّ: التابعُ والمحبُّ.

٤. الولايةُ: تُشعر بالتدبيرِ والقدرةِ والفعلِ، وما لم يجتمع ذلك فيها لم ينطبق عليه اسمُ الوالي.

إنَّ نظرةً في هذه المعاني لـ(ولي)، تظهرُ انطباقها تمامًا على الإمام عليّعليه السلام في صلته بالنبيّ الأكرمصلى الله عليه وآله، كما مرَّ بنا من قبلُ، فهوعليه السلام قريبٌ من النبيصلى الله عليه وآله، ودانٍ منه، وصديقٌ ونصيرٌ وتابعٌ ومُحبٌّ. واستنادًا إلى هذا تتبيَّنُ لنا دقَّةُ استعمال الفعل (ولي) في قولِ الزَّهراءعليها السلام، فإذا أضفنا إلى هذه المعاني، معنى الولايةِ الذي يُشعرُ بالتدبيرِ والقدرةِ والفعلِ (المعنى رقم ٤)، أمسكنا بتحليلٍ مُقنعٍ ووجيهٍ لاختيارِ السيّدة فاطمةعليها السلام لـ(سيِّدِ أولياءِ الله).

ونضيفُ هنا أمرًا آخرَ يمتزجُ بهذا كلّه، وهو أنَّهاعليها السلام تنظرُ إلى قولهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾[2]، فقد أجمع المسلمون على أنَّ المقصود بـ(الذين آمنوا)، الإمام عليّ بن أبي طالبعليه السلام[3]، والذي سنلتفتُ إليه أوَّلًا معنى الولاية في الآية الكريمة، ثمَّ نعطف بصرنا على سبب نزولها؛ لنصل إلى حكم

(١) يُنظر: لسان العرب (ولي).

(٢) المائدة٥٥.

(٣) يُنظر: الغدير ٥/ ٢٤، وما بعدها.

قاطع بشأن دلالتها، حكم تقوده اللغة التي نزل بها القرآن الكريم؛ لنخرجَ من هذا كلِّه إلى دلالةِ ما تُريدهُ الزَّهراء عليها السلام بذكرها لـ(سيِّد أولياءِ الله).

فالوليُّ في اللغةِ، كما مرَّ، يَعني فيما يعنيه (المالك)، وهذه ولايةُ الله سبحانه وتعالى على عباده، وترتبط بهذه الولايةِ على وفقِ دلالةِ الآيةِ، ولايةُ الرسولِ وولايةُ الإمام عليّ عليه السلام، فالولايةُ واحدةٌ؛ لأنَّها جاءت في صدر الآية، ثمَّ تثبتُ لمن ذُكروا (الله، الرسول، الذين آمنوا)، ولا يمكنُ تجزئتُها، لنقولَ إنَّ لها أكثرَ من دلالةٍ. وقد تنبَّه المفسِّرون إلى هذا التوجيهِ اللغويّ، ولكنَّهم لم يذهبوا إلى الدلالةِ اللغويَّةِ التي بسطَها التركيبُ النحويُّ على نحوٍ قاطعٍ، فمثلًا ذهب السيِّدُ الطباطبائيّ صاحبُ الميزانِ إلى القولِ: إنَّ سياقَ الآيةِ: «يدلُّ على وحدةٍ في معنى الولاية المذكورة فيه، حيث تضمَّن العدُّ في قولهِ تعالى ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وأسند الجميع إلى قوله ﴿وَلِيُّكُمُ﴾، وظاهره كون الولاية واحدة»[1].

والوحدةُ التي أشار إليها السيِّدُ الطباطبائي لا تخرجُ عن الدلالاتِ اللغويَّةِ التي قدَّمها الجذر (ولي)، كما مرَّ، وهي لا تعدو المعنى العام المشار إليه «الوليُّ الذي يمتلكُ القدرةَ والتدبيرَ والفعلَ»، وهذه ولايةُ التصرُّفِ التي اختصَّ بها اللهُ تعالى، ومنحها تفضُّلًا لنبيّهِ صلى الله عليه وآله، ولعليٍّ عليه السلام، وهذا كلُّه يتناسبُ مع مضمونِ الروايةِ التي تحدَّثتْ عن سببِ نزولِ الآيةِ، تقولُ: «.. وخرج النبيُّ صلى الله عليه وآله إلى بابِ المسجدِ، فإذا هو بمسكينٍ قد خرج من المسجد، وهو يحمدُ الله عز وجل، فدعاه النبيُّ صلى الله عليه وآله فقال: **هل أعطاكَ أحدٌ شيئًا؟** قال: نعم يا نبيَّ الله، قال: **من أعطاك؟** قال:الرجلُ القائمُ أعطاني خاتمَه، يعني عليَّ بنَ أبي طالب رضوان الله عليه، فقال النبيُّ صلى الله عليه وآله: **على أيّ حالٍ أعطاكه؟** قال: أعطاني وهو راكعٌ، فكبَّر النبيُّ صلى الله عليه وآله وقال: **الحمدُ لله الذي خصَّ عليًّا بهذه الكرامةِ**، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾»[2].

(١) الميزان ٦/ ١٢.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان ١/ ٤٢٩.

إنَّ الذي يستوقفُنا من هذه الروايةِ تكبيرُ النبيِّ صلى الله عليه وآله، فالتكبيرُ محمودٌ في كلِّ حينٍ، ولكنَّه هنا وسيلةٌ مباركةٌ إلى لفتِ أنظارِ المسلمين إلى أمرٍ كبيرٍ، وهذا الأمرُ تصدُّقُ عليٍّ عليه السلام بخاتمِهِ وهو راكعٌ، وهذا يعني أنَّ الولايةَ المذكورةَ في الآيةِ تخصُّه لوحدهِ بعد النبيّ صلى الله عليه وآله، فهو الذي تصدَّق راكعًا، ولا يمكن أنْ نلفتَها إلى غيره من المؤمنين، والذي يقوِّي هذا التوجيهُ ويقطع بحجيَّتِهِ، أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله عقب ذلك بحمدِ الله تعالى على هذه الكرامةِ التي خُصَّ بها عليٌّ عليه السلام. واستنادًا إلى هذا فلا يصحُّ على وفقِ منطقِ اللغةِ ومنطقِ الروايةِ أنْ توجَّهَ دلالةُ الولايةِ هنا إلى (المؤمنين) كلّهم، على النحو الذي ذهب إليه بعض المفسِّرين، حينما قالوا: إنَّ الولايةَ في الآيةِ لكلِّ المؤمنين، وأُفردَ الركوع بالذِّكرِ تشريفًا له[1]، وهذا الأمرُ يُرَدُّ بما قلناه سابقًا، ونتمُّ الردَّ ونعضِّدُه بأمرَين:

الأوَّل: إنَّ معنى الولايةِ الذي بيَّنتهُ الآيةُ كما بيَّنا هو التدبيرُ والقدرةُ والفعلُ، أي حسنُ التصرُّفِ، وكون الولاية واحدة في الآيةِ، لا يصحُّ أنْ تكونَ ولايةُ المؤمنين مطلقةً على بعضهم على هذا النحو المضطربِ، هذا فضلاً عن إنَّ دلالةَ (الذين آمنوا) في الآيةِ، إذا كانت مطلقةً، لا يمكنُ أنْ يُعترضَ على من يقولُ أنَّه من (الذين آمنوا)، وتكون له ولايةٌ مطلقةٌ على غيره، ولو كان لا يُحسن التصرُّفَ مثلًا، ومن هنا يتفلَّتُ حقُّ التَّصرُّفِ من أيدي أصحابهِ الحقيقيِّين الذين اختارهم الله، ويكون (حقًّا) للجميع، وهذا لا يبني مجتمعًا يُريده اللهُ تعالى للمسلمين، إذْ جعل ولايتهم موكولةً إلى نبيِّه وإلى عليٍّ عليه السلام.

الثاني: إنَّ معنى الركوعِ في اللغةِ: الخضوع، «يُقال ركع يركع ركعًا وركوعًا، طأطأ رأسه.. وأمَّا الركوعُ في الصلاة، فيعني أنْ يخفضَ المصلِّيّ رأسَه بعد القومةِ التي فيها القراءةُ حتَّى يطمئنَّ ظهرُه راكعًا. قال لبيد:

أَدِبُّ كـــأَنِّي كُـلَّـما قُـمْـتُ راكِـع

فالراكعُ: المنحني في قولِ لبيد، وكلُّ شيءٍ ينكبُّ لوجههِ فتمسُّ ركبتُه الأرضَ، ولا

(١) يُنظر: أحكام القرآن ٢/ ٥٥٧، زاد المسير ٢/ ٢٩٣، تفسير القرطبيّ ٦/ ٢٢٢.

تمسُّها بعد أنْ يخفض رأسَه فهو راكعٌ»[1]، وهذا الوصفُ للراكع يعني الراكع في الصلاةِ فقط، فمن تزكَّى بماله في حال الركوع في الصلاة هو الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام بإجماع المسلمين، كما مرَّ بنا قبل قليل. وقد يُقال هنا إنَّ المعنى العامَّ للركوعِ يعني الخضوعَ، فتوجِّه اللغةُ الآيةَ إلى نحوٍ آخرَ، وهذا الأمْر مردودٌ أيضًا؛ لأنَّ الخضوعَ مرتبطٌ بطأطأةِ الرأسِ في اللغةِ، واصطلاحًا في الصلاة.

واستنادًا إلى ما تقدَّم، تتعاضدُ الدلالتان، دلالةُ اللغةِ ودلالةُ الروايةِ؛ لتجعلا حقَّ الولايةِ في الآيةِ الكريمةِ محصورٌ بالنبيّ صلى الله عليه وآله والإمامِ عليّ عليه السلام، ولا يمكن أن يشترك معهما أحدٌ فيه على الدلالاتِ التي وقفنا عندها.

وثمَّة أمرٌ آخرُ يُرشِّحه لنا التركيبُ النحويُّ للآيةِ الكريمةِ، فقد بدأتْ الآية بـ(إنَّما)، وهذا يعني تحقيقًا لما تتضمَّنه من دلالةِ (الولاية) المشارِ إليها، وحصره بالله تعالى، وبالنبيّ صلى الله عليه وآله، وبالإمامِ عليّ عليه السلام. جاء في لسانِ العربِ «ومعنى إنَّما إثبات لما يُذكر بعدها ونفيٌ لما سواه.. وإنْ زدتَ على(إنَّ) (ما) صار للتعيين، كقولهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ﴾؛ لأنَّه يوجبُ إثباتَ الحكمِ للمذكورِ، ونفيَّه عمَّا عداه»[2]. ومن هنا فاللغة لا تسمحُ لنا بتوجيهِ الآيةِ على النحو الذي ذهبَ إليه بعضُ المفسِّرين؛ لأنَّ إطلاقَ (الذين آمنوا) على المؤمنين جميعًا، ينفي الحصر بـ(إنَّما)، وهنا لا يبقى مسوِّغ لغويٌّ لاستعمال (إنَّما)، إذ يحتِّم هذا المعنى أن يكون التعبيرُ بـ(إنَّ) بدل (إنَّما)، وهكذا تتبيَّن لنا دقَّة الدلالة في الصياغات القرآنيَّة للتعبير عن المعاني المحدَّدة.

لقد أطلنا قليلًا في تأويل ما أرادتهُ الزَّهراء عليها السلام بذِكرها لـ(سيِّد أولياءِ الله)، لنقطعَ بأنَّ ما وردَ في خطبتيها لا يمكنُ أنْ يكون مُقيَّدًا بالدلالةِ الظاهرةِ لأوَّلِ قراءةٍ، وإنَّما ينبغي أنْ يُتأوَّلَ على ما وفقِ ما تقدِّمه اللغةُ، ويرتضيه السياقُ.

(١) لسان العرب (ركع).

(٢) لسان العرب (انن)، وينظر معاني النحو ١/ ٣٥٥.

الخطبة الثانية

جاء في روايةِ هذه الخطبةِ أنَّ السيّدةَ فاطمةَ الزَّهراءَ عليها السلام ألقتها وهي على فراشِ مرضِها الذي تُوفيتْ بسببِهِ، ولـمَّا اشتدَّتْ علَّتُها عليها السلام، اجتمع عندها نساءُ المهاجرين والأنصارِ. فقلنَ لها: يا بنتَ رسولِ الله: كيف أصبحتِ؟ فقالتْ عليها السلام خاطبةً بهنَّ: «**أصبحتُ والله عائفةً لدنياكم، قاليةً لرجالِكم، لفظتُهم قبل أنْ عجمتهم، وشنأتهم بعد أنْ سبرتهم، فقُبحًا لفلولِ الحدِّ، وخورِ القناةِ، وخطلِ الرأي، وبئس ما قدَّمتْ لهم أنفسُهم أنْ سخطَ اللهُ عليهم وفي العذابِ هم خالدون، لا جَرَمَ لقد قلَّدتهم ربقتَها، وشننت عليهم غارَها فجدعًا، وعقرًا، وسُحقًا للقومِ الظالمين**»[1].

إنَّ الأمرَ الأوَّلَ الذي ينبغي أنْ نشيرَ إليه أنَّ الزمنَ الذي يفصلُ بين هذه الخطبةِ والخطبة الأولى لا يتعدَّى ثلاثة أشهر في أبعدِ الاحتمالاتِ[2]، وعلى الرغمِ من هذا الفاصلِ الزمنيّ بين الخطبَتَين، ومرضِ السيِّدة فاطمة عليها السلام، فإنَّ الإطارَ العامَ للخطبَتَين واحدٌ، ويدور حول موضوعٍ واحدٍ، مع علمٍ جمٍّ وإدراكٍ عميقٍ لما آلَ إليه حالُ المسلمين، وما استوجبه من حزنٍ عميقٍ وألمٍ وغمٍّ وحرقةٍ ورفضٍ.

والأمرُ الثانيُّ الذي نذكره هنا أنَّ نساءَ المهاجرين والأنصارِ جئن يسألنَّ عن حالِ السيدةِ الزَّهراء عليها السلام ومرضِها، ولكنَّ ما جاء في الخطبةِ جاء بيانًا لما وقع من ظلمٍ على أميرِ المؤمنين عليه السلام، بعد أنْ حُرمتْ الزَّهراءُ عليها السلام من (فدك) بمفهومها الذي صار عنوانًا لما وقع

(١) الاحتجاج ١/ ١٣٧.

(٢) نعني هنا الروايات الثلاث التي أرَّخت لوفاةِ الزَّهراء عليها السلام، وأبعدها رواية التسعين يومًا بعد انتقال النبيّ صلى الله عليه وآله إلى أكرم جِوار.

لأمير المؤمنين عليه السلام. والآن نعود إلى المقطعِ الأوَّل من الخطبةِ، فنقول:

يظهرُ من هذا المقطعِ بَرَمَ السيِّدةِ الزَّهراء عليها السلام بدنيا هؤلاءِ النسوةِ، فهي عائفةً لها، بسببِ بغضها لرجالِهِنَّ، وهي قاليةٌ لهم، والجذر (قلى) يتضمَّن المعاني الآتية[1]:

١. قَلَيْتُه قِلًى وقَلاء ومَقْلِيةً: أَبغضتُه وكَرِهْتُه غايةَ الكَراهةِ فتركته.

٢. جَرِّب الناس فإِنَّك إِذا جرَّبتهم قليتهم وتركتهم؛ لما يظهر لك بعد ذلك من بَواطِن سرائرهم.

فالسيّدةُ الزَّهراءُ عليها السلام أبغضتْ رجالَ هؤلاءِ النسوةِ وكرهتهمم؛ لما ظهرَ من بواطنِ أسرارهم التي كانوا يُخفونها على عهدِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله؛ لأنَّ بعضَهم فعلوا ما فعلوه من دون أنْ يعبأوا بما يريدهُ اللهُ تعالى، والآخرين سكتوا، بل وافقوا على الانحرافِ الذي حصلَ، ومن هنا يتبيَّنُ لنا قسوةُ الظلمِ العنيفِ الذي استشعرتْ به الزَّهراءُ عليها السلام من فعلِ المسلمين آنئذٍ.

وموقفُ الزَّهراءِ عليها السلام آتٍ من معرفتها بهؤلاءِ الذين لفظتهم قبل أنْ تلوكَهم، وكرهتهم بعد أنْ سبرتهم، ولعلَّ من المناسبِ الوقوفَ على دلالة الفعلَ (سبر) أيضًا لنتمثل ما تعنيه. جاء في لسان العرب[2]:

١. السَّبْرُ: التَّجْرِبَةُ، وسَبَرَ الشيءَ سَبْرًا حَزَره وخَبَرَهُ، واسْبُرْ لي ما عنده أَي اعْلَمْه.

٢. السَّبْر: اسْتِخْراجُ كُنْهِ الأَمر.

٣. السَّبْر:مَصْدَرُ سَبَرَ الجُرْحَ يَسْبُرُه ويَسْبِرُه سَبْرًا نَظَر مِقْدارَه وقاسَه لِيَعْرِفَ غَوْرَه، ومَسْبُرَتُهُ نِهايَتُه.

وهذه المعاني الثلاثةُ تُرينا أنَّ الزَّهراءَ عليها السلام علمتْ ما في نفوسِ من وقفوا بوجهها، وعرفتْ كنه ما خطَّطوا له، وهذا البغضُ الذي ملأ نفسها الكريمةَ آتٍ من تلك المعرفةِ.

(١) يُنظر: لسان العرب (قلي).

(٢) يُنظر: لسان العرب (سبر).

والمعرفةُ هنا وصلتْ إليها من أبيها صلى الله عليه وآله، ومن أميرِ المؤمنين عليه السلام قبل وقوعِ ما وقع ممَّا جرى على أمير المؤمنين عليه السلام وعليها. وهذا الذي نقوله مبنيٌّ على ما قدَّمته اللغةُ لنا في دلالة (عجم)، و(سبر) التي مرَّتْ.

ثمَّ تُقفِّي الزَّهراء عليها السلام كلامها السابقَ بالاستهجانِ من حالهم بحشدٍ من الكناياتِ التي تجسِّدُ الخسران الذي جنوَهُ: «**فقُبحًا لفلولِ الحدِّ، وخورِ القناةِ، وخطلِ الرأي**»، فالسيفُ مثلومٌ حدُّهُ، والرمحُ قناتُه ضعيفةٌ، والرأيُ مضطربٌ. وهذا تحقيرٌ عنيفٌ لفعلِ المعنيين بخطابِها؛ لأنَّهم خالفوا ما أمرهم اللهُ سبحانه وتعالى به، وعضَّدتْ عليها السلام هذا التقريعَ بقوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾[1]، ومن تُقدِّمُ له نفسُه سخطَ الله تعالى خسر الدنيا والآخرةَ. يقولُ السمرقنديّ في تفسيرِ هذه الآيةِ: «لبئس الفعلُ الذي كانوا يستوجبون به السَّخطَ من الله تعالى، ويُوجبُ لهم العقوبةَ والعذابَ، وَفِي الْعَذابِ هُمْ خالِدُونَ، يعني: دائمون»[2]، والزَّهراء عليها السلام بيَّنتْ ما يؤولُ إليه مصيرُ هؤلاءِ لبشاعةِ ما أقدموا عليه، من خلالِ دلالةِ هذه الآيةِ المباركةِ.

وتُتمُّ الزَّهراء عليها السلام تمهيدَ خطبتها بالقولِ: «لا جرمَ لقد قلَّدهم ربقتَها وشنَّتْ عليهم غارتُها، فجدعًا وعقرًا وبُعدًا للقومِ الظالمين»[3].

يبدأ هذا المقطعُ من الخطبةِ بـ(لا جرم) فما الدلالةُ التي ينهضُ بها هذا التعبيرُ لتتَّسقَ مع السِّياقِ الوارد فيه؟ جاء في لسان العرب المعاني الآتية[4].

١. الجرم: القطع، وجرمهُ يجرمهُ جرمًا قطعه.

---

(١) تمام الآية ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ المائدة ٨٠.

(٢) تفسير السمرقنديّ ١/ ٤١١.

(٣) بلاغات النساء ٢٣.

(٤) يُنظر: لسان العرب (جرم).

٢. لا جرم: قيل معناه لا بدَّ، ولا محالة.

٣. لا جرم: قيل معناهُ حقًّا، وقيل غير ذلك.

واجتماعُ هذه المعاني (لا بدَّ، لا محالة، حقًّا) تنبئُ عن القطع (المعنى ١) بأنَّ الإمام عليه السلام قد قلَّدهم رِبقةُ الخلافةِ بعد أنْ رأى أنَّ مصلحةَ الإسلامِ تحتِّمُ ذلك، وهذا ما أشارَ إليه عليه السلام يوم الشورى بعد مقتل عثمان بنِ عفَّان، حيث قال: «**لقد علمتم أنِّي أحقُّ الناسِ بها من غيري، ووالله لأُسلِّمنَّ ما سلمتْ أمورُ المسلمين، ولم يكنْ فيها جَورٌ إلَّا عليَّ خاصَّة التماسًا لأجرِ ذلك، وفضلِه، وزهدًا فيما تنافستموهُ من زخرفهِ وزبرجهِ**»[1].

ولبيانِ هولِ ما واجهَ المذكورين، أشارتْ عليها السلام إلى أنَّ الخلافةَ شنَّتْ عليهم غارتَها، كنايةً عمَّا ارتبطَ بها من تجاوزٍ لحدودِ الله تعالى، وهنا تلتفتُ الزَّهراء عليها السلام إلى الدعاءِ على هؤلاءِ القومِ الظالمين بالجدعِ والعقرِ والبعدِ، فالجدعُ: يكون للأنف كنايةً عن الإذلالِ، كما أن شموخَ الأنفِ يكنَّى به عن العزَّةِ و الرِّفعةِ[2]

أمَّا العقرُ: فهو من أساليبِ العربِ الشديدةِ في الدعاءِ لما يتضمَّنه من معانٍ موجعةٍ لنفسِ المدعوِّ عليه، فمن معانيه التي تختصُّ بالدعاءِ ما يأتي:

عَقَرَ النخلة عَقْرًا، وهي عَقِرةٌ: قطع رأْسَها فيبستْ، وعَقْرُ النَّخْلة أَنْ يُكْشَطَ لِيفُها عن قَلْبها، ويؤخذ جَذَبُها، فإذا فعل ذلك بها يَبِسَتْ وهَمَدت، ويقال عَقَر النخلة قَطَع رأْسَها كلَّه مع الجُمَّار، فهي مَعْقورة.

وطائر عَقِرٌ وعاقِرٌ، إذا أَصاب ريشَه آفةٌ فلم ينبت.

عقرى: صفةٌ للمرأَة المشؤومةِ، أَيْ إِنَّها تَعْقِرُ قومَها وتَحْلِقُهم، أَي تستأْصِلُهم من شؤمها عليهم.

(١) نهج البلاغة ١/ ١١٣.

(٢) يُنظر: لسان العرب (جدع).

فهذه المعاني بأجمعها تظهرُ لنا قسوةَ دعاءِ الزَّهراءعليها السلام على القوم؛ لأنَّهم تجاوزوا حدودَ ما أمرَ الله تعالى به، وهو هنا (أي الدعاء) وسيلةٌ من وسائلِ التنبيهِ والتأديبِ لهم، إنْ كان بعضُهم لا يدركُ خطرَ ما أقدموا عليه، فشدَّةُ الدعاءِ هنا تتناسبُ مع الذنبِ العظيمِ الذي اقترفوهُ.

ويبقى من الدعاءِ السابقِ كلمةُ (بُعدًا)، وهي تعني الهلكة في إطارها العام[1]، ولكنَّ الزَّهراءعليها السلام جاءتْ بهذه الكلمةِ ضمن سياقٍ مقتبَسٍ من آياتٍ من القرآنِ الكريم: في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2]، و(بُعدًا) في هذا السياقِ معناه: بُعدًا لهم من الرَّحمةِ، وهي كاللَّعنة التي هي إبعادٌ للظالمين من رحمةِ الله[3].

زحزحةُ الخلافةَ عن أميرِ المؤمنينعليه السلام:

تنتقلُ السيِّدةُ الزَّهراءعليها السلام في هذا المقطعِ من خطبتها في نساءِ الأنصارِ إلى الحديثِ عن ولايةِ شؤونِ المسلمين، فتقول: «**ويحَهم أنَّى زعزعوها عن رواسي الرسالةِ، وقواعدِ النبوَّةِ، ومهبطِ الروحِ الأمينِ، والطَّبِينِ بأمورِ الدنيا والدين؟! ألا ذلك هو الخسرانُ المبينُ**»[4].

تبدأ الزَّهراءعليها السلام كلامَها بكلمةِ (ويحهم)، والخطابُ هنا موجَّهٌ لرجالِ نساءِ الأنصارِ، ومنهم إلى المسلمين عامَّةً، فما الذي تؤدِّيه هذه الكلمةُ؟ جاء في المعجمِ العربيِّ المعاني الآتية[5]:

١. وَيْح: كلمةٌ تُقال رحمةً.

(١) يُنظر: لسان العرب (بعد).
(٢) المؤمنون ٤١
(٣) يُنظر: التبيان ٧/ ٣٦٢.
(٤) الاحتجاج ١/ ١٤٧.
(٥) يُنظر: لسان العرب (ويح).

٢. ويح: رحمةً لمن تنزلُ به بليَّةٌ.

٣. وَيْح: كلمة رحمة، ووَيْلٌ كلمةُ عذابٍ، وقيل: هما بمعنى واحدٍ.

٤. وَيْح: تُقال لكلِّ مَن وقعَ في بليَّةٍ يُرْحَمُ ويُدْعى له بالتخلُّصِ منها.

٥. ويح: رحمةٌ، يعني أَنْ تكونَ العربُ تقولُ لمن ترحمه وَيْحَه رِثايَةً له.

انتقتْ الزَّهراءُ عليها السلام هذه الكلمةَ لهذه المعاني التي تؤدِّيها، إذْ جمعتْ فيها الدعاءَ بالرحمةِ للخلاصِ من البليَّةِ (المعاني ١، ٢، ٤) التي نزلتْ بالمسلمين بعد أنْ زعزعوا الولايةَ «حرَّكوها ليقلعوها من مكانها»[١]، وهذا المعنى يتَّسقُ مع السياقِ المحيطِ به. ولكن ما بقي من المعاني يتلاءمُ أيضًا مع المعنى العام الذي ينتظمُ فيه (ويح)، فقد تكون هنا كلمةُ عذاب من الزَّهراء عليها السلام على من ذُكروا (المعنى ٢)، وهذا يتَّسقُ مع ما رأيناه في مقدِّمةِ الخطبةِ من التوجُّعِ والألم والحسرةِ.

وتستفهمُ الزَّهراء عليها السلام عن تحويلِ الولايةِ (زعزعتها) كما أشرنا بـ(أنَّى) التي تعني هنا (كيف)، ولكنَّها أوسعُ منها في أداء المعنى، وأقوى في الاستفهام الانكاريّ[٢]؛ لأنَّ الأمرَ جللٌ ويحتاجُ إلى هذه القوَّةِ التي يُوفِّرها الاستفهامُ بـ(أنَّى)، بعد أنْ وفَّر الفعل (زعزع) تلك الحركةَ التي تتناسب مع قلعِ الأشياءِ الراكزةِ كالأشجار مثلًا؛ لأنَّها (الولايةُ) ثابتةٌ بثبوتِ الرسالةِ في النبيِّ صلى الله عليه وآله وأهلِ بيته.

أمَّا قواعدُ النبوَّةِ، فالقاعدةُ هي: أَصلُ الأُسِّ، والقَواعِدُ: الأساسُ، وقواعِدُ البيتِ: أساسُهُ[٣]، وقواعدُ النبوَّةِ: الأساسُ الذي قامتْ عليه، والنبيُّ صلى الله عليه وآله، وعليٌّ عليه السلام هما الأساس الذي نهضتْ عليه النبوَّةُ، والشواهُد على ذلك كثيرةٌ، رأينا بعضها فيما مرَّ (التحنُّث في غارِ حراء)، ونُضيف هنا وجهًا آخرَ من وجوهِ الأساسِ المعهود، فثمَّة روايةٌ تقولُ: «قال الصادقُ جعفرُ بنُ محمَّدٍ عليه السلام: **أوَّل جماعة كانت إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله كان يُصلِّي وأميرُ**

(١) يُنظر: لسان العرب (زعزع).

(٢) يُنظر: معاني النحو ٤/ ٢٥٥.

(٣) يُنظر: لسان العرب (قعد).

المؤمنين عليُّ بنُ أبي طالبعليه السلام **معه، إذْ مرَّ أبو طالب به وجعفرٌ معه، فقال: يا بُنيَّ، صِلْ جناحَ ابنِ عمِّك، فلمَّا أحسَّ رسولُ الله**صلى الله عليه وآله **تقدَّمهما، وانصرفَ أبو طالب مسرورًا»**[1].

فقاعدةُ الإسلامِ الصلاةُ، وقاعدةُ الصلاةِ هذه الجماعةُ.

وحينما رحلَ النبيُّ صلى الله عليه وآله إلى ربِّهِ، وهو الأسُّ الأوَّل لقواعدِ النبوَّةِ، بقي الأسُّ الثاني، وهو أميرُ المؤمنين عليه السلام، فكيف تُزعزعُ ولايةُ المسلمين عنه؟!.

أمَّا قولُها: «**الطَّبِين بأمور المسلمين**»، فهنا ننظرُ في دلالات الجذر (طبن) التي جاءتْ فيها المعاني الآتيةُ[2]:

١. الطَّبَنُ بِالتَّحْرِيكِ: الفِطْنَةُ. طَبِنَ الشيءَ: فطِنَ لَهُ.
٢. الطَّبَنُ: الفِطْنَةُ لِلْخَيْرِ.
٣. رَجُلٌ طَبِنٌ: فَطِنٌ حاذِقٌ عَالِـمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ.
٤. رَجُلٌ طَبِنٌ: لَقِنٌ لَـحِنٌ.

إنَّ هذه المعاني التي يُقدِّمها لنا الاستعمالُ الاجتماعيُّ للجذر (طبن)، تجتمعُ في شخصِ أميرِ المؤمنين عليه السلام، فهو حاذِقٌ عَالِـمٌ بأمورِ المسلمين، لَقِنٌ فَطِنٌ للخيرِ، وهذه الصفاتُ لا تجتمعُ في غيره عليه السلام، كما يُجمعُ على ذلك المسلمين، وثمَّة شاهدٌ يُغرينا بالوقوفِ عنده، وهو ما علَّق به صاحبُ (النهايةِ في غريبِ الحديثِ) على الحديثِ النبويّ «**النظرُ إلى عليٍّ عبادة**»، حيثُ قال: «.. معناه أنَّ عليًّا رضي الله عنه كان إذا بَرَز قال الناسُ: لا إله إلا الله ما أشرَفَ هذا الفَتى، لا إله إلَّا الله ما أعلَمَ هذا الفتى، لا إله إلَّا الله ما أكرَمَ هذا الفتى، لا إله إلَّا الله، ما أتْقَى هذا الفتى، لا إله إلَّا اللهَّ ما أشْجَعَ هذا الفتى، فكانت رؤيَتُه تَحْمِلُهم على كلمة التوحيد»[3]، ولذا فإنَّ الزَّهراءَ عليها السلام تذكِّرُ المسلمين بمنزلةِ

(١) وسائل الشيعة ٨/ ٢٨٨.
(٢) يُنظر: لسان العرب (طبن).
(٣) النهاية في غريب الحديث ٥/ ٧٧، وينظر الحديث في: أمالي الطوسيّ ٤٥٥، ينابيع المودَّة ١/ ٢٦٥.

أميرِ المؤمنين عليه السلام، وتدعوهم إلى التدبُّرِ في حياتِهِ وسيرتِه؛ لتقويمِ حياتِهم، مع التركيزِ على أنَّ ما عنده من الصفاتِ المذكورةِ هبةٌ من الله تعالى.

وينتهي هذا المقطعِ من كلامِ الزَّهراء عليها السلام بقولها: «**ألا ذلك هو الخسرانُ المبين**»، وعلى الرغمِ من أنَّ الخسرانَ المذكورَ جاء نتيجةً لما مرَّ من تفريطِ المسلمين بالأسسِ التي ذكرتها في صدرِ هذا المقطعِ، فإنَّها عليها السلام استحضرتْ مع ما مرَّ قولَه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾[1]؛ لأنَّها تتلاءمُ تمامًا مع حالِ المسلمين الذي تُشيرُ إليه الزَّهراء عليها السلام، فقد رُوي أنَّ زرارة سأل الإمامَ الباقرَ عليه السلام، فأجابه بقوله: «**ومِن الناسِ من يعبدُ اللهَ على حرفٍ، يعني على شكٍّ في محمَّد صلى الله عليه وآله وما جاء به، فإنْ أصابهُ خيرٌ، يعني عافية في نفسهِ ومالهِ وولدهِ، اطمأنَّ به، ورضي به، وإن أصابته فتنةٌ، يعني بلاء في جسدهِ أو ماله، تطيَّر وكره المقامَ على الإقرارِ بالنبيّ صلى الله عليه وآله، فرجع إلى الوقوفِ والشَّكِّ، فنَصَب العدواةَ لله ولرسولهِ، والجحودِ بالنبيّ وما جاء به**»[2]، والجحودُ بعليّ بن أبي طالب عليه السلام، هو الجحودُ بالنبيّ صلى الله عليه وآله بعينهِ.

ثمَّ تنتقلُ الزَّهراء عليها السلام إلى ضربٍ آخرَ من ضروب تقريعها للمخاطَبين بكلامها، فتقول: «**وما الذي نقموا من أبي الحسن عليه السلام؟! نقموا والله منه نكيرَ سيفهِ، وقلَّةَ مبالاته لحتفهِ، وشدَّةَ وطأتهِ، ونكالَ وقعتهِ، وتنمُّره في ذاتِ الله**»[3].

تستفهمُ الزَّهراءُ استفهامًا تقريريًّا هنا عمَّا ينقمه هؤلاءِ من أبي الحسن عليه السلام، ولعلَّ استعمالَها لكنيةِ (أبي الحسن) تقصدُ بها التعظيم، كما يعرفُ المخاطبون ذلك؛ لأنَّ الكنيةَ عند العربِ يُقصد بها التعظيمُ[4]، وهي أعطتْ لأميرِ المؤمنين عليه السلام ما يستحقُّه من

(١) الحج ١١.
(٢) الكافي ٢/ ٤١٣.
(٣) الاحتجاج ١/ ١٤٨.
(٤) يُنظر: لسان العرب (كنى).

الصفات كما مرَّ، وكما سيأتي، ولكنَّ الموقفَ يستدعي كلَّ ما من شأنهِ أنْ يُعيد إلى أذهانِ البعضِ ما ندَّ عنه سهوًا أو تعمدًّا من خصالِ أميرِ المؤمنين عليه السلام.

وتجيبُ الزَّهراء عليها السلام عن استفهامها السابقِ لتقرِّرَ الجوابَ بنفسها عن سببِ نقمةِ المخاطبين على أميرِ المؤمنين عليه السلام، فذكرتْ نكيرَ سيفهِ في المشركين، وهذا ما لا يخفى على أحدٍ من المسلمين، ولنا أنْ نستحضرَ مواقفَه في معركةِ بدر وأحد والخندق.. وغيرها من معارك المسلمين التي كان لسيفِ أميرِ المؤمنين عليه السلام الأثر البعيد في الدفاعِ عن الإسلامِ، وتثبيتِ أركانهِ.

أمَّا قلَّة مبالاته لحتفهِ، فيكفي أنْ ننظرَ في قولهِ للأشعثِ بنِ قيس حين عرَّضَ بأنْ يفتكُ به. فقالُ له: «**أبالموتِ تُهدِّدُني، فوالله ما أُبالي وقعتُ على الموتِ، أو وقعَ الموتُ عليَّ**»[1]، وفي قولٍ آخر له: «**والله لابنُ أبي طالبٍ آنسُ بالموتِ من الطفلِ بثدي أمِّهِ**»[2]، وحينما ضربهُ عبد الرحمن بنُ ملجم، قال قولته الذائعةَ «**فُزتُ وربِّ الكعبةِ**»[3]، وفي هذه الأقوالِ الثلاثةِ بيانٌ لكلِّ ما تعنيه الزَّهراء عليها السلام بقلَّةِ مبالاةِ أميرِ المؤمنين بحتفهِ، وهو كثيرٌ كثير.

وتتمُّ الزَّهراء عليها السلام خطبتها بالقولِ: «**وتالله لو مالوا عن المحجَّةِ اللائحةِ، وزالوا عن قبولِ الحجَّةِ الواضحةِ، لَردَّهم إليها، وحملهم عليها**»[4].

تُقسمُ الزَّهراء عليها السلام بـ(تالله) قسمًا مقرونًا بالتعجُّبِ[5]، وفيه زيادةٌ في المعنى، كأنَّها عليها السلام تتعجَّبُ من الانحرافِ عن أميرِ المؤمنين عليه السلام، وهو القادرُ على تعديلِ من يميلُ عن المحجَّةِ اللائحةِ وهي: «جادة الطريق الظاهرةُ

(١) مقتل الطالبيِّين ٨.
(٢) نهج البلاغة ١/ ٤١.
(٣) مناقب آل أبي طالب ١/ ٣٨٥.
(٤) الاحتجاج ١٤٨.
(٥) يُنظر: المقتضب ٤/ ١٧٥، شرح المفصَّل ٨/ ٣٤.

البيِّنة»[1]، ومن لا يقبلُ بالحجَّةِ الواضحةِ، لردَّه إليها عليٌّ عليه السلام بما عُرفَ عن تمسُّكه بالحقِّ والسَّيرِ على هُداهُ. وهذا ما سمعته الزَّهراء عليها السلام، وما سمعه المسلمون من النبيّ صلى الله عليه وآله: «**أقضاكُم عليٌّ، وإن تُوَلُّوها عليًّا تجدوه هاديًا مهديًّا، يحملُكم على المحَجَّةِ البيضاءِ والطريقِ المستقيمِ**»[2]، وما داموا قد أبعدوا عليًّا عليه السلام عن الولايةِ، فمن حقِّ الزَّهراء عليها السلام أنْ تبيِّنَ موطنَ مخالفةِ هؤلاءِ لأمرِ النبيّ صلى الله عليه وآله.

وتُضيفُ الزَّهراءُ عليها السلام: «**ولسارَ بهم سيرًا سجحًا، لا يَكلمُ حشاشُه، ولا يَكلُّ سائُره، ولا يملُّ راكبُه، ولأوردهم منهلًا نميرًا، صافيًا رويًّا، تطفحُ ضفتاهُ، ولا يترنَّق جانباه، ولأصدرهم بطانًا**»[3].

استعانتْ الزَّهراء عليها السلام هنا بحشدٍ من الكناياتِ التي تبيِّنُ ما تمتلكهُ عليها السلام من براعةِ في الوصفِ جاءتْ غايةً في البيانِ مع ما تحمله من برهانٍ ساطعٍ لإثباتِ حقِّ أميرِ المؤمنين عليه السلام في الولايةِ على المسلمين. فهو عليه السلام سيسيرُ بالمسلمين سيرًا سجحًا «معتدلًا سهلًا»[4]، لا يتمايلُ فيه تكبُّرًا، وإنَّما سيكونُ علمًا يهتدون بهديهِ في سيرهم، فلا يكلُّ السائرُ معه، ولا يملُّ الراكبُ من طولِ السيرِ؛ لما ذُكر من اعتدالٍ. وهذا كلُّه سيقودُ السائرين إلى منهلٍ صافٍ لا يتكدَّر جانباهُ.

إنَّ هذا الضربَ من الأداءِ الفنِّيّ سيكون فاعلًا في النفوسِ؛ لأنَّ الأصلَ في هذا كلِّه بلوغُ المنهلِ الصافي، وهو الفوز برضا الله تعالى، وإقامةِ دولةِ العدلِ الإلهيّ التي يرغبُ من ثَبت على المنهجِ النبويّ بإقامتها.

من سيرةِ أميرِ المؤمنين عليه السلام:

تذكرُ الزَّهراء عليها السلام في هذا المقطعِ من كلامها بعضَ صفاتِ أميرِ المؤمنين عليه السلام المعهودةَ

(١) يُنظر: لسان العرب (لوح).
(٢) الانتصار للقرآن ١/ ١٩١، مناقب آل أبي طالب ٢/ ١٨٠،
(٣) الاحتجاج ١/ ١٤٨.
(٤) يُنظر: لسان العرب (سجح).

فيه فتقول: «**ونصح لهم سرًّا وإعلانًا، ولم يكن يتحلَّى من الدنيا بطائلٍ، ولا يحظى منها بنائلٍ، غير ريِّ الناهلِ، وشبعةِ الكافلِ، ولبانَ لهم الزاهدُ من الراغبِ، والصادقُ من الكاذبِ**»[1]، ومنها: النصحُ في السِّرِّ والعلنِ على وفقِ ما يوجبُه الموقفُ الذي يرى النصيحةَ فيه واجبةً سرًّا أو إعلانًا، وعلى وفقِ شخصيَّةٍ من تُهدى إليه النصيحةُ، وأميرُ المؤمنين عليه السلام قمينٌ بهذا كلِّهِ.

وتشيرُ الزَّهراء عليها السلام إلى أنَّ أميرَ المؤمنين عليه السلام لا يعبأُ بالدنيا وزُخرفِها، ولا ينالُ منها شيئًا إلَّا ما يقيمُ به حياتَه، وهذا شأنُه الذي يعرفه عنه المسلمون، إذْ كان يعيشُ من كدِّ يدهِ، وكان يقول في إعراضه عن الدنيا واكتفائهِ بالنزر من الطعام: «وأيمُ الله يمينًا أستثني فيها بمشيئةِ الله لأروِّضنَّ نفسي رياضةً تهشُّ معها إلى القرصِ إذا قدرتْ عليه مطعومًا، وتقنعُ بالملحِ مأدومًا»[2]، وهذا هو (شبعةُ الكافلِ) التي مرَّ ذكرُها.

وتستشهدُ الزَّهراء عليها السلام في نهايةِ هذا المقطعِ من خطبتها بآيتين من القرآن الكريم، هما قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَاتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[3]، وقولُه تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾[4].

ليس من شكٍّ أنَّ الاستشهادَ هنا يدفعُنا إلى الالتفاتِ إلى السِّياقِ مرَّةً أخرى؛ لأنَّه هو الذي استدعى استلهام دلالةِ الآيةِ المباركةِ، وهذا ما نتلمَّسُه الآن، فالزَّهراء عليها السلام بعد أنْ يئستْ من إيمانِ هؤلاءِ، نبَّهتهم إلى ما ينتظرهم من الله تعالى؛ جزاءً لما كسبوا من تفريطٍ بولايةِ أميرِ المؤمنين عليه السلام. وإلى هذا المعنى أشار سلمانُ الفارسيُّ بقولهِ: «لو وليتموها عليًّا؛ لأكلتم من فوقكم، ومن تحتِ أقدامِكم، ولو دعوتم الطيرَ لأجابتكم

(١) الاحتجاج ١/ ١٤٨.
(٢) نهج البلاغة ٣/ ٥٤.
(٣) الأعراف ٩٦.
(٤) الزُّمر ٥١.

في جوِّ السَّماء، ولو دعوتم الحيتان من البحارِ لأتتكم، ولما عالَ وليُّ الله، ولا طاش لكم سهمٌ من فرائضِ الله، ولا اختلف اثنان في حكمِ الله، ولكنْ أبيتم فولَّيتموها غيرَه؛ فأبشروا بالبلايا، واقنطوا من الرَّخاء»[1]. أليستْ هذه دلالة قولِ الزَّهراء بعينها؟ نعم هي هي.

ثمَّ يأتي استلهام الآيةِ الثانيةِ، وهي تندرجُ في إطارِ العذابِ الذي ينتظرُ الذين كسبوا السَّيِّئاتِ، وظلموا عليًّا عليه السلام؛ لأنَّ السياقَ يُوجبُ هذا التوجيه، فهؤلاءِ لا منجى لهم من العذابِ، ولا يجدون مسلكًا يُنقذهم من غضب الله عليهم.

وتضيف الزَّهراء عليها السلام فتقول: «**أَلا هَلُمَّ فاستمع، وَمَا عِشْت أَرَاك الدَّهْر عجبًا، وَإِنْ تعجب فَعجبٌ لحادثٍ إِلَى ملْجأ لجئوا واستندوا، وَبِأَيِّ عُرْوَة تمسَّكوا، ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾**»[2].

تُظهرُ الزَّهراء عليها السلام هنا ضربًا من التعجُّبِ من فعلِ هؤلاءِ القومِ الذين اختاروا منهجًا ليس له أساسٌ يستندون إليه، ولا عُروة يتمسكون بها،ومن يفعلُ ذلك يكون ضالًّا ومضلًّا في الوقتِ نفسهِ. ثم تستعين بالآيةِ القرآنيةِ ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾، بئس المولى الذي اختاروه، والمولى وقد وقفنا عند دلالته فيما سبق هو: ابْنُ الْعَمِّ والعمُّ والأَخُ والابنُ والعَصباتُ كُلُّهُمْ، «والمَوْلى النَّاصِرُ، وَالْمَوْلَى الْوَلِيُّ الَّذِي يَلِي عَلَيْكَ أَمرك»[3]. وهذا الوصفُ ينطبقُ تمامًا على من اُختير ليكون بديلًا عن أميرِ المؤمنين عليه السلام. ثمَّ تُقفِّي عليها السلام ما سبق من الذكرِ الحكيم بقوله تعالى: ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾، وبدل الظالمين هنا إبليسُ وذريَّتُه على وفقِ تمامِ الآيةِ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۖ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۖ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾[4].

(١) الاحتجاج ١/ ١٤٨.
(٢) نفسه.
(٣) لسان العرب (ولي).
(٤) الكهف ٥٠.

وتذهبُ عليها السلام إلى إتمام خطبتها على نساءِ الأنصارِ بقولها: «**استبدلوا والله الذُنابى بالقوادمِ، والعجزَ بالكاهلِ**»[1].

تُقسمُ الزَّهراء عليها السلام لنساءِ الأنصار بأنَّ ما فعله الرجالُ من تركِ أميرِ المؤمنين عليه السلام، والتوجُّهُ إلى غيرِهِ، هو في حقيقتهِ استبدالٌ للذنابى بالقوادمِ، والذُنابى: ذنبُ الطائرِ، والقوادمُ: مَقادِيمُ رِيشِ الطيرِ، وَهِيَ عَشَرٌ فِي كُلِّ جَنَاحٍ[2]، وعليها المعوَّلُ في الطيرانِ، فلا مقارنة بين الطَّرفَين.

إنَّ هذا التعبيرَ الكنائي يجسِّدُ بإطارٍ فنِّيٍّ علمَ الصديقةِ الزَّهراء عليها السلام الذي لا يُخالطهُ شكٌّ، ولا تقتربُ منه دواعي العصبيَّةِ، بأنَّ ما فعله القومُ هو مهلكةٌ لهم قبل غيرهم، وإلَّا فإنَّ القوادمَ تبقى على حالها، وذنبَ الطيرِ يبقى ذنبًا.

ثمَّ تأتي عليها السلام بالكنايةِ الأخرى، وهي استبدال العجزَ بالكاهلِ، والعجزُ: مؤخَّر الشيء، والكاهل: بين الكتفَين، بَيْنَ كُلِّ ضِلَعَينِ مِنْ أَضلاع الصَّدْرِ فَقَرةٌ مِنْ فَقَراتِ الْكَاهِلِ السِّتِّ[3]. وهذا الاستبدالُ الذي تجسِّده هذه الكنايةُ دليلٌ صائبٌ على خطلِ ما اختار الرجالُ من المهاجرين، وسكت رجالُ الأنصارِ، إذْ يرون بأعينهم عزلَ أميرِ المؤمنين عليه السلام عن ولايةِ المسلمين، وهو وليّهم على وفقِ الاختيار الربَّانيّ الذي تجسِّدهُ آياتُ الولايةِ كما مرَّ بنا.

وتختمُ الزَّهراء عليها السلام هذا المقطعِ من كلامها بالقولِ «**فرغمًا لمعاطسِ قومٍ يحسبون أنَّهم يُحسنون صُنعًا**»، وهنا تدعو عليها السلام بالذلِّ والانقيادِ عن كرهٍ لمعاطسِ قومٍ، أيْ لأنوفِ قومٍ، فقد ورد في المعجمِ ما يأتي: أَرْغَم اللهُ أَنْفَه أَيْ أَلزقهُ بالرَّغام، وَهُوَ التُّرَابُ؛ هَذَا هُوَ الأَصلُ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ فِي الذُّلِّ وَالْعَجْزِ عَنِ الِانْتِصَافِ وَالِانْقِيَادِ عَلَى كُرْهٍ. وتجمعُ الزَّهراء عليها السلام بين هذا القولِ وبين قولهِ تعالى:

(١) الاحتجاج ١/ ١٤٨.
(٢) يُنظر: لسان العرب (قدم).
(٣) يُنظر: م. ن (كهل).

﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[1]، لمن ظلَّ سعيُهُ في الحياةِ الدنيا، وهو يعتقدُ أنَّه يحُسنُ ما هو بصددِ صناعتهِ. وتردفُ الزَّهراء عليها السلام ما سبق بآياتٍ قرآنيَّةٍ تناسبُ المقامَ، وتُفصحُ بها عن أحوالِ الناسِ بتنسيقٍ باهرٍ بين ما تقولُهُ وبين الآياتِ، ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾[2]، ويحهم أفمن ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[3].

آثارُ صرفِ الولايةِ عن أميرِ المؤمنين عليه السلام:

وتختم الزَّهراء عليها السلام خطبتَها ببيانِ ما ينتظرُ المخاطَبين من آثارٍ، فتقول: «**أما لعمري لقد لقحتْ، فنظرة ريثما تُنتجُ، ثمَّ احتلبوا ملء القعبِ دمًا عَبيطًا، وزُعافًا مُبيدًا، هنالك يخسرُ المبطلون، ويُعرفُ البطَّالون غِبَّ ما أسَّسَ الأوَّلون**»[4].

تبدأُ الزَّهراء عليها السلام المقطعَ الأخيرِ من خطبتِها بالقسمِ بـ(لعمري) ومعناه: قسمٌ بحياتي، والقسمُ بالحياةِ قد يكونُ أكثرَ وقعًا في نفوسِ المتلقِّين؛ لأنَّ المقسِمَ (وهي الزَّهراء عليها السلام هنا) يُريدُ أنْ يُثبتَ دقَّةَ ما أقسم عليه، وجاءتْ الكنايةُ وسيلةً من وسائلِ التعبيرِ التي تقطعُ بما سيقعُ، فالناقةُ التي تلقحُ يُنتظرُ ما تُنتجُ من اللبنِ، ولكن ما تُنتجه هنا دمًا عبيطًا. وهذه الصورةُ تتقزَّزُ منها نفوسُ العربِ الذين كانوا لا يستقصون حلبَ الناقةِ حتَّى لا يخرج الدمُ بعد اللبنِ[5]، فكيف إذا كان ما يُنتظرُ من اللبنِ دمًا عبيطًا وموتًا شديدًا يُبيدُ من يحلُّ بهم؟!. وهنا تأخذ الزَّهراء عليها السلام من القرآن الكريم ما يُعضِّدُ ما أشارتْ إليه، حيث سيؤول أمر هؤلاء المبطلون إلى الخسرانِ المبين:

(١) تمام الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ الكهف ١٠٤.

(٢) البقرة ١٢.

(٣) تمام الآية: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾. يونس ٣٥.

(٤) الاحتجاج ١/ ١٤٨.

(٥) يُنظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/ ١٧٣.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[1]، وهذه الإشارةُ تخصُّ ما سينتظرُ هؤلاءِ من خسارةٍ يوم القيامةِ، وهو الذي يعني من هو مسلمٌ بحقٍّ.

أمَّا الدنيا التي زحزحوا أميرَ المؤمنين عليه السلام عن ولايةِ المسلمين الظاهريَّةِ من أجلها، فقد رسمتْ لها الزَّهراء عليها السلام صورةً وكأنَّها تنظرُ إلى الغيبِ من سترٍ رقيقٍ؛ لأنَّ ما ذكرته لم يقعْ في زمانها، وإنَّما وقع في السنين اللاحقةِ، فهم ستطيبُ أنفسُهم عن دنياهم التي فعلوا ما فعلوا من أجلِها، مُكرهين غير راغبين عنها، ولا يخفى هنا ما أودعته الزَّهراء عليها السلام من تهكُّمٍ واستخفافٍ «**ثمَّ طِيبوا عن دنياكم أنفسًا**»، وهذا سيقعُ في السنين والقرون اللاحقةِ.

*****

إنَّ هذه البراعة الفنيَّةَ التي تلمَّسناها في خطبَتَي الزَّهراء عليها السلام، تُرينا قدرةً هائلةً على صياغةِ الكلامِ، من دون أنْ يؤثِّرَ ذلك على المضامين الفكريَّةِ التي أرادتْ الزَّهراء عليها السلام التعبيرِ عنها، والتي تتعلَّقُ بأمير المؤمنين عليه السلام، وهي في معرضِ بيان تغيُّرِ المفاهيمِ والقيمِ الإسلاميَّةِ، ومردُّ هذا كلّه إلى أنَّها لذلك أهلٌ، فهي من البيتِ الذي جعل اللهُ تعالى أهلَه أربابًا للكلامِ. يقول أميرُ المؤمنين عليه السلام: «**وإنَّا لأمراءُ الكلام، وفينا تنشَّبتْ عروقُه، وعلينا تَهدَّلتْ غصونُه**»[2].

وأمرٌ آخرُ نذكِّرُ أنفسنا به هنا، وهي إنَّ شدَّةَ الموقفِ الذي رأته الزَّهراء عليها السلام، الذي أحدثَ الشَّرخَ الكبيرَ في ثوابتِ الدين الإسلاميّ، لم تؤثِّرْ على الهدوءِ المعهودِ الذي تتمتَّعُ به، وإنَّما أظهرتْ رباطةَ جأشٍ ممزوجةً بغضبٍ لله تعالى؛ لأنَّ إبعاد أمير المؤمنين عن ولاية المسلمين مخالفةٌ لأوامرِ الله جلَّ شأنه.

---

(١) الجاثية ٢٧.

(٢) نهج البلاغة ٢/ ١٦٩.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

١. الاحتجاج، الطبرسيّ (أبو منصور أحمد بن عليّ بن أبي طالب الطبرسيّ)، تعليقات وملاحظات السيِّد محمَّد باقر الخرسان، مطبعة النعمان، النجف الأشرف ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.

٢. أحكام القرآن، الجصَّاص (أبو بكر أحمد بن عليّ الرازي ت ٣٧٠هـ)، تحقيق عبد السلام محمَّد عليّ شاهين، دار الكتب العلميَّة، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

٣. الأصفى في تفسيرِ القرآن، الفيض الكاشانيّ (ت ١٠٩١هـ)، حقَّقه مركز الأبحاث والدراسات الإسلاميَّة، قم، مكتب الإعلام الإسلاميّ، مركز النشر، ١٣٧٦هـ.

٤. الاقتصاد الهادي إلى طريق الرشاد،الشيخ الطوسيّ (أبو جعفر محمَّد بن الحسن الطوسيّ ت٤٦٠هـ)، مكتبة جامع جهلستون، طهران، إيران.

٥. أمالي الطوسيّ، الشيخ الطوسيّ (أبو جعفر محمَّد بن الحسن الطوسيّ ت٤٦٠هـ)، انتشارات دار الثقافة قم، ١٤١٤هـ.

٦. الانتصار للقرآن، الباقلَّانيّ (محمَّد بن الطيِّب بن محمَّد بن جعفر بن القاسم، القاضي أبو بكر الباقلَّانيّ المالكيّ ت ٤٠٣هـ)، تحقيق: د. محمَّد عصام القضاة، دار الفتح، عَمَّان، دار ابن حزم، بيروت، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٧. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمَّة الأطهار، الشيخ العلَّامة محمَّد باقر المجلسيّ، مؤسَّسة الوفاء، لبنان، ط٢، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
٨. بلاغات النساء، ابن طيفور (أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر ت ٢٨٠هـ)، صحَّحه وشرحه: أحمد الألفي، مطبعة مدرسة والدة عبَّاس الأوَّل، القاهرة، ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م.
٩. التبيان في تفسير القرآن، الشيخ الطوسيّ (ت٤٦٠هـ)، تحقيق أحمد حبيب قصير العامليّ، مكتب الإعلام الإسلاميّ، ط١، ١٤٠٩هـ، قم.
١٠. تفسير البغويّ (معالم التنزيل)، الحسين بن مسعود البغويّ (ت٥١٦هـ)، حقَّقه وخرَّج أحاديثه محمَّد عبد الله النمر وآخرون، ط٤، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
١١. تفسير الثعلبيّ، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، الثعلبيّ (أبو إسحق أحمد ابن محمَّد الثعلبيّ ت ٤٣٧هـ)، تحقيق الأستاذ نظير الساعديّ، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
١٢. تفسير السمرقنديّ (بحر العلوم)، للسمرقندي (أبو الليث، نصر بن محمَّد بن أحمد، السمرقندي ت ٣٧٣هـ)، تحقيق محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
١٣. تفسير القرطبيّ (الجامع لأحكام القرآن)، للقرطبيّ (أبو عبد الله محمَّد بن أحمد الأنصاري القرطبيّ ت ٦٧١هـ)، تحقيق أحمد البردونيّ وإبراهيم اطفيش، دار الكتب المصريَّة، ط٢، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.
١٤. تفسير الميزان في تفسير القرآن، العلَّامة السيد محمَّد حسين الطباطبائيّ، دار الكتب الإسلاميَّة، طهران، ١٣٧٩هـ.

١٥. تفسير مقاتل بن سليمان (أبو الحسن مقاتل بن سليمان الأزديّ ت ١٥٠هـ)، تحقيق عبد الله محمَّد شحاته، دار إحياء التراث، ط١، بيروت، ١٤٢٣هـ.

١٦. ديوان دعبل بن عليّ الخزاعيّ، شرحه حسن حمد، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

١٧. رسائل الشريف المرتضى، الشريف المرتضى، تقديم أحمد الحسينيّ، إعداد مهدي رجائي، مطبعة سيِّد الشهداء، دار القرآن الكريم، قم المقدَّسة، ١٤٠٥هـ.

١٨. زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزيّ (جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن ابن عليّ بن محمَّد ت ٥٩٧هـ)، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.

١٩. السيرة النبويَّة، ابن هشام (عبد الملك بن هشام بن أيـوُّب الحميري (ت ٢١٣هـ)، تحقيق: مصطفى السقَّا وإبراهيم الأبياريّ وعبد الحفيظ الشلبيّ، مطبعة مصطفى البابي الحلبيّ وأولاده بمصر، ط٢، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م.

٢٠. شرح أصول الكافي، المازندراني (محمَّد صالح (ت ١٠٨١هـ)، تحقيق: علي عاشور، دار إحياء التراث العربي، مؤسّسة التاريخ العربي، بيروت- لبنان، ط٢، ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م.

٢١. شرح المفصَّل، ابن يعيش (يعيش بن عليّ بن يعيش ابن أبي السرايا محمَّد بن عليّ الأسديّ الموصلِّيّ ت ٦٤٣هـ)، قدَّم له الدكتور إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلميَّة، بيروت، لبنان، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٢٢. الغدير في الكتاب والسنَّة والأدب، الشيخ الأمينيّ، نشر دار الكتاب العربيّ، ط٤، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

٢٣. الكافي، الشيخ الكلينيّ، تحقيق عليّ أكبر غفاري، دار الكتب الإسلاميَّة، ط٣، ١٣٨٨هـ.

٢٤. لسان العرب، ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين بن محمَّد بن مكرم بن منظور ت ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، لبنان.

٢٥. مجمع الأمثال، الميدانيّ (أبو الفضل أحمد بن محمَّد بن إبراهيم الميدانيّ النيسابوريّ ت ٥١٨هـ)، تحقيق محمَّد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

٢٦. مَجْمَعُ الزَّوَائِدِ وَمَنْبَعُ الفَوَائِدِ، الهيثمي (الحَافِظِ نُورِ الدِّينِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي بَكْر الهَيْثَمِي ت ٨٠٧هـ)، حَقَّقَهُ وَخَرَّجَ أَحَادِيثَهُ حسين سليم أسد الدّارانيّ، دَارُ المَأْمُون لِلتُّرَاثِ، دمشق، بيروت.

٢٧. معاني النحو، الدكتور فاضل السامرَّائيّ، مطبعة دار الحكمة للطباعة والنشر، الموصل، العراق.

٢٨. مقاتل الطالبيِّين، أبو الفرج الإصبهانيّ (عليّ بن الحسين بن محمَّد بن أحمد بن الهيثم ت ٣٥٦هـ)، المحقِّق السيِّد أحمد صقر، دار المعرفة، بيروت.

٢٩. المقتضب، المبرِّد (أبو العبَّاس،محمَّد بن يزيد بن عبد الأكبر الثماليّ الأزديّ، المعروف بالمبرِّد ت ٢٨٥هـ)، تحقيق: محمَّد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب، بيروت.

٣٠. المقنعة، الشيخ المفيد (أبـو عبد الله محمَّد بن محمَّد بن النعمان العكبريّ ت٤١٣هـ)، مؤسَّسة النشر الإسلاميّ، قم، إيران، ١٤١٠هـ.

٣١. مناقب آل أبى طالب، ابن شهر آشوب (مشير الدين أبو عبد الله محمَّد بن عليّ بن شهر اشوب ت ٥٨٨هـ)، قام بتصحيحه وشرحه ومقابلته على عدَّة نسخ خطيَّة لجنة من أساتذة النجف الأشرف، المكتبة الحيدريَّة، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م.

٣٢. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير (مجد الدين بن محمَّد الجزريّ ت٦٠٦هـ) تحقيق طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمَّد الطناحيّ، دار إحياء الكتب العربيَّة، القاهرة، ١٩٦٣م.

٣٣. نهج البلاغة، الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، جمع الشريف الرضيّ، تحقيق وشرح الشيخ محمَّد عبده، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

٣٤. وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، الشيخ محمَّد بن الحسن الحرّ العامليّ (ت ١١٠٤هـ)، تحقيق مؤسَّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ط٢، ١٤١٤هـ، مطبعة مهر، قم.

٣٥. وقعة صفِّين، نصر بن مزاحم (ت٢١٢هـ)، تحقيق: عبد السلام محمَّد هارون، القاهرة، ١٣٨٢هـ.

٣٦. ينابيع المودَّة لذوي القربى، القندوزيّ (سليمان بن إبراهيم الحنفيّ ت١٢٩٤هـ)، تحقيق: سيِّد عليّ جمال أشرف الحسينيّ، دار الأسوة للطباعة والنشر، قم، إيران، ١٤١٦هـ.

إستراتيجيَّات الإقناع الإعلاميّ وعلاقته بالخصائص الدِّيموغرافيَّة لدى المتلقِّي في فدكيَّة الزَّهراء عليها السلام

أ.د. خليل خلف بشير
جامعة البصرة
د. ستَّار جليل عجيل
مديريَّة تربية ذي قار

ملخَّص البحث

إنَّ الجانب الإعلاميّ له دور كبير ومؤثِّر جدًّا في الأمور الحتميَّة والمصيريَّة، لاسيما وإنَّ الآخر يعمد إلى طمس الحقيقة وتزييفها بكلِّ ما أوتي من قوَّة، وإيهام الناس بأنَّه صاحب الحقِّ، لذلك عمدت الزَّهراء عليها السلام إلى ذلك الجمع لتُعلن فيه إعلاميًّا أنَّ كلَّ ما قيل وحصل ليس حقٌّ، بل هو باطل، ومخالف لما جاء به القرآن الكريم، ومخالف لكلِّ ما بلَّغ به الرسول الكريم.

ولعلَّ أبرز ما دفعنا إلى اختيار هذا الموضوع، هو التداخل الكبير بين الشواهد الإعلاميَّة في وقتنا الحاضر، وفي زمن الخطبة الفدكيَّة، حيث التزييف وطمس الحقائق إعلاميًّا؛ لذلك ارتأينا أن نبحث في أهمِّ مرتكزات الزَّهراء وإستراتيجيَّتها في إقناع الصديق المتأرجح، والعدو المعاند.

وقد اشتمل البحث على مقدِّمة وثلاثة مباحث وخاتمة.

الكلمات الافتتاحيَّة: إستراتيجيَّات، الإقناع، الإعلام، الخصائص الديموغرافيَّة، المتلقِّي، فدكيَّة الزَّهراء عليها السلام.

المقدِّمة

إنَّ الجانب الإعلاميّ له دور كبير ومؤثِّر جدًّا في الأمور الحتميَّة والمصيريَّة، لاسيما وأنَّ الآخر يعمد إلى طمس الحقيقة وتزييفها بكلِّ ما أوتي من قوَّة، وإيهام الناس بأنَّه صاحب الحقِّ، لذلك عمدت الزَّهراء عليها السلام إلى ذلك الجمع لتُعلن فيه إعلاميًّا أنَّ كلَّ ما قيل وحصل ليس حقٌّ بل هو باطل ومخالف لما جاء به القرآن الكريم، ومخالف لكلِّ ما بلَّغ به الرسول الكريم صلى الله عليه وآله، ولعلَّ أبرز ما دفعنا إلى اختيار هذا الموضوع هو التداخل الكبير بين الشواهد الإعلاميَّة في وقتنا الحاضر، وفي زمن الخطبة الفدكيَّة، حيث التزييف وطمس الحقائق إعلاميًا؛ لذلك ارتأينا أن نبحث في أهمِّ مرتكزات الزَّهراء، وإستراتيجيَّتها في إقناع الصديق المتأرجح والعدو المعاند، وقد اشتمل البحث على مقدِّمة وثلاثة مباحث وخاتمة.

تكلَّمنا في المبحث الأوَّل عن أهمِّ إستراتيجيَّات الإقناع الإعلاميّ، وكيف كان التداخل والتشابه الإعلاميّ بين خطبة الزَّهراء واستخدامها لها، وبين ما هو مطبَّق في وقتنا، أمَّا المبحث الثاني فقد خصَّصناه للحديث عن آليات الإقناع الإعلاميّ في الثناء على الله سبحانه وتعالى، وكيف يمكن أن تصل بالإنسان المؤمن إلى الشكر والثناء الحقيقيّ على الله، كلُّ ذلك كان من أجل تهيئة المتلقِّي وترقيق نفسه وحسِّه لكي يصبح أرضًا خصبة تستقبل ما يُزرَع بها، أمَّا المبحث الثالث فقد ركَّزنا فيه على حقوق الرسول وأهل بيته المسلوبة، إذ كان الجانب الإعلامي واضحًا جدًّا، فكثيرًا ما تُستخدم أدواته كالتنبيه، والتحذير، والتقريع، والإشارة الجمعيَّة والفرديَّة سواء المباشرة أو التورية، وفي نهاية البحث جاءت الخاتمة.

المبحث الأوَّل

إستراتيجيَّات الإقناع

يعرَّف الإقناع بأنَّه عمليَّة من عمليَّات التأثير المقصود على الأفراد أو الجماعات؛ بهدف إحداث تغييرٍ طوعيّ أو اختياريّ في القناعات أو الدوافع والاتِّجاهات، أو السلوك، وتتكوَّن عمليَّة الإقناع بشكلها التقليديّ من المرسل، والرِّسالة، والمُستقبِل، كمكونات أساسيَّة، ولمسات كل من هذه المكونات، وأثرُها في فعاليَّة الإقناع.

ويمكن أن نقسِّم إستراتيجيات الإقناع الى:

أوَّلًا. التبادل: يعدُّ مبدأ ردِّ الإحسان بمثله من العوامل المؤثِّرة في الإقناع، إذ يميل الإنسان بشكلٍ عفويٍّ وفطريٍّ لمجازاة المعروف بمثله إذا قُدِّم من الغَير، وهو ما كانت ترمي إليه الزَّهراء عليها السلام في خطبتها، إذ نجدها في بدايتها تذكِّرهم بآلاء الله ونِعَمه عليهم، ثمَّ تذكِّركم بفضل الرسول صلى الله عليه وآله، وكيف أنقذهم من الضَّلالة.

ثانيًا. استراتيجيَّة التعاقد: وهي آليَّة اعلاميَّة فاعلة في تمكين قوَّة الخطاب، وفي بلورة المفاهيم السياسيَّة والدينيَّة والفكريَّة التي يُبنى عليها مقاصد الخطاب، وفي حال تحقُّقها تضمن للخطاب قوَّته، ويُطلَق عليها التواطؤ العقديّ الإقناعيّ الذي يطرح شبح الشكِّ، ويقتل بذرة الارتياب في كيان المتلقِّين[1].

ثالثًا. إستراتيجيَّة التضاد وتضيفها في الخطاب: من المقوِّمات الأساسيَّة والرئيسة لنجاح الإقناع الإعلامي في الخطاب توظيف المتضادات او المتناقضات، وهذا الشيء

(١) ينظر: في بلاغة الخطاب الإقناعيّ مدخل نظريّ وتطبيقيّ لدراسة الخطابة العربيَّة- الخطابة في القرن الأول أنموذجًا، محمَّد العمريّ: ٨٠-٩٠.

ظهر جليًّا في خطبة الزَّهراء الفدكيَّة، إذ كانت تميِّز بين معسكَرَين، معسكر الحقِّ، وتشير إليه، ومعسكر الباطل، وتشير إليه، وبين العدل والظلم، وبين الشرعيَّة في الحكم وعدم الشرعيَّة، وبين الحريَّة والقمع، بل أظهرت نفسها ومَن معها في الإعلام تمثِّل المعسكر الأوَّل، وأعداؤها يمثِّلون معسكر الشرِّ[1].

رابعًا. إستراتيجيَّة التداعي الحر: وهي من الإستراتيجيَّات المهمَّة في الخطاب الإقناعيّ، إذ تعتمد على تجارب الفرد في الماضي، وعلى الافكار التي تتسلَّط عليه في الحاضر[2]، وتكمن أهميَّة هذه الإستراتيجيَّة في أنَّه إذا ما أثَّر فينا في الماضي سياق أو حدث ما، فإنَّ تكرار أو إعادة ذلك الحدث سيولِّد لدى المخاطَب ردّ فعل للحدث السابق، وهو ما اعتمدته السيِّدة الزَّهراء، فقد ذكَّرت الحاضرين بما آلت إليه الأمور، وبما حدث في ماضيهم.

خامسًا. إستراتيجيَّة تصوير الواقع كدال ومدلول: ثمَّة مساحة كبيرة تتداخل فيها جملة من العوامل الاجتماعيَّة والعقديَّة والسياسيَّة ترتبط بالواقع المعاش بشروطه الماديَّة والفكريَّة؛ لذلك فإنَّ الخطاب الإعلاميّ يعدُّ بنية فاعلة وأداة من أدوات تحقُّق هدف الخطاب وفاعليَّته، أي إنَّه خطاب نقديّ استبداليّ يتوجَّب أن يكون سلوكًا عقديًّا لتحقيق الانسجام في الواقع المتناقض أو التنبُّه بالإشارة إلى مخاطر ما سيأتي، وأنَّ هذا سيكون حتمًا محتومًا وواقعًا لا مفرَّ منه في حالة الإخلال بالتمثيلات السلوكيَّة المطلوبة لانسجام المجتمع ذاته[3].

---

(١) ينظر: بهاء الدين من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسّي- تبسيط التداوليَّة، محمَّد مزيد: ١٢٨.

(٢) ينظر: تيَّار الوعي في الرواية الحديثة، همفري روبرت، ترجمة د. محمود العربّي: ١٥٢.

(٣) ينظر: مفاهيم أوَّليَّة، بيار ماشيري، ترجمة سامي سودان، مجلَّة العرب والفكر العالميّ، العدد١، ١٩٨٨: ٣٢.

المبحث الثاني

تهيئة أدوات إنجاح الخطاب الإعلاميّ

هذه الخطبة أساسيَّة، يمكن أن نعدّها من الواجبات الركنيَّة للشيعة، إذ إنَّ العلماء يقولون: إنَّ الغاية الأساسيَّة من هذه الخطبة هي حفظ الخطِّ الصحيح ومحور الحقِّ عبر التاريخ للأجيال اللاحقة، من هذه العبارة نستطيع أن نستنتج- صحَّة أنَّ الزَّهراء عليها السلام قد أتمَّت الحجَّة على تلك الأمَّة الموجودة في ذلك الزمن، لكنَّها كانت تنظر إلينا وتُلقي تلك الخطبة على أمل أنَّ شخصًا يأتي بعد ذلك، ويقرأ هذه الخطبة، لاسيما وأنَّ هذه الخطبة كانت تميِّز بين الحقِّ والباطل منذ اللحظة الأولى؛ لذلك فإنَّ معرفة المفاهيم الواردة فيها أمرٌ مهمٌّ، ويمكن أن نعدَّه ركنًا من أركان التشيُّع، ويقول الشيخ محمَّد تقي مصباح اليزديّ: «إنَّ الخطبة الفدكيَّة هي مَن حفظت التشيُّع وأبقته إلى زمامنا، بل إنَّها تأتي من حيث الأهميَّة بعد الوحي القرآنيّ، والتي تُعدُّ من حيث الفصاحة والبلاغة، وإتقان المباحث، وأسلوب الاستدلال، والجدال، والمناظرة الإعلاميَّة، مجموعة فريدة لعصارة عقائد مذهب التشيُّع»[1].

أوَّلًا: تهيئة المخاطب لاستقبال حدثٍ مهم:

عندما علمت الزَّهراء عليها السلام باجتماع الناس في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله، استعدت للخروج، وقد عملت على تهيئة الجانب الإعلاميّ بأنَّ حدثًا مهمًّا قد وقع عند المسلمين، فتصدِّي الصدِّيقة الطاهرة للظلم يعدُّ صفة من صفات خلقها العظيم، فلم تكن يومًا

(١) أعظم شكوى وأبلغ بيان شرح الخطبة الفدكيَّة، محمَّد تقي اليزديّ: ٤٠.

ما بمعزل عن أمَّة أبيها، وهي التي نشأت وترعرعت في بيت الرسالة المحمَّدية التي جاءت لإنقاذ مجتمع خيَّم عليه ظلام الجهل، واستحوذت عليه العصبيَّة القبليَّة[١]، فلم تكن الزَّهراء لتخرج إلى ذلك الجمع لوحدها، وإنَّما خرجت مع مجموعة، وكان لاختيار مسجد والدها مكانًا للخطبة، يمثِّل رسالة إعلاميَّة واضحة تتضمَّن تبليغًا مهمًّا إلى الحاضرين في المسجد، وإعلانًا عمَّا تريد البوح به، إذ لم تختر غيره، ولم تخرج وحدها، بل معها ثلَّة من النساء من أترابها وأهل بيتها، وهذا له دلالته الإعلاميَّة[٢]، وفي ذلك يقول العلَّامة المجلسيّ: «لـمَّا بلغ فاطمة عليها السلام إجماع أبي بكر على منعها فدك، لاثت خمارها، وأقبلت في لـمَّة من حَفَدَتها ونساء قومها»[٣]، من هذا القول نجد الجانب الإعلاميّ واضحًا، وهو يسبق الجانب الإقناعيّ، فإنَّ مفردة «لاثت خمارها» تبيِّن لنا أنَّ الزَّهراء قد خرجت لأمرٍ مهمٍّ، أي إنَّها شدَّت رأسها بالعمامة وربطته[٤]، أمَّا الأمر الآخر الذي يُظهر الجانب الإعلاميّ، هو أنَّ الزَّهراء عليها السلام لم تاتِ بمفردها، وهي تستطيع أن تأتي لوحدها للمسجد، إذًا لماذا تأتي مع لـمَّة من نسائها؟ يمكن القول إنَّ السيِّدة الزَّهراء عليها السلام قدَّمت الجانب الإعلاميّ، ورغبت في تهيئة أسباب نجاح ذلك الجانب، إذ إنَّ مجيء الزَّهراء الطاهرة عليها السلام إلى المسجد، وإلقائها الخطبة فيه بتشديدٍ وتأكيدٍ بليغ، وفيه إعلام للدفاع عن حقِّها وحقِّ بعلها أمير المؤمنين عليه السلام، وإبطال ادِّعاء من ادَّعى زورًا وبهتانًا إمرة المسلمين غصبًا وظلمًا، فهو ما دعت الضرورة فيه إلى عقد مؤتمر إعلاميّ في وسط ذلك الحشد الغفير، ومخاطبة الرجال، وإلَّا لم يكن من شأنها عليها السلام أن تخاطب الرجال وتكلِّمهم، وهي التي تقول: «**خيرٌ للنساءِ أنْ لا يرينَ الرجالَ ولا يراهُنَّ الرجال**»[٥]،

(١) ينظر: فاطمة الزَّهراء قدوة الصدِّيقين، محمَّد تقي المدرِّسيّ: ١٤.
(٢) ينظر: خطبة الزَّهراء سيِّدة النساء، قراءة وحوار جديد، د. مهدي صالح سلطان: ١٣٣-١٣٤.
(٣) بحار الأنوار، المجلسيّ: ٢٩/ ٢١٦.
(٤) ينظر: الزَّهراء وخطبة وفدك، شرح الخطبة الفدكيَّة، محمَّد باقر المجلسيّ: ٢٣.
(٥) وسائل الشيعة، الحرُّ العامليّ: ٢٤٧/ ١٧.

فهي لا تريد أن تتكلَّم مع شخص أو شخصَين، وإنَّما كانت تريد أن تعلن عن هذه المعارضة، وعن هذا الاستنكار، وعن هذا الموقف، حتَّى دخلت على الخليفة، وهو في حشد من المهاجرين والأنصار[1]، ولعلَّ الأبرز في ذلك المؤتمر الإعلاميّ أنَّ الزَّهراء عليها السلام في أوَّل الأمر لم تبدأ خطبتها بالبسملة، أو الثناء على الله تعالى، أو الصلاة على النبيِّ وآله، وإنَّما أنَّت أنَّة[2]، هذه الأنَّة كانت بمثابة مقدِّمة لتهيئة القلوب والعقول؛ لتقبُّل ما سوف يُقال في هذا المحفل، فضلًا عن ذلك، يبدو أنَّ الزَّهراء عليها السلام أرادت الإعلام بمظلوميَّتها، وهي بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو قريب العهد بهم، وقد نجحت الزَّهراء في ذلك، فقد أجهش القوم بالبكاء والنحيب، وفي ذلك يقول القاضي النعمان المغربيّ: «أجهش القوم لها بالبكاء، وارتجَّ المجلس»[3].

لقد امتلكت الزَّهراء عليها السلام سلطة التأثير في القلوب وتهييج المشاعر والنفوس، فلا تخفى تلك الأنَّة التي بثَّتها عليها السلام عند دخولها مسجد أبيها النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله، وجلوسها في المكان المُعدِّ لها خلف الستار، وما أثارته من بكاءٍ ونحيبٍ وارتجاجٍ في المجلس، يقول السيِّد محمَّد كاظم القزوينيّ في تحليله لتلك الأنَّة: «إنَّني أعجز عن التعبير عن تحليل تلك الأنَّة، ومدى تأثيرها في النفوس، أنَّة واحدة بلا كلام تهيِّج عواطف الناس، فيجهش القوم بالبكاء»[4]، وهي لم تبدأ بالحديث، بل جعلت القوم يبكون بكاءً طويلًا، وفي ذلك يقول العلَّامة المجلسيّ: «ثمَّ أمهلت.. حتَّى إذا سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم»[5].

ثانيًا: الإعلام الإقناعيّ بالحمد والثناء على الله

نلمس في تلك الخطبة إستراتيجيَّات الخطاب الإقناعيّ الحديثة التي تأخذ بعين

(١) ينظر: بحار الأنوار: ٢٩/ ٢٢٠.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) شرح الأخبار: ٣/ ٣٤.
(٤) فاطمة من المهد إلى اللحد، محمَّد كاظم القزوينيّ: ٢٠٠.
(٥) بحار الأنوار: ٢٩/ ٢٢٠.

الاعتبار الجانب الإعلاميّ ذا النزعة الديموغرافيَّة، من أجل الوصول إلى أكبر قدر من التأثير، بمعنى أنَّ الزَّهراء قد درست الخلفيَّات الثقافيَّة للموجودين في ذلك المحفل، لذلك نجد التفاتتها وخطاباتها موجَّهة في أوَّل الامر للجميع، ثمَّ تشخِّص كلَّ فئة على حِدَة، وهو ما سيظهر في أثناء البحث.

إنَّ الإفادة الحقيقيَّة المتوخَّاة من الخطاب ليست متوقِّفة على زمن إنتاجه، فقد يبقى الخطاب ردحًا من الزمن غير مكتمل التجلِّي، إلى أن يطرق أذهان المتلقِّين سماعًا أو قراءةً؛ إذ «إنَّ الملفوظ يظلُّ موجودًا بالقوَّة، سواء أفرزته الذات المُنشئة له، أم دفنته في بواطن اللاملفوظ، ولا يُخرجه إلى حيِّز الفعل إلَّا مُتلقِّيه، وهذا التلقِّي هو بمثابة انقداحِ شرارة الوجود للنصِّ»[1].

وقد تميَّزت السيِّدة الزَّهراء ببراعة تسلسل الإعلام، فقد بدأت بحمد الله والثناء عليه، فهي عندما حمدت الله، حمدته من زاوية مختلفة، وقد قدَّمت الزَّهراء هذه الكلمات؛ لأنَّ لها علاقة بالمطالب التي ستاتي بعدها، أو بمباني الأمور التي ستحلِّلها الزَّهراء عن وضع الأمة، حيث تقول: «**الحمد الله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم، والثناء بما قدَّم من عموم نِعَمٍ ابتداها، وسبوغ آلاءٍ أسداها**»[2].

إنَّ السامع أو القارئ لعبارة «**الحمد لله على ما أنعم**»، ينصرف ذهنه إلى أنَّ كلَّ خير يأتي من الله فهو نعمة منه، ويستحقُّ الحمد، لكن الحمد على النِّعم عند الزَّهراء عليها السلام يختلف تماما، فهي لم تنظر إلى النعم كما يتبادر إلى الأذهان على أنَّها تلك الأموال أو الثروات الكبيرة، وإنَّما النعمة الحقيقيَّة هي بلوغ ذلك الكمال النهائيّ، أما بقية النِّعم فهي تأتي تحصيل حاصل، ولعلَّ أجمل الإعلام الإقناعيّ الذي استخدمته الزَّهراء عليها السلام جاء متناغمًا مع ما جاء في القرآن الكريم الذي تبرز فيه خاصيَّة الإقناع الإعلاميّ، إذ تجلَّت

(١) الأسلوبيَّة والأسلوب، عبد السلام المسدي: ٨٧.

(٢) مناقب أهل البيت عليهم السلام، المولى حيدر الشيروانيّ: ١٢٣.

في طاقاته التركيبيَّة الواردة فيه، المحتوية على العدول، فالعدول في القرآن الكريم ليس الغاية أن يكون الكلام جميلًا، هذا أمر مطلوب، لكن الغاية الحقيقيَّة فيه أن يكون الكلام بلاغيًّا حجاجيًّا مقنعًا بأيِّ وجهٍ من الوجوه[1]، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[2]، فإنَّنا نقرأ هذه الآيات المباركات في اليوم عشر مرَّات على أقلِّ تقدير، فهل نطلب من الله أن يهدينا إلى سبيل أهل الأموال والثروات؟ لا، فقد بيَّن القران الكريم مَن هم الذين أنعم الله عليهم في موضع آخر، فقال ﷻ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾[3]، إذ تبيَّن هذه الآية الكريمة أنَّ الذين أنعم الله عليهم، هم أربعة أصناف من البشر، وهم: الأنبياء، والصدِّيقون، والشهداء، والصالحون، وتريد أن تبيِّن الزَّهراء في هذا المحفل أنَّ النعمة التي نسأل الله أن يهدينا إليها، هي تلك النِّعم، وأنَّ أباها صلى الله عليه وآله من أوَّل تلك الأصناف التي عدَّدها القرآن الكريم، لذلك يكون حمد النِّعم باتِّباع ما أمر به الرسول قبل وفاته، إذًا فالنعمة هي ما منَّ الله به على الأنبياء عليهم السلام، وكلُّ ما دون ذلك لا يمكن أن نُطلق عليه مصطلح النعمة إلَّا مجازًا.

نستنتج ممَّا سبق أنَّ النعمة هي كلُّ ما يوصل الإنسان إلى المحطَّة الأخيرة من حياته بخير وصلاح، ولكن كيف يمكن أن نصل إلى بلوغ الكمال في شكر النعمة الحقيقيَّة؟ إذ يمكن أن نصل إليه من خلال إطاعة الله والرسول صلى الله عليه وآله، وبذلك نصبح مصداقًا للآية الشريفة التي تقول: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾[4].

(١) ينظر: الحجاج في القرآن من خلال أهمِّ خصائصه الأسلوبيَّة، عبد الله صولة: ٦٠٤.
(٢) الفاتحة: ٦-٧.
(٣) النساء: ٦٩.
(٤) النساء: ١٣.

ثمَّ قالت عليها السلام: «**وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، كلمة جعل الإخلاص تأويلها**»[1]، هذه الكلمات تضمَّنت جانبًا إعلاميًّا مهمًّا جدًّا، وجانبًا إقناعيًّا عجيبًا، فالمتأمِّل فيها يصل إلى أعماق الفكر التوحيديّ على لسان الصدِّيقة الطاهرة، فكلمة الشهادة عند الناس هي عبارة عن العلم والتسليم، أمَّا عند الزَّهراء عليها السلام فهي تمثِّل ذلك الجانب الإدراكيّ أو الإقناعيّ، فهي تشير إلى الذات المقدَّسة التي لا يمكن أن تكون لها شراكة على الإطلاق، وهي تريد أن تصل إلى شيء مهم، وهي أنَّ الشهادة لا يمكن أن تكون لقلقة لسان، أو حقيقة عبارة، لكن يجب أن تقترن بالإخلاص، فقالت: «**كلمة جعل الاخلاص تأويلها**»، أي إنَّ الإخلاص ليس كلمة كما يظنُّها بعضهم، نتيجة عبارة، فتأويل هذه الكلمة وما ينبغي أن تنتهي إليه هي أن يكون الإنسان مخلصًا في أن يوحِّد الله عزَّ وجلَّ، ويجب أن يكون مخلصًا في توحيده لله، فهي تريد أن تُعلِّم أنَّ التوحيد الخالص يتمثَّل في أهل البيت عليهم السلام، وبمن تبعهم وسار على نهجهم، كذلك لا بدَّ أن يتجسَّد هذا الإخلاص في الاعتقاد، وفي العمل، فتقول: «**وأنار في الفكر معقولها**»[2].

إنَّ الله عزَّ وجلَّ ضَمِن قلوب البشر أن تصل إلى الإخلاص، وتأويل كلمة الاخلاص يعني أنَّ الإنسان بقلبه يستطيع أن يصل إليها؛ لأنَّه هو مفطور على ذلك، وبفكره لو فكَّر بصورة صحيحة، يستطيع أن يصل إلى معرفة الله عزَّ وجلَّ[3]، لاسيما أنَّ الطابع السيكولوجيّ للتفكير المنطقيّ أمر لا مفرَّ منه؛ لأنَّ قواعد التفكير ما هي إلَّا قواعد الارتباط العلميّ بين الظواهر والأحداث النفسيَّة المؤدِّية إلى اليقين، فضلًا عن أنَّ العمليَّات المنطقيَّة في تيَّار الشعور، حيث يكون هناك تأثير متبادَل بين النَّوعَين[4].

وإن الزَّهراء قد ألقت خطبتها، وهي تمثِّل الروح التي تسري في المذهب الجعفريّ

(١) بحار الأنوار: ٢٩/ ٢٢١.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) ينظر: فاطمة الزَّهراء قدوة الصدِّيقين: ٣٥.
(٤) ينظر: المدخل إلى المنطق الصوريّ، محمَّد مهران: ٢٧.

إلى يومنا هذا، وهي تعرج بجناحَين، الجناح الأوَّل فيه العلم، والإعلام، والحكمة، والإقناع، والقيم المثلى، والعقلانيَّة، والجناح الآخر الذي تمثَّل في الخطبة، فقد ظهرت فيه الحماسة، والتضحية، والولاية، والعواطف، وقد أجهدت الزَّهراء عليها السلام نفسها في الإعلام عمَّا بذله أهل البيت عليهم السلام من طاقات جبَّارة ودماء زكيَّة، فإنَّهم لم يدعوا طاقة في أنفسهم ولا شيئًا أو إمكانية لديهم إلَّا وبذلوها في سبيل الله؛ لذلك كانت هي تحرص على إعلام الناس وإقناعهم على أنَّهم أهل الحقِّ في تولِّي شؤون الأمَّة بعد الرسول صلى الله عليه وآله [1].

ثالثًا: الإعلام بحقِّ الرسول صلى الله عليه وآله المسلوب

بعد أن شهدت السيِّدة الزَّهراء (سلام الله عليها) بشهادة التوحيد، وبعض الآثار والمتلازمات المترتِّبة على التوحيد، التي أشرنا إليها، تطرَّقت إلى بيان الشهادة الثانية، وقد أولتها جانبًا إعلاميًّا كبيرًا؛ لأنَّ القوم حديثو العهد بفقد الرسول الكريم صلى الله عليه وآله، ومن باب ذكِّر لعلَّ الذكرى تنفع المؤمنين، وإعلامهم بأنَّ الشهادة الأولى والشهادة الثانية متلازمَتَان، فمن أراد إطاعة الله تبارك وتعالى عليه أن يتشهَّد بالشهادة الثانية، وأنَّ مفردة «اشهدوا» تعني العلم، فضلًا عن الإعلام والإخبار [2]، أي إنَّ الإنسان عندما يخبِر عن شيء إنَّما يخبِر عن شيء شاهده وعاينه، واللافت للانتباه في هذه الشهادة التي تشهَّدت بها الزَّهراء عليها السلام، أنَّها لم تقل أشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، وإنَّما قالت: «**وأشهد أن أبي محمَّدا صلى الله عليه وآله عبده ورسوله**» [3]، فقد ذكرت الأبوَّة، تريد الإعلام بأنَّ هؤلاء المتخاذلين الذين باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم، أنَّهم ما كانوا ولا صاروا إلَّا بأبي محمَّد صلى الله عليه وآله، وفي هذه الكلمة عمق كبير، وذات مضامين كثيرة، وهي تريد أن تقول: إنَّ كلَّ ما موجود من خير في هذا الكون هو ببركة أبي

(١) المدخل إلى المنطق الصوريّ، محمَّد مهران: ٩٨.
(٢) ينظر: الزاهر في معاني كلمات الناس، أبو بكر الأنباريّ: ١/ ٣٢.
(٣) بحار الأنوار: ٢٩/ ٢٢١.

محمَّدصلى الله عليه وآله[1]، ويجب أن تكون الشهادة واضحة كوضوح الشمس، وليس شهادة حيزيَّة مكانيَّة أو معتمة، وقد بيَّنها الرسولصلى الله عليه وآله بقوله عندما سُئِل عن الشهادة قال: «**هل ترى الشمس؟ على مثلها فاشهد أو دع**»[2]. كذلك نتلمَّس من خطابها الحجاجيّ أنَّ فيه إيحاءً إعلاميًّا للناس الذين خصَّتهم بقولها: «**اعلموا أنِّي فاطمة، وأبي محمَّد**»، هم يعلمون أنَّها مَن تكون، وإلى أي بيتٍ تنتسب، وكأنَّها أرادت أن تذكِّرهم وتوبِّخهم بفعلهم الشيطانيّ المنحرف الباطل، من حيث هم مَع مَن هم يقفون بالضدِّ والحرب والظلم؛ لتُلقي عليهم الحجَّة الكاملة.

كذلك استخدمت الزَّهراءعليها السلام مفردة «أبي»، ويُعدُّ استخدامها لطيفًا ومؤثِّرًا جدًّا؛ لأنَّ كلَّ البشر لا يستطيعون أن ينطقوا بهذه المفردة؛ لأنَّها مفردة قد اختصَّت بها الزَّهراءعليها السلام، وإنَّ استخدام هذه الكلمة يبيِّن الجانب الإعلاميّ والإقناعيّ؛ لأنَّها ستكون سببًا في تهييج عواطف الناس في ذلك المقام، ولكي يقع كلامها موقع القبول فيتذكَّرون أيَّام الرسولصلى الله عليه وآله، وكيف كان يجلُّها ويحترمها ويعظِّمها، فإنَّ هذا التذكير سبَّب رقَّة القلوب لديهم، فيؤثِّر كلامها فيهم ليتقبَّلوه، فإنَّ المرء يُحفَظ في ولده، فضلًا عن أنَّ السيِّدة الزَّهراء قد ألـمَّت بديموغرافيَّة المتلقِّي، سواء في وقتها- حيث الحاضرون في المسجد النبويّ الشريف- فقد كانوا ما بين صحابيٍّ وراوٍ وقارئٍ حاملٍ لكتاب الله القرآن العظيم؛ لذلك كان استدلال الزَّهراءعليها السلام عليهم مخصوصًا دقيقًا ممَّا لا يقبل الرَّيب، ولا الشكَّ أبدًا، فكان الإعلام متجسِّدا في خطبتها، فهي وجَّهت خطابها إلى الشعب الحاضر في المؤتمر الإسلاميّ؛ لأنَّهم بايعوا رئيس الدولة، ولم توجِّه الخطاب إلى رئيس الدولة مباشرةً؛ لأنَّه أحد طَرَفي المحاكمة، وهو المقصود بالمخاصمة والإدانة؛ ولهذا عرَّفت نفسها للحاضرين، كما هي الأصول المتَّبعة في الوقائع الإعلاميَّة والوقائع

(١) ينظر: الفكر الكلاميّ عند السيِّدة الزَّهراء- الخطبة الفدكيَّة أنموذجًا، سلام الخرسان، مجلَّة العقيدة، العدد الثامن، ١٤٣٧هـ: ٢٢١.

(٢) وسائل الشيعة: ٢٧/ ٣٤٢.

المحاكميَّة، فهي تمثِّل الطَّرف الاخر، وهي تمثِّل آل بيت الرسول عليهم السلام، بل هي ملكة الإسلام[1]، فقالت: «**أيُّها الناس إنِّي فاطمة وأبي محمَّد**»[2]، وقد استخدمت «أيُّها الناس»، هذا الخطاب التنبيهيّ الإعلاميّ؛ لكي تهيِّئ أذهان المتلقِّي إلى ما يأتي من الخطاب، وقد حرَّكت أذهان الحضور بأمور هي قارَّة عندهم، إذ نجد تكرارًا في تلك الخطبة لعبارة «**فاطمة وأبي محمَّد**»، فقد تكرَّرت في هذه الخطبة اثنتي عشرة مرَّة، وهي من إستراتيجيَّات الخطاب الناجح، فقد ذكرت اسمها مرَّتَين مقرونًا بالرسول صلى الله عليه وآله، تريد أن تعلِّمهم أنَّ ذلك الاسم لا يجهله أحد، هو ذلك الاسم الذي طالما سمعه الناس مرارًا وتكرارًا من الرسول صلى الله عليه وآله، وهو يعظِّم ويبجِّل فاطمة، وهي تريد أن تقول: نعم إنِّي فاطمة بنت سيِّد الأنبياء، أشرف الخلائق، وأطهر المخلوقين. هذا التكرار الجميل يعدُّ من أبرز الأساليب الإقناعيَّة؛ لما يمتلك من دور مؤثِّر وفعَّال في مكوِّنات الخطاب الإقناعيّ، ليس فقط لما يمتلكه من جانب بديعيّ جماليّ، وإنَّما لما يحمله من رسالة إعلاميَّة إقناعيَّة؛ وذلك لمنح الحجج والبراهين طاقة مضاعفة تُحدِث في المتلِّقي أثرًا جميلًا، وتعمل بفاعليَّة قصوى في إقناعه وحمله على الإذعان[3]، وقد ألقت الحجَّة على الموجودين في ذلك المؤتمر، فهي كثيرًا ما تعرِّف عن نفسها كي لا يقول قائل ما عرفناها، وهي بذلك أتمَّت الحجَّة عليهم، وقالت اسمها الصريح ونسبها الواضح؛ توبيخًا وتقريعًا لهم[4]، وتقول: «**أقول عودًا وبدءًا**»[5]، أي أقول أوَّلًا وآخرًا، وآخرًا وأوَّلًا، وأنا على يقين على ما أقول[6]، ثم قالت عليها السلام: «**ولا أقول ما أقول غلطًا، ولا أفعل ما أفعل**

(١) ينظر: فاطمة من المهد إلى اللحد: ٣٤٤.
(٢) بحار الأنوار: ٢٩/ ٢٢١.
(٣) ينظر: الإقناع في الخطاب القرآنيّ، هشام بلخير، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بانيتة، الجزائر، ٢٠١٢م: ١٣٦
(٤) ينظر: فاطمة من المهد إلى اللحد: ٣٤٥.
(٥) بحار الأنوار: ٢٩/ ٢٢٢.
(٦) فاطمة من المهد إلى اللحد، ٣٤٥.

شططًا»[1]، هنا تشير الزَّهراء إلى مسالة العصمة في خطابها، ثمَّ أقرنت ذلك بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2]، وأسندت خطابها بالتداخل مع خطاب الآية القرآنيَّة المذكورة، التي هي خطاب موجَّه إلى العرب خاصَّة، «وإنَّما ذُكِر ذلك؛ لأنَّه أقرب إلى الألفة، وأبعد من المحكِّ واللجاج، وأسرع إلى فهم الحجَّة، فهو من أنفسكم في أشرف نسبة منكم، ومن أنفسكم في القرب منكم، ومن أنفسكم بالاختصاص بكم»[3]، فقد كانت تدعوهم إلى الوحدة، وتذكِّرهم كيف كانوا متفرِّقين، وقد جمعهم الله بأبيها رسول الله، وهذه من صفات الإعلاميّ الفذِّ، إذ عدَّ الخطاب الإقناعيّ الحديث على أنَّه رغبة البشر في تجاوز الانقسامات الحاصلة في المجتمع، وهو وسيلة لرفع التوتُّر بين الأفراد والجماعات بشكلٍ يسمح باجتماعها عن قناعة[4].

ومن مقوِّمات نجاح الخطاب الإعلاميّ وبلوغ غايته في الإقناع، أن يكون المتكلِّم ذا بلاغة واضحة ومقنعًا في هيأته وشخصه، وفي ذلك يقول الجاحظ: «أوَّل البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخيِّر اللفظ، لا يكلِّم سيِّد الأمَّة بكلام الأمَّة، ولا الملوك بكلام السوقة، ويكون في قواه فضل التصرُّف في كلِّ طبقة، ولا يدقِّق المعاني كلَّ التدقيق، ولا ينقِّح الألفاظ كلَّ التنقيح، ولا يصفِّيها كلَّ التصفية»[5]، فالخطيب البارع يجب أن يكون واثقًا من نفسه، تبدو عليه السكينة، عارفًا بديموغرافيَّة الحاضرين، فيكلِّمهم بما يفهمون، ويحاججهم بما يقتنعون، وهذا الشيء تجلَّى واضحًا في تلك الخطبة، وفي الزَّهراء ذاتها، وهذا ديدن

(١) أعيان الشيعة، السيِّد محسن الأمين: ٣١٦.
(٢) التوبة: ١٢٨.
(٣) التبيان في علوم القران، محمَّد عليّ الصابونيّ: ١١/ ٣٢٨-٣٢٩.
(٤) ينظر: بلاغة الخطاب الإقناعي نحو تصوُّر نسقيّ لبلاغة الخطاب، حسن مودن: ٨
(٥) البيان والتبيين، الجاحظ: ١/ ٩٥.

أهل البيت عليهم السلام، إذ تمثِّل هذه الخطبة رسالة إصلاحيَّة في الدين والدولة، بنيت على أسس تبليغيَّة إعلاميَّة إقناعيَّة على وفق مقدِّمات خطابيَّة تواصليَّة، تحاور الموجودين عبر بوَّابة الإقناع والتأثير في المتلقِّي، واعتماد إستراتيجيَّات توجِّه عقل المخاطَب وروحه وضميره بعيدًا عن العنف والإكراه والمغالطة[1]، وهذه الخطبة تبيَّن الخطُّ الذي بيَّنه أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وتبيِّن الخط الذي انتهجه الخطُّ الآخر، وبذا نتلمَّس أهميَّة الخطاب الإعلاميّ عند السيِّدة الزَّهراء في خطبتها الفدكيَّة، فقد كان يرتكز على أسس قيميَّة أخلاقيَّة، بعدها انتقلت السيِّدة الزَّهراء إلى المحور الآخر، وهو الحديث أنَّ الرسول صلى الله عليه وآله عالمٌ من الله بما تؤول إليه الإمور، وذلك علمٌ من الله أنَّ البشر يحتاجون إلى مَن يأتي إليهم، ويبيِّن لهم الطريق، فقالت: «**ابتعثه الله إتمامًا لأمره**»[2]، وهنا يظهر لنا الجانب الإعلاميّ، أو سيكولوجيَّة الإعلام في خطبتها، فبعد الكلام عن نِعَم الله، وإنَّ هذه النِّعم ستتَّصل وتستمر إذا الناس شكروا هذه النِعم، بعدها تتكلَّم الزَّهراء عن التوحيد، وأنَّ الله خلق الخلق لهدف، وهذا الهدف لا يرجع إلى الله، ومرتبط بالناس وسائر المخلوقات، كلُّها مقدِّمات لخلق الإنسان وهدايته للطريق القويم، بعد ذلك الله عزَّ وجلَّ لم يكتفِ بخلق الإنسان بصورة طبيعيَّة، وهو مفطور من ناحية القلب يستطيع أن يعرف الله، ومن ناحية الفكر يستطيع أن يدرك الله، ولكن احتاج هذا الإنسان إلى متمَّة، وهي إرسال الرُّسل، وقد ركَّزت الزَّهراء في خطبتها على مسألة اختلاف الناس في أديانها، فقالت: «**فرأى الأمم فرقًا في أديانها، عكفًا على نيرانها، عابدة لأوثانها، منكرة لله تعالى مع عرفانها**»[3]، وتريد أنْ تشير إلى أنَّ الناس إذا افترقتم عن الذي يأتي بعد

(١) ينظر: الخطاب الحجاجيّ في الخطبة الفدكية للسيِّدة الزَّهراء- الروابط الحجاجيَّة اختيارًا، عبد الإله عبد الوهاب العرداويّ السودانيّ، عتاب بسيم، مجلَّة كليَّة الآداب، جامعة الكوفة، ٢٠٢٠م: ١٢٤-١٢٥.

(٢) الاحتجاج، الطبرسيّ: ١٣٣.

(٣) المصدر نفسه.

رسول الله ووصي رسول الله، سوف تعودون إلى نفس المصير، وتفقدون هدف الحياة، إذ إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله جاء في لحظةٍ الكلُّ كان مختلف في ديانته، وتريد أن تبيِّن أنَّ تلك النِّعم التي يجب أن تكون متَّصلة، وأنتم بهذه الطريقة لم تشكروها.

هذه المقدِّمات تبيِّن لنا عمق التفكير الذي كانت تتمتَّع به الزَّهراء، كذلك تبيِّن أهميَّة الجانب الإعلاميّ في إظهار حقيقة ما، وقد قدَّمت هذه القواعد وطرحتها؛ لتبيِّن لهم أنَّهم إذا انحرفوا عنها ستؤول أمورهم إلى الشَّتات، فقد أوضحت الزَّهراء عليها السلام هذا الجانب بأروع بيان، وأشارت إليهم بأنَّه من ألطاف الله وعنايته بهم أن يبعث رسلًا لهدايتهم، رأفةً وتحنُّنًا منه عليهم، وأنَّ أباها هو النور المبين الذي تمثَّلت به رحمةُ الله.

المبحث الثالث

الإعلام بحقِّ أهل البيت عليهم السلام المسلوب

بعد أن أجادت الزَّهراء عليها السلام في اجتذاب الحضور نحوها، واشرأبَّت الأعناق إلى خطابها، وهذا الشيء يسمَّى بعتبة البداية في الخطاب الإقناعيّ، تشكَّلت بنية تحفيزيَّة لاستثارة اهتمام المتلقِّين وتنبيههم إلى منطقة البؤرة في الخطاب، إذ بدأت بمحور التذكير والتنبيه، وهو ما بيَّنَّاه في المبحث السابق، لتنتقل بعده إلى المحور الثاني الذي يمثِّل صلب الهدف، أو لب الموضوع، أو ما يسمَّى بالمتن الرئيسيّ في الخطبة، الذي خرجت من أجله، فقدَّمت له مقدِّماته، فالتفتت السيِّدة الزَّهراء عليها السلام إلى القوم الجالسين، فقالت: «**أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه، وحملة دينه ووحيه، وأمناء الله على أنفسكم، وبلغاؤه إلى الأمم**»[1].

نلاحظ هنا أنَّ الزَّهراء عليها السلام بدأت بمدح القوم، رغم ما فيهم من الشوائب، فربَّما كانت الغاية من ذلك المدح هو من أجل تحفيز المقابل بتقبُّل ما سوف تقول به الزَّهراء، وهذا له أثر نفسيّ، أو ربَّما أرادت أن تبيِّن دور صحابة رسول الله المتواجدين في ذلك المجلس، فتقول لهم: المفروض بكم أن تكونوا بهذه الصفات، فقالت: «**تكونون نصب أمره.. وبلغائه إلى الأمم**»، أي ينبغي أن يكون دوركم الطبيعيّ، هو هذا الدور، أي بعد قبض رسول الله، أنتم وظيفتكم هذه، وهي أمانة بيدكم؛ لأنَّكم عاصرتم الرسول صلى الله عليه وآله، وسمعتم أحاديثه، وتعلَّمتم سنَّته، وهي تريد أن تقول لهم إنَّه يجب عليكم تبليغ تلك الأوامر والتعاليم والأحاديث والسنن إلى الأجيال القادمة، فيجب عليكم أداء هذه المسؤوليَّة الكبيرة تجاه الإسلام والمسلمين، وأداء الأمانة سليمة من التلاعب، وتبليغ

(١) بحار الأنوار: ٢٩ / ٢٢٢.

الأحكام دون تحريف أو تزييف، كما أنزلها الله تعالى؛ لأنَّكم الوسائل بين الرسول صلى الله عليه وآله، وبين بقيَّة المسلمين، وهي تريد أن تبيِّن لهم إن أنتم أحسنتم الأداء، فلكم الأجر الجزيل، وإن خُنتم في الأداء والتبليغ، فعليكم أوزار كلِّ انحراف في الدين والمسلمين[1]، من هذا تريد الزَّهراء عليها السلام تحقيق المنطق العقليّ في التغيُّر الفكريّ والسلوكيّ في ذهن المتلقِّي العام، وتوجيه نحو تبنِّي موقف وسلوك واقعيّ منطقيّ تجاه القضايا المطروحة، ممَّا يعكس قوَّة الخطاب وتأثيره الإقناعيّ، إذ تلتفت إلى فتية القوم الحاضرين الذين مالوا إلى نصرة الآخر الظالم، فقالت لهم: «**يا معشر النقيبة وأعضاد الملَّة، وحضنة الإسلام، ما هذه الغميزة في حقِّي، والسِّنَة عن ظلامتي**»[2]، نجد أنَّ الزَّهراء عليها السلام تشخِّص فئات محدَّدة لتخاطبها، وهنا تخصُّ الأنصار بخطابها، وربَّما السبب في ذلك أنَّها تريد استنهاض هممهم، لعلمها أنَّهم مازالوا في عنفوان طاقاتهم العمريَّة والعقليَّة، فلا يكون الإصلاح والتغيير الإلهيَّان في أهل الإسلام والملَّة إلَّا بهم، وهي تريد أن تصل بهم إلى أنَّ الله خلقهم وجعلهم النقبة ليكونوا أعضاد ملَّة الإسلام الحقَّة وأنصارها، لا أن يحاربوا حقَّ الله وملَّته وإسلامه، فشجبت فعلتهم تلك، وقد قصدت السيِّدة الزَّهراء عليها السلام إقرار المخاطَبين بحجَّتها، ودفعهم إلى التسليم بصحَّة ما جاءت به من أدلَّة وشواهد إقناعيَّة؛ لتصوير التغافل عن ظلامتها، ورفد مهمَّتها الإقناعيَّة، وذلك بحسن التوظيف للوسائل، فالزَّهراء عليها السلام خرِّيجة الدوحة المحمَّديَّة والعَلَوية، فأفادت من المؤهِّلات التي حصلت عليها من المدرَسَتَين، فوظفتها في تعزيز مستوى الإقناع في كلامها وانعكاسه في حسن الأداء بما أقنع الآخرين بحقِّها.

وقد استخدمت أسلوبًا فيه شيء من المدح؛ لأنَّ هذا اللون من الإعلام له دلالات إقناعيَّة، فقد استثمرت الزَّهراء عليها السلام طاقاتها الإيحائيَّة الإقناعيَّة من أجل جذب انتباه المتلقِّين؛ لأنَّها تعدُّ من أكثر وسائل الإعلام الإقناعيَّة أثرًا في لفت الانتباه، وزيادة

(١) ينظر: فاطمة من المهد إلى اللحد: ٣٢٠-٣٢١.
(٢) الاحتجاج: ١٣٩.

درجة الإقناع، وهنا نلاحظ أنَّ الزَّهراء عليها السلام قد تنوَّعت لديها أشكال الإقناع؛ لتنوُّع الموضوعات التي تناولتها في الخطبة، فمنها ما كان دينيًّا، وقد تناولناه، ومنها ما كان اجتماعيًّا، ودينيًّا، وسياسيًّا؛ لذلك نراها عليها السلام تعمل على إثارة الجانب الانفعاليّ العاطفيّ، كما فعلت في افتتاح خطبتها، أو إثارة الجانب العقليّ المنطقيّ، وهو ما تعتمد عليه كثيرًا، وبعدها أشارت إلى عبارة مهمَّة، فقالت عليها السلام: «**وزعمتم حقٌّ لكم لله فيكم**»[1]، أي إنَّ ذلك ليس حقٌّ لكم، وإنَّما تدعون زورًا وبهتانًا.

وقد كان الجانب الإعلاميّ حاضرًا في خطبتها هذه المرَّة بحقِّ الإمام عليّ عليه السلام المسلوب المغتصب، فتكون أوَّل إشارة إلى الإمام عليه السلام، إذ تقول: «**نجم قرن للشيطان، وفغرت فاغرة من المشركين، قذف أخاه في لهواتها، فلا ينكفئ حتَّى يطأ صماخها بأخمصه، ويخمد لهبها بسيفه، مكدودًا في ذات الله، ومجتهدًا في أمر الله، قريبًا من رسول الله، سيِّد أولياء الله**»[2]، وفي هذا النصِّ تظهر مركزيَّة الخطاب، وهي إتمام الرسالة المحمَّديَّة الحقَّة، والكشف عن الحلقة الصحيحة التي يجب أن تأخذ مكانها المناسب في سلسلة الرسالة المحمَّديَّة، والملاحظة المهمَّة هنا في خطاب الزَّهراء عليها السلام أنَّها لم تذكر أيَّة صفة من صفات الإمام عليّ عليه السلام، بل اكتفت هنا بذكر كلمة (أخاه)، في إشارةٍ منها إلى رواية المؤاخاة التي تظهر الرسول صلى الله عليه وآله، والإمام عليّ عليه السلام صورَتَين في آنٍ واحد، وكان الإمام عليّ عليه السلام يعتزُّ بهذه الأخوَّة، فيقول: «أنا عبد الله، وأخو رسول الله، وأنا الصدِّيق الأكبر، والفاروق الأعظم لا يقوله غيري إلَّا كذَّاب[3]، ثمَّ تُكمِل الزَّهراء الخطاب الإعلاميّ بمواقف الإمام عليه السلام في الإسلام لذِكر القوم بها، والإشارة في عمق الخطاب الإقناعيّ إلى أحقيَّته بالخلافة، وإنَّه أولى بها من غيره، فقالت: «**قريبًا من رسول الله، سيِّدًا في ذات الله**»[4]،

(١) بحار الأنوار: ٢٩/ ٢٢٢.
(٢) المصدر نفسه: ٢٩/ ٢٢٥.
(٣) الأمالي، الشيخ الصدوق: ٢٧٤.
(٤) الاحتجاج: ١٣٦.

وهنا تشير الزَّهراء عليها السلام إلى القرابة، ولكنَّها لم تقصد القرب المكانيّ، وإنَّما كانت تعني القرب المعنويّ من حيث اندماج الروح، وقرابة النسب، ووحدة النفس، واتِّحاد الروح استنادًا إلى آية المباهلة: ﴿وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾[1]، وهي تستعرض الخدمات الجليلة التي قدَّمها الإمام عليّ عليه السلام في خطابها التسلسليّ والإقناعيّ، تريد أن تصل إلى أنَّ من يقدِّم مثل تلك التضحيات يكون مقامه على رأس القوم، ثمَّ تُعلن عن مقارنة بين ما كان يتنعَّمون به هؤلاء الذين تصدَّوا لأمر الأمَّة بعد الرسول صلى الله عليه وآله، فقالت: «**وانتم في رفاهية من العيش، وادعون فاكهون آمنون**»[2]؛ لتُجري في هذا الخطاب مقارنة جميلة بين مَن هو أحقُّ بالخلافة، وبين الطرف الآخر، فقد بيَّنت موقف الإمام عليّ عليه السلام تجاه الإسلام والرسول صلى الله عليه وآله، وهذه مواقف غيره من أولئك الشخصيَّات التي ظهرت شجاعتهم بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله، فأبرزوا شجاعتهم عندما خلا لهم الجو وساعدتهم الظروف، وهنا تظهر شجاعة الزَّهراء عليها السلام، إذ تتصدَّى بنفسها للدفاع عن الحقِّ، إذ إنَّ الدفاع في حدِّ ذاته يمثِّل قيمة إلهيَّة، ولاسيما عندما تنطلق صرخات الاحتجاج من فم امرأة مظلومة كفاطمة عليها السلام[3]

ومن الجليِّ الواضح أنَّ الزَّهراء عليها السلام تتحدَّث بلسان الجماعة، وهم أهل البيت عليهم السلام، وتذكر بالظلم الذي حاق بهم من القوم في حياة الرسول صلى الله عليه وآله، وهذه تمثِّل إشارة أو تعبير عن بيت النبوَّة الذي هو الامتداد الطبيعيّ للرسالة المحمَّدية، وتستمرُّ الزَّهراء عليها السلام في خطابها في كشف زيف القوم والدفاع عن حقِّ أهل البيت عليهم السلام المغتصَب، فتقول: «**فلما اختار الله لنبيه دار أنبيائه، ومأوى أصفيائه، ظهر فيكم حسكة النفاق**»[4]، هنا الزَّهراء عليها السلام تشير إلى نقطة جوهريَّة وقضيَّة مصيريَّة، لتعود بالقوم إلى

(١) آل عمران: ٦١.
(٢) بحار الأنوار: ٢٢٥.
(٣) ينظر: فاطمة الزَّهراء قدوة الصدِّيقين: ٨.
(٤) الاحتجاج: ١/ ١٣٦.

يوم السقيفة، وإظهارهم للناس كذبًا وخديعة، أنَّهم اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة دفعًا للفتنة، مع أنَّ الهدف كان هو غصب الخلافة من أهلها الحقيقيِّين، ومن هذا الخطاب عملت الزَّهراء عليها السلام على توجيه الإعلام الحجاجيّ إلى المنحى المطلوب، وتحقيق غايته المنشودة، وهي بطلان ذلك الزعم من الوقوع بالفتنة، فعملكم هذا هو الفتنة المفسدة، غصبتم الحقوق عن أهلها؛ لأجل الوقاية من الفتنة، حسب ادِّعائكم، فأيُّ فتنة أعظم من تغيير مجرى الإسلام وتبديل أحكامه، وغصب حقوق أهل البيت، ومعاملتهم بتلك القسوة والخشونة[1].

ثمَّ تقول: «**أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ**»[2]، وهنا جانب إعلاميّ إقناعيّ مهم جدًّا، يكمن في الدلالات التي تكمن في الاستدلال الإقناعيّ بالشاهد القرآنيّ لدى الزَّهراء عليها السلام، معزِّزًا للدلالات الإقناعيَّة المتعدِّدة، إذ تريد الزَّهراء عليها السلام لإعلامها أن يصل إلى ذروته، فتهيِّئ الأدوات الإعلاميَّة المتداخلة المتعانقة مع بعضها؛ لتكون أكثر اقناعًا، فتقدِّم الحجج على المعنى المقصود بحجَّة عقلية تقع على المعاند حجَّته، وهذا ما يسمَّى إثبات أصول الدين بالبراهين العقليَّة[3].

ممَّا سبق نجد أنَّ الزَّهراء عليها السلام في خطبتها قد وضعت النقاط على الحروف بين فريقَين متخاصمَين، أحدهما على الحقِّ، وآخر على الباطل، وقد قصدت السيِّدة الزَّهراء في إجراء تلك المقارنة الجميلة بين الطَّرَفين، وبيان أفعال كلٍّ منهما على حِدَه، وذلك لتثبيت الحقوق وحفظها، ولتوثيق الحقائق وصونها من الضياع والتزييف والتدليس، وهي بذلك أرادت أن تبيِّن حقَّ الفريق الأوَّل المتمثِّل بأهل البيت عليهم السلام، وتثبيت حقوقهم التي نصَّ عليها الله ورسوله، سواء بالقرآن الكريم، أو بالسنَّة المطهَّرة، كذلك تبيِّن أنَّ

(١) ينظر: فاطمة من المهد إلى اللحد: ٣٦٤.

(٢) الاحتجاج: ١/ ١٣٦، وقول السيِّدة الزَّهراء تناص قرآنيّ للآية ٤٩ من سورة التوبة.

(٣) ينظر: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الإصبع العدوانيّ، ١١٩.

الآخر ليس على حق، وأنَّه مغتصب حقًّا ليس له، لذلك حرصت على ذِكر الصِّنفَين معًا، وأعطت لكلٍّ واحدٍ منهما ملامحه الدقيقة، فهي عليها السلام لم تذكر أحدهما دون الآخر، وربَّما كان السر من وراء ذلك الفعل هو الإعلام الإقناعيّ للجالسين في ذلك المؤتمر، أو الذين يأتون من بعدهم؛ لكي لا تختلط الأمور عليهم، وتضيع الحقوق والحقائق، وأيضًا تريد أن تضع حدًّا للتزييف الإعلاميّ للحقائق؛ لأنَّها كانت تعلم أنَّ من يأتون بعد ذلك، ويحكمون سوف يزيفون التاريخ لصالح هؤلاء المغتصبين، فيجعلونهم أهل الحقِّ الشرعيِّين، ويستبعدون أهل الحقِّ الإلهيّ؛ لذلك قطعت الطريق بخطابها هذا الذي حوى تفصيلات يمكن وصفها بالدقَّة الفائقة بالتشخيص والاستشراف بالمستقبل.

إنَّ خطاب الزَّهراء عليها السلام الإعلاميّ لم يكن خطابًا ماديًّا التماسيًّا كما صوَّرته بعض الكتب، غايته ماديَّة، بل كان خطابًا متداخلًا مع روح الإسلام الحقيقيّ، بل يمثِّل المنهج القرآنيّ، ولم يكن بسبب بعض الإشكاليَّات الفكريَّة والمذهبيَّة، بل يعدُّ ثورة كلاميَّة وانتفاضة إعلاميَّة إقناعيَّة بلاغيَّة ضدَّ الانحراف العقديّ الذي أخذ ينحرف عن قواعد الإسلام التي أرساها الرسول صلى الله عليه وآله، وهي بالحقيقة ثورة إصلاحيَّة كاملة لمنظومة الإسلام، التي حاول المنحرفون تغييرها، بل هو بمثابة بيان رسمي تعلن فيه بالإنابة عن أهل البيت عليهم السلام رفضها للمنهج الذي انتهجه الآخر بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله، ممثَّلًا يركن الشيطان الذي وجد في بناء منظومة جديدة مهمَّتها إقصاء أهل البيت عن مكانهم الحقيقيّ، وبثِّ روح الفرقة بين المسلمين.

وفي ختام خطبتها، وجَّهت خطابها المباشر إلى حاكم الدولة أبي بكر، فقالت له: «**يا ابن أبي قحافة، أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي؟! لقد جئت شيئًا فريًا**»[1]. من هذا القول نلاحظ أنَّ موضوع الإرث بفدك لم يكن هدفًا مركزيًّا،

(١) بحار الأنوار: ٢٩/ ٢٢٦.

فلو كان همُّها إرث فدك لقدَّمته في بدايته كلامها، وإنَّما كان عرضيًّا من أجل فضح الحاكم، وكيف أصبح يتلاعب بنصوص القرآن الكريم والحديث النبويّ الشريف، وهذا دليل آخر على أنَّ السيِّدة الزَّهراء عليها السلام تمثِّل حلقة وصل لإتمام الرسالة المحمَّديَّة، إذ لم تعدّ هذا الخطاب من أجل المطالبة بإرث مادِّيّ.

وهنا ملاحظة إعلاميَّة مهمَّة، فبينما الحضور مشدودون إليها، إذ نادتهم «**أيُّها المسلمون**»، تلتفت مباشرة إلى الخصم الظالم رأس القوم، وتقول له: «**أأُغلب على إرثيه؟! يا بن أبي قحافة**»[1]. بعد ذلك ترتقي الزَّهراء عليها السلام بالإعلام الحجاجيّ إلى مرتبة عظيمة، فهي تقدِّم الحجج الدامغة المشفوعة بالآيات القرآنيَّة التي لا يمكن للخصم نكرانها، فهي تورد خطابها مرتكزًا على آيات القرآن الكريم، فاستشهدت بآيات الميراث لتفنيد ما زعم هؤلاء أنَّ لا حظَّ لها، ولا إرثَ لها من أبيها، في حين ترث أباك أنت؟ سبحان الله، لقد جئتم شيئًا فريًا.

والشيء الإعلاميّ المهم في هذا الخطاب، هو أنَّ الزَّهراء عليها السلام لم تنادي الحاكم باسمه (أبي بكر)، إنَّما استخدمت كنية أبيه، وربَّما كان القصد من وراء ذلك هو التناغم مع ما جاء في نهج البلاغة، عندما خطب أمير المؤمنين، فقال: «**والله لقد تقَّمصها ابن أبي قحافة، وإنَّه ليعلم أنَّ محلِّي منها محلَّ القطب من الرحى**»[2]، فضلًا عن ذلك إثبات للحقائق وحفظها من التزوير، فعملت على تثبيت الشخص الخصم؛ لأنَّه كان مشهورًا بين القوم بهذه الكنية، ولم يكن أحدٌ من القوم يُعرَف بها سواه، أمَّا اسمه فهناك العديد ممَّن يُعرَفون به، وبذلك تحول دون التزييف والتزوير في قادم الأيَّام.

(١) بحار الأنوار: ٢٩/ ٢٢٦.

(٢) الاقتصاد، الشيخ الطوسيّ: ٢١٠.

كذلك نلاحظ تقلُّص مساحة محور الإرث بالمساحة الأخرى في الخطاب الفدكيّ، وهذا يدلُّ على شيء مهم، هو أنَّ هذا المطلب هو شيء ثانويّ، بل إنَّه محفِّزٌ إعلاميٌّ فقط؛ لإنتاج الخطاب البنائيّ الذي استهدف الخطاب الإسلاميّ، وليرمِّم ما حصل فيه من انحراف، والعمل على تغيير الفكر المغاير، وإنقاذ ما تسطيع من الآخر من التيه والضَّلالة.

الخاتمة

بعد نهاية البحث، توصَّل الباحثان إلى استنتاجات من أبرزها:

١. إنَّ الخطاب الإعلاميّ عند السيِّدة الزَّهراء عليها السلام قد ارتكز على إستراتيجيَّات أساسيَّة مهمة في الإعلام الحديث، فكان يمثِّل فكرًا عقديًّا عميقًا يتماشى مع مضامين السياق المنتَج، أسهمت في صناعته بلاغة عالية ودقَّة كبيرة، استطاعت الدمج ما بين ما هو قرآنيّ أصيل، وحديثيّ صحيح، وواقع حتميّ.

٢. استخدمت السيِّدة الزَّهراء عليها السلام كلَّ أدوات الإعلام التي من شأنها أن تؤدِّي بالفرد إلى الإقناع أمام الحقائق المخفيَّة، وهي بذلك قد خاطبت ديموغرافيَّات مختلفة، منها ما هو حاضر في ذلك المؤتمر، ومنها ما سيولَد بعد ذلك الزمن، فاستخدمت أدوات التنبيه والتذكير والحجاج والتهويل والتقريع.

٣. من أهمِّ الفنون البلاغيَّة الإقناعيَّة التي ضمَّنتها الزَّهراء في خطبتها تلك، توظيفها الشاهد القرآنيّ بشكلٍ جميلٍ جدًّا، فأحيانا تورِد الآية بالنصِّ إذا كان التغيير فيها يُنقِص من دلالة الإقناع، بينما توردها بشيء من التغيير، عندما تستدعي ذلك حاجة السياق، من غير أن يؤثِّر ذلك في جماليَّات الإقناع الاستدلاليّ.

٤. إنَّ موضوع الإرث بفدك لم يكن هدفًا مركزيًّا، فلو كان همَّها إرث فدك لقدَّمته في بدايته كلامها، وإنَّما كان عرضيًّا من أجل فضح الحاكم، وكيف أصبح

يتلاعب بنصوص القرآن الكريم والحديث النبويّ الشريف، وهذا دليل آخر على أنَّ السيِّدة الزَّهراء تمثِّل حلقة وصل لإتمام الرسالة المحمَّديَّة، إذ لم تعدّ هذا الخطاب من أجل المطالبة بإرثٍ ماديٍّ.

٥. الشيء الإعلاميّ المهم في هذا الخطاب، هو أنَّ الزَّهراء عليها السلام لم تنادي الحاكم باسمه (أبي بكر)، إنَّما استخدمت كنية أبيه، فضلًا عن ذلك إثبات للحقائق وحفظها من التزوير، فعملت على تثبيت الشخص الخصم؛ لأنَّه كان مشهورًا بين القوم بهذه الكنية، ولم يكن أحدٌ من القوم يُعرف بها سواه، أمَّا اسمه فهناك العديد ممَّن يُعرَفون به، وبذلك تحول دون التزييف والتزوير في قادم الأيَّام.

٦. نلاحظ تقلُّص مساحة محور الإرث بالمساحة الأخرى في الخطاب الفدكيّ، وهذا يدلُّ على شيءٍ مهمٍّ، هو أنَّ هذا المطلب هو شيء ثانويّ، بل إنَّه محفِّزٌ إعلاميٌّ فقط لإنتاج الخطاب البنائيّ الذي استهدف الخطاب الإسلاميّ، وليرمِّم ما حصل فيه من انحراف، والعمل على تغيير الفكر المغاير، وإنقاذ ما تسطيع من الآخر من التيه والضَّلالة.

٧. تميَّزت السيِّدة الزَّهراء ببراعة تسلسل الإعلام، فقد بدأت بحمد الله والثناء عليه، فهي عندما حمدت الله حمدته من زاوية مختلفة، وقد قدَّمت الزَّهراء ببعض الكلمات؛ لأنَّ لها علاقة بالمطالب التي ستأتي بعدها، أو بمباني الأمور التي ستحلِّلها الزَّهراء عن وضع الأمَّة.

٨. كان الجانب الإعلاميّ حاضرًا في خطبتها بحقِّ الإمام عليّ المسلوب المغتصَب، وظهرت مركزيَّة الخطاب في إتمام الرسالة المحمَّديَّة الحقَّة، والكشف عن الحلقة الصحيحة التي يجب أن تأخذ مكانها المناسب في سلسلة الرسالة المحمَّديَّة.

٩. إنَّ خطاب الزَّهراء الإعلاميّ لم يكن خطابًا ماديًّا التماسيًّا، كما صورته بعض الكتب، غايته ماديَّة، بل كان خطابًا متداخلًا مع روح الإسلام الحقيقيّ، بل يمثل المنهج القرآنيّ، ولم يكن بسبب بعض الإشكاليَّات الفكريَّة والمذهبيَّة، بل يعدُّ ثورة كلاميَّة وانتفاضة إعلاميَّة إقناعيَّة بلاغيَّة ضدَّ الانحراف العقديّ، الذي أخذ ينحرف عن قواعد الإسلام التي أرساها الرسول، بل هو بمثابة بيان رسميّ تعلن فيه بالإنابة عن أهل البيت عليهم السلام رفضها للمنهج الذي انتهجه الآخر بعد وفاة الرسول، ممثَّلًا يركن الشيطان الذي وجد في بناء منظومة جديدة مهمَّتها إقصاء أهل البيت عن مكانهم الحقيقيّ، وبثِّ روح الفرقة بين المسلمين.

١٠. إنَّ الزَّهراء عليها السلام تتحدَّث بلسان الجماعة، وهم أهل البيت عليهم السلام، وتذكِّر بالظلم الذي حاق بهم من القوم في حياة الرسول، وهذه تمثِّل إشارة أو تعبير عن بيت النبوَّة الذي هو الامتداد الطبيعيّ للرسالة المحمَّديَّة، وتستمرُّ الزَّهراء في خطابها في كشف زيف القوم، والدفاع عن حقِّ أهل البيت عليهم السلام المغتصَب.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

١. الاحتجاج، الطبرسيّ، تعليق السيِّد محمَّد باقر الخرسان، دار النعمان، النجف الأشرف، ١٩٩٦م.

٢. الأسلوبيَّة والأسلوب، عبد السلام المسدي، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ١٩٨٢م.

٣. أعظم شكوى وأبلغ بيان شرح الخطبة الفدكيَّة، محمَّد تقي اليزديّ، تحقيق عبَّاس كرائي، ترجمة وائل عليّ، ط١، دار المعارف، لبنان، ٢٠٢٠م.

٤. أعيان الشيعة، السيِّد محسن الأمين، تحقيق: حسن الأمين، دار التعارف، بيروت، (د.ت).

٥. الاقتصاد، الشيخ الطوسيّ، مطبعة الخيام، قم، ١٤٠٠هـ.

٦. الإقناع في الخطاب القرآنيّ، هشام بلخير، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بانيته، الجزائر ٢٠١٢م.

٧. الأمالي، الشيخ الصدوق، ط١، مركز البعثة، بيروت، (د.ت).

٨. بحار الأنوار، العلَّامة المجلسيّ، تحقيق الشيخ عبد الزَّهراء العلويّ، دار الرضا، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٩. بلاغة الخطاب الإقناعيّ نحو تصوُّر نسقي لبلاغة الخطاب، حسن مودن، ط١، كنوز المعرفة، ٢٠١٤م.

١٠. بهاء الدين، من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسيّ، تبسيط التداوليَّة، محمَّد مزيد، ط١، مطبعة شمس، القاهرة، ٢٠١٠م.

١١. البيان والتبيين، عمرو بن بحر بن محبوب الكنانيّ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٩٨م.

١٢. التبيان في علوم القران، محمَّد عليّ الصابونيّ، مكتبة البشرى، باكستان، (د.ت).

١٣. تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الإصبع العدوانيّ، تحقيق الدكتور حفني محمَّد شرف، لجنة إحياء التراث الإسلاميّ، مصر، (د.ت).

١٤. تيار الوعي في الرواية الحديثة، همفري روبرت، ترجمة د. محمود العربيّ، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٥م.

١٥. الحجاج في القرآن من خلال أهمِّ خصائصه الأسلوبيَّة، عبد الله صولة، ط١، دار الفارابيّ، بيروت، ٢٠٠١.

١٦. الخطاب الحجاجيّ في الخطبة الفدكيَّة للسيِّدة الزَّهراء الروابط الحجاجيَّة اختيارًا، عبد الإله عبد الوهاب العرداويّ السودانيّ، وعتاب بسيم، مجلَّة كليَّة الآداب، جامعة الكوفة، ٢٠٢٠م.

١٧. خطبة الزَّهراء سيِّدة النساء- قراءة وحوار جديد، د. مهدي صالح سلطان، ط١، قسم الشؤون الفكريَّة والثقافيَّة في العتبة العبَّاسيَّة المقدَّسة، مطبعة دار الكفيل للطباعة والنشر، رجب الأصب ١٤٣٦هـ/ أيَّار ٢٠١٥م.

١٨. الزاهر في معاني كلمات الناس، أبو بكر الأنباريّ، تحقيق، د. حاتم صالح الضامن، مؤسَّسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٢.

١٩. الزَّهراء وخطبة وفدك شرح الخطبة الفدكية، محمَّد باقر المجلسيّ، ط١، دار كلستان كوثر، ايران، ٢٠٠٣.

٢٠. فاطمة الزَّهراء قدوة الصدِّيقين، محمَّد تقي المدرِّسيّ، دار محبِّي الحسين، أصفهان، (د.ت).

٢١. فاطمة من المهد إلى اللحد، محمَّد كاظم الزيديّ، المطبعة العلميَّة، قم، ١٩٩٩م.

٢٢. الفكر الكلاميّ عند السيِّدة الزَّهراء الخطبة الفدكيَّة أنموذجًا، سلام الخرسان، مجلَّة العقيدة، العدد الثامن، ١٤٣٧هـ.

٢٣. في بلاغة الخطاب الإقناعيّ مدخل نظريّ وتطبيقيّ لدراسة الخطابة العربيَّة- الخطابة في القرن الأوَّل أنموذجًا، محمَّد العمريّ، الناشر: إفريقيا الشرق، (د.ت).

٢٤. المدخل إلى المنطق الصوريّ، محمَّد مهران، مطبعة بولاق، دمشق، ١٩٩٩م.

٢٥. مفاهيم أوَّليَّة، بيار ماشيري، ترجمة سامي سودان، مجلَّة العرب والفكر العالميّ، العدد١، ١٩٨٨.

٢٦. مناقب أهل البيت عليهم السلام، المولى حيدر الشيروانيّ، تحقيق محمَّد الحسُّون، ط١، مطبعة المنشورات الإسلاميَّة، بيروت، ١٤١٤هـ.

الزَّهراء حضورًا في الشعر الحِلِّيّ.. دراسة في طرائق التَّوظيف المعنويّ والتشكيل الفنِّيّ

أ.د. وسام حسين جاسم العبيديّ
كليَّة الإمام الكاظم عليه السلام/ أقسام بابل

ملخَّص البحث

شكَّل استدعاء الرموز الإسلاميَّة في الشعر العربيّ، ظاهرةً من ظواهر الاهتمام بالتراث، ولعلَّ الاهتمام بهذا الجانب، لم يكن جديدًا على الشعراء، وهم ينهلون لغتهم من التراث اللغويّ، فقديمًا وجدنا الشعراء في العصور الإسلاميَّة الأولى يوظِّفون الآيات القرآنيَّة في كثيرٍ من أشعارهم، فضلًا عن الأمثال المحكيَّة شفاهًا، وغير ذلك من الإشارات المباشرة واللَّمّاحة إلى قصصٍ وأساطيرٍ ورثها العرب جيلًا بعد جيل، وقد لا يختلف النقَّاد حول أهميَّة ذلك الرجوع إلى التراث باغتناء تجارب الشعراء كمًّا ونوعًا، فكثيرٌ من القصائد قيلت في أغراض المديح والرِّثاء في مناسبات إسلاميَّة على مدار السنة الهجريَّة، ومن ناحية التشكيل الفنِّيّ، فقد تنوَّعت أساليب الشعراء بيانيًّا وتطوَّرت عبر استلهام تلك الرموز، بما يعكس قدرة الشعراء وتميُّز بعضهم على الآخر في هذا المضمار، فضلًا عن الحالة النفسيَّة التي ينطلق منها الشاعر في وقوفه على تلك النماذج، بما ينعكس أثره في اختلاف آفاق التناول بين شاعرٍ وآخر.

ومن هذه المقدِّمة، سوف نقف عند واحدة من الرموز الإسلاميَّة التي حضرت في الشعر الحِلِّيّ في القرنَين الثامن عشر والتاسع عشر، بالوقوف أوَّلًا عند خصوصيَّة

هذا الرمز عند شعراء الحِلَّة، ومن ثمَّ الوقوف عند طرائق الحضور التي اشتغل الشعراء عليها، وهم ينظمون قصائد يرد ذِكر السيِّدة الزَّهراء في بعضها عرضًا، إذ لم تكن بعض هذه القصائد مكرَّسة لاستذكارها بمناسبة الولادة أو الوفاة، ومن ثمَّ استعراض أبرز الأساليب البيانيَّة التي حضرت في تلك القصائد، وهي تحفل بذكر السيِّدة الزَّهراء.. ويلحق البحث خاتمة تقف عند أبرز النتائج، وبعدها تأتي المصادر والمراجع.

ونسأله سبحانه التوفيق والسَّداد.

المحور الأوَّل

خصوصيَّة الرمز (الزَّهرائيّ) في الشعر الحِلِّيّ

يعلمُ القارئ جيِّدًا أن توظيف التراث لدى الشعراء، بات من لوازم الشاعر، إذ يتَّكئ الشعراء على الموروث في قراءاتهم للسابقين، ويحفظون منه الكثير، فضلًا عمَّا يحملونه في وعيهم ولا وعيهم، ولأنَّ الشاعر أساسًا لا يولد شاعرًا من دون أنْ يحتكَّ بجملة من العوامل المحيطة به، التي من شأنها أنْ تنفخ فيه روح الشاعر، وواحدةٌ من أهمِّ العوامل التي ينهل منها الشاعر في تكوين موهبته الشعريَّة، هي اطِّلاعه الواعي على التراث بمختلف مناحيه ومشاربه، إذ يدخل في صقل ثقافته التي يستلهم منها تجربته الشعريَّة، وعلى أساسها يتفوَّق على مجايليه من الشعراء، أو لا يتفوَّق، ونظرةٌ واحدةٌ على كتب التراث النقديّ والأدبيّ فيما يخصُّ الشعراء العرب، نجد أنَّهم لم يشذُّوا عن هذه القاعدة، فجميعهم نهلوا من التراث، واستقوا من أفكاره وموضوعاته وأحداثه وأساليبه ما يغذِّي تجربتهم، ويمدُّها وفقًا لمستوى الوعي الذي يتكوَّن هو الآخر من جملة عوامل يخضع لها الوعي في كثيرٍ منها، وتقف الموهبة ومقدار الاستجابة لدى الشاعر لتلك الموهبة في التقاط المهمِّ من ذلك التراث والوقوف عند نفائسه، وترك المرذول منه، وبهذا تتفاوت الشعراء في مقدار نبوغهم من عدمه بحسب تلك الاستعدادات الفطريَّة، فضلًا عن العوامل المكتسبة التي تُتاح لكلِّ واحدٍ منهم، ومن هذه الزاوية، يُشكِّل استدعاء الرمز وتوظيفه فنِّيًّا في الشعر «من أهمِّ التقنيَّات الفنيَّة التي أخذ بها الشعراء في بناء القصيدة، [بها] يمنحها رؤيةً وشموليَّةً تصل العامّ بالخاصّ، والحاضر بالماضي،

بحيث تصبح القصيدة بنيةً عميقةَ الدلالة ومتماسكة، فالرمز هو إشعاعٌ دلاليٌّ إيحائيّ، يهدف إلى فتح قنوات للمشاركة الوجدانيَّة بين الشاعر والمتلقِّي، فاستحضار الرمز في الشعر يعكس النفسيَّة الثائرة للشاعر، المتمرِّدة أحيانًا، والموقِظة للضمائر أحيانًا أخرى، أملًا في تغيير الأوضاع، فيسعى الشاعر إلى إحياء الضمائر بإحياء الموروث الثقافيّ»[1]. ومن هذا المنطلق استفاد الشعراء باللجوء إلى الماضي؛ لاستقاء الكثير من الأحداث وتوظيفها في أشعارهم، وعبر ذلك التوظيف يعكسون لنا مواقفهم بصورة مباشرة أو غير مباشرة، باعتبار «أنَّ الأحداث والشخصيَّات التاريخيَّة ليست مجرَّد ظواهر كونيَّة عابرة، تنتهي بانتهاء وجودها الواقعيّ، وإنَّما لها دلالة شموليَّة باقية وقابلة للتجديد»[2]، ومن ذلك التوظيف ينطلق الشاعر ليكشف لنا عن قضايا وأحداث يمرُّ بها مجتمعه، ويعصف بها عصره.

ومعلوم أنَّ الثقافة الدينيَّة التي ينتمي إليها الشاعر، لها كلُّ الأثر في صياغة أفكاره ورؤاه بما ينسجم وإملاءات تلك الثقافة، فمن الطبيعيّ أنْ نجد الشاعر ابن بيئته الثقافيَّة، فيأخذ ما تناقله السابقون من الأفكار، ويكتب معبِّرًا عن وجهة النظر الجماعيَّة لمتبنِّي تلك الثقافة، ولأنَّ الرموز الإسلاميَّة مثَّل بعضها خصوصيَّةً لهذا المذهب من المذاهب دون غيره، في قبال رموز أخرى يعتزُّ بها آخرون من مذاهب المسلمين، وجدنا السيِّدة الزَّهراء عليها السلام تمثِّل واحدةً من أهمِّ الرموز الإسلاميَّة المهمَّة عند أبناء الطائفة الإماميَّة، ممَّن والى الإمام عليًّا عليه السلام، وآمن بأولويَّته خليفةً بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، ورأى في السيِّدة الزَّهراء امتداد الرسالة الإسلاميَّة؛ لكونها الزوجة الكُفؤ لابن عمِّ الرسول، وأمًّا لأولاده المعصومين الذين كانوا من نسلها، فلأجلِ ذلك، ولمواقفها الكبيرة في حياة الرسول

(١) الرمز الدينيّ في شعر محمَّد بلقاسم خمار، عزاوي مبروكة، رسالة ماجستير، جامعة العقيد أحمد دراية أدرار، ٢٠١٣م: ٧.

(٢) استدعاء الشخصيَّات التراثيَّة في الشعر العربيّ المعاصر، عليّ عشري زايد، دار عرب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط، ٢٠٠٦م: ١٢٠.

مع صغر سنِّها، وبعد رحيله المفجع، حين استولى عليها الحزن بذلك الرُّزء العظيم، ولما مرَّ به أئمَّة آل البيت من أحداثٍ أليمة تركت أثرها الحزين في وجدان الموالين لهم، ناهيك عمَّا وقع على أولئك الموالين على امتداد التاريخ من ظلامات وعسف وظلمٍ بحقِّهم، توارثوه من أئمَّتهم، صار الشاعر المسلم الموالي لهم، هاتفًا بمدحهم تارةً في كثيرٍ من القصائد التي نظمها، لما يُكنُّه لهم من مودَّةٍ أقرَّها القرآن الكريم، ونادى بها رسوله الأمين، فضلًا عمَّا وجده فيهم من شمائل الأخلاق السامية التي تحلَّوا بها والمواقف الإنسانيَّة الرائعة التي صدرت عنه بما أقرَّ به المخالف والمؤالف، وتارةً أخرى يستعيد ذكراهم، ويُقلِّب المواجع باستعراض مآسيهم التي تُدلِّل على كبير ظلامتهم، ويرى فيهم الرموز الإسلاميَّة المُثلى للعدل والصلاح وتحكيم شرع الله، ومن مواقفهم يستلهم الدروس الأخلاقيَّة الكبيرة التي تمثِّل الدين الإسلاميّ في أجلى صوره. فضلًا عمَّا ورد في الأحاديث الواردة عنهم من أجرٍ وثوابٍ أعدَّه الله لمن يكرِّس طاقته الشعريَّة في الثناء عليهم في قصائد المدح، أو البكاء على مصائبهم شعرًا في قصائد الرثاء، وليس بنا حاجة إلى استعراض تلك الأحاديث التي تناقلها الرواة عنهم في مصادر الإماميَّة على وجه الخصوص، وإلَّا فإنَّنا نجد الأحاديث الواردة عن النبيِّ، وهو يشدُّ من أزرِ حسَّان بن ثابت، وغيره من شعراء المسلمين، بتوظيف ما لديهم من إمكانات في الدفاع عن الإسلام ومضامينه الرفيعة، ويدخل في ضمن ذلك القول في مدح الرسول بوصفه الرمز الكبير لدين الإسلام.

إنَّ شعراء الحِلَّة من بين شعراء العربيَّة بعامَّة، وشعراء الشيعة الموالين لمذهب أئمَّة آل البيت عليهم السلام بخاصَّة، كانوا من الذين أظهروا صريح ما يعتقدونه في أئمَّتهم من مكانةٍ اختصَّها الرسول لهم، بوصفه المبلِّغ عن السماء، فكانت أشعارهم تدور في فلك الموالاة لمن أوصى الرسول بموالاتهم، وتدين لهم بكلِّ معاني الانتماء والطاعة، تعبيرًا عن صدق ما ينطق به وجدانهم في حقِّ آل البيت، وكانت الزَّهراء قطب ذلك الفلك، فمن الطبيعيّ

أنْ نجد حضورها في قصائدهم من الأولويَّات التي لا بُدَّ منها، فضلًا عن عوامل أخرى تمثَّلت بجور السلطة العثمانيَّة على مواطنيها في الولايات التابعة لها في العراق، ولاسيَّما أولئك الذين تخالفهم في الانتماء المذهبيّ، بما جعلهم عُرضةً لانتهاك السلطة واستبدادها، مضافًا إلى ذلك، تفشِّي الأوبئة المُهلكة التي راح ضحيَّتها الآلاف من الناس[1]، عزَّز من مكانة الدين بصورته الفطريَّة لدى الناس بعامَّة، ما جعلهم يؤمنون بكلِّ ما تحوكه لهم عواطفهم بما يصدر عنهم من سلوكيَّات تتناغم وتلك العواطف الدينيَّة، وليس بمستغربٍ أنْ يصلَ التكريم لواحدٍ من شعراء الحِلَّة، بمشاهدة السيِّدة الزَّهراء في عالم الرؤيا، تُناشده أنْ يقول الرثاء في قتلى الطَّفِّ وما جرى عليهم من مصابٍ جلل، وأعني به السيِّد حيدر الحِلِّيّ، في روايةٍ ذُكِرت عنه، بما يُدلِّل على مكانة السيِّدة الزَّهراء لديه، وعظيم مقامها في وجدان ذلك المجتمع، إذ رُوِي[2] أنَّه في عالم الرؤيا رأى السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، فأتي ليُسلِّم عليها، فلمَّا دنا منها قالت له موجِّهة الخطاب له[3]:

أنـاعِـيَ قـتـلى الـطـفِّ لا زلـتَ ناعيا
تهـيـج عـلـى طـول الـلـيـالي الـبـواكـيـا
أعِـدْ ذكـرَهـم في كـربـلا إنَّ ذكـرَهـمْ
طـوى جـزعًـا طـيَّ الـسِـجـلِّ كتابيا

يقول السيِّد: فأخذني البكاء وانتبهت، وأنا أحفظ البيتين وجعلت أتمشَّى في غرفتي وأُردِّدها، ففتحَ اللهُ عَلَيَّ أنْ قلتُ مُكمِّلًا:

(١) ينظر: الشعر السياسيّ العراقيّ في القرن التاسع، د. إبراهيم الوائليّ: ١٠-١٨، وصفحات أخرى كثيرة من هذا الكتاب أفاضت بالتفصيل.

(٢) ينظر: البابليَّات: ٢/ ١٥٦، ونقل اليعقوبيّ هذا الخبر عن السَّماويّ في كتابه (ظرافة الأحلام)، والقصيدة موجودة بكاملها في ديوان السيِّد حيدر: ١/ ؟؟؟.

(٣) ديوانه: ١/ ١٦٧.

ودع مُقلتي تَحمَرُّ بعد ابيضاضِها
بِعَدِّ رزايا تتْرُكُ الدَّمعَ دامِيا
سَتَنْسَى الكَرى عينٌ كأنَّ دموعها
حَلِفْنَ بمن تنعاهُ ألَّا تلاقيا

والحادثة تؤكِّد أنَّ الحضور الزهرائيّ اكتسح وجدان شعراء الحِلَّة، ما جعلهم يتسابقون إلى إبراز مكانتها العظيمة في قصائدهم التي كُرِّس بعضُها للمدح، فيما كُرِّسَ الآخر منها للرثاء، بما جعلهم يتفنَّنون بعرضِ تلك المكانة وفقًا لِما يُكِنُّونه لها من تقديس. ولأنَّ مكانتها المفصليَّة من جهة تكوينيَّة، بوصفها ابنة النبيِّ الخاتم الذي وصفها بأنَّها (أمُّ أبيها)، وبين مكانتها من جهة ارتباطها فيما بعد بزوجٍ كان الكُفؤ الوحيد لها من بين الرجال، تمثَّل في شخص الإمام عليّ الذي تربَّى في حضن الرسول، وآمنَ به في أوَّل دعوته لدين الله، وفداه بالغالي والنفيس، وكان امتداد نسل الرسول الطاهر من ابنته عن طريقه، وبهذا تحقَّقَ للسيِّدة الزَّهراء من المقامات العظيمة ما لم يكن لأحدٍ من نساء العالمين، فهي أفضل نساء الدنيا والآخرة، بما لها من مكانةٍ نسبيّةٍ خُصَّت بها، فضلًا عمَّا كانت عليه من سيرةٍ عاطرة بالمواقف التي تنمُّ عن انتمائها الرساليّ على الرغم من صِغر سنِّها، وإلى ختام حياتها الزاخرة بالإيمان والطُّهر والعفاف وقول الحقِّ والعملِ بمقتضاه. كلُّ هذا انعكس جليًّا في مرآة الشعر الحِلِّيّ، فقد اتَّجه الشعراء إلى بيان تلك المركزيَّة لا من خلال وقوفهم في قصائد مستقلَّة لاستذكار سيرتها الطاهرة فحسب، بل كان حضورُها في كثير من قصائد الرثاء الحسينيّ التي شغلت المساحة الأكبر في مدوَّنة كلِّ شاعرٍ حِلِّيّ، ناهيك عن شعراء الشيعة بصورة عامَّة، وبهذا سيكون لنا في المحور الآخر، بيان طرائق الحضور الفاطميّ في مدوَّنة الشعر الحِلِّيّ، عبر نماذج انتقائيَّة لأكثر من شاعر، نستهدي بها إلى ما اختطَّه الشعراء في هذا السبيل.

المحور الثاني

طرائق الحضور الزهرائيّ في الشعر الحِلِّيّ

بيَّنَّا فيما سبق، أنَّ تمثيل الرمز الدينيّ في الشعر العربيّ بعامَّة، والحِلِّيّ بخاصَّة، يتأتَّى من كونه يمتلك الخصوصيَّة الثابتة له في النصِّ الدينيّ، ومعلومٌ أنَّ للسيِّدة الزَّهراء مكانةً لم تصلها امرأةٌ، لا من قبلُ ولا من بعد، لما اشتملت عليه من فضائل لا في شخصها الكريم، بل لما اكتسبته أيضًا من شمائل نبويَّةٍ بوصفها ابنة الرسول الخاتم من جهة، ولكونها القرين الكفؤ لابن عمِّ النبيِّ المصطفى، وليس غريبًا أنْ يرفض الرسول مَن تقدَّم لخطبتها من الصحابة، ويوافق على ابن عمِّه حين طلبها منه باستحياء، وقد ورد المأثور أنَّ ذلك الزواج لم يكن إلَّا بإذنٍ وتسديدٍ من السماء[1]، ولأجل ذلك وغير ذلك من المقامات، اكتسبت السيِّدة فاطمة الزَّهراء مكانتها العظيمة في نفوس الشعراء من شيعة آل بيت المصطفى، فكان لهم أنْ يبثُّوا ولاءهم الفاطمي، عبر طريقَين:

---

(١) عن عليّ بن الحسين، عن أبيه قال: **بينا رسول الله في بيت أمِّ سلمة، إذ هبط عليه مَلك له عشرون رأسًا، في كلِّ رأس ألف لسان، يسبِّح الله ويقدِّسه بلغة لا تشبه الأخرى، راحته أوسع من سبع سموات وسبع أرَضين، فحسب النبيّ صلى الله عليه وآله أنَّه جبرئيل، قال: أنا صرصائيل، بعثني الله إليك لتزوِّج النور من النور. فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: مَن ممَّن؟ قال: ابنتك فاطمة من عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فزوَّج النبيّ صلى الله عليه وآله فاطمة من عليّ بشهادة ميكائيل وجبرئيل وصرصائيل. قال: فنظر النبيّ فإذا بين كتفي صرصائيل: لا إله إلَّا الله، محمَّد رسول الله، عليّ بن أبي طالب مقيم الحجَّة، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: يا صرصائيل منذ كم كُتِب هذا بين كتفَيك ؟ فقال: من قبل أن يخلق الله الدنيا باثنتي عشرة ألف سنة.**

الأوَّل: حضورٌ كلِّيّ

ويتجلَّى في القصائد التي يستقلُّ غرضها بعرض سيرتها الزاخرة بالمواقف الشجاعة، ويقف الشاعر على ما عانته بعد رحيل والدها النبيّ الأكرم، من صعابٍ تمثَّلت بما نقله التاريخ لنا في جحود المسلمين من صحابة رسول الله مقامها الطاهر، بردِّ شهادتها حين أتت تُطالب الخليفة الأوَّل بنحلتها من الرسول في أرض فدك، وبما نقله التاريخ في بعض مصادره من إيذاءٍ شخصيٍّ يكشف عن تنكُّرٍ واضحٍ وجحودٍ لما أوصى به الرسول في آله الطاهرين من وجوب المودَّة لهم على أقلِّ تقدير، ومن هنا وقف الشعراء بعامَّة، والحِلِّيُّون منهم بخاصَّة، يستظهرون في قصائدهم كلَّ تلك المآسي التي جرت على ابنة رسول الله، معوِّلين في ذلك على صياغة الأحداث التاريخيَّة التي روتها المصادر التاريخيَّة، بطريقة تجمع بين التمثيل التاريخيّ للحدث، وبين التخييل الفنِّيّ بتوظيف أدوات المجاز من تشبيهات واستعارات وكنايات، تُضفي على النصِّ بهاء الشعر ورونقه، إذ الشعر لا يقوم على استنطاق الحدث التاريخيّ، وإلَّا صار ضربًا من الشعر التعليميّ الذي يتولَّى مهمَّة توثيق الحدث فحسب، بل يقوم على معالجة الحدث التاريخيّ برؤية شعريَّة تعمل على تحريك الوجدان العام للمتلقِّي، بما للشاعر من قُدرة بيانيَّة تُتيح له حريَّةً أكبر في محاكاة الحدث، واستنطاق المسكوت في الخطاب التاريخيّ.

وإذا رصدنا تاريخيًّا تنامي هذا الضرب من الاستدعاء التاريخيّ لشخصيَّة السيِّدة الزَّهراء، فإنَّنا نجد رسوخ النزعة التقليديَّة فيه إلى حدٍّ كبير، وهو أمرٌ طبيعيٌّ يعكس تطوُّر الوعي في المجتمع العربيّ بعامَّة، والعراقيّ بخاصَّة في تلك المدَّة الزمنيَّة، فالوعي الشعريّ يمثِّل جزءًا من الوعي الثقافيّ أو المعرفيّ للمجتمع، ومقدار استجابته لمتغيِّرات العصر، ولـمَّا كان العراق في تلك القرون- وأعني بها القرون المتأخِّرة التي بدأت بسقوط بغداد على يد المغول، وما تلاه من تدهور في جميع مرافق الحياة- أسير القرون

السابقة «لأسباب عديدة نعتقد أنَّ من أبرزها موقعه الجغرافيّ المتطرِّف في الوطن العربيّ، ممَّا جعل آثار التيَّارات الحضاريَّة والفنيَّة تصله متأخِّرةً عن وصولها إلى مصر وبلاد الشام، ثمَّ إنَّ نظرة الدولة العثمانيَّة إليه باعتباره مجرَّد بقرة حلوب لدرِّ المال وجباية الضرائب، يُضاف إلى ذلك تحكُّم الروح القَبَليَّة والتقاليد العشائريَّة في أبنائه لسنوات متأخِّرة من القرن العشرين، واختلاف طوائفه وأديانه ومذاهبه اختلافًا شديدًا [...] كلُّ هذه الأسباب وغيرها كانت مدعاةً لأن تظلَّ ظاهرة الجمود والتأخُّر التي سادت القرون المظلمة»[1]، وعلى أثر تلك الظروف، لا نتوقَّع أنْ ترتقي القصيدة؛ فهي ابنة ظروفها التاريخيَّة والاقتصاديَّة والثقافيَّة، فنجد الشعر الدينيّ وتمثيلاته المتنوِّعة يمثِّل سمة تلكم العصور التي اكتوت بميسم الظلم والاضطهاد، ينحدر هو الآخر فنِّيًّا، ولعلَّ ما سجَّله الشاعر الخليعيّ (ت ٦٥٠هـ) من قصائد دينيَّة بعامَّة، من رثاءٍ أو مدحٍ لأئمَّة أهل البيت، تؤكِّد لنا ذلك التصوُّر، فعلى سبيل المثال نقرأ قصيدته أدناه، وقد كرَّسَها لذكرى السيِّدة الزَّهراء[2]:

زادَ همِّي وشجوني
وجَفانا نومي جُفوني
وبراني الحُزنُ حتَّى
أحرقَ الدمعُ شُؤوني
لاغتصابِ البضعةِ الزهـ
ـراءِ ميراثَ الأمينِ
بأحاديثٍ تُنافي النَّـ
ـنَصَّ في الذكرِ المُبينِ

(١) تطور الشعر العربيّ الحديث في العراق، د. عليّ عبَّاس علوان: ١٦.
(٢) ديوان الخليعيّ: ٦٥-٦٦.

حَـــرَّ قـلـبـي وهـــي بـعـد الـــ
ـــعـــزِّ في ذلٍّ وهُـــــونِ
حـــينَ جـــاءتْ تـطـلُـبُ الإر
ث مـــن الجـــاني الخـــؤونِ
تـــتـــنـــادى في نـــســـاءٍ
مـــن قُـــريـــشٍ بـسُـكـــونِ
ثـــمَّ أنَّـــــتْ أنَّـــــةً، قـلـ
ـــبـي لهـــا بـــادي الأنـــينِ
وتُـــنـــادي أيُّهـــا الأنـــ
ـــصـارُ في أمـــري انـــصروني
فـأنـا الـصـفـوةُ بـنـتُ الـ
ـــمـصـطـفـى لا تُـنـكـروني
وإلـــهُ الـــعـــرشِ يـرضى
لـرضـائـي فـاسـمـعـوني
وكـــذا يـســخـطُ ربي
إنْ بَـغَـوا أنْ يـسـخـطـوني
فـانـهـضـوا في أخـــذِ حـقِّـي
مـــن ظـلـومٍ وانـصـفـوني
واطـلـبـوا لي بُـلـغـةَ الأطـــ
ـــفـالِ مـنـه واسـعـدوني
واتَّـــقـــوا تـعـفـير خـــدِّي
عـنـد ربِّـــي وجـبـيـنـي

إذ يُـــنـــادي عـــنـــد إحـــضـــار
ري بـــإغـــضـــاءِ الجُـــفـــونِ
ويُـــنـــادي: أيـــنَ مـــن خـا
نـــوا أبي واهـــتـــضـــمـــوني
أغـــضـــبـــوا ربِّـــي وبـــالـــقـــتـــ
ـــلِ لِـــولـــدي فـــجـــعـــوني
أيـــنَ مـــقـــتـــولي ومـــســـمـــو
مـــي، هـــلـــمُّـــوا حـــاكـــمـــوني

لا يخفى أنَّ القصيدة تتَّسم بالنزعة الخطابيَّة المباشرة، بما جسَّده الشاعر فيها من حوارات اختلقها بوصفها «لسان حال» السيِّدة الزَّهراء، بما يجعلها قريبةً من وجدان العامَّة من الناس، وتدفعهم إلى مزيد من التفاعل الحسِّيّ الذي درجوا عليه حين سماعهم إنشاد تلك المراثي، ولِما تعمل عليه هذه الحوارات الشعريَّة على تجسيِّد المشهد التاريخيّ، وجعله أكثر قربًا إلى المتلقِّي، ممَّا لو بقي خبرًا ترويه كتب التاريخ، وهي طريقة مألوفة سنشهد لها مصاديق كثيرة في عموم شعر الرثاء المتعلِّق بمصائب أئمَّة آل البيت في هذه العصور المتأخِّرة.

وفي واحدة من تلك القصائد الحِلِّيَّة، نجد الشاعر مغامس بن داغر (توفِّي في القرن التاسع الهجريّ) يتمثَّل الحدث التاريخي، وفقًا للطريقة التقليديَّة المعهودة في سرد وقائع الأحداث، وذلك في قوله منها[1]:

ومـــا أسَّـــسَ الـــعـــدوانَ إلَّا مـــعـــاشرٌ
لـــبـــضـــعـــةِ خـــيرِ المُـــرســـلـــينَ تهـــضَّـــمـــوا

(١) ديوان مغامس بن داغر الحِلِّيّ، صنعه: الدكتور سعد الحدَّاد، راجعه وضبطه ووضع فهارسه: مركز العلَّامة الحِلِّيّ: ١٩٩-٢٠٠.

غـــداةَ أتـــتْ في عـصـبـةٍ مـن نسـائـهـا
تُخـاصـمُ والأبـغـى عـن الحـقِّ تخصـمُ
فـلـمَّا اسـتـبـانـتْ نـسـلَ تـيـمِ بـنِ مـرَّةٍ
مـكـانَ أبـيـهـا يـسـتـطـيـلُ ويحـكُـمُ
فـرنَّـتْ وأنَّـتْ فـاغـتـدى الـكُـلُّ سامعًا
لهـا بـاكـيًـا والـرجـسُ لا يـتـبرَّمُ
فـقـالـتْ لـه: ابـنَ الأجـيـرِ ظلمتَني
تُـــراثَ أبي والحـــقُّ لا يـتـجـمـجـمُ
ولي نِـحـلـةٌ عـنـدي شـهـودٌ ثـلاثـةٌ
عـلـيـهـا وبـعـلي يـا لـكَ الـويـلُ منـهُـمُ
فـأبـطـلَ دعـواهـا وردَّ شـهـودَهـا
ولم يـنـهَـهُ عـمّا تـوخَّـاهُ شِـلَّـمُ
فـقـامـتْ تجُـرُّ الـذيـلَ جـرًّا ودمـعُـهـا
عـلى صـفـحـاتِ الخـدِّ يهـمي ويسـجـمُ
لهـا لَـهَـفـي مـظـلـومـةً أمْ لِـبعـلـهـا
ومـا دفَـنَ الهـادي عـلـيـهِ تـقـدَّمـوا
فـما زالَ مـظـلـومًـا إلى أنْ أراحَـهُ
بـكـفِّ المُـرادِيِّ الحـسـامُ المُـصـمَّـمُ

والقصيدة إنَّما تسير في فلك الأحداث التاريخيَّة التي رسمتها المدوَّنات التاريخيَّة، تلك الأحداث التي لم يكن للسيِّدة الزَّهراء بعد رحيل والدها الرسول الخاتم، غير الحزن، والغصص الأليمة التي تكبَّدتها من كبار صحابة النبي الذين تولَّوا الخلافة، وكان بيدهم زمام أمور المسلمين، وعلى هذه الشاكلة كانت قصائد كثير من شعراء

الحِلَّة، في استعراض ظلامة السيِّدة الزَّهراء، وبيان جحود القوم الذين تناسوا وصيَّة رسولهم في إبداء المودَّة لهم أجرًا لحسن صنيعه فيهم!.

وللشاعر الشيخ حسن الحِلِّيّ قصيدة في رثاء الزَّهراء، تسير على شاكلة البناء التقليديّ لقصيدة الرثاء العربيَّة، إذ يبدأها الشاعر بالوقوف على الأطلال، وبالسؤال عن الأحبَّة الذين فارقوا تلك الربوع، بما أتاح لنفسه الفرصة لكي يسكب الدمع لا على تلك الربوع، وإنَّما على ما يجيش في خاطره من حادثٍ أليم قصد آل البيت بعد رحيل الرسول، متمثِّلًا بالتفاف أصحابه على ابن عمِّه المرتضى، وإقصائه عمَّا أراد له من مقامٍ بعده، وتلا ذلك الفعل ما ألحقوه بزوجه البتول من حرمانٍ لها من ميراث أبيها، فكان للظلم أنْ يتضاعف على هذه الأسرة التي ما فتأ الرسول على مدار حياته المباركة بالتلويح للمسلمين بفضلهم وعظيم مكانتهم، ومن هذه الأحداث انطلق الشاعر ليجمع لنا تلكم المشاهد في قصيدة كرَّسها لهذا الغرض، وهي[1]:

سل أربعًا فطمت أكنافها السحبُ
عن ساكنيها متى عن أُفقها غربوا
وقائلٍ لي رفَّه عن حشاك ولي
وجدٌ إذا ما نزا بالقلب يضطربُ
فقلت لم يشجني نأي الخليط ولا
ربع محت رسمه الأعوام والحقبُ
لكن أذاب فؤادي حادث جللٌ
تُنمى إليه الرزايا حيت تنتسبُ
يوم قضى المصطفى في صحبه وعلى الـ
أعقاب من بعده أصحابه انقلبوا

(١) أدب المحنة: ٤٦٦، الكوثر في أحوال فاطمة عليها السلام بنت النبي الأعظم صلى الله عليه وآله: ٦/ ٥١.

قـادوا أخـاه ورضُّـوا ضلع بضعتهِ
بجورهم ولها البغضاء قد نصبوا
لـم أنسها وهـي تـنعاه وتـندبه
وقلبها بيد الأرزاء ملتهبُ
تقول: يا والـدي ضاق الفضاء بنا
لمَّا مضيتَ وحالت دونك التربُ
قـد كـان بعـدك أنـباء وهـنبـثـةٌ
لـو كـنـتَ شاهـدها لم تكثر الخطبُ
إنَّـا فقدناك فقد الأرض وابلها
واختلَّ قومك فاشهدهم فقد نكبوا
نـفـوا أخـاك عـليـًا عـن خلافته
وشيخ تيم عنادًا منهم نصبوا
ويـلٌ لهم نبذوا القرآنَ خلفَهم
ومزَّقوه عنادًا بئس ما ارتكبوا
ما راقبوا غضب الجبَّار حين إلى الـ
ـمختار أحمد قول الهجر قد نسبوا
ألغوا وصاياه في أهليه وانتهبوا
ميراثه وإلى حرمانهم وثبوا
جاروا على ابنته من بعده فغدت
عبرى النواظر حزنًا دمعها سربُ
وجرَّعوها خطوبًا لو وقعن على
صمِّ الجبال لأضحت وهي تضطربُ

أبضعة الطهر طه نصب أعينهم
بالباب يعصرها الطاغي وما غضبوا
رضُّوا أضالعها، أجروا مدامعها
أدموا نواظرها، ميراثها غصبوا

ومثل هذه القصيدة عشراتٌ من القصائد التي يستنطق الشعراء فيها الأحداث التاريخيَّة، ويتحدَّثوا بلسان الحال عن رموز الإسلام الأوائل، ومن الواضح أنَّ استنطاق الرموز والتحدُّث بلسان الحال، أتاح للشعراء أنْ يسيحوا طولًا وعرضًا في متخيَّلهم الدينيّ القارّ عن تاريخ تلكم الرموز، والتفصيل في كلِّ صغيرة أو كبيرة ذكرها التاريخ أو لم يذكرها ولكنَّها تتَّفق والعاطفة التي تغذِّي ذلك المخيال وتتنفَّس هواءه، وهذا شأن كل الجماعات المُهمَّشة، إذ تعيش التاريخ وتتخندق في تفاصيله؛ لتعوِّض ما تعانيه في واقعها من ضغوطات لا تجد لها متنفَّسًا إلَّا عبر ذلك التمثُّل الثقافي المعبِّر عن هويَّتها، والصادر عن توجُّهات العقل الجمعيّ الذي يرسِّخ وجودها بين الجماعات الأخرى.

ولو طوينا مدَّةً من الزمن بين الشاعر مغامس بن داغر، وصولًا إلى الشيخ صالح الكوَّاز (ت ١٢٩٠هـ)، فإنَّنا نجد النبرةَ نفسها، مع شيءٍ يسير في التقاط المشاهد التاريخيَّة:

الواثبين لظلم آل محمَّدٍ
ومحمَّد ملقى بغير تكفينِ
والقائلين لفاطم آذيتنا
في طول نوح دائم وحنينِ
والقاطعين إراكة كيما تقيل
بظل أوراق لها وغصونِ

ومجمعي حطب على البيت الذي
لم يجتمع لولاه شمل الدين
والداخلين على البتولة بيتها
والمسقطين لها أعز جنين
والقائدين إمامهم بنجاده
والطهر تدعو خلفهم برنين
خلوا ابن عمي أو لأكشف للدعا
رأسي وأشكو للإله شجوني
ما كان ناقة صالحٍ وفصيلها
بالفضل عند الله إلَّا دوني
ورنت إلى القبر الشريف بمقلة
عبرى وقلب مكمد محزون
قالت وأظفار المصاب بقلبها
أبتاه قل على العداة معيني
أبتاه هذا السامري وصحبه
تبعا ومال الناس عن هارون
أي الرزايا اتَّقي بتجلدٍ
هو في النوائب ما حييت قريني
فقدي أبي أم غصب بعلي حقه
أم كسر ضلعي أم سقوط جنيني
أم أخذهم إرثي وفاضل نحلتي
أم جهلهم قدري وقد عرفوني

قـهـروا يـتـيـمـيـك الحـسـين وصـنـوه
وسـألـتـهـم حـقـي وقـد نهـروني
بـاعـوا بـضـائـع مـكـرهـم وبـزعـمـهـم
ربـحـوا ومـا بـالـقـوم غـير غـبـينِ

نعم، قد يُلاحظ القارئ لهذه القصيدة، ثمَّة تطورًا على نحو التوظيف الفنِّيّ للحدث، وتمطيط الحوار لأجل أنْ تتَّسع القصيدة لمضامين تحمل رؤية الشاعر ومتبنَّياته العَقَديَّة، فكانت القصيدة عبارة عن إسقاط لحواريَّةٍ متخيَّلةٍ في ذهن الشاعر، كانت مضامينها مستقاة من الإرث التاريخيّ الذي يُمثِّل هويَّة الجماعة الموالية لأئمَّة آل البيت، ولكنَّ التفاصيل في نسج تلك الحوارات إنَّما تمثِّل قدرة الشاعر في تخيُّل المشهد عبر ذلك البناء الشعريّ الذي من شأنه تحريك المشاعر وجذبها إلى ساحة الحدث، بما لشخصيَّة الزَّهراء من رمزيَّة دينيَّة فائقة لا يختلف عليها أيُّ فردٍ من المسلمين، بما يُضفي طاقةً حجاجيَّة تدعم أصالة ذلك الرمز، وديمومة الأفكار التي تطرحها الشخصيَّة التي احتفى بها الشاعر في هذه القصيدة، وجعلها قضيَّةً لا تلامس شعور المسلمين فحسب، بل تنطلق إلى رحاب الشعور الإنسانيّ الفسيح.

الآخر: حضور جزئيّ

وفي هذا النمط، يتمثَّل للقارئ استدعاء الرمز الدينيّ للسيِّدة الزَّهراء، في القصيدة التي لم يُكرِّس الشاعر غرضها الأساس في شخصها، مثلما هو معتادٌ في قصائد المدح أو الرثاء، حين يكون الشاعر معنيًّا بإيراد ما للرمز من خصوصيَّة، ويسوق لأجل ذلك ما يتَّصل به من أحداث، بل يتعرَّض لها بصورةٍ أخرى، وذلك في سياق المديح أو الرثاء لرموز إسلاميَّة أخرى لها صلة القرابة النسبيَّة بشخصيَّة السيِّدة الزَّهراء، فمثلًا نجد بعض الشعراء، وهم في سياق الرثاء الحسينيّ، يشيرون من قريبٍ أو بعيد إلى السيِّدة الزَّهراء بوصفها أمَّ سيِّد الشهداء، فيعربون عن بيان عظمة مقام الإمام الحسين؛ لما حازه

من فخرٍ البنوَّةِ لهذه السيِّدة العظيمة، أو ينطلق بهم الخيال، فينسجون من باب التجوُّز في رسم ما سكت التاريخ عنه من مشاهد حزينة ألـمَّت بنساء الحسين وهنَّ يخاطبن الزَّهراء، ويتمنَّين أنْ تكون حاضرة لترى ما وقع عليهنَّ من ظلم، بما يزيد من شحنات الوجد في القصيدة ويُضفي عليها مساحة واسعة من الطقوسيَّة التي يحتفل بها الشيعة في كلِّ محرَّم من السنة الهجريَّة، في سبيل إحياء ذكرى مقتل الإمام، وإقامة العزاء على تلك الذكرى الأليمة؛ ولهذا نجد الشعراء، وهم الحلقة الأهم في إحياء تلك المناسبة، يتفنَّنون بإيراد الصور الشعريَّة من بنات خيالهم، بما يؤجِّج المخيال الجمعيّ لدى جمهور المتلقِّين، ويدفع لمزيد من التفاعل مع تلك المشاهد.

ومن هنا يمكن لنا أنْ نقسِّم هذا الحضور (الجزئي) وفقًا للسياق الذي يردُ فيه، إلى:

رثاء الإمام الحسين:

ويتجلَّى في القصائد التي تناولت رثاء الإمام الحسين عليه السلام، فكان لكثير من الشعراء، في سبيل بيان المظلوميَّة التي وقعت على الإمام الحسين، وما حدث عليه في كربلاء، يستحضروا المكانة السامية التي حازها عند نبيِّ الإسلام من أقوالٍ وأفعال، ومنها ما لوالديه المقرَّبَين إلى الرسول، فوالده ابن عمِّ النبي وصاحب القِدح المعلَّى من الفضائل التي شهد له بها الرسول والمسلمون أجمع منذ صباه وإلى حين استشهاده، ووالدته البضعة الطاهرةُ الزكية ابنة رسول الله التي قال فيها ما قال من أحاديث تكشف الشأن العظيم لمقامها، ولأجل ذلك، كان الشعراء بعامَّة، والحِلِّيُّون منهم بخاصَّة، يقفون عند هذه القيمة العظيمة، باستذكارهم تلك المقامات الشريفة التي حازها شخص الإمام الحسين، في سياق يكشف خسَّة الطرف الآخر الذي لم يضع في حسبانه كل تلك المقامات وهو يحارب الإمام الذي طالما كان الحبيب إلى الرسول ووالديه، ومن الواضح أنَّ من يجرؤ على ذلك الفعل الإجراميّ الشنيع، بقتل الإمام واستباحة دمه وعرضه،

لا يعني له شيئًا ما ينصُّ عليه الدين، فضلًا عمَّا صدر من الرسول بوجوب المودَّة لآل بيته بوصفها جزءًا على أداء الرسالة لهم، فهم في الحقيقة لم يكونوا غير مسلمين في الظاهر، وفي الواقع كان ذلك الجرم الشنيع الذي صدر منهم يُدلِّل على كفرهم بالدين الإسلامي!.

وقد لا نستطيع حصر الشواهد التي تمثِّل هذا النموذج؛ لكثرتها في شعر الحِلِّيِّين، ومن تلك النماذج، قول الشاعر محمَّد بن نُفيع الحِلِّيّ (كان حيًّا سنة ٨٣٩هـ)، وهو يُخاطب شهر المحرَّم[١]:

أيا شهرَ عاشوراءَ أسهرتَ مُقلتي

وأورثتني حُزنًا إلى يوم حُفرتي

لقتلِ ابن بنتِ المصطفى فيك ظامئًا

جريحًا بأسيافٍ لآلِ أُميَّةِ

ونلاحظ أنَّ الشاعر، قد اختزل شخص الإمام الحسين بكنيته (ابن بنت المصطفى)، معرِّفًا بحجم المصاب العظيم الذي حلَّ به، ومعلومٌ أنَّ المصاب يتناسب طردًا من حيث الفداحة مع عظمة الشخصيَّة التي يقع عليها.

ويتكرَّر الأمرُ نفسه، حين نطالع ما كتبه الشاعر الحسن بن راشد الحِلِّيّ (كان حيًّا سنة ٨٣٦ هـ) في ضمن قصيدةٍ له انصبَّ غرضها في رثاء الإمام الحسين، وذلك في قوله مُشيرًا إلى مكانة الإمام من حيث النَّسب[٢]:

سليلِ حيدرٍ الهادي وفاطمة الـ

ـزَّهراء أفضلَ سبطَي خاتمِ الرُسُلِ

---

(١) ديوان الشيخ محمَّد بن نفيع الحِلِّيّ، جمع وتحقيق: د. سعد الحدَّاد، راجعه وضبطه: مركز العلَّامة الحِلِّيّ لإحياء تراث حوزة الحِلَّة العلميَّة، ط١، ٢٠١٧م: ٤١.

(٢) ديوان الحسن بن راشد الحِلِّيّ، جمع وتحقيق ودراسة: د. عبَّاس هاني الجرَّاخ، بمساعي واهتمام مركز العلَّامة الحِلِّيّ لإحياء تراث حوزة الحِلَّة العلميَّة، ط١، ٢٠١٨م: ٧٦.

نـــورٌ تـكـــوَّنَ مـــن نُـــوريـــنِ ذاتُهُـــما

مـن جـوهـرٍ بـمـحـلِّ الـقـدسِ مُـتّـصـلِ

أو في قصيدة أخرى، يشير إلى هذه الخصوصيَّة التي كانت للإمام الحسين متمثِّلةً بعلوِّ شأن النسب الذي ينتمي إليه من جهة الأب والأم، فيقول:

هـذا ابـنُ فـاطـمـةٍ، هـذا ابـنُ حـيـدرةٍ

مـهـلًا بـه، لـن يـفـوتَ الـقـصـدُ بـالمَـهَـلِ

وعلى هذه الشاكلة، جرى رعيلٌ من شعراء الحِلَّة، بالمرور عَرَضًا على مقام السيِّدة الزَّهراء، وهم في رثائهم الحسين، مُعربين في ذلك المرور، عن المكانة الرمزيَّة التي يمثِّلها مقام الإمام الحسين، ورمزيَّة إسلاميَّة عالية الشأن، تفضي بأنْ ينال إزاءها الاحترام والتقدير عند المسلمين بعد رحيل الرسول الخاتم، وأنْ يؤدُّوا حقَّه الذي طلبه منهم، متمثِّلًا بالمودَّة لقرباه، ورعايتهم، أجرًا على الرسالة التي أنقذتهم من وهدات الضلالة ومزالق الغيّ والانحلال فيما لو بقوا على نزعاتهم الجاهليَّة، ولأجل بيان المفارقة في موقف الرسول الكبير في إرشاد العالمين إلى ما فيه خير الدَّارَين، وإلى موقفهم، وأعني بهم أولئك الذين وقفوا بوجه الإمام الحسين، ونصبوا له العداوة باصطفافهم مع الباطل متمثِّلًا بيزيد، في نُكران ذلك الموقف العظيم للرسول، ومقابلته بالجحود والإساءة لذريَّته الطاهرة، وكأنَّ كِلَا الموقفَين «على طَرَفَي نقيض من بعض، والإشكاليَّة تكمُنُ عبر الجمع بينها، وهو ما يستدعي تفاعلًا دلاليًّا مُعيَّنًا»[1]. ومن أولئك الشعراء ابن العرندس (ت ٨٤٠ هـ) في قوله واصفًا عَظَمة الحسين في سيرته الصالحة ونسبه الوضَّاح، من قصيدةٍ له[2]:

(١) الإشارة الجماليَّة في المثل القرآنيّ، د. عشتار داود محمَّد، منشورات اتِّحاد الكتَّاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥م: ١٦٥.

(٢) ديوان ابن العرندس الحِلِّيّ (ت ٨٤٠هـ)، تحقيق: الدكتور عبَّاس هاني الجرَّاخ، بمساعي واهتمام مركز العلَّامة الحِلِّيّ، ط١، ٢٠١٩: ٩٤.

الـصـائـمُ الـقـوّامُ والمـتـصـدِّقُ الـ
ـمـطـعـامُ أفـرسُ مَـنْ عـلى فـرَسٍ علا
رجـلٌ بـصـيـوانِ الـغـمـامـةِ جـدُّهُ الـ
ـمـخـتـارُ في حـرِّ الهـجـير تـظـلّـلا
وأبـوهُ حـيـدرةُ الـذي بـعـلـومـهِ
وبـفـضـلـهِ شَرَحَ الـكـتـابَ تـفـصُّـلا
والأمُّ فـاطـمـةُ المـطـهَّـرةُ الـتـي
بـالمـجـدِ تـاجُ فـخـارِهـا قـد كُـلِّـلا
نـسـبٌ كـمُـنـبـلـجِ الـصـبـاحِ يـزيـنُـهُ
حـسـبٌ شـبـيـهُ الـشـمـسِ زاهـي المُجتلى

ولا يخفى أنَّ الشاعر في آخر بيت، يُصرِّح بالغاية التي ساقتها لاستعراض ذكره من يمتُّ إليهم المرثيُّ «الإمام الحسين» في قصيدته بصورةٍ مباشرة، وذلك لبيان تلك المكانة العظيمة التي لا يمكن تجاهلها أو التغاضي عنها، لكلِّ من يجرؤ على هذا الفعل الشنيع بحقِّ هذا الإمام العظيم نسبًا وسيرةً طاهرة، إلَّا إذا اعتقدنا جزمًا أنَّ من أقدم على ذلك الفعل لا يضع لكلِّ تلك المقامات أيَّ اعتبار أو أهميَّة، لكفره بذلك الدين ومحاربته له ولكلِّ من يمثِّله من رموز كان لها الأثر العظيم في إرساء مبادئه ونشرها بين الناس.

أمَّا ورد في رائيَّته الشهيرة، فهو أيضًا ينتظم في هذا النمط «الجزئيّ»، ولكن بشيء التفصيل مرَّ عليه في أكثر من موضع من القصيدة، فقد أشار في «المشهد الأول» لحضور الزَّهراء الرمزيّ، إلى عظيم المأساة التي حلَّت على الإمام الحسين في كربلاء، ملفِتًا إلى مقامه الرمزيّ عند المسلمين، بوصفه ابن السيِّدة الزَّهراء أم أبيها رسول الله، وابن ربيب رسول الله، والمضحِّي بين يديه على مدى سنيِّ الدعوة المباركة، وذلك بقوله[1]:

(١) ديوان ابن العرندس الحِلِّيّ: ٧٧.

أيُقتَلُ ظمآنًا حُسينٌ بكربلا
وفي كلِّ عضوٍ من أناملهِ بحرُ
ووالدُهُ الساقي على الحوضِ في غدٍ
وفاطمةٌ ماءُ الفراتِ لها مهرُ

ولأنَّ القصيدة استوعبت التفاصيل في عرضِها واقعة عاشوراء، فكان للشاعر أنْ يجنح إلى رسم أبعاد تلك المأساة، في ما سيؤول إليه العباد في العالم الآخر، وهنا كان للشاعر، أنْ يستقي من الموروث الإسلاميّ «الشيعيّ بخاصَّة»، وينسج على منواله صورة السيِّدة الزَّهراء واقفةً بين يدي خالقها الذي «يرضى لرضاها ويغضب لغضبها»، بحسب ما ورد في الأحاديث عن الرسول الكريم[1]، مطالبةً بالقصاص من قَتَلة ابنها، رافعةً قميصه الملطَّخ بالدماء دليلًا على تلك الجريمة، وذلك في قوله منها[2]:

فويلُ يزيدٍ من عذابِ جهنَّمِ
إذا أقبلتْ في الحشرِ فاطمةُ الطُّهرُ
ملابسُها ثوبٌ من السُّمِّ أخضرُ
وآخرُ قانٍ من دمِ السبطِ مُحمَرُّ
تُنادي وأبصارُ الأنامِ شواخصٌ
وفي كلِّ قلبٍ من مهابتها ذُعرُ
وتشكو إلى الله العليِّ وصوتُها
عليٌّ، ومولانا عليٌّ لها ظهرُ
فلا ينطِقُ الطاغي يزيدُ بما جنى
وأنَّى له عذرٌ، ومن شأنِهِ الغَدرُ

(١) ينظر: صحيح البخاري: ٥/ ٢١، وصحيح مسلم: ٤/ ١٩٠٢، وسنن ابن ماجة: ١/ ٦٤٣.
(٢) ديوان ابن العرندس الحِلِّيّ: ٨٢.

وقد لا نجد هذا التفصيل، عند غيره من الشعراء إلَّا في النادر، إذ الكثير قد جعل ذِكر السيِّدة الزَّهراء، بمثابة المقدِّمة التي يتَّكئ عليها في بيان عظيم المنزلة التي نالها الإمام الحسين، وليؤسِّس في الأذهان، أنَّ من حارب الإمام ولم يرعَ حرمته، لا يمتُّ إلى الإسلام بصلة، وإلَّا كان له أنْ يرعى فيه تلك الخصوصيَّة بوصفه ابنًا لمن كانت المرضيَّة عند والدها رسول الله، أمَّا الشاعر- ابن العرندس- فقد خصَّص جزءًا من مشاهد القصيدة الحسينيَّة في الوقوف على ما يربط الحدث الحسينيّ الجلل بوالدته المحزونة لما حلَّ بابنيها- الحسن والحسين- من أحداثٍ جسام، وهذا ما يمثِّل انتقالةً في بناء القصيدة الحسينيَّة، فيه من التفريع على الحدث بأحداثٍ ورد الإخبار عنها في المرويَّات الإسلاميَّة، تؤكِّد ما للسبط الشهيد من خصوصيَّةٍ عند جدِّه ووالديه.

وفي مشهدٍ آخر، يترسّم ابن العرندس خُطى دعبل الخزاعي في تائيته الشهيرة، باستدعاء السيِّدة الزَّهراء إلى مشهد الحدث، ولكن عبر نداءات النساء اللاتي حضرن الفاجعة، فكنّ يستصرخنَ ويندبنَ مصاب الإمام، ويرتجين أنْ يعود الزمان بمن مضوا من والدٍ - أمير المؤمنين- أو والدة - السيِّدة الزَّهراء- بما يثير النفوس ويُشجي القلوب، فكان من حصّة «أم كلثوم» أنْ يصوغ الشاعرُ على لسانها، خطابًا تتوجّه به إلى أمِّها الزَّهراء، فتقول[1]:

وتستغيثُ إلى الزَّهراءِ فاطمةٍ
بنتِ النبيِّ، ودمعُ العينِ كالمُزُنِ
يا أمُّ قومي من الأجداثِ نادبةً
على الحُسينِ مقيمِ الفرضِ والسُنَنِ
يا أمُّ قومي انظُري رأسَ الحسينِ أخي
كالبدرِ يُشرقُ فوقَ الذابلِ اللدُنِ

(١) ديوان ابن العرندس: ١٢٥.

يا أمُّ قومي انظُري جسم الحسينِ أخي
مُلقىً رميلًا بلا غُسلٍ ولا كفنِ
يا أمُّ قومي انظري السجّادَ معتقلا
يُساقُ نحو يزيدِ الفاجرِ اللكِنِ

ومن الواضح أنَّ الشاعر درجَ على ما هو مُعتادٌ لدى الشعراء في عصرهم، ممَّن ورثوا طريقة بناء قصيدة الرثاء الحسينيَّة على وفق ما يستمدُّه من مخيَّلته الشعريَّة من أحداثٍ أو أقوالٍ، لعلَّ أكثرها لم يصدر نصًّا، ولكنَّه لأجل أنْ تكون القصيدة مدعاةً لاستدرار الدموع، تجدهم يتفنَّنون في توظيف تلك المخيَّلة لهذا الشأن، لاسيما أنَّ مطلع القصيدة التي اقتطفنا منها هذه الأبيات، قد بدأه الشاعر بقوله[1]:

نُوحوا أيا شيعةَ المولى أبي الحسنِ
على الحسينِ غريبِ الدارِ والوطَنِ

فهي دعوة صريحة لاستدرار الدموع والنوح على مصيبة الحسين، وما تعرَّض إليه من مآسٍ في سبيل إعلاء كلمة الحقِّ، ومقارعة الباطل في عصره.

ويلاحَظ على هذا الحضور الجزئيّ، أنَّ الشاعر فيه لا يتوسَّع في ذِكر ما للزَّهراء من مناقب، إلَّا بقدرٍ ضئيل يصبُّ في بيان قيمة الإمام الحسين الذي يُعدُّ الغرض الأساس للشاعر، بوصفه ابن بنت رسول الله، ولعلَّ الشاعر الحافظ رجب البرسيّ الحِلِّيّ، يُعدُّ الوحيد، بحسب ما استقرأناه من قصائد في هذا الشأن، ممَّن أطال الوقوف بيانًا لمقام السيِّدة الزَّهراء، وهو في سياق رثاء الإمام الحسين، وذلك في قصيدته التي مطلعها[2]:

دمعٌ يُبدِّدهُ مقيمٌ نازحُ
ودَمٌ يُبدِّدهُ مقيمٌ نازحُ

(١) ديوان ابن العرندس: ١٢١.
(٢) ديوان الحافظ رجب البرسيّ الحِلِّيّ: ٦١.

ففي هذه القصيدة، استطرد الشاعر، مثل عادة شعراء عصره، في ذكر ما للدَّهر من نكبات عليه، وما يقاسيه من غربة، ثمَّ يُعرِّج على ما تعرَّض له الإمام الحسين من غدر الزمان، وهو الإمام الذي له من المزايا العظيمة في سيرته الطاهرة، وفي نسبه الميمون، وبعد أنْ يقف على بيان فضائل جدِّه وأبيه، يقف عند والدته سيِّدة النساء، بقوله[1]:

والأمُّ فاطمةُ البتولُ وبضعةُ الـ
ـهادي الرسولِ لها المهيمنُ مانحُ
حوريّةٌ إنسيّةٌ لجمالها
وجلالها الوحيُ المنزِّلُ شارحُ
ذاتُ البها والعزِّ والشرفِ التي
شرُفَ المديحُ بها وعزَّ المادحُ
أُمُّ الأئمةِ من قريشَ فما بهم
إلا هلالٌ في الدُجُنّةِ جانِحُ
وحليلةُ المولى الذي نالَ الهدى
من فيضهِ الغادي له والرائحُ

وهنا لم نجد الشاعر، قد خرج عن إطار استعراض الفضائل التي حازتها السيِّدة الزَّهراء، ومعلومٌ أنَّ الغرض من ذلك، كما أشرنا إليه من قبل، يتمثَّل ببيان المفارقة بين عظيم المقام الدينيّ الذي خصَّ الله به الإمام الحسين من جهة النسب الطاهر الذي يُنمى إليه، وبين ما حلَّ عليه من ظلمٍ وإيذاء، وجحدٍ لمقامه المعنويّ الكبير بين المسلمين إنْ كانوا حقًّا يمتثَّلون لدين الإسلام، وبهذه المقارنة، يتعالى منسوب الحُزن على مصابه في نفوس مواليه ممَّن يُحيون عزاءه كلَّ عام، وهذه الطريقة التي جرى عليها أغلب الشعراء،

(١) ديوان الحافظ رجب البرسيّ الحِلِّيّ: ٦٩.

لم تكن بدعًا عن الأحاديث والأخبار التي انتظمت في سياق بيان عظيم المصاب على الإمام الحسين، وما جرى عليه من أهوال في يوم عاشوراء.

وإذا أخذ الشعراء في مضمار استحضار ما للزَّهراء من مقامات معنويَّة حفلت بها المرويَّات بإجماع المذاهب الإسلاميَّة، فقد كان لشعراء آخرين طريقٌ آخر في تناول الرمز الزهرائيّ، وهم يرثون الإمام الحسين، وذلك عبر استنتاجاتٍ قامت على فرضيَّة منطقيَّة مفادها «النتيجة تبعٌ لأخسِّ المقدِّمات»، ووفقًا لهذه الفرضية، وجدوا أنَّ كلَّ ظلمٍ واعتداء وقع على الإمام الحسين، إنَّما هو نتيجةٌ طبيعيَّة لتلك الاعتداءات والظلامات التي وقعت على السيِّدة الزَّهراء، فيما روته أخبار الموالين لهم، وقد لا يهمُّ الباحث الخوض في البحث عن مضامين تلك الأخبار، بقدر ما يهمه البحث عن كيفيَّة تطويعها فنِّيًّا لتؤدِّي غايتها في إثارة المتلقِّي، وتحشيد أعلى قدرٍ من الوجدان المتَّقد حزنًا على تلك المصائب، ومن تلك النماذج، ما قاله الشاعر الشيخ صالح الكوَّاز[1]:

لــولا ســقــوطُ جـنـين فـاطـمـةٍ لما
أودى لهـا في كـربـلاء جـنـينُ
وبـكـسر ذاك الـضـلـعِ رُضَّـت أضـلـعٌ
في طـيِّـهـا ســرُّ الإلـــه مـصـونُ
وكـــذا عـــليٌّ قـــودُهُ بـنـجـادِهِ
فـلَـهُ عـليٌّ بـالـوثـاقِ قـريـنُ
وكـما لِـفـاطـمَ رَنَّـةٌ مـن خـلـفـهِ
لِـبـنـاتِـهـا خَـلـفَ الـعـلـيـلِ رنـينُ
وبـزجـرِهـا بـسـيـاطِ قُـنـفـذَ وُشِّـحـتْ
بـالـطـف مـن زجـرٍ لَـهُـنَّ مُـتـونُ

(١) ديوان الشيخ صالح الكوَّاز: ٤٨.

وبقطعهِم تلكَ الاراكةَ دونَها
قُطِعَتْ يَدٌ في كربلا ووتينُ

ولا يخفى ما لهذه المقابلات التي عقدَها الشاعرُ من إيجاد الأشباه والنظائر لكلِّ ظلمٍ وقع على السيِّدة الزَّهراء، وبعلها أمير المؤمنين، ومقارنته بما وقع على أولادهم في عاشوراء فيما بعد، بما يضع المتلقِّي في صورة منطقيَّة لا تقبل النقض، مفادها رفض الباطل ممثَّلًا بكلِّ من عادى عليًّا وزوجته البتول؛ لأنَّه- الظلم- المؤسِّس لما أنتجه من ظلامات بحقِّ أبنائهما فيما بعد، ولا يمكن بحال النظر إلى الظلم الذي وقع على السابقين أو على اللاحقين بمعزلٍ عن الآخر، فهو واحدٌ لا يتجزَّأ بحال.

استنهاض الإمام الحجّة

تحدَّث الدكتور إبراهيم الوائليّ عن الظروف السياسيَّة والتاريخيَّة والاجتماعيَّة التي دعت الشعراء الشيعة إلى استنهاض الإمام الغائب في عقيدتهم- وأعني بها تلك القصائد التي كرَّسها الشعراء بما يحملونه من عقيدة في الإمام الثاني عشر للمذهب الشيعيّ، بطلب الظهور وإعلان دولة الحقِّ الإلهي- بما لا مزيد عليه[1]، وهنا نجد الشعراء يتفنَّنون في عرض مختلف المآسي التي جرت على آل بيت رسول الله، بما تستوجب أنْ ينهض الإمام بأعباء القيام وإعلان الظهور، ومن تلك المآسي التي رآها الشعراء بوصفهم الناطق عن ضمير الجمِّ الغفير من عامَّة موالي المذهب الشيعيّ، ما حلَّ بالسيِّدة الزَّهراء من مصائب، ومن الأمثلة على ذلك، قول الشاعر الخليعيّ[2]:

ألا يا سميَّ المصطفى وابن بنته
ويا خيرِ مأمولٍ وخيرَ مُتمَّمِ

(١) ينظر: الشعر السياسيّ العراقيّ: ١٨١-١٨٦.

(٢) ديوان الخليعيّ، تحقيق وتذييل: د. سعد الحدَّاد، ط١، دار الضياء للطباعة والتصميم، النجف الأشرف، ٢٠١٠م: ٤٦.

ثمَّ يذكر الزَّهراء بعد مناداته له بابنها، مناشدًا إيَّاه في إعلان الدولة التي ينتظرها الشيعة، ويرتقبون يوم ظهورها قويَّةً تأخذ الثأر من المعتدين على أئمَّة أهل البيت ووالدتهم الصدِّيقة الزَّهراء، وذلك في قوله:

وقُـــم وأعِـــدهـــا دولـــةً فـاطـمـيَّـةً
وخُـذ لـلـبـتـولِ الـطُـهـرِ مـن كـلِّ مُجـرمِ

ولا يخفى ما في هذا البيت من ترميز لقيام دولة العدل بوصفها «الدولة الفاطميَّة»، بالكناية عن هذه الصفة «الفاطميَّة» التي تمثِّل حُلم المستضعفين ممَّن طالهم الظلم، بدءًا من ظلامة الزَّهراء، وانتهاءً إلى ما وقع على شيعتها من ظلم الحكومات الجائرة باسم الإسلام، ولأنَّ اختزال صفة الدولة بالفاطميَّة يؤكِّد هويَّة الانتماء الإنسانيّ لهذه الدولة التي من شأنها إماطة الظلم، وتحقيق العدل.

وبعد ذلك يستعرض إجمالًا ما يُوجب النهوض المهدويّ لإقامة تلك الدولة، من أحداثٍ جسامٍ ونكباتٍ لحقت نسل النبيّ من ابنته الزَّهراء، ومن ثمَّ يهدي ما نظمه من شعرٍ لهم، مفصحًا عن ولائه المحض لهم، ومعاداته لمن ظلمهم وآذاهم بالقول والفعل:

إلـيـكـم بـنـي الـــزَّهـــراءِ أهـــدي قـلائـدًا
أرصِّـــفُـــهـــا مـــثـــلَ الجـــمانِ المُـنـظَّـمِ
أُسِرُّ بـهـا الـــســـاداتِ مـــن أولـيـائـكـم
وأُنـــفِـــذُ في أعـدائـكـم زُرقَ أسـهُـمِ

وهو سياقٌ مُتَّبعٌ لدى كثير من شعراء تلكم العصور، بما يشبه القوالب الجاهزة في بناء القصيدة الولائيَّة في حقِّ آل البيت، مدحًا أو رثاءً أو استنهاضًا، مع تداخلٍ في بعضِ تلك الأغراض، وعدم اشتراط استقلال كلِّ واحدٍ منها، لاسيما فيما اصطُلِحَ عليه بالاستنهاض.

وفي إحدى قصائد الاستنهاض للشاعر حيدر الحِلِّيّ، كان له أنْ يستعيد أحداث التاريخ، من مصائب جِسام جرت على آل البيت بعد رحيل الرسول، بما يبعث على النهوض، وعدم السكوت على الظلم، ولأنَّ الظروف السياسية ممثَّلة بسياسة العسف والجور التي تنتهجها السلطة العثمانيَّة مع الشيعة بالخصوص، كانت على أشدِّها آنذاك، جعل الشاعر مثل غيره من شعراء عصره وطائفته، يستعرضون تلك الظلامات التي تعرَّض لها رموز المذهب؛ لتأكيد هويَّة المذهب التي تشكَّلت على مرِّ التاريخ عبر تلك المآسي، بدءًا بما حلَّ على الإمام عليّ من إجحافٍ بحقِّه فيما يخصُّ مسألة الخلافة بعد الرسول وتزامن معها، ما تعرَّضت له السيِّدة الزَّهراء من إجحاف باغتصابها «فدك» التي وهبها لها والدها الرسول، الأمر الذي يبعث الشاعر على إثارة الأحداث، بوصفها «الأرشيف» الذي يوثِّق انتهاك السلطة المتلبِّسة رداء الإسلام زورًا وبهتانًا، لرموز المذهب وأتباعهم، بما يراها أسبابًا جديرةً لقيام الإمام الغائب، وذلك في قوله منها[1]:

أيُصبِحُ فيكُم بلا عاضدٍ
«وصيُّ الرسولِ» ولا وازرِ
وقَهرًا إلى «شيخِ تيمٍ» يُقادُ
بكفِّ ابن «حنتمةَ» العاهرِ
وتُبتَزُّ «فاطمةٌ» بينكم
نُحيلَتُها من «أبي الطاهر»
وأنتُم حُضورٌ ولم تغضبوا
فيا بُؤسَ للملأِ الحاضرِ

إلى آخر الأبيات التي تنتقي من تلك الأحداث التاريخيَّة ما يؤكِّد وقوع الظلم بحقِّ

(١) ديوان السيِّد حيدر الحِلِّيّ، تحقيق: الدكتور مضر سليمان الحِلِّيّ: ١٠٨.

رموز آل البيت، واستمراره الآن في شيعتهم.. ويلاحظ القارئ مدى ما يبعثه الشاعر من مشاعر الغيرة على الإسلام ورموزه، مُخاطبًا أولئك الذين عاشوا تلك الأحداث، بصيغة الاستفهام المشوب بالتعجُّب من ذلك البرود، ومن الواضح أنَّ في الاستنكار على روحيَّة الهزيمة لمن عايشوا تلك الأحداث، يُراد من ورائه استنكار من يقف متفرِّجًا على الظالم يبطش بالمسلمين من الشيعة، من دون أنْ يحرِّك ساكنًا، وكأنَّ «القوم أبناء القوم»!.

وفي قصيدةٍ أخرى، ترتفع فيها نبرة الحماس على قيام الإمام الغائب بالأمر، يشير إلى ما تعرَّضت إليه الزَّهراء من إسقاطٍ لحملها، وذلك في قوله[1]:

فلا وَصفحك إنَّ القوم ما صفحوا

ولا وحلمك إنَّ القوم ما حلموا

فحمل أمّك قدما قد أسقطوا حنقًا

وطفل جدك في سهم الردى فطموا

وهنا كانت الإشارة خاطفة إلى هذا الحدث الجلل، ولكنَّه كافٍ للتدليل على فداحة الحدث، واستحقاقه الإدانة من كلِّ غيور على الإسلام، ومثلها كثيرٌ في شعره، متَّخذًا في كلِّ ذلك «من العقيدة مجالًا للانتفاض، فيصرخ ويحتدم ويشتدُّ غضبُهُ، ويُحيلُ الدنيا كلُّها إلى غضبٍ وثورة، ولكنَّه لا يعدو الواقع فيما يُصوِّر من الظلم والعسف اللذَين اشتدَّا مع السكَّان، حتَّى صاروا كالأنعام بأيدي الجزَّارين»[2].

الشكوى

وغرَض الشكوى من الأغراض المطروقة في الشعر العربيّ قديمه وحديثه، ويُعرَّف هذا الغرض بما يبثه الشاعر «صاحب الشكوى إلى الآخرين من المعاناة، وهي إلى هذا

(١) ديوان السيِّد حيدر الحِلِّيّ: ١٥٢.

(٢) الشعر السياسيّ العراقيّ في القرن التاسع عشر: ١٩٢.

تعكس لنا خوف الشاكي من الإخفاق في تكوين علاقات متوازنة مع الواقع، كما أنَّها تكون بسبب وجود خلل ما في المجتمع، وما قد يطرأ على العلاقات الإنسانيَّة الرفيعة من الانحراف في بعض الأحيان، وهي وليدة الحرمان، والظلم الاجتماعيّ، والسياسيّ، وانعدام حياة العدل، والمساواة، والشعور بالحيف، وعدم الوفاء، وهي بعد ذلك صرخةُ تعبيرٍ عن العواطف المحرومة، ومظهر للاضطراب النفسيّ، والتشاؤم الذاتيّ»[1]. وتأتي الشكوى في أحيان كثيرة في ضمن قصائد الرثاء أو المديح أو الهجاء أو الغزل، وفي أحيان أُخر يأتي مستقلًّا، وتمتاز قصيدة الشكوى بعرض ما يعبِّر عن محنة الشاعر وضيق حاله، أو سوء ما لقيه من الزمان، كذلك نجد في قصيدة الشكوى تخبُّطًا في وجدان الشاعر بين آمالٍ عقدها على ما كان يطمح إلى تحقيقه، وبين قناعةٍ وزهدٍ عن كلِّ ما حوله، باستعراضه ما وقع على السابقين من أفاضل لم تكن الدنيا باسمةً في وجوههم، بل كانت شديدة الوطئ عليهم، وبهذا الاستعراض، يهوِّن على الشاعر «الشاكي» ما تعرَّضَ إليه من غِيَرِ الزمان، وطوارق الحدثان، ومن الأمثلة على ذلك، قول الشاعر محمَّد عليّ اليعقوبيّ، في إحدى قصائده التي مطلعها[2]:

تـــرك الـصـبـا لـــك والـصـبـابـة
صـــب كـــفـــاه مـــا أصـــابـــه
أنـــســـتـــه أيـــــام المـشـيـب
هـــــوى بـــه أفـــنـــى شـبـابـه
أو بـعـد مـا ذهـــب الـشـبـاب
مـــــودعًـــا يـــرجـــو إيـابـــه

(١) الشكوى في الشعر العربيّ حتَّى نهاية القرن الثالث، ظافر عبد الله عليّ الشهريّ، رسالة دكتوراه، جامعة أمّ القرى، ١٩٩٠م: ٤.
(٢) أدب المحنة: ٥٣٩-٥٤١

وسرى بـــه حـــادي الـلـيـالي
لـــلـــردى يحـــدو ركـــابـــه
هـــيـــهـــات دأبـــك في الهـــوى
لم يحـــك بـعـد الـيـوم دأبـــه
لـــيـــس الخـــلي كـــمـــن غـــدا
رهـــن الجـــوى حـلـف الـكـآبـة
مـــا شـــاب لـــكـــن الحـــوادث
قـــد رمـــتـــه بـــما أشـــابـــه

والقصيدة كما يُلاحظ القارئ، أنَّها قائمة على الشكوى من الزمن، ويسترسل الشاعر فيما بعد هذه الأبيات، باستعراض نوائب الدهر التي وقعت على «أفاضل الناس» بتعبير المتنبِّي في بيته الشهير:

أفـاضـل الـنـاس أغـراضٌ لـذي الـزمـنِ
يخـلـو مـن الهـمِّ أخـلاهـم مـن الـفـطـنِ

ومن تلك النوائب، ما نقلته بعض مصادر التاريخ عمَّا وقع على السيِّدة الزَّهراء، ومنها قولهُ مُضمِّنًا تلك الأحداث:

وعَـــــدَوا عـــلى بـنـت الهـدى
ضربًـــا بـحـضرتـه المـهـابـه
في أيِّ حُـكـمٍ قـد أبـاحـوا
إرثَ فـاطـمَ واغـتـصـابـه
بـيـتُ الـنـبـوَّة بـيـتُـهـا
شـــادت يـــدُ الـــبـــاري قـبـابـه
أذِن الإلـــــهُ بـرفـعـه
والـقـومُ قـد هـتـكـوا حـجـابـه

عـــاشـــت مـــعـــصَّـــبـــةَ الجـــبـــينِ
تـــئـــنُّ مـــن تـــلـــك (الـــعـــصـــابـــه)
حـــتَّـــى قـــضـــتْ وعـــيـــونُهـــا
عـــــبرى ومـــهـــجـــتُـــهـــا مـــذابـــه
وأمـــــضُّ خـــطـــبٍ في حـــشـــا الـــ
إســـــلامِ قـــد أورى الـــتـــهـــابـــه
بـــالـــلـــيـــل واراهـــــــا الـــــوصيُّ
وقـــــبرهـــــا عـــــفًّـــــى تـــــرابـــــه

والقصيدة، كما يُلاحظ المتأمِّل، كانت عرضًا لتلك الأحداث؛ لبيان فداحة المصاب على أولئك الأفاضل من البشر، وقد انساقت تلك الأحداث مع الغرض الذي اشتغل عليه الشاعر، مُمثِّلًا بالشكوى من غِير الدهر وتقلُّباته، وإنْ كان الشاعر قد جمع بين عتابه للدهر وبثَّ سخطه على من فرَّطوا في حقِّ الإمام وزوجه البتول، ولم يكتفوا بذلك، بل كان المبالغة في إيذائها بكلِّ ما يسعهم من فعلٍ أو قول، ما دفع الإمام إلى إخفاء قبرها، مُعرِبًا في ذلك الإخفاء، عن مقدار الظلم الذي لحقه وزوجه الطاهرة، هذا في جانبٍ، وفي جانبٍ آخر، نجده لم يختلف في اكتشاف زاوية فنيَّة جديدة في استدعاء الأحداث التاريخيَّة، والانطلاق بها إلى آفاق فنيَّة أرحب، بما جعلنا نطالع قصائد الشعراء من دون أنْ نفرِّقَ من حيث المستوى الفنِّيّ وتطوُّره، بين شعرٍ قيل في القرن السابع الهجريّ، وشعرٍ قيل في القرن الرابع عشر..! ولأنَّنا إزاء شاعرٍ وصفه معجم البابطين بأنَّ شعره «تناول أغراضًا عديدة، فيها روح التجديد، فهو من رواد النهضة الأدبيَّة الحديثة في العراق»[1]، نرى أنَّ ما كتبه في هذه المناسبة لم يكن معبِّرًا عن تمثُّله للجديد من الأساليب الشعريَّة التي ظهرت في عصره، بما يؤشِّر إلى ترسُّخ النزعة التقليديَّة في الشعر العربيّ

(1) http://www.almoajam.org/lists/inner/6697.

بعامَّة، وانفصال الشعر عن متغيِّرات العصر وثقافته، إلَّا في نماذج قليلة منه لم تكن قادرةً على تغيير دفَّة المشهد الشعريّ إلَّا بعد مرحلةٍ طويلة، انتهت مع ظهور طلائع شعر التفعيلة، إذ أخذ الشعراء المُجدِّدون في ابتكار أساليب جديدة في استدعائهم للرموز التاريخيَّة، لم نجدها عند السابقين.

الخاتمة

لكلِّ بحث أو دراسة ثمَّة نتائج يضعها الباحث بين يدي قارئ بحثه، وإذا وصلنا إلى نهاية البحث، فلا بدَّ إذن من الإشارة إلى أهمِّ النتائج، وهي كالآتي:

- مثَّل استدعاء الرموز الإسلاميَّة في الشعر العربيّ بعامَّة، والحِلِّيّ بخاصَّة، سمة مهمَّة من سمات الشعر في تلك المرحلة بالذات؛ لما تعرَّض إليه العراق والبلدان المجاورة من مآسٍ وويلات، كان للمجتمع المسلم في أغلبه أنْ يتَّجه إلى إحياء الشعائر والاحتفاء بالرموز الدينيَّة، والتحليق في عوالمها، لما لها من تأثير في المخيال الاجتماعيّ يدعو إلى السكينة والارتياح النفسيّ.
- مثَّل استدعاء شخصيَّة السيِّدة فاطمة الزَّهراء دورًا محوريًّا في كثير من الشعر الذي انتظم في مدائح آل البيت ومراثيهم؛ وذلك تعبيرًا عن مكانتها المحوريَّة عند النبيّ؛ بوصفها الحائزة على أكثر المناقب، بما لها من سيرة عظيمة في الدنيا، ومقامٍ عظيمٍ عند الله في الآخرة.
- يرى الباحث أنَّ الحضور الكلِّيّ لرمزيَّة السيِّدة الزَّهراء في القصائد الحِلِّيَّة، لم يتخلَّص من التراتبيَّة في عرض السيرة الأليمة لسيِّدة النساء بعد رحيل والدها، وصولًا إلى وفاتها، مع اختلافات نسبيَّة يسيرة عند الشعراء السابقين عن اللاحقين، قد لا تكاد يُنظر لها فروقًا واضحة من حيث التناول والتمثُّل التاريخيّ للحدث في القصيدة.

- يؤشِّر الباحث أنَّ ما تمَّ استدعاؤه لرمزيَّة السيِّدة الزَّهراء، فيما يخصُّ المراثي الحسينيَّة منطلقًا إلَّا من زاوية واحدة تتمثَّل ببيان عظيم النسب الذي يمتُّ إليه الإمام الحسين، بوصفه ابن بنت رسول الله؛ لأجل استظهار أكبر قدر من الإدانة لمن يمثِّلون الباطل في قتلهم الإمام وانتهاك حرمته.
- كذلك يرى الباحث أنَّ الشعر الذي قيل في استنهاض الإمام الغائب، لم يكن إلَّا لأجل تحشيد أكثر طاقة من الحماس، لدفع الإمام إلى الظهور، وكان استدعاء ما حلَّ بالسيِّدة الزَّهراء في ذلك الشعر، كذلك عمل هذا الاستدعاء (الزَّهرائيّ) على إرسال مضامين لا تخلو من نبرة الرفض لكلِّ سلطة عمدت إلى إيذاء موالي آل البيت، فهم والسابقون سيَّان في الوصف، وكلُّهم يقع تحت طائلة الإدانة؛ لما سنُّوه من مظالم توالت على مرِّ العصور.
- وفي الجانب الفنِّيّ، لم تكن اللغة الشعريَّة لتختلف عن حال الشعر العربيّ في تلك الحقبة، إذ تفشَّت روح الرتابة في بناء القصيدة، والتكرار في الصور النمطيَّة للأحداث والرموز، من دون أنْ يتحرَّك الشاعر لإعادة النظر في طريقة البناء الشعريّ، ولذلك أسباب تتَّصل بطبيعة الظروف السياسيَّة والتاريخيَّة والاقتصاديَّة الراهنة آنذاك.

المصادر والمراجع

١. موسوعة أدب المحنة، أو شعراء المحسن بن عليّ، السيِّد محمَّد عليّ الحلو، مؤسَّسة دار الكتاب الجزائريّ، ١٩٩٨.
٢. استدعاء الشخصيَّات التراثيَّة في الشعر العربيّ المعاصر، عليّ عشري زايد، دار عرب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط، ٢٠٠٦م.
٣. الإشارة الجماليَّة في المثل القرآنيّ، د. عشتار داود محمَّد، منشورات اتِّحاد الكتَّاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥م.
٤. البابليَّات، محمَّد عليّ اليعقوبيّ، مطبعة الزَّهراء، النجف، ١٩٥١م.
٥. تطوُّر الشعر العربيّ الحديث في العراق اتِّجاهات الرؤيا وجماليَّات النسيج، د.عليّ عبَّاس علوان، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهوريَّة العراقيَّة، سلسلة الكتب الحديثة (٩١)، ١٩٧٥م.
٦. ديوان ابن العرندس الحِلِّيّ (ت ٨٤٠هـ)، تحقيق: الدكتور عبَّاس هاني الجرَّاخ، بمساعي واهتمام مركز العلَّامة الحِلِّيّ، ط١، ٢٠١٩م.
٧. ديوان الحافظ رجب البرسي الحِلِّيّ، تحقيق: حيدر عبد الرسول عوض، إشراف: مجمع الإمام الحسين لتحقيق تراث أهل البيت، العتبة الحسينيَّة المقدَّسة، كربلاء، ط١، ٢٠١٥م.
٨. ديوان الحسن بن راشد الحِلِّيّ، جمع وتحقيق ودراسة: د. عبَّاس هاني الجرَّاخ، بمساعي واهتمام مركز العلَّامة الحِلِّيّ لإحياء تراث حوزة الحِلَّة العلميَّة، ط١، ٢٠١٨م.

٩. ديوان الخليعيّ، تحقيق وتذييل: د. سعد الحدَّاد، ط١، دار الضياء للطباعة والتصميم، النجف الأشرف، ٢٠١٠م.
١٠. ديوان السيِّد حيدر الحِلِّيّ، تحقيق: الدكتور مضر سليمان الحِلِّيّ، منشورات شركة الأعلميّ للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١١م.
١١. ديوان الشيخ صالح الكوَّاز الحِلِّيّ، جمع وشرح: محمَّد عليّ اليعقوبيّ، مطبعة النجف، ط١، ١٣٨٤هـ.
١٢. ديوان الشيخ محمَّد بن نفيع الحِلِّيّ، جمع وتحقيق: د. سعد الحدَّاد، راجعه وضبطه: مركز العلَّامة الحِلِّيّ لإحياء تراث حوزة الحِلَّة العلميَّة، ط١، ٢٠١٧م.
١٣. ديوان مغامس بن داغر الحِلِّيّ، صنعه: الدكتور سعد الحدَّاد، راجعه وضبطه ووضع فهارسه: مركز العلَّامة الحِلِّيّ.
١٤. الرمز الدينيّ في شعر محمد بلقاسم خمار، عزاوي مبروكة، رسالة ماجستير، جامعة العقيد أحمد دراية أدرار، ٢٠١٣م.
١٥. سنن ابن ماجة، أبو عبد الله محمَّد بن يزيد القزوينيّ (ت ٢٧٣هـ)، تحقيق: محمَّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربيَّة، فيصل عيسى البابي الحلبيّ، (د.ت).
١٦. الشعر السياسيّ العراقيّ في القرن التاسع عشر، د. إبراهيم الوائليّ، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦١م.
١٧. الشكوى في الشعر العربيّ حتَّى نهاية القرن الثالث، ظافر عبد الله عليّ الشهريّ، رسالة دكتوراه، جامعة أمِّ القرى، ١٩٩٠م.
١٨. صحيح البخاريّ (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيَّامه = صحيح البخاريّ)، محمَّد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاريّ

الجعفيّ، تحقيق: محمَّد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.

١٩. صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله)، مسلم بن الحجَّاج أبو الحسن القشيريّ النيسابوريّ (ت ٢٦١هـ)، تحقيق: محمَّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، (د.ت).

٢٠. الكوثر في أحوال فاطمة عليها السلام بنت النبيِّ الأعظم صلى الله عليه وآله، السيِّد محمَّد باقر الموسويّ، سبعة أجزاء، مؤسَّسة دليل ما، مطبعة نگارش، ط١، ١٤٢٩هـ/ ١٣٨٦ش.

21. http://www.almoajam.org/lists/inner/6697.

الأنساق المضمرة في خطاب السيِّدة الزَّهراء عليها السلام

هند كامل خضير
ماجستير في اللغة العربيَّة/ الأدب (النقد الثَّقافيّ)

ملخَّص البحث

تمثَّل في كلِّ الثقافة أنساق جوهريَّة تسير مع جيلها المستهلك زمنًا لا بأس من الانتماء إليها، ومن ثمَّ تبنِّيها بوصفها مرجعًا اجتماعيًّا ومرشدًا للسلوك، وسواء أكانت أنساق هذهِ الثقافة صريحة ومعلَن عنها، أم كانت مضمرة، فإنَّها، قطعًا، تُحيل إلى فكرة أو إيديولوجيا معيَّنة.

لا شكَّ أنَّ خطاب السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام، وتحديدًا ما تزامن منه مع الأحداث التي تلت وفاة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، يُعدُّ في نظر ممَّن يدينون للنبيِّ محمَّد بالإيمان، مرجعًا دينيًا، ولاسيما أنَّ خطابها المشهور بخطبة فدك ذات مدلولات متعدِّدة في شتَّى الأصناف السياسيَّة والدينيَّة والاجتماعيَّة، ثابتة في الذاكرة الجمعيَّة. وعليه، كانت بذرة هذا الخطاب تحمل إنذارًا وتنبيهًا مُبكِّرًا عن ذلك الشرخ الذي حصل في البيت الإسلاميّ؛ إذْ انبرت للأمَّة الإسلاميَّة حينذاك ثقافة جديدة ظهرت للناس بستارٍ دينيّ، لاسيما أنَّ الدين في حياة العربيّ آنذاك يعني له ويمثِّل محور حياته العامَّة والخاصَّة، بل هو نشاط جوهريّ يسعى لتمثيل قيمه. من هنا سارت هذهِ الثقافة من خلال التجلِّي الدينيّ (الجديد) في المجتمع، بعيدًا عن النصِّ السماويّ، متَّجهًا إلى خطٍّ ينحاز إلى فكرٍ بشريٍّ ينتصر لإيديولوجيَّات تستوعب أفكاره النسقيَّة، فتحقَّقت بهذا أهمّ ركيزتَين محوريَّتَين

في ذلك النسق، هما (البنية، والثقافة).

فالخطاب الفاطميّ جاء ليفضح جلَّ الإيديولوجيَّات المترسِّبة ؛ بوصفها أنساقًا مضمرة؛ لكون السيِّدة الزَّهراء مرجعيَّة دينيَّة ذات تراث وأطر تكتنز فيها معاني القداسة، فهي الوريث بعد وفاة رسول الله. ومع ذلك، وعلى الرغم من مركزيَّتها في البيت الإسلاميّ عامَّة، وبيت النبوَّة خاصَّة، فضلًا عن مقامها عند الله ورسوله، فإنَّ دراسة هذهِ المرجعيَّة ضمن السياقات الدينيَّة (القُرآن، والسُّنَّة) التي نزلت وقيلت في حقِّها، يستلزم الوقوف على ذلك من جانبَين:

١. جانب يتعلَّق بالتصوُّر الإسلاميّ لآل الرسول عامَّة، والسَّيِّدة الزَّهراء خاصَّة، ومن ثمَّ مدى تمثُّل المسلمين لهذا التصوُّر، واستنباطه في حياتهم.
٢. جانب يتعلَّق بالفهم الذي استنبطه المجتمع المُسلم للسَّيِّدة الزَّهراء، بوصف هذا الوريث امرأة، وبصلة قرابتها من رسول الله، وبعلوِّ مقامها، وما لها من قدسيَّة، وبوصفها إنسانًا له من الحقوق ضمن أُطر الثقافة الإنسانيَّة.

المقدِّمة

يشغل خطاب السيِّدة فاطمة عليها السلام الحيِّز الأعظم من سردنة التاريخ، في سعيها لاستقصاء الحقِّ وإظهاره للفرد المسلم ومجتمعه، والوقوف عليه إلى زماننا هذا، في بنية المجتمع المسلم، وما ينطوي عليه هذا الإظهار من سمات تكوينيَّة لجدليَّة الحقِّ والباطل بين المسلمين، وعليه مثَّلت قضيَّة الزَّهراء عليها السلام حافزًا مركزيًّا؛ لتبلور سرديَّة الحقِّ ومشروعيَّة أهله في الثقافة الإسلاميَّة، كما أعطى خطاب الزَّهراء الأبعاد التاريخيَّة التي تجلَّى فيها الانحراف الأوَّل في البيت الإسلاميّ، إذْ جاء خطابها؛ كي يوضِّح أنَّ المؤامرة التي قام بها جناح الصحابة تحت السقيفة كبيرة، كونهم تغافلوا أنَّ هناك دورًا مفروضًا للأئمَّة عليهم السلام في نصِّ الشريعة الإسلاميَّة، وهو دور صيانة تجربة الإسلام، وتجربة المجتمع الإسلاميّ التي أنشأها النبيّ صلى الله عليه وآله، فضلًا عن أنَّ هذهِ التجربة هي متسلسلة في هؤلاء الأئمَّة الأثنى عشر واحدًا بعد الآخر.

التمهيد

لا تخلو ثقافة من الثقافات من تجليَّات الأنساق، فما يصنعه هذا النسق من تمثيلٍ للذات وآخرها، كفيلًا بأنَّ يصنع أو يضع صورة عن هذهِ الأمَّة أو ذلك المجتمع؛ لينتج بعد ذلك معادلًا يمكن أنْ نسمِّيه بـ(الهويَّة النسقيَّة) للأمَّة أو الجماعة. وتتقمَّص هذهِ الهويَّة الدور بمساعدة الثقافة التي تعينها على تشكيل التاريخ وتنميطه. هذا من جانب، من جانب آخر، تسمح الثقافة للهويَّة النسقيَّة بأن تسوِّق عن نفسها كسلطة تنفيذيَّة مُضمرة من خلال معنَيين: إمَّا أن تُمثَّل بالمعنى الفرضيّ، أي تتصدَّر المشهد، وتفرضُ حضورها على الآخرين، أو أنْ تُمثَّل بالمعنى النيابيّ، أي تتحمَّل مسؤوليَّة تمثيل الآخرين بالنيابة عنهم. وبكِلَا المعنَيين تسير هذهِ الأنساق بالجماعة أو الأمَّة من خلال الثقافة لتمثّل عنهم، بوصف أن الجمهور- بالطبيعة أو الجبلَّة- يستجيب لهذا التمثيل، ويتقبَّل واردات هذهِ الثقافة عن رضا، ومن ثمَّ يسلِّم بوجاهتها. وينبع هذا التسليم للثقافة إمَّا لأنَّ هذهِ المضمرات النسقيَّة تغلغلت عند الأمَّة بشكلٍ غير ملحوظ؛ بوصفها تتسرَّب فينا عبر جيلها؛ ونظرًا لقدرة العناصر النسقيَّة على الكمون والاختفاء[1]، أو أنهَّا تتوَّسل بجماليَّات الثقافة، وتمرِّر من خلالها أنساقها المضمرة. وعليه يُكتَب لهذهِ الأنساق الغَلَبة في فرضيَّاتها، ولذلك من السمات الاصطلاحيَّة التي حُدِّدت لوصف الأنساق بأنَّها «تاريخيَّة أزليَّة وراسخة، ولها الغَلَبة دائمًا، وعلامتها هي اندفاع الجمهور إلى استهلاك المنتوج الثقافيّ المنطوي على هذا النوع من الأنساق»[2].

(١) يُنظر: النقد الثقافيّ- قراءة في الأنساق الثقافيَّة العربيَّة، عبد الغذَّامي: ٧٧-٧٩.
(٢) النقد الثقافيّ- قراءة في الأنساق الثقافيَّة العربيَّة: ٧٩.

إذًا فالثقافة هي الرصيد الحضاريّ الدائم للأنساق وتسويقها وتمويلها، بل الثقافة هي مادَّة تغذية النسق، تمدُّه بالاستمرار والبقاء. وبما أنَّ الثقافة هي الطاقة المرجعيَّة التي يجري من تحتها النسق، من هنا فهي مشروع ناجز بين منتج للنسق ومستهلك أو مستقبِل للنسق؛ لذلك عندما يأتي النقد الثقافيّ على ثقافة ما حتمًا يرصد نقد المستهلك الثقافيّ لهذه الثقافة؛ بوصف أنَّ الأنساق المضمرة تختبئ وتتحدَّد عند شريحة المستهلك لا الثقافة بعينها، ومن جانب آخر، فإنَّ الأنساق تتحدَّد عبر وظائفها، إذْ يبرز ويظهر النسق من خلال وظيفته في أوساط مستهلكيه، من هنا يُمثِّل النسق المحوريَّة المركزيَّة في النقد الثقافيّ، ومن ثمَّ يشكِّل «بنية نظريَّة كبرى، تهيمن في كلِّ عصر على الكيفيَّة التي يحيا البشر عليها ويفكِّرون، فهو فكر قاهر وقسريّ.. بدون ذات، ومغفل الهوية»[1].

إذْ تنجلي الأنساق على سطوح ثقافة الأمم من خلال سياقات متعدِّدة على سبيل النصِّ والسلوك؛ ولكون النقد الثقافيّ فرع من النقد النصوصيّ المعني بنقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافيّ بكلِّ تجلِّياته وأنماطه وصيغه الرسميَّة وغيرها، فإنَّه يُراعي دور كلٍّ منهما في حساب نقد المستهلك الثقافيّ[2]. فكلُّ خطاب «يُخفي داخله القدرة على أن يقول غير ما قاله، وأن يغلِّف عددًا كثيرًا من المعاني، وهذا ما يُسمَّى بوفرة المدلول.. فإنَّ الخطاب امتلاء وثراء لا حدَّ لهما»[3]. ولأنَّ الثقافة، بطبيعها، تتخطَّى الحسابات الفرديَّة نحو الجموع، فتستقطب حول هذا الفرد فئات أو أحلاف بعينها؛ ثمَّ تختار اللحظة المناسبة للشروع بأبنيتها الثقافيَّة، ولاسيَّما عندما يكون الواقع في حالة تفكُّك وتهرُّؤ؛ لتحوَّل بعد ذلك الفرديَّة إلى وحدة لها خطابها الثقافيّ الواحد برغم تعدُّد الركائز والمكوِّنات، فيصبح هذا الخطاب دستورًا ثقافيًّا مضمرًا له

(١) عودة الأنسنة في الفلسفة والأدب والسياسة، د. جورج الفار: ٥٨.
(٢) يُنظر: النقد الثقافيّ- قراءة في الأنساق الثقافيَّة العربيَّة: ٨٣.
(٣) حفريَّات المعرفة، ميشال فوكو، ترجمة: سالم يفوت: ١١٠.

سلطته النافذة التي لا تقبل أي تمرُّد أو خروج منه أو عليه[1].

وعند متابعة الواقع العربيّ- الإسلاميّ- ولاسيَّما بعد وفاة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، يظهر أنَّ عمليَّة الإحلال وتبديل الاتِّجاه قد أخذتْ مسارًا يعتمد الاجتهاد بدايةً برفض ركائز الثقافة الإسلاميَّة وخطّها المحمَّدي، وهزّ الثقة في هذهِ الركائز التي أخذت شرعيَّتها واستمدَّتها من السماء وما يتصل بها، الوحي والرسالة؛ لذا جاء خطاب السيِّدة الزَّهراء ضمن اعتبارات ضروريَّة، لاسيَّما وأنَّ السمة الغالبة على خطابها تجري في مضامين لمعانٍ كـ(التحوُّل، والتبديل، المعارضة، التغيير، والتحريف..) سواء بالمعنى الحسِّيّ الذي رسم لـ(البيت العلويّ) حدودًا متباينة في كيفها، وكمِّها، من حيث المخالفة النصِّ الشرعيّ، أو بالقياس المطلق لهدم البيت الإسلاميّ.

ففي طبيعة كلِّ الخطاب يتعارض نسَقان- كما تحدِّده الوظيفة النسقيَّة- وقطعًا فإنَّ الخطاب الفاطميّ وقف على ثقافة ذلك النسق المعارض، متَّخذًا من المرجعيَّة القُرآنيَّة مرافعة قانونيَّة في استجلاء الحقِّ من الباطل، لاسيَّما وأنَّ خطاب السيِّدة الزَّهراء جاء على أثر الظروف والأحوال التي انتهى إليها مشروع السقيفة، وما أحدثه من انقلاب على موازين السماء ورسالتها، حيث جسَّد خطاب السيِّدة الزَّهراء قضيَّة محوريَّة في الموروث الإسلاميّ والرواية التاريخيَّة، فضلًا عن الأمور العقديَّة والمباني الاجتماعيَّة، على الرغم من العنوان الظاهريّ لهذه الخطاب، هو فدك؛ بوصفها نحلةً أو ميراثًا يمكن للجميع أن يدركها كمظلمة، إلَّا أنَّ الأمر يميل إلى أبعد من ذلك، إذْ إنَّ جوهر خطابها يقوم على إبطال خلافة الأوَّل، فقد فنَّدت في خطابها تلك أصل تلك السنَّة المزعومة، كما جاء في خطابها قائلة: «**هنالك يخسر المبطلون، ويعرف التالون غبَّ ما أسَّسه الأوَّلون**»، ومن هنا فإنَّ كلَّ عرش أو كرسي جاء بعد خلافة الأوَّل، هو مفروغ المشروعيَّة، بوصف أنَّ

(١) يُنظر: من سلطة الثقافة إلى ثقافة السلطة، محمَّد عبد المطَّلب، مجلَّة فصول، العدد ٧٩، ٢٠١١: ٥٦.

أي حكم جاء على مشروع السقيفة هو باطل، وبهذا إذا سقطت خلافة الأوَّل، سقطت جميع العروش.

وانطلاقًا من ذلك، فقد مثَّل خطاب السيِّدة الزَّهراء قضيَّة محوريَّة واستثنائيَّة على مدى الزمان، ولاسيَّما أنّ الأحداث الواردة في ذلك الخطاب هي كاشفة للنعرات الجاهليَّة الحقيقيَّة الكامنة في نفوس الناس، فكان لخطابها ولقضيَّتها امتداد مستقبليّ شخَّصت فيه الجاني من العدو؛ لذا كان التحدُّث بقضيَّة الزَّهراء في العصور المتأخِّرة ولاسيَّما زمان بني العبَّاس غير مستساغ، إذْ يُمنع منعًا باتًّا كلُّ من يردِّد أو يكتب أو يروي هذهِ القضية، بل ووصل الأمر إلى القتل؛ نظرًا لأنَّ الخطاب الفاطميّ يضرب في جذور خلافتهم، في ذلك التأسيس غير المشروع.

المبحث الأوَّل

واقعيَّة النسق وجدل المرجعيَّات

إنَّ التجربة الدينيَّة ولِدت متلازمة مع الخليقة، فبين الدين والإنسان اقترانٌ متلازم ولا فكاك منه، وبهذا يتحدَّد مفهوم الإنسان مع مفهوم الدين، وفي الوقت نفسه لا يتفرَّد هذان المفهومان عن محور الثقافة، إذ إنَّ لكلِّ أمَّة أو ثقافة مفهومها الخاص عن الإنسان، ومن ثمَّ الدين.

ومن المعروف إنَّ للإسلام موقفًا تَّجاه الإنسان، ففي الاعتقاد الإسلامي البشر متساوون في الخلق، ولا ضرب للتمايز أو التفاخر بينهم إلَّا بالإيمان والتقوى. كما أنَّ للإسلام موقفًا تَّجاه من ينتمون أو يحملون صفة القداسة، كالأنبياء والصالحين، وعلى هذا الأساس فالدين بالنسبة لأحدهم هو «محور وجوده كلّه، فإيمانه هو ما يعيش من أجله، وهو غالبًا ما يكون مستعدًّا للموت من أجله»[1]، فعند النظر للثقافة الإسلاميَّة نستحضر ركيزة الدين؛ بوصفها ركيزة أساسيَّة، على أن لا نغفل أنَّ في جانب الاستحضار، الوعي دائمًا أنَّ أنساق الثقافة هي أوسع من الدين، لكن المسألة الأكثر وضوحًا، أنَّ المعاملات، وهي إحدى عناصر المنظومة الدينيَّة، تنطوي على متغيِّرات تتَّضح أكثر ممَّا في عنصرَي العقيدة والعبادة. وعلى الرغم من ذلك فإنَّ تحليل الدين بوصفه مرجعيَّة لا يعني عزله عن السياق الأكبر الذي يضمُّ ما يُصطلح عليه في نظريَّة الأنساق (الأنظمة العقليَّة واللاعقليَّة)، إذ يختزل هذا المفهوم الأنساق والممارسات

(١) الإسلام من منظور علم الأناسة، غرتس كليفورد، ترجمة: أبو بكر باقادر: ١٢٤.

الفاعلة في ثقافة الناس، من هنا فإنَّ عرض النصوص والأنساق أمام هذهِ الأنظمة ينتهي إلى المواجهة مع «كل ما هو متشكِّل تاريخيًّا، ومتحيِّز سياسيًا، ومتموضع مؤسَّساتيًّا، ومع كلِّ ما يُشرَّع للاحتواءات والإقصاءات، وإعطاء بعض الأشياء امتيازًا على الأخرى»[1].

وكما هو معروف، أنَّ الدين الإسلاميّ ورسالته المتمثِّلة بالنبيّ الأكرمﷺ، والقُرآن الكريم، كانتا القاعدة المرجعيَّة التي من خلالها أُصدرت الشرائع والأحكام والمعاملات، فضلًا عن ذلك، جسَّد الرسول محمَّدﷺ من خلال كتاب الله، الضابطة الصيانيَّة لسلوك الفرد المسلم، ولذا كان الإسلام ملاذًا للفرد في طور تشريعاته، ينتزع منه لذَّة الانتصار على خيبات الجاهليَّة، فهو بحاجة إلى هذهِ المرجعيَّة؛ لكي يُؤسِّس وجوده. وهنا يُفهم أنَّ العلاقة بين المسلم والمرجعيَّة الإسلاميَّة ذات سياق ثابت، وبتحديد دائم، غير أنَّه لا ينبغي أن يُفهَم من هذهِ الثوابت الصور أو المعنى المادِّيّ للكلمة، بل الدلالات الكبرى التي تجعل من المجتمع المسلم يبدو متماسكًا، ملتزمًا، فمن خلال هذهِ الدلالات يضفي معنى الحياة على الأمَّة المسلمة.

وممَّا تقدَّم نجد أنَّ خطاب السيِّدة الزَّهراء جاء مؤطَّرًا بمساءلة المجتمع المُسلم، بتلك المرجعيَّات الثابتة، ولاسيَّما بعد وفاة أبيها رسول هذهِ الأمَّة، ونبيّها المختار، والتي كان من المفترض أن تأخذ المركزيَّة والجانب المحوريّ في مفاصل الأمَّة، إذْ إنَّ هذه الثوابت المرجعيَّة المؤسِّسة لثقافة المسلمين لم تصمدْ أمامها الأنساق، فلا تزال النعرات الجاهليَّة وأحقادها تفعل فعلها مع حلول الإسلام. وعليه جرى الخلاف والانحراف في سياقات المرجعيَّة الدينيَّة، والجدل في معالمها الثابتة وتشريعاتها المرسومة من خلال استئثار أدبيَّات نسقيَّة، طرأت على الأمَّة في هذا الوقت تحديدًا، بل تعقَّد الحال أكثر حين دخلت المكوِّنات النسقيَّة في علاقة متبادَلة، ومن خلال رمزيَّة الدين، مع سياقات المرجعيَّة الثابتة والأساسيَّة للرسالة السماويَّة، لا لمشروع حماة الإسلام والفتنة، بل هي

(١) من سلطة الثقافة إلى ثقافة السلطة: ٥٤.

موافقة مع الآيديولوجيا المضمرة في المتخيَّل الجمعيّ للأمَّة.

من هنا انبرى خطاب السيِّدة الزَّهراء المتمثِّل بخطبَتَي (فدك، والخطبة الثانية) إلى كشف المحمولات النسقيَّة المضمرة في ثقافة العرب، فجاء خطابها، ولاسيَّما في مسجد أبيها، ساحة للمعارف في الدين والتاريخ، تناولت فيه قضايا العبادة والتوحيد، ثمَّ عطفت على أهمٍّ مفصلين، وهما أدوار أبيها الرسول محمَّد صلى الله عليه وآله، وماذا صنع للأمَّة، وكيف حُورب، وبماذا جوُبهت عترته بعد رحيله، بينما المفصل الثاني أشارت فيه إلى حال العرب قبل الإسلام، وكيف أنقذهم تعالى بأبيها. وما بين هذا وذاك، ذكرت الأسس الشرعيَّة التي تكالب عليها المغتصبون، كـ(قضيَّة الخلافة)؛ بوصفها مفصلًا في حياة الإسلام المحمَّديّ، أخذ وضعًا في غير محلِّه. وقضيَّة فدك، بوصفها ميراثًا نبويًّا، وحقًّا إنسانيًّا. وهنا سنفصِّل الحديث في خطاب السيِّدة الزَّهراء عليها السلام في هذين المفصلَين؛ بوصفهما أكثر المرجعيَّات الدينيَّة التي جوبهت بالجدل والمعارضة، وبوصف ما أحدث بسببهما من شرخ في البيت الإسلاميّ، عاشت أنساقه وولَّدت صراعات دامت إلى زماننا هذا.

الخلافة من الثقافة إلى السلطة

لعلَّ ممَّا يأتي في الوعي أنَّ أي «فعل بسيط يستدعي ما لا حصر له من فرضيَّات ومرجعيَّات»[1]، وعليه فإنَّ هذا المخزون الضخم من الصور التي استعرضها خطاب الزَّهراء في نساء المهاجرين والأنصار[2]، كذِكر الخلافة وأحقيَّة طرف البيت النبويّ بها، بوصف الخلافة «لفظ كان يجري على لسان النبيّ محمَّد والمسلمين، ولا يُراد منه إلَّا هذا المعنى، فعندما نسمع قوله صلى الله عليه وآله: «**هذا أمر لا ينقضي حتَّى يمضي فيهم اثنى عشر خليفة**

(١) الشيخ والمريد: النسق الثقافيّ للسلطة في المجتمعات العربيَّة الحديثة، عبد الله حمودي، ترجمة: عبد المجيد جحفة: ٣٥.

(٢) ومن الجدير بالذكر أنَّ هذه الخطبة تحديدًا وجَّهت فيها السيِّدة الزَّهراء الخطاب نحو أحقيَّة الإمام عليّ في الخلافة، وأنَّ خطابها كلُّه دار حول هذهِ القضيَّة، على الرغم أنَّ النساء كان قدومهنَّ لأجل عيادة السيِّدة الزَّهراء في مرضها.

كلُّهم من قريش»[1]، يستدعي الوقوف على الخلفيَّات المتخيَّلة التي استند عليها الطرف المضاد بوصفه نسقًا مضادًّا في تبنِّي هكذا مشروع سماويّ بغير وجه حق، ولاسيَّما المرجعيَّات الثقافية التي سمحت لها بالظهور، فعند الوقوف على كلِّ كلمة من خطاب السيِّدة الزَّهراء، نجدها تخبر عن نسق ما، وعن مرجعيَّة مضمرة ومترسِّبة أُظهرت للوجود من جديد، بل وأُعيد إنتاجها بما يتلاءم والظروف.

فمن قولها: «**وَيْحَهُم أنَّى زَحْزَحوها عن رَواسي الرِّسالةِ، وقواعِدِ النبوَّةِ والدَّلالَةِ، ومَهبِطِ الوحي الأمين، والطَّبين بأمرِ الدُّنيا والدِّين، ألا ذلك هو الخسران المبين**»[2]

لعلَّ تركيز الخطاب على جزئيَّات (أخذ، وغصب) الخلافة بتعبير (زَحْزَحوها)، والخروج بها من وضعها الثابت، ومن ثمَّ ذكرها لتفاصيل، بل ومرجعيَّات ثوابت الخلافة للإمام عليّ عليه السلام، من نظير (الرسالة، قواعِدِ النبوَّةِ، الوحي، العالم أو الخبير)، هو بقدر ما يرتبط بحالة التنحِّي أو الدفع من الزحزحة التي تولِّدها علَّة الافتعال والاختراق. فالسياق اللغويّ لمادة (زحزح) تشير إلى الردِّ مع التبعيد تدريجيًّا، كما أشار القُرآن إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿**فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ**﴾[3]، بمعنى أنَّ جريان التباعد لا يتحقَّق بشكلٍ يسير وسهل، بل لا بدَّ من جهد جهيد مسبق بالإرادة[4]. والأمر نفسه في قضيَّة تبنِّي أمر خلافة المسلمين، فأنَ مجيء السيِّدة الزَّهراء بتعبير (أنّى زَحْزَحوها) يشير بصيغة نافذة إلى تصدِّي هذا الطرف إلى أمر الخلافة بتفكير مُسبَق وتخطيط مدبَّر، ولم يكن زحفهم إليها طارئًا بعد وفاة الرسول محمَّد صلى الله عليه وآله، بل هو جزء من نظريَّة مسبقة لُوِّح إليها في الأفق القديم، ضربت في جذورها إلى عهد

(١) السقيفة: محمَّد رضا المظفَّر: ٧٠.

(٢) الاحتجاج، أحمد الطبرسيّ: ١/ ١٠٨.

(٣) سورة آل عمران: ١٨٥، وأيضًا ورد في سورة البقرة: ٩٦، في قوله تعالى: ﴿**وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ**﴾.

(٤) يُنظر: التحقيق في كلمات القُرآن الكريم، حسن المصطفوي: ٤/ ٣٣١.

الرسول صلى الله عليه وآله، بل إلى أعماق سحيقة، حيث ذلك العداء الأزليّ للبيت الهاشميّ، ففكرة الخلاف أو الصراع بين البيت الهاشميّ وقريش كان متوارَثًا. إذْ يذكر العلاينيّ في كتابه بيت من القصيد لجذور تلك العداوة منذ زمان الرسول، فيقول لله درّ من قال[1]:

عـبـدُ شـمـسٍ قـد أضرمَـت لـبـني ها
شـمِ حـربًـا يـشـيـب مـنـهـا الـولـيـدُ
فـابـنُ حـربٍ للمصطفى وابـنُ هندٍ
لـعـلـيٍّ ولـلـحـسـين يـزيـدُ

والموقف نفسه يجسِّده الخليفة الثاني عندما قام فقال: «هيهات لا يجتمع سيفان في غمدٍ واحد، إنَّه والله لا يرضى العرب أن تؤمِّركم ونبيها من غيركم، ولكن العرب لا ينبغي أن تولِّي هذا الأمر إلَّا من كانت النبوَّة فيهم، وأولو الأمر منهم، لنا بذلك على من خالفنا من العرب الحجَّة الظاهرة، والسلطان المبين، من ينازعنا سلطان محمَّد وميراثه، ونحن أولياؤه وعشيرته، إلَّا مدل بباطل..»[2]، فضلاً عن ذلك فالتجربة الدينيَّة تنقل ذلك الوعي المتناغم نحو السلطة في منظومة جزيرة العرب، ولاسيَّما عندما قال النبيّ محمَّد صلى الله عليه وآله: «**الناسُ تَبعٌ لقريشٍ في هذا الشأن، مَسلُمِهم تَبَعٌ لمسلمهم، وكافرهم تبعٌ لكافرهم**»[3]، ولعلَّ ما يثيره النسق في طبيعته هو تغييب العقل وتغليب الوجدان، وهذه أخطر الحيل البلاغيَّة في تمرير النسق، ومن ثمَّ نفوذه إلى مستهلكه. من هنا كانت هذه المغايرة ذات تأثير مزدوج في الوعي الجمعيّ للعرب، فمن جهة كانت آيديولوجيَّة هذا الفكر بحاجة إلى افتراض هذهِ المغايرة بينها وبين سلطان الخلافة، أو ملك محمَّد، بحسب ما أُصطلح عليه، وذلك لتسويغها من حيث الاستمراريَّة، فأخذ

(١) يُنظر: الإمام الحسين، عبد الله العلاينيّ: ٥٦.
(٢) الإمامة والسياسة، ابن قتيبة الدينوريّ: ١/ ٨.
(٣) كنز العمَّال في سنن الأقوال والأفعال، المتَّقي الهنديّ، تحقيق: الشيخ بكري حيَّاني (كتاب الفضائل/ القبائل وذكرهم): رقم الحديث: ٣٣٨٠٢: ١٢/ ٢٤.

ذلك التسويغ طريق الإشاعة، عندما أشيعت فكرة أنَّ النبوَّة والخلافة لا يجتمعان في بيت واحد، وأصبح ذلك جزء من نظرية سياسيَّة. ومن جهة أُخرى تسويغها بوصفها نظامًا طبيعيًّا؛ وذلك بإسدال ثوب المشروعيَّة عليها، إذ روي عن أمير المؤمنين عندما سُئل: ماذا قالت قريش: «قالوا احتجَّت بأنَّها شجرة رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: **احتجُّوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة**»[1]، فصار استحقاق الخلافة لمن له سابقة أو فضل في الإسلام ونصرته، وبلغت إشارة السيِّدة الزَّهراء ذلك العمل في قولها: «**فوسمتم غير إبلكم، وأوردتم غير مشربكم**»، وحدث ذلك في اجتماع سقيفة بني ساعدة عندما خطب أبو بكر وأشاد بسابقة قريش، وبفضل الأنصار، «**يا معشر الأنصار لكم سابقة في الدين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب..**»[2]، إذْ بلغت إشارة السيِّدة الزَّهراء ذلك العمل في قولها: «**فوسمتم غير إبلكم، وأوردتم غير مشربكم**»[3].

ومن المؤكَّد عندما ينحصر تقييم أو إطار الخلافة بمقاييس بشريَّة، وضمن محمولات مفتَعَلة من نظير (الصحابة، أو الانتماء القبائليّ أو العشائريّ، أو فضلية الدخول إلى الإسلام... الخ)، حتمًا سينتهي في طريقه إلى مأساة بكلِّ المقاييس، وعليه جرى ما جرى، فـ«تقاتلت القبائل والطوائف على حساب الإسلام، وقامت بتصفية حساباتها على حساب الإسلام، وأصبح كرسيُّ الحكم غايةً وهدفًا لغلمان قريش وسفاهئها، بل أصبح فيما بعد كعجل بني إسرائيل حول المستفيد منه، والخائف من عضبه»[4]. من هنا أبرم مشروع السقيفة ذلك الموروث المخالف لمرجعيَّة القُرآن والسماء، وصار الأمر (أنتم الوزراء، ونحن الأمراء)، واقعة ثقافيَّة تبنَّتها الأنساق التالية لمشروع السقيفة، من ذلك مقولة أبو سفيان بن حرب عندما وقف «على قبر حمزة فقال: رحمك الله أبا عمارة قاتلتنا

(١) بحار الأنور، المجلسيّ: ٢٩/ ١١٦.
(٢) تاريخ الطبريّ، محمَّد بن جرير الطبريّ: ٢/ ٤٥٥.
(٣) الاحتجاج: ١/ ١٠١.
(٤) الانحرافات الكبرى، سعيد أيُّوب: ٤٤٣.

على أمرٍ صار إلينا»[1]، فصارت السياسات التالية تطبيقًا أو استكمالاً لـ«ترسيخ فقه الشيخَين، ونشر فضائل عثمان والصحابة الأوَّلين، ويمنع من التحدُّث بفضائل عليّ، وهذا النهج القاسي اللامتوازن أثَّر سلبيًّا على الأحكام لا محالة»[2].

وهنا يتحقَّق خطاب السيِّدة الزَّهراء عندما استشرفت حال هذه الخلافة المزعومة، فقالت: «**أما لعمري! لقد لقحتْ، فَنَظِرة ريثما تُنتج، ثمَّ احتبلوا ملء القعب دمًا عبيطًا، وذعافًا مبيدًا، هنالك يخسر المبطلون، ويعرف التالون غبَّ ما أسَّسه الأوَّلون**»[3].

ومن المصاديق لنتاج الخلافة هذهِ الدماء التي اضطلعت بها مغبَّة الانحراف في قضيَّة الخلافة، قام معاوية يطلب بدم عثمان، وهي دعوة في أصلها الحقيقيّ ذريعة ليصل إلى الحكم، فكانت معركة صفِّين، ثمَّ بعدها وقعة النهروان، ثمَّ تحقَّق المصداق الأكبر، وهو معركة الجمل، وما أدراك ما وقعة الجمل؟ أَشهرُ مِنْ نارٍ على عَلَمٍ.

وبهذا تحمَّل السيِّدة الزَّهراء «مسؤوليَّة الدماء التي سُفِكت والتي ستُسفَك في الإسلام إلى أولئك الذين حرَّفوا الخلافة عن المسار الذي أراده الله لها، وغيَّروا وبدَّلوا حسب ما تُملي عليهم أهوائهم وشهواتهم»[4]، بوصف أنَّ مشروع السقيفة أصبح مبدأ لتاريخ ما بعده، وحدث مستمر وجارٍ على كلِّ عصر، ولاسيَّما عصور الأئمَّة، فأصبحت كلُّ ظلامة تأتي على أهل البيت عليهم السلام جميعًا يُقاس إليه مبدأ ظلامة الزَّهراء، فاجتماع السقيفة خلَّف ضلعًا مكسورًا، وقبرًا مفقودًا، وخلافةً مستفزةً، ونحرًا مذبوحًا، وكبدًا مسمومًا، إلى غائبٍ مظلومٍ. وقد روي للإمام الصادق قولٌ يستنكر حدث السقيفة

(١) الإمام الحسين: ٥٦.
(٢) التسميات بين التسامح العلويّ والتوظيف الأمويّ- دراسة تحليليَّة، علي الشهرستاني: ١١٢.
(٣) الاحتجاج: ١/ ١٠٩.
(٤) شرح خطبة الزَّهراء عليها السلام وأسبابها، نزيه القميحا: ٣٤٠.

وفعل أصحابها، وما يترتب عليه من ظلامات ودماء، فيقول: «**كلُّ ظلامة حدثت في الأسلام أو تحدث، وكلُّ دمٍ مسفوكٍ حرام، ومنكرٍ مشهور، وأمرٍ غير محمود، فوزره في أعناقهما وأعناق من شايعهما أو تابعهما ورضي بولايتهما إلى يوم القيامة**»[1].

(١) بحار الأنوار: ٢٩/ ١٩٩.

المبحث الثاني

فدك بين البُعد العقديّ ورمزيَّة الأنساق

حتمًا عند حضور السلطة، يستدعي بالضرورة القصوى استحضار لأزمة الثقافة؛ بوصفها مفهوم يتَّسع لكلِّ نسق يسير مع الفرد، وعليه فإنَّ هذا الاتِّساع يُلاحق كلَّ ما يتَّصل بالحياة من مختلف مناحيها الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والسياسيَّة والدينيَّة، وحتَّى التاريخيَّة. من هنا فمثلما خرقت الأنساق مواطن الإمامة، وفصلت بينها وبين النبوَّة، فمن الطبيعيّ أن تلجأ السلطة، التي بسطت يدها مجدَّدًا، لفصل كلِّ من يرتبط بهما؛ لتبيث أوتادها المهزوزة من جهة شرعيَّة أوَّلًا، بوصفها خلافة بُنيت على تجاوز النصِّ الشرعيّ باجتهادها الخاص. ومن جهة سياسيَّة ثانيًا، فمثَّلت قضيَّة فدك الاختراق الثاني الذي جسَّدته سلطة الأنساق الثقافيَّة في البيت الإسلاميّ، فدك، المعروف عنها، النِّحلة والميراث المحمَّديّ للسيِّدة الزَّهراء. امتدت إليها يد الثقافة المرفوضة، بخرق اخترق المرجعيَّات الإسلاميَّة، ولاسيَّما المرجعيَّتَين الكبيرَتَين (كتاب الله، والسنَّة)، ودخلت فدك في إطار المواجهات التي طالها اللغط والتحريف والتزوير بين الفقه السياسيّ الذي تزعَّمته الثقافة الجديدة، وبين الفقه الدينيّ الذي يعدُّ دليل الفرد المسلم ومرشد سلوكه، فالأنساق الثقافيَّة بطبيعتها تلجأ دائمًا إلى التناقض لتقرير أعرافها، ودعم اعتقادها، فهي لم تتورَّع الكذب حتَّى على رسول الله صلى الله عليه وآله، فراحت تستنطق الرسول بأحاديث لا تمتُّ إلى روح الإسلام بصلة، وما يمثِّله للإنسان ويمنحه من حقوق، من نظير قولهم: «نحن معاشر الأنبياء لا نورِّث». كيف وفاطمة الزَّهراء هي الوريث للرسول محمَّد صلى الله عليه وآله؟!

فلماذا تضطرُّ السلطة إلى الكذب؟ ولماذا الكذب على سول الله، وممَّا لا شكَّ فيه أنَّها تعلم أن من كذب على الرسول «**فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعدهُ من النَّارِ**»(١). لاشكَّ أنَّ الجدير بهذا الكذب هو التناغم مع اعتقادات هذهِ الجماعة التي جعل منها أن تقوِّل رسول الله بهذه الأحاديث، كما أنَّه للسبب نفسه عدَّت الثقافة هذا الكذب صدقًا؛ بوصف أنَّ الخبرَ طابق اعتقادات الرواة والناقلين، وممَّن له صلة أو ارتباط أو ولاء لهذه الجماعة أو الثقافة.

لذا، حين يجري الاجتهاد محلَّ النصِّ الشرعيّ؛ بوصفه جريانًا غير سليم، قد يتحوَّل إلى نوع من الصدام والتنافس الذي ينتهي بسيادة مؤسَّسة على أُخرى، ومن ثمَّ يستفحل هذا الصدام إلى فوضى سلطويَّة تتَّسع مداركها، وتتداخل ملامحها، ومع هذا التداخل غابت ملامح الممنوع والحلال والمباح والمحرَّم، أصبحت خاضعة لأمزجة الثقافة وأنساقها؛ لذلك عندما طرحت السيِّدة الزَّهراء قضيَّة فدك، سعت إلى تأكيد شرعيَّة قضيَّتها بمستندات اجتماعيَّة، وعرفيَّة، ودينيَّة، فقالت: «**وزعمتم أن لا حظوة لي! ولا إرث من أبي! أفخصَّكم الله بآية أخرج أبي منها؟ أم تقولون: إنَّ أهل ملَّتَين لا يتوارثان؟ أوَ لست أنا وأبي من أهل ملَّة واحدة؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمِّي؟**»(٢).

فقد قيل: «إنَّ من عجائب الأمور طلب أبي بكر البيِّنة من فاطمة عليها السلام، وتكذيبها في أمر فدك، ورجوعها خائبة إلى بيتها، وتصديق عائشة في طلب الحجرة، وقبول دعواها بدون البيِّنة، والبحث في تصرُّف حجرة النبيّ صلى الله عليه وآله..»(٣)، لاسيَّما وأنَّ المستند الدينيّ في بيِّنة السيِّدة الزَّهراء كقاطعة إسلاميَّة أو تصريح الرسول صلى الله عليه وآله يُعدُّ حجَّة قاطعة لا تتجاوز فردًا دون فرد. كما قالت: «**يا ابن أبي قحافة! أ في كتاب الله أن ترث أباك**

(١) صحيح البخاري، تحقيق: مصطفى البغا: ١/ ٤٣٤.
(٢) الاحتجاج: ١/ ١٠٢.
(٣) الموسوعة الكبرى عن فاطمة الزَّهراء عليها السلام، إسماعيل الأنصاريّ: ١٢/ ٢٥.

ولا أرث أبي؟ لقد جئت شيئًا فريًا!!»[1]، وقالت: «**أما كان رسول الله صلى الله عليه وآله أبي يقول: (المرء يُحفظ في وُلده؟)**»[2]، وقالت: قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُۥدَ﴾[3]، فعموميَّات القُرآن كلُّها تدلُّ على أنَّ الأنبياء كعامَّة كلِّ إنسان يورِّثون تركتهم للأبناء، بوصف أنَّ الخطاب الدينيّ تفسيرًا للنصِّ الشرعيّ؛ كونه يفرز قيمة التعادل على ضوء المعادلة المنطقيَّة التي من خلالها تتحقَّق لنا القدرة التي تتجلَّى في معرفة الثبات والاتِّصال والتفصيل التي تُشكِّل المواد الأساسيَّة في بناء النصوص الشرعيَّة من قُرآنيَّة أو نبويَّة[4].

وبما أنَّ الممارسات التي ارتكبتها السلطة الحاكمة تنتمي في حقيقتها إلى عالم العداء، ومن ثمَّ، فإنَّ هذهِ الأفعال تستحقُّ خطابًا يفضحها، ويكشف حالة الإسفاف بالنصِّ المقدَّس؛ لذا جاء خطاب السيِّدة الزَّهراء ضمن مطالبتها بفدك تحت سياقات ثلاثة، تتخلَّلها المرجعيَّة القُرآنيَّة.

- **دعوة النِّحلة**: بوصفها «لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب»، وردَّها الخليفة الأوَّل، وادَّعى أن تأتي بالبيِّنة، إذْ قال الخليفة الثاني للأوَّل: «إنَّها امرأة فادعها البيِّنة على ما ادَّعت، فأمر أبو بكر أن تفعل، فجاءت بأمِّ أيمن وأسماء بنت عميس مع عليّ بن أبي طالب، فشهدوا لها جميعا بذلك، فكتب لها أبو بكر، فبلغ ذلك عمر فأتاه فأخبره أبو بكر الخبر، فأخذ عمر الصحيفة ومحاها، فقال: إنَّ فاطمة امرأة، وعليّ بن أبي طالب زوجها، وهو جارّ إلى نفسه، ولا يكون

(١) الاحتجاج: ١/ ١٠٣.
(٢) الاحتجاج: ١/ ١٠٣.
(٣) سورة النمل: ١٦.
(٤) يُنظر: خطاب النقد في النصِّ الشرعيّ والنصِّ الشعريّ بين الحقيقة والمجاز- النقد المقارن وتحوُّلات المنهج، سليمان عبد الله أبو عزب، بحث ضمن مؤتمر النقد الدوليّ الحادي عشر (تحوُّلات الخطاب النقديّ العربيّ المعاصر)، ٢٥-٢٧/ ٧/ ٢٠٠٦، كليَّة الآداب، جامعة اليرموك: ١٢٣٤.

بشهادة امرأتَين دون رجل..»[1].

- **دعوة الميراث أو الأرث**: بوصفه اعتبارًا عامًّا (ما تركه الآباء للأبناء)، فجاءت بنصوص قُرآنيَّة ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، وقوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾[2]، وفدك مُلك النبي، وفاطمة الوريث الشرعيّ للنبيّ، والأبناء يرثون آبائهم، لكن شُهِر بوجه هذهِ الحجَّة البالغة حديث «نحن معاشر الأنبياء لا نورِّث»، فأُخذت فدك وصُودرت من السيِّدة الزَّهراء.
- **دعوة صلة الأرحام وذوي القربي**: احتجَّت السيِّدة الزَّهراء بهذهِ الدعوة بقوله تعالى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾[4]، ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾[5].

وعندما نناقش تلك الدعوات الثلاث، بلا شك من جهة أولى: أنَّها تصمد أمام النصِّ والعقل والمنطق، والعرف الاجتماعيّ. فضلًا عن ذلك أنَّ للرسول محمَّد مواقف ومشاهد وأفعال تجاه ابنته الزَّهراء، وكان ذلك على مرأى ومسمع الناس، عامِّهم وخاصِّهم، زد على ذلك أنَّ تلك المواقف كانت صريحة ومُعلن عنها مرارًا وتكرارًا. ومن جهة ثانية: أنَّ طرف الحكومة بوصفه طرفًا متسنِّمًا، ومتزعِّمًا لأمر المسلمين، كان يعي مقام السيِّدة الزَّهراء عند رسول الله ومنزلتها عنده، لاسيَّما ذلك القول المعروف

(١) الاحتجاج: ١/ ٩٢.
(٢) سورة النمل: ١٦.
(٣) سورة الأنفال: ٧٥.
(٤) سورة النساء: ١١.
(٥) سورة البقرة: ١٨٠.

والمشهور «**يرضى الله لرضاها ويغضب لغضبها**»[1]. وعليه مثَّلت قضية فدك في هذهِ السياقات قضيَّة رمزيَّة ذات اعتبارات سياسيَّة، وليست قضيَّة قضائيَّة مرتبطة بمال أو تَركة، بل أرادت السيِّدة الزَّهراء امتحان وفاء هؤلاء القوم لأبيها محمَّد؛ بوصفه زعيمًا للأمَّة والمسلمين، هل أنَّهم على العهد باقون؟ وكيف عاملت هذه الأمَّة ابنته الوحيدة؟ إذ إنَّ إقدامهم على الأمانة أُخِذ بالنحو الآتي: «**سرعان ما أحدثتم وعجلان ذا إهالة..**»[2]، خطاب يجسِّد انقلابهم الأوَّل، إذ إنَّ نزع الخاصيَّة المقدَّسة، أو تجريد مَنْ هم أحقُّ بالخلافة مِن محلِّهم وخصوصيَّاتهم، كان مهمَّة سهلة، هذا على الرغم من كونها تصطدم بعوائق دينيَّة وإسلاميَّة، وعليه ارتبطت قضيَّة فدك وطُرِحت بوصفها حقًّا مضيَّعًا من خلال رمزيَّتها للمطالب المغتَصَبة، حتَّى جاءت هذهِ الرمزيَّة عند الأئمَّة التَّالِين من أبناء فاطمة الزَّهراء، فقد روي: لـمَّا ورد موسى الكاظم على المهدي العبَّاسيّ، رآه يردُّ المظالم، فقال: «**مَا بالُ مَظْلِمتنا لا تُردُّ**»[3]، من هنا جسَّدت مطالبة فدك «مطالبة لخلافة أبيها رسول الله، مطالبة خلافة الغدير، مطالبة الخلافة من عند الله، مطالبة الخلافة على المسلمين والمؤمنين التي عيّنت في القُرآن وكلام الرسول..»[4].

كما كشفت قضيَّة فدك من جانب آخر، قبحيَّات نسق السلطة الحاكمة، بوصف أنَّ قضيَّة ذلك البستان صار شاهدًا على تجاوز هذهِ الحكومة على حقِّ الناس، وأيُّ ناس؟ على بنت رسول الله، بوصف إنَّه تمَّ التجاوز على حقوقها بهذه الطريقة من العدوان والغصب، كان ذلك كلُّه، والخلافة لم تتجاوز أيَّامها الأولى بعهد الخلافة، ولعلَّ السيِّدة الزَّهراء من خلال إلحاحها بمطالبة بإرثها، وإتيانها بكلِّ الحجج لإثبات شرعيَّتها هو بيان أن هكذا خلافة لا تعرف أوَّليات الدين والقضاء من نظير «أنَّ اليد

(١) الاحتجاج: ٢/ ٣٥٤.
(٢) الاحتجاج: ١/ ١٠٣.
(٣) الكافي (الأصول) محمَّد بن يعقوب الكليني، تحقيق: عليّ أكبر غفاري: ١/ ٥٣٤.
(٤) الموسوعة الكبرى عن فاطمة الزَّهراء عليها السلام: ١٢/ ١٥٦.

حجَّة على مالكها»، ولا تعرف مبادىء كيف لها أن تقود أمَّة المسلمين وشؤونهم، ممَّا هيَّأ ذلك الخطاب للزَّهراء «فرضة ذهبيَّة في الإدلاء حول الحكومة الجديدة، وكشف اعتراضات الحكومة على الشرع المقدَّس، واجتهاداتهم التي لا علاقة لها بأهداف الرسالة»[1].

غير أنَّ الخطوة الأهم من تجاوز الحقّ ونكرانه، هو سدُّ الباب في وجه كلِّ من يريد أن يُبدي رأيه أو معارضة تجاه سلطة الدولة؛ بوصفها حكومة فتيَّة من جهة، وقائمة بغير حقٍّ من جهة أُخرى، فمن خلال هذا المعيار سيأخذ الجميع في عين اعتبارهم ذلك الفعل، فعندما تكون الخلافة في تعاملها مع آل الرسول بهكذا طريقة من مصادرة أموالهم. أي عندما يرون بنت زعيمهم ورسولهم تطالب بحقِّها ولا يُستجاب لها، فما بال سائر الناس؟ وكيف يمكن حكومة بهكذا معاملة أن توفِّر حقوق عامَّة الناس، وسائرهم الضعيف؟ كما أنَّ هناك وجه للمنع يستدرك المعايير النسقيَّة التي اتَّبعها السلطة الحاكمة تجاه السيِّدة الزَّهراء، هو أنَّ «لو أعطاها اليوم فدكًا بمجرَّد دعواها، لجاءت إليه وأدَّعت لزوجها الخلافة، وزحزحته عن مقامة، ولم يكن يمكنه الاعتذار بشيء؛ لأنَّه قد سجَّل على نفسه بأنَّها صادقة فيما تدَّعي»[2]، فضلًا عن أنَّ المتسنِّمين للحكم كانوا في ظرف دقيق لا يتَّسع للتغيير في أسس السياسة ونقاطها الحساسَّة، كونهم تحت مراقبة النظر الإسلاميّ العام، الذي كان مخلصًا كلَّ الإخلاص لمبادئه، ومن جانب آخر يعرِّضهم لو فعلوا شيئًا من ذلك للمعارضة الخطرة من الحزب الذي ما زال يوالي الإمام عليّ عليه السلام، ويؤمن بأنَّ الحكم الإسلامي لا بدَّ أن يكون مطبوعًا بطابع محمَّدي، وأنَّ الشخص الذي يستحقُّ هذا الطابع هو شخص عليّ عليه السلام[3].

(١) الموسوعة الكبرى عن فاطمة الزَّهراء عليها السلام: ١٢/ ١٦٧.
(٢) الاحتجاج: ١/ ٩١.
(٣) يُنظر: فدك في التاريخ، الشهيد محمَّد باقر الصدر، تحقيق: عبد الجبَّار شرارة: ٣٠.

الخاتمة

- شكَّل خطاب السيِّدة الزَّهراء مرجعًا أثيرًا للرواية والخبر والسند، فضلًا عن الاستبطان العقديّ للإمامة، إذ تضمَّن خطابها استفهامًا يستبعه استخبار، لاسيَّما أن هذا الاستفهام يمتدُّ سؤاله إلى يومنا هذا؛ بوصف أنَّ خطابها جاء ملازمًا لأهمِّ حقبة مرَّت بتاريخ الإسلام (وفاة الرسول الأعظم)، وما تبعه من أحداث ورَّثها التاريخ على خلفيَّات اجتماع السقيفة.
- أبانت من خصام القوم، الامتداد المستقبليّ لقضيَّتها؛ بوصف أنَّ السقيفة مشروع قائم حتَّى اليوم، فهي قضيَّة مفتوحة بغضِّ النظر عن قِدَم تاريخها، إذْ لم يُحدَّد فيها الجاني، بخلاف الاعتداءات والإدانات التي حصلت لأبنائها الأئمَّة.
- أرَّخ خطابها شاهدًا تاريخيًّا فاضحًا لحقيقة الانحراف الذي جارَ على مسار الرسالة الإلهيَّة، وكيف اجتاح الانحراف لمقام الخلافة المنصوص عليها، إذ أدلت بالإشارة إلى مدى قبح هذا السلوك المخالف من قِبَل خفائر قريش للأمر الإلهيّ، وأمر النبيّ محمَّد صلى الله عليه وآله أزاء قضيَّة الخلافة والولاية، وما يتبعها من المخالفات العقديَّة.
- حدَّد خطابها عليها السلام الطريق أمام المسلم، فإبطال شرعيَّة خلافة الخليفة الأوَّل هو حكم شامل ويسير على كلِّ حكم وحكومات جارية بعده، بأنَّها غير شرعيَّة،

وهذا يُعدُّ منصَّة تؤسِّس من خلاله السيِّدة الزَّهراء الخطّ الهاشميّ واحدًا بعد الآخر، وشرعيَّة حقِّهم للخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، كما بيَّنت ذلك في خطبتها: «**وطاعتنا نظامًا للملَّة**».

قائمة المصادر والمراجع

* القُرآن الكريم.

١. الاحتجاج، أحمد الطبرسيّ، تحقيق: محمَّد باقر الخرسان، الناشر: دار النعمان للطباعة والنشر، (ب.ط)، العراق، النجف، ١٩٦٦.

٢. الإسلام من منظور علم الأناسة، غرتس كليفورد، ترجمة: أبو بكر باقادر، دار المنتخب العربي، ط١، بيروت، لبنان، ١٩٩٣.

٣. الإمام الحسين، عبد الله العلاينيّ، دار مكتبة التربية، (ب.ط) بيروت، (ب. ت).

٤. الإمامة والسياسة، ابن قتيبة الدِيْنوريّ (ت ٢٧٦هـ)، دار الكتب العلميَّة، (ب.ط)، بيروت، لبنان، (ب.ت).

٥. الانحرافات الكبرى- القرى الظالمة في القُرآن الكريم، سعيد أيُّوب، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، بيروت، لبنان، ١٩٩٢.

٦. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمَّة الأطهار، محمَّد باقر المجلسيّ، دار أحياء التراث العربيَّ، مؤسَّسة التاريخ العربيّ، ط٣، بيروت، لبنان، ١٩٨٣.

٧. تاريخ الطبريّ، أبو جعفر محمَّد بن جرير الطبريّ (ت ٣١٠هـ)، تحقيق: نخبة من العلماء الأجلَّاء، مؤسَّسة الأعلميّ للمطبوعات، (ب.ط)، بيروت، لبنان، (ب.ت).

٨. التحقيق في كلمات القُرآن الكريم، حسن المصطفويّ، دار الكتب العلميَّة، ط٣، بيروت، لبنان، ١٤٣٠هـ.
٩. تحوُّلات الخطاب النقديّ العربيّ المعاصر، مؤتمر النقد الدوليّ الحادي عشر، ٢٥-٢٧/ ٧/ ٢٠٠٦، كليَّة الآداب، جامعة اليرموك، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، وجدار للكتاب العالميّ، ط١، عمَّان، الأردن، ٢٠٠٨.
١٠. التسميات بين التسامح العلويّ والتوظيف الأمويّ- دراسة تحليليَّة، عليّ الشهرستانيّ، الناشر: مؤسَّسة الرافد للمطبوعات، ط٢، إيران، مشهد، (ب.ط).
١١. حفريَّات المعرفة، ميشال فوكو، ترجمة: سالم يفوت، المركز الثقافيّ العربيّ، (ب.ط)، بيروت، لبنان، ١٩٨٧.
١٢. السقيفة: محمَّد رضا المظفَّر، (ب.ط)، النجف الأشرف، (ب.ت).
١٣. شرح خطبة الزَّهراء عليها السلام وأسبابها، نزيه القميحا، الناشر: الشيخ نزيه القميحا، ط٢، ١٩٩٥.
١٤. الشيخ والمريد: النسق الثقافيّ للسلطة في المجتمعات العربيَّة الحديثة، عبد الله حمُّودي، ترجمة: عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر، ط١، الدار البيضاء، ٢٠٠٠.
١٥. صحيح البخاريّ، تحقيق: مصطفى البغا، دار ابن كثير، ط١، بيروت، لبنان، ١٩٨٣.
١٦. عودة الأنسنة في الفلسفة والأدب والسياسة، د. جورج القار، مطبعة أروى، (ب.ط)، الأردن، (ب.ت).
١٧. فدك في التاريخ، الشهيد محمَّد باقر الصدر، تحقيق: عبد الجبَّار شرارة، الناشر:

مركز الغدير للدراسات الإسلاميَّة، ط١، بيروت، لبنان، ١٩٩٤.

١٨. الكافي (الأصول) محمَّد بن يعقوب الكلينيّ، تحقيق: عليّ أكبر غفاري، دار الكتب الإسلاميَّة، ط٥، إيران، طهران، ١٣٦٣هـ.ش.

١٩. كنز العمَّال في سنن الأقوال والأفعال، المتَّقي الهنديّ (ت ٩٧٥هـ)، تحقيق: الشيخ بكري حيَّاني، مؤسَّسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٩٨٩.

٢٠. الموسوعة الكبرى عن فاطمة الزَّهراء عليها السلام، إسماعيل الأنصاريّ، الناشر: منشورات دليل ما، ط١، إيران، قم، ١٤٢٨هـ.

٢١. النقد الثقافيّ- قراءة في الأنساق الثقافيَّة العربيَّة، عبد الغذَّامي، الناشر: المركز الثقافيّ العربيّ، ط٣، بيروت، لبنان، ٢٠٠٥.

الدوريَّات:

٢٢. من سلطة الثقافة إلى ثقافة السلطة، محمَّد عبد المطَّلب، مجلَّة فصول، العدد: ٧٩ شتاء- ربيع ٢٠١١.

صفات الزَّهراء في قصيدة (هيَ الزَّهراء) للشاعر محمَّد الحرزيّ دراسة وصفيَّة وتأصيليَّة من الكتاب والسنَّة

م.د. صادق كاظم محمَّد عليّ الصفَّار

ملخَّص البحث

قامت فكرة البحث على أساس استنطاق نصَّين إذا ما قورِنا بغيرهما عُدَّا أوثق النصوص على الإطلاق، وهما: (النصُّ القرآنيّ)، و(الحديث النبويّ)، اللذَين جاءا في نسقٍ شعريٍّ في قصيدة للشاعر المعاصر محمَّد الحرزيّ.

قد اشتمل البحث على مبحثَين متناظِرين، حملا كفَّتين متعادلَتَين، فكان الأوَّل يحمل كفَّة الوصف؛ لذا وسمته بـ(وصف القالب اللغويّ) الذي سُكبت فيه الفكرة المراد إيصالها إلى المتلقِّي، إذ يتغيَّا هذا المبحث نظرة فاحصة مسلَّطة على القوالب اللغويَّة لذلك النصِّ الإبداعيّ، الذي استمدَّ مُنشِئه أدلَّته الحجاجيَّة وتعابيره الكلاميَّة من النصوص القرآنيَّة، والأحاديث النبويَّة التي قيلت في حقِّ فاطمة الزَّهراء عليها صلوات ربِّها تعالى.

وأمَّا المبحث الثاني، فوسمتُه بـ(استنطاق النصِّ القرآنيّ والحديث النبويّ)، وهذا لا يعني أنَّ هذَين النصَّين صامتان، فيعمد شاعر إلى استنطاقهما، لا، بل نحن نؤمن بأنَّ كِلَا النصَّين لا يمكن أن يُتصوَّرا صامتين؛ لأنَّ وظيفة الأوَّل إعجازيَّة، ووظيفته الآخر إبلاغيَّة، وقد نصَّ القرآن الكريم على ذلك: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ (سورة الأنعام: ١٩)، وإنَّما المراد:

١. جعل القرآن شاهدًا على صحَّة ما جاء به الشاعر.

٢. بيان شأن السيِّدة فاطمة عليها السلام؛ لأنَّها مذكورة في القرآن ذِكر تشريف.

٣. كون السيِّدة فاطمة عليها السلام مثل الله في كتابه، الواجب اقتداؤه واقتفاؤه، والأنموذج الأنثويّ الذي قدَّمه رسول الله؛ ليكون نمطًا يُحاكى، وأثرًا يُقتفى، ومثالًا يُقتدى.

٤. استمالة الأذهان إلى شعر بوساطة آي القرآن الكريم، والحديث النبويّ الشريف.

٥. محاكمة المخاطب عقلًا، بالرجوع إلى أوثق النصوص وأعلاها على الإطلاق.

ثمّ تلتها خاتمة اشتملت على نتائج، منها:

١. تعدُّد الأنساق الكلاميَّة في القصيدة محلُّ البحث، التي توحي بسعة أُفق الشاعر من جهة، وإحاطته التامَّة بالأحداث التي جرت وسبَّبت ما سبَّبت من آلامٍ لم تهدأ زفرتها، من جهةٍ أخرى.

٢. فضلًا عن الصفات التي ساقها الشاعر مصرِّحًا بها، أم ملمِّحًا، كانت هناك صفة أعطاها مجموع أبيات القصيدة، فإلى جنب الصفات التي ذكرناها في البحث، هناك صفة لا يسعنا ذكرها إلَّا ههنا، وهي المظلومة. وكان الشاعر أمينًا في عرض الصفات التي بيَّنت ماهيَّة الزَّهراء؛ لذا قابل مضمونُ القصيدة عنوانَها بكلِّ دقَّة.

وعقبتها قائمة بالمصادر والمراجع، التي كانت عون الباحث في بحثه.

وأخيرًا يمكننا أن نجعل هذا البحث، بالنظر إلى ما اشتمل عليه، على لائحة المحور السابع (دراسات اللغة العربيَّة وآدابها)، من محاور مؤتمر الزَّهراء عليها السلام الدوليّ.

وبعد هذا أسأل الله تعالى أن يكون عملي هذا مكلَّلًا بالتوفيق والقبول لديه، ولدى أوليائه الذين ارتضى طاعتهم، وقبل خدمتهم، وعرَّف عباده منزلتهم، وصلواته وسلامه عليهم ماذرَّ شارق وما كرَّ طارق.

المقدِّمة

الحمد لله والحمدُ حقُّه كما يستحقُّه، والصلاة على خير خلقه المبعوث بالحقِّ رحمةً للعالمين وآله الطيِّبين الطاهرين، المعصومين من الزلل، المسدَّدين في القول والعمل.

أمَّا بعد..

فيطيب لي أن أجري المداد على هذه الصحائف؛ لتكون ذخرًا لمن كتبها، ونفعًا لمن يقرأها، التي تتمحور بموضوعها حول السيِّدة الزَّهراء (صلوات الله عليها)؛ لأكون ممَّن اقترب منها، على الرغم من تباعد الآماد، وتطاول الأزمان.

وقد اشتمل البحث على مبحثَين متناظرَين، حملا كفَّتين متعادلَتَين، فكان الأوَّل يحمل كفَّة الوصف؛ لذا وسمته بـ(وصف القالب اللغويّ)، الذي سُكبت فيه الفكرة المراد إيصالها إلى المتلقِّي، إذ يتغيَّا هذا المبحث نظرة فاحصة مسلَّطة على القوالب اللغويَّة لذلك النصِّ الإبداعيّ الذي استمدَّ منشئه وأدلَّته الحجاجيَّة وتعابيره الكلاميَّة من النصوص القرآنيَّة والأحاديث النبويَّة التي قيلت في حقِّ فاطمة الزَّهراء (عليها صلوات ربِّها تعالى).

وأمَّا المبحث الثاني، فوسمتُه بـ(استنطاق النصِّ القرآنيّ والحديث النبويّ)، وهذا لا يعني أنَّ هذين النصَّين صامتان، فيعمد شاعر إلى استنطاقهما، لا، بل نحن نؤمن بأنَّ كِلَا النصَّين لا يمكن أن يُتصوَّرا صامتين؛ لأنَّ وظيفة الأوَّل إعجازيّة، ووظيفته الآخر إبلاغيَّة، وقد نصَّ القرآن الكريم على ذلك: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ (سورة الأنعام: ١٩)، وإنَّما المراد:

١. جعل القرآن شاهدًا على صحَّة ما جاء به الشاعر.

٢. بيان شأن السيِّدة فاطمة عليها السلام؛ لأنَّها مذكورة في القرآن ذِكر تشريف.

٣. كون السيِّدة فاطمة عليها السلام مثل الله في كتابه الواجب اقتداؤه واقتفاؤه. والأنموذج الأنثويّ الذي قدَّمه رسول الله؛ ليكون نمطًا يُحاكى، وأثرًا يُقتفى، ومثالًا يُقتدى.

٤. استمالة الأذهان إلى شعر بوساطة آي القرآن الكريم، والحديث النبويّ الشريف.

٥. محاكمة المخاطب عقلًا بالرجوع إلى أوثق النصوص وأعلاها على الإطلاق.

ثمَّ تلتهما خاتمة اشتملت على أهمِّ ما توصَّل إليه الباحث، وعقبتها قائمة بالمصادر والمراجع التي كانت عون الباحث في بحثه هذا. وقد قصرتُ البحث على إيراد أبيات مخصوصة من القصيدة، مستغنيًا بها عن ذِكر القصيدة كاملة؛ لئلَّا تكثر صحائف البحث من غير مسوِّغ؛ لأنَّ القصيدة محمَّلة على شبكة (الانترنت).

وبعد هذا أسأل الله تعالى أن يكون عملي هذا مكلَّلًا بالتوفيق والقبول لديه ولدى أوليائه الذين ارتضى طاعتهم، وقبل خدمتهم، وعرَّف عباده منزلتهم، وصلواته عليهم ما ذرَّ شارق وما كرَّ طارق.

التمهيد

مدح الله تعالى عباده المؤمنين في مواضع كثيرة من كتابه العزيز، كما نجد في مواضع أخرى من كتابه قد ذمَّ فيها الكافرين. ولا يوجد صنفًا آخر بين الممدوح والمذموم، وهذا مصداق قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (سورة الإنسان: ٣)، أي: إمَّا شاكرًا فمشكور، وإمَّا كافرًا فمذموم. ولا شكَّ أنَّ الأفعال الصادرة من الإنسان بإزاء الأحداث المحيطة به هي الكفيلة بجزاء صاحبها في المعاد، فضلًا عن كونها أداة رسم جيِّدة، تسعى لرسم صورة ذهنيَّة في مخيَّلة الآخرين.

وينماز الإنسان عن سائر الأحياء بتاريخه الذي تُسطَّر على صحائفه أفعاله المختلفة التي قام بها مدَّة إقامته الأرضيَّة، ويبقى هذا السجل محفوظًا يُفتَتح متى ما أُريد استذكار ذلك الإنسان. فكلٌّ منَّا في ذهنه صور مختلفة لكثير من الأشخاص، ولا تتوقَّف تلك الصور على الأشخاص الذين نعاصرهم، أو نقيم معهم، أو نعيش فيهم، بل قد تكون تلك الصور لأشخاص سبقونا بالعيش على المعمورة بعشرات القرون. وكلَّما توسَّعت دائرة معارف الإنسان ازدادت تلك الصور الذهنيَّة التي تخلقها كتب التاريخ والسِّير في مخيِّلته بوساطة الأحداث التي تقصُّها، والأفعال التي تذكرها، والمواقف التي تنصُّ عليها.

فلا غرابة في أن نجد شاعرًا قد تجلَّت في نفسه صفات امرأة سبقته بالوجود على الأرض بأربعة عشر قرنًا، فعمد إلى قولبة تلك الصفات بقوالب لفظيَّة تناسب مقامها السامق، وقدرها الرفيع؛ لذا نجده يقول في مطلع القصيدة محلّ النظر:

مـا كـانَ عَـهْـدِي بِـالـذيـنَ تَحَـمَّـلُـوا
إلا كَـعَـهْـدِ مَـنِ احْـتَـواهُ الجَـنْـدَلُ

في هذا البيت إشارة واضحة إلى الألم المجتنى من الفراق، لكنَّ لطافة الحسِّ لدى الشاعر جعلته يعمد إلى آلة البيان العظمى، فاستعمل التشبيه إيذانًا منه أنَّ الفراق لم يكن بملكه؛ وإنَّما كان مفروضًا عليه؛ لذا قال: (إلا كَعَهْدِ مَنِ احْتَواهُ الجَنْدَلُ). وبهذا يكون الشاعر قد امتلك براعة الاستهلال، وحسن التخلُّص في مطلع قصيدته، إذ قال:

وَطَـنٌ بِـهِ الـزَّهْـراءُ حَـطَّ جَلالُـها
فَـفِـداءُ تُـرْبَـتِـهِ الـوُجـودُ الأَكْـمَـلُ
أَصْـلُ الـنـبـوَّةِ والـولِا يُـنْـبِـيكَ عَـن
إجـلالِهـا مَـلَـكٌ ويَـشْـهَـدُ مُـرْسَـلُ

نلاحظ أنَّ الشاعر قد استعمل مفردَتين مشتقَّتين من جذر لغويّ واحد على وزنَين مختلفَين هما (جلال) و(إجلال)، فكلتاهما من الجذر (ج ل ل)، قال ابن فارس (ت٣٩٥هـ): «جَلَّ الشَّيْءُ: عَظُمَ»[1]، والملاحَظ أنَّ هاتين المفردَتَين هما بؤرتا المعنى في البيتَين، فالبلد الذي أناخ جلال هذه المرأة فيه رحاله، يطلب الشاعر له الفداء بالوجود أكمله، ثمَّ يصرِّح في بيان سبب الجلال الذي اتَّشحت به هذه المرأة في البيت الثاني، فيقول ما نراه جليًّا في حديث رسول الله ﷺ: «**إِنَّ هَذَا ملك لم ينزل الأَرْض قطُّ قبل هَذِه اللَّيْلَة اسْتَأْذن ربَّه أَن يسلِّم عَليَّ، ويبشِّرني بِأَنَّ فَاطِمَة سيِّدة نسَاء أهل الْجنَّة، وَأَن الْحسن وَالْحُسَيْن سيِّدا شباب أهل الْجنَّة**»[2]، فالرافد المعنويّ الذي رفد البيت كان نصًّا نبويًّا، فلفاطمة الزَّهراء عليها السلام، ولبنيها عليهم السلام السيادة والسؤدد في الآخرة، بإنباء المرسل، وبشاهدة

(١) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس: ١/ ٤١٧.
(٢) أخرجه الترمذيّ، وذكره الحاكم النيسابوريّ، المستدرك على الصحيحَين: ٣/ ١٥١، وابن حجر الهيتميّ في الْفَصْل الثَّانِي «فِي سرد الأَحَادِيث الوَارِدَة فِي أهل الْبَيْت»، الصواعق المحرقة: ٢/ ٥٤٦.

المَلَك، فكيف يكون قدرها في الدنيا؟ وما قيمة الدنيا بإزاء قدرها إن نظرنا إليها من زاوية قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ (سورة الرعد: ٢٦).

والفرق بين (الجلال)، و(الإجلال) المستعمَلين في البيتَين المذكورَين آنفًا، هو أنَّ (الجلال) اسم يدلُّ على عِظم الشأن وعلوِّه، وهو منحة إلهيَّة يمنُّ بها الله على الخواصِّ من عباده، أمَّا (الإجلال) فهو مصدر الفعل (أجلَّه- يُجلُّه- إجلالًا)، بمعنى التعظيم والإكبار. فالشاعر بعبقريَّته جمع للسيِّدة فاطمة ما منَّ الله به عليها، وهو (الجلال)، وما حصلتْ عليه بفضل سيرتها وسلوكها وحسن خُلقها، وهو (الإجلال)، في بيتَين مترادفَين. فالقصيدة التي أثمر النظر فيها هذا البحث المتواضع دارت في فلك المجد الذي تجلَّى في نفس الشاعر عبر القرون المتطاولة للسيِّدة فاطمة عليها السلام، فجاءت صور ذلك المجد كلاميَّة منظومة بدقَّة عالية.

والشاعر غالبًا ما يحتكم إلى خياله، فبعد أن تعصف به التجلِّيات يعمد إلى إيجاد جلباب لغويّ يتمظهر به المعنى بكامل حُلَّته أمام المتلقِّي، ومن عدم الإنصاف أن يُخضع النصّ الأدبيّ إلى أعرافنا اللغويَّة التي اعتدناها في خطابنا اليوميّ بأشكاله كافَّة؛ لأنَّ الشعر بصورة خاصَّة والأدب بصورة عامَّة لغة في لغة؛ فلا يجوز أن نعامل النصَّ الأدبيّ معاملة النصوص الكلاميَّة الأخرى التي تخلو من الفنِّ والإبداع. والشاعر الذي يتمحور هذا البحث حول إحدى قصائده لم يكن بمعزل عن هذا الأمر، فهو أحد أمراء الكلام الذين «يصرِّفونه أنَّى شاءوا، ويجوز لهم ما لا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى وتقييده، ومن تصريف اللَّفظ وتعقيده..»[1]، فمن الواجب علينا مراعاة التشكيل البنيويّ الذي نُسج البيت على منواله من تقديمٍ وتأخيرٍ وحذفٍ وذِكرٍ، وغير ذلك ممَّا

(١) هذا الكلام منسوب إلى الخليل بن أحمد الفراهيديّ في وصف الشعراء. ينظر: شرح مقامات الحريريّ، للشريشيّ: ١/ ٣٨٠، وزهر الآداب وثمر الألباب، لأبي إسحاق القيروانيّ: ٣/ ٦٨٧، وقد نقل الثعالبيّ قول أبي بكر الخوارزميّ: «ما ظنُّك بقومٍ هم أمراء الكلام، يقصِّرون طويله، ويطوِّلون قصيره، يقصِرون ممدوده، ويخفِّفون ثقيله؟». اللطائف والظرائف: ٦٢.

يحفظ للشعر هويَّته بين أفانين الكلام الأخرى؛ لذا قيل: «الجناح بالخوافي، والقريض بالقوافي»[1]، وبهذا تتجلَّى الناحية البنيويَّة، أمَّا الناحية المعنويَّة، فتتمثَّل باستقاء الفكرة عبر القرون من مظانِّها، وقولبتها بالقالب اللغويّ الذي يناسبها، فتتوافق معه، ويتناغم معها؛ ليسيرا مسيرًا متزامنًا، أحدهما إلى القلب، والآخر إلى السمع، وبذلك تحصل القصيدة على درجة من البلاغة والعذوبة، فقد نصَّ أئمَّة البيان على أن «لا يكون الكلام يستحقُّ اسم البلاغة حتَّى يُسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك»[2]. والشاعر محمَّد الحرزيّ قد أحرز قصب السَّبق في الوصول بقصائده إلى مظانِّها لدى المتلقِّي.

(١) التمثيل والمحاضرة، للثعالبيّ: ١٨٤.

(٢) ينظر: البيان والتبيين، للجاحظ: ١/ ١١٣.

المبحث الأوّل

وصف القالب اللغويّ المختار للفكرة في القصيدة

يُجمع أئمّة اللسان العربيّ على أنَّ الكلام الأدبيّ يحتلُّ المرتبة الوسطى بين الكلام المعجِز والكلام المتاح، وهذا التقسيم مخصوص باللغة العربيَّة[1]، ففيها كلام لا يمكن لأحد محاكاته أو معارضته، وهو القرآن الكريم، وهذا أمرٌ متَّفق عليه قديمًا وحديثًا، ولسنا في معرض سوق الأدلَّة، ولكن إتمامًا للفكرة المسوقة، نأتي بما قاله الزجَّاج (ت٣١١هـ): «احتجَّ الله عليهم بعد احتجاجه بقوله: ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ (سورة الإسراء: ٥٠) بالقرآن فأعلمهم، وهم العرب العاربةُ أهل البيان، ولهم تأليف الكلام، فقال لهم: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (سورة الإسراء: ٨٨)، والظهير المعينُ. وقوله: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾ (سورة الإسراء: ٩٠)، هذا قولهم بعد أن انقطعت حجَّتهم، ولم يأتوا بسورة من القرآن، ولا دفعوا أن يكون معجزةً، فاقترحوا من الآيات ما ليس لهم؛ لأنَّ الذي أتاهم به من القرآن، وانشقاق القمرِ، وما دلَّهم به على توحيد الله أبلغ وأعجز في القدرة ممَّا اقترحوا»[2]، فهم لم يستطيعوا الإتيان بمثل القرآن، مع أنَّ ناصية اللغة بأيديهم، فنأوا عن ذلك، وراحوا يبحثون عمَّا هو أكثر تعجيزًا في رأيهم، ونقل لنا القرآن طلبهم؛ ليعلمنا بوهي حجَّتهم.

(١) ينظر: تاريخ آداب العرب، للرافعيّ: ٢/ ١٧٣.
(٢) معاني القرآن وإعرابه: ٣/ ٢٥٩.

وما عدا الكلام المعجز كلُّه متاح، ولكن هناك متاح للخاصَّة، وهو النسق الأدبيّ من اللغة الذي يؤتى به متفَنِّنًا في ألفاظه، ومتأنِّقًا في عباراته، وهناك متاح للعامَّة، وهو ما يؤتى به من غير ذلك، والفرق بين النَّسقَين المتاحَين من الكلام هو أنَّ ما تفنَّنَ به قائله، وتأنَّق به مُنشئه، يكون أعلق في الأذهان من غيره، وألصق بالنفوس من سواه، وبما أنَّ فلك بحثنا يدور في النسق المتفنَّن به من الكلام، أذكر أحد الأمثال العربيَّة (أَسِير من الشِّعْر) قال أبو هلال العسكريّ (ت٣٩٥هـ) مبيِّنًا سبب ذيوع الشعر بين الأوساط: «لحمل الروَاة لَهُ يَمِينًا وَشمَالًا، وَقيل الشِّعْر قيد الْأَخْبَار، وبريد الْأَمْثَال، وَالشعرَاء أُمَرَاء الْكَلَام، وزعماء الفخار، وَلكُلِّ شَيْء لِسَان، ولسان الزَّمَان الشِّعْر»[1]، وقد ذكر ما يشبه هذا الكلام في كتابه الصناعَتَين، فبعد أن وضع عنوانًا رأسيًّا (ميِّزات الشعر على غيره)، قال: «وممَّا يفضل به غيره أيضًا طول بقائه على أفواه الرواة، وامتداد الزمان الطويل به؛ وذلك لارتباط بعض أجزائه ببعض؛ وهذه خاصَّة له في كلِّ لغة، وعند كلِّ أمَّة؛ وطول مدَّة الشيء من أشرف فضائله. وممَّا يفضل به غيره من الكلام استفاضته في الناس، وبعد سيره في الآفاق، وليس شيء أسيَر من الشعر الجيِّد، وهو في ذلك نظير الأمثال. وقد قيل: لا شيء أسبق إلى الأسماع، وأوقع في القلوب، وأبقى على الليالي والأيام من مَثَل سائر، وشعر نادر»[2]، فما انفكَّ العرب عن عاداتهم الكلاميَّة المأثورة عن أسلافهم، فهم يحفظون مآثرهم ومآثر الأفاضل منهم في الشعر؛ لأنَّه حافظة لا تُخرَم مهما تطاولت الأزمان، وتباعدت الأوطان.

والذي يبدو لي أنَّ العرب أرادوا أن يحفظوا مآثرهم، وهم يدركون أنَّ السبيل الوحيد لحفظها هو الكتابة، لكنَّ غالبهم لا يملكها، فابتدعوا القالب الكلاميّ الذي لا يمكن أن يسقط منه شيء إن سُلِكَت تلك المآثر فيه، وهو النسق المنظوم، وأدركوا بعد ذلك أنَّهم كانوا على صواب؛ لأنَهم أمَّةً شفاهيَّة، ونتج عن ذلك مصادفة جيِّدة، فقد

(١) جمهرة الأمثال: ١/ ٣٥٣.

(٢) كتاب الصناعتَين: ١٧٣.

رووا تلك الأشعار في الحواضر والبوادي، وفي الحِلِّ والترحال، من غير أن يستدعوا صحفًا، ولا دُويًّا، ولا أقلامًا، فحفظوا تلك المآثر بالقالب الشعريّ، وباتوا يستدعون ذلك القالب المرصوص بالوزن، المحبوس بالقافية، من أذهانهم متَّى ما يشاؤون، ويتمثَّلون به متى ما يريدون، فأعطاهم ذلك مجموع فائدتَين، الأولى الحفظ، والثانية التعلُّق بما يحمله هذا القالب اللفظيّ من قيم ومبادئ ومُثُل سامية أُثِرَت عن أسلافهم، فهم أكثر علقة بآبائهم وأجداهم؛ لذا ذكر أحد الباحثين أنَّ سبب تكرار قصَّة نبيّ الله إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم منوط بادِّعاء العرب أنَّ إبراهيم أبوهم، فأدانهم القرآن؛ لأنَّهم أحقُّ من غيرهم بالاقتداء به، والاقتفاء لأثره، فهو أوَّل من كسَّر الأصنام ودمَّر الأوثان[1].

والمتأمِّل يجد أنَّ الشعر نتاج مشترك بين الشاعر ولغته، وكلَّما كانت اللغة ثريَّة، يكون نتاجها المولود من فم الشاعر أو يراعه أجمل وألطف وآنق، وكلَّما كان إبحار الشاعر في فضاءات الخيال أبعد، كان تركيبه الصورة الشعريَّة أندر، ولنقف على قول الحرزيّ:

عَـنَّـتْ لَـهَـا الأَيَّـامُ فَـهـي شَـواهِـدُ
تَمْـضي عـلى آيـاتِهـا فـتُـبَـجِّـلُ
آلاؤُهـا هِـبَـةُ الحَـيـاةِ وفَـضْـلُـهـا
في الـكـائِـنـاتِ عـلى المَـدى مُـتَـطَـوِّلُ
ولأجْـلِـهـا ابـتَـلَـجَ الـصَّـبـاحُ ونـورُهُ
واسـوَدَّ لـيـلٌ في المـجـرَّةِ أليَـلُ

(١) ينظر: أيسر التفاسير لكلام العليّ الكبير، لجابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائريّ: ٣/ ٥٠٢، والتفسير الواضح، لمحمَّد محمود الحجازيّ: ٢/ ٢٦٦، والتفسير الوسيط، للدكتور وهبة بن مصطفى الزحيليّ: ٢/ ١٤٧٩.

مقتبساً جذوته من الحديث القدسيّ: «**لولاكَ لولاكَ لما خلقت الأفلاك**»[1]، علمًا أنَّ المخاطَب فيه هو سيِّد الكائنات محمَّد بن عبد الله بن عبد المطَّلب صلى الله عليه وآله، ولـمَّا كانت فاطمة ابنته الوحيدة وبضعته المنصوص عليها بأحاديثه الصحيحة، شملها الشاعر بالسبب الذي لأجله خُلِق الكون؛ لأنَّه أصلها من جهة؛ ولأنَّها بضعته من جهة أخرى.

واللطيفة اللغويَّة التي يُستحسَن الوقوف عليها، هي أنَّ الشاعر أخذ مفهوم فعل الفلك الوارد في الحديث، ووظَّفه في البيت توظيفًا دقيقًا، قال الراغب الأصفهانيّ (ت٥٠٢هـ): «والفَلَكُ: مجرى الكواكب، وتسميته بذلك؛ لكونه كالفُلك، قال: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(سورة يس: ٤٠)»[2]، فالذائقة اللغويَّة لدى الشاعر أفضت به إلى استبدال الشيء بما يظهر منه، والذي يظهر من عمليَّة جري الكواكب في أفلاكها داخل المجرَّة العظيمة، هو الليل والنهار، فقال: «ولأجلها ابتلج الصباح.. البيت».

أنساق الخطاب في قصيدة (هي الزَّهراء)

اشتملت هذه القصيدة على أنساق كلاميَّة مختلفة، وهنا تظهر براعة الشاعر في ترجمة أفكاره بما ينبغي لها من تراكيب لغويَّة، وكنتُ عندما أتأمّل في شعر الشريف الرضيّ أو شعر المتنبيّ أو شعر أبي تمَّام أو غيرهم من الشعراء المفلَّقين المُجيدين، ينتابني شعور مُفاده أنَّ اللغة أفرغت نفسها على ألسنة هؤلاء الشعراء، فعادت طوع بنانهم بعد أن تلاشى كيانها في بيانهم، ولم يبتعد عنِّي ذلك الشعور عندما أقرأ للحرزيّ، فهو في إبداعه واحدهم، وإن تأخَّر به الدهر عنهم، ولكن لم يبعده عن دائرة فضلهم.

ومن الأنساق الكلاميَّة الملحوظة في قصيدته محلّ البحث:

نسق الخطاب المباشر:

وهو النسق الذي يستلزم وجود مخاطبٍ تتمُّ بينه وبين الشاعر عمليَّة الكلام، وغالبًا

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، لنظام الدين النيسابوريّ: ٢/ ٦.
(٢) مفردات ألفاظ القرآن: ٦٤٥.

ما يكون ذلك المخاطب- في لغة الشعر- العقل أو القلب، فالشاعر يعقد حوارًا معه، ويأتي باستدلالاته التي يحاول بها تصويب ما يعتقده صائبًا، أو ترجيح ما يراه راجحًا، ومن ذلك قوله:

يا عقلُ فاجزَع ما ذَكرْتَ مُصابَها

إن العقولَ لمثلِ ذا لا تعقلُ

جاء الخطاب مباشرًا في هذا البيت، موجَّهًا إلى العقل، مأمورًا فيه بالجزع؛ لأنَّه متعلِّق بقوله:

سَلْ (هل أتى) أوَ هَلْ أتى بِمِثالِها

دَهْرٌ يَجُودُ على الأنامِ ويَبْخَلُ

وهذا من الاستدلال التامّ، فهو لم يطلب شيئًا إلَّا لوجود سبب، وسبب (الجزع) هو ما جرى للصدِّيقة الطاهرة بعد وفاة أبيها صلى الله عليه وآله الذي هي بضعته. وتمثّل الاستدلال بقوله: (سل هل أتى)، وهذا تعبير كنائيّ مُفاده استنطاق النصِّ القرآنيّ المستهلّ بقوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾(سورة الإنسان: ١)، ففي هذه السورة إشارة إلى آية إطعام المسكين واليتيم والفقير، وهي قوله تعالى: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا﴾(سورة الإنسان: ٨). قال الواحديّ النيسابوريّ (ت٤٦٨هـ): «قَالَ عَطَاءٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: وَذَلِكَ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ نَوْبَةً أَجَّرَ نَفْسَهُ يَسْقِي نَخْلًا بِشَيْءٍ مِنْ شَعِيرٍ لَيْلَةً، حَتَّى أَصْبَحَ وَقَبَضَ الشَّعِيرَ وَطَحَنَ ثُلُثَهُ، فَجَعَلُوا مِنْهُ شَيْئًا لِيَأْكُلُوهُ، يُقَالُ لَهُ: الْخَزِيرَةُ. فَلَمَّا تَمَّ إِنْضَاجُهُ أَتَى مِسْكِينٌ، فَأَخْرَجُوا إِلَيْهِ الطَّعَامَ. ثُمَّ عَمِلَ الثُّلُثَ الثَّانِيَ، فَلَمَّا تَمَّ إِنْضَاجُهُ أَتَى يَتِيمٌ فَسَأَلَ فَأَطْعَمُوهُ. ثُمَّ عَمِلَ الثُّلُثَ الْبَاقِيَ، فَلَمَّا تَمَّ إِنْضَاجُهُ أَتَى أَسِيرٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَأَطْعَمُوهُ، وَطَوَوْا يَوْمَهُمْ ذَلِكَ. فَأُنْزِلَتْ فِيهِ هَذِهِ الْآيَاتُ»[1]، فالشاعر في هذا البيت احتكم إلى القرآن الكريم، مستدلاً بإحدى

(١) أسباب نزول القرآن: ٤٤٨.

سوره الكريمة؛ لتُخبرنا بفضل فاطمة الزَّهراء عليها السلام، ويُلحَظ تحوُّلٌ مباشر في البيت من الاستدلال بالقرآن إلى استنطاق الدهر؛ ليُثمرَا بانفراد السيِّدة فاطمة وتفرُّدها.

نسق المحاكمات العقليَّة:

يعمد الشاعر في كثير من الأحيان إلى تقرير أمرٍ بالرجوع إلى العقل والركون إليه؛ لإماطة الشبهة، كقوله في القصيدة محلّ البحث:

والـــــدرُّ كـــلٌّ في الجـــمالِ مُـصـدرٌ

لـكـن يَـزيـنُ الـــدرَّ مـا هـو أجمـلُ

وقوله في قصيدة أخرى:

وإنَّ ذيــول الخيـل خـرسٌ وإن زهـت

لـكـنّـها إذا شُـــدّت عـلى الـعـود غـنّـتِ

فهذا النسق من الكلام يجعل البيت يسير مسير المثل، ففي البيت الأوَّل احتكم الشاعر إلى العقل بتفعيل إحدى ملكاته، وهي الذوق؛ لأنَّه قوَّة إدراكيَّة يحصل بفعلها التمييز بين الجميل والأجمل[1]، أمَّا في البيت الثاني فقد احتكم إلى العقل أيضًا، ولكن بتفعيل عنصر التجربة الإنسانيَّة؛ لإعطاء الشيء الواحد محلَّين مختلفين يتفاضل فيهما. فالدرُّ يتفاضل مع أفراد جنسه عندما يكون عِقدًا للجميل، وذيول الخيل تتفاضل مع أفراد جنسها عندما تكون أوتارًا للعود.

نسق خطاب الذات:

لم يبتعد الشاعر محمَّد الحرزيّ عن ديدن الشعراء، فهو أحدهم في هذا النسق الكلاميّ. قال ابن الإطنابة[2]:

(١) قال التهانويّ: الذوق: «قوَّة إدراكيَّة لها اختصاص بإدراك لطائف الكلام ومحاسنه الخفيَّة». كشَّاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ١/ ٨٣٣.

(٢) هو عمرو بن عامر بن زيد مناة بن عامر، من قبيلة الخزرج، أمُّه الإطنابة بنت شهاب بن زِبَّان=

وقـــولي كـلَّـما جـشـأت وجـاشـت
مـكـانَـكِ تُحـمـدي أو تـسـتريحي

قال أبو عبيد البكريّ الأندلسيّ (ت٤٨٧هـ): «وروى غيرُ واحد:

وقـــولي كـلَّـما جـشـأت لـنـفـسي...

وهو أحسن من وجهَين، أحدهما: أنَّ جشأت وجاشت بمعنى واحد، معناهما الارتفاع، والثاني: رجوع الضمير على مذكور»[1].

من هذا النصّ ندرك أنَّ صاحبه عمد إلى المفاضلة بين روايتَين لبيتٍ واحدٍ، إحداهما أشهر من الأخرى، لكنَّه استحسن المفضولة شهرةً منهما على الفاضلة بظهور لفظ (النفس) الذي يوضح عَود الضمير في (جشأت) عليه، أمَّا أنا فأقول: إنَّ استحسانه لم يكنْ موقوفًا على اللفظ كما ذكر، بل يتعدَّاه إلى المعنى، إذ يظهر فيه المخاطَب بأجلى صوره، ولا شكَّ أن يكون هذا البيت نمطًا يُحتذى في هذا النسق الكلاميّ، فقد بوَّبَ البحتريّ (ت٢٨٤هـ) في حماسته بابًا تحت عنوان (الباب الأوَّل فيما قِيلَ في حَمل النفس على المكروهِ عند الحرب)، وجعل البيت المذكور في أوَّل الباب[2]. ويرى البكريّ (ت٤٨٧هـ) أنَّ قطريّ بن الفجاءة (ت٧٨هـ) قد أخذ من هذا البيت قوله[3]:

=من بني القين بن جَسْر. شاعر جاهليّ قديم، وأحد فرسان العرب المشهورين، ويقال: إنَّه كان ملكًا على المدينة في الجاهليَّة، ملَّكه عليها النعمانُ بن المنذر ملك الحيرة. وفي بعض الأخبار أنَّه كان ملك الحجاز. وهو أحد الشعراء الذين نُسبوا إلى أمَّهاتهم لا إلى أبيهم، ولم تذكر المصادر سبب ذلك. ينظر: الأعلام، لخير الدين الزركليّ: ٥/ ٨٠.

(١) سمط اللآلي في شرح أمالي القالي، لأبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكريّ الأندلسيّ، تحقيق: عبد العزيز الميمنيّ: ١/ ٥٧٤-٥٧٥، وينظر: شرح أبيات مغني اللبيب، للخطيب البغداديّ (ت١٠٩٣هـ)، تحقيق: عبد العزيز رباح: ٤/ ٢٤٨.

(٢) ينظر: الحماسة للبحتريّ، تحقيق: د. إبراهيم حوّر، وأحمد محمَّد عبيد: ٣٩.

(٣) سمط اللآلي في شرح أمالي القالي: ١/ ٥٧٥.

أقـــول لهـا وقـــد طـــارت شَـعـاعًـا
مـــن الأبـطـال ويحـــــك لا تـراعـي

والملاحظ أنَّ في القصيدة محلّ البحث والتنقير عمودَ خطابٍ ينبلج في كلِّ بيتٍ منها يخاطب الشاعر فيه نفسه بذكر صفات السيِّدة الزَّهراء التي انمازت بها عن سائر النساء، فأصبحت سيِّدة الطواهر منهنَّ، ولنقف على قوله:

جلَّت فـدقَّت في الـنـفـوسِ فـضـاقَ عن
إدراكِـــهـــا عـقـلٌ وضـــلَّ مُـضـلَّـلُ
أبـــدًا كـمـثـلِ الـشَّـمـسِ يُـبـديـهـا الضيا
وعـــن الـعـيـونِ بـضـوئـهـا تـتـسربـلُ
مـفـطـومـة عـن كـلِّ رجـــسٍ كُـنـهُـهـا
سرٌّ لـــدى عـلـمِ الإلـــه مجـلَّـلُ

تُرى من المخاطب في هذه الأبيات غير ذات الشاعر؟ فحاول أن يجلِّي صفات السيِّدة الزَّهراء في فضاءاتها مستوحاة من مأثور القول في كتب التراجم والسير، فعمد إلى إخراج تلك المعاني إخراجًا ينبئ المتلقِّي عن قابليَّته اللغويَّة في إخراج المعنى بلبوسٍ لغويّ حسن الوقع في النفوس، إذ نجده في البيت الأوَّل يسبغ صفة الجلال والدقَّة في آنٍ واحد، إذ يجمع الضدَّين فيه، ثمَّ علَّل عدم إدراك العقل لها بما يملكه من آليات الإدراك؛ لأنَّها سرٌّ من أسرار الإله تعالى، كما جاء بذلك صراحة:

هـي سرُّ بـارئـهـا و محـض جـلالِـهِ
ومِـثـالُـهُ الأعـلى الـذي لا يُـعـدَلُ
هـي رُكـــنُ رحمـتِـهِ وغـايـةُ جـودِه
وجَـنـابُ رأفـتِـهِ الـبَـهِـيُّ المُـؤثَـلُ

والحـجَّـةُ الـكُـبرى عـلى حـجـجِ الـورى

مـن عِـلـمِـهـا نَهَـلـوا و عـنـهـا أَنْهَـلـوا

فهذا التعداد لتلكم الصفات غايته إعلان استسلام العقل أمام تلك السيِّدة الفضلى بما اشتمل عليه شخصها. ولا يبتعد هذا النسق الخطابيّ كثيرًا عمَّا أُطلِق عليه اسم (نداء الصفات)[1]، والمراد بذلك بيان فضيلة الممدوح أو المرثيّ.

وبالعودة إلى ثاني الأبيات السابقة، نجد الشاعر يستعين بأسلوب التشبيه لإيصال فكرته في جمع الضدَّين (الجلال والدِّقَّة)، كما اجتمعا في الشمس، فهي عظيمة بحجمها، دقيقة بعدم قدرة العين على تحمِّل أشعَّتها، فالضوء الذي أبداها هو نفسه الذي أخفاها، فقال: (بضوئها تتسربل).

أمَّا ثالث تلكم الأبيات، فقد استهلَّه الشاعر باسم المفعول (مفطومة) إنباءً منه أنَّها معصومة[2]؛ لأنَّـها مَثَل الله الأعلى وابنة مَثَله. ويخُيَّل إليَّ أنَّ الشاعر في هذا البيت تصوَّر سائلًا يسأله عن كيفيَّة ذلك بسؤال متخيَّل: (كيف كان ذلك؟)، فيأتي الجواب على هيئة الاستئناف البيانيّ[3]، ردًّا على السؤال المتخيَّل: (كُنهُها سرٌّ لدى علمِ الإله مجلَّلُ)، فهذه

(١) ينظر: لغة الشعر عند الجواهريّ، د. عليّ ناصر غالب: ٨٥-٨٦، وأساليب الطلب في ديوان الشريف الرضيّ، رسالة ماجستير: ٦٤.

(٢) قال التهانويّ: «[العصمة] عند الحكماء ملكة نفسانيَّة تمنع صاحبها من الفجور، أي: المعاصي، بناء على ما ذهبوا إليه من القول بالإيجاب، واعتبار استعداد القوابل، وتتوقَّف على العلم بمعايب المعاصي ومناقب الطاعات، فإنَّه الزاجر عن المعصية، والداعي إلى الطاعة؛ لأنَّ الهيئة المانعة من الفجور إذا تحقَّقت في النفس، وعلم صاحبها ما يترتَّب على المعاصي من المضارِّ، وعلى الطاعات من المنافع تصير راسخة، فيطيع ولا يعصي، وتتأكَّد هذه الملكة في الأنبياء بتتابع الوحي إليهم بالأوامر والنواهي». كشَّاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ٢/ ١١٨٣. أقول: وفاطمة ابنة خير الأنبياء وسيِّدهم وخاتمهم.

(٣) قسَّم أئمَّة اللسان العربيّ الاستئناف على ثلاثة أقسام: ١. استئناف نحويّ، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾، ذكر الدسوقيّ في حاشيته أنَّ إعادة الخلق لم تُرَ بعد، فموعدها لم يـحِنْ بعد، فقوله: «ثمَّ يُعيد» جملة استئنافيَّة منقطعة عمَّا قبلها؛ لأنَّها لم تقع=

الجملة جملة استئنافيَّة منقطعة عمَّا قبلها.

نسق إظهار الألم والتوجُّع:

لا تنفكُّ لغة الشعر عن ترجمة ما يختلج النفس، وتبيان من ينتاب الضمير، قال أحد الشعراء المحدثين(1):

ويـقـرأُ الـنـاسُ أحـرُفَـنـا فتعجبُهم
ويحـسـبـونَ بـأنَّ الحُـزنَ إبـداعُ
سـيـشـهـدُ الحـرفُ أنَّ الحـبرَ أدمُـعـنـا
لـو يـعـلـمـون وأنَّ الـسـطـرَ أوجـاعُ
الـبـوحُ فـيـضٌ مـن الآلامِ لـو حُبِست
تهـشَّـمـت مـن أزيـزِ الـصـدرِ أضـلاعُ
ولا سـبـيـلَ لهـا إلَّا قـصـائـدُنـا
فـتـسـتـجـيـبُ لـنـا والـوزنُ يـنـصـاعُ

=حتَّى يُحملوا على الإقرار بها، والاستئناف النحويّ نوعان: متَّصل لفظًا، كما في الآية المذكورة، ومنفصل كما في قولنا: «مات زيدٌ رحمه الله». ٢. الاستئناف البياني، وهو ما كان جوابًا لسؤال مقدَّر، كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾، فإنَّ جملة القول الثانية جواب لسؤال مقدَّر، تقديره: ماذا قال لهم؟ ٣. الاستئناف التعليليّ، وغالبًا ما يقع بعد الأمر والنهي مقرونًا بالفاء، وقد ذكر الفرَّاء أنَّ الاستئناف بالفاء في جواب الأمر والنهي حسن، كقولنا: صلِّ فإنَّ الصلاة عمود الدين، فقولنا: «إنَّ الصلاة عمود الدين» جواب لسؤال متخيَّل يصدر من المأمور: «ولماذا أصلِّي؟». ينظر لإتمام الفائدة: معاني القرآن، للفرَّاء، تحقيق: محمَّد علي النجَّار: ٢/ ٩٧، وإيضاح الوقف والابتداء، لأبي بكر الأنباريّ، تحقيق: محيّ الدين رمضان: ١١٦-١١٧، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام، تحقيق: محيّ الدين عبد الحميد: ٢/ ٧٧، وحاشية الدسوقيّ، لمحمَّد بن عرفة الدسوقيّ، تحقيق: عبد الحميد هنداويّ: ٢/ ٤١، وإعراب الجمل وأشباه الجمل، لفخر الدين قباوة: ١٦٩.

(1) See: https://www.alsh3r.com/poems/view/59575.

فلا غرابة أن يكون الشعر نافذة يُطلُّ من خلالها على وجدان الشاعر، ومن هذا المنطلق يمكننا أن ننظر بوضوح إلى صورة الألم في نفس الشاعر جرَّاء ما جرى على سيِّدة النساء، إذ يفتتح قصيدته محلّ البحث بقوله:

مـا كـانَ عَـهْـدِي بِـالـذيـنَ تَحَـمَّـلُـوا
إلَّا كَـعَـهْـدِ مَـنِ احْـتَـواهُ الجَـنْـدَلُ

أعطى هذا البيت حجم الألم المترسِّب في نفس الشاعر، والفطنة اللغويَّة لدى الشاعر جعلته يخبر عن ذلك بأبلغ أساليب التوكيد (أسلوب الحصر)، المؤدَّى بالنفي والاستثناء، وتتوالى بعده الأبيات، وهي تتمحور حول فكرة المطلع نفسها، إلى أن نراه يصرخ من غير صوت مستغيثًا بالله تعالى في قوله:

الله يـا وَطَـنَ الأَحِـبَّـةِ إنَّـنـي
لِـطَـلِـيـقِ فِـكْـري في ذُراكَ مُـكَـبِّـلُ

فاسم الجلالة في مستهلِّ البيت يُسمع القارئ صراخ الشاعر شاكيًا إلى الله ما يجد، ذكر ابنُ فارس(ت٣٩٥هـ) أنَّ اسم الجلالة المستهلّ به في الأبيات الشعريَّة منادى خرج النداء به إلى الدعاء[1]، فكأنَّ المُنادي يدعو الله تعالى على أمرٍ أو مكروهٍ حلَّ به، ويكتفي بهذه الجُملة؛ لأنَّ ما أصابه أو ما حلَّ به غيرُ خافٍ على الله، فهو تعالى شاهدٌ على كُلِّ شيء، في حين نرى المحقِّق التفتازانيّ (ت٧٩٣هـ) قد عدَّ النداء في مثل هذه المواطن مُستعملًا في معنى الاستغاثة[2].

ولـو تـركـنـا مـا ابـتـدأنـا بـه، وصرفـنـا عـيـونـنـا إلى قوله:

(١) ينظر: الصاحبيّ في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، لابن فارس، تحقيق: أحمد سيِّد صقر: ٢٩٧.

(٢) ينظر: مختصر التفتازانيّ- شروح التلخيص: ٢/ ٣٣٧، ومواهب الفتَّاح- شروح التلخيص: ٢/ ٣٣٧.

أوَ تُحــرَقُ الــدارُ الــتي عــن أهلِهـا
مــا زال ثــغــرُ الــبــيِّــنــاتِ يُــرَتــلُ
أوَ يُــلــطَــمُ الــوجــهُ الــشريــفُ وكــم
هــــوىً طــه بــأمــرِ اللهِ كــان يُــقَــبِّــلُ
أوَ يُــســقِــطــونَ جنــيــنــهــا لهــفــي لها
وبــصــدرهــا المــســمارُ حــقــدًا أشكــلــوا

لوجدنا استهلال هذه الأبيات بأسلوب الاستفهام الخارج مجازًا إلى أغراض عدَّة، منها (التوبيخ، والتعجُّب، والاستنكار، والتقرير، وتجاهل العارف)، يرسم لوحة للألم بأقسى صوره، فالدار التي محلّها التبجيل بتطهير أهلها تُحرق! والوجه الذي أزهر بطاعة الربِّ تعالى فكوفئ بتقبيل النبيّ يُلطم! والجنين الذي قال الله تعالى في أسلافه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة آل عمران: ٣٣-٣٤) يُسقَط! فاستعمال الشاعر أسلوب الاستفهام في هذه الأبيات، وتكراره فيها، أعطى للمتلقِّي مساحة واسعة من الخيال؛ ليجوب في أرجائه؛ لأنَّه مُشرَكٌ في عمليَّة الاستنتاج، لأنَّ طبيعة أسلوب الاستفهام تقتضي توافر ثلاثة عناصر (المستفهِم)، وهو الشاعر، و(المستفهَم منه)، وهو المتلقِّي، و(المستفهَم عنه)، وهو بؤرة الحديث. وإن كان الاستفهام الوارد مجازيًّا لا يستدعي جوابًا مباشرًا، وإنَّما يستدعي تأمُّلًا كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (سورة الغاشية: ١٧).

والسمة التعبيريَّة التي أضفاها حرف العطف بعد همزة الاستفهام، هي ترقُّب المستفهَم عنه؛ لأنَّ حرف العطف ينبئ عن متعاطفَين اشتركا في حكمٍ واحد، والمتعاطفات التي وردت في هذه الأبيات الثلاثة اشتركت في تجلية الألم الراسخ في نفس الشاعر، يختمها بقوله (لهفي لها) بعد أن ذكر أبشع ما حصل للسيِّدة الزَّهراء (عليها صلوات ربِّها تعالى).

ويردف الشاعر أبياته الثلاثة التي تجلَّى فيها ألمه بأجلى صوره، ببيتٍ أرى من الضرورة ما لغيره في الوقوف عليه، وهو قوله المعقِب لتلكم الأبيات:

وتـقـول يـا ابـن الـعـمِّ يـا غـوثَ الـورى

يـا مَـن لـصـارمِـه يُـسـاقُ الجَـحـفَـلُ

قد تكرَّر فيه النداء ثلاث مرَّات، وتلته نداءات أخرى فيما ولاه من الأبيات، وكلُّ ذلك من قبيل نداء الصفات الذي أشرنا إليه فيما سبق، لكنَّ فطنة الشاعر جعلته يوظِّف ما اتَّسم به الإمام عليّ عليه السلام توظيفًا رائعًا، وهو قوله (يا غوث الورى) ففيه تصويرُ رائع لما حصل للسيِّدة الزَّهراء، إذ تستغيث بزوجها من شدَّة ما آلمها، فهي بما عليه من الفضل الموصوف بقوله:

مَـلَـكـت زِمـامَ الـعـالَمِـين فـأمـرُهـا

فـصـلٌ لـدى سـمـةِ الـقـضـاءِ و فيصلُ

تستغيث بالإمام عليّ، وكأنَّها تناست ما خصَّها الله تعالى به، وعبقريَّة الشاعر جعلته يضيف (الغوث) إلى (الورى) باعتبار أنَّها عليها السلام واحدتهم، من غير تمييز لها، فلم يقل حكاية عنها: (يا غوثي) إشعارًا بأنَّ الإمام عليّ أحد أركان الغوث الإلهيّ المنعَم بها على البريَّة عمومًا، وعلى المسلمين خصوصًا، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله للإمام عليّ: «**أنا وأنتَ أبَوَا هذه الأمَّة**»[1]، والأبوَّة تستلزم القيام بمهامِّها، ومن جملة مهامِّها إغاثة المخذول. ومن الخليق بالذِّكر ههنا لطيفة يزجُّها الشاعر عبد الرزَّاق عبد الواحد في إحدى قصائده في رثاء الإمام الحسين عليه السلام، إذ يقول:

(١) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهانيّ، تحقيق: صفوان عدنان الداوديّ: ٥٧، وعمدة الحفَّاظ في تفسير أشرف الألفاظ، للسمين الحلبيّ (ت٧٥٦هـ)، تحقيق: محمَّد باسل عيون السود: ١/ ٥٢، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للفيروز آباديّ، تحقيق: محمَّد عليّ النجَّار: ٢/ ١١٣، والموسوعة القرآنيَّة، لإبراهيم الأبياريّ: ٨/ ٥.

ويـــا ابـــن الـــذي سـيـفـه مـــا يـــزال
إذا قـيـل يـــا ذا الـفـقـار احـسـمِ
تَحـــسّ مـــــروءة مـلـيـون سـيـف
جـــرت بـــين كـــفّـــكَ والمـعـصـم

فالمعنى الذي أوقفنا الحرزيّ عليه بدقَّة العبارة هو نفسه الذي أحسَّه عبد الرزَّاق عبد الواحد، فقوله (سيفه ما يزال) ينبئنا بأنَّ الاستغاثة بالإمام عليّ عليه السلام فاعلة في عموم الأزمان وجميع الأكوان، وقوله (تحسّ مروءة مليون سيف) يخبرنا بأنَّ الاستغاثة به تكفي عن الاستغاثة بسواه من الخلق؛ لأنَّه أعظم أولياء الله شأنًا بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وإذا علمنا بأنَّ الشاعر عبد الرزَّاق عبد الواحد يدين بديانة الصابئة المندائيَّة، علمنا دقَّة العبارة المستعملة في شعر الحرزيّ (يا غوث الورى) عمومًا من غير تخصيص (يا غوث الورى) شمولًا من غير تعيين.

نسق الحوار المتخيَّل:

ممَّا لوحظ في القصيدة محلّ النظر أنَّ الشاعر قد عمد إلى تصوير حديث دار بين السيِّدة الزَّهراء والإمام عليّ عليهما السلام، وهنا تظهر براعة الشاعر في استنطاق الواقع المؤلم الذي عاشته السيِّدة الزَّهراء بعد وفاة أبيها صلى الله عليه وآله، وتبيان المآسي التي أحاطت بالبيت النبويّ الذي أذهب الله عن أهله الرجس، إذ يظهر ذلك الألم بكلامها المتخيَّل المرصوف في نصِّ القصيدة، ومن ذلك قوله حكايةً عنها عليها السلام:

يـا واحـــدَ الـدنـيـا وغِـــبَّ فـنـائـهـا
ومُجـنـدلَ الأبـطـالِ حـيـثُ تَجَـدَّلـوا
أتـــــراه يـلـطـمـني ويحـــرق مـنـزلي
ويـنـال مـن حُـرمـي وأنـــت مُـكـبَّـلُ

وخـلافـةٌ لـك قـد أقـيـمَ قـوامُـهـا
لـسـواك يـا ابـن الخـيرِ هـا قـد أنحلوا
بـمـن الـعـزاء ومـن سـواك لي الحمى
وبـمـن يجـار المـسـتـجـير ويـأمُـلُ
فـأجـابـهـا والـدمـع مـن أثـرِ الضنا
كـالـنـارِ يـقـدحُ في الـلـحـاظ فيُشعِلُ
لـولا وصـيـةُ أحمـدٍ لـسـقـيـتُـهـم
صرف الـردى ممَّـا يـمـج المِـنـصـلُ
ولَـسُـمـتُـهـم خَـشْـنـاءَ يَـغْـلُـظُ كَـلْـمُـهـا
فـيـهـا تَجُـسُّ عـلى الأُنـوفِ الأَرجـلُ
لـكـن أُمِـرْتُ بـحـمـل مـا لـو بـعـضُـهُ
في يـذبُـلٍ لانـدك قـاعًـا يـذبـلُ

وبذلك تكون القصيدة صدى لصوت السيِّدة الزَّهراء الذي علا مستغيثًا شاكيًا من شدّة الجور والظلم في السنة الحادية عشرة من الهجرة النبويّة.

وممّا تقدّم ندرك أنَّ الشاعر محمَّد الحرزيّ كان دقيقًا في اختيار اللبوس اللغويّ للفكرة المراد إيصالها، والملاحظ أنَّه يعتمد حاسّته اللغويّة في إظهار الأنساق الخطابيّة؛ لأنَّ المتأمّل في شعر الحرزيّ عمومًا يجده شاعرًا منبريًا آخذًا على عاتقه إبراز ما طُمِس وإظهار ما أُخِفي وإعلان طُمِر من فضائل آل الرسول وعترته الطيّبة، أمّا في قصيدته محلّ النظر، فكان همّه إظهار ما اتّسمت به السيِّدة الزَّهراء عليها السلام إذ نجده يقول:

الـطُّـهـرُ نَـفـسًـا والـرَّضِـيَّـةُ رُتـبَـةً
أبَـدًا وأزكـى مـا يـكـونُ و أنـفَـلُ

جَمَعت صِفاتَ الأنبياءِ فكلُّهم
مِنها على قَدَرٍ يَرومُ ويَنهلُ
والكلُّ ما نزَلَ القضاءُ بِساحِهِ
في النائِباتِ بفضلها يَتَوَسَّلُ

فضلًا عن الأخذ بيد المتلقِّي ووضعها بأمانة تامَّة على آلام العترة الطاهرة عمومًا، وآلام الزَّهراء خصوصًا، في هذه القصيدة إذ نراه يقول:

نفسي لمقدمِها الفدا أيَدُعُّها
عبدٌ ويَزجُرُها اللَّئيمُ الأرذَلُ

أو تسليط الضوء على الأنين المنبعث من الويلات التي صُبَّت على البيت النبويّ بعد رحيل النبيّ صلى الله عليه وآله، كقوله مشبِّهًا:

وبِغُصَّتي لُذْ يا لِسانيَ مثلَما
لاذَتْ وراءَ البابِ ساعةَ أقبلوا

المبحث الثاني

استنطاق النصّ القرآنيّ والحديث النبويّ

منذ نزول القرآن ولحدِّ الآن، نلحظ انعطافًا في النتاج الأدبيّ، شعرًا كان أو نثرًا، نحو النصِّ القرآنيّ، فنجد هذا الشاعر يقتبس فكرة، وذاك الشاعر يحاكي تركيبًا، وآخر غيرهما يأخذ حكمةً.. الخ. وهذا بفضل رفعة السبك اللغويّ الذي عمَّ الخطاب الإلهيّ الموجَّه إلى البشر من جهة، ومن جهة أخرى جمال التشكيل البنيويّ لمفردات الجملة فيها، وحسن التركيب النظميّ لجمل النصِّ فيه. وبهذا الصدد يقول الدكتور مصطفى صادق الرافعيّ: «ولقد كان هذا النظم عينه هو الذي صفَّى طباعَ البلغاء بعد الإسلام، وتولَّى تربية الذوق الموسيقيّ اللغويّ فيهم، حتَّى كان لهم من محاسن التركيب في أساليبهم- ممَّا يرجع إلى تساوق النظم واستواء التأليف- ما لم يكن مثله للعرب من قبلهم»، فالنصُّ المنزل على النبيّ المرسل تبيانًا وإعجازًا ترك تأثيرًا كبيرًا في عادات العرب الكلاميَّة إلى حدٍّ أصبح فيه رافدهم اللغويّ والمعنويّ.

والأمر نفسه ممكن أن يُقال مع الحديث النبويّ الشريف، فرسول الله صلى الله عليه وآله أفصح من نطق بالعربيَّة، وقد أخبر عن نفسه بذلك: «**أَنَا أَفْصَحُ الْعَرَبِ مَيْدَ أَنِّي مِنْ قُرَيْشٍ، وَنَشَأْتُ فِي بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ**»[1]، وأكتفي بما ذكره الزمخشريّ (ت٥٣٨هـ) عن رفعة

(١) شرح السنَّة، للبغويّ (ت٥١٦هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط: ٤/ ٢٠٢. وقد ورد الحديث بألفاظٍ مختلفة، وكان لأبي عبيد القاسم بن سلَّام الهرويّ (ت ٢٢٤هـ) وقفة على كلمة (بيد وميد» اللتين اعتورتا في الحديث المذكور، فقال: «قال الكسائيّ: قوله: (بيد) يعني: (غير) [...] وقال الأمويّ: (بيد) معناها (على) [...] وفيه لغة أخرى: (ميد) بالميم، والعرب تفعل هذا، تُدخل=

البيان النبويّ ودقَّته: «إِن هَذَا الْبَيَان الْعَرَبِيّ كَأَنَّ الله عزَّت قدرته مخَّضه وَألقى زبدته على لِسَان مُحَمَّد عَلَيْهِ أفضل صَلَاة وأوفر سَلام، فَمَا من خطيب يقاومه إِلَّا نكص متفكِّك الرِّجل، وَمَا من مصقع يناهزه إِلَّا رَجَعَ فارغ السِّجل، وَمَا قرن بمنطقه منطق إِلَّا كَانَ كالبرذون مَعَ الحصان المطهَّم، وَلَا وَقع من كَلَامه شيء فِي كَلَام النَّاس إِلَّا أشبه الوضح فِي نقبة الأدهم. قَالَ عليه السلام: **أُوتيت جَوَامِع الْكَلم. قَالَ أَنا أفْصح الْعَرَب، بيد أَنِّي من قُرَيْش، واسترضعت فِي بنى سعد بن بكر**»[1]. من هذا النصِّ الذي لم يترك صاحبه زيادة لمستزيد، ندرك أنَّ الحكمة المتعالية اختارت أفصح الألسن لتبليغ: ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ (سورة الزمر: ٢٣).

ولا غرابة في أن نجد شاعرًا في عصرنا الحاليّ يستقي أفكارًا من تلكما النصَّين الإعجازيّ والنبويّ، وإن تراخت المدَّة واتَّسعت الفجوة؛ لأنَّ النصَّين ما برحا مؤثِّرين، والشعراء ما زالوا بحاجة إلى تدعيم رؤاهم وتوثيق أفكارهم. فالشاعر الحرزيّ لم يكن بدعًا من الشعراء الذين نهلوا من العيلم القدسيّ والعيلم النبويّ، ففي قصيدته محلّ النظر الموسومة بـ(هي الزَّهراء)، نجد أبياتها متَّشحة بنور آي القرآن الكريم وضياء التراكيب النبويَّة، وممَّا نجد فيه المعنى القرآنيّ والحديث النبويّ متجلِّيًا قوله:

ســـادَ الـــورى أجـــدادُهـــا وبهـــا على
أجـــدادِهـــا أبـــنـــاؤُهـــا قـــد فُـــضِّـــلـــوا

من لطائف السبك اللغويّ الذي انمازت به هذه القصيدة ما يظهر في هذا البيت، إذ نجد توظيفًا رائعًا للمعنى القرآنيّ المفهوم من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا

=الميم على الباء، والباء على الميم». غريب الحديث، تحقيق: محمَّد عبد المعيد خان: ١/ ١٣٩.

(١) الفائق في غريب الحديث والأثر، تحقيق: محمَّد أبو الفضل إبراهيم، وعليّ محمَّد البجاويّ: ١/ ١١.

وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (سورة آل عمران: ٣٣-٣٤)، فقد ذكر أبو حيَّان الأندلسيّ (ت٧٤٥هـ) أنَّ الاصطفاء المذكور في الآية الكريمة قد تضمَّن معنى التفضيل؛ لذا عدَّاه بـ(على)، ولو لم يكن متضمِّنًا ذلك لعدَّاه بـ(مِن)[1]. والذي يبدو لي أنَّ هذا المعنى الدقيق الذي تجلَّى في تركيب الآية لأبي حيَّان قد لاح للشاعر بأجلى صورة، فجاء به صراحة فقال: «وبها على أجدادِها أبناؤُها قد فُضِّلوا»، أي: إنَّ آباء السيِّدة فاطمة عليها السلام قد فُضِّلوا باصطفائهم على سائر الورى، وأبناؤها قد فضِّلوا على آبائها باصطفائها.

والملاحَظ أنَّ مريم ابنة عمران عليها السلام قد ذكرها القرآن ذكر تشريف في مواضع كثيرة، ولنعقد صلة معنويَّة بين صفتَين لمريم جاءتا متلازمَتَين في كتاب الله الكريم، وصفة لفاطمة عليها السلام جاءت في حديث مَن لا ﴿يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾ (سورة النجم: من آية ٣)، تُعطي مجموع معاني عدَّة صفاتٍ. فقد نصَّ القرآن على أنَّ السيِّدة مريم مصطفاة ومطهَّرة، وقد أخبرها بذلك الملائكة، إذ قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (سورة آل عمران: ٤٢)، فمريم بإخبار الملائكة إيَّاها أنَّها مصطفاة ومطهَّرة، أمَّا السيِّدة فاطمة، فبإخبار أبيها إيَّاها أنّها سيِّدة المطهَّرات والطواهر من النساء، فقد روي عن عَائِشَةَ: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: وَهُوَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ: (**يَا فَاطِمَةُ، أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ وَسَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَسَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ؟**)»[2]، وقال (صلوات الله عليه وعلى آله): «**فَاطِمَةُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ**»[3]، فالسيِّدة فاطمة لم تكن مطهَّرة فحسب،

(١) ينظر: البحر المحيط، لأبي حيَّان الأندلسيّ: ٢/ ٤٥٣.

(٢) قال الحاكم النيسابوريّ: «هَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ». المستدرك على الصحيحَين: ٣/ ١٧٠.

(٣) المستدرك على الصحيحَين: ٣/ ١٥٤، ورد هذا الحديث بألفاظ مختلفة، منها ما ذكره الحاكم «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: وَهُوَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ: **يَا فَاطِمَةُ أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي**=

بل سيِّدة من طهُرت من النساء وتطهَّرت.

وقال مبيِّنًا منزلتها (صلوات الله عليها):

هـي آيــةُ الـقُـرْبـى وشَرعُ وِدادِهـــا

فــرضٌ بــه مِـنَّـا الـفَـرائِـضُ تُـقـبَـلُ

في هذا البيت يُفصِح الشاعر عن صفتَين عظيمَتَين للسيِّدة الزَّهراء عليها السلام، الأولى: كونها بنت النبيّ صلى الله عليه وآله، وليس في الناس من هو أقرب منها إليه، وقد نصَّ (صلوات الله عليه وآله) على ذلك فقال: «**فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي يَقْبِضُنِي مَا يَقْبِضُهَا وَيَبْسُطُنِي مَا يَبْسُطُهَا**»[1]، وتبدو لي لطيفة معنويَّة تجلَّت في قوله صلى الله عليه وآله، إذ عبَّر عن قرب فاطمة عليها السلام منه بالبضعة، قال الراغب الأصفهانيّ: «فلان بضعة منِّي، أي: جارٍ مجرى بعض جسدي؛ لقربه منِّي»[2]، ولم تنتهِ اللطيفة التي تراءت لي عند هذا الحدِّ، بل تتعدَّاه إلى أنَّ الجذر اللغويّ (ب ض ع) الذي اشتُقَّت منه هذه اللفظة، لم تُشتقّ منه إلَّا ألفاظ جليلة المعنى، ومنها لفظة (بضاعة) وهي ما يزجيه الإنسان؛ ليربح به، وقد نصَّت معجمات المعاني على أنَّ البضاعة: قطعة وافرة من المال تُنتقى للتجارة[3]، فلا غرابة أن تكون السيِّدة فاطمة عليها السلام هي البضاعة المعنويَّة التي زجَّها مَن هي بضعته في سوق الدنيا؛ لتكون نمطًا يُقتدَى به في الخُلُق، فهي بضعة مَن بعثه الله تعالى ليُتمّمَ به مكارم الأخلاق[4]، ولتُصبح

=**سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، وَسَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَسَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ؟**»: ٣/ ١٥٦.

(١) صحيح البخاريّ: ٥/ ٢٠٩، وصحيح مسلم ٤ /١٩٠٢، والمستدرك على الصحيحَين: ٣/ ١٥٨، وقد أورد الحاكم النيسابوريّ الحديث بألفاظ أخرى: «**إِنَّمَا فَاطِمَةُ شُجْنَةٌ مِنِّي يَبْسُطُنِي مَا يَبْسُطُهَا، وَيَقْبِضُنِي مَا يَقْبِضُهَا**»: ٣/ ١٥٤

(٢) مفردات ألفاظ القرآن: ١٢٩.

(٣) ينظر: دستور العلماء، المسمَّى جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، للقاضي عبد النبيّ نكري: ١/ ١٦٩.

(٤) جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إنَّما بُعِثتُ لأتمِّمَ مكارمَ الأخلاق**»، وقد ورد هذا الحديث بألفاظ مختلفة، فقد ورد في مسند أحمد «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ**»، مرويًّا عن أبي هريرة، تحت=

مثلًا يُحاكى في العلم والمعرفة، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «**على معرفتها دارت القرون الأولى**»[1].

والأخرى: كون قبول الأعمال مرهونًا بودِّها والإحسان إليها؛ لأنَّ النبيّ محمَّد صلى الله عليه وآله قد طلب أجرًا ممَّن استناروا بنوره، واهتدوا بهداه، وجاء ذلك صريحًا في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ (سورة الشورى: ٢٣)، فضلًا عمَّا ورد في أحاديث النبيّ الأكرم ممَّا لا تسعه هذه الصحائف[2]، وهي جميعًا تتمحور حول قطبٍ واحدٍ يتمثَّل بوجوب إعلان المودَّة للسيِّدة الزَّهراء؛ لتعود بالفائدة المرجوَّة منها على صاحبها، وفي مقدِّمة ذلك قبول الأعمال، والخليق بالذكر أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يدع فرصة أو مناسبة تمرُّ إلَّا ونوَّه بعظمة الزَّهراء عليها السلام، وإظهار فضلها، وبيان مكانتها عند الله تعالى، وعنده (صلوات الله عليه وآله)؛ ليحثَّ المسلمين على مودَّتها؛ لأنَّها بقيَّته الباقية.

وقال مبيِّنًا اسمها ووسمها:

مفطومة عن كلِّ رجسٍ كُنهُها
سرٌّ لدى علمِ الإله مجلَّلُ

من لطائف الفطنة اللغويَّة لدى الشاعر أنَّه استطاع في هذا البيت أن يصف السيِّدة فاطمة باسمها، فيُصبح اسمها صفتها، وتُصبح صفتها اسمها، وعمل على توظيف

=الرقم (٨٩٥٢): ١٤/ ٥١٢، وجاء في كنز العمَّال: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ حُسنَ الأخلاق**» مرويًّا عن ابن سعد، تحت الرقم (٥٢١٨): ٣/ ١٦.

(١) أمالي الطوسيّ: ٦٦٨.

(٢) ينظر على سبيل المثال لا الحصر: سنن الترمذيّ: ٥/ ٧٠٠، وفضائل الصحابة، للنسائيّ: ٦٨، وذخائر العقبى في مناقب ذوى القربى، للطبريّ: ٣٩، والمستدرك على الصحيحين: ٣/ ٥١٣، وأُسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير: ٧/ ٢٢٤، والإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلانيّ: ٨/ ١٥٩، وتهذيب التهذيب، له كذلك: ١٢/ ٤٤١، والصواعق المحرقة، لابن حجر الهيتميّ: ١٧٥، والخصائص الكبرى، للسيوطيّ: ٢/ ٢٦٥، وكنز العمَّال في سنن الأقوال والأفعال، للمتّقي الهنديّ: ٦/ ٢١٩، و٧/ ١١١.

المعنى بدرجة عالية جدًّا، فلو أخذنا هذا التركيب «مفطومة عن كلِّ رجسٍ»، وعرضناه على أحد، وقلنا له: جد موصفًا لهذا الوصف، لذهب به الخيال كلَّ مذهب، ولم يجد غير ابنة المصطفى عليهما السلام.

وتتجلَّى لي نكتة نحويَّة في هذا البيت، فقوله (مفطومة) لك فيه إعرابان: إمَّا أن يكون مبتدأً وخبره الجملة الاسميَّة الآتية بعده (كنهها سرٌّ لدى الإله)، وبهذا يكون الكلام في البيت متَّصلًا، والبيت منفصلًا عمَّا قبله وبعده. وإمَّا أن يكون (مفطومة) خبرًا لمبتدإٍ محذوف جوازًا تقديره: (هي مفطومة عن كلِّ رجس)، وعلى هذا تكون جملة (كنهها سرٌّ لدى الإله) استئنافًا بيانيًا، فكأنَّ الشاعر تخيَّل سائلًا يسأله: كيف فُطِمت فاطمةُ من الرجس؟ فيأتي الجواب (كنهها سرٌّ لدى الإله)، وبهذا تكون الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (سورة الأحزاب: ٣٣)، وما ينماز به التوجيه النحويّ الثاني عن الأوَّل لهذا المركَّب الكلاميّ، هو أنَّه يعطي مجموع كلَامَين بطريقٍ واحد.

أمَّا من حيث المنهل المستقى منه فكرة هذا البيت، فهو القرآن الكريم في الآية المشار إليها، وقد أورد الحاكم النيسابوريّ حكاية مُفادها: أنَّ واثلة ابن الأسفع جاء يطلب الإمام عليّ عليه السلام في حاجة، فأخبرته فاطمة عليها السلام أنَّه «**انْطَلَقَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله يَدْعُوهُ، فَاجْلِسْ**. فَجَاءَ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله، فَدَخَلَ، وَدَخَلْتُ مَعَهُمَا، قَالَ: فَدَعَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله حَسَنًا وَحُسَيْنًا، فَأَجْلَسَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى فَخِذِهِ، وَأَدْنَى فَاطِمَةَ مِنْ حِجْرِهِ وَزَوْجَهَا، ثُمَّ لَفَّ عَلَيْهِمْ ثَوْبَهُ، وَأَنَا شَاهِدٌ فَقَالَ: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾ **اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي**»[1]، فـ(فاطمة) اسم وسمة لابنة النبيّ صلى الله عليه وآله.

وقال مبيِّنًا فضلها:

(١) المستدرك على الصحيحَين: ٢/ ٤١٦، و٣/ ١٤٧.

ولحبِّها خَلْقُ الجنانِ وسُعِرَتْ
نارٌ لشانِئِها تشوه وتنكِلُ

لم يكن هذا البيت نسيج وحده في الجمال المتجلِّي بالنتيجة الختاميَّة المفهومة من مجموع ألفاظه، بل سارت القصيدة على هذا النسق الموضوعيّ البديع سيرًا منطقيًّا. لكنَّ هذا البيت يفوقها بالتقابل المعقود بين الحبِّ والبغض مفضِيَين في نهاية المطاف إلى متقابلَين، هما: الجنَّة والنار، فمن الواضح أنَّ أفعال الإنسان تُقسم على قسمَين، وهذان القسمان يفضيان به إلى مكانَين مختلفَين كاختلافهما.

وقبل عرض مستقى فكرة البيت، أعرض القيمة اللغويَّة للسبك الذي نُسِج على منواله، فقد اشتمل البيت على جملتَين رئيستَين، تحمل كلٌّ منهما خبرًا يقع أحدهما من الآخر موقع الضدِّ، ولم يكن اختلافهما موقوفًا على المعنى، فحسب، بل نجد الصياغة التي اختيرت لكلٍّ منهما تنأى بنفسها عن الأخرى، فقد كانت الأولى في عرف النحويِّين اسميَّة، تقدَّم فيها ما حقُّه التأخير للعناية به والاهتمام، فدراية الشاعر اللغويَّة تتجلَّى هنا، إذ يُشمُّ من هذا التركيب رائحة القصر، فكأنَّه قصر (خلق الجنان) على (حبِّ فاطمة)، من باب الجزاء المنتظَر للفعل المزاوَل، وهذا ما أعطته (اللام)، قال المراديّ (ت٧٤٩هـ): وأوَّل معاني (اللام) الجارَّة «الاختصاص: نحو: الجنَّة للمؤمنين. ولم يذكر الزمخشريّ في مفصَّله[1] غيره. قيل: وهو أصل معانيها»[2]. فقد وظَّف الشاعر اللام الجارَّة بأصل معانيها في مستهلِّ بيته الذي ينشعب به مصير البشر إلى شعبَتَين، فجعل حبَّ السيِّدة فاطمة مختصًّا بالجنان، ولعلَّ الذائقة اللغويَّة لدى الشاعر جعلته يأتي بالمصدر، وهو الحدث المجرَّد من الزمن والفاعل، على سبيل التوسُّع اللغويّ، فهو لم يقل: (لمحبِّي فاطمة)، أو (لمن يُحبُّها) أو غير ذلك من الصيغ المشتركة معها في المعنى؛ لأنَّ هذه

(١) قال الزمخشريّ (ت٥٣٨هـ): «واللام للاختصاص، كقولك المال لزيد، والسرج للدابَّة». المفصَّل في صنعة الإعراب، تحقيق الدكتور عليّ بو ملحم: ٢٨٢.
(٢) الجنى الداني: ٩٦.

الصيغ تعطي وجهًا واحدًا للمعنى، أمَّا الصيغة التي اختارها (لحبِّها)، فتعطي وجوه المعنى جميعها؛ لأنَّ استعمال المصدر ينوب عن استعمال الفعل بأزمنته جميعها، وينوب عن استعمال الفاعل بأنواعه كلِّها. وجرَّ هذا المصدر باللام لاختصاصه بالمبتدأ (خلق الجنان).

ولم تنته الإشارة اللغويَّة عند هذا الحدِّ، بل تتعدَّاه إلى الجملة الرئيسة الأخرى التي تُقابل تلك الجملة في موقعها، وتضادّها في مبناها ومعناها، وهي قوله: (وسُعِرَتْ نارٌ لشانِئها)، فالحاسَّة اللغويَّة لدى الشاعر جعلته يأتي بهذه الجملة فعليَّة، ومعلوم لدى مَن أُوتي فقهًا بالعربيَّة أنَّ الجملة الاسميَّة تدلُّ على الثبوت والدوام، وأنَّ الجملة الفعليَّة تدلُّ الحدوث والتجدُّد[1]، أي: إنَّ حبَّ السيِّدة فاطمة صراط يقود إلى الجنان، فهي ثوابه الثابت؛ لأنَّه مصداق من مصاديق ثبوت الرحمة الإلهيَّة، وقد سُعِّرت نارٌ لمن اتَّخذ غير ذلك سبيلًا، فتوافقت دلالة هذه الجملة الصوريَّة مع معناها، فكما أنَّ الجملة الفعليَّة تدلُّ على الحدوث، دلَّ معناها على ذلك أيضًا؛ لأنَّ الرحمة التي ينبثق منها النعيم سابقة على الغضب الذي يصدر عنه الجحيم[2]، هذا من زاوية النظر إلى الإسناد في الجملة، أمَّا من زاوية النظر إلى متعلَّقات الإسناد في هذه الجملة، فتتجلَّى بـ(لام) الاستحقاق التي تقابل (لام) الاختصاص، فعبقريَّة الشاعر عمدت إلى استثمار إمكانات اللغة المتاحة في حرف الجرِّ (اللام)، إذ استعمله في بيتٍ واحدٍ مرَّتين بمعنيَين مختلفَين، كلٌّ منهما يناسب المقام الذي سُلِكَ فيه[3].

(١) ينظر: معاني النحو، للدكتور فاضل السامرَّائيّ: ١/ ١٦، و٢/ ١٦٣.

(٢) جاء في دعاء الجوشن الكبير: «يا من سبقت رحمته غضبه».

(٣) وذكر المراديّ أنَّ ثاني معاني (اللام): الاستحقاق، نحو: النار للكافرين. وذكر قول بعض النحويِّين: إنَّ الاستحقاق معناها العامّ؛ لأنَّه لا يفارقها. وقد ذكر نظمًا:

أتاك اللام الجرّ ممَّا جمعته ... ثلاثون قسمًا في كلام منظّم
فأوَّلها التخصيص وهو أعمّها ... ويتلوه الاستحقاق، يا صاح، فاعلم

ينظر: الجنى الداني: ٩٦-١٠٨.

قال التهانويّ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ (سورة فصّلت: ١١): «فحكم للأكوان بالطاعة تفضُّلًا منه، ولذلك سبقت رحمته غضبه. والمطيع مرحوم، فلو حكم عليها بأنَّها أتت مكرهة؛ لكان ذلك الحكم عدلًا، إذ القدرة تجبر الكون على الوجود، إذ لا اختيار للمخلوق، ولكان الغضب حينئذ أسبق إليه من الرحمة، لكنَّه تفضَّل، فحكم لها بالطاعة»[1].

من هذا النصّ ندرك أنَّ البارئ أمر بالطاعة، وأثاب عليها، فالطاعة الأمر الأوَّل والأخير، إذ لا يمكن في حال من الأحوال أن يُعصى ذلك البارئ؛ لأنَّه الواجد للموجودات جميعها، ووجودها محض إرادته وحده، فمن تخلَّف عن تلك الطاعة عُدَّ عاصيًا، وعصيانه لا يُعدُّ فعلًا بإزاء الطاعة، وإنَّما امتناع عنها، وهذا جليٌّ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ (سورة طه: ١١٦)[2]، فإبليس لم يُحدث فعلًا، وإنَّما امتنع عن فعل، ولـمَّا كان الأصل في الائتمار الطاعة، كان ملازمها أصلًا كذلك، وهو الثواب، فجاء الشاعر به جملة اسميَّة دالَّة على الثبوت (لحبِّها خَلْقُ الجنانِ)، ولـمَّا كانت المعصية فرعًا، كان ملازمها فرعًا كذلك، وهو العقاب؛ لذا جاء الشاعر به جملة فعليَّة دالَّة على الحدوث.

أمَّا مستقى فكرة البيت، فسأكتفي بما رواه الحاكم النيسابوريّ في مستدركه عن عائشة زوج النبيّ صلى الله عليه وآله في موضعَين:

الأوَّل: أنَّها سُئلت «أَيُّ النَّاسِ كَانَ أَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله؟ قَالَتْ: فَاطِمَةُ. قِيلَ: فَمِنَ الرِّجَالِ؟ قَالَتْ: زَوْجُهَا»[3].

الآخر: «أَنَّهَا قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَشْبَهَ كَلاَمًا، وَحَدِيثًا مِنْ فَاطِمَةَ بِرَسُولِ

(١) كشَّاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ٢/ ١٣٧٤.
(٢) وينظر: قوله تعالى في سورة البقرة: ٣٤، وسورة الحجر: ٣١.
(٣) المستدرك على الصحيحَين: ٣/ ١٥٧.

الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَتْ إِذَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ رَحَّبَ بِهَا، وَقَامَ إِلَيْهَا، فَأَخَذَ بِيَدِهَا، فَقَبَّلَهَا، وَأَجْلَسَهَا فِي مَجْلِسِهِ»[1].

من هذَين النصَّين وغيرهما ممَّا لم يسعه المقام، ندرك أنَّ رسول اللهﷺ قد أعطى صورة واضحة لأمَّته عن منزلة السيِّدة فاطمة؛ لأنَّها الذريعة إلى الرضوان ونيل الجنان، ولـمَّا لم يكن قوله وفعله إلَّا بقصد؛ لأنَّه مسدَّد بهما ومؤيَّد، دلَّ على أنَّه قد ترجم مقام ابنته قولًا وفعلًا؛ ليكون ذلك سنَّة متَّبعةً ومقتفاة من بعده.

(١) المستدرك على الصحيحَين: ٣/ ١٥٤.

الخاتمة

في القصيدة التي أسمعتنا صدى كلامٍ قيل قبل أربعة عشر قرنًا، تجلَّت لنا صفات قائلته، وقد أشرنا في بحثنا إلى ثلاثة أمور:

١. صفات السيِّدة الزَّهراء عليها السلام التي شذَّر بها الشاعر قصيدته؛ لينطلق منها إلى غرضه الرئيس، وهو بيان الظلم والجور الذي سبَّبته ظروف عصيبة جرت على أمَّة النبيّ محمَّد (صلوات ربِّه وسلامه عليه وآله)، وكان أوَّل المتألمين بها آله الكرام الذين أوصى بهم، وحمَّل الأمَّة مسؤوليّة اتِّباعهم بأحاديث مُجْمَع على صحَّتها، ومن تلك الصفات: (الجليلة، الشفيعة، خير النساء، سرُّ الوجود، آية القربى، منعدمة النظير، ركن الرحمة، جناب الرأفة، غاية الجود، المثل الأعلى..).

٢. القالب اللغويّ الذي استعمله الشاعر، وهي التراكيب الكلاميَّة التي حملت بين طيَّتها صفات السيِّدة الزَّهراء، والتي تجلَّت في ضوئها رفعة الذائقة اللغويَّة لدى الشاعر، وبتسليط الضوء على تلك التراكيب اتَّضح أنَّ الشاعر ذو معرفة بأفانين الكلام، فاختياره التركيب المعيَّن للمعنى المخصَّص كان على درجة عالية من التدقيق والتوفيق. فضلًا عن تعدُّد الأنساق الكلاميَّة في القصيدة محلّ البحث، التي توحي بسعة أفق الشاعر من جهة، وإحاطته التامَّة بالأحداث التي جرت وسبَّبت ما سبَّبت من آلامٍ لم تهدأ زفرتها من جهة أخرى.

٣. منهل الصفات التي ساقها الشاعر في قصيدته الموسومة بـ(هي الزَّهراء)، التي تحمل غايتَين اثنتين تواشجتا فيما بينهما، فظهرتا كأنَّهما صفة واحدة، وهما:

عرض صفات السيِّدة الزَّهراء، وبيان ظلامتها، ففضلًا عن الصفات التي ساقها الشاعر مصرِّحًا بها أم ملمِّحًا، كانت هناك صفة أعطاها مجموع أبيات القصيدة، فإلى جنب الصفات التي ذكرناها في البحث هناك صفة لا يسعنا ذكرها إلَّا ههنا، وهي (المظلومة). وكان الشاعر أمينًا في عرض الصفات التي بيَّنت ماهيَّة الزَّهراء؛ لذا قابل مضمونُ القصيدة عنوانَها بكلِّ دقَّة. وتحضرنا في هذا المقام عبارة ذكرها الراغب الأصفهانيّ في كتابه محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء: «مَن ألَّف فقد استُهدِف، فإن أحسنَ فقد استَشرَف، وإن أساء فقد استُقذِف».

وختامًا أسأل الله أن يُرينا ما نأمله من ألطافه، ويصرف عنَّا ما نحذره بحقِّ سيِّدتنا الزَّهراء عليها السلام:

والكلُّ ما نزَلَ القضاءُ بِساحِهِ
في النائِباتِ بفضلها يَتَوَسَّلُ
وشَفِيعَةٌ في الحَشْرِ يَوْمَ وُقوفِهِمْ
والكُلُّ يَرْجوها هُناكَ و يَأْمُلُ

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين وصلَّى الله على محمَّد النبيّ وآله الطاهرين.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

١. أبجد العلوم، لأبي الطيِّب محمَّد صدِّيق خان القِنَّوجيّ (ت١٣٠٧هـ)، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٢. أسباب النزول، للواحديّ النيسابوريّ (ت٤٦٨هـ)، تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح، الدمَّام، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٣. أُسد الغابة في معرفة الصحابة، لعزِّ الدين ابن الأثير الجزريّ (ت٦٣٠هـ)، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م.

٤. الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلانيّ (ت٨٥٢هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعليّ محمَّد معوذض، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ.

٥. إعراب الجمل وأشباه الجمل، لفخر الدين قباوة، منشورات دار المغرب، الطبعة الأولى.

٦. الأعلام، لخير الدين الزركليّ (ت١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشرة، ٢٠٠٢ م.

٧. أمالي الطوسيّ، لأبي جعفر محمَّد بن الحسن الطوسيّ (ت٣٨٥هـ)، تحقيق: قسم الدراسات الإسلاميَّة، مؤسَّسة البعثة، طهران.

٨. أيسر التفاسير لكلام العليّ الكبير، لجابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر

أبو بكر الجزائريّ، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الخامسة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٩. إيضاح الوقف والابتداء، لأبي بكر الأنباريّ (ت٣٢٨هـ)، تحقيق: محيّ الدين رمضان، المكتبة العصريَّة.

١٠. البحر المحيط، لأبي حيَّان الأندلسيّ (ت٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي محمَّد جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ.

١١. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للفيروز آباديّ (ت٨١٧هـ)، تحقيق: محمَّد عليّ النجَّار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميَّة، لجنة إحياء التراث الإسلاميّ، القاهرة.

١٢. البيان والتبيين، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمَّد هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، الطبعة السابعة، ١٤١٨هـ/ ١٩٨٨م.

١٣. التعريفات، للشريف الجرجانيّ (ت٨١٦هـ)، دار الكتب العلميَّة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

١٤. تاريخ آداب العرب، لمصطفى صادق الرافعيّ (ت١٣٥٦هـ)، منشورات دار الكتاب العربيّ.

١٥. التفسير الواضح، لمحمَّد محمود الحجازيّ، دار الجيل الجديد، بيروت، الطبعة العاشرة، ١٤١٣هـ.

١٦. التفسير الوسيط، للدكتور وهبة بن مصطفى الزحيليّ، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٧. التمثيل والمحاضرة، لأبي منصور الثعالبيّ (ت٤٢٩هـ)، تحقيق: عبد الفتَّاح محمَّد الحلو، الدار العربيَّة للكتاب، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

١٨. تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلانيّ (ت٨٥٢هـ)، مطبعة دائرة المعارف النظاميَّة، الهند، الطبعة الأولى، ١٣٢٦هـ.

١٩. جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكريّ (ت٣٩٥هـ)، تحقيق: محمَّد أبو الفضل إبراهيم، وعبد المجيد قطامش، دار الفكر، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م.

٢٠. الجنى الداني في حروف المعاني، لأبي محمَّد بدر الدين الحسن بن قاسم بن المراديّ (ت٧٤٩هـ)، تحقيق: الدكتور فخر الدين قباوة، والأستاذ محمَّد نديم فاضل، دار الكتب العلميَّة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

٢١. حاشية الدسوقيّ على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازانيّ (ت٧٩٢هـ)، لمحمَّد بن عرفة الدسوقيّ (ت١٢٣٠هـ)، تحقيق: عبد الحميد هنداويّ، المكتبة العصريَّة، بيروت.

٢٢. الحماسة لأبي عُبَادة الوَليد بن عُبَيد البُحتريّ (ت٢٨٤هـ)، تحقيق: د. إبراهيم حوّر، وأحمد محمَّد عبيد، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، الإمارات العربيَّة المتَّحدة، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

٢٣. الخصائص الكبرى، لجلال الدين السيوطيّ (ت٩١١هـ)، منشورات دار الكتب العلميَّة، بيروت.

٢٤. دستور العلماء، أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، للقاضي عبد النبيّ بن عبد الرسول الأحمد نكري القنوجيّ (ت ق١٢هـ)، عرَّب عباراته الفارسيَّة: حسن هاني فحص، دار الكتب العلميَّة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٢٥. ذخائر العقبى في مناقب ذوى القربى، لمحبِّ الدين أحمد بن عبد الله الطبريّ (ت٦٩٤هـ)، عنيت بنشره مكتبة القدسيّ، القاهرة، ١٣٥٦هـ.

٢٦. زهر الآداب وثمر الألباب، لأبي إسحاق الحصريّ القيروانيّ (ت٤٥٣هـ)، تحقيق: الدكتور يوسف عليّ طويل، دار الكتب العلميَّة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٢٧. سمط اللآلي في شرح أمالي القالي (ت٣٥٦هـ)، لأبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكريّ الأندلسيّ (ت٤٨٧هـ)، تحقيق: عبد العزيز الميمنيّ، دار الكتب العلميَّة، بيروت.

٢٨. شرح أبيات مغني اللبيب، للخطيب البغداديّ (ت١٠٩٣هـ)، تحقيق: عبد العزيز رباح، دار المأمون للتراث، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.

٢٩. شرح السنَّة، للبغويّ (ت٥١٦هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمَّد زهير الشاويس، منشورات المكتب الإسلاميّ، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٣٠. شرح مقامات الحريريّ، للشريشيّ (ت٦١٩هـ)، دار الكتب العلميَّة، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٦م/ ١٤٢٧هـ.

٣١. الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، لأبي زكريَّا أحمد بن فارس، تحقيق: أحمد سيِّد صقر.

٣٢. صحيح البخاريّ، لأبي عبد الله محمَّد بن إسماعيل الجعفيّ البخاريّ (ت٢٥٦هـ)، تحقيق: الدكتور مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٧م.

٣٣. صحيح مسلم، لأبي الحسن مسلم بن الحجَّاج القشيريّ النيسابوريّ (ت٢٦١هـ)، تحقيق: محمَّد فؤاد عبد الباقي، منشورات دار إحياء التراث العربيّ، بيروت.

٣٤. الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة، لأحمد بن محمَّد ابن عليّ بن حجر الهيتميّ (ت ٩٧٤هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن عبد الله التركيّ، وكامل محمَّد الخرَّاط، مؤسَّسة الرسالة، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٣٥. عمدة الحفَّاظ في تفسير أشرف الألفاظ، لأبي العبَّاس شهاب الدين أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبيّ (ت ٧٥٦ هـ)، تحقيق: محمَّد باسل عيون السود، دار الكتب العلميَّة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

٣٦. غرائب القرآن ورغائب الفرقان، لنظام الدين الحسن بن محمَّد بن حسين القمِّيّ النيسابوريّ (ت٨٥٠هـ)، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلميَّة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

٣٧. غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلَّام الهرويّ (ت٢٢٤هـ)، تحقيق: محمَّد عبد المعيد خان، مطبعة دائرة المعارف العثمانيَّة، حيدر آباد، الدكن، الطبعة الأولى، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

٣٨. الفائق في غريب الحديث والأثر، لجار الله الزمخشريّ (ت٥٣٨هـ)، تحقيق: عليّ محمَّد البجاويّ، محمَّد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار المعرفة، لبنان، الطبعة الثانية.

٣٩. فضائل الصحابة، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن عليّ الخراسانيّ، النسائيّ (ت٣٠٣هـ)، دار الكتب العلميَّة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

٤٠. كتاب الصناعتَين، لأبي هلال العسكريّ (ت٣٩٥هـ)، تحقيق: عليّ محمَّد البجاويّ، ومحمَّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصريَّة، بيروت، ١٤١٩هـ.

٤١. كشَّاف اصطلاحات الفنون، لمحمَّد بن عليّ التهانويّ (ت بعد ١١٨٥هـ)، تحقيق: الدكتور عليّ دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

٤٢. الكشَّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لجار الله الزمخشريّ (ت٥٣٨هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهديّ، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت.

٤٣. كنز العمَّال في سنن الأقوال والأفعال، للمتَّقي الهنديّ (ت ٩٧٥هـ)، تحقيق: بكري حيَّانيّ، صفوة السقَّا، مؤسَّسة الرسالة، الطبعة الخامسة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٤٤. لسان العرب، لابن منظور الإفريقيّ (ت٧١١هـ)، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.

٤٥. اللطائف والظرائف، لأبي منصور عبد الملك بن محمَّد بن إسماعيل الثعالبيّ (ت٤٢٩هـ)، دار المناهل، بيروت.

٤٦. لُغة الشعر عند الجواهريّ، للدكتور عليّ ناصر غالب، دار الحامد، عمَّان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.

٤٧. المستدرك على الصحيحَين لأبي عبد الله الحاكم محمَّد بن عبد الله بن محمَّد ابن حمدويه بن نُعيم النيسابوريّ (ت٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلميَّة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

٤٨. مسند أحمد، لأبي عبد الله أحمد بن محمَّد بن حنبل (ت٢٤١هـ)، تحقيق: أحمد محمَّد شاكر، منشورات دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

٤٩. معاني القرآن، لأبي زكريَّا يحيى بن زياد الفرَّاء (ت٢٠٧هـ)، تحقيق: أحمد يوسف النجاتيّ، ومحمَّد عليّ النجَّار، وعبد الفتَّاح إسماعيل الشلبيّ، الدار المصريَّة للتأليف والترجمة، الطبعة الأولى.

٥٠. معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق إبراهيم بن السريّ بن سهل الزجَّاج (ت٣١١هـ)، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٥١. معاني النحو، للدكتور فاضل السامرَّائيّ، شركة العاتك لصناعة الكتاب، القاهرة، شارع الأتراك.

٥٢. المعجم الكبير، أو معجم الطبرانيّ، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبرانيّ (ت٣٦٠هـ)، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفيّ، دار إحياء التراث العربيّ، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م.

٥٣. معجم مقاييس اللغة، لأبي زكريا أحمد ابن فارس (ت٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمَّد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م.

٥٤. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لأبي محمَّد عبد الله جمال الدين بن يوسف ابن عبد الله بن هشام الأنصاريّ (ت٧٦١هـ)، تحقيق: الدكتور مازن المبارك، ومحمَّد عليّ حمد الله، راجعه: سعيد الأفغانيّ، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٢.

٥٥. مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهانيّ (ت٤٢٥هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوووديّ، طليعة النور، الطبعة الثانية.

٥٦. المفصَّل في صنعة الإعراب، لجار الله أبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشريّ (ت٥٣٨هـ)، تحقيق: الدكتور عليّ بو ملحم، مكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.

٥٧. مواهب الفتَّاح في شرح تلخيص المفتاح، لابن يعقوب المغربيّ (ت١١٢٢هـ)، دار الكتب العلميَّة، بيروت.

٥٨. الموسوعة القرآنيَّة، للدكتور إبراهيم بن إسماعيل الأبياريّ (ت١٤١٤هـ)، مؤسَّسة سجل العرب، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

الرسائل الجامعيَّة

٥٩. أساليب الطلب في ديوان الشريف الرضيّ، رسالة ماجستير، للطالب صادق كاظم محمَّد عليّ الصفَّار، مقدَّمة إلى كليَّة التربية، جامعة بابل.

حجاجية التناص القرآنيّ في الخطبة الفدكيَّة

م.د. عليّ إسماعيل خليل
مديريَّة تربية المثنَّى

ملخَّص البحث

يتناول هذا البحث مصطلح حجاجيَّة التناص في خطاب الزَّهراء عليها السلام قراءة ثقافيَّة، من خلال أبرز تلك المواقف الحجاجيَّة التي طرحتها الزَّهراء عليها السلام، ونالت الحصَّة الكبرى من معظم خطاباتها، التي تبيِّن دورها القياديّ المستمد من دور أبيها رسول الله محمَّد صلى الله عليه وآله، لذا كانت تستعمل شتَّى الوسائل البلاغيَّة والأسلوبيَّة لطرح تلك الأفكار والقضايا الحقَّة التي تحمي الإسلام، وتحرز الهدف الإصلاحيّ المحمَّديّ بخطى ثابتة مستدامة، بعيدًا عن محاولات الفساد والظلم التي تفجَّرت ينابيعها بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله.

يهدف البحث إلى إظهار دور حجاجيَّة التناص كأداة إجرائيَّة خطابيَّة لنقد الواقع، وبيان الحقِّ الفاطميّ المسلوب؛ لأنَّ كلَّ خطاب له مرجعيَّات تناصيَّة من خطابات أخرى، وبامتزاج الحجاج معه؛ يعطيه بُعدًا إقناعيًّا مؤثِّرًا من شأنه أن يقدِّم دعمًا لعمليَّة الخطاب للمتلقِّين؛ لكونه يقوم بعمليَّة نقل المعنى من الحالة التصويريَّة العاديَّة إلى الحالة التصديقيَّة.

لذا سيتمُّ تناوله في خطاب الزَّهراء عليها السلام، من خلال بيان منابعه الثقافيَّة التي تزيد

من فاعليَّته الحجاجيَّة في منظومة المتلقِّي، ثمَّ بيان أهمِّ أهدافه التي هي أساس صياغة النصِّ الخطابيّ للزَّهراء عليها السلام.

المقدِّمة

تحاول هذه الدراسة قراءة حجاجيَّة التناص في الخطاب الفدكيّ للسيِّدة الزَّهراء في مسجد أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله بعد وفاته بقليل، وفي حشد كبير من المهاجرين والأنصار، لذا فإنَّ دراسة خطبة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام يعني الاهتمام بأهمِّ النصوص الخطابيَّة العربيَّة، لما يحتويه النص من ثقافة ومقاربات لغويَّة وتناصيَّة عظيمة، وفق آليَّات حجاجيَّة تهيمن على ذات المتلقي وعقله، بل حتَّى عواطفه حين سماعها. ممَّا شكَّل تراثًا أدبيًّا مفعمًا بالحيويَّة والدلالات والأساليب الإبداعيَّة التي تغذَّت من منابع القرآن والرسالة المحمَّديَّة الخالدة. سنحاول قراءة حجاجيَّة التناص فيها، لبيان الدور الذي قام به، وما هي أهدافه الإنسانيَّة ضمن ملكاته الأدبيَّة المتأتيَّة من قوَّة الحضور الخطابيّ للزَّهراء عليها السلام؛ لأنَّه «لا يكفي أن يكون للمرء مواهب عظيمة، وإنَّما ينبغي أن يعرف كيف يديرها»(١).

بدءًا من القرآن الكريم الذي مثَّل الحضور الأوفر في معانيه ومراداته وتراكيبه وفق رؤى حجاجيَّة إقناعيَّة من شأنها أن تساهم في إشاعة الحقِّ وتبيانه، وتجلي الباطل وتدحضه، لذا شكَّلت «معجزة خالدة للسيِّدة الزَّهراء عليها السلام، وآية باهره تدلُّ على جانب عظيم من الثقافة الدينيَّة التي تتمتَّع بها فاطمة الزَّهراء عليها السلام»(٢)، بحصيلته التي تشكَّلت نتيجة التقاء نصوص سابقة مع متزامنة، فتتقابل وتتنافس وتتداخل بعد أن يرسمها

(١) خمسة مداخل إلى النقد الأدبيّ، مقالات معاصرة في النقد، ويلبر سكوت، ترجمة د. عناد غزوان، وجعفر صادق الخليليّ، دار الرشيد، منشورات وزارة الثقافة، ١٩٨١: ٤٣.

(٢) الزَّهراء المثل الأعلى للمراة المسلمة، السيِّد شريف السيِّد العامليّ، دار البلاغة، قم ط١: ١٦٦.

المبدع في نفسه، ضمن آليَّة سمِّيت بالتناص، اعتمدها الجميع؛ لأنَّها تعدُّ في صميم الخطاب الأدبيّ، وأحد الوسائل المهمَّة في الإقناع ذو المفاهيم المتعدِّدة لتعدُّد المناهج، ولتعدُّد المرجعيَّات والأغراض التي يدافع عنها[1]، على اعتبار أنَّ التناص يطبَّق على كلِّ النصوص والخطابات، فكلُّ خطاب له مرجعيَّات تناصيَّة من خطابات أخرى، ولكنَّه بامتزاج الحجاج معه، يعطيه بُعدًا إقناعيًّا، مع وجود خصوصيَّة لكلِّ مصطلح، وهذا بطبيعة الحال لا يمنع من كون حجاجيَّة التناص نفسه يحوي خصائص أسلوبيَّة تثبت بلاغته في الحجاج، وكلّ ما من شأنه أن يقدِّم دعمًا لعمليَّة الخطاب المقنع[2]، لذا من الطبيعيّ أن يشغل حيِّز اهتمام الباحثين، رغبةً في تأصيله ودمجه في منظومة التداول التطبيقيّ، وخاصَّةً أنَّه يعدُّ من بعض المصطلحات التي حاول البعض مقاربتها من النشأة العربيَّة، وحجاجيَّة التناص ليست وسيلة، بل غاية أصيلة في خطابات المجتمعات، بكلِّ تفرُّعاتها ومناحيها العلميَّة والإنسانيَّة، وعمل الحجاج يعتمد على جودة التناص، والعكس صحيح، فكلَّما كانت الأدلَّة التناصيَّة ذات قيمة، كلَّما كان التأثير الحجاجيّ أشدُّ وأجمل في النصِّ والمتلقِّي.

(١) ينظر: التناص في شعر أبي العلاء المعرِّي، إبراهيم مصطفى الدهون، عالم الكتب الحديث، ط١، عمَّان، الأردن، ٢٠٠٣: ١٣.

(٢) ينظر: أطروحة التناص في الشعر الجاهليّ، إعداد الطالب: عليّ حسين سلطان، كليَّة الآداب، جامعة بغداد، إشراف أ.د. محمود عبد الله الجادر، ٢٠٠٦: ٦.

المطلب الأوَّل

تاريخ حجاجيَّة التناص في الخطابة العربيَّة

وهذا الذي أقصده بحجاجيَّة التناص باختصار هنا، هو: عمليَّة لسانيَّة عقليَّة، غايتها إيصال موقف ما مثير للاهتمام، بدليل مقنعٍ إلى المتلقِّي، عن طريق تقديم حجج متعدِّدة قائمة على التناص؛ لاستمالة الآخر، والتأثير على مشاعره وفكره، تمهيدًا لإقناعه. فحجاجيَّة التناص كمصطلح فعَّال في النصِّ الأدبي يهدف إلى تأسيس موقف ما مثير للاهتمام إلى متلقٍّ، ويبحث دائمًا لأخذ قبول ذلك المتلقِّي، ممَّا يتحتَّم عليه أن يأتي بالدليل، وتقديم عدد كبير من الحجج، مختارة اختيارًا حسنًا، ومرتَّبة ترتيبًا محكمًا، لما تمتلكه تلك الحجج بصورة عامَّة من عناصر مؤثِّرة تترك أثرها في عمليَّة التلقِّي والإقناع[1]. ويرى بيرلمان أنَّ الحجاج: «جملة من الأساليب تضطلع في الخطاب بوظيفة هي حمل المتلقِّي على الاقتناع بما نعرضه عليه أو الزيادة في حجم هذا الإقناع»[2]، وعليه بيرلمان يؤكِّد على المتلقي، وقدرة تأثُّره من جرَّاء هذه الحجج.

أمَّا أزوالد ديكرو فيرى «أنَّ كلَّ قول يحتوي على فعل إقناعيّ، فإن تتكلَّم يعني أنَّك تحاجج، ولا وجود لكلام دون شحنة حجاجيَّة، فالحجاج عنده هو علاقة دلاليَّة تربط بين الأقوال في الخطاب، تنتج عن عمل المحاججة»[3].

(١) ينظر: اللغة والحجاج، أبو بكر العزَّاويّ، ط١، الدار البيضاء، ٢٠٠٦م: ١٥-١٦.
(٢) مصنَّف في الحجاج: الخطابة الجديدة، بيرلمان وتيتكا: ٢١.
(٣) الحجاج واللغة، د. أبو بكر العزَّاويّ، العمدة في الطبع، ط١، ٢٠٠٦: ١٤.

وأولى ثمار ذلك التلقِّي العلاقة القويَّة القائمة بين حجاجيَّة التناص وفنِّ الخطابة، إذ كما هو معروف أنَّ عملية الاتِّصال الحجاجيّ بين المتكلِّم والمخاطَب ليست بالعمليَّة البسيطة، وإنَّما هي عمليَّة مركَّبة ومعقَّدة، فهي من حيث المبدأ تتألَّف باللغة أو الحدث، إن صحَّ القول، بعناصر المتكلِّم، والخطاب، المخاطب، وأنَّ هذه الأركان متوفِّرة في الخطب، وتشترك مع بعضها بخصائص معيَّنة وقابلة للتغيُّر طبقا للمقام وسياق القول، إذ تتأثَّر ببعضها في سياق اجتماعيّ، وفي ظروف محدَّدة[1].

وبما أنَّ الخطابةَ جزءٌ من الاتِّصال الكلاميّ، إذ منذ جذورها اللغويَّة اعتُمدت بوصفها ناجعة لبثِّ حجاجيَّة التناص، إذ يعرض لنا تشكيلها اللفظيّ اللغويّ الذي يُشتقُّ من الخَطب، وهو الأمر الجليل، أبعادًا لتلك العلاقة الأسلوبيَّة؛ «لأنَّه إنَّما يُقام بالخُطب في الأمور التي تَجِلُّ وتعظم، والاسم منها خاطب، مثل راحم، فإذا جعل وصفًا لازمًا قيل خطيب، كما قيل في راحم رحيم، وجعل رحيم أبلغ في الوصف وأبين في الرحمة، وكذلك لا يسمَّى خطيبًا، إلَّا من غلب ذلك على وصفه، وصار صناعةً لـه»[2]. لذلك نراها تزدهر في كلِّ عصر وموقف مؤثِّر وخطير، وهذا يعدُّ منبرًا ملائماً لحجاجيَّة التناص، لتزدهر به.

ويرى الزمخشريّ (ت٥٣٨هـ) «أنَّ الخطابة المواجهة بالكلام»[3]، وهذا الكلام يعدُّ خطابًا كلاميًّا يقوم على عنصرَين يكمِّلان جوانبه، بدءًا من المتكلِّم، وانتهاءً بالسامع،

(١) ينظر: التجربة الإبداعيَّة دراسة في سيكلوجيَّة الاتِّصال، إسماعيل الملحم، اتِّحاد الكتَّاب العرب.

http://www.awu-dam.org,11.

(٢) البرهان في وجوه البيان، أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب (ت٢٧٢هـ)، تحقيق: د. أحمد مطلوب، و د. خديجة الحديثيّ، ط١، مطبعة جامعة بغداد، ١٩٦٧م: ١٥١.

(٣) أساس البلاغة، للزمخشريّ، تحقيق: مركز عفيف للتراث، ط٢، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، ١٩٨٥: ١/ ٢٣٩.

ومنه اشتقَّ لفظة الخطبة. قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ (طه/ ٩٥)، وبما أنَّ الدلالة اللغويَّة للخطابة الغالبة توحي بالأمر الجلل، فإنَّ ما يتكلَّم به الخطيب هو بحدِّ ذاته أيضًا يعدُّ أمرًا حجاجيًّا، لذلك نشاهد إلقاء الخطب يتمُّ في الأمور العِظام، والمحافل الكبار في المناسبات الدينيَّة والسياسيَّة والاجتماعيَّة(١).

أمَّا على الجانب الاصطلاحيّ، وقد فطن لأهميَّتها القدماء كلًّا حسب إدراكه وطريقته في البحث الأدبيّ، فالأزهريّ مثلًا يرى أنَّها تتمثَّل في «الرسالة التي لها أوَّل وآخر»(٢)، وهو يركِّز هنا على الجانب البنائيّ للخطبة، في حين نرى العسكريّ (ت٣٩٥هـ) يتَّجه إلى التفريق عن الشعر بقوله: «إنَّ الرسائل والخطب متشاكلتان في أنَّهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية»(٣).

ومن ثمَّ هي عنصر أساس من عناصر النثر التي تؤدِّي دورًا تواصليًّا ضمن منظور الخطاب في عمليَّة الإقناع الأدبيّ، لكونها «نمط من أنماط النثر الفنِّيّ، يعتمد مشافهة الجمهور، ويهدفُ إلى الإقناع والاستمالة والتأثير في نفوس السامعين، وقد اتَّخذها الأنبياء والمصلحون أداةً مهمَّةً في نشر تعاليمهم، وشدِّ الناس إليها»(٤)، هذا من جانب اللفظ.

أمَّا من الجانب الفنِّيّ البلاغيّ، نلحظ العلاقة الواضحة بين فاعليَّة الخطابة والبلاغة، بما تحمله البلاغه من وجه جدليّ

(١) ينظر: تحليل الخطاب مفاهيم نظريَّة ونصوص تطبيقيَّة، د. جان نعوم طنوس، دار المنهل اللبنانيّ، ط١، بيروت، لبنان، ٢٠١٤م: ٧.

(٢) تهذيب اللغة: مادَّة (خطب).

(٣) الصناعَتَين لأبي هلال العسكريّ، تحقيق: عليّ محمَّد البجاويّ، ومحمَّد أبي الفضل إبراهيم، ط١، طبعة باب الجلبيّ، ١٩٥٢: ١٤٢.

(٤) الخطابة العربيَّة في العصر العبَّاسيّ الأوَّل، دراسة موضوعيَّة- فنيَّة، د. حسين عبد العالي اللهيبيّ، جامعة الكوفة، مركز دراسات الكوفة، مجلَّة القادسيَّة في الآداب والعلوم التربويَّة، ع٣-٤، مج٧، ٢٠٠٤: ٩٣.

إقناعيّ[1]، وبما تمثِّله الخطابة أو الخطب بأنَّها ليست ذات منهج فكريّ وعقليّ صِرف، بل يشارك المعيار العاطفيّ دورًا بنائيًّا في بنيتها الفنيَّة، متمثِّلًا بأدواته الفنيَّة، وما يحوزه من عناصر بلاغيَّة تجعل المتلقِّي يتفاعل معها، وينجذب إليها، فيتحقَّق المنشود من قولها[2]؛ لأنَّ لها «القدرةُ على النظر في كلِّ ما يوصل إلى الإقناع في أَي موضوع من الموضوعات»[3]، إذ تنتمي إلى جنس الكلام المنثور الذي يكونُ أساسَها «الطبعُ، وعمودها الدربة، وجناحاها رواية الكلام، وحليّها الإعراب، وبهاؤها تخيُّر الألفاظ»[4]، لكنَّها في الوقت نفسه تتميَّز بأنَّها تتفاعل بما يدور حولها من أحداث ووقائع بمختلف أبعادها؛ لذا فهي منذ القِدَم أصبحت أداة ناجعة، لها أصول وقواعد تسير وفقها، ومن المشهور بأنَّ أرسطو هو أوَّل من أرسى قواعد هذا الفنِّ وأصوله، وقد قسمَّها ثلاثة أقسام: الخطابة المشوريَّة، والمشاجريَّة، والبرهانيَّة[5].

العلاقة بين حجاجيَّة التناص البلاغيَّة والخطابة علاقة متينة، يختارها المبدع بصورة ذكيَّة، ليتمكَّن من مخاطبة الجمهور، على اختلاف مداركهم، وثقافاتهم، وميولهم السياسيَّة ؛ بما يناسبهم من صور البيان، وطرائق الخطاب[6].

ولقد أدرك البلاغيُّون والنقَّاد هذه الكينونة البحثيَّة لعملية التخاطب، إذ «لا

(١) ينظر: الحجاج في البلاغة العربيَّة، محمَّد سالم محمَّد أمين، بحث في بلاغة النقد العربّي، دار الكتاب الجديد، ط١، لبنان، بيروت، ٢٠٠٨: ٢٤.

(٢) ينظر: نظرية السلالم الحجاجيَّة، خطب النساء في العصر الإسلاميّ إنموذجًا، أ.م.د. زينب الملَّا السلطانيّ، وميسم صباح خضير، جامعة بغداد، كليَّة التربية للبنات، مجلَّة ديالى، ٢٠١٧: ٢٨٧.

(٣) كتاب الخطابة، أرسطو طاليس، ترجمة وتحقيق: إبراهيم سلامة، منشورات مكتبة الأنجلو المصريَّة، مطبعة لجنة البيان العربيّ، الطبعة الثانية، ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م: ٨٢.

(٤) البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمَّد هارون، مؤسَّسة الخانجي بالقاهرة، (د.ت): ١/ ٩٢.

(٥) ينظر: الخطابة العربيَّة في العصر العبَّاسيّ الأوَّل، د. حسين عبد العالي: ٩٣.

(٦) ينظر: فنُّ الخطابة وإعداد الخطيب، عليّ محفوظ، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٤م: ٧٠.

يستطيع المتكلمُ أَن يجعلَ كلامَه في منأى عن إدراك المخاطَب وفهمه، فهو لا يستطيعُ الاستمرارَ في الكلام من غير معرفةٍ بالظروف الاجتماعيَّة، والنفسيّة للمخاطَب»[1]، ولعلَّ أوَّل البلاغيِّين الذينَ اهتمُّوا اهتمامًا واضحًا بهذه العناصر، هو بشر بن المعتمر (ت ٢١٠هـ) في صحيفته المشتملة على نصائح للأَديب، يقول بشر: «ينبغي للمتكلِّم أن يعرفَ أَقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فيجعلُ لكلِّ طبقةٍ من ذلك كلامًا، ولكلِّ حالةٍ من ذلك مقامًا، حتَّى يقسِّمَ أقدارَ الكلام على أقدار المعاني، ويقسِّم أقدارَ المعاني على أقدارِ المقامات، وأقدارَ المستمعين على أقدارِ تلك الحالات»[2]، وكذلك قوله: «والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصَّة، وكذلك ليس يتضعُ بأَنْ يكون من معاني العامَّة. وإِنَّما مدارُ الشرف على الصواب وإِحرازِ المنفعة مع موافقةِ الحال، وما يجبُ لكلِّ مقامٍ من المقال»[3]، والمتأمِّلُ لهذَين النصَّين يلحظُ بوضوح اشتمالَهما على العناصر الرئيسة المكوِّنة للخِطَاب، فضلًا عن مطالبته بمراعاة الكلام لمقتضى الحال، التي تثري حجاجيَّة التناص في النصِّ الأدبيّ.

ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ نشوء الخطابة وازدهارها مرتبط بفاعليَّتها الحجاجيَّة، فطبقًا لأهميَّة الخطابة في الأدب العربيّ ولمقتضيات الحاضرة العربيَّة التي لطالما احتفلت بها، فإنَّ الخطابة عُرِفت قبل مجيء الإسلام كنوعٍ نثريٍّ مميَّز اهتمَّ به طائفة من الأدباء بعد أن وجدوها وسيلة حجاجيَّة إقناعيَّة تعبِّر عن وجودهم ووجود قبيلتهم، وتعصُّبهم لها، أمثال قس بن ساعدة، واكثم بن صيفيّ، وحاجب بن زرارة، وعامر بن الطفيل العامريّ وغيرهم[4]، إذ «كان للعرب في الخطابة نصيب وافر أتاحه جوُّهم وأحوال معاشهم،

(١) مراعاة المخاطَب في الأحكام النحويَّة في كتاب سيبويه، كريم حسين ناصح، مجلَّة المورد، دار الشؤون الثقافيَّة العامَّة، مج٣٠، ع٣، ٢٠٠٢م: ٢٨.

(٢) البيان والتبيين: ١/ ١٣٨-١٣٩.

(٣) المصدر نفسه: ١/ ١٣٦.

(٤) ينظر: صورة القيم الأخلاقيَّة في نثر العصر الجاهليّ، عليّ إسماعيل العزَّاويّ، مؤسَّسة دار الصادق الثقافيَّة، بابل، العراق، ط١، ٢٠١٦: ٢٠ وما بعدها.

ووجدوا في الخطابة عونًا لهم على الحضِّ والتحذير والترغيب أو التنفير والمفاخرة أو المناظرة، بل صارت عندهم مظهرًا من مظاهر الفروسيَّة، يتباهى بها شجعانهم، ويدرَّب عليها فتيانهم»[1].

وبتشريف الإسلام للحياة الدينيَّة والأدبيَّة، ونزول القرآن الكريم، تطوَّرت الخطابة وفاعليَّتها في رِحَاب الدَّعوة الإسلاميَّة، وتنوَّعت أغراضها، بعدما كانت ذات أغراض معيَّنة في الجاهليَّة، وبذلك نهضت الخطابة، وتقدَّم معها النثر بصورة عامَّة، وخطب النبيّ صلى الله عليه وآله من أروعها نظمًا وفكرًا[2]، وخطبة الوداع خير شاهد على ذلك النَّظم النصيِّ الخطابيّ الدقيق[3].

ومن ثمَّ فإنَّ مضامين الخطابة وتوجُّهاتها كانت لزامًا عليها أن تواكب تنوُّعات المجتمع العربيّ وتنوُّع توجُّهاته، ومن ثمَّ تتنوَّع تناصَّاتها الحجاجيَّة (الخطابة)، وأهدافها؛ لتدخل ضمن أطر كالوعظ والإرشاد أو الدعوة إلى الخير.. الخ، تزامنًا لتحوُّلاتها من الغَرَض الشخصيّ القبَليّ الضيِّق، كما كانت في العصر الجاهليّ، إلى اتِّجاه دينيّ عام قائم على صيانة دم المسلم، وماله وعرضه والروح الإسلاميَّة العامَّة، وهذه حقيقة بثَّها القرآن في كثير من آياته في الدعوة نحو التحرُّر من تَركَة الماضي، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ (البقرة/ ٨٤)؛ لذا تحوَّلت الفاعليَّة الحجاجيَّة من مطالب شخصيَّة دُنيويَّة، كما كانت سابقًا، إلى مبادئ إسلاميَّة عامَّة، وقيم سماويَّة عظيمة، يقول نبيّنا صلى الله عليه وآله في خطبة له: «**يا معشر قريش، إنَّ الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهليَّة، وتَعظُّمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب**»[4].

(١) الخطابة، نقولا فيَّاض، إدارة الهلال، ط٢، مصر، ١٩٣٠م: ١٢١.

(٢) ينظر: تاريخ الأدب العربيّ، العصر الإسلاميّ، د. شوقي ضيف، ط٦، مطبعة دار المعارف، مصر: ١١٥.

(٣) ينظر: المرجع نفسه: ١١٥.

(٤) ينظر: الخطبة في السيرة النبويَّة، ابن هشام الأنصاريّ (ت٢١٨هـ)، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب العلميَّة: ٣/ ٤١٢.

وكان معتمد هنا على الشعار القرآنيّ الواضح في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ (الحجرات/ ١٣)، وقد ماشى الخلفاء منهج الرسول الكريم الخطابيّ، واتَّخذوا من كلماته التي كان يفتتح بها خطبه نموذجًا في افتتاحيَّاتهم(١)، وشهدت الخطابة تطوُّرًا كبيرًا في خلافة أمير المؤمنين الإمام عليّ بن أبى طالب عليه السلام؛ لكونه خطيبًا، إلى جانب ثقافته القرآنيَّة التي أثرت الأدب العربيّ بدرر لا نظير لها من خطب الوعظ والإرشاد والتذكير بالآخرة، فكان برأي الكثيرين بحقٍّ رائد الخطابة العربيَّة بعد المصطفى صلى الله عليه وآله، ومن ذلك ما جاء في خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام يوبِّخ فيها أصحابه، قائلًا: «.. **وكنت في هذه الحكومة أمرت أمري ونخلت لكم مخزون رأيي لو كان يُطاع لقصير أمر**»(٢)، فقوله: «لو كان يطاع لقصير أمر» حجاج تناصِّيّ من مَثَل قديم لقصَّة جذيمة الأبرش(٣).

وعندما ننتقل إلى العصر الأمويّ، نجد الفاعليَّة التناصيَّة متلازمة بتاريخيَّة الخطابة، لكن تتحوَّل بالمدِّ السياسيّ الطاغي لمنحى جديد؛ لترسم لنا صورة ذلك المجتمع المكتظِّ بالتناقضات والفِرَق السياسيَّة(٤)، كما نلمسه في خطبة عبد الملك بن مروان بعد انتصاره على مصعب بن الزبير، قائلًا: «أيُّها الناس دعوا الأهواء المضلَّة، والآراء المشتَّتة، فقد

(١) الفن ومذاهبه في النثر العربيّ، د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط٥، (د.ت): ٥٢.

(٢) نهج البلاغة، ابن أبي الحديد (ت٦٥٦هـ)، تحقيق: محمَّد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبيّ وشركاؤه، ط٢، مصر، ١٩٦٥: ٨٥-٨٦.

(٣) عن المثل وغيره، ينظر: مجمع الأمثال، لأبي الفضل أحمد بن محمَّد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوريّ الميدانيّ (ت٥١٨هـ)، حقَّقه وفصَّله وضبط غرائبه وعلَّق حواشيه: محمَّد محي الدين عبد الحميد، مكتبة السنَّة المحمَّديَّة، (د.ت): ٢/ ٢٣٨.

(٤) ينظر: التناصُّ الحجاجيّ في خطب عصر صدر الإسلام والعصر الأمويّ، أطروحة دكتوراه، أمل عبد الرحيم جمعة، كليَّة التربية للعلوم الإنسانيَّة، جامعة كربلاء، ٢٠١٧: ٦٧ وما بعدها.

حاربتمونا إلى السيف، فرأيتم كيف صنع الله بكم.. وما مثلي ومثلكم إلَّا كما قال أبو قيس بن الأسلت:

من يصْلَ نارِي بلا ذنبٍ ولا ترةٍ
يصلَ بنارِ كريمٍ غير غدَّارِ»[1]

لقد استمرَّت الخطابة على مرِّ العصور محافظةً على مكانتها البالغة، وكان للخطباء مكانتهم ذات البعد السلطويّ في قيادة الجماعات، فكانت تُخضِع المتلقِّين لسطوة تناصَّاتها، ومن ثمَّ تبثُّ سياستها محاوِلةً التحكُّم باختيارات متلقِّيها[2]، فحجاجيَّة التناص في الخطابة وسيلة لتحقيق الإقناع وتغيير المفاهيم، يقول شوقي ضيف: «ولا نغلو إذ قلنا: إنَّ بلدًا من بلدان الفرس في العراق وإيران، وبلدان الروم في الشام ومصر، لم يُفتَح إلَّا بعد أن فتحته خطبة أحد هؤلاء القوَّاد، كخطبة المغيرة بن شعبة في القادسيَّة، وخالد بن الوليد في اليرموك، وعتبة بن غزوان في فتح الأبلة»[3].

أمَّا في العصر الحديث، فالتحوُّل ظاهر في فاعليَّة الخطبة بالتوجُّه نحو الجدل والحجاج، حتَّى تمثَّلت به، فيرى كلٌّ من بيرلمان وتيتكاه أنَّ الحجاج اقترب نحو الجدل، بقوله: «ومن أسباب الاختلاف بين الجدل والخطابة، أنَّ الجدل مداره على النظر المحض، في حين أنَّ الخطابة همُّها الأساسيّ العمل الذي يمارسه الخطاب على الجمهور، ومن أسباب ذلك أيضًا أنَّ الجدل في نظر المؤلِّفين يتمثَّل بالآراء في هدم غير شخصيَّة خصوصيَّتها، في حين أنَّ الخطابة مخصوصة دائمًا بالمقام والزمان[4]، وهذا يعني أنَّ الجدل

(١) الأغاني، أبو الفرج الأصفهانيّ، مراجعة وضبط العلَّامة الشيخ عبد الله العلايلي موسى سليمان وأحمد أبو سعد، ط٣، دار الثقافة، بيروت، لبنان ١٩٦٢: ١٥/ ١٦٧.

(٢) ينظر: الخطابة أصوليًّا وتاريخيًّا من أزهى عصورها عند العرب، محمَّد أبو زهرة، دار الفكر العربيّ، ط١، القاهرة، ١٩٤٦: ١٧.

(٣) العصر الإسلاميّ، شوقي ضيف: ١٠٨.

(٤) ينظر: الحجاج أطره ومنطلقاته ضمن كتاب حمَّادي صمود، أهم نظريَّات الحجاج في التقاليد الغربيَّة، عبد الله صولة: ٣٠٦.

ينطلق ممَّا هو متَّفق عليه بين الناس أو مسلَّمات، في حين الخطابة تتطلَّب مقامًا وجمهورًا معيَّنَين، وتطرح الفكرة القابلة للنقاش، وهذه الأمور التي تتطلَّبها الخطابة هي نفسها التي يتطلَّبها الحجاج(١).

ومن هنا كان الحجاج أقرب إلى الخطابة منه إلى الجدل، على الرغم من قرب الخطابة من الحجاج، إلَّا أنَّه يختلف عنها من ناحيَتَين، الأولى نوع الجمهور، والثانية نوع الخطاب، لذا لا يخفى دَور الخطيب في الخطاب الإقناعيّ الشفويّ وفق المقامات والأحوال، وخطابات العرب سواء في النثر أم في الشعر، إذ تعكس تلك الأهميَّة من خلال نصوص تطبيقيَّة(٢).

لكن لا بأس من الجمع بين الجانب العقليّ والعاطفيّ في العمليَّة الخطابيَّة، كما نجده عند أبو هلال العسكريّ الذي ينحو إلى عمليَّة ربط الحجاج بالجانب العاطفيّ، لذا عبر عنه بـ«تُعطَف به القلوب النافرة، ويؤنس القلوب المستوحشة، وتلين به العريكة الأدبيَّة المستعصية، ويبلغ به الحاجة، وتقام به الحجَّة»(٣).

أيضًا نذكر ما أشار إليه ابن وهب الكاتب فيما يخصُّ الحجاج والخطابة، فقد ربطَه بالجدل والأدلَّة، في كتابه (البرهان في وجوه البيان)؛ حيث أظهر تعريفًا دقيقًا للجدل والأدلَّة بقوله: «وأمَّا الجدل والأدلَّة فهما قول يُقصَد به إقامة الحجَّة فيما اختُلف فيه، وينبغي المتجادلون، ويستعمل في المذاهب والديانات، وفي الحقوق والخصومات

(١) ينظر: علم الخطابة، الأب لويس شيخو اليسوعيّ، مطبعة اليسوعيِّين، بيروت، لبنان، ١٩٢٦، ج٢، ٧-٨، وينظر: الحياة الأدبيَّة في العصر الجاهليّ، د. محمَّد عبد المنعم خفاجي، دار القلم، بيروت، لبنان د.ط: ١٥٨.

(٢) ينظر: إستراتيجيَّات الخطاب مقاربة تداوليَّة، عبد الهادي بن ظافر الشهريّ، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ٢٠٠٤: ٤٤٨-٤٤٩.

(٣) كتاب الصناعتَين، أبو هلال العسكريّ، تحقيق: عليّ محمَّد البجاويّ، ومحمَّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريَّة، بيروت، ط١، ٢٠٠٦: ٤٩.

والتنصل في الاعتذارات»[1]، وقسَّم الجدل على تصنيفات أخلاقيَّة، وميَّز بين الجدل المحمود والجدل المذموم، «فأمَّا المحمود، فهو الذي يُقصَد به الحق، ويُستعمل فيه الصدق، وأمَّا المذموم فما أُريد به المماراة والغلبة، وطُلب به الرياء والسمعة»[2]. فيلحظ الباحث أنَّ الحجاج الخطابيّ أوسع من الجدل، فكلُّ جدل حجاج، وليس كلُّ حجاج جدلًا، لكنَّه يظلُّ القاسم المشترك بين الجدل والخطابة، وهذه التركة الثقافيَّة الفكريَّة التراثيَّة بدءتها الزَّهراء عليها السلام بوعي وفكر، ووظَّفتها بأدوات بلاغيَّة وأسلوبيَّة حجاجيَّة؛ بأقصر الطرق، وأنجعها تأثيرًا في النفس.

(١) البرهان في وجوه البيان: ١٧٦.

(٢) المصدر نفسه: ١٧٦.

المطلب الثاني

المقاربة التطبيقيَّة لحجاجيَّة التناصِّ الفدكيّ

١. التناص ورمزيَّة القصِّ القرآنيّ:

قبل الدخول في الموضوع، نسأل لماذا التناصّ القرانيّ؟.

الجواب: لما يشكِّله النصُّ القرانيّ المقدَّس من دليل حجاجيّ وإقناعيّ موجَّه إلى البشريَّة جمعاء، يُعتمد فيها على مخاطبة العقل في عمليَّة الإقناع، معتدًّا في ذلك على بثِّه لغة حيَّة تصلح لكلِّ العصور، لها دور فعَّال في إقناع الآخرين، هي في أساسها موجَّهة من أجل التأثير على آراء المخاطَب وسلوكيَّاته واستمالةً لعقله[١]، وذلك الإقناع يتأتَّى من خلال صور وعِبَر زخرت بها نصوصه المباركة، لطالما كانت منذ الخليقة مؤثِّرة بعقول الشعوب وأفكارها؛ لما يمتلكه الدين من صورة ذهنيَّة عند الناس تجعلهم ينصاعون لنصوصه ومقدَّساته وطقوسه، وينساق مصيرهم لمن يجسِّده في كلِّ زمانٍ ومكان[٢].

وقد اعتمده الخطباء في خطبهم الحجاجيَّة؛ لأنَّه يتمثَّل «طريق الإقناع بالحجج العقليَّة والبراهين المنطقيَّة والمؤثِّرات الوجدانيَّة»[٣]، التي ينجذب إليها المتلقِّي

(١) ينظر: المضامين الاتِّصاليَّة والإخباريَّة في قصَّة مريم، د. محمَّد بصل، نور حاتم، مجلَّة جامعة تشرين للبحوث والدراسات، العلميَّة، المجلَّد ٣٦، ٢٠١٤، العدد ٣/ ٣٣٥.

(٢) ينظر: أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام، سميح دغيم، دار الفكر العربيّ، ط١، بيروت، لبنان، ١٩٩٥م: ٨١ .

(٣) الخطابة في صدر الإسلام، محمَّد طاهر درويش، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥م: ١/ ١١٢.

بأيِّ مكانٍ وزمان، فهو راغب للأديان وما يتعلَّق بها بطبعه، وبكلِّ ما يمتُّ الصلة بالدين[1].

وارتكازًا على الحالة الاجتماعيَّة والسياسيَّة والدينيَّة التي كانت سائدة في العصر الإسلاميّ شكَّل النصُّ المقدَّس للأديب حافزًا وثروة ثقافيَّة، وروحيَّة، ومعرفيَّة[2]، لذا كان القرآن الكريم السمة الغالبة في حجاجيَّة التناصِّ الخطابيّ لأهل البيت عامَّة، وللزَّهراء خاصَّة؛ لإدراكهم أنَّ الخطاب القرآنيّ فيه طاقات إقناعيَّة تخاطب عقول المستمعين بفاعليَّة مباشرة على اختلاف الأزمنه[3]، فأصبح من شروط تميُّز الخطابة بأن تعتمد على القرآن الكريم، إذ يزيد الخطابة جزالةً وقوَّةً وتوضيحًا للصور التي يريد الخطيب إيصالها للمستمعين؛ حتَّى «عُدَّت الخطبة التي تخلو منها، تسمَّى خطبة شوهاء»[4]، لذا نجد توظيف الدليل القرآنيّ كطاقة حجاجيَّة كبيرة مستمدَّة من أصل كلِّ بيان، ونبع كلِّ بلاغة، ومعين كلِّ فصيح، وبما يظهره من حالات نفسيَّة في صورة حسيَّة، وتصويريَّة مفعمه بالحيويَّة والحركة خاصَّة، فهم أهل القرآن وحماته وعلمائه[5].

وعودةً للموضوع، نلحظ فائدة مهمَّة من فوائد حجاجيَّة التناص، تتمثَّل بالقصص القرآنيّ، حيث كانت لهذا الفنِّ القوليّ جذور قديمة، فقد ذهب بعض الباحثين إلى أنَّ القصص كان موجودًا في أوَّل الإسلام، واستُغِل لغايات دينيَّة بالدرجة الأولى، وأنَّ

(١) ينظر: ميثولوجيا أديان الشرق الأدنى قبل الإسلام، محمَّد ناصر صديقي، مطبعة جداول، ط١، بيروت، لبنان، ٢٠٠٧: ١٥.

(٢) اتِّجاهات الشعر في العصر الأمويّ، صلاح الدين الهادي، دار الثقافة العربيَّة، القاهرة، ط١، ١٩٨٢: ٨٠.

(٣) ينظر: تاريخ الأدب العربيّ، حنا الفاخوريّ، المطبعة البوليسيَّة، ط٢، بيروت، ١٩٥٣: ٣١٨.

(٤) البيان والتبيين: ٢/ ٦.

(٥) ينظر: الخطابة العربيَّة في العصر العبَّاسيّ الأوَّل: د. حسين عبد العالي اللهيبيّ: ٩٦-١٠٢.

مفهومه عند أكثر المسلمين لم يختلف عن مفهوم الوعظ الدينيّ[1]، ويبدو أنَّ القصص كانت أداة حجاج سياسيَّة ودينيَّة معًا، وممَّا هيَّأ له المكانة المتميِّزة عند الناس، أنَّ «عبارته تشبه الأسلوب الخطابيّ الوعظيّ، ويُلقَى في المساجد وميادين القتال، ينهض فيه برجال أُعدُّوا له واختصُّوا به»[2]، فهؤلاء إذًا يمتلكون القدرة، كونهم مختصِّين، في إقناع الناس، خاصَّة إذا كانوا أصحاب حقٍّ لا شكَّ فيه، تتمثَّل باستدعاء الشخصيَّات التي تحمل خلفيَّات وأبعاد ذات عمق دينيّ وأخلاقيّ وأنموذجيّ يسعى إليه الجميع. ومن الشخصيَّات التي استدعتها الزَّهراء عليها السلام شخصيَّتَي (داوود، وسليمان)، وتمَّ المحاججة بهما، وتوظيفهما في المقطع الاخير في الخطبة، كقولها: «**أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي، لقد جئت شيئا فريًا، أفعلى عمدٍ تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم إذ يقول:** ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾»[3]، إذ استخدمت الزَّهراء عليها السلام للاحتجاج والإقناع أسلوب السؤال المباشر، من خلال الاعتماد على شخصيَّة سليمان وداوود في عمليَّة خطابيَّة ذات مرجعيَّات مؤثِّرة تعتمد التعقيب والتهديد بتناصٍّ مع قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ (النمل: ١٦).

وفي المعنى نفسه تقول الزَّهراء: «وقال فيما اقتصَّ خبر يحيى من زكريا إذ يقول: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥ يَرِثُنِي..﴾، وقال: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ..﴾، وقال: ﴿يُوصِيكُمُ﴾، وقال: ﴿إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ ..﴾[4]، إذ وظَّفت الزَّهراء عليها السلام شخصيَّة يحيى وزكريَّا عليهما السلام، بالتأكيد على حقِّ الزَّهراء عليها السلام في إرثها، كما ورث داوود سليمان، فهذا التوظيف الثنائيّ أثبت حقَّ الزَّهراء في الورث من خلال بيان زيف الادِّعاء المقابل بعدم

(١) القصة والقصاص في الأدب العربيّ، د. وديعة طه نجم، الكويت، ١٩٧٢: ٣٠.
(٢) تاريخ الشعر السياسيّ إلى منتصف القرن الثاني الهجريّ، د. أحمد الشايب، ط٣، مكتبة النهضة المصريَّة، ١٩٦٢: ١٧.
(٣) الاحتجاج: ١/ ١١٦.
(٤) الاحتجاج: ١/ ١١٦.

التوريث من خلال قصَّة هاتَين الشخصيَّتَين، وعزَّز ذلك بمحاجَّة السؤال: «**ترث أباك ولا أرث أبي؟ لقد جئت شيئًا فريًا**»، فهذا السؤال الإنكاريّ يحمل دلالات حجاجيَّة ذات مضمون أخلاقيّ وقرآنيّ واضح للعيان.

٢. التناص والمفردة القرآنيَّة:

ظاهرة التناص والمفردات القرآنيَّة تمثِّل جانبًا كبيرًا في حجاجيَّة التناص؛ لِمَا تحمله من عُمق دلاليّ وقدسيَّة حجاجيَّة في نفس المتلقِّي على مرِّ العصور[١]، كأداة للمحاجَّة والإقناع، كما في قول الزَّهراء عليها السلام: «**بقيَّة استخلفها عليكم، كتاب الله الناطق، والقرآن الصادق، والنور الساطع، والضياء اللامع، بيِّنة بصائره، منكشفة أسراره، متجلِّية ظواهره**»[٢]، ففي النصِّ محاجَّة بألفاظ قرآنيَّة أتت متناصَّة مع قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ (الأنعام: ١٠٤)، وقوله تعالى: ﴿هَـٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠٣)

فلقد جاءت كلمة (بصائر) وعزَّزت المعنى الحجاجيّ في متن الخطبة الشريفة، لما تحمله من عمق دلاليّ وحجاجيّ مقدَّس، إذ تبدأ الزَّهراء عليها السلام بمخاطبة القوم عبر التناص من خلال التأكيد على بقيَّة الله المستخلَفة بأدلَّة الحقِّ الواضحة للإمام عليّ عليه السلام، إذ قدَّمت حجج تعتمد على الصور المحسوسة، والتي تنتشر في المجتمع ضمن سمات العقائد والأخلاق، فالعلاقة بين اللفظة القرآنيَّة والخطبة تُظهِر مدَّة القضايا المهمَّة التي تريد الزَّهراء عليها السلام تصحيحها في الذات وفي المجتمع.

٣. التناص المعنويّ أو الضمنيّ:

كما عند ميشال مايير، إذ يتركَّز مفهومه «بدراسة العلاقة القائمة بين ظاهر الكلام

(١) ينظر: التَّنَاص القُرآنيّ في شِعْر جَمَال الدِّين بن نُباتَة المِصريّ، بحث، د. أحمد محمَّد عطا، كليَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة جامعة قناة السويس، ٢٠٠٧: ١٢

(٢) الاحتجاج: ١/ ١١٤.

وضمنيه»[1]، ويظهر في معنى الجملة الحرفيّ ثيمة حجاجيَّة تؤدِّي إلى ظهوره، وفق ما يمليه المقام، وتتَّجه بنتيجة ما تكون مقنعة أو غير مقنعة[2]؛ لذا يتجاوز التناصّ في أحايين كثيرة حدود التناص الحرفيّ لكلمة أو عبارة قرآنيَّة؛ لاستلهام المعنى الذي يحمله النصّ أو يشير إليه دون التلفُّظ به حرفيًّا، أو ليشمل أيضًا القصَّة من حيث سرد الحدث أو الاكتفاء بالتحليق في أجوائها، فعلى مستوى الأفكار يتمُّ التفاعل التناصِّيّ، ويأخذ النصّ حجيَّته أفقيًّا، ضمن محور الاتِّصال بالنصِّ وشبكته المعنويَّة لا لفظيًّا، فيعيد صياغة أفكار النصِّ الغائب ضمن معطيات المرحلة وشروطها التي ولِد فيها النصُّ الجديد، فيُظهره بثوب جديد قديم؛ لأنَّ التناص ضمن عناصره ومستوياته الفاعلة يحقُّ له عمليًّا أن يحاكي الجدليَّة الفكريَّة، ليس بالمعنى اللغويّ لها، بل بالمعنى الفكريّ الأعم[3].

وهذا ما ظهر جليًّا في توظيفها عليها السلام للتناصِّ بطريقة حجاجيَّة ذات دلالات إيحائيَّة مؤثِّرة. مثال على ذلك: «**الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم، والثناء بما قدَّم، من عموم نِعَمٍ ابتداها، وسبوغ آلاءٍ أسداها**»[4]، فهذا الخطاب تناصَّ مع قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ..﴾ (لقمان: ٢٠).

فحجاجيَّة التناص تمثَّلت في تناصِّ الإشاريّ من خلال توظيف لفظة أو لفظتَين، من أجل إظهار موقفها الفكريّ، وتسليط الضوء على معاني الإسلام الأخلاقيَّة المتمثِّلة بالإشارة إلى نِعَم الله التي رزق بها عباده، باختلافها، الظاهر منها والباطن، ممَّا يوجِب

(١) الحجاج في القرآن الكريم: ٣٧.
(٢) ينظر: المرجع نفسه: ٣٧.
(٣) ينظر: التناص نظريًّا وتطبيقيًّا: ٧٩.
(٤) الاحتجاج، أبو منصور أحمد بن عليّ الطبرسيّ (ت٥٢٠هـ)، تحقيق: الشيخ إبراهيم البهادلي، والشيخ محمَّد هادي، إشراف الشيخ جعفر السبحانيّ، طهران، إيران، ط٦، ١٤٢٥هـ: ١/ ١١٦.

حمد الله عليها وشكره، باحترام هذه النِّعم، والتصرُّف الصحيح فيها، وعدم الطغيان بها.

وهذه الحجَّة إنَّما تُظهر المكنون الإبداعيّ لدى الزَّهراء عليها السلام، باعادة صياغة الدلالات الفكريَّة واستحضارها للنصِّ القرآنيّ، كما في قولها: «**الممتنع من الأبصار رؤيته، ومن الألسن صفته، ومن الأوهام كيفيَّته، ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها، كوَّنها بقدرته، وذراها بمشيئته، من غير حاجه منه إلى تكوينها، ولا فائدة له من تصويرها، إلَّا تثبيتًا لحكمته، وتنبيهًا على طاعته، وإظهارًا لقدرته، وإعـزازًا لدعوته..**»[1]، تناصَّت الزَّهراء مع قوله تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ (الأنعام: ١٠٣). إذ نلحظ الطاقات الحجاجيَّة الفكريَّة التي أسبغتها عليها السلام على النصِّ لتفجِّر من خلاله طاقاته الإقناعيَّة، وهذه الملكة القرآنيَّة مستمرَّة عند الزَّهراء عليها السلام سواء بإلفاظه أو حتَّى معانيه، كما في قولها: «**جمَّ عن الإحصاء عددها، ونأى عن الجزاء أمدها، وتفاوت عن الإدراك أبدها..**»[2]، إذ تعتمد فيه على معنى الآية الكريمة ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ (النحل: ١٨)، إذ استطاعت الزَّهراء عليها السلام استلهام المضمون القرآنيّ الحجاجيّ لإنتاج الحجَّة الإقناعيَّة، بما تمتلكه من أدوات ومعارف قرآنيَّة عظيمة، والتي تظهرها من خلال عمليَّة إنتاج المعنى واستحضاره؛ لتوليد معاني مركَّزة هادفة.

كما في قولها: «**وندبهم لاستزادتها بالشكر لاتِّصالها، واستحمد إلى الخلائق بإجزالها، وثنى بالندب إلى امتثالها، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، كلمة جعل الإخلاص تأويلها، وضمن القلوب موصولها، وأنار في التفكُّر معقولها..**»[3]، إذ يكشف لنا النص مقدرة إبداعيَّة حجاجيَّة على العباد بالإخلاص لله ضمن قاعدة قرآنيَّة:

(١) الاحتجاج: ١/ ١١٦.
(٢) الاحتجاج: ١/ ١١٦.
(٣) الاحتجاج: ١/ ١١٦.

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (إبراهيم: ٧)، إذ يمثِّل هذا التناص مقدرة إبداعيَّة في القدرة على التوفيق المعنويّ بين النصَّين في الترغيب والترهيب؛ لاقناع المتلقِّي وحثِّه على العمل الصالح ضمن مبدأ تناصِّي يتمثَّل بتلاقح النصِّ الجديد مع النصِّ السابق له في الوجود، إذ تنتقل من النصِّ السابق إلى النصِّ اللاحق لتمارس دورها الجديد وبحُلَّة جديدة[1]. كما نجده في قولها: «.. **والنهي عن شرب الخمر تنزيها عن الرجس، واجتناب القذف حجاجًا عن اللعنة، وترك السرقة إيجابا للعفَّة..**»[2]، هذا النصُّ استحضارًا لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (المائدة: ٩٠). فالزَّهراء وظَّفت ألفاظًا من النصِّ القرآني لتوجِّهها إلى مايخدم هدفها الإقناعيّ في معنى مؤثِّر للمتلقِّي، ضمن عناصر الاتِّفاق التناصِّيّ. إذن فالحجاجيَّة التناصيَّة تتَّجه نحو بناء واقع سليم قوامه الطاعة لله ﷻ، وحبُّ الزهادة في الدنيا، والعمل للآخرة، عن طريق المواعظ الخالصة، التي ليس لأصحابها ارتباط بالسياسة وطموحاتها، ربَّما لجأ إليه أكثر من فريق معارض للعبَّاسيِّين بعدما تيقَّن أن لا أمل في التغيير السياسيّ الذي كانت الآمال معقودة عليه لبناء المجتمع على وفق المفاهيم الدينيَّة التي يحملها هذا الفريق أو ذاك، وهذه المواعظ رائعة تتَّسم بطريقة الحوار والمحاججة العقليَّة واللغة السليمة.

أمَّا في قولها: «.. **وتستجيبون لهتاف الشيطان الغويّ، وإطفاء أنوار الدين الجليّ، وإهمال سنن النبيِّ الصفيّ..**»[3]، اذ يكشف لنا النصّ قدرتها في استثمار الطاقات المعرفيَّة لإنتاج حجج بأجمل العبارات وبأدقِّ المعاني بتناصٍّ مع قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن

(١) ينظر: أزمة الإبداع في الفكر العربيّ المعاصر، د. محمَّد عابد الجابريّ، مجلَّة فصول، القاهرة، المجلَّد ٢٥، العدد ٣: ٣/ ٢٥.

(٢) الاحتجاج: ١/ ١١٨.

(٣) الاحتجاج: ١/ ١٢٠.

يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (التوبة: ٣٢)، إذ يتوافق النصَّان في المعنى الدلاليّ، من خلال استخلاص العِبَر، وشحن الذهن، وتقويم العمل.

كما في قول الزَّهراء: «**فجعل الله الإيمان، تطهيرًا لكم من الشِّرك، والصلاة تنزيهًا لكم عن الكبر، والزكاة تزكيةً للنفس، ونماءً في الرزق، والصيام تثبيتًا للإخلاص، والحج تشييدًا للدين، والعدل تنسيقًا للقلوب، وطاعتنا نظامًا للملَّة، وإمامتنا أمانًا للفرقة، والجهاد عزًّا للإسلام، والصبر معونةً على استيجاب الأجر، والأمر بالمعروف مصلحةً للعامَّة، وبرّ الوالدين وقايةً من السَّخط، وصلة الأرحام منساة في العمر ومنماة للعدد، والقصاص حقنًا للدماء..**»[1]، هذا الخطاب يتناص مع قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٩).

لقد استطاعت الزَّهراء من إعادة تقديم الملفوظات تقديمًا جديدًا، يحمل صبغة أخلاقيَّة ذات التزامات دينيَّة محدَّدة، تُصلح الذات والمجتمع

٤. التناص الكلِّيّ:

نتيجةً لعوامل الاختلاف التي انماز بها فكر النقاد لمفهوم التناص، من حيث عدم اتِّفاقهم في إيجاد مفهوم شامل، حُمل المصطلح باتِّجاه تعدديَّة المعاني، وهذا ما جعل لدينا أنواعًا متعدِّدة للتناصِّ ودوره في النص، فمنهم من قسَّمه على نوعَين، مباشر وغير مباشر، كما نجده عند (محمَّد مفتاح)، ومنهم من أبدل تسميته إلى (التناص الداخلي)، و(التناص الخارجيّ)، وهناك من يتجاوز ذلك إلى تناص داخليّ، وخارجيّ، ومرحليّ[2].

---

(١) الاحتجاج: ١/ ١١٧-١١٨.

(٢) ينظر: النَّصُّ الغائب، تجلِّيات التناصِّ في الشعر العربيّ، محمَّد عزَّام، من منشورات اتِّحاد الكتَّاب العرب، سوريا، دمشق، ٢٠٠١: ٣١-٣٢.

ويظهر التناصُّ المباشر في النصِّ عن طريق محاورة النصِّ الحاضر والتقائه مع نصوص أخرى، فيتمُّ التفاعل والتحاور، سواء على مستوى النصوص السابقة أم المعاصرة له، وبذلك يُقرأ النصُّ الحاضر على ضوء ما تقدَّمه وما عاصره من نصوص، لتظهر ماهيَّة هذه العلاقات الأواصر، وحتَّى الاختلاف(١).

بمعنى أنَّ التناصَّ يحدث عندما تتفاعل نصوص المبدع مع غيرها من النصوص السابقة لها أو المعاصرة، والمقصود به هو العلاقة التي تربط بين نصٍّ ما وغيره من النصوص الخارجة عنه، ويتحقَّق عِبر استدعاء مفردة قرآنيَّة أو عِبر استدعاء جملة أو جزء من آية قرآنيَّة، أو بيت شعريّ، تضمِّنه الخطبة كحجَّة يستعملها الخطيب في إقناع متلقِّيه.

ويظهر هذا المستوى عبر التراكيب والمعاني الكليَّة في حجاجيَّة التناصِّ، وما تفعله من دورٍ ثمينٍ في إنتاج المعنى الجديد وتوجيهه وتفاعله في النصِّ والحدث داخل سياق الخطبة وخارجها، ما يمنحها بُعدًا واسعًا يمثِّله ما يتعدَّى اللفظة الواحدة، ويتوسَّع كأن يكون على آية كاملة أو جزء منها، أو بيت شعريّ أو مَثَل وغيره، وهو ما يتمثَّل من دون زيادة أو نقصان(٢)، وفيه وظَّفت السيِّدة الزَّهراء عليها السلام النصَّ القرآنّي للإقناع وللمحاجَّة عن مجموعة من المبادئ الإسلاميَّة من مثل: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبرّ الوالدين، والوفاء، وسواها، إذ تختم ذلك بقولها: «**فاتَّقوا الله حقَّ تقاته، ولا تموتنَّ إلَّا وأنتم مسلمون، وأطيعوا الله فيما أمركم به**»، عبر الارتكاز على النصِّ القرآنيّ في قوله تعالى: ﴿**اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ (آل عمران: ١٠٢).

فالنصُّ القرآنيّ يدعو إلى تقوى الله عزَّ وجلَّ، والتأكيد على الإسلام وثوابته، وطاعة الله ورسوله وأهل بيته عليهم السلام، فركَّزت الزَّهراء عليها السلام عن العلاقة بين هاتَين الطَّاعَتَين؛ لأنَّهما

(١) ينظر: تحليل الخطاب الشعريّ- إستراتيجيَّة التناص: ١٢٥.
(٢) ينظر: تحليل الخطاب الشعريّ: ١٢٤-١٢٥.

الطريق للابتعاد عن المنكر والحرص على الدين، إذ تمَّ التداخل بين معاني الآية والخطبة الشريفة، بالتأكيد على أنَّ خلاص الأمَّة وتوفيقها يتمُّ بطاعة الله وآهل البيت عليهم السلام.

وفي موضع آخر من الخطبة الشريفة، توجّه السيِّدة الزَّهراء عليها السلام كلامها إلى عامَّة الناس بقولها: «**أيُّها الناس اعلموا أنِّي فاطمة وأبي محمَّد صلى الله عليه وآله، أقول عودًا وبداءً، ولا أقول ما أقول غلطًا، ولا أفعل ما أفعل شططًا، لقد جاءكم رسول الله عزيز عليه ما عنتُّم، حريص عليكم، بالمؤمنين رؤوف رحيم**»[1]. لقد اشتمل النصُّ على طائفة من الألفاظ القرآنيَّة التي وظَّفتها الزَّهراء عليها السلام للتنبيه على مواقف الناس للشَّيءِ المهمِّ، وتسليط الضوء عليها، ضمن قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨). فنصُّ الخطبة إلى الموضوع المستهدف بالتقرير للقول: «**ولا أقول ما أقول غلطًا، ولا أفعل ما أفعل شططًا**»، إذ تستهدف من خلالها نشر قيم أخلاقيَّة تستهدف المتلقِّين، من خلال الرجوع إلى قيم وأخلاق رسول الله صلى الله عليه وآله، من خلال التذكير بدور الرسول صلى الله عليه وآله القائم على هداية الناس من الضَّلالة إلى النور.

٥. التناصُّ الجزئيّ:

هو يستخدم كنصّ لكن مع زيادة أو حذف أو تقديم أو تأخير في الآيات القرآنيَّة المباركة. إذ قدَّمت الزَّهراء عليها السلام إلى إبراز أخلاق الرسول صلى الله عليه وآله في نشرها للمجتمع، بقولها: «**فبلَّغ الرسالة صادعًا بالنذارة، مائلًا عن مدرجة المشركين، ضاربًا ثبجهم، آخذًا بأكظامهم، داعيًا إلى سبيل ربِّه بالحكمة والموعظة الحسنة**»[2]، إذ ركَّزت الزَّهراء عليها السلام على دور الرسول صلى الله عليه وآله في ثورته المجتمعيَّة وأخلاقه الإنسانيَّة عبر توظيف موضوعة (الجهاد) ضمن تناصٍّ مع قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ (النحل: ١٢٥).

(١) الاحتجاج: ١/ ١١٤.
(٢) الاحتجاج: ١/ ١١٤.

إذ استخدمت الزَّهراء عليها السلام الأسلوب المباشر في إثارة الأمر، والقدرة على التفاعل النصِّيّ مع المتلقِّين عبر تفعيل روابط الدلالة بقولها: «**وكنتم على شفا حفرة من النار، مذقة الشارب، ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، وموطئ الأقدام، تشربون الطَّرق، وتقتاتون القد، أذلَّة خاسئين، تخافون أن يتخطَّفكم الناس من حولكم، فأنقذكم الله تعالى بمحمَّد** صلى الله عليه وآله»[1].

لقد ظهر في المقطع مجموعة من التصرُّفات والصور التي كانت تمارَس من قِبَل المجتمع، ضمن الخضوع والرذيلة التي تقود نحو الهاوية والنار تناصًّا مع قوله تعالى: ﴿**وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا**﴾ (آل عمران: ١٠٣). استلهمت الزَّهراء عليها السلام ألفاظ الآية الكريمة ووازنتها مع المحيط الاجتماعيّ، فصاغت ثنائيَّة الإيمان/ الكفر، ممَّا يعزِّز من ملامح التمسُّك بالإسلام لدى المتلقِّين، ويمثِّل تعرية لمواقف بعض المدَّعين للإسلام، الذين آثروا على أنفسهم اغتصاب حقِّ الزَّهراء، والقسوة على أهل بيتها.

وكذلك تذكر الزَّهراء نصًّا جزئيًّا دون تغيير في النصِّ، لتوجيه المخاطب إلى النصِّ الرئيسيّ، كما نجده في تعبيرٍ عن الامام عليّ عليه السلام «**كلَّما أوقدوا نارًا للحرب أطفأها الله، أو نجم قرن للشيطان، وفغزت فاغرة من المشركين، قذف أخاه في لهواتها، فلمَّا ينكفئ حتَّى يطأ صماخها بأخمصه، ويخمد لهبها بسيفه**»، ففيه صورًا استعاريَّة شاخصة، إذ تجسِّد هيئة المكائد والدسائس بالحروب في هيئة بشعة ومرعبة كالحيَّة أو السبع، ففغر بمعنى فتح، والفاغرة من المشركين الطائفة العادية منهم، تشبيهًا بالحية أو السبع، والمشهد يصوِّر إحاطة الإمام عليّ عليه السلام بتلك المعارك والأحقاد التي كانت تحاك ضدَّه، تمَّ تناص قوله تعالى: ﴿**كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ**﴾ (المائدة: ٦٤)، فالتناص يبيِّن زيف واحتيال الفئة الضالَّة على الاسلام، وعلى أهل البيت عليهم السلام.

(١) الاحتجاج: ١/ ١١٥.

٦. حجاجيَّة الفكرة القرآنيَّة:

تتمثَّل في القدرة على توظيف الأفكار القرآنيَّة، والانطلاق منها في تأسيس النصِّ وقداسته، وتقديم حججه، كقولها: «**والصبر معونةً على استيجاب الأجر، والأمر بالمعروف مصلحةً للعامَّة، وبرّ الوالدين وقايةً من السَّخط، وصلة الأرحام منساة في العمر ومنماة للعدد، والقصاص حقنًا للدماء..**»[1]، إذ تتناص الأفكار الخطابيَّة مع قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة: ١٧٩). إذ عمدت الزَّهراء عليها السلام على تقديم مجموعة من القيم الأخلاقيَّة والأفكار التربويَّة، تمثِّل مجموعة من تيسير قضايا المجتمع، وتجعله مرتبطًا بالدين والرسالة النبويَّة المقدَّسة. فهذه الأفكار القرآنيَّة هي التي تنظِّم شؤون الناس، وترسم ملامح عيشهم القويم. وتتجدَّد تلك الأفكار أيضًا في تناول شخصية الرسول صلى الله عليه وآله بالقول: «**وأشهد أنَّ أبي محمَّدًا صلى الله عليه وآله عبده ورسوله، اختاره وانتجبه قبل أن أرسله، وسمَّاه قبل أن اجتباه، واصطفاه قبل أن ابتعثه**»[2]، إذ استخدمت الزَّهراء عليها السلام حجج لفظيَّة دقيقة تدلُّ على معنى الانتخاب، غير أنَّها تفترق إحداها عن الآخرى، ممَّا يكشف عن قدراتها الخطابيَّة الإقناعيَّة باستخدام ألفاظ: (اختاره، انتجبه، اجتباه، اصطفاه) في موضع واحد، مع أنَّ لكلِّ واحده منها دلالته التي تميِّزه. وهذه الألفاظ مجتمعة متناصَّة قرانيًّا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٣٣)، وأيضًا قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ (النمل: ٥٩). فالحجَّة تمثَّلت بذِكر أخبار وقصص نوح، وآدم، وآل إبراهيم، وآل عمران، ضمن ربط تفاعليّ مع شخصيَّة الرسول صلى الله عليه وآله.

٧. التناص والوقائع العقليَّة:

والتي تقوم على الحقائق، ليمنح الحجَّة التاثير القويّ في المتلقِّين كقولها: «**وأنتم**..

(١) الاحتجاج: ١/ ١١٤.
(٢) الاحتجاج: ١/ ١١٣.

الآن.. تزعمون أن لا إرث لنا ؟ أفحكم الجاهليَّة تبغون؟ ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون؟ أفلا تعلمون؟ بلى تجلَّى لكم كالشمس الضاحية أنِّي ابنته، أيُّها المسلمون أأُغلب على إرثيه؟»، إذ تحدَّثت الزَّهراء عليها السلام عن حقِّها المغتصَب بعد وفاة أبيها، منبِّهة وواعظة وزاجرة القوم أنَّهم يحكمون بحكم الجاهليَّة، وقد اكتنز كلامها بقوَّة حجاجيَّة عالية متجلِّية بالصورة التشبيهيَّة التي شكَّلت بؤرة حجاجيَّة رادعة للسامعين، فلا يمكن لهم إنكارها أو تجاهلها، إذ اعتمدت عليها السلام إلى تشكيل علاقة مشابهة مباشرة، وهذا التشكيل له دوره الحجاجيّ الفاعل، معززة بالآيات القرآنيَّة.

وقولها: «**كنتم على شفا حفرة من النار.. فأنقذكم الله تبارك وتعالى بأبي محمَّد**»، تحدَّثت فيها الزَّهراء عليها السلام عن حال العرب، وقد وصفت حياتهم الاجتماعيَّة التي ألِفوها واعتادوا العيش تحت وطأتها، وقد مهَّدت بقولها: وكنتم على شفا حفرة من النار، لحالة الكفر والشِّرك بالله، فحشدت الصور التشبيهيَّة، لتصبح الحجَّة أكثر بلاغةً وتاثيرًا.

أيضًا مثل ذلك في ذِكر رسالة الرسول صلى الله عليه وآله التي قامت في مجتمع صعب به براثن الجاهليَّة بقولها: «فبلَّغ الرسالة صادعًا بالنذارة، مائلًا عن مدرجة المشركين، ضاربًا ثبجهم، آخذا بأكظامهم، داعيًا إلى سبيل ربِّه بالحكمة والموعظة الحسنة»، تشير إلى الآية: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ (الحجر: ٩٤).

الخاتمة

١. مثَّل التناص نشاطًا حجاجيًّا عقليًّا مهمًّا في الخطاب الإسلاميّ عامَّة، وأهل البيت خاصَّة.

٢. امتلكت الزَّهراء عليها السلام في تناولها وعي تام بمدركات اللغة والمعاني ومعرفة ثرَّة بطبيعة الألفاظ ودالاتها المختلفة، وبالتالي قوَّة المعنى والإقناع.

٣. عمل الحجاج التناصيّ على تفكيك الرؤى الجديدة التي ظهرت بعد وفاة الرسول، بإعادة التذكير بالقيم الإسلاميَّة الحقيقيَّة القائمة على القرآن، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وآله، بعيدًا عن الزيف القائم.

٤. قام الخطاب بوظيفة نفسيَّة تقوم على الدعوة لتطهير النفس والخلق والتحرُّر من قيود الشيطان، إلى العودة للنَّصِّ المقدَّس بوصفه الميزان لأعمالنا وقراراتنا الدنيويَّة والأخرويَّة.

٥. مثَّل القرآن مرجعًا فكريًّا وأخلاقيًّا ودينيًّا وحجاجيًّا هامًّا في الخطاب العربيّ حتَّى أصبح ثيمة أساسيَّة له.

٦. تمَّ استحضار وتوظيف آية أو جزء منها أو لفظ أو فكرة في الخطاب الحجاجيّ الفدكيّ.

٧. تضمَّنت الخطبة المواقف السياسيَّة والأخلاقيَّة والعقائديَّة للزَّهراء تجاه الدين والمجتمع. وبيَّنت بها عظمة القرآن والسنَّة النبويَّة الشريفة، وبشاعة الآخرين الذين غرَّتهم الحياة الدنيا على الآخرة.

٨. تعدُّ خطبة الزَّهراء من النصوص الخطابيَّة التي جمعت في بنيتها جميع شرائط النصِّ التامِّ الذي اشتمل عليه الموضوع الأساس الإرث، لكن تفرَّعت إلى موضوعات متنوِّعة، ولكنَّها متلازمة.

٩. انماز الخطاب الفدكيّ باستدعاء القصص والشخصيَّات والأحداث والمواقف والأفكار.

١٠. مثَّل القرآن الكريم رافدًا غنيًّا لجميع حجج الزَّهراء عليها السلام؛ لما يتوفَّر به من قدرة إقناعيَّة وحجاجيَّة عظيمة مقدَّسة.

قائمة المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

١. اتِّجاهات الشعر في العصر الأمويّ، صلاح الدين الهادي، دار الثقافة العربيَّة، القاهرة، ط١، ١٩٨٢.

٢. الاحتجاج، أبو منصور أحمد بن عليّ الطبرسيّ (ت٥٢٠هـ)، تحقيق: الشيخ إبراهيم البهادلي، والشيخ محمَّد هادي، إشراف: الشيخ جعفر السبحانيّ، طهران، إيران، ط٦، ١٤٢٥هـ.

٣. أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام، سميح دغيم، دار الفكر العربيّ، ط١، بيروت، لبنان، ١٩٩٥م.

٤. أساس البلاغة، للزمخشريّ، تحقيق: مركز عفيف للتراث، ط٢، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، ١٩٨٥.

٥. استراتيجيَّات الخطاب مقاربة تداوليَّة، عبد الهادي بن ظافر الشهريّ، دار الكتاب الجديد المتَّحدة، بيروت، لبنان، ٢٠٠٤.

٦. الأغاني، أبو الفرج الأصفهانيّ، مراجعة وضبط: العلَّامة الشيخ عبد الله العلايلي موسى سليمان وأحمد أبو سعد، ط٣، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٦٢.

٧. البرهان في وجوه البيان: أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب (ت٢٧٢هـ)، تحقيق: د. أحمد مطلوب ود. خديجة الحديثيّ، ط١، مطبعة جامعة، بغداد، ١٩٦٧م.

٨. البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمَّد هارون، مؤسَّسة الخانجي بالقاهرة، (د.ت).

٩. تاريخ الأدب العربيّ، العصر الإسلاميّ، د. شوقي ضيف، ط٦، مطبعة دار المعارف، مصر.

١٠. تاريخ الأدب العربيّ، حنَّا الفاخوري، المطبعة البوليسيَّة، ط٢، بيروت، ١٩٥٣.

١١. تاريخ الشعر السياسيّ إلى منتصف القرن الثاني الهجريّ، د. أحمد الشايب، ط٣، مكتبة النهضة المصريَّة، ١٩٦٢.

١٢. التجربة الإبداعيَّة دراسة في سيكولوجيَّة الاتِّصال، إسماعيل الملحم، اتِّحاد الكتَّاب العرب: http: //www.awu-dam.org

١٣. تحليل الخطاب مفاهيم نظريَّة ونصوص تطبيقيَّة، د. جان نعوم طنوس، دار المنهل اللبنانيّ، ط١، بيروت، لبنان، ٢٠١٤م.

١٤. التناص في الشعر الجاهليّ، إعداد الطالب: عليّ حسين سلطان، كليَّة الآداب، جامعة بغداد، إشراف أ.د. محمود عبد الله الجادر، ٢٠٠٦.

١٥. التناص في شعر أبي العلاء المعرِّيّ، إبراهيم مصطفى الدهون، عالم الكتب الحديث، ط١، عمان، الأردن، ٢٠٠٣.

١٦. الحجاج أطره ومنطلقاته ضمن كتاب حمادي صمود، أهم نظريَّات الحجاج في التقاليد الغربيَّة، عبد الله صولة.

١٧. الحجاج في البلاغة العربيَّة، محمَّد سالم محمَّد أمين، بحث في بلاغة النقد العربيّ، دار الكتاب الجديد، ط١، لبنان، بيروت، ٢٠٠٨.

١٨. الحياة الأدبيَّة في العصر الجاهليّ، د. محمَّد عبد المنعم خفاجي، دار القلم، بيروت، لبنان، (د.ط).

١٩. الخطابة أصوليًّا وتاريخيًّا من أزهى عصورها عند العرب، محمَّد أبو زهرة، دار الفكر العربيّ، ط١، القاهرة، ١٩٤٦.

٢٠. الخطابة في صدر الإسلام، محمَّد طاهر درويش، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥م

٢١. الخطابة، نقولا فيَّاض، إدارة الهلال، ط٢، مصر، ١٩٣٠م.

٢٢. الخطبة في السيرة النبويَّة، ابن هشام الأنصاريّ (ت ٢١٨هـ)، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب العلميَّة.

٢٣. خمسة مداخل إلى النقد الأدبيّ، مقالات معاصرة في النقد، ويلبر سكوت، ترجمة: د. عناد غزوان، وجعفر صادق الخليليّ، دار الرشيد، منشورات وزارة الثقافة، ١٩٨١.

٢٤. الزَّهراء المثل الأعلى للمراة المسلمة، السيِّد شريف السيِّد العامليّ، دار البلاغة، قم، ط١.

٢٥. الصناعَتَين لأبي هلال العسكريّ، تحقيق: عليّ محمَّد البجاوي ومحمَّد أبي الفضل إبراهيم، ط١، طبعة باب الجلبيّ، ١٩٥٢.

٢٦. صورة القيم الأخلاقيَّة في نثر العصر الجاهليّ، عليّ إسماعيل العزَّاويّ، مؤسَّسة دار الصادق الثقافيَّة، بابل، العراق، ط١، ٢٠١٦.

٢٧. علم الخطابة، الأب لويس شيخو اليسوعيّ، مطبعة اليسوعيِّين، بيروت، لبنان، ١٩٢٦،

٢٨. فنُّ الخطابة وإعداد الخطيب، عليّ محفوظ، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٤م.

٢٩. الفن ومذاهبه في النثر العربيّ، د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط٥، (د.ت).

٣٠. القصَّة والقصاص في الأدب العربيّ، د. وديعة طه نجم، الكويت، ١٩٧٢.

٣١. كتاب الخطابة، أرسطو طاليس، ترجمة وتحقيق: إبراهيم سلامة، منشورات مكتبة الأنجلو المصريَّة، مطبعة لجنة البيان العربيّ، الطبعة الثانية، ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م.

٣٢. كتاب الصناعَتَين، أبو هلال العسكريّ، تحقيق: عليّ محمَّد البجاوي ومحمَّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريَّة، بيروت، ط١، ٢٠٠٦.

٣٣. اللغة والحجاج، أبو بكر العزَّاويّ، ط١، الدار البيضاء، ٢٠٠٦م.

٣٤. مجمع الأمثال، لأبي الفضل أحمد بن محمَّد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوريّ الميدانيّ (ت٥١٨هـ) حقَّقه وفصَّله وضبط غرائبه وعلَّق حواشيه، محمَّد محي الدين عبد الحميد، مكتبة السنَّة المحمَّديَّة، (د.ت).

٣٥. مصنَّف في الحجاج: الخطابة الجديدة، بيرلمان وتيتكا، الحجاج واللغة، د. أبو بكر العزَّاويّ، العمدة في الطبع، ط١، ٢٠٠٦.

٣٦. ميثولوجيا أديان الشرق الأدنى قبل الإسلام، محمَّد ناصر صديقي، مطبعة جداول، ط١، بيروت، لبنان، ٢٠٠٧.

٣٧. النـَّصُّ الغـائب، تجلِّيات التناص في الشعر العربي، محمَّد عزَّام، من منشورات اتِّحاد الكتَّاب العرب، سوريا، دمشق، ٢٠٠١.

٣٨. نهج البلاغة، ابن أبي الحديد (ت ٦٥٦هـ)، تحقيق: محمَّد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبيّ وشركاؤه، ط٢، مصر، ١٩٦٥.

المجلَّات والرسائل:

٣٩. أزمة الإبداع في الفكر العربيّ المعاصر، د. محمَّد عابد الجابريّ، مجلَّة فصول، القاهرة، المجلَّد ٢٥، العدد ٣.

٤٠. التناص الحجاجيّ في خطب عصر صدر الإسلام والعصر الأمويّ، أطروحة دكتوراه، الطالبة: أمل عبد الرحيم جمعة، كليَّة التربية للعلوم الإنسانيَّة، جامعة كربلاء، ٢٠١٧.

٤١. الخطابة العربيَّة في العصر العبَّاسيّ الأوَّل، دراسة موضوعيَّة- فنية، د. حسين عبد العالي اللهيبي، جامعة الكوفة، مركز دراسات الكوفة، مجلَّة القادسيَّة في الآداب والعلوم التربويَّة، ع٣-٤، مج ٧، ٢٠٠٤.

٤٢. القُرآنيّ في شِعْر جَمال الدِّين بن نُباتَة المِصريّ، بحث، د. أحمد محمَّد عطا، كليَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة، جامعة قناة السويس، ٢٠٠٧.

٤٣. مراعاة المخاطَب في الأَحكام النحويَّة في كتاب سيبويه، كريم حسين ناصح، مجلَّة المورد، دار الشؤون الثقافيَّة العامَّة، مج٣٠، ع٣، ٢٠٠٢م.

٤٤. المضامين الاتِّصاليَّة والإخباريَّة في قصَّة مريم، د. محمَّد بصل، نور حاتم، مجلَّة جامعة تشرين للبحوث والدراسات، العلميَّة، المجلد ٣٦، ٢٠١٤، العدد ٣.

٤٥. نظريَّة السلالم الحجاجيَّة خطب النساء في العصر الإسلاميّ إنموذجًا،

٤٦. أ.م.د. زينب الملَّا السلطاني، وميسم صباح خضيِّر، جامعة بغداد، كليَّة التربية للبنات، مجلَّة ديالى، ٢٠١٧.

فاطمة الزَّهراء عليها السلام نسق مُتخيَّل أم واقع تاريخيّ
(دراسة في فكر الآخر)

أ.د. كاظم فاخر حاجم
جامعة ذي قار/ كليَّة الآداب
م.م. محسن بدر مارد النيازي
كليَّة الإمام الكاظم عليه السلام الجامعة/ أقسام ذي قار

ملخَّص البحث

لقد شرعت مؤسَّسات التضليل بكافَّة أشكالها، المقروء والمسموع والمشاهَد، في صناعة آليَّات موجَّهة ومنظَّمة ومتدرِّجة، تعمل بشكلٍ حثيثٍ ومتدفِّق في التأثير على عقل المتلقِّي بتأسيس استخدم فيها التحريف والتزييف والتسويف والدسِّ، وعرض الأغاليط، على أنَّها حقائق مسلَّمة، مع نسف آليات ومعايير التمييز والتحقُّق، وذلك من خلال تضخيم المغالطات، والتأكيد على صحَّتها، كما عملت أدوات التضليل وبكلِّ جديَّة واجتهاد على بناء ذاتها، وتطوير أدواتها، وتبادل أدوارها، من خلال رصد الأموال الطائلة والميزانيَّات الضخمة؛ لتُصبح منهجًا يدرَّس في المؤسَّسات العلميَّة العاملة في صناعة التضليل والتزييف والتحريف، ونجحت العديد من المدارس التضليليَّة في بناء وتشكيل أساليب صوريَّة مقنَّنة ثابتة غير منطقيَّة في الخطاب؛ لتضليل المتلقِّي والسَّير به إلى أين تشاء، من خلال إرساء صيغة تحفيزيَّة عدوانيَّة تقوم على الاستفزاز الذي يؤدِّي إلى هيمنة هذا الخطاب وترسيخه.

وعلى أساس ما تقدَّم، نحاول أن نستعرض دَور إحدى المؤسَّسات الهامَّة في الفكر الإسلاميّ والثقافيّ، والتي تُعنى بالمقبوليَّة لدى فئات كبيرة من المجتمع العربيّ الإسلاميّ، إذ إنَّها تقوم على أُسس ومبادئ (بحسب ادِّعائهم)، تؤكِّد «أنَّ الإنسان أوسع من أن تُختصر خيريَّته في دين أو مذهب أو طائفة أو عِرق... وأنَّ كرامة الإنسان وسعادته تكمن في احترام حريَّته في التفكير والتعبير والاعتقاد»، ومن قناعات المؤسَّسة البحثيَّة أيضًا «أنَّ احترام ثقافة الآخر وذاته والدفاع عنها وصونها، هو حماية لذاتنا ولهويَّتنا الإنسانيَّة، وضمان لأمننا وحريَّتنا»، ثمَّ إنَّ الإيمان الذي تدافع عنه المؤسَّسة، هو إيمان بلا حدود؛ لأنَّه «يتعالى على التحيُّزات والفوارق العقائديَّة والعرقيَّة والثقافيَّة والدينيَّة والمذهبيَّة والطائفيَّة... ويدفع بالإنسان للسعي نحو هذا التعالي في حركته وفكره وسلوكه»، وبالرغم ممَّا أوردنا من عيِّنات الأسس والمبادئ التي قامت عليها هذه المؤسَّسة الفاعلة؛ لكنَّها تنشر كتابًا لـ(بسَّام الجمل) عنوانه (جدل التاريخ و المتخيَّل سيرة فاطمة)، إذ سنحاول مناقشته بالنقد والتحليل؛ والوقوف على المعطيات التي اتَّكأ عليها، والآليَّات التي أعتمدها في أطروحته لسيرة الزَّهراء عليها السلام بمنهجٍ تأريخيّ، حاولنا من خلاله أن نتَّخذ حوارًا تاريخيًّا من الواقع الإسلاميّ التأريخيّ للزَّهراء عليها السلام، في الرَّدِّ على ما جاء به بسَّام الجمل الذي ينتمي إلى مؤسَّسة هي بحدِّ ذاتها لاتؤمن بحقائق التاريخ الإسلاميّ؛ لأنَّها تتَّخذ من الفكر الغربيّ الذي يدَّعي الحداثة من خلال الاقتراب إلى الفكر الآخر.

والله من وراء القصد.

المقدِّمة

لقد شرعت مؤسَّسات التضليل بكافَّة أشكالها، المقروء والمسموع والمشاهَد، في صناعة آليَّات موجَّهة ومنظَّمة ومتدرِّجة، تعمل بشكلٍ حثيثٍ ومتدفِّق في التأثير على عقل المتلقِّي بتأسيس استخدم فيها التحريف والتزييف والتسويف والدسِّ، وعرض الأغاليط، على أنَّها حقائق مسلَّمة، مع نسف آليات ومعايير التمييز والتحقُّق، وذلك من خلال تضخيم المغالطات، والتأكيد على صحَّتها، كما عملت أدوات التضليل وبكلِّ جديَّة واجتهاد على بناء ذاتها، وتطوير أدواتها، وتبادل أدوارها، من خلال رصد الأموال الطائلة والميزانيَّات الضخمة؛ لتُصبح منهجًا يدرَّس في المؤسَّسات العلميَّة العاملة في صناعة التضليل والتزييف والتحريف، ونجحت العديد من المدارس التضليليَّة في بناء وتشكيل أساليب صوريَّة مقنَّنة ثابتة غير منطقيَّة في الخطاب؛ لتضليل المتلقِّي والسَّير به إلى أين تشاء، من خلال إرساء صيغة تحفيزيَّة عدوانيَّة، تقوم على الاستفزاز الذي يؤدِّي إلى هيمنة هذا الخطاب وترسيخه، فهو الذي يقوم على الحقيقة المطلقة وينفرد بها دون غيره، ولا يشاركه فيها أحد، من خلال الإيهام بتطبيق مبدأ ونظريَّة أنَّه من يمتلك الحقيقة. واستخدمت مدارس التضليل في منهجها الجدليّ التضليليّ المحتكِر للحقيقة كلَّ وسائل التضليل والخداع والتمويه والمراوغة بمهارة وحِرفيَّة قائمة على الجدليَّة الصوريَّة، والتنافس الحادِّ، والتبرير غير المنطقيّ القائم على (المغالبة ومنهج كرِّر ثمَّ كرِّر حتَّى تصدِّق)، كما تستخدم هذه المدرسة قوَّتها السحريَّة اللفظيَّة الكلاميَّة التلبيسيَّة للسيطرة والتسلُّط على عقول الجماهير ونفسيَّاتها ومعنويَّاتها، ومهَّدت إلى

سيطرة قوّتها الرهيبة المتمثِّلة في الكلمة الغاشمة التي تسيطر على الرأي العام، وتُخضعه لمصلحة «صنّاع هذه القوّة وأربابها»، دون اعتبار لقوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾، وقوله صلى الله عليه وآله: «**وهل يكب الناس على وجوههم إلّا حصائد ألسنتهم**».

وعلى أساس ما تقدَّم، نحاول أن نستعرض دور إحدى المؤسَّسات الهامَّة في الفكر الإسلاميَّ والثقافيّ، والتي تعنى بالمقبوليَّة لدى فئات كبيرة من المجتمع العربيّ الإسلاميّ، إذ إنَّها تقوم على أسس ومبادئ (بحسب إدعائهم) تؤكِّد «أنَّ الإنسان أوسع من أن تُختصر خيريَّته في دين أو مذهب أو طائفة أو عِرق.. وأنَّ كرامة الإنسان وسعادته تكمن في احترام حريَّته في التفكير والتعبير والاعتقاد». ومن قناعات المؤسَّسة البحثيَّة أيضًا «أنَّ احترام ثقافة الآخر وذاته، والدفاع عنها وصونها، هو حماية لذاتنا ولهويَّتنا الإنسانيَّة، وضمان لأمننا وحريَّتنا»، ثمَّ إنَّ الإيمان الذي تدافع عنه المؤسَّسة هو إيمان بلا حدود؛ لأنَّه «يتعالى على التحيُّزات والفوارق العقائديَّة والعرقيَّة والثقافيَّة والدينيَّة والمذهبيَّة والطائفيَّة.. ويدفع بالإنسان للسعي نحو هذا التعالي في حركته وفكره وسلوكه»، وبالرغم ممَّا أوردنا من عيِّنات الأسس والمبادئ التي قامت عليها هذه المؤسَّسة الفاعلة، لكنَّها تنشر كتاب لـ(بسَّام الجمل) عنوانه: (جدل التاريخ والمتخيَّل سيرة فاطمة)، إذ سنحاول مناقشته بالنقد والتحليل، والوقوف على المعطيات التي اتَّكأ عليها، والآليات التي اعتمدها في أطروحته لسيرة الزَّهراء عليها السلام بمنهج تأريخيّ، حاولنا من خلاله أن نتَّخذ حوارًا تاريخيًّا من الواقع الإسلاميّ التأريخيّ للزَّهراء عليها السلام في الردِّ على ما جاء به بسَّام الجمل الذي ينتمي إلى مؤسَّسة هي بحدِّ ذاتها لا تؤمن بحقائق التاريخ الإسلاميّ؛ لأنَّها تتَّخذ من الفكر الغربيّ الذي يدَّعي الحداثة من خلال الاقتراب إلى الفكر الآخر.

وبعد هذه المقدِّمة الموجزة، شرع الباحث بالتمهيد إلى الموضوع، من خلال التطرُّق إلى عمليَّة التدوين والمراحل التي مرَّ بها؛ وذلك للوقوف على ما أُحيط بتلك

العمليَّة من إشكاليَّات وتداعيات ومغالطات، كان لها الأثر البالغ في الواقع التاريخيّ للأمَّة الإسلاميَّة، ثمَّ كان المبحث الأوَّل مقارنًا بين اليسوعيّ لامنس، وبسَّام الجمل، في دراستهما لسيرة فاطمة الزَّهراء سلام الله عليها، ويدخل المبحث الثاني ليقارِن بين المدوِّن المختلف والمنتمي، لينتهي البحث بخاتمة، ثمَّ قائمة بمصادر البحث.

التمهيد

اهتمَّ العرب بالتاريخ منذ عصر ما قبل الإسلام، ونتج عن ذلك ظهور شكلَين من أشكال المعرفة التاريخيَّة، وهما: الأنساب، وهي نوع من التاريخ يقوم على تتبُّع نسب القبائل العربيَّة، وقد بالغ العرب في حفظ شجرة نسب القبيلة وتلقينها لأبنائهم جيلًا بعد جيل، حتَّى لا يختلط نسبها بأنساب القبائل الأخرى، وأمَّا الشكل الثاني فيتمثَّل بأيَّام العرب، والمراد بها أخبار القبائل والحروب التي خاضتها القبائل، وهي بمثابة سجل مفاخر القبيلة وبطولاتها، والغرض منها تعزيز الشعور بالهويَّة لدى أبناء القبيلة.

وبظهور الإسلام، اتَّخذ الاهتمام بالتاريخ منحًى جديدًا، فلم تعد القبيلة صلب العمليَّة التاريخيَّة ومحورها، وإنَّما الدين، وفي كنف الدين نما علم التاريخ وتطوَّر، فكان أوَّل اشتغال للمسلمين به مع حاجتهم إلى معرفة سيرة نبيِّهم صلى الله عليه وآله، وتوفَّر لهذا الغرض رجال عكفوا على جمع أخبار السيرة وتدوينها، ويمكن أن نعدَّ عمليَّة استقراء تاريخ الأمم والشعوب أمرًا ميسورًا وسهلًا في وقتنا الحاضر، لكنَّه يصعب كثيرًا في العصور السابقة، ونخصُّ منها تاريخ العصر الإسلاميّ، إذ لم يتوفَّر للمؤرِّخ الإسلاميّ ما يوفَّر الآن من تقنيَّات وآليَّات تسهِّل عمل المؤرِّخ، لذا تعرَّض مورثنا الإسلاميّ إلى الكثير من التداعيات والإرهاصات والإشكاليَّات لأسباب عديدة ومتباينة، إذ كان التحريف والتزييف والتغيير والقَلب حاضرًا في سرد مرويَّات المغازي، والسيرة، والسنَّة النبويَّة الشريفة، ونعزو ذلك إلى أسباب عدَّة، منها عدم شيوع الكتابة في المجتمع العربيّ بدوًا

وحاضرة، فضلًا عن كون التدوين اعتمد الحفظ والمشافهة، وكذلك دور السلطات الحاكمة عصرئذ في تسييس عمليَّة التدوين وفق مقتضيات مصالحها الإيديولوجيَّة (السلطة الأمويَّة والعبَّاسيَّة)، وعلاوةً على ذلك، كان للاستشراق والمستشرقين دورًا بارزًا ومؤثِّرًا في ذلك أيضًا، وقبل الخوض في مراحل عمليَّة التدوين الإسلاميّ، نبيِّن ما تعرَّضت له الديانات التي سبقت الإسلام، كاليهوديَّة والنصرانيَّة من ذلك، إذ أكَّدت آيات القرآن الكريم الصريحة أنَّ اليهود قد حرَّفوا التوراة وغيرها من كتب الله المنزَّلة على أنبيائه من بني إسرائيل، كقوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[1]، ولقد انطلق علماؤنا المسلمون من تلك الآيات وغيرها من نصوص القرآن الكريم والسنَّة النبويَّة المطَّهرة في نقدهم للتوراة، وما يتبعها من الأسفار المقدَّسة عند اليهود، واستخرجوا منها الأدلَّة والشواهد على تحقيق ما ذكره الله ﷻ في القرآن الكريم من وقوع التحريف والتبديل والكذب في كتبهم، ويقول مؤلِّفو (قاموس الكتاب المقدَّس): لا توجد لدينا المخطوطات الأصليَّة (للعهد القديم والجديد)، التي دوَّنها كتبة الأسفار المقدَّسة، إذ يعلِّل اليهود والنصارى فقدان النسخ والسَّند لكتبهم المقدَّسة، وذلك لكثرة حوادث الاضطهاد والنكبات التي نزلت بهم خلال تاريخهم الطويل، ومن تلك الحوادث: الغزو الآشوريّ عليهم في سنة (٧٢٢ ق.م)، ثمَّ الغزو البابليّ الشهير سنة (٥٨٦ ق.م)، ونتج عنه تدمير الهيكل، وأخذ بني إسرائيل سبيًا إلى بابل، ثمَّ الاضطهاد اليونانيّ، ومن بعده الاضطهاد الرومانيّ، الذي استمرَّ لعدَّة قرون، وقد نتج عن هذه الاضطهادات إحراق أسفارهم وإتلافها، ومنع قراءتها، وقتل أحبارهم وعلمائهم، ونضيف سببًا آخر مهمًّا لضياع أسفارهم، وانقطاع أسانيدهم، هو كثرة حوادث الردَّة والشِّرك في بني إسرائيل، وكفرهم بالله ﷻ، وإهمالهم للتوراة وغيرها، وهي مذكورة في أسفارهم المقدَّسة، فهذه اللمحة البسيطة عمَّا تعرَّض له الموروث اليهوديّ أو النصرانيّ

(١) المائدة: ١٣.

من حوادث وإشكاليَّات، هي أدلَّة واعية على حدوث التحريف والتزييف والتشويه فيها، أمَّا المورث التاريخيّ الإسلاميّ، فقد بدا بأبسط أشكاله، لتأخذه بعد ذلك الخبرات المتراكمة والاتِّجاهات المتعدِّدة، من حيث الاستيعاب والعمق؛ ليطوي طريقه التكامليّ في مراحله الأربعة، وهي:

المرحلة الأولى: بعد أن كانت الرواية التاريخيَّة تُنقل شفاهًا في الغالب، شأنها شأن غيرها من السُّنن، إذ دخلت حيِّز التدوين في وقت مبكِّر، ولكن إلى جانب غيرها من السُّنن والآداب، في مدوَّنات كان يكتبها بعض الصحابة لأنفسهم خاصَّة؛ لغرض الحفظ والرواية الشفهيَّة للتلاميذ، ولسائر الناس. والكتابة من هذا النوع كانت منتشرة بين الصحابة، حتَّى عهد عمر، حيث منعها بشدَّة، وجمع كثيرًا منها وأحرقه بالنار[1]، وزاد انتشارها بعده، حتَّى بلغ المعروف منها اثنين وخمسين كتابًا لاثنين وخمسين صحابيًّا، وقد بلغت كتب ابن عبَّاس وحده عند مولاه كريب بن أبي مسلم حِمل بعير[2]، ومن رجال هذه المرحلة: سعيد بن سعد بن عبادة الخزرجيّ، وقد كتب شيئًا من حياة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، علمًا أنَّ أباه سعد بن عبادة كان يحتفظ بصحف كتبها بين يدَي رسول الله صلى الله عليه وآله؛ له نصٌّ واحد في مسند أحمد[3]، ونصٌّ واحد في تاريخ الطبريّ[4]، أمَّا سهل بن أبي خيثمة الأنصاري، وكانت له عناية خاصَّة بالسيرة النبويَّة ومغازي الرسول صلى الله عليه وآله، كان مولده سنة ٣هـ، ووفاته في أيَّام معاوية، وصل كتابه إلى حفيدة محمَّد بن يحيى بن سهل، فكان إذا روى منه قال: «وجدت في كتاب آبائي»، منه نصوص لدى ابن سعد والبلاذريّ والطبريّ[5].

(١) تذكرة الحفَّاظ، للذهبي: ١/ ١٠٣.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) مسند أحمد: ٥/ ٢٢٢.
(٤) تاريخ الطبريّ: ١/ ١١١٠٥.
(٥) انظر: التاريخ العربيّ والمؤرِّخون، شاكر مصطفى: ١/ ١٥١.

المرحلة الثانية: مرحلة التدوين التاريخيّ الجزئيّ المختصّ. بعد انتشار عمليَّة التدوين، توزَّعت اهتمامات علماء التابعين على أكثر من واحد من أنواع العلوم، ففرغ أكثرهم لجمع الحديث بشكلٍ عامّ، وروايته، وتخصَّص بعضهم بأحاديث السُّنن والأحكام التي هي موضع اهتمام الفقهاء بالدرجة الأولى، فيما انصبَّت عناية آخرين على ما يتَّصل بالسيرة النبويَّة بشكلٍ عامّ، وبالمغازي منها بشكلٍ خاصّ، فظهرت في هذه المرحلة كتب المغازي والسيرة على مستوًى واسع.. فكتب عروة بن الزبير، المتوفّى سنة (٩٣هـ) كتابه المغازي، وأبو فضالة عبدالله بن كعب بن مالك الأَنصاريّ، المتوفَّى سنة (٩٧هـ) كتب كتابًا صغيرًا في المغازي، وأبان بن عثمان بن عفَّان، المتوفَّى سنة (١٠٥هـ) كتب أيضًا في السيرة والمغازي، وعاصم بن عمرو بن قتادة الأَنصاريّ، المتوفَّى سنة (١٢٠هـ)، وشرحبيل بن سعد، المتوفَّى سنة (١٢٣هـ)، ثمَّ ابن شهاب الزهريّ، المتوفَّى سنة (١٢٤هـ)، صاحب كتاب المغازي، وهو أكثر الكتب المتقدِّمة أثرًا، وقد حفظت أجزاء كثيرة منه في المصنَّف لعبد الرزَّاق الصنعانيّ[1]، وقد اتَّسمت هذه الكتب جميعًا بسمة كتب الحديث، إذ اقتصرت على إيراد الروايات الخاصَّة بموضوعها السيرة والمغازي بأسانيدها الكاملة. ومن هذه الأعمال أنَّ الحادثة الواحدة تأتي فيها مجزَّأة وغير منتظمة، إذ إنَّها كانت غالبًا مؤلَّفة من عدَّة روايات قِصار، تتحدَّث الواحدة منها عن قطعة صغيرة أو جزئيَّة من الحدث، لتأتي أُخرى بقطعة ثانية ربَّما لا تكون موصولة بالأوَّل، وهذا هو الطابع الذي غلب على مدوَّنات هذه المرحلة.

المرحلة الثالثة: مرحلة النسق والنظم بعد مرحلة جمع الأخبار. تنبَّه المؤرِّخون اللاحقون إلى ضرورة توحيد صورة الحدِّ التاريخيّ، من أجل تقديم نسق دقيق ومترابط للأحداث، ميَّز في النهاية العمل التاريخيّ عن العمل الحديثيّ، الذي يُعنى بجمع الأحاديث بأسانيدها، الأمر الذي دعا المؤرِّخين إمَّا إلى توحيد الأسانيد في مقدِّمة

(١) التاريخ العربيّ والمؤرِّخون: ١/ ١٥١.

الحدث المراد نقله، أو إلى إسقاط الأسانيد، الذي أخذ يظهر في المرحلة اللاحقة، ومن أبرز مؤرِّخي هذه المرحلة: عوانة بن الحكم، المتوفَّى سنة ١٤٧هـ، محمَّد بن إسحاق المتوفَّى سنة ١٥١هـ، ولوط بن يحيى، المتوفَّى سنة ١٥٧هـ، وأبان بن عثمان بن أحمد البجليّ، المتوفَّى سنة ١٧٠هـ، وسيف بن عمر التميميّ، المتوفَّى سنة ١٧٠هـ، وهشام بن محمَّد ابن السائب الكلبيّ، المتوفَّى سنة ٢٠٤هـ، والهيثم بن عديّ، المتوفَّى سنة ٢٠٧هـ، ومحمَّد ابن عمر الواقديّ، المتوفَّى سنة ٢٠٧هـ، وأبو عبيدة معمر بن المثنَّى، المتوفَّى سنة ٢١١هـ، ونصر بن مزاحم، المتوفَّى سنة ٢١٢هـ، وعلي بن محمَّد المدائنيّ، المتوفَّى سنة ٢٢٥هـ، والزبير بن بكَّار، المتوفَّى سنة ٢٥٦هـ، وابن قتيبة الدينوريّ، المتوفَّى سنة ٢٧٦هـ، وأحمد ابن يحيى البلاذريّ، المتوفَّى سنة ٢٧٩هـ. وتعدُّ أغلب هذه المصنَّفات بأنَّها تواريخ مرحليَّة، أو مقطعيَّة، تخصَّص الكتاب الواحد بأخبار مرحلة من مراحل التاريخ، أو حادثة مهمَّة من حوادثه، ككتب السيرة النبويَّة، والمغازي، وكتب في السقيفة وأحداثها، وأُخرى في الردَّة، وأُخرى في مقتل عثمان، ومصنَّفات في حرب الجمل، وأُخرى في حرب صفِّين، وأُخرى في النهروان، وغيرها في أخبار معاوية، وهكذا كان لبعض المؤرِّخين الكثير من الكتب تناولت عشرات المقاطع التاريخيَّة، فأبو مخنف مثلًا له أكثر من ٣٢ كتابًا، وهشام الكلبيّ نحو ١٥٠ كتابًا، والمدائنيّ ٢٤٠ كتابًا، وهكذا[1].

المرحلة الرابعة: مرحلة توحيد التاريخ الإسلاميّ أو العالميّ، فظهرت المدوَّنات الكبيرة الجامعة التي استوعبت تاريخ الإسلام بأكمله بترتيب أحداثه، وربَّما استوعبت أيضًا تاريخ الأنبياء والأمم السالفة، وأشهر مؤرِّخي هذه المرحلة: أبو حنيفة الدينوريّ، المتوفَّى سنة ٢٨١هـ، وأحمد بن أبي يعقوب اليعقوبيّ، المتوفَّى نحو سنة ٢٩٢هـ، ومحمَّد بن جرير الطبريّ، المتوفَّى سنة ٣١٠هـ، والمسعوديّ، المتوفَّى سنة ٣٤٦هـ، ومسكويه المتوفَّى سنة ٤٢١هـ، الذي قدَّم أُنموذجًا جديدًا في التاريخ في عمله الكبير الموسوم بـ(تجارب الأمم).

(١) معجم مؤرِّخي الشيعة، صائب عبد الحميد: ١١٩-٢٢٥.

وممَّا يلاحَظ على ما تقدَّم، فقد أهمل الكثير من أصحاب التصانيف في التاريخ، يتوزَّع رجالها على سائر الطبقات والقرون، ونخصُّ منهم المؤرِّخون الشيعة! ويبدو أنَّ نزعة طائفيَّة عقائديَّة تكمن وراء هذه الظاهرة، فضلًا عن دور السلطات المتعاقبة على العداء والبغض إلى أهل البيت عليهم السلام، باستثناء فهرست النديم (الشهير بابن النديم)؛ لأنَّه كتاب جامع لم يختصُّ بعلماء الشيعة ومصنِّفيهم، إذ أُهملت فهارس المصنَّفات الشيعيَّة، ومنها كتاب الرجال للنجاشيّ، والفهرست للشيخ الطوسيّ، ومعالم العلماء لابن شهر آشوب.. ولو رجع إليها أُولئك الباحثون لاتَّسمت أعمالهم بالشموليَّة والموضوعيَّة، وظهرت العديد من الحقائق المغمورة والمهمَّشة، وهناك مؤرِّخون لم يدخلوا في هذا المعجم[1]، لـمَّا اقتصر هذا المعجم على مؤرِّخي الشيعة ممَّن له تصنيف في التاريخ، إذ أسقط من الاعتبار عدَّة أصناف من أصحاب الأثر التاريخيّ من الشيعة، أو ممَّن انتسب إلى التشيُّع، أو نُسب إليه، وهذه الأصناف هم أصحاب الروايات التاريخيَّة الذين دخلت رواياتهم في مصادر التاريخ المعتبرة، لكن لم تُعرف لهم مصنَّفات خاصَّة في التاريخ، وهم كثير، منهم حبَّة بن جوين العرنيّ، وهو من أصحاب الإمام عليّ عليه السلام، فقد شهد معه المشاهد كلَّها، إذ أرَّخ وفاته الطبريّ وابن الأثير في آخر سنة (٧٦هـ)، وله روايات تاريخيَّة في تاريخ الطبريّ، وتاريخ الإسلام للذهبيّ، وغيرهما[2]، وأمَّا إسماعيل ابن عبد الرحمن السدِّيّ القرشيّ، وهو السدِّيّ الكبير، فقد عاصر الإمام الحسن عليه السلام، وعبدالله بن عمر، وأبا سعيد الخدريّ، وأبا هريرة، وحدَّث عن أنس بن مالك، وخرَّج أحاديثه مسلم، والترمذيّ، وأبو داوود، وقد جرَّحه الجوزجانيّ لتشيُّعه، ووثَّقه يحيى بن سعيد القطَّان، وأحمد بن حنبل، وابن عـديّ، والذهبيّ، توفِّي سنة ١٢٧هـ[3]، وهنالك مؤرِّخون من أصحاب المصنَّفات نُسِبوا إلى التشيُّع، وليس يخفى على أهل

(١) معجم مؤرِّخي الشيعة: ١١٩-٢٢٥.

(٢) تاريخ الطبريّ والكامل في التاريخ، في آخر أحداث سنة ٧٦هـ.

(٣) تاريخ الطبريّ: ٥/ ٣٨، الإصابة: ١/ ٣٧٢، تهذيب الكمال: ٥/ ٣٥١.

التحقيق أنَّ التشيُّع عند المتقدِّمين من أهل الجرح والتعديل، وأهل السُّنَّة، إنَّما هو تفضيل الإمام عليّ عليه السلام على عثمان، أمَّا النَّيْل من بني أُميَّة، فهو عندهم تشدُّد في التشيُّع. أمَّا تفضيل الإمام عليّ عليه السلام على أبي بكر وعمر، فهو الرفض، بحسب تعريفهم، وأمَّا النَّيْل من أبي بكر وعمر فهو الغلوُّ في الرفض، بحسب هذا التعريف. وبناءً على هذا التقسيم، أدخلوا الكثير من أهل العلم في التشيُّع؛ لمجرَّد تفضيلهم الإمام عليّ عليه السلام، وقدحهم في بني أُميَّة، فمن الحفَّاظ عدُّوا النسائيّ والحاكم في الشيعة؛ لهذا الاعتبار وحده(١).

وعلاوة على ما تقدَّم، يمكن لنا الإشارة إلى وقائع التاريخ السياسيّ للإسلام، والمتمثِّل بالخلاف بين المسلمين، كالذي كان بين المهاجرين والأنصار عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وآله حول تولِّي الخلافة، فضلًا عن الخلاف بين عثمان وقاتليه، والأحداث التي ظهرت خلال فترة خلافة الإمام عليّ عليه السلام، وحوادث الانقسام السياسيّ والفتنة التي أدَّت إلى استشهاد كلٍّ من الخليفَتَين عثمان وعليّ عليه السلام، ثمَّ اعتلاء معاوية الحكم، كلُّها كانت أسبابًا في الاختلاف في العقائد بين المسلمين(٢)، وكذلك النزعة التي ظهرت عند بعض الفرق الإسلاميَّة الفقهيَّة والكلاميَّة(٣)، ومسألة الإمامة والخلافة، وظهور الأحزاب السياسيَّة، وكذلك التصادم بين مبدأ القدر أو حريَّة الإرادة ومسؤوليَّة البشر في الشؤون العامَّة، وبين مبدأ الجبر أو قبول الأوضاع العامَّة السائدة بوصفها مقدَّرة، فقد تبنَّى الأمويُّون مبدأ الجبر وبشَّروا به، إذ إنَّ الأحزاب المعارضة بشَّرت بمبدأ الحريَّة ومسؤوليَّة البشر عن الأوضاع(٤)، إذ اضطر كلُّ فريق أن يدعم مذهبه بالأحداث التاريخيَّة وتشريعها، فكانت أحداثًا تكتب الحديث أبوابًا وفصولًا في هذه المسائل

(١) تهذيب الكمال: ٣/ ١٣٢، ميزان الاعتدال: ١/ ٢٣٦.
(٢) انظر: معجم مؤرِّخي الشيعة: ١١٩-٢٢٥.
(٣) نصار، حسين، نشأة التدوين التاريخيّ عند العرب: ٩، الجمل، التاريخ عند العرب: ١١٧.
(٤) أمين، أحمد، ضحى الإسلام: ٢/ ٣٤٠، حاطوم، المدخل إلى التاريخ: ١٨٠.

التاريخيَّة[1]، إذ يمكن أن نعدّ مجمل تلك الوقائع في التاريخ السياسّي الإسلاميّ، لها الأثر الواضح في عمليَّة التدوين، ونخصُّ منها القرون الثلاثة الأولى حصرًا؛ وذلك لقوَّة الدولة (الأمويَّة والعبَّاسيَّة)، وسلطانها من جانب، وقوَّة الخلافات السياسيَّة والعقائديَّة بين السلطة ومعارضيها، مِن جانبٍ آخر.

(١) الخالدي، طريف، دراسات في تاريخ الفكر العربي: ٣٨.

المبحث الأوّل

الزّهراء عليها السلام بين اليسوعيّ لامنس والجمل

أوّلًا: اليسوعيّ لامنس

تؤكّد الدراسات التاريخيَّة أنَّ هنري لامنس (Henri Lammens) (ت ١٩٣٧م)، راهب يسوعيّ بلجيكيّ، التحق مبكِّرا بالكليَّة اليسوعية ببيروت، ثمَّ أصبح بها مدرِّسًا.. فأمضى جلَّ حياته بلبنان إلى أن توفِّي، وقد كان ناشطًا في مجال التبشير، فأشرف على مجلَّة المشرق بعد لويس شيخو، وقد كتب في هذه المجلَّة مقالاتٍ عدَّة ذات مقاصد تبشيريَّة دينيَّة (كانت تُترجَم عن الفرنسيَّة)، وللامنس كُتب كثيرة تتعلَّق بنشأة الإسلام والخلافة الأمويَّة، سنهتمُّ منها بكتابَين في السيرة النبويَّة، هما: فاطمة وبنات محمَّد، مقدِّمات نقديَّة لدراسة السيرة (١٩١٢)، وكتاب: الإسلام، عقائده ونُظُمه (١٩٢٦)[1].

وقد تأثَّر لامنس بمؤلَّفات المستشرق الإيطاليّ ليوني كايتاني (Léone Caetani)، صاحب حوليَّات الإسلام (١٩٠٥-١٩٠٧)، في نقده للوثائق الإسلاميَّة المتأخِّرة، لكنَّه تجاوزه في اطِّراح المرويَّات المتعلِّقة بالعهد المكِّيّ (ما عدا القرآن)، وأجحف في نقد الأخبار الإسلاميَّة عن السِّيرة، فلم يرَ فيها سوى ركام من الروايات الدَّائرة بتأويل الإشارات القرآنيَّة إلى حياة النبيّ، ركام من (غريب) الأخبار التمجيديَّة، أثَّر فيها التراث المسيحيّ واليهوديّ، وخضعت لهوى العصبيَّات الحاكمة.. ولعلَّ هذا

(١) الدوريّ، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب: ١٣٢.

الإجحاف هو الذي جعل مستشرِقين مُنصِفين من أمثال (منتغمري واط) يعدُّ نقد لامنس التاريخيّ (متطرِّفًا)، إذ إنَّ لامنس لم يطلب التاريخ لذاته في دراسته لسيرة النبيّ محمَّدﷺ، بل مزج بحثه بمقاصد تبشيريَّة حاقدة، صريحة وخفيَّة، ظاهرة ومرموزة، ولم يكن نقدُه سوى تفنيدٍ وتشكيك للمرويَّات التمجيديَّة عن رسول الإسلامﷺ، وهكذا يُمكن عدُّ لامنس نموذجًا سيئًا للاستشراق الكلاسيكيّ، وأغلب الظنِّ أنَّ المنزع الدِّينيّ التبشيريّ هو الذي جعل أساطين المُستشرِقين ينهجون منهج لامنس في نقد الوثائق الإسلاميَّة المُتأخِّرة بـ(التطرُّف)، وتزداد حُجيَّة نقد الغربيِّين لنقد لامنس، إذا صدر عن علماء راسِخين في المعرفة بتراث الإسلام، من أمثال ثيودور نولدكه (Th. Nöldeke) صاحب تاريخ القرآن، وشفالي (Friedrich Schwally) الذي عدَّل كتاب نولدكه، وقد قال فيه: «يسلك الباحث الناشئ هنري لامنس أكثر المسالك تطرُّفًا في هذا الميدان [نقد الروايات]. وهو يتَّبع مَثَل كِتاني وغولدتسيهر»[1]. وهذه المآخذ برمَّتها قد عابها ماكسيم ومنتغمري واط على لامنس.

ولا تختلِف مآخذ الكُتَّاب العرب على لامنس كثيرًا عن مآخذ الكُتَّاب الغربيِّين، إذ يُقيِّدها عبد الرحمان بدوي في قوله: «مُستشرق بلجيكيّ، وراهب يسوعيّ شديد التعصُّب ضدَّ الإسلام، ويُعدُّ نموذجا سيِّئًا جدًّا للباحثين في الإسلام من بين المُستشرقين»[2]. ولهذا التفت كثير من كُتَّاب السيرة العرب المُحدَثين إلى مُساجلة لامنس في مسائل كثيرة، والردّ على تُهمه لنبيِّ الإسلام، وقد ذكر محمَّد حُسين هيكل لامنس في غير موضع، وتصدَّى لتفنيد ما عدَّه تشنيعًا على النبيّ محمَّدﷺ والإسلام، إذ إنَّ لامنس ينتهج ضربًا من الشكِّ (انتِقائيًا) في التعامل مع مصادر السِّيرة النبويَّة، وبخاصَّةٍ المصادر العربيَّة القديمة، وسنحاول أن نبيِّن هذه الطريقةَ من خلال نماذج سِيرِيَّة)

(1) Henri Lammens, Fâtima et les filles de Mahomet, notes critique.

(2) pour l,étude de la sîra (Roma: Pontif. Institutum Biblic, 1912).

وردت في الكِتابيْن متفرِّقةً، وقد رأينا أن ننظر فيها مرتَّبةً حسَب النسق التقليديّ للسِّيرة النبويَّة، إذ سعى لامنس إلى تصديق أخبار السِّيرة التي تغضُّ من الصُّورة المثالية لمحمَّد وآل بيته (عليهم الصلاة والسلام)، في المصادر العربيَّة القديمة، إذ يذهب لامنس إلى أنَّ أبويْ عليّ بن أبي طالب لم يُسلِما، وأنَّهما ماتا على غير الاسلام؛ ولئن تُؤكِّد مصادر عربيَّة مُتقدِّمة، كابن هشام، جانِبًا من هذه المسألة[1]، فإنَّ انتصار أصحابها (للسُّنَّة) غير خافٍ، إذ تُثبِت الشِّيعة إسلام أبي طالب رضي الله عنه، وقد حرَّر الشيخ المُفيد (٤١٣هـ) رسالة في إيمان أبي طالب، ويعدُّ مؤرِّخي التشيُّع أنَّ عائلةَ عليّ عليه السلام أسلمت كلَّها منذ بداية الدعوة الإسلاميَّة، وفيها فاطمة بنت أسد زوج أبي طالب[2].

وقد وجَّه لامنس الانتقاء في كتاب فاطمة وِجهة تخدُم تعصُّبه على الرَّسول وآل بيته، إذ يقبل رواية زواج الرَّسول من خديجة، وهي شيخة، من دون نقدٍ في مُؤلَّف وسمه بعنوان فرعي (ملاحظات نقديَّة لكتابة السِّيرة)، وقد ذكرت بعض مصادر السِّيرة المُعتَمدة كالمُحبَّر أنَّ سنَّ خديجة لـمَّا تزوَّجها الرَّسول كان ثمانيَ وعشرين سنة في إحدى الروايات[3]. ويُثبت هشام جعيط أنَّ رقم الأربعين رقمٌ سحري لدى الشعوب السَّامية، ويطرح سُؤالًا وجيهًا: كيف تُنجِب خديجة بناتٍ وبنينَ عديدين، وهي شيخة[4]، ولم يرَ المسلمون في ذلك معجزة. إنَّ اختيار لامنس لروايةِ زواج خديجة في سنٍّ مُتقدِّمة لم يكن بريئًا، إذ أراد أنْ يُثبت من ذلك أنَّ النبيَّ محمَّد (أبترُ)، ويحتجُّ بوُرود هذه الصِّفة في القرآن الكريم ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]. ويرى لامنس أنَّ السِّيرة اختلَقت بأخَرَة أبناءً ذكورًا لمحمَّد (الطَّاهر والطيِّب وإبراهيم..)، لترُدَّ على قذْف

(١) تاريخ القرآن، نولدكه: ٢٣٢.
(٢) بدوي، موسوعة المُستشرقين: ٥٠٣.
(٣) راجع: محمَّد حسين هيكل، حياة محمَّد: ٣٨-٣٩، ٣٣٦.
(٤) ابن هشام، السِّيرة النَّبويَّة، تحقيق: مصطفى السقَّا وآخرين، ط١، السعوديَّة، دار المُغني، ١٩٩٩: ٤٢٠-٤٢١.

(الشَّانِئين)، وضاعفت عدد بناته للغرض نفسه. وهذا شكٌّ لم تُمله إلَّا رغبة في التشنيع على الرَّسول، وقد انتقد البحث التاريخيّ الغربيّ بعد لامنس الإجحافَ في الشكِّ، إذ يرى واط (١٩٥٣) أنَّ الشكَّ في الأخبار يجب أن يستند إلى وجود تلفيق (مُغرِض)، أو تناقض داخليّ بين الروايات[١]، وسبَق لـ(وَاطْ) أن ساق ملاحظة (نولدكه) حول أعمال اليسوعيّ لامنس التي تتَّسم بالإسراف في هذا الشكِّ[٢]، وعلى هذا النَّحو ينتهج لامنس سبلَ الشكِّ العَصَبيّ غير العِلميّ والأكاديميّ، فينتقد سيرة فاطمة (الضَّخمة)، ويذهب إلى أنَّها مُختَلَقة في مُعظمِها[٣]، لكنَّ الأمرَ لا يقف عند هذا الحدِّ من الشكِّ، بل يَصنع لامنس من خلال الروايات القديمة وتأويلها سيرةً قاتمةً لفاطمة عليها السلام، سنفحص عن أمرها في ما يأتي.. فقضيَّة الشكِّ ليست منهجيَّة علميَّة لديه، بل جدليَّة دينيَّة، إذ اختلق المُجادِلون المسيحيُّون قصَّة أخرى لسيرة النبيّ محمَّد صلى الله عليه وآله لأغراض تشنيعيَّة وتبشيريَّة مغرضة، وقد نبَّه الباحث الإنكليزيّ ن. دانيال بوضوح إلى هذه المسألة[٤]، فضلاً عمَّا تقدَّم، أنَّ لامنس كان يفتقر افتقارًا تامًّا إلى النزاهة في البحث، والأمانة في نقل النصوص وفهمها، إذ يعدُّ نموذجًا سيِّئًا جدًّا للباحثين في الإسلام من بين المستشرقين، وأبشع ما فعله خصوصًا في كتابه (فاطمة وبنات محمَّد)، إذ كان يشير في الهوامش إلى مراجع بصفحات غير صحيحة، فكان إمَّا أن يشير إلى مواضع غير موجودة إطلاقًا في هذه الكتب، أو يفهم النصّ فهمًا ملتويًا خبيثًا، أو يستخرج إلزامات بتعسُّف شديد يدلُّ على

(١) هاشم معروف الحسنيّ، سيرة المصطفى نظرة جديدة، بيروت، دار التعارف، ١٩٩٦: ٤٩.

(٢) ابن حبيب، المحبَّر، تحقيق: شتيتر، بيروت، منشورات دار الآفاق الجديدة، د.ت: ٧٩، سُبُل الهدى والرَّشاد في سيرة خير العباد، لمحمَّد بن يوسف الشاميّ، تحقيق: الشَّيخ عبد المعزِّ عبد الحميد الجزَّار، القاهرة، لجنة إحياء التراث العربيّ، ١٩٩٥: ١١/ ٤٤٢.

(٣) هشام جعيِّط، الوحي والقرآن والنبوَّة، ط٢، بيروت، دار الطليعة، ٢٠٠٠: ١١٥، هامش٢٠.

(4) Introduction, M. Watt, Muhammad at Mecca (London: Oxford University Press 1968) xiv.], Ibid., xiii «Lammen‹s more extreme views». Lammens, Fâtima, p. 139, la biographie touffue de Fâtima.

فساد الذهن، وخبث النيَّة، ولهذا ينبغي ألَّا يعتمد القارئ على إشارته إلى مراجع، فإنَّ معظمها تمويه وكذب وتعسُّف في فهم النصوص، فلا يعرف باحثًا من بين المستشرقين المحدثين قد بلغ هذه المرتبة من التضليل وفساد النيَّة، وكذلك يتَّضح عند الميلانيّ أنَّ لامنس من أصحاب الأقلام المدسوسة، المليئة حقدًا وغيظًا على الإسلام وقيمه، ومن حملات التبشير، ودعاة الصهيونيَّة، وقد قابل لامنس هذه التشويهات والتحريفات في حقِّ النبيِّ وأهل بيته عليهم السلام، الدفاع عن بني أميَّة، من خلال إيجاد الأعذار والمسوِّغات لأفعالهم الشنيعة بحقِّ أهل بيته عليهم السلام، إذ يتَّضح ذلك جليًّا في كتاباته حول الدولة الأمويَّة، فقد كتب لامنس ستَّة كتب هي: (دراسات عن معاوية الأوَّل)، (خلافة يزيد)، (زياد بن أبيه)، (معاوية الثاني)، (ودراسات عن عصر الأمويِّين)، (خلافة مروان الأوَّل)، وفيها بالغ في تمجيد الأمويِّين بدافع الحقد على الإسلام والمسلمين، فضلًا عن بتبرير جرائم الأمويِّين عامَّة، ويزيد خاصَّة؛ من خلال قلب وتغيير الحقائق وتزويرها.

ونشفُّ ممَّا تقدم أنَّ اليسوعي البلجيكيّ (لامنس) قد استخدم كلَّ الوسائل والآليَّات الإجرائيَّة الكفيلة بالتحريف، والتزوير، والتشويه، للسيرة العطرة للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، لاسيما فاطمة الزَّهراء (سلام الله عليها)، وهي موضوع بحثنا.

ثانيًا: بَسام الجمل

باحث وكاتب تونسيّ حاصل على الدكتوراه في الآداب واللغة العربيَّة، جامعة منوبة، يشغل منصب أستاذ مساعد بكليَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة بصفاقس، له مجموعة من الأعمال المنشورة، من بينها: كتاب (أسباب النزول) الذي صدر عن المركز الثقافيّ العربيّ، بشراكة مع مؤسَّسة مؤمنون بلا حدود، في طبعته الثانية ٢٠١٣، وكتاب (الإسلام السنِّيّ) الذي صدر عن دار الطليعة، ورابطة العقلانيِّين

العرب، بيروت، ٢٠٠٦، وكتاب ليلة القدر في المتخيَّل الإسلاميّ، ويشرف (الجمل) على التحكيم العلميّ لبحوث قسم الموروث الدينيّ بمؤسَّسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، وله كتاب يخصُّ بحثنا، وهو (جدل التاريخ والمتخيَّل سيرة فاطمة).

إذ اتَّكأ بسام الجمل في العديد من آرائه وأطروحاته حول سيرة الزَّهراء سلام الله عليها في كتابه على المستشرق التبشيريّ (لامنس)، إذ كان الجمل محاكيًا له في كلِّ إشكاليَّاته التي قدَّمها عن الزَّهراء عليها السلام، التي تشير بشكلٍ واعٍ ودالٍّ على تهكُّمه من شخصيَّتها عليها السلام، فضلًا عن شخصيَّة النبيّ محمَّد صلى الله عليه وآله، وأهل بيته عليهم السلام، فقد كانت أطروحته منحصرة في علاقة الزَّهراء عليها السلام العائليَّة مع زوجها عليّ عليه السلام، وسوء خلقها معه، فضلًا عن سوء معاملة زوجها عليّ عليه السلام لها، والعياذ بالله، إذ وصفها بالعلاقة المرتبكة غير القارَّة، وكذلك إشارته إلى تأخُّر زواجها وامتناع شباب قريش عن التقدُّم لخطبتها، بالرغم من كونها ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله؛ إذ يعزو ذلك لعدم اتِّصافها بالنظارة والجمال، فضلًا عن أنَّها كانت فقيرة منهكة القوى، مريضة معلولة من شدَّة الفقر والجوع؛ وذلك بسبب زواجها من ابن عمِّها الفقير عليّ عليه السلام، وبأبخس مهر، مقارنةً ببنات قريش، وإنَّها لم تقدِّم للإسلام أيّ منفعة تُذكَر- كما يدَّعي. ومن جانب آخر يرى الجمل أنَّ قسمًا مهمًّا من طفولة فاطمة قضَّتهُ وأبواها على أديان أجدادهما، إذ يرى الجمل أنَّ خديجة عليها السلام على دين النصرانيَّة، مثل ابن عمِّها ورقة بن نوفل[1]، ويؤكِّد ذلك من خلال خطاب الوحي إلى الرسول مذكِّرًا إيَّاه بالقول ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾[2]، إذ إنَّ المراد بالضَّلال عدم الهداية، بكونه صلى الله عليه وآله ضالًّا حاله في نفسه، مع قطع النظر عن هدايته تعالى، فلا هدى له صلى الله عليه وآله ولا لأحد من الخلق إلَّا بالله سبحانه، فقد كانت نفسه في نفسها ضالَّة، وإن كانت الهداية الإلهيَّة ملازمة لها منذ وجدت، فالآية في معنى قوله تعالى:

(١) جدل التاريخ والمتخيَّل، بسَّام الجمل.

(٢) الضحى:٧.

﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾[1]، ومن هذا الباب قول موسى على ما حكى الله عنه: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾، أي لم أهتدِ بهدى الرسالة بعد، ويقرب منه ما قيل: إنَّ المراد بالضَّلال الذهاب من العلم، كما في قوله: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾، ويؤيِّده قوله: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾[2]، وقيل المعنى وجدك ضالاً بين الناس، لا يعرفون حقَّك، فهداهم إليك ودلَّهم عليك[3].

إذ إنَّ هذا التفسير يؤكِّد عدم صحَّة تفسير الجمل للضلالة، أمَّا ما يتعلَّق بمكانتها ومقاماتها، فإنَّ حادثة المباهلة خير دليل على دحض أطروحته، إذ إنَّ دعوة المباهلة كانت من الله تعالى بقوله: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾، فقد وفد الرسول صلى الله عليه وآله وليس معه إلَّا أهل بيته، وهم أمير المؤمنين عليّ عليه السلام الذي هو بمنزلة نفسه، وابنته فاطمة، وابناه الحسن والحسين عليهما السلام، وأمَّا آية التطهير، فقد جاءت وبشكلٍ صريح لتؤكِّد المكانة الهامَّة والمنزلة الرفيعة التي أرادها الله لهم عليهم السلام، إذ يقول تعالى: ﴿.. إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[4]، إذ أجمعت كلُّ الروايات أنَّ المقصود هم عليّ وفاطمة وابناهما عليهم السلام، ومن الوجهة التاريخيَّة لحيثيَّة النزول وسياقه تؤكِّد ذلك أيضًا، ولا بدَّ من الإشارة إلى هذه المغالطات التي حاول الجمل أن يثيرها، ما هي إلَّا لزعزعة ثقة العقل والوجدان الجمعيّ الإسلاميّ حول سيِّدة نساء العالمين، ويبدو أنَّ هذه الأطروحة قد أسَّس لها لامنس؛ ليزيح سمة تسييد الزَّهراء لنساء العالمين، وهي الصفة التبجيليَّة التي يجب أن تتَّصف بها السيِّدة مريم العذراء عليها السلام بمفردها، بالمنظور اليسوعيّ، والذي يتَّفق معها في أغلب الأحيان بعض من أنصار مدرسة الصحابة، إذ

(١) الشورى: ٥٢.
(٢) يوسف: ٣.
(٣) الميزان، الطباطبائيّ: ٢٠/ ٣١٠.
(٤) الأحزاب: ٣٣.

يتَّضح لنا ذلك جليًّا من خلال طرح الجمل للمكانة التاريخيَّة لفاطمة عليها السلام وفق متبنَّياته وضروراته الإيديولوجيَّة، كذلك أنَّ إطار تلك المكانة المتواضعة التي رسمها الجمل عن فاطمة عليها السلام من خلال الواقع التاريخيّ المنحصر بين القرون الثلاثة كما يدَّعي، ما هي إلَّا آليَّات إجرائيَّة أراد منها الجمل الدفاع عن الأخطاء الجسيمة التي اقترفتها الخلافة في حقِّ فاطمة عليها السلام، إذ يتَّضح ذاك من خلال خلط الأوراق وقلب الحقائق عمَّا جرى في حادثة فدك، إذ تشير الدلائل التاريخيَّة (كما يدَّعي الجمل) إلى أنَّ عمر عنَّف فاطمة بنفسه، أو بإيعاز منه، حسب روايات أخرى، حينما أمر قنفذًا مولى أبي بكر بضربها بالسوط، وذلك للأسباب الآتية جميعها أو بعضها، على اختلاف الروايات، امتناعها عن مبايعة أبي بكر خليفة للمسلمين، إذ أورد هذا الخبر من تاريخ اليعقوبيّ (٢/ ١٢٦)، وعند مراجعتنا للخبر لم نجده في المصدر على الإطلاق، وهو أسلوب مماثل للأسس التي اتَّكأ عليها لامنس في سيرة فاطمة عليها السلام كما أسلفنا، إذ حاول الجمل أن يحرِّف الحقائق، ويخلط الأوراق لدى ذهن المتلقِّي؛ لتكون الحقيقة مبهمة ومعتمة أمامه، ويبدو أنَّ هذه الأساليب هي مطابقة لمقتضيات ضروراته الإيديولوجيَّة.

أمَّا التعليل الآخر لتعنيفها من قبل عمر، وذلك لرفضها تسليم الكتاب الذي دفعه إليها أبو بكر، والقاضي بمنحها فدك، إذ حاول الجمل تظليل المتلقِّي حول أمر الكتاب؛ ليصنع عذرا لسبب ضربها عليها السلام من قِبل عمر، فقد شتَّت ذهن المتلقِّي بتوجيهه نحو رفض فاطمة عليها السلام تسليم الكتاب لعمر، ومن وجهة أخرى، أراد الجمل التشكيك في العديد من أجزاء هذه الحادثة، ومنها قوله: وقد وصل الأمر بعمر إلى أن هدَّد فاطمة بإحراق بيتها بمن فيه، ونفَّذ تهديده، أو كاد، بحسب اختلاف الروايات هاهنا، وكذلك يقول: تتجمَّع الروايات الشيعيَّة على أنَّ فاطمة تلقَّت ضربة بالسيف في جنبها، وفي عضدها، ما تسبَّب لها في بعض الكسور، وفي سقوط جنينها المقدَّر له من الأسماء محسنًا[1]. ومرَّة

(١) جدل التاريخ والمتخيَّل، بسَّام الجمل: ٢٠.

أخرى، ردَّت فاطمة فكشفت شعرها، إذ أراد أن يشكِّك في تنفيذ تهديد عمر (أو كاد)، ومن وجهة أخرى حاول أن يزعزع ذهن المتلقِّي؛ بإيجاد رواية مختلقة تؤكِّد طعن الزَّهراء عليها السلام بالسيف في جنبها دون الإشارة إلى فاعلها، ثمَّ جعل الإشارة للهامش[1] في آخر الرواية، وعند مراجعتنا للمصدر تبيَّن أنَّه يشير إلى المحسن ابنها فقط، ونقول هنا أنَّ معظم الروايات الشيعيَّة ترى أن عمرًا عصرها بعدما لاذت خلف الباب، وأسقط جنينها، إذ يؤكِّد ذلك عمر برسالته إلى معاوية «فركلت الباب، وقد ألصقت أحشائها بالباب تترسه، وسمعتها وقد صرخت صرخة حسبتها قد جعلت أعلى المدينة أسفلها وقالت: **(يا أبتاه يا رسول الله)**»[2].

أمَّا فيما يخصُّ علاقتها الزوجيَّة، فقد سار الجمل على المنهجيَّة نفسها التي تتبَّعها لامنس، إذ أوجد مرويَّات عدَّة تدخل في حدود هذا الموقف، وسنوضِّح تداعياتها من خلال خطبتها عليها السلام التي وردت من ابن طيفور المتوفى[3] ضمن الفترة التي اتَّسمت بالواقع التاريخيّ لا المتخيَّل، كما يرى الجمل من أنَّ القرون الثلاثة الأولى هي تمثِّل الواقع التاريخيّ، وأمَّا الحقب التي تلتها فقد كان للمتخيَّل الأثر البالغ في سيرة الزَّهراء عليها السلام (كما يدَّعي)، ونحاول أن نردَّ على ما جاء به الجمل من خلال خطبتها عليها السلام، إذ تقول: «**تجدوه أبي دون آباءكم وأخا ابن عمِّي دون رجالكم.. كلَّما حشو نارًا للحرب أطفأها، ونجم قرن للضلال، وفغرت فاغرة من المشركين، قذف بأخيه في لهواتها، فلا ينكفئ حتَّى يطأ صمتها بأخمصة، ويخمد لهبها بحدِّه، مكدودًا في ذات الله، قريبًا من رسول الله صلى الله عليه وآله يدًا في أولياء الله، وأنتم في بلهنية وادعون آمنون، حتَّى إذا اختار الله لنبيه دار أنبيائه، ظهرت خلَّة النفاق، وسمل جلباب الدين**»[4]، فلا يخفى على الناقد البصير

(١) ابن شاهين، فضائل سيّدة النساء: ١١.

(٢) المصدر نفسه: ١١

(٣) في بحار الأنوار: ٣٠/ ٢٨٨-٢٩٩، طبعة بيروت، دار الرضا عليه السلام، تحقيق: عبد الزَّهراء العلويّ.

(٤) بلاغات النساء، الطاهر بن طيفور، ج١، من خطبة فاطمة عليها السلام.

كلماتها في حقِّ زوجها وابن عمِّها عليّ عليه السلام، والصفات البليغة التي وصفته «فلا ينكفى حتَّى يطأ صمتها بأخمصه، ويخمد بحدِّه مكدودًا في ذات الله»، وهذه التوصيفات التي أوجدتها الزَّهراء ما هي إلَّا تأشير دالٌّ على التأثُّر العميق في مكنون سماته، فضلًا عن إيثاره وذوبانه في ذات الله، فهل من المعقول أن تنبع هذه التوصيفات من أحضان علاقة اجتماعيَّة غير قارَّة أو مرتبكة، يعزوها الجمل إلى الجوع والفقر والحرمان، أم أنَّ هذه الصورة تدلُّ على الارتباط الإيمانيّ العميق بينهما، وأنَّهما يمثِّلان الأنموذج الأمثل للارتباط العائليّ، فضلًا عن الارتباط الجينيّ والنسبيّ بينهما عليهما السلام، وخير دليل على ذلك تلك العائلة المتمثِّلة بالحسنين وزينب وأم كلثوم عليهم السلام، الذين شهد لهم الواقع التاريخيّ بالسموِّ والرِّفعة من قبل القدامى والمحدثين، ومن الاعداء والمناصرين، وعلاوةً على ذلك، فإنَّ هذا النموذج البسيط من خطابها عليها السلام يدلُّ على عدم مصداقيَّة ادِّعاء الجمل ومن قَبله اليسوعيّ لامنس، ومن وجهة أخرى، فقد ذكر الجمل أمرًا يؤكِّد ارتباك العلاقة الزوجيَّة لهما عليهما السلام، وفيه يقول: فإنَّ ما ميَّز حياة فاطمة في هذه المرحلة، هو ما كانت تعانيه من فقر وخصاصة وجوع، وما تولَّد، جرَّاء ذلك، من توتُّر علاقتها بعليّ، إلى حدِّ حصول النفرة بينهما، وانقطاع حبل الوصال العاطفيّ، وإن استمرَّ عقد الزواج بينهما قائمًا. وإذا كان هذا حال فاطمة، وهي في رعاية أبيها وحمايته، فكيف سيكون أمرها بعد وفاته؟ وهنا نقول: على أيِّ شيء اعتمد الجمل في رأيه هذا؟ وما هي الأدلَّة على ذلك؟ وأمَّا في قوله: فكيف سيكون أمرها بعد أبيها؟ فقد أجاب عمر بن الخطَّاب على ذلك في تلك الرسالة التي أشرنا اليها سلفنا، والتي تدلُّ على الإطاحة بشابَّة في أوَّل ريعان شبابها لتلتحق بالرفيق الأعلى سبَّاقة للحاق بأبيها، قتلتها قرارات الخلافة وظلمها، لتكون أوَّل من ظُلِم بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله، وقد أشار الجمل إلى ما وقع عليها من الشيخَين، لكن من وجهة اخرى، كان القصد منها إظهار سيرتها الباهته، إذ يقول: «وتواصل سوء معاملتها، بعد وفاة أبيها، من أبي بكر وعمر، فلم تجد، في ظلِّهما، أيَّة

حظوة، فكان مصيرها التهميش منهما ومن سواهما من أصحاب النبيّ»، إذ أراد توجيه المتلقّي نحو تهميش الشيخَين ومَن سواهما من الصحابة؛ لكي لا يكون لها دور يذكَر أو أثر بائن في الموروث الحضاريّ الإسلاميّ على الإطلاق، ليقرَّ عيون الدعوات التبشيريَّة بشكل عام، وضروريَّاته العقديَّة بشكلٍ خاص، وأمَّا الادِّعاء بطلب الإمام عليّ عليه السلام بالزواج من ابنة أبي جهل، فقد أورد هذه المرويَّة عن أبي الفرج ابن الجوزيّ المعروف بالتعصُّب ضدَّ أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم؛ وكونه حنبليًّا متعصِّبًا، إذ تراه يضعف فضائل أمير المؤمنين عليه السلام الصحيحة الثابتة، بل والحكم عليها بالوضع في كتابه (الموضوعات)، كما هو معلوم للجميع، إذ وضع خبرًا عن تلك الخطوبة من خلال كلام الإمام عليّ عليه السلام للرسول حول إحدى الهدايا، قال: فقسَّمتها بين نسائي[1]، إذ بنى الجمل على هذه المفردة (نسائي) على أنَّه متزوِّج بأكثر من امرأة، بينما هذه المفردة تحتمل على معانٍ عدَّة، لا يمكن أن نختزلها في معنًى واحد فقط، ومن وجهة أخرى حاول الجمل صدم أفق أنظار المتلقِّي، إذ يصوِّر زواج الإمام عليّ عليه السلام، وفي الآن ذاته يقول إنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله رفض ذلك، ولم يتم الزواج، وكذلك نجد الجمل يعتمد على ابن شاهين في فضائل سيِّدة النساء، إذ أورد مرويَّة عن علاقة الزَّهراء عليها السلام الزوجيَّة، والتي وصفها بالمرتبكة، كما أشرنا في الهامش[2]، إذ لم نجد لهذا الخبر في هذه الصفحة أو الصفحات التي تليها، والذي ادَّعى فيه «عن المنهال بن عمرو أنَّه كان بين عليّ بن أبي طالب وبين فاطمة كلام، وأنَّه هجرها، فخرج من بيتها، فأتى المسجد، فنام في التراب»، إذ يعدُّ ذلك تشويها للحقيقة وتزييفها، وهو الأسلوب نفسه الذي اتَّخذه لامنس كما أسلفنا، ومن الجدير بالذِّكر أنَّ الجمل قد بان عليه التناقض في مسالة أنَّ القرون الأولى تمثِّل الواقع التاريخيّ لسيرة فاطمة عليها السلام، إلَّا أنَّه قد اتَّكأ على العديد من المصادر التي جاءت بعد تلك الحقبة الزمنيَّة، ومنهم (الطبرانيّ، المجلسيّ، المناوي، الطبرسيّ، ابن الجوزيّ، ابن عبد ربّه..)، وهذا ما يخالف

(١) صفوة الصفوة، ابن الجوزيّ: ١/ ١٣، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م.
(٢) جدل التاريخ والمتخيَّل، بسَّام الجمل: ١٦.

أطروحته ومقتضياتها المنحازة كما يدَّعي، لكنَّه يحاول أن يجد أسبابًا لذلك، إذ يرى الذي أخذته ترجمة فاطمة في المصادر الشيعيَّة، منذ القرن الخامس للهجرة، ومضمونه اكتساح عدد من العناصر غير التاريخيَّة تلك الترجمة، وتنامي حضورها ومداها، كلَّما تأخَّرنا في الزمان، حتَّى أصبحت المواد التاريخيَّة، في تلك الترجمة، ضامرة جدًّا، مقارنة بالحضور المكثَّف والواسع للمواد المنتمية إلى دائرة المتخيَّل الدينيّ[1]، فلا يخفى على الناقد البصير أنَّ هذا الطرح ينمُّ عن إسقاطات طائفيَّة مليئة بالسجالات المذهبيَّة، مبتعدة كلَّ البعد عن المنهج الأكاديميّ والبحثيّ، فضلًا عن أنَّ المؤسَّسة التي يقوم عليها، والتي تنشر له، هي أيضًا تدعم متبنَّياته وتدافع عنها، بالرغم من أنَّها تدَّعي الحياديَّة وعدم الانحياز، إذ يتَّضح من خلال متابعة الندوات التي أقامتها (مؤمنون بلا حدود) للدفاع عن تلك الأطروحة التي قدَّمها الجمل في كتابه، والسعي إلى الإشارة إليها في المنتديات الأكاديميَّة.

(١) جدل التاريخ والمتخيَّل، بسَّام الجمل: ١٦.

المبحث الثاني

فاطمة عليها السلام بين الآخر المختلف والمنتمي

يتَّضح جليًّا أنَّ المؤلِّف حاول أن يجعل من التمذهب وسيلة يتعكَّز عليها، وذلك من خلال اعتماد مدوِّني الواقع التاريخيّ من الآخر المنتمي، بينما يمثِّل الآخر المختلف مدوِّني مدرسة أهل البيت عليهم السلام، فنرى الجمل يقول: «إنَّ الانتقال من التاريخ إلى المتخيَّل، في الكلام عن فاطمة، حدث في القرن الرابع الهجريّ، أي في بدايته، في المؤلَّفات الشيعيَّة، وإنَّ في منتصفه (في المؤلَّفات السنيَّة)»، ويضيف كذلك: «من البديهيّ أن يكون للفكر الشيعيّ السبق في تضخيم سيرة فاطمة وتمجيدها، مقارنةً بالفكر السنِّيّ، بسبب صلة هذه الشخصيَّة الوثيقة بالإمام عليّ بن أبي طالب، ومن جاء بعده من الأئمَّة، وهكذا، رُوِّجت أخبار شتَّى عن فاطمة منتميةً إلى دائرة المتخيَّل، ساعدت العلماء القدامى عمومًا على بقاء هذه الشخصيَّة حيَّة في وجدان المسلمين وضمائرهم، على أنَّ هناك سببًا آخر نراه يبرِّر التحوُّل من التاريخ إلى المتخيَّل في شأن فاطمة، يتمثَّل في السياق الجداليّ المذهبيّ، الذي انتشرت فيه أقاويل أهل السنَّة والشيعة، ومدارها على أفضل رجال الإسلام ونسائه[1].

فإذا قامت في عالم الرجال مقابلة تامَّة بين عمر (عند أهل السنَّة)، وعليّ (عند الشيعة)، قامت كذلك، بالتوازي، مقابلة في عالم النساء، بين عائشة (لدى أهل السنَّة)، وفاطمة (لدى الشيعة)، وجليٌّ أنَّ هذه المقابلة أفرزت، على التدريج، صورة عن

(١) جدل التاريخ والمتخيَّل، بسَّام الجمل: ١٦.

ابنة النبيّ في المتخيَّل الإسلاميّ يبدو أنَّ الحبل الذي يُفترض أن يشدُّها إلى التاريخ، قد انصرم[1]، ذلك أنَّ الشيعة لم يكونوا على ما يظهر، مقتنعين بكتابة سيرة فاطمة، مضارعة لسيرة عائشة، أو دونها مرتبة، وهذا الموقف مندرج في التنازع المستمر بين أهل السنَّة والشيعة، حول جدارة امتلاك الرموز المرجعيَّة المؤسِّسة للفكر الإسلاميّ عمومًا، ومن المرجَّح أنَّ الشيعة قد انتبهوا، منذ وقت مبكِّر، إلى المنزلة التي حظيت بها عائشة في الفكر السنِّيّ مقارنةً بفاطمة، على الرغم من أسبقيَّتها النسبيَّة في الزمان، ورابطة الدم التي تشدُّها إلى النبيّ، من ذلك أنَّ البخاريّ في الجامع الصحيح، لم يثبت عن مناقب فاطمة سوى حديث واحد، بينما أفرد لعائشة ثمانية أحاديث مختلفة المضامين[2].

وهكذا، يرى الجمل أنَّ هذَين السببين كافيَين لتبرير الانتقال من التاريخ إلى المتخيَّل، واتِّخاذهما تكأة لبناء صورة عن فاطمة، كما تمثَّلوها، لا كما كانت سيرة الشخصيَّة في التاريخ، غير أنَّ الحديث عن المبرِّرات يمثِّل خطوة أولى تمهِّد للخوض في أهمِّ الطرق الموظَّفة في تحقيق الانتقال المذكور[3]، إلاَّ أنَّني أرى أنَّ عمليَّة التدوين هي التي لها الحظُّ الأوفر في التأثير على الواقع التاريخيّ لسيرة فاطمة عليها السلام، فكما هو معروف أنَّ التاريخ دوِّن بأقلام السلطة (الأمويَّة والعبَّاسيَّة) ومريديها، فضلًا عن انتماء المدوِّن الثقافيّ والإيديولوجيّ، وعلاوة على ذلك، فقد كانت قوَّة السلطة وتفرُّدها لها الأثر الواضح في سرد الواقع التاريخيّ، بما يقابلها من منع وانحسار عند الآخر (الشيعة)، إذ كان التضييق والتسلُّط والتهميش له أثره البالغ على عمليَّة التدوين في تلك الحقبة الزمنيَّة التي يصفها الجمل بالواقع التاريخيّ لسيرة السيِّدة فاطمة عليها السلام، وخير مثال على ذلك في تدوين أعظم حدث مأساويّ وقع على الإمام الحسين بن عليّ عليه السلام وأهل بيته

(١) الجامع الصحيح، البخاريّ: ٣/ ٣٥-٣٦.
(٢) جدل التاريخ والمتخيَّل، بسَّام الجمل: ١٧.
(٣) تاريخ الطبريّ، الطبريّ: ٦/ ١٩٦.

في كربلاء عام (٦٠هـ)، لكنَّه لم يدوَّن إلَّا من الطبري (٣١٠هـ) أي بعد ٢٥٠ سنة تقريبًا[١].

ونشفُّ ممَّا تقدَّم أنَّ السلطة كانت مضيِّقة على أهل البيت عليهم السلام، والتضليل في الكشف عن فضائلهم ومكانتهم ومقاماتهم في الأمَّة الإسلاميَّة، فضلا عن تعرُّضهم وأنصارهم وأشياعهم إلى القتل والتنكيل والتشريد والتهجير القسري، إذ كانت السلطة الحاكمة تسعى للتعتيم والتضليل والإيهام وخلط الأوراق وقلب الحقائق، فضلًا عن منع تداول سيرتهم وأخبارهم.

أمَّا الموروث التاريخيّ الإسلاميّ فقد كُتب بأقلام مأجورة متكسِّبة متملِّقة للسلطة وطغيانها، وقد أغفل الجمل عن دور السلطة وأثرها في قلب وتحويل الحقائق أو التغيير والتحريف والتزييف والمنع، وقد أشرنا إلى ذلك في التمهيد من خلال غياب كتاب التشيُّع في المصادر التاريخيَّة[٢]، لذا انحسرت أخبار السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام في الحقبة الأولى وتلاشت، لتكون سيرتها باهتة ضعيفة مهمَّشة كما يصفها الجمل، أمَّا في الحقبة الأخرى، فقد كانت سيرتها مبثوثة في مصادر كِلَا الفريقَين ومنتشرة، وذلك لأسباب عدَّة، منها ضعف السلطة وتشظِّيها إلى دويلات، وهذا الضعف نجم عنه إفساح المجال إلى المدوِّن التاريخيّ والفكريّ في التعرُّض إلى سيرتها عليها السلام، فضلًا عن سيرة أهل البيت عليهم السلام، وكذلك اتِّساع إطار الحريَّات الفكريَّة والعقديَّة من خلال انتشار المذاهب والمدارس الفكريَّة والعقائديَّة، مقارنةً بالحقبة الزمنيَّة الأولى، إذ تعرَّض فيها المدوِّن الشيعيّ إلى شتَّى أنواع الاضطهاد والتعسُّف، حتَّى أصبح أنصار مدرسة أهل البيت روافضًا مكذوبين لا يؤخذ عنهم أي حديث أو مرويَّة أو خبر؛ وذلك لوسمهم بالكذب والوضع والتحريف والتزييف، وهي من الأساليب التي اتَّبعتها السلطة وأقلامها، فقد كان خطاب السلطة مكرَّسًا لشحن المتخيَّل الجمعيّ بالصورة المضادَّة والمغايرة للحقيقة

(١) بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب: ١٣٢.

(٢) ينظر: صورة الإسلام والمسلمين في التخيُّل الأوربِّيّ، بدر الدين شوهاتي: ٢-٥.

والواقع، والذي ارتهن بقاموس لفظيّ كان للوهم والمتخيَّل أثرًا حاسمًا، فالوعي الضدِّيّ بالآخر، والإدراك القويّ للمنافسة، وما يفترضه ذلك من الاحتفاظ بالوجود والهويَّة لدى الآخر، والشعور والإيمان بضرورة القيام بردَّة الفعل هذه، من خلال ما سار عليه الآخر وأنتهجه في عمليَّة التشويه والتحريف والمغالطة، والتي عدَّت سمة اتَّصفت به ماكنته الإعلاميَّة.

ويتَّضح ممَّا سبق أن التباين الثقافيّ للمدوِّن القائم على الأسس العقديَّة والقبليَّة له الأثر الواضح في رسم الصور المتباينة التي أخلَّت بالسيرة التاريخيَّة المقدَّسة، والتي أبعدتها عن الواقع الحقيقيّ، بوصفه سيرةً تمثَّلت بسيرة والدها الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله.

الخاتمة

يعدُّ البعض أنَّ التأثُّر بالحداثة وما يتبنَّاه الفكر الغربيّ قديمًا وحديثًا، نوع من الارتقاء والتطوُّر والتحرُّر من الأفكار المتدنِّية، وعلى هذا الاساس سادت معظم منشورات البعض من المؤسَّسات الفكريَّة والأدبيَّة والسياسيَّة العربيَّة محاكية للفكر الغربي، وكانت مؤسَّسة مؤمنون بلا حدود إحداها، إذ تمثَّل هذا التوجُّه فيما جاء بكتاب (جدل التاريخ والمتخيَّل سيرة فاطمة)، الذي نلحظ فيه التأثُّر بالفكر الغربيّ فيما حمله من متبنَّيات يخالف فيها الكثير ممَّا جاء به الفكر العربيّ الإسلاميّ، وقد حقَّق ذلك بسَّام الجمل في تعرُّضه لسيرة سيِّدة نساء العالمين فاطمة الزَّهراء سلام الله عليها، إذ كرَّس كلُّ ما جاء به اليسوعيّ لامنس من أحقاد على النبيّ محمَّد صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، فالتعرُّض إلى سيرة الزَّهراء عليها السلام بهذه الطريقة غير المحمودة، والتي اتَّسمت بالتشويه والتحريف والتزييف والدسِّ وقلب الحقيقة والواقع، ليكون متخيَّلا رسمته أقلام التشيُّع، ما هو إلَّا تزييف للواقع التاريخيّ، إذ إنَّ الجمل أغفل أهم مسالة في عمليَّة التدوين، وهي تسيُّد السلطة على المؤرِّخ الإسلاميّ بالسيف والمال، ليرسم الواقع التاريخيّ وفق إطار سياسة السلطة الحاكمة، وخاصَّة القرون الثلاثة الأولى التي يعدُّها الجمل تمثِّل الواقع التاريخيّ، والتي نرى أنَّها تمثل الصورة المتخيَّلة التي رسمتها السلطة بأقلامها المأجورة.

أمَّا الحقبة الزمنية (بدءًا من القرن الرابع) التي وسمها الجمل بأنَّها تمثِّل الصورة المتخيَّلة التي رسمها المدوِّن الشيعي بشكلٍ أكثر، ما هي إلَّا دعوات محرَّفة أُريد منها

تحجيم الدور الفاعل الذي حقَّقته مدرسة أهل البيت عليهم السلام، في إنصاع حقيقة الواقع التاريخيّ الإسلاميّ للعالم، من خلال السيرة الحقَّة لأهل البيت عليهم السلام، ودورهم المركزيّ في الإسلام، بعدما كانوا مهمَّشين في الواقع التاريخيّ الذي يشير إليه الجمل، من خلال الصورة المتخيَّلة النابعة وفقا لضروراته الإيديولوجيَّة.

المصادر

* القرآن الكريم.

١. أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر ابن طيفور (المتوفَّى ٢٨٠هـ)، صحَّحه وشرحه: أحمد الألفيّ، مطبعة مدرسة والدة عبَّاس الأوَّل، القاهرة، ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م.

٢. تاريخ الطبريّ، الطبريّ ٣١٠هـ، ج٦، ط١، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٩٩٨م.

٣. التاريخ العربيّ والمؤرِّخون، شاكر مصطفى، ج١، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٨٧م.

٤. تاريخ القرآن، بلايبزك سنة ١٩٠٩ (Geschichte des Koran, Leipzig)، وقد تُرجم إلى العربيَّة: تيودور نولدكه، تاريخ القرآن، ترجمة جورج تامر وآخرين، ط١، بيروت، مؤسَّسة كونراد- أدناور، ٢٠٠٤.

٥. تذكرة الحفَّاظ، للذهبيّ، ج١، ط١، دار الكتب العلميَّة، بيروت، لبنان، ١٩٩٨.

٦. تهذيب الكمال، الحافظ جمال الدين المزي، ج١، الرسالة العالميَّة، دمشق، سوريا، ١٣٤٢هـ.

٧. جدل التاريخ والمتخيَّل سيرة فاطمة، بسَّام الجمل، مؤسَّسة مؤمنون بلاحدود، ٢٠١٨م.

٨. حياة محمَّد، محمَّد حسنين هيكل، دار الكتب العلميَّة، بيروت، لبنان، ١٩٧١م.
٩. دراسات في تاريخ الفكر العربيّ، طريف الخالديّ، دار الكتب، الموصل، العراق.
١٠. سُبُل الهدى والرَّشاد في سيرة خير العباد، لمحمَّد بن يوسف الشامي، تحقيق: الشيخ عبد المعزِّ عبد الحميد الجزَّار، القاهرة، لجنة إحياء التراث العربيّ، مصر.
١١. السِّيرة النبويَّة، ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقَّا وآخرون، السعوديَّة، دار المُغني، ١٩٩٩.
١٢. صفوة الصفوة، ابن الجوزيّ، ج١، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٧٩م.
١٣. ضحى الاسلام، احمد امين، ج١، مكتبة طريق العلم،القاهرة، مصر، ٢٠١٥م.
١٤. فضائل سيِّدة النساء، لابن شاهين، دار ابن الاثير، الكويت، ٢٠٠٤م.
١٥. بحار الأنوار، العلَّامة المجلسيّ، طبعة بيروت، دار الرضا عليه السلام، تحقيق: عبد الزَّهراء العلويّ.
١٦. مسند أحمد، أحمد بن حنبل، ج٥، تحقيق: عادل مرشد، مؤسَّسة الرسالة، دار الحديث، القاهرة، مصر، ١٩٦٩م.
١٧. معجم مؤرِّخي الشيعة، صائب عبد الحميد، ط١، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلاميّ، بيروت، لبنان، ٢٠٠٨م.
١٨. موسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٨٤م.
١٩. الميزان، الطباطبائيّ، ج٢٠، مؤسَّسة الأعلميّ، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ.

٢٠. نشأة التدوين التاريخيّ عند العرب، حسين نصَّار، مكتبة النهضة العربيَّة، القاهرة، مصر، ١٩٢٥م.

٢١. نشأة علم التاريخ عند العرب، العزيز الدوريّ، مركز دراسات الوحدة العربيَّة، السعوديَّة، ٢٠١٦م.

٢٢. هاشم معروف الحسنيّ، سيرة المصطفى «نظرة جديدة»، بيروت، دار التعارف، ١٩٩٦.

٢٣. الوحي والقرآن والنبوَّة، هشام جعيِّط، ط٢، بيروت، دار الطليعة، لبنان، ٢٠٠٠.

24. D'éléments pour l'immense majorité apocryphes et fréquemment contradictoires» 28.

25. Daniel, Islam and the west, «The creation of a legend of his life was 30 an important part of anti-Islamic polemic, and of the Christian approach to Islam».

26. Henri Lammens, Fâtima et les filles de Mahomet, notes critique.

27. La biographie touffue de Fâtima: composition hétérogène, Pour l'étude de la sîra, Roma: Pontif. Institutum Biblic 1912.

قراءة نقديَّة لكتاب (جدل التاريخ المتخيَّل؛ سيرة فاطمة) للكاتب التونسيّ بسَّام الجمل

الباحث نافع علوان صيوان الشَّاهين
مديريَّة ماء ذي قار

ملخَّص البحث

البحث محاولة لدفع الشبهات التي أثارها الكاتب التونسيّ الدكتور بسَّام الجمل على مولاتنا فاطمة، والتي وصفها الكاتب في خاتمة كتابه بأنَّها شخصيَّة باهتة، لم يكن لها أي دور في التاريخ!.

والكتاب مليء بالمتناقضات والمغالطات، وهو ضمن مشروع كبير يستهدف زعزعة ثقة النشئ بالقدوات والأسوات.

وسيكون البحث مكوَّن من مقدِّمة وثلاثة مباحث، يناقش **المبحث الأوَّل** منها سيرة حياة الكاتب د. بسَّام الجمل، ومناقشة مشروعه المتخيَّل في الإسلام، ودوافع هذا المشروع، وارتباطه بمؤسَّسة (مؤمنون بلا حدود)، وأهداف أمثال هذه المؤسَّسات والدراسات في حياة الأمَّة، واعتمد الباحث على المقالات والبحوث المنشورة في شبكة (الانترنت)؛ لندرة المصادر المكتوبة عن هذا المبحث.

أمَّا **المبحث الثاني** فخصَّصه الباحث لبيان نظرة إجماليَّة عن كتاب (جدل التاريخ والمتخيَّل؛ سيرة فاطمة) برؤية خاطفة لمحتوياته.

وكان **المبحث الثالث** مخصَّصًا لبيان بعض الأخطاء التاريخيَّة التي برزت في

صفحات الكتاب، والوقوف على هذه الأخطاء التي اعتمدها الكاتب ركيزة أساسيَّة لبحثه؛ ليوهم القرَّاء بصحَّتها، وصحَّة مشروعه المعرفيّ.

أمَّا **المبحث الرابع** فقد حاولنا فيه إبراز انعكاسات عقيدة الكاتب وإسقاطاته النفسيَّة على طيَّات كتابه، وبيان تأثُّره الواضح بالمستشرقين الذين هاجم جملة منهم عقائدنا ورموزنا بتخطيطٍ محكم، بما يسمِّيه بعض الباحثين بـ(المنهج الالتقاطيّ أو المنهج الإسقاطيّ).

وستلحق بالبحث خاتمة، وثبت بالمصادر.

وسنعتمد أمَّهات المصادر التاريخيَّة التي بيَّنت مقامات فاطمة الزَّهراء عليها السلام، وأشهر التفاسير القرآنيَّة من كتب الفريقَين، التي تشير لتلكم المناقب الجليلة لها، مع مجموعة من كتب المحدثين.

وهذا البحث محاولة جادَّة لدرء خطر الشبهات التي يحاول الخصوم دسَّها في أذهان الشباب، من خلال الطعن بالمقدَّسات، وتوهين القدوات، وإثارة الشبهات على القرآن وصاحبه وعترته وصحابته المخلِصين.

ومن الله التوفيق.

المقدِّمة

حظيت السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام بمقام رفيع عند جميع الطوائف الإسلاميَّة وكانت محلَّ احترام وتقدير وتقديس عندهم، وفيها كُتبت المئات من المجلَّدات والقصائد والروايات التي تشير لشرفها ومقاماتها ومركزيَّتها في نفوس الأمَّة، فهي بإجماع العلماء والمحقِّقين سيِّدة نساء العالمين من الأوَّلين والآخِرين.

وممَّا أثار استغراب الباحث أثناء مطالعته لأحد كتب المؤلِّف التونسيّ (د. بسَّام الجمل)، والذي حمل عنوان (جدل التاريخ والمتخيَّل؛ سيرة فاطمة)، كون الكتاب مليء بالمغالطات التاريخيَّة والشبهات العقائديَّة، فجاء هذا البحث (قراءة نقديَّة لكتاب جدل التاريخ والمتخيَّل للكاتب التونسيّ الدكتور بسَّام الجمل)؛ للردِّ على الكتاب، فالبحث محاولة لدفع الشبهات التي أثارها الكاتب التونسي على السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام، والتي وصفها الكاتب في خاتمة كتابه بأنَّها «شخصيَّة باهتة، لم يكن لها أي دور في التاريخ»!.

والبحث من أربعة مباحث، يناقش **المبحث الأوَّل** منها سيرة حياة الكاتب د. بسَّام الجمل، ومناقشة مشروعه المتخيَّل في الإسلام، ودوافع هذا المشروع، وارتباطه بمؤسَّسة (مؤمنون بلا حدود)، وأهداف أمثال هذه المؤسَّسات والدراسات في حياة الأمَّة، واعتمد الباحث على المقالات والبحوث المنشورة في شبكة (الانترنت)؛ لندرة المصادر المكتوبة عن هذا المبحث.

أمَّا **المبحث الثاني** فخصَّصه الباحث لبيان نظرة إجماليَّة عن كتاب (جدل التاريخ والمتخيَّل؛ سيرة فاطمة) برؤية خاطفة لمحتوياته.

وكان **المبحث الثالث** مخصَّصًا لبيان بعض الأخطاء التاريخيَّة التي برزت في صفحات الكتاب، والوقوف على هذه الأخطاء التي اعتمدها الكاتب ركيزة أساسيَّة لبحثه؛ ليوهم القرَّاء بصحَّتها، وصحَّة مشروعه المعرفيّ.

أمَّا **المبحث الرابع** فقد حاولنا فيه إبراز انعكاسات عقيدة الكاتب وإسقاطاته النفسيَّة على طيَّات كتابه، وبيان تأثُّره الواضح بالمستشرقين الذين هاجم جملة منهم عقائدنا ورموزنا بتخطيطٍ محكم، بما يسمِّيه بعض الباحثين بـ(المنهج الالتقاطيّ أو المنهج الإسقاطيّ).

وكانت المادَّة الأساسيَّة للبحث هي كتاب الكاتب نفسه، مع الاستفادة من المصادر التاريخيَّة التي بيَّنت مقامات فاطمة الزَّهراء عليها السلام مِن كتب الفريقَين، والتي تشير لتلكم المناقب الجليلة لها، مع مجموعة من كتب المحدثين التي تناولت سيرة السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام بشيء من التفصيل.

والبحث محاولة لدفع خطر الشبهات التي يحاول الخصوم دسَّها في أذهان الشباب، من خلال الطعن بالمقدَّسات، وتوهين القدوات، وإثارة الشبهات على القرآن وصاحبه وعترته وصحبه المخلصين.

ومن الله التوفيق.

المبحث الأوَّل

سيرة حياة د. بسَّام الجمل ومعالم مشروعه المعرفيّ

الدكتور بسَّام الجمل باحث وكاتب تونسيّ، حاصل على الدكتوراه في الآداب واللغة العربيَّة من جامعة (منوبة)، يشغل منصب أستاذ مساعد بكليَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة بصفاقس، ويشرف على التحكيم العلميّ لبحوث قسم الموروث الدينيّ بمؤسَّسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث[1].

صدرت له عدَّة مؤلَّفات وبحوث، منها:

- المقاربة الانثروبولوجيَّة للسيرة النبويَّة.
- من الرمز إلى الرمز الدينيّ.
- رمزيَّة اليد اليسرى في المتخيَّل الإسلاميّ.
- ليلة القدر في المتخيَّل الإسلاميّ
- كتاب أسباب النزول.
- كتاب الإسلام السنِّيّ[2].

ويبدو من كتاباته أنَّه مهتمٌّ ببحث المتخيَّل الدينيّ، وأنَّ تلك العلاقة بدأت تتوطَّد، وخاصَّة في مجال الإسلاميَّات، وقد استفاد الكاتب من وحدة البحث في المتخيَّل في كليَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة في جامعة صفاقس في الجمهورية التونسيَّة، التي كانت تنظِّم

(١) الموقع الإلكترونيّ لمؤسَّسة مؤمنون بلا حدود (www.mominoun.co).
(٢) د.بسَّام الجمل، جدل التاريخ والمتخيَّل، ص١٠.

جلسات حواريَّة شهريَّة حول المتخيَّل الدينيّ، وكان الكاتب مواظبًا على حضورها والاستفادة منها، والانتفاع من ملاحظات وتوجيهات مؤسِّسها في جامعة صفاقس الأستاذ فرج بن رمضان[1].

وينتمي الكاتب لمؤسَّسة (مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث)[2]، وهي مؤسَّسة تأسَّست بحسب موقعها الإلكتروني في أيَّار عام ٢٠١٣م، بعد ثورات الربيع العربيّ، وتتَّخذ من المملكة المغربيَّة مقرًّا لها، وللمؤسَّسة عدَّة إصدارات دوريَّة، منها (مجلَّة يتفكَّرون، مجلَّة الباب، مجلَّة ذوات، مجلَّة تأويلات)، وتُصدر المئات من الكتب في القضايا الدينيَّة المثيرة للخلاف الفكريّ والمعرفيّ، والتي توزَّع وتُباع في أغلب البلدان العربيَّة، وبعض الدول الأوربيَّة، وتصل مطبوعات المؤسَّسة إلى العراق، وتوزَّع في تسعة عشر مكتبة بمختلف محافظات البلد.

والمؤسَّسة تهتمُّ بتنشيط البحث المعرفيّ الرصين في الحقول الثقافيَّة والمعرفيَّة عمومًا، والدينيَّة خصوصًا، وتتكرَّس اهتمامات المؤسَّسة على دراسة منظومة الأفكار المؤسِّسة للعقل الثقافيّ الكلِّيّ في المنطقة، وتسعى لإلغاء التحيُّزات والفوارق العقائديَّة والعرقيَّة والثقافيَّة والدينيَّة والمذهبيَّة والطائفيَّة بما أسمته في مواقعها الإلكترونيَّة (إيمان بلا حدود)، معلِّلة ذلك بأنَّها تؤمن بأنَّ الإنسان أوسع من أن تُختصَر خيريَّته في دينٍ أو مذهبٍ أو طائفةٍ أو عِرق، وأنَّ كرامة الإنسان وسعادته تكمن في احترام حريِّته في التفكير والتعبير والاعتقاد.

وقد أثارت مقالات وإصدارات المؤسَّسة موجة من الانتقادات اللاذعة لها في البلدان العربيَّة، ممَّا دفع البرلمان الأردنيّ في عام ٢٠١٨ لمنع مؤتمر للمؤسَّسة مقرَّر إقامته في العاصمة الأردنيَّة عمَّان؛ لأنَّ المؤتمر، وبحسب المعارضين لإقامته من النوَّاب الإسلاميِّين يعدُّ صادمًا للمجتمع، فحصلت زوبعة سياسيَّة هناك، حيث اختفى رئيس

(١) د.بسَّام الجمل، جدل التاريخ والمتخيَّل، ص٢٢.

(٢) للمزيد راجع: موقع المؤسَّسة على الرابط (www.mominoun.co).

مجلس الأمناء للمؤسَّسة الأردنيّ يونس قنديل، ووجَّهت المؤسَّسة أصابع الاتِّهام لتيَّارات الإسلام السياسيّ، ثمَّ تبيَّن أنَّه أعدَّ مسرحية لاختطافه، بالتعاون مع ابن شقيقته؛ لإثارة الرأي العام الأردنيّ والعربيّ على التيَّارات الإسلاميَّة!.

وقد هاجم المؤسَّسة رجل الدين المغربيّ الشيخ أحمد الريسونيّ رئيس الاتِّحاد العالميّ لعلماء المسلمين، واصفًا المؤسَّسة بأنَّها تبدأ بالإيمان، وتنتهي بالإلحاد، محذِّرًا من الدَّور الخطير الذي تقوم به، أمَّا الدكتور المغربيّ محمَّد الهيلانيّ، فوصفها بأنَّها منظمة مدعومة من الإمارات لمحاصرة فكر التجديد، والردَّة على الربيع العربيّ.

وهاجم إبراهيم الطالب المؤسَّسة بقوله: مؤمنون بلا حدود محاولة للبس الحقِّ بالباطل، وكتمان الحقِّ عن علم ودراية؛ للوصول لهيمنة النظرة العلمانيَّة للكون والإنسان والحياة[1].

ومؤسَّسة (مؤمنون بلا حدود) تدعو لإعادة قراءة الوحي والتراث الدينيّ الإسلاميّ قراءة معلمنة منزوعة الفاعليَّة في شؤون الحياة، ونفي أي أبعاد قيميَّة وأخلاقيَّة في التفاعل الدينيّ، وهنا يكمن خطرها الحقيقيّ، فهذه المؤسَّسة ومؤسَّسات غيرها تحاول جاهدة سلخ انتماء الشباب العربيّ المسلم بعقيدته وقدواته بعدَّة فعَّاليَّات، منها التشكيك بأصل الدين، وهو القرآن الكريم، وتشهد الساحة الفكريَّة سجالًا محمومًا للطعن بالقرآن الكريم، بما يسمَّى بـ(بشريَّة الوحي)؛ لنزع قدسيَّته وتفريغه من أي إعجاز علميّ وبلاغيّ، والمحاولات طالت النبيّ الخاتمﷺ، الذي تعرَّض لهجمات متتالية، فصورته بعض الأقلام بأنَّه مجنون أو مختل عقليًّا أو أنَّه طالب للسلطة، وعاشقًا للدم، ومغرم بالنساء، وتوالت الهجمات لتنال من الرموز الإسلاميَّة لاشغال الشاب المسلم عن دينه ورموزه، ويطرحون له بالمقابل قدوات مزيَّفة كبعض نجوم هوليود ولاعبو كرة القدم وأمثالهم.

(١) مقال الكاتب أحمد رمضان (كيف تحاول الإمارات خلق إسلام على مقاسها)، موقع الجزيرة على الرابط: (www.aljazeera.net).

ولهذا الدور الخطير أشار عبد الرحيم المنار السليميّ[1] رئيس المركز الأطلسيّ للدراسات الإستراتيجيَّة والتحليل الأمنيّ، قائلًا: إنَّ (مؤمنون بلاحدود) ليست مؤسَّسة بحثيَّة علميَّة كما يُعتقد، بل هي ذراع اختراق إماراتيّ للمغرب، تلعب دورًا خطيرًا يستهدف الإسلام المغربيّ، مبيِّنًا أنَّ مؤسسة (مؤمنون بلاحدود) لها هدف واحد يتمثَّل في محاولة الحفر بأدوات تبدو ناعمة، ولكنَّها خطيرة في محيط الحقل الدينيّ المغربيّ بحجَّة العقل والحداثة.

وهو الهدف ذاته الذي حذَّر منه الكاتب أحمد رمضان في مقال له، قائلًا: إنَّ الهدف البعيد والعميق الذي ظهرت المؤسَّسة من أجله يتمثَّل في محاولة إيجاد وتشكيل نخبة أكاديميَّة تنتشر في كلِّ البلاد العربيَّة تتصدَّر المشهد الثقافيّ والعلميّ والصحافة سعيًا لتقديم فكر بديل عن الفكر الذي يقدِّمه أبناء ما يُسمَّى بـ(الإسلام السياسيّ)، وذلك بدعم إماراتيّ سخيّ، يوفِّر الإمكانات اللازمة للتحرُّك في الوطن العربيّ.

وردَّ الكاتبان عمَّار ما شاء الله وعليّ لفتة كريم على د. بسَّام الجمل في مقال لهما حمل عنوان (مؤمنون بلا حدود تنشر بحثًا يسيء إلى مقام فاطمة الزَّهراء)، واصفًا فيه (مؤسَّسة مؤمنون بلا حدود): بأنَّها تزرع الوهم والشكوك في نفوس المسلمين، وتعمل على إبعاد الناس عن مقوِّمات الدين الإسلاميّ[2].

هنا تكمن خطورة كتاب د. بسَّام الجمل (جدل التاريخ والمتخيَّل سيرة فاطمة)، ومشروعه الفكريّ والمعرفيّ المرتبط بالمؤسَّسة، وهي التي تكفَّلت بطباعة الكتاب ونشره وتوزيعه، كما مؤشَّر في بداية الكتاب بطبعته الأولى عام ٢٠١٦م، في مقرِّها بالرباط في المملكة العربيَّة المغربيَّة، والكاتب في كتابه سعى جاهدًا للتقليل من شأن

(١) مقال الكاتب تاج الدين العبدلاويّ (تجميد أنشطة مؤسَّسة مؤمنون بلا حدود في المغرب) على الرابط: (www.aa.com.tr/ar).

(٢) مقال الكاتب د.بسَّام الجمل (حول بحث فاطمة من التاريخ إلى المتخيَّل ردٌّ على ردٍّ) في موقع مؤسَّسة مؤمنون بلا حدود على الرابط: (www.mominoun.co).

فاطمة الزَّهراء عليها السلام، وتحجيم دورها في تاريخ الأمَّة إلى حدِّ قوله: بضمور حقيقة فاطمة، باعتبارها كائنا تاريخيًّا[1]؛ ليقلِّل من قيمة السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام المعرفيَّة المرتكزة بأذهان الأمَّة، ويزلزل منزلتها الكبيرة في وجدانهم وعقائدهم الصحيحة؛ ليلقي حجرًا يروم فيه تحريك السكون، وزعزعة الثقة بالقدوات، وإفراغ الساحة من الرمز، ضمن مشروع متكامل، فوصفها: بأنَّها لم تكن سوى شخصيَّة عاديَّة، سواء في حياة الرسول أم بعده، فلم يكن لها أي حظوة في وسطها الأسريّ الضيِّق، أم في وسطها الاجتماعيّ[2].

ثمَّ خلص في خاتمة كتابه إلى نتيجة مفادها: أنَّ فاطمة شخصيَّة باهتة، لم يكن لها أي دور في التاريخ، أو تأثير فيه، فسيرتها لم تخلُ من متاعب الحياة (فقر، جوع، مرض، علاقة زوجيَّة مضطربة..)، ومن تهميشٍ حتَّى من لدن أصحاب الرسول أنفسهم[3]. متَّهمًا علماء الفريقَين سنَّة وشيعة بأنَّهم أعادوا بناء سيرتها؛ لأنَّهم لم يرتضوا هذه السيرة التاريخيَّة الباهتة، فأوَّلوا أحداث التاريخ، وانتقلوا بسيرتها من الجفاف والتواضع إلى الثراء، كما تمثَّلوها وصوَّروها للأجيال[4].

(١) مقال الكاتب د.بسَّام الجمل (حول بحث فاطمة من التاريخ إلى المتخيَّل ردٌّ على ردٍّ)، ص١٩.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٧.
(٣) المصدر نفسه، ص١٨٨.
(٤) المصدر نفسه، ص٣٧.

المبحث الثاني

نظرة إجماليَّة في كتاب جدل التاريخ والمتخيَّل؛ سيرة فاطمة

كتاب (جدل التاريخ والمتخيَّل سيرة فاطمة) للدكتور بسَّام الجمل، صدر عن مؤسَّسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، بطبعته الأولى عام ٢٠١٦، في الدار البيضاء بالمملكة العربيَّة المغربيَّة، بـ(٢١٤) صحيفة من القطع المتوسِّط.

الكتاب بدأ بمقدِّمة مطوَّلة شملت الصحائف من ٩-٢٣، بيَّن فيها الكاتب الدوافع التي دعته للكتابة في سيرة السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام، والتي حدَّدها بأربعة أسباب[1]: السبب الأوَّل منها علاقتة الوثيقة وصلته بالمتخيَّل الدينيّ على حدٍّ وصفه، والثاني اقتصار الدراسات في سيرتها (سلام الله عليها) على دراسات تمجيديَّة، وأخرى استشراقيَّة، ممَّا دفعه كباحث لاختيار لون ثالث من الدراسات على حدِّ قوله، والسبب الثالث يعود لمحوريَّة فاطمة في التراث الإسلاميّ عند مختلف الفِرق الإسلاميَّة، ممَّا يعطيها زخمًا معنويًّا وتاريخيًّا كبيرًا، والسبب الرابع محاولة المؤلِّف الوقوف على علَّة كثرة المؤلَّفات عن فاطمة الزَّهراء عليها السلام، وعدم سيرها بوتيرة واحدة، كما يذكر هو في مقدِّمته.

وخصَّص الفصل الأوَّل من كتابه لدراسة سيرة السيِّدة فاطمة من التاريخ إلى المتخيَّل، والتي شملت الصحائف من ٢٤-٥٤، وتناول فيها عدَّة مباحث فرعيَّة، منها: فاطمة في رعاية الرسول، الانتقال من التاريخ إلى المتخيَّل، وغيرها.

(١) د.بسام الجمل، المصدر السابق، ص٩-٢٣.

أمَّا الفصل الثاني من كتابه، فتناول فاطمة في المتخيَّل الإسلاميّ، وشمل الصحائف من ٥٥-١١٤، ناقش فيه روايات ما قبل ولادة السيِّدة فاطمة عليها السلام، وانعقاد نطفتها، ثمَّ العروج على روايات ولادتها وزواجها، والتعرُّض لحياتها كزوجة وأم لمجموعة من الأطفال، وكراماتها ورؤاها (الأحلام)، ووفاتها وحضورها في يوم القيامة، وغيرها من المباحث الفرعيَّة.

وكان الفصل الثالث تحت عنوان صورة فاطمة جمع بصيغة المفرد، وشمل الصحائف من ١١٥-١٨٥، وفيه تحدَّث الكاتب بعدَّة مباحث فرعيَّة تناولت تجلِّيات صورة السيِّدة فاطمة عليها السلام، وآليَّات بناء هذه الصورة، وعلاقة تلك الصورة بالدلالات والوظائف.

وألحق كتابه بخاتمة شملت الصحائف من ١٨٧-١٩١، مشِيدًا فيها بنجاح رهانه في كتابه، معتبرًا كلَّ ماروي عن السيِّدة فاطمة عليها السلام ما هو الَّا تكاة اتَّكأ عليها المسلمون للإجابة عن تسأولاتهم حول الموت والقدر والجزاء وغيرها[1].

ويمكن تعريف الكتاب بإيجاز، بأنَّه محاولة جادَّة قام بها الكاتب، مستعينًا بأدوات البحث الأكاديميّ لالتقاط روايات متناثرة هنا وهناك في كتب المسلمين؛ للانتصار لمشروعه المعرفيّ، وقد وضع نتائج دراسته سلفًا، واستعان بالروايات، وبحبكة محترفة منه، مع مزاوجة الروايات بالدراسات الاستشراقيَّة، والدراسات الأكاديميَّة الحديثة؛ للوصول لنتائجه التي كتب الكتاب من أجلها، والتي تحوَّلت من حلم إلى حقيقة، والتي عبَّر عنها في آخر أسطر من كتابه، مستشهدًا بقول للباحثة فاطمة المرنيسيّ، التي تنقل عن الشاعر الفرنسي فيكتور هيجو الحالم بالملك عام ١٨٢٨، وقد تحقَّق حلمه عام ١٨٣٠، بسقوط الجزائر بيد الجيش الفرسيّ، وهي علاقة وثيقة بين الأحلام الظاهريَّة لشاعر، والحسابات الدقيقة للمخطِّطين العسكريِّين[2].

(١) د.بسام الجمل، المصدر السابق، ص١٩٠.

(٢) المصدر نفسه، ص١٩١.

المبحث الثالث

الأخطاء التاريخيَّة في كتاب جدل التاريخ والمتخيَّل

حفلت صفحات كتاب د. بسَّام الجمل (جدل التاريخ والمتخيَّل سيرة فاطمة) بجملة من الأخطاء التاريخيَّة، ومثل هذه الأخطاء الفادحة تبيِّن خللًا منهجيًّا في التحقيق التاريخيّ عند الكاتب، وهو المتصدِّي للخوض في أعقد القضايا التاريخيَّة، حيث فاجأنا في مقدِّمة كتابه بقوله: إنَّ المعلومات المتوافرة عن حياة فاطمة قليلة من منظور تاريخيّ علميّ، ولكن حجم الأخبار المتعلِّقة بترجمتها من وجهة نظر تمجيديَّة احتفاليَّة كثيرة جدًّا[1]. معتبرًا كلَّ الأرشيف التاريخيّ الخاصِّ بمناقب ومقامات السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام هو تمجيديّ! نافيًا المئات من الروايات والحقائق التي أبرزت مقامها بجرَّة قلم، ودون أدنى جهد، وهي التي امتلأت بها كتب التفسير والتاريخ، وقد أحصى أحد الباحثين[2] ثمان وأربعون آية إشارة لمناقب السيِّدة فاطمة بإجماع مفسِّري الفريقَين، وهذه المنهجيَّة في البحث تجعلنا أمام أمرَين، الأوَّل: هو عدم قدرة الكاتب على الاستقصاء الكامل لكتب التاريخ، وقد كُتب عنها ٢٤٠١ كتاب مستقل يختصُّ بجوانب حياتها المختلفة، وقد كُتبت بـ(٢٧) لغة حيَّة[3].

والتفسير والثاني: تعمُّد الكاتب التقاط روايات ضعيفة مبثوثة هنا وهناك في طيَّات كتب الأقدمين، تتلائم ونزعته النفسيَّة ومنهجه البحثيّ القائم على نزع القدسيَّة من

(١) د.بسام الجمل، المصدر السابق، ص٢٣.
(٢) انتصار العوَّاد، السيِّدة فاطمة الزَّهراء دراسة تاريخيَّة، ص٣٤٧-٣٨٧.
(٣) المصدر نفسه، ص١٢.

السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام، وقد صدق القائل: إنَّ كلَّ باحث في حياة فاطمة يكيلها بكيل نفسه، ويغترف منها بقدر كفِّه[1].

ونشير لأبرز الأخطاء التاريخيَّة والمنهجيَّة التي حفل بها كتابه في عدَّة نقاط:

١. **قوله:** لئِن اختلف القدامى في ضبط تاريخ ولادة فاطمة، فإنَّهم اتَّفقوا على ما كان لها من أشقَّاء وشقيقات[2].

وموضوع عدد أولاد خديجة ليس محلّ إجماع تأريخيّ، بل محلّ جدل واختلاف لا يخفى على كلِّ متابع، وجَزمُ الكاتب يؤشِّر لتسرُّعه بإصدار الأحكام حتَّى في القضايا التاريخيَّة المثيرة للجدل.

٢. **قوله:** والحقُّ أنَّنا لا نعثر على أسباب صريحة تفسِّر عزوف شباب أهل مكَّة خاصَّة عن التقدُّم لخطبة ابنة الرسول، وربَّما لم تكن فاطمة على حظٍّ كافٍ من الجمال الذي يطلبه شباب قريش من الفتاة، بمقاييس الجمال المرغوب فيها بذلك الوقت[3].

وهذه جناية عظيمة اقترفها الكاتب، وموضوع تقدُّم الأشراف لخطبة فاطمة امتلأت به كتب الأقدمين والمحدثين، وقد تقدَّم لخطبتها أبي بكر وعمر وعبد الرحمن ابن عوف ورجال من المهاجرين[4]. أمَّا إثارة موضوع جمال فاطمة، وتعمُّد الكاتب وضع كلمة (ربَّما) أمام أحجاره التي يحاول بها تحريك الأنهار الجارية؛ لتشويش ذهن المتلقِّي، وقد وصفت الروايات أبوها رسول الله صلى الله عليه وآله: كان أبيض الوجه مشربًا بحمرة، أدعج العينَين، مقرون الحاجبَين، كأنَّه وسط الفضَّة المصفَّاة، وكأنَّ عنقه إلى كاهله إبريق فضَّة، لم يُرى مثل نبيّ الله قبله ولابعده[5]، والولد على سرِّ أبيه حتَّى في الجمال.

(١) الهمدانيّ، فاطمة الزَّهراء بهجة قلب المصطفى، ص٥.
(٢) د.بسام الجمل، المصدر السابق، ص٢٥.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٦.
(٤) اليعقوبيّ، تاريخ اليعقوبيّ، ج٢، ص٢٧.
(٥) الحسنيّ، سيرة المصطفى، ص٦٣.

٣. **قوله**: ربَّما كانت خديجة على دين النصرانيَّة، مثل ابن عمِّها ورقة بن نوفل[١].

ببراءة كبيرة يحاول الكاتب أن يتخفَّى وراء كلمة (ربَّما)، ويثير قضيَّة بدأ التأصيل لها هذه الأيَّام، وبدأت تظهر للعلن في كتابات العديد من المستشرقين، وهي تلقِّي النبيّ علومه عند مسيحيِّي مكَّة، وعلى رأسهم القس ورقة بن نوفل، الذي تنصَّرت على يديه زوجة النبيِّ الخاتم صلى الله عليه وآله، وبالتالي فإنَّ ثقافة الرسول صلى الله عليه وآله وجذوره مسيحيَّة، وربما يجرُّهم القول لبشريَّة الوحي التي راجت في كتابات بعض الحداثويِّين العرب والمستشرقين، كما لا يخفى عليكم[٢]. والقول بتنصُّر السيِّدة خديجة قولٌ مجافٍ للحقيقة التاريخيَّة، ولا توجد أي إشارة له من قريب ولا من بعيد في المصادر التأريخيَّة.

٤. **قوله**: إنَّها لم تتمكَّن من مداواة الجرح النفسيّ العميق الذي سبَّبه لها ذلك الفقدان- فقدان والدها- ولعلَّه كان من دوافع هلاكها بعد فترة قصيرة من وفاة أبيها[٣].

وهنا يحاول الكاتب أن يُسدي خدمة مجَّانيَّة لخصوم السيِّدة فاطمة عليها السلام الذين غصبوا الخلافة من بعلها، واسقطوا جنينها، واحرقوا دارها، وعجَّلوا بشهادتها، ويجعل سبب وفاتها عوامل نفسيَّة! وهو قول لا يستقيم مع الحقيقة التي صرَّحت بها المصادر التأريخيَّة القديمة[٤]، بأن شهادتها وهي بعمر الزهور ومن غير علَّة، يفتح الباب أمام جريمة لا يُسدَل دونها الحجاب، ولا تغطِّيها أقلام المأجورين بأنَّها كانت بفعل فاعل آثم.

٥. **قوله**: وتشير بعض الروايات إلى أنَّ عليًّا كان يعاملها بشدَّة وقسوة، وربَّما انقطعت بينهما لغة الحوار والتواصل في أكثر من مناسبة[٥].

(١) د. بسَّام الجمل، المصدر السابق، ص٢٤.
(٢) للمزيد يراجع: كتاب ردِّ الشبهات دفاعًا عن النبيّ، الشيخ ليث العتابي.
(٣) د. بسَّام الجمل، المصدر السابق، ص٣٣.
(٤) الدينوريّ، كتاب تاريخ الخلفاء أو الإمامة والسياسة، ص٢٣.
(٥) د. بسَّام الجمل، المصدر السابق، ص٣٠.

وقوله: بحث عليّ عن مغامرات عاطفيَّة خارج إطار الزواج، وهذا ما أتاه مع جارية كانت قائمة على خدمته في بيت فاطمة[١].

وهذاه الأقوال غير ثابتة تأريخيًا، وهي ممَّا التقطه الكاتب من روايات ضعيفة تعضيدًا لمنهجه الذي يحاول فيه الإساءة للقدوات والرموز، ونزع القدسيَّة حتَّى عن بيت فاطمة وعليّ، الذي شهد له الجميع، حتَّى الخصوم، بأنَّه بيت وئام وانسجام، وهي التي أجابت لمن سألها عن عليّ عليه السلام: **إنَّه خير زوج ونِعم العون على طاعة الله**[٢]، وهو القائل سلام الله عليه: **ولقد كنت أنظر إليها، فتنكشف عنِّي الهموم والأحزان بنظري إليها**[٣]. ولقد ناقش باحث معاصر[٤] جملة من الروايات التي استشهد بها د. بسَّام الجمل، التي يؤكِّد فيها، بحسب زعمه، على أنَّ بيت عليّ وفاطمة مليء بالمشاكل الزوجيَّة والخصام، فأبان سقمها، وعدم استقامتها من حيث السَّند والدلالة، والغريب أنَّ بعضها مرويٌّ عن معاوية بن أبي سفيان!.

٦. **قوله**: ومن المرجَّح عندنا أنَّ الخطبة التي ألقتها فاطمة أمام أبي بكر بحضور جمع من الصحابة منسوبة إليها، وأنَّها ثُبِّتت لها في زمن متأخِّر لا يمكن تعيينه بدقَّة[٥].

والباحث التاريخيّ لا يكتفي بإثارة الإشكال فقط، فما أكثر الإشكالات على أمَّهات الحقائق التاريخيَّة والعقائديَّة، والأمر مُتاح للباحثين ولإنصاف الباحثين! بل يُفترَض بالمحقِّق أن يُثير الإشكال، ويضع الأجوبة المحتمَلة له؛ لتوضَّح الصورة عند المتلقِّي والقارئ، ومحاولة د. بسَّام الجمل بالتشكيك بخطب السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام دون إثبات نسبتها لشخص أو تعيين زمن لها، تفتح الباب لتساؤلات عدَّة عن منهج متعمَّد

(١) د. بسَّام الجمل، المصدر السابق، ص٣١.
(٢) الخوارزميّ، المناقب، ص٣٥٣.
(٣) الأربلِّيّ، كشف الغمَّة، ج١، ص٣٧٢.
(٤) انتصار العوَّاد، المصدر السابق، ص١٩٩، ٢٢٣.
(٥) د. بسَّام الجمل، المصدر السابق، ص٣٦.

انتهجه الباحث؛ لتشويه صورة السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام، والتشكيك بكلِّ ما يمتُّ بصلة لها، والخطبة يرويها ابن طيفور في بلاغات النساء، وابن قتيبة في غريب الحديث، والقاضي المغربيّ في شرح الأخبار، والزمخشريّ في الفائق في غريب الحديث، والزبيديّ في تاج العروس، وابن منظور في لسان العرب، وابن الأثير في منال الطالب، وسبط ابن الجوزيّ في تذكرة الخواص، والشريف المرتضى في الشافي في الإمامة، وابن طاووس في الطرائف، وآخرون.

٧. **قوله**: إنَّ الشيعة يحتفلون بمولد فاطمة يوم ٢٠ رمضان من كلِّ سنة قمريَّة، مع وجود احتفال تمهيديّ يسبقه يُقام يوم ١٥ من شهر شعبان، وهو التاريخ الموافق لميلاد المهدي الفاطميّ، وتاريخ وفاة سلمان الفارسيّ، والمعروف عند الإماميَّة الاثنا عشريَّة بـ(ليلة البراءة)[١].

وهذا الكلام عجيب صدوره من شخص يتولَّى منصبًا أكاديميًّا رفيعًا في جامعة تونسيَّة عريقة، ويدلُّ سَقَم كلامه على عدم اطِّلاعه البتَّة على تقاويم وتواريخ الشيعة، فالقاصي والداني يعرف أنَّ يوم٢٠ رمضان هو موعد احتفال الشيعة بأيَّام شهادة الإمام علي عليه السلام، وبالحزن والبكاء واللطم، وليس بالاحتفال بولادة السيِّدة فاطمة عليها السلام، ولا علاقة للسيِّدة فاطمة عليها السلام بالمناسبة، كما أنَّ ليلة (البراءة)، كما أسماها هو، لا وجود لها في قواميس وتواريخ الشيعة، وهي من ابتداعات كاتبنا الموقَّر، وهذا يدلُّ بوضوح أنَّ الكاتب بعيد كلَّ البُعد عن الشيعة الإماميَّة واحتفالاتهم، وبالتالي أطلق لقلمه العنان أن يعبث بتاريخ الطائفة ورموز المسلمين كيفما يحلو له، دون تحقيقٍ علميٍّ رصين.

٨. **قوله**: من تمام أركان شعائر الحجِّ لدى الشيعة الإماميَّة زيارة بيت فاطمة في المدينة المنوَّرة، المشهور عندهم بـ(بيت الأحزان)، فضلًا عن زيارتهم قبر النبيّ[٢].

---

(١) د. بسَّام الجمل، المصدر السابق، ص١٣٢.

(٢) المصدر نفسه، ص١٢٨.

والقول غريب، ولا مستند عقائديّ أو شرعيّ عليه، والموسوعات الشيعيَّة الفقهيَّة في مناسك الحجِّ والعمرة ناهزت الألف، ولا يوجد كتاب واحد يعتبر زيارة السيِّدة فاطمة عليها السلام من الشعائر وأركان الحجِّ، والشيعة كغيرهم من المسلمين يتبرَّكون بزيارة قبر النبيِّ الخاتم صلى الله عليه وآله في المدينة المنوَّرة، والصلاة والدعاء في مسجده المبارك، وزيارة السيِّدة فاطمة وأمَّهات المؤمنين وشهداء بدر وأُحد، والمدفونون في مقبرة البقيع بعنوان الاستحباب، وليس كجزء من شعائر الحجِّ.

٩. **قوله**: وبحسب رواية المفيد في حدائق الرياض التي أوردها المجلسيّ فإنَّه يستحبُّ أن يصوم المسلمون في ذكرى وفاة فاطمة الموافقة للحادي والعشرين من محرَّم[١].

ويوم ٢١ محرَّم هو يوم زفاف السيِّدة فاطمة عليها السلام، كما اختار ذلك الشيخ المفيد[٢]، وليس يوم وفاتها، كما أنَّ الموسوعات الفقهيَّة الشيعيَّة ذكرت وبالتفصيل في باب الصوم المستحبِّ الأيَّام المستحبَّة الصيام طوال العام، ولم تُشِر لا من قريب ولا من بعيد لصيام يوم ٢١ محرَّم باعتباره ذكرى وفاة السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام[٣].

١٠. **قوله**: إنَّ يوم الثامن من المحرَّم يخصِّصه الشيعة لذِكر فاطمة في تعازي محرَّم الحرام، والثامن مخصَّص لزواج عليّ من فاطمة[٤].

وهذا الأمر غريب جدًّا، والقاصي والداني يعرف أنَّ محرَّم الحرام مخصَّص لاستذكار نهضة الإمام الحسين عليه السلام، ومصارع أهل بيته وأصحابه بشيء من النَّوح والبكاء والرِّثاء، وتُذكر السيِّدة فاطمة عليها السلام في محرَّم الحرام باعتبارها المعزَّاة بولدها وحفيد النبيِّ

(١) د. بسَّام الجمل، المصدر السابق، ص١٨٤.
(٢) حيدر اليعقوبيّ، التقويم النافع، ص٣٤.
(٣) حيدر اليعقوبيّ، غاية المتفقِّهين في أحكام الدين، ج٢، ص٤٧٥-٤٨٠.
(٤) د. بسَّام الجمل، المصدر السابق، ص١٤١.

الخاتم صلى الله عليه وآله، ولايخصِّص الشيعة اليوم الثامن من شهر محرَّم الحرام لزواج الإمام عليّ عليه السلام من السيِّدة فاطمة عليها السلام.

واسترسل الكاتب في توهُّماته، وأطلق لقلمه العنان دون أدنى معرفة بعقائد الشيعة وطقوسهم وشعائرهم، فقال: إنَّ الكلام عن فاطمة امتدَّ على نصف مدَّة احتفالات التعازي (خمسة من مجموع عشرة)[1]، في شهر محرَّم الحرام.

وهو قولٌ غريبٌ منه أيضًا.

(١) د. بسَّام الجمل، المصدر السابق، ص١٤١.

المبحث الرابع

المنهج الإسقاطيّ والالتقاطيّ في كتاب بسَّام الجمل

يكتشف القارئ لكتاب د. بسَّام الجمل (جدل التاريخ والمتخيَّل سيرة فاطمة)، منهجه الإسقاطيّ والالتقاطيّ في طيَّات كتابه وبسهولة، والتي تبدو واضحة للعيان، وإن حاول هو إخفائها، وممَّا سجَّلناه عليه من إسقاطات نفسيَّة ومحاولات التقاطيَّة، يندرج بعدَّة نقاط، منها:

١. تأثُّره الواضح بالمستشرقين، وخاصَّة هنري لامنسن، ولوي ماسينيون، وقد أشاد بهما، واصفًا دراسة لامنسن عن السيِّدة فاطمة عليها السلام بأنَّها وفرَّت للباحثين مادَّة في شأن فاطمة أقرب إلى الحقيقة التاريخية[١]! وأبدى انبهاره ببحوث ماسينون، قائلًا: إنَّ الإضافة المعرفيَّة التي حقَّقتها هذه الاعمال حقيقة لا يمكن إنكارها والتهوين من قيمتها[٢].

وقد حذا حذو ماسينيون في مناقشته لاحتفالات الشيعة بمولد السيِّدة فاطمة عليها السلام في إيران والعراق، ووجه المقارنة بين فاطمة ومريم العذراء، واعتمد تلكم المباحث مادَّةً أساسيَّةً في كتابه[٣].

وقد حاول هو نفي هذه الشبهة عنه في مقالٍ له، ولكنه في نفس كلام النفي

(١) د. بسَّام الجمل، المصدر السابق، ص١١.

(٢) المصدر نفسه، ص١٢.

(٣) المصدر نفسه، مبحث فاطمة في الاحتفالات والتعازي، ص١٣٢ ومابعدها، ومبحث المحاكاة والنمذجة، ص١٤٣ ومابعدها.

أبدى إعجابه بمناهج المستشرقين، قائلًا: إنَّ العديد من الدراسات الاستشراقيَّة التي كُتبت عن فاطمة جديرة بالقراءة والمتابعة، وتحلَّى أصحابها بالرصانة والآراء الثاقبة، وهي مواقف بعيدة عن كلِّ أشكال التطرُّف والتعصُّب أو التحامل على عقائد أهل الإيمان[1].

والغريب أنَّه تابع ماسينيون في قوله الافتراضيّ بوجود حفل يقيمه الشيعة باسم (عروسيَّة فاطمة)، وأحيانًا (عروسيَّة قريش)، ولم يحدِّد له يومًا، بل قال: أنَّه لا يُحتفَل به بيومٍ محدَّد، بل يُقام في اليوم الذي يُراد فيه شكر الله بوساطة فاطمة على قبول النذر[2]، وهي من توهُّمات ماسنيون، وتابعه الجمل دون بحثٍ وتقصٍّي!.

والموضوع من صنعهما، ونحن بين أظهر الشيعة منذ عقود، فلم نعهد للطائفة حفلًا بهذا الاسم، ولو كان لبان كما قيل في الأثر.

والغريب أنَّه اعتمد على ستٍّ وخمسون مصدرًا أجنبيًّا ضمن مصادر الكتاب؛ لتعريف الأمَّة بسيرة فاطمة الزَّهراء عليها السلام! وربَّما كانت اقتباساته من مصادر المستشرقين أكثر ممّا أخذ من مصادرنا المعتبرة، والكتاب، بلا أدنى شكٍّ، هو مرآة عاكسة لآراء المستشرقين، وخاصَّة هنري لامنسن وماسينيون، ولكنَّه أعاد فقط صياغتها بأسلوب جديد، وضمَّنها كلمات أجنبيَّة ضمن طيَّات الكلام؛ لتكون أقرب للمناهج الأكاديميَّة الحديثة، لتكون أكثر جاذبيَّة للقرَّاء.

٢. ظهرت انعكاساته النفسيَّة وإسقاطاته واضحة في مبحث أسماه هو (الأنثويّ الخلَّاق أو المؤنَّث الأبـديّ)[3]، مؤكِّدًا أنَّ المنزلة التي حظيت بها فاطمة تؤكِّد أهميَّة الأنثويّ الخلَّاق في اللاوعي الجمعيّ الإسلاميّ، خاتمًا المبحث بعبارة للمستشرقة

(١) مقال الكاتب د. بسَّام الجمل (حول بحث فاطمة من التاريخ إلى المتخيَّل ردٌّ على ردٍّ) في موقع مؤسَّسة مؤمنون بلا حدود على الرابط (www.mominoun.co).

(٢) د. بسَّام الجمل، المصدر السابق، ص١٣٣.

(٣) المصدر نفسه، ص١٧٨-١٨١.

الألمانيَّة آنا ماري شيِّمل مفادها: إنَّ الإسلام بصيغة المؤنَّث.

وهو تناقض واضح منه، فهو يؤكِّد في كتابه أنَّ سرَّ تأثُّر المسلمين بالسيِّدة فاطمة عليها السلام لا لأنَّها ابنة الرسول فقط، بل لأنَّها أنثى وسط مجتمع ذكوريّ! وهو كلام غير مستقيم، ولايصدر من باحث أكاديميّ كامل الأهليَّة العلميَّة، مع العلم أنَّه وأمثاله من الباحثين يتصارخون ليلَ نهار عن حقوق المرأة ومظلوميَّتها، وأنَّ الإسلام غمط حقَّها وقيَّد حريَّتها، فعاشت تحت نَير الجهل والتعسُّف والظلم، وهذه المنهجيَّة ملتوية، يحاول فيها الكاتب إظهار قناعاته النفسيَّة على تاريخ أمَّة جليلة ودين شريف وشخصيَّات منيفة، وهو نفسه أبدى إعجابه في طيَّات كتابه بالعالم المثير للجدل (فرويد)، ووصفه: بأنَّه مصيبٌ في تقديرنا في تحليل أحلام العُري[1]!.

وهذه الشبهة تعرَّض لها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ (الإسراء: ٤٠)، وهو قولٌ عظيمٌ في شناعته وبشاعته، وفي جرأته ووقاحته، وفي ضخامة الافتراء فيه[2].

٣. منهجيَّته في الكتاب غير تامَّة في البحث والاستقصاء، وهذا يتبيَّن لكلِّ من يقلِّب صفحات الكتاب، ويتمعَّن فيها، وهو نفسه أشار لذلك في عدَّة مواضع من الكتاب، من قبيل قوله: إنَّ قراءة الواحد من الكتب القديمة مثل بحار الأنوار تُغني عن سواها[3]، وأعلن عن عدم تماميَّة استقصائه للروايات، بقوله: ولم يكن أمامنا سوى اختيار عيِّنات من الروايات؛ لنتعرَّف من خلالها على صورة فاطمة في المتخيَّل الإسلاميّ[4]، ثمَّ يقرُّ بأنَّ المادَّة النصيَّة التي درسها محدودة الكمِّ والمضمون[5].

(١) د. بسَّام الجمل، المصدر السابق، ص١٢٦.
(٢) سيِّد قطب، في ظلال القرآن، ج١٥، ص٢٢٣٠.
(٣) د. بسَّام الجمل، المصدر السابق، ص١٣.
(٤) المصدر نفسه، ص٥٦.
(٥) المصدر نفسه، ص٦١.

وبالتأكيد تكون الدراسة غير تامَّة، وتكون نتائجها غير واقعيَّة، ولا يخفى أنَّه تعمَّد هذا المنهج الالتقاطيّ ليوافق النتائج التي وضعها سلفًا قبل الخوض في الدراسة، ولذا عَمدَ لأخذ روايات قليلة، ولم يبحث عن سندها، ولم يُخضِعها للتحليل العلميّ، واستدلَّ بها على صحَّة متبنَّياته التي جارى فيها بعض المستشرقين؛ ليشوِّه صورة السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام، وينسب لها الكثير من الغرائب، كمحاولته في الفصل الأوَّل إثبات سوء العلاقة الأسريَّة بين الإمام عليّ عليه السلام، والسيِّدة فاطمة عليها السلام[1]، ومحاولة إثبات وجود الخلافات، رغم إقراره بعدم حصول الانفصال الأسريّ بينهما، ووجود خمسة من الأبناء، وعدم زواج الإمام عليّ عليه السلام عليها حتَّى بعد وفاة أبيها، ولم يفرِّق بينهما شيء إلَّا شهادتها سلام الله عليها.

٤. يبدو أنَّ الكاتب لايؤمن بدين معيَّن أو مذهب محدَّد، لذا بدا متأثِّرًا في كتابه بجملة من العقائد، والغريب أنَّه وظَّفها كلَّها للحطِّ من صورة السيِّدة فاطمة عليها السلام المشرقة في ذاكرة الأمَّة الإسلاميَّة بتعدُّد مذاهبها، وبعض تلكم العقائد متقاطعة، ولكنَّه دسَّها في كتابه؛ لتحقيق مبتغاه، ويمكن تلمس ذلك في:

- قوله: إنَّ الشاهدَين على زواج فاطمة من عليّ كانوا من الملائكة[2]، وهي عقيدة أهل السنَّة في الزواج، فلا يشترط الشيعة وجود الشاهدَين بعقد الزواج، والعقد صحيح بدونهما، واشترطا وجودهما عند الطلاق.
- استعانته بأقوال ابن حزم الوهابيّ المذهب في طيَّات كتابه للمقارنة بين السيِّدة فاطمة عليها السلام، وعائشة زوجة النبيِّ الخاتم صلى الله عليه وآله، والذي استنتجه من تلكم المفاضلة قوله: إنَّ المقارنة بين فاطمة وعائشة لا تخلو من نديَّة وتكافؤ في المواجهة بين الجانبَين الشيعيّ والسنِّيّ[3].

(١) د. بسَّام الجمل، المصدر السابق، ص٢٦-٣٢.
(٢) المصدر نفسه، ص٧٣.
(٣) المصدر نفسه، ص١٥٢.

- إشارته للمذهب النصيريّ الإسماعيليّ في إطلاق اسم الأم العذراء على السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام، وأنَّ لها نصًّا مقدَّسًا اسمه أمُّ الكتاب[1].

وكان الجامع في كلِّ اقتباساته من مختلف المذاهب، هو اختيار الروايات التي تحطُّ من شخصيَّة السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام؛ انتصارًا لمشروعه المعرفيّ.

(١) د. بسَّام الجمل، المصدر السابق، ص١٦٥.

نتائج البحث

١. من النتائج التي توصَّل لها الباحث، هو التعريف بخطر أمثال هذه الدراسات الحديثة للتاريخ الإسلاميّ، والتي عكف عليها الكاتب د. بسَّام الجمل ضمن مشروع كبير تقوده (مؤسَّسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث)، والتي حذَّرت العديد من المراكز العلميَّة والشخصيَّات الدينيَّة من خطرها على الأمَّة، وهي ضمن ما يسمَّى اليوم بالحرب الناعمة.

٢. تنبيه القارئ الكريم للكثير من الأخطاء التاريخيَّة التي وقع بها الكاتب، جهلًا أو عمدًا، وكلاهما مخلٌّ بالبحث العلميّ وبالنتائج التي قطع صاحب الكتاب بها، والتنبيه لهذه الأخطاء يفتح بصيرة الشابِّ المسلم بعدم التسليم المطلق لكلِّ كلامٍ منمَّقٍ ومحبوك، فالكثير يدسُّ سمومه في طيَّات كتبه بأسلوب بلاغيّ، وبَنَفسٍ أكاديميّ؛ لتحقيق غاياته وأهدافه.

٣. أبرز البحث الإسقاطات النفسيَّة والالتقاطيَّة للكاتب، والتي عكسها بكتابه، والتي ظهرات للعيان عند قراءة الكتاب بتأمُّل، وربَّما بعض النصوص والسطور نقلها دون تحقيقٍ علميّ من كلام بعض المستشرقين، وكان دوره فقط تحويلها من لغتها الأم للغة العربيَّة، وسلَّم بنتائجها دون مناقشة، وأغلب الكتَّاب الحداثويُّون ينقلون بلا تحليل كلام بعض المستشرقين، وبعضهم ينسبه له، لعدم اطِّلاع القرَّاء على كتاباتهم بلغات شتَّى، ورأى الباحث ضرورة التنبيه لهذا المنهج الالتقاطيّ، وتحذير القرَّاء منه، ومِن روَّاده، وهم كثيرون،

وقد راجت ثقافة النسخ واللصق والالتقاط، وقد وقع مثقَّفوا المغرب العربيّ في حبالها، وامتدَّت أيديهم لتراث علماء الشيعة بعمليَّة ممنهجه، كشفها أحد الباحثين العراقيِّين[1]، في كتابٍ أحدث ضجَّة في المغرب العربّي، والمنتديات العلميَّة.

(١) يراجع في هذا الصدد: كتاب (السرقات التي صارت كتبًا)، للباحث العراقيّ ليث العتَّابيّ.

المصادر

١. د. بسَّام الجمل، جدل التاريخ والمتخيَّل سيرة فاطمة، مؤسَّسة مؤمنون بلا حدود، المملكة المغربيَّة، الرباط، ط١، ٢٠١٦م.
٢. انتصار العوَّاد، السيِّدة فاطمة الزَّهراء دراسة تاريخيَّة، مؤسَّسة البديل، بيروت، لبنان، ط١، م٢٠٠٩.
٣. هاشم معروف الحسنيّ، سيرة المصطفى، دار الكوخ للطباعة والنشر، ٢٠٠٨م/ ١٤٢٨هـ.
٤. حيدر اليعقوبيّ، التقويم النافع في التذكير بالمناسبات والوقائع، مؤسَّسة البديل، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٢م.
٥. حيدر اليعقوبيّ، غاية المتفقِّهين في أحكام الدين، مؤسَّسة التاريخ العربيّ، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠١٣م/ ١٤٣٤هـ.
٦. ليث العتَّابيّ، السرقات التي صارت كتبًا، مركز عين للدراسات، النجف الأشرف، ط١، ٢٠٢٩م/ ١٤٤٠هـ.
٧. ليث العتَّابيّ، ردُّ الشبهات عن النبيّ، مركز عين للدراسات، النجف الأشرف، ط١، ٢٠١٦م/ ١٤٣٨هـ.
٨. ابن قتيبة الدينوريّ، تاريخ الخلفاء أو الإمامة والسياسة، مؤسَّسة الأعلميّ، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٦م/ ١٤٢٧هـ.
٩. أحمد الرحمانيّ الهمدانيّ، فاطمة بهجة قلب المصطفى، مطبعة أوفست شفق، قم المقدَّسة، إيران، ط٣، ١٤٢٠هـ.

١٠. أحمد بن إسحاق اليعقوبيّ، تاريخ اليعقوبيّ، دار الاعتصام، ط١، ١٤٢٥هـ.

١١. أبو الحسن عليّ بن عيسى الإربلِّيّ، كشف الغمَّة في معرفة الأئمَّة، دار الأضواء، بيروت، ط٢، ١٩٨٥م.

١٢. أبو المؤيَّد الخوارزميّ، المناقب، مؤسَّسة النشر الإسلاميّ، قم المقدَّسة، إيران، ١٤٢١هـ.

١٣. سيِّد قطب، تفسير في ظلال القرآن، دار الشروق، ط٣٤، ٢٠٠٤م/ ١٤٢٥هـ.

المواقع الالكترونيَّة:

١٤. الموقع الالكترونيّ لمؤسَّسة مؤمنون بلا حدود (www.mominoun.co).

١٥. موقع الجزيرة (www.aljazeera.net).

١٦. موقع الأناضول (www.aa.com.tr/ar).

بنية الحجاج في أحاديث النبيّ محمَّد صلى الله عليه وآله التي روتها السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام في ضوء لسانيَّات الخطاب

م. د. ميثم صدَّام شاطي العطوانيّ
مدرِّب معتمد/ وزارة النفط/ شركة توزيع المنتجات النفطيَّة

ملخَّص البحث

لا يخفى على المتتبِّع ما في الـدرس الحجاجيّ من الأهميَّة، فهو درس قديم وحديث في آنٍ واحدٍ، إذ نجد جذوره عند اليونانيِّين والقدامى، بدأً من الفلاسفة والسفسطائيِّين، مـرورًا بتراثنا العربيّ القديم، إذ يتجاذبه أهـل الملل والعقائد واللغويِّين والمناطقة وغيرهم، وقد نال العناية الكبيرة في العصر الحديث، ولعلَّ من أوائـل من عَنيَ بالحِجَاج عند الغربيِّين في العصر الحديث (بيرلمان) وزميلته (تيتكاه).

ولعلَّ كلَّ متكلِّم غرضه الأوَّل هو التأثير في المتلقِّي، وحمله على الإذعان بما يريده الباث، وقد عرضنا في البحث، بما يناسب المقام، بعض قضايا الحجاج اللغويّ في الخطاب النبويّ الشريف، وتلمُّس الجوانب الحجاجيَّة من قبيل الروابط الحجاجيَّة، والعوامل الحجاجيَّة، والسلالم الحجاجيَّة.

وكان بحثنا في الأحاديث النبويَّة التي روتها السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام؛ لأنَّها أقرب أهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله إليه، وهي أحبُّها إلى قلبه، وقال فيها الكثير من الأحاديث في فضلها

ومنزلتها، وقد روت الكثير من الأحاديث النبويَّة، فالنبيّ صلى الله عليه وآله كان إذا ذهب في بعض غزواته، آخر بيت لازمه هو بيت فاطمة، وأوَّل بيت يقدِم عليه بعد غزواته، هو بيت فاطمة.

المبحث الأوَّل

الروابط الحجاجيَّة

هي أدوات لغويَّة تربط بين قولَين أو حجَّتَين، وتسند لكلٍّ قول دورًا محدَّدًا داخل الإستراتيجيَّة الحجاجيَّة العامَّة، وتصنَّف هذه الروابط على النحو الآتي[1]:

١. روابط التعليل الحجاجيّ، نحو: (لأنَّ، لام التعليل، لام الجرِّ، كي، الوصل السببيّ، المفعول لأجله، الواو، الفاء، حتَّى، لعلَّ).
٢. روابط التعارض الحجاجيّ، نحو: (لكن، بل).
٣. روابط العطف الحجاجيّ، نحو: (الواو، الفاء، ثمَّ).

أوَّلًا: روابط التعليل الحجاجيّ

تعدُّ ألفاظ التعليل من الأدوات اللغويَّة التي يستعملها المرسل لتركيب خطابه الحجاجيّ، وبناء حججه فيه، ومنها: المفعول لأجله، كلمة السبب، لأنَّ، اللام الجارَّة، لام التعليل، كي، باء السببيَّة، فاء السببيَّة، الوصل السببيّ، ولا يستعمل المرسل أي من هذه الأدوات إلَّا تبريرًا أو تعليلًا لفعله بناءً على سؤالٍ ملفوظٍ أو مفترَض[2].

(١) ينظر: الحجاج في اللغة: ٦٥-٦٦، ورسائل الإمام عليّ عليه السلام في نهج البلاغة دراسة حجاجيَّة: ١٠٢.

(٢) ينظر: إستراتيجيَّات الخطاب: ٤٧٨، ورسائل الإمام عليّ عليه السلام في نهج البلاغة دراسة حجاجيَّة: ١٣٣، والروابط الحجاجيَّة في شعر أبي الطيِّب المتنبِّي مقاربة تداوليَّة: ١٢٧.

ومن الروابط الحجاجيَّة (الفاء) التي تأتي لمعانٍ متعدِّدة، ومن هذه المعاني السببيَّة، ويرى سيبويه أنَّها لا تأتي للتعليل إلَّا بعد (التمنِّي أو العرض أو النفي أو النهي أو الأمر أو الظنّ أو الشرط)[1].

وذكر المراديّ أنَّ الفاء لا تكون سببيَّة إلَّا إذا عطفت جملة أو صفة نحو قوله تعالى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [سورة القصص ١٥]، و﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٥٣ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ [سورة الواقعة ٥٢-٥٤][2].

وتأتي (الفاء) سببيَّة مع (إنْ) الشرطيَّة، وقد ذكر المراديّ «أنَّ الفاء تكون جوابًا لأمرَين: أحدهما الشرط بـ(إنْ) وأخواتها، والثاني ما فيه معنى الشرط نحو (أمَّا).

فأمَّا جواب الشرط بـ(إنْ) وأخواتها فأصله أن يكون فعلًا صالحًا شرطًا، فإذا لم جاء على الأصل لم يحتج إلى فاء، وذلك إذا كان ماضيًا متصرِّفًا عاريًا»[3].

الفاء التعليليَّة:

جاءت الفاء تعليليَّة مع الشرط في الأحاديث النبويَّة مدار البحث، فقد ورد «عن الإمام موسى بن جعفر عن أبيه عن جدِّهِ عن الحسين عن أمِّهِ فاطمة الزَّهراء عليها السلام، قالت: **قال أبي رسول الله صلى الله عليه وآله: إيَّاك والبخل؛ فإنَّه عاهة لا تكون في كريم، إيَّاك والبخل؛ فإنَّه شجرة أغصانها في الدنيا، فمن تعلَّق بغصنٍ من أغصانها أدخله النار، والسَّخاء شجرة في الجنَّة، وأغصانها في الدنيا، فمن تعلَّق بغصنٍ من أغصانها أدخله الجنَّة**»[4].

فالذي نلحظه أنَّ الفاء جاءت هنا رابطًا حجاجيًّا أفادت التعليل، أي بيان سبب نهي النبيّ صلى الله عليه وآله عن البخل، «**إيَّاك والبخل؛ فإنَّه عاهة**»، فالبخل عاهة مرضيَّة ليست من صفات الكريم، بل البخل قد يؤدِّي بالإنسان إلى دخوله إلى النار.

(١) ينظر: الكتاب: ٣/ ٣٣-٣٦.
(٢) ينظر: الجنى الداني: ٦٤-٦٥، ومغني اللبيب: ١/ ١٨٢.
(٣) الجنى الداني: ٦٧.
(٤) الزَّهراء روح في جسد: ٥٦.

وقد زاد في حجاجيَّة الفاء التعليليَّة اقترانها مع (إنَّ) التأكيديَّة؛ لما في استعمال (إنَّ) من رفع توهُّم الشكِّ وتوضيح المراد من النصِّ، من الحثِّ على الكرم، وعدم البخل.

ويمكن توضيح العلاقة بين أطراف القضية الحجاجيَّة:

- **النتيجة**: النهي عن البخل.
- **الرابط**: الفاء مع اقترانها بالشرط.
- **السبب أو الحجَّة**: البخل عاهة مرضيَّة لا تكون في كريم.

والذي نلحظه أنَّ النتيجة جاءت قبل أداة التعليل (الفاء)، والعلاقة الحجاجيَّة الثانية في هذا الحديث يمكن أن نوضِّحها على الشكل الآتي:

- **النتيجة**: النهي عن البخل.
- **الرابط**: الفاء مع اقترانها بالشرط.
- **السبب أو الحجَّة**: البخل شجرة بالدنيا من تعلَّق بها أدخلته النار.

ويقابل البخل السخاء، فالسخاء شجرة بالجنَّة من تعلَّق بغصن من أغصان هذه الشجرة أدخله الجنَّة.

وروى السيوطيّ عن السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، قالت: **مرَّ بي رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنا مضطجعة متصبِّحة، فحرَّكني برجله، وقال: يا بُنيَّة قومي فاشهدي رزق ربِّك، ولا تكوني من الغافلين؛ فإنَّ الله يقسِّم أرزاق الناس ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس**»[1].

فطلبُ الرزق يجب أن يسعى إليه الإنسان، سواء كان رزقًا ماديًّا أو معنويًّا، والرزاق هو الله، وقد أمرنا بالسعي إلى الرزق، قال تعالى: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ [سبأ: ٤]، فالرزق الإلهيّ هناك أسباب لنزوله، ومن أهم هذه الأسباب السعي له، والتوكُّل على الله، فالنتيجة أنَّ

(١) مسند فاطمة: ١١٢.

رزق الله متعلِّق بالسعي، وبالأخصِّ في ما بين طلوع الفجر، وطلوع الشمس، والسبب في السعي في هذا الوقت أنَّ رزق الله يكون ما بين الطلوعَين.

ويمكن أن نوضِّح هذه العلاقة بالمخطَّط الآتي:

- **فالنتيجة**: على الإنسان أنْ يسعى في طلب رزقه ما بين الطلوعَين.
- **الرابط**: الفاء.
- **السبب أو الحجَّة**: الرزق يُبسَط ما بين الطلوعَين.

على الإنسان أنْ يسعى في طلب رزقه ما بين الطلوعَين، الفاء، الرزق يُبسط ما بين الطلوعين.

نتيجة ⇐ الرابط ⇐ الحجَّة

اللام التعليليَّة:

من روابط التعليل الحجاجيَّة (لام التعليل)، يُعدُّ اللام من حروف المعاني التي تُستعمل في العربيَّة بكثرة، وقد أفرد بعض العلماء كتبًا خاصَّة باللام، وذكر المراديّ أنَّ للَّام أكثر من أربعين معنى، أمَّا فيما يخصُّ لام الجرِّ أو لام الإضافة، على تسمية الكوفيِّين، فقد ذكر أبو القاسم المراديّ أنَّ لها ثلاثين معنى، ومن هذه المعاني التعليل نحو: «زرتك لشرفك»[1]، وذكر ابن هشام (ت ٧٦١هـ) أنَّ للَّام الجارَّة اثنان وعشرون معنى، ومن هذه المعاني التعليل، ومثل لها بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨]، بمعنى أنَّه من أجل حبِّ المال لَبخيل[2]، وأرجع أبو القاسم المراديّ هذه المعاني إلى «الاختصاص، وهو معنى لا يفارقها، وقد يصحُّ به معانٍ أُخر، وإذا تؤمِّلت سائر المعاني المذكورة وُجِدَت راجعة إلى الاختصاص، وأنواع الاختصاص متعدِّدة، ألا ترى أنَّ من معانيها المشهورة التعليل، قال بعضهم: هو راجع إلى معنى الاختصاص؛ لأنَّك

(١) ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني: ٩٤-٩٧.

(٢) ينظر: مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب: ١/ ٢٢٨-٢٢٩.

إذا قلت: جئتك للإكرام، دلَّت اللام على أنَّ مجيئك مختصٌّ بالإكرام، إذ كان الإكرام سببه، دون غيره، فتأمَّل ذلك»[1].

وقد ورد في الحديث عن السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام، قالت لبعض النساء: «**أرضي أبوَي دينك محمَّدًا وعليًّا بسخط أبوَي نسبك، ولا ترضي أبوَي نسبك بسخط أبوَي دينك، فإنَّ أبوَي نسبك إنْ سخطا أرضاهما محمَّد وعليّ عليهما السلام بثواب جزء من ألف ألف جزء من ساعة طاعتهما، وإنَّ أبوَي دينك محمَّدًا وعليًّا إن سخطا لم يقدرا أبوا نسبك أنْ يرضياهما؛ لأنَّه ثواب طاعات أهل الدنيا كلّهم لا يفي بسخطهما**»[2].

ففي هذا الخطاب الفاطميّ، جاءت نصيحة ملزِمة للرجال والنساء، وإنْ كان الخطاب موجَّه إلى النساء؛ لأنَّ السيِّدة فاطمة عليها السلام حجَّة على النساء والرجال، وقد روى السيوطيّ في مسند فاطمة «عن حذيفة عن النبيّ عن فاطمة: **قال** صلى الله عليه وآله: **إنَّ هذا مَلك لم ينزل الأرض قطّ قبل هذه الليلة، استأذن ربِّي أنْ يسلِّم عليَّ ويبشِّرني أنَّ فاطمة سيِّدة نساء أهل الجنَّة، وأنَّ الحسن والحسين سيِّدا شباب أهل الجنَّة**»[3].

فالذي يُراد من المسلم أن يُرضي النبيّ صلى الله عليه وآله، ويُرضي عليًّا عليه السلام، فهما أبوا هذه الأمَّة، كما ورد في الحديث[4]، فالنتيجة أنْ يُرضي المسلمون محمَّدًا وعليًّا عليهما السلام، ولا يسخطاهما، والحجَّة على ذلك أنَّ النبي محمَّدًا وعليًّا عليهما السلام أبوا هذه الأمَّة، رضا النبيّ محمَّدًا وعليًّا

(١) الجنى الداني في حروف المعاني: ١٠٩.

(٢) بحار الأنوار: ٢٣/ ٢٦١، وينظر: الزَّهراء روح في جسد: ٦٤.

(٣) مسند فاطمة: ٤٤.

(٤) روى هذا الحديث الشيخ سليمان بن إبراهيم القندوزيّ الحنفيّ المتوفَّ سنة ١٢٩٤هـ في كتابه (ينابيع المودَّة لذوي القربى: ٤/ ٣٦٩-٣٧١، الباب ٤١، الرقم ٣، ٤، ٦). وورد هذا الحديث بعبارات أخرى، وهي: قول الرسول صلى الله عليه وآله: «**حقُّ عليّ على المسلمين حقُّ الوالد على ولده**». (المناقب للخوارزميّ: ٣١٠، الرقم ٣٠٦، فرائد السمطين: ١/ ٢٩٦، الرقم ٢٣٤). قول الرسول صلى الله عليه وآله: «**يا عليّ حقُّك على المسلمين كحقِّ الوالد على ولده**». (المناقب لابن المغازلي: ٤٧، الرقم ٧٠)، قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «**حقُّ عليّ على هذه الأمَّة كحقِّ الوالد على ولده**». (كنوز الحقائق للمناويّ: ٦٩، الفردوس للديلميّ: ٢/ ١٣٢، الرقم ٢٦٧٤، فرائد السمطين: ١/ ٢٩٧، الرقم ٢٣٥.

أقرب الطرق إلى الله، بل أقرب من طاعة الأبوَين النسبيَّين، ويمكن أن نوضِّح هذه العلاقة الحجاجيَّة بالمخطَّط الآتي:

- **النتيجة**: على المسلمين أن يرضوا النبيّ والإمام عليّ عليهما السلام.
- **الرابط الحجاجي**: (لأنَّ) اللام المقترنة مع أنَّ التأكيديَّة.
- **الحجَّة أو السبب**: أنَّ النبي والإمام أبوا هذه الأمَّة، ويجب طاعة الأب.

ثانيًا: روابط العطف الحجاجيَّة

تحصر المعاجم اللغوية معنى (العطف) بـ«الميل للشيء، والإشفاق، والتعلُّق، وما يقارب هذه المعاني»[1].

ولا يبتعد المعنى الاصطلاحيّ للعطف عن معناه اللغويّ كثيرًا، وللعطف مجموعة من الأدوات، وما يهمنا هنا، أدوات العطف التي لها بُعد حجاجيّ عن طريق الربط بين الحجج والنتائج والتنسيق، ومن هذه الأدوات (الـواو، والفاء)، فهي تقوم بـدور حجاجيّ، فضلًا عن قيامها بالربط بين (قضيَّتَين) حجاجيَّتَين لنتيجة واحدة، ووصفها سلَّمًا حجاجيًّا يُخضِع هذه الحجج إلى تراتبيَّة معيَّنة بحسب قوَّتها في دعم النتيجة النهائيَّة، فإنَّها تُسهم أيضًا في المعنى المقصود، ولاسيما إذا استُعمل كلُّ حرف واستُثمرت وظيفته في الموضع المناسب، وهذا يزيد من الإثبات على المعنى من جهة، ويُلقي على الخطاب نوعًا من التنظيم والانسجام من جهة أخرى[2].

ومن هذه الروابط الحجاجيَّة (الفاء العاطفة)، وذكرنا أنَّ الفاء تكون تعليليَّة، وهنا نتحدَّث عن الفاء العاطفة التعقيبيَّة، قال الرضيّ: «اعلم أنَّ الفاء تفيد الترتيب، سواء كانت حرف عطف أو لا، فإنْ عطفت مفردًا على مفرد ففائدتها: أنَّ ملابسة

(١) ينظر: القاموس المحيط: ٧٧٣.

(٢) بنظر: الحجاج في المثل السائر: ٩٣، ورسائل الإمام عليّ دراسة حجاجيَّة: ١٤٤.

المعطوف لمعنى الفعل المنسوب إليه وإلى المعطوف عليه بعد ملابسة المعطوف عليه بلا مهلة، فمعنى: قام زيد فعمرو، أي حصل قيام عمرو عقيب قيام زيد بلا فصل، ومعنى: ضربت زيدًا فعمرًا، أي: وقع الضرب على عمروٍ عقيب وقوعه على زيدٍ»[1].

وإذا عطفت الفاء جملة على جملة، أفادت أنَّ الجملة الثانية عقيب الجملة التي قبلها بلا فصل، وذكر الرضيّ أنَّ الفاء التي تعطف بين الجمل تفيد الترتيب مع التعقيب، وتأتي لعطف تفصيل المجمل، كقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ [سورة هود: ٤٥]، إذ جاء القول الأوَّل مجملًا، وهو (مناداة نبيِّ الله نوح عليه السلام ربَّه)، ثمَّ جاء تفصيل قوله بعد الفاء (إنَّ ابني من أهلي)، وكقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾ [سورة الأَعراف: ٤]، إذ جاء القول الأوَّل مجملًا، وهو (إهلاك القرى)، وجاء تفصيل هذا الإهلاك بعد الفاء[2].

وقد ورد عن السيِّدة فاطمة عليها السلام، قالت: «**أنسيتم قول رسول الله صلى الله عليه وآله يوم غدير خم: من كنت مولاه فعليٌّ مولاه، وقوله صلى الله عليه وآله: أنت منِّي بمنزلة هارون من موسى** عليه السلام»[3].

وجاء في الحديث مسندًا عن فاطمة بنت رسول الله، قالت: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: مَن كنتُ وليَّه، فعليٌّ وليُّه، ومَن كنت إمامه فعليٌّ إمامه**»[4].

ففي هذا الخطاب النبويّ بيان منزلة الإمام عليّ عليه السلام، ومكانته وقربه من رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنَّ مَن كان النبيَّ إمامه، فعليٌّ إمامه، ومَن كان مولاه النبيّ، فعليّ مولاه، وقد جاءت الفاء في هذا الخطاب للتعقيب، وبيان الحجَّة على المسلمين، فعليٌّ نَفْس

(١) شرح الرضيّ على الكافية: ٤/ ٣٨٤، وينظر: الجنى الداني: ٦١-٦٢.
(٢) ينظر: شرح الرضيّ على الكافية: ٤/ ٣٨٥.
(٣) مسند فاطمة للتويسركانيّ: ٢٩١-٢٩٢.
(٤) مسند فاطمة للتويسركانيّ: ٢٩١.

النبيّ صلى الله عليه وآله، كما جاء في آية المباهلة ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [ال عمران: ٦١]، فلم يُخرِج النبيّ صلى الله عليه وآله إلّا أهل بيته، وهم عليٌّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام[1].

(١) ينظر: تفسير القرطبيّ: ٤/ ١٠٤.

المبحث الثاني

العوامل الحجاجيَّة

العوامل الحجاجيَّة من المفاهيم الأساسيَّة التي أفرزها البحث الحجاجيّ، إذ تشكِّل (العوامل الحجاجيَّة) طاقة توجيهيَّة كامنة في اللغة، تعمل على تكثيف البُعد الحجاجيّ في اللغة، عن طريق تحديد الإمكانات الحجاجيَّة للخطاب في السياق الذي ترد فيه.

يرتبط مفهوم العامل الحجاجيّ بمفهوم الحجاج التقني القائم على مبدأ القول بالتوجيه؛ إذ يدخل على الملفوظ فيكسبه مظاهر حجاجيَّة ثلاثة، أو وظائف حجاجيَّة ثلاثة، هي:

أوَّلًا: القضاء على تعدُّد الاستلزامات والنتائج، وذلك بنقل المتقبّل من التعدُّد والغموض إلى وحدة النتيجة والمقصد من الملفوظ، فلا يضيع بين النتائج التي يؤدِّي إليها القول الحجَّة، فلا تتعدَّد تبعًا لتلك المسالك التأويليَّة، فيعمد العامل الحجاجيّ إلى حصرها، حتَّى تقود إلى نتيجة واحدة، هي الانتقال بالملفوظ من الإبلاغيَّة إلى الحجاجيَّة[1].

وثانيًا: قدح المواضع وتنشيطها، فالموضع يكون هو العمدة في ارتباط (ق١)، أي المعطى بالنتيجة، أي (ق٢)، فضلًا عن وظيفته التعاقديَّة هذه بين الحجَّة والنتيجة، فإنَّه يعدُّ ضامنًا من ضوامن تسلسل الخطاب، وعنصرًا من عناصر تناسق الخطاب[2].

(١) ينظر: العوامل الحجاجيَّة في اللغة العربيَّة: ٣٥، والعوامل الحجاجيَّة في آيات الأحكام: ١٢.
(٢) ينظر: العوامل الحجاجيَّة في اللغة العربيَّة: ٣٥.

وثالثًا: تقوية التوجيه نحو النتيجة (ن)، وذلك على صعيد ما يسمَّى بالمربَّعات الحجاجيَّة، والسلالم الحجاجيَّة التي يمكن عدُّها آليَّة من آليَّات البرهنة على مقولة التوجيه الحجاجيّ، وحجاجيَّة اللغة[1].

لذلك فالعامل الحجاجيّ يحصر الإمكانات الحجاجيَّة ويقيِّدها، وهذا التقييد يكون للقول الواحد داخل الخطاب، والعامل الحجاجيّ مورفيم، فإذا جرى تطبيقه في محتوى أو ملفوظ، فإنَّه يؤدِّي إلى تحويل الطاقة الحجاجيَّة لهذا الملفوظ، فالعامل الحجاجيّ إذا دخل في الخطاب أسهم في تقليص الإمكانات الحجاجيَّة للكلام، وزاد من طاقته الحجاجيَّة في التوجيه نحو نتيجة حجاجيَّة ما. والعوامل الحجاجيَّة عناصر لغويَّة (مورفيمات)، تنتظمها غاية واحدة، وهي تحقيق الإقناع في عملية التواصل.

ويمكن أنَّ نعرِّف العامل الحجاجيّ بأنَّه وحدة لغويَّة (مورفيم)، إذا تمَّ إعمالها في ملفوظ معيَّن، فإنَّ ذلك يؤدِّي إلى تحويل الطاقة الحجاجيَّة لهذا الملفوظ، والتحوُّل الذي يُحدثه العامل الحجاجيّ في المحتوى الدلاليّ للملفوظ الذي يرد فيه، لا يكون مستمدًّا من القيم الخبريَّة التي يضيفها هذا العامل، بل يكون مستمدًّا من وظيفته التحويليَّة الحجاجيَّة الخالصة، فهو لا يضيف مضمونًا خبريًّا جديدًا، وإنَّما غاية ما يُحدثه هو شحن المضمون الخبريّ القائم وتحويله؛ ليؤدِّي وظيفة تلائم الإستراتيجيَّة الحجاجيَّة للمتلفّظ، فالعامل الحجاجيّ يقوم بوظيفة شحن الكلام؛ ليؤدِّي وظيفة حجاجيَّة تلائم مع مقاصد المحاجج، فضلًا عن ذلك يؤدِّي إلى مساعدة المتلقِّي في تحديد دلالة المراد من الكلام[2].

ولتوضيح مفهوم العامل الحجاجيّ، نورد المثال الآتي:

(١) ينظر: العوامل الحجاجيَّة في اللغة العربيَّة: ٣٥.

(٢) ينظر: الحجاجيَّات اللسانيَّة عند أنسكومبر وديكرو: ٢٣٥، واللغة والحجاج: ٢٨، والخطاب الحجاجيّ في كتاب الإمامة والسياسة دراسة تداوليَّة: ١٦٠.

- الساعة تشير إلى الثامنة.
- لا تشير الساعة إلَّا إلى الثامنة.

عند إدخال العامل الحجاجيّ (لا – إلَّا) على المثال الأوَّل، لم ينتج عن ذلك أي اختلاف بين المثالَين من حيث القيمة الإخباريَّة أو المحتوى الإعلاميّ للجملتَين، المحتوى الإعلاميّ نفسه، وهو إعلام المتلقِّي مضمون الخبر، ولكن الذي تأثَّر بهذا التقييد هو القيمة الحجاجيَّة للقول، أي الإمكانات الحجاجيَّة التي يتيحها.

ويظهر ذلك جليًّا إذا أوردنا هذَين القولَين في نماذج من الأفعال الحجاجيَّة:

- الساعة تشير إلى الثامنة، اسرعْ.
- لا تشير الساعة إلَّا إلى الثامنة.

فسنلاحظ أنَّ القول الأوَّل سليم ومقبول تمامًا، أمَّا القول الثاني فيبدو غريبًا، لذلك يتطلَّب سياقًا أكثر تعقيدًا؛ لكي نستطيع تأويله، فهو يتطلَّب مسارًا تأويليًّا مختلفًا.

إنَّ المثال الأوَّل (الساعة تشير إلى الثامنة)، له إمكانات حجاجيَّة كثيرة، فقد يخدم نتائج من قبيل: الدعوة إلى الإسراع أو التأخُّر والاستبطاء، فهو يخدم النتيجة (أسرِع)، أو النتيجة المضادة لها (لا تُسرع).

أمَّا حين أدخلنا العامل الحجاجيّ (لا – إلَّا) فإنَّ إمكاناته الحجاجيَّة تقلَّصت، فأصبح الاستنتاج الاعتياديّ والممكن، هو (لا تشير الساعة إلَّا إلى الثامنة، لا داعي للإسراع)[1].

ومن العوامل الحجاجيَّة التي سنقف عليها، ووردت في الحديث النبويّ:

العوامل التأكيديَّة:

وهي العوامل التي تقوِّي مضمون الخبر، وتقيِّد من إمكانات الخطاب الحجاجيَّة،

(١) ينظر: الحجاج في اللغة: ٦٥، والخطاب الحجاجيّ في كتاب الإمامة والسياسة دراسة تداوليَّة: ١٦٠.

ويرى الدكتور عبد الله صولة أنَّ الموجِّهات اليقينيَّة تُعدُّ الضمان لحقيقة الكلام؛ ليكون هذا الكلام مقنعًا، على الرغم من اصطباغه بالذاتيَّة؛ لأنَّ الإقناع يحصل لدى المتلقِّي بمجرَّد أنَّ القضيَّة المعروضة عليه جاءت موجَّهة توجيه إثبات[1].

ويرى عبد الله صولة أنَّ معظم القضايا التي دخل عليها التوكيد في القرآن الكريم، كانت محلَّ نزاع بين خصمَين أو اتِّجاهين، ومن هذه القضايا البعث والحشر، والثواب والعقاب، والجنَّة والنار، ووحدانيَّة الله، وصدق نبوَّة الرسل[2]، على ذلك سندرس العوامل التأكيديَّة، وهي القسم، والقصر.

القسم:

جاء لفظ (القسم) في المعجم العربي في عدَّة دلالات، منها ما يدلُّ على تجزئة الشيء، وهو مصدر (قَسَمَ الشيء يَقسِمَهُ قَسْمًا فانقسم)، وقسَّمه: جزَّأه، وبالكسر (القِسم): النصيب والحظ، والقَسَام: الحسن والجمال، وفلان مقسَّم الوجه: أي ذو جمال، والقَسَم بالتحريك: اليمين، والجمع أقسام، وقد أقسم بالله واستقْسَمَه به وقاسَمَه: حلف له، وتقاسم القوم: تحالفوا، وأقسمتُ: حلفتُ[3].

يعدُّ القسم من أصناف الفعل الكلاميّ التي توجِّه القول توجيهًا قوليًّا إثباتيًّا، يلجأ إليه المتكلِّم لتوكيد كلامه؛ فهو إذ يثبت القضية ويوجبها، يقيم في الوقت نفسه الحجَّة على المخاطَب ويلزمه بها[4]، قال أبو القاسم القشيريّ: «إنَّ الله ذكر القَسم لكمال الحجَّة وتأكيدها، وذلك أنَّ الحكم يُفصَل باثنين: أمَّا الشهادة، وإمَّا بالقَسم، ذكر الله تعالى في كتابه النَّوعَين حتَّى لا تبقى لهم حجَّة»[5].

(١) ينظر: الحجاج في القرآن: ٣٢٠، ورسائل الإمام عليّ عليه السلام: ١٥٢.
(٢) ينظر: الحجاج في القرآن: ٣١٤.
(٣) ينظر: مقاييس اللغة: ٥/ ٨٦ (قسم)، ولسان العرب: ٥/ ٣٦٣ (قسم).
(٤) ينظر: رسائل الإمام عليّ عليه السلام في نهج البلاغة دراسة حجاجيَّة: ١٥٣.
(٥) الإتقان في علوم القرآن: ٢/ ١٣٣.

وممَّا ورد الحديث النبويّ الشريف «عن فاطمة عليها السلام أنَّها دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله، فقالت: **يَا رَسُولَ الله، هَذِهِ الْـمَلَائِكَةُ طَعَامُهَا التَّهْلِيلُ وَالتَّسْبِيحُ وَالْـحَمْدُ، فَمَا طَعَامُنَا؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله: «وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْـحَقِّ نَبِيًّا، مَا اقْتَبَسَ فِي آلِ مُحَمَّدٍ نَارٌ مُنْذُ ثَلَاثِينَ يَوْمًا، وَلَقَدْ أَتَيْنَا أَعْنُزًا فَإِنْ شِئْتِ أَمَرْنَا لَكِ بِخَمْسَةِ أَعْنُزٍ، وَإِنْ شِئْتِ عَلَّمْتُكِ كَلِمَاتٍ عَلَّمَنِيهِنَّ جِبْرِيلُ عليه السلام آنِفًا»، فَقَالَتْ: عَلِّمْنِي كَلِمَاتٍ عَلَّمَكَهُنَّ جِبْرِيلُ عليه السلام، قَالَ: «قُولِي: يَا أَوَّلَ الْأَوَّلِينَ، وَيَا آخِرَ الْآخِرِينَ، وَيَا ذَا الْقُوَّةِ الْـمَتِينَ، وَيَا رَاحِمَ الْـمَسَاكِينَ، وَيَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ»**[1].

والذي نلحظه أنَّ القَسم «والذي بعثني بالحقِّ نبيًّا» جاءت في سياق مثبت، وقد كسب القَسم طاقته الحجاجيَّة من عظمة المقسم به، وهو الله تبارك وتعالى، وكذلك يكسب القسم طاقته الحجاجيَّة من الذي يقسم، وهو النبيّ صلى الله عليه وآله؛ لما للنبيّ في نفوس المسلمين من منزلة عظيمة، فضلًا عن منزلته عند السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، وهو في هذا الحديث يكشف عن عظمة الزَّهراء وأهل بيته عليهم السلام، فقد فضَّلت الزَّهراء، رغم ما بها وبأهل بيتها من الجوع والفاقة، فضلت ما عند الله من الدعاء الذي جاء به جبرئيل للنبيّ صلى الله عليه وآله.

القصر:

من الوسائل اللغويَّة التي يلجأ إليها المتكلِّم لتوجيه خطابه توجيه إثباتٍ هو القصر، والقصر في المعجم بمعنى الحبس، ومنه قوله تعالى: ﴿**حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ**﴾ (سورة الرحمن: ٧٢)، وقوله جلَّ وعزَّ: ﴿**فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ**﴾ (سورة الرحمن: ٥٦)، بمعنى الحور المقصورات المخدَّرات اللاتي قصرن على أزواجهنَّ، وقاصرات الطرف، بمعنى قصرنَ نظرهنَّ على أزواجهنَّ، ولا ينظرنَ إلى غيرهم[2].

(١) ترتيب الأمالي الخميسيَّة للشجريّ: ١/ ٣٢٤، ومسند فاطمة للسيوطيّ: ٤.
(٢) ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ٥/ ٨١-٨٣.

والقصر في اصطلاح البلاغيِّين لا يخرج عن حدود اللغويِّين، وهو تخصيص أمرٍ بأمرٍ بأسلوبٍ معيَّن، أي حبسه عليه، وجعله ملازمًا له، وهو أداة توكيد وتخصيص، وكلَّما قويت الحاجة إليهما، كان القصر أبلغ(١).

وللقصر وسائل، منها: (إنَّما، النفي والاستثناء، ضمير الفصل، التقديم والتأخير، القصر بالحروف).

النفي والاستثناء:

يعدُّ النفي والاستثناء بـ(إلَّا) عاملًا حجاجيًّا مهمًّا، يقصر من شيء على شيء في الخطاب، حيث يوجِّه الباثُّ النصَّ نحو نتيجة معيَّنة، وتكون الفكرة المشتركة بين كلٍّ مِن الباثِّ والمستقبِل، هي المؤدِّي إلى نتيجة ما(٢)، وإنَّ تضافر حرفَي النفي والاستثناء في جملة واحدة، يُضفي على تلك الجملة جِرسًا موسيقيًّا، يذكر النفس ويطرب السمع، ويصوِّر المعنى بصورة مكثَّفة، ويطرحه مرَّتين في أقصر بناء للجملة، مرَّة بالإثبات، ومرَّة بالنفي(٣).

نلمح ذلك في قول الجرجانيّ في كلامه عن (ما جاءني إلَّا زيد): «أن تريد اختصاص (زيد) بالمجيء، وأن تنفيه عمَّن عداه، وأن يكون كلامًا تقوله، لا لأنَّ بالمخاطب حاجة إلى أن يعلم أنَّ (زيدًا) قد جاءك، ولكن لأنَّ به حاجة إلى أن يعلم أنَّه لم يجئ إليك غيره»(٤).

وممَّا جاء في الحديث النبويّ، عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، قالت: «لا يلومنَّ إلَّا نفسه مَن بات وفي يده غمر»(٥).

---

(١) ينظر: دلائل الإعجاز: ٣٢٨ وما بعدها، والإيضاح في علوم البلاغة: ٩٨ وما بعدها، وجواهر البلاغة: ١٨٦، والبلاغة العربيَّة: ١٦١، والبلاغة التطبيق: ١٦٩.

(٢) ينظر: أسلوبية الحجاج التداوليّ والبلاغيّ: ١٠٨.

(٣) ينظر: أساليب القصر في جزء عمَّ دراسة بلاغة تحليليَّة: ٢٩.

(٤) دلائل الإعجاز: ٣٣٧.

(٥) الزَّهراء نور في جسد: ٥٨، والغمر: ما بقيت رائحته في اليد من أكل الدَّسم خاصَّة. ينظر:=

فقد جاء استعمال النفي والاستثناء (العامل الحجاجيّ) لدفع توهُّم المتلقِّي في مضمون الخطاب، فالذي يبيت وفي يده أثر من الدسومة التي سبَّبها أكل اللحم مثلًا، قد تؤدِّي إلى إصابته بالأمراض، وهذا الحديث يعدُّ من الأحاديث النبويَّة الشريفة التي تُرشدنا إلى قاعدة صحيَّة، والأمر الآخر الإلزام الذي فيها مع استعمال القصر بالنفي والاستثناء.

وممَّا جاء في الحديث «أنَّ فاطمة عليها السلام سألت أباها عن قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ..﴾ [الأعراف: ٤٦]، قال: **هم الأئمَّة بعدي، عليٌّ وسِبطاي وتسعة من صُلب الحسين، فهم رجال الأعرف، لا يدخل الجنَّة إلَّا من يعرفهم ويعرفونه، ولا يدخل النار الَّا من أنكرهم وينكرونه، لا يعرف الله تعالى إلَّا على سبيل معرفتهم**»(١).

ففي هذا النصِّ المروي عن النبيّ محمَّد صلى الله عليه وآله مفتاحه السؤال، فقد سألت السيِّدة الزَّهراء أباها عن معنى آية كريمة، وهي قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ..﴾، وفيه أكثر مِن شاهد جاء استعمال عامل حجاجيّ، وهذا العامل اعتمد على النفي والاستثناء.

وقد ذكر الطبرسيّ وجوهًا عدَّة في أصحاب الأعراف، فمن هذه الوجوه «إنَّهم الملائكة في صورة الرجال، يعرفون أهل الجنَّة والنار جميعًا، أو يكونون حَفَظة الشاهدين بها في الآخرة.. وقيل إنَّهم فضلاء المؤمنين، عن الحسن ومجاهد، وقيل: إنَّهم الشهداء، وهو عدول الآخرة، عن الجبائيّ، وقال أبو جعفر الباقر عليه السلام: **هم آل محمَّد عليهم السلام، لا يدخل الجنَّة إلَّا مَن عرفهم وعرفوه، ولا يدخل النار إلَّا مَن أنكرهم وأنكروه**، وقال أبو عبد الله جعفر بن محمَّد عليه السلام: **الأعراف كثبان بين الجنَّة والنار، فيقف عليها كلُّ نبيٍّ، وكلُّ خليفة نبيٍّ مع المذنبين من أهل زمانه، كما يقف صاحب الجيش مع الضعفاء من جنده، وقد سيق المحسنون إلى الجنَّة، فيقول ذلك الخليفة للمذنبين الواقفين معه: انظروا إلى**

=جمهرة اللغة: ٢/ ٧٨١.

(١) الزَّهراء نور في جسد: ٦٣.

إخوانكم المحسنين، وقد سيقوا إلى الجنة، فيسلِّم المذنبون عليهم، وذلك قوله: ﴿وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾»[1].

فأصحاب الأعراف هم الخلَّص من المؤمنين، وهم الشهداء، وهم أهل البيت عليهم السلام، والعامل الحجاجيّ أفاد حصر الإمكانات في الخطاب، فدخول الجنَّة محصور بمعرفة آل محمَّد واتابعهم، ومن أنكرهم لا يدخل الجنَّة، بل دخول النار منحصر بمن أنكرهم ولم يؤدِّ حقَّهم، بل معرفة الله منحصرة بهم وبطريقتهم، وهذا القول تأكيد لمبدأ إسلاميّ راسخ، عن «الأصبغ بن نباتة قال: كنت جالسًا عند عليّ، فأتاه ابن الكوا، فسأله عن هذه الآية، فقال: **ويلك يا ابن الكوا، نحن نقف يوم القيامة بين الجنَّة والنار، فمن نصرنا عرفناه بسيماه فأدخلناه الجنَّة، ومن أبغضنا عرفناه بسيماه، فأدخلناه النار**»[2].

فالعامل الحجاجيّ (النفي والاستثناء) أسهم في تقليص الإمكانات الحجاجيَّة للكلام، وزاد من طاقته الحجاجيَّة في التوجيه نحو نتيجة حجاجيَّة من قبيل يجب اتِّباع آل محمَّد ومعرفتهم والسَّير في ركابهم وعدم إنكارهم.

(١) مجمع البيان في تفسير البيان: ٤/ ١٩٦.

(٢) مجمع البيان في تفسير البيان: ٤/ ١٩٦

المبحث الثالث

السلالم الحجاجيَّة

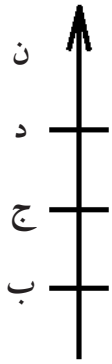
للسلالم الحجاجيَّة أهميَّة كبيرة، وتكمن هذه الأهميَّة «أساسًا في إخراج قيمة القول الحجاجيّ من حيِّز المحتوى الخبريّ للقول، وهذا يعني أنَّ القيمة الحجاجيَّة لا يمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب؛ لأنَّها لا تخضع لشروط الصدق المنطقيّ، فهي.. ليست قيمة مضافة إلى البنيَّة اللغويَّة، بل مسجلَّة فيها، يتكهن بها التنظيم الداخليّ للغة»(١).

قبل تعريف السُلَّم الحجاجيّ لا بدَّ من الوقوف على دلالة (سُلَّم) في الموروث العربيّ، فالجذر (س- ل- م) جاء في المعجم العربيّ بمعانٍ مختلفة، منها ما ذهب إليه الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ)، إذ يقول: «هي السُّلَّم، وهو السُّلَّم، أي السبب والمِرقاة، والجميع السلاليم»(٢).

وذكر الزَّجَّاج (ت ٣١١هـ) معنًى آخر، هو أنَّ: «السُّلَّم مشتقٌّ من السلامة، وهو الشيء الذي يُسلمُكَ إلى مَصْعدِك»(٣)، فالسُّلَّم هو ما يوصلك إلى مبتغاك وهدفك.

يعرِّف ديكرو السُّلَّم الحِجَاجيّ بقوله: «هو علاقة تراتبيَّة للحجج، يمكن أن نرمز لها كالتالي:

(١) نظرية الحجاج في اللغة ضمن كتاب أهم نظريَّات الحجاج من أرسطو إلى اليوم: ٣٧٠.
(٢) العين (سلم): ٧/ ٢٦٦.
(٣) معاني القرآن وإعرابه: ٢/ ١٩٦.



(ب، ج، د) حجج تخدم النتيجة (ن)»[1].

إنَّ وصف ديكرو علاقة الحجج بالنتيجة التراتبيَّة، بمعنى أنَّ (ج) أقوى حجاجيًّا في الوصول إلى النتيجة (ن)، وأكثر أقناعًا بها من القول (ب)، والقول (د) أقوى حجاجيًّا في الوصول إلى النتيجة (ن) من القولَين (ج، د).

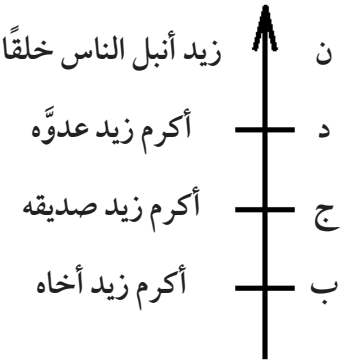
ويعرِّف د.طه عبد الرحمن السُّلَّم الحِجَاجيّ بقوله: «هو عبارة عن مجموعة غير فارغة من الأقوال مزوَّدة بعلاقة تراتبيَّة وموفية بالشَّرطَين التاليين:

كلُّ قول يقع في مرتبة ما من السلَّم يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى الأقوال التي دونه.

كلُّ قول كان في السلم دليلًا على مدلول معيَّن يكون ما يعلوه دليلًا أقوى عليه.

يتبيَّن ذلك في الرسم الآتي:

(١) الحجاج في اللغة: ٦٠.



إذ ترمز الأقوال (ب، ج، د) إلى الحجج، (ن) ترمز إلى النتيجة.

فالقول (د) يلزم عنه القول (ج) الذي يلزم عنه القول (ب)، كما أنَّ (د) أقوى إثباتًا لهذ المدلول من (ب)[1].

والذي نستنتجه من المخطَّط أنَّ الحجَّة كلَّما كانت أقرب إلى النتيجة، أي قمَّة السُّلَّم، تكون أنجع وأوقع في نفس المتلقِّي، والعكس صحيح، بمعنى كلَّما كانت الحجَّة أقرب إلى القاعدة وأبعد عن النتيجة، تكون أقلُّ حجاجيَّة وأقلُّ تأثيرًا في المتلقِّي.

وهذا يعني أنَّ السلَّم الحجاجيّ يرتبط بقوَّة الحجج وضعفها، فقرَّر ديكرو أنَّ هناك سمة أساسيَّة تميِّز الحجج عن الأدلَّة في الاستعمال، هي أنَّ هذه الحجج لا يُقطَع بها قطعًا نهائيًّا في إثبات النتيجة، كما هو الحال البرهان[2]، بل يمكن نقضها، وهذه أحد وجوه الاختلاف، أو الأمر الأساس في الاختلاف بين الحِجاج والبرهان.

فالحجج الثلاثة موصلة إلى النتيجة، لكن ليس بالطاقة الحجاجيَّة نفسها، فالتي أعلى السُّلَّم تكون أبلغ وأكثر طاقة حجاجيَّة مؤدِّية إلى النتيجة.

وممَّا جاء في الحديث «أنَّ فاطمة قالت لأبيها: **أخبرني يا أبتِ كيف يكون الناس يوم القيامة؟** قال: **يا فاطمة يُشغلون، فلا ينظر أحدٌ إلى أحدٍ، ولا والد إلى ولد، ولا ولد إلى**

(١) التكوثر العقليّ: ٢٧٧، وينظر: إستراتيجيَّات الخطاب مقاربة لغويَّة تداوليَّة: ٥٠١-٥٠٢.

(٢) ينظر: السلالم الحجاجيَّة في القصص القرآنيَّة: ١١٦.

أمِّهِ. قالت: **هل يكون عليهم أكفان إذا خرجوا من القبور؟**.

قال: **يا فاطمة تُبلى الأكفان وتبقى الأبـدان، تُستر عورة المؤمن، وتُبدى عورة الكافرين**، قالت: **يا أبتِ ما يستر عورة المؤمن؟** قال: **نور يتلألأ لا يبصرون أجسامهم من النور**. قالت: **يا أبتِ فأين ألقاك يوم القيامة؟**

قال: **انظري عند الميزان وأنا أنادي: ربِّ حاسب أمَّتي حسابًا يسيرًا، وانظري عند مقام شفاعتي على جسر جهنَّم، كلُّ انسان يشغل بنفسه، وأنا مشتغل بأمَّتي أنادي: ربِّ سلِّم أمَّتي، والنبيُّون حولي ينادون: ربِّي سلِّم أمَّة محمَّدٍ**»[1].

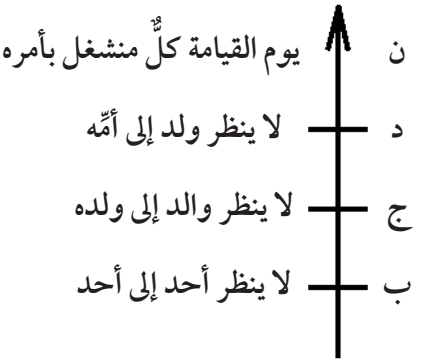
فالذي نلحظه أنَّ هذا الخطاب جاء في سياق إجابة النبيّ صلى الله عليه وآله عن سؤال السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، وقد جاء بتراتبيَّة سلَّميَّة حجاجيَّة من الأضعف حجَّة إلى الأعلى حجَّة، والنتيجة أنَّ يوم القيامة يوم صعب، وكلُّ إنسان منشغل بنفسه عمَّن سواه، والحجَّة الأولى على هذا القول (لا ينظر أحد إلى أحد)، وهي الأضعف في سلَّم الحِجاج؛ لانَّه قد لا تكون هناك علاقة بين هذين الشخصَين، وهم منشغلون كلٌّ بنفسه، ولا يعنيه من أمر غيره شيئًا، وذلك لهول يوم القيامة، أمَّا الحجَّة الثانية (لا ينظر والد إلى ولدهِ)، فقد جاءت أعلى حجَّة من الأولى التي قد لا تكون هناك رابط سبب أو نسب بين هذَين الشخصَين، لكن الحجَّة الثانية، هناك رابط دم بين الوالد والولد، رغم ذلك فهم منشغلون كلٌّ بنفسهِ، ولا يعنى الوالد بولده، رغم ما في العلاقة بين الوالد والأبن من القرب والرأفة.

أمَّا الحجَّة الثالثة، فقد جاءت في قمَّة السلَّم الحجاجيّ، فعلاقة الولد بأمِّه من أقوى العلاقات الإنسانيَّة في الحياة الدنيا، ورغم ذلك يذهل كلٌّ منهم عن الآخر، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢]، وجاء في

(١) الزَّهراء روح في جسد: ٦٥.

الكتاب الكريم: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

ويمكن أن نوضِّح هذه السلَّميَّة الحِجاجيَّة في الرسم الآتي:



إذ ترمز الأقوال (ب، ج، د) إلى الحجج، (ن) ترمز إلى النتيجة.

فالقول (د) يلزم عنه القول (ج) الذي يلزم عنه القول (ب)، كما أنَّ (د) أقوى إثباتًا لهذ المدلول من (ب)[1].

وقد تأتي الحجَّة الأعلى في بداية الخطاب ليكون من دونها من الحجج داخلًا ضمن الحجَّة الأعلى، ومن ذلك ما جاء في الكشكول، أحاديث منقولة من صحيح البخاريّ، باب مناقب فاطمة عليها السلام، حدَّثنا أبو الوليد حدَّثنا ابن عيينة، عن عمرو ابن دينار، عن أبي مليكة، عن المسوَّر بن مخرمة: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: «فاطمة بضعة منِّي، فمن أغضبها فقد أغضبني»[2].

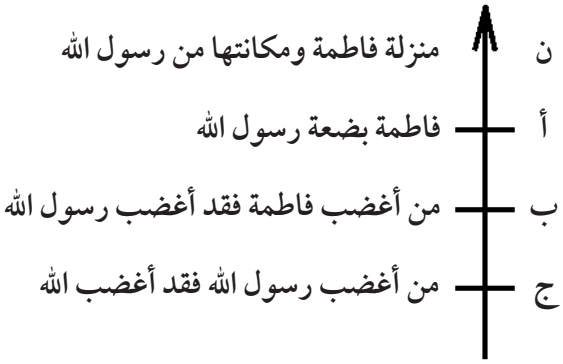
فجاء قول النبيّ صلى الله عليه وآله: «فاطمة بضعة منِّي» حجَّة على منزلة السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام، ومكانتها من رسول الله، فهي [بضعة[3]] منه، وهذه الحجَّة في قمَّة السلَّم،

(١) ينظر: التكوثر العقليّ: ٢٧٧، وإستراتيجيَّات الخطاب مقاربة لغويَّة تداوليَّة: ٥٠١-٥٠٢.

(٢) الكشكول: ١/ ٤٤١، وينظر الحديث في صحيح البخاريّ، باب مناقب قرابة رسول الله، رقم الحديث (٣٧١٤): ٦٠٥.

(٣) جاء في لسان العرب (بضع): ٨/ ١٢، «بضَّع اللحم يبعضه بضعًا.. قطعه، والبِضعة قطعة..=

وإذا كانت هذه منزلتها ومكانتها من رسول الله، فإنَّه يستتبع أنَّ كلَّ ما يقع عليها إنَّما يقع على رسول الله، فمن أغضبها فقد أغضب رسول الله، ومن أغضب رسول الله فقد أغضب الله، فالقول الأوَّل جاء في قمَّة السلَّم الحجاجيّ، ويمكن أنَّ نوضح هذه التراتبيَّة للحجج بالمخطَّط الآتي:



الخاتمة

بحمد الله وَمَنِّهِ وصلنا إلى خاتمة هذه السياحة في أحاديث النبيّ صلى الله عليه وآله التي روتها السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام، وتلمَّسنا عظمة هذه الأحاديث، وعظمة راوية هذه الأحاديث، وهي السيِّدة الزَّهراء عليها السلام، وقد وقِّفنا على أبرز السمات الحِجاجيَّة في هذه الأحاديث، وهي الروابط الحجاجيَّة، والعوامل الحجاجيَّة، والسلالم الحجاجيَّة:

أمَّا ما يخصُّ الروابط الحجاجيَّة، فقد ذكرنا بعض الروابط من قبيل روابط التعليل الحجاجيّ، وقد مثَّلنا لها نحو (لام التعليل، فاء التعليل)، وقد جاء الخطاب النبويّ

=وفلان بضعة من فلان يذهب به إلى الشبه، وفي الحديث (فاطمة بضعة منِّي) من ذلك، وقد تكسَّر، أي إنَّها جزء منِّي كما أنَّ القِطعة من اللحم، والجمع بضع.

مشتملًا على التعليل؛ لبيان سبب ما جاء بالحديث، وقد عضَّد من حجاجيَّة هذه الأحاديث اقترانها بـ(أنَّ) التأكيديَّة.

ووقفنا على روابط العطف الحجاجيّ، ومثَّلنا لها بـ(الفاء التعليلية)، وبيان مكانة أمير المؤمنين عليه السلام، وقُربه من النبيّ محمَّد صلى الله عليه وآله، فهو نفس النبيّ، ومَن كان النبيّ مولاه، فعليٌّ مولاه.

ووقفنا على بعض العوامل الحجاجيَّة، من قبيل العوامل التأكيديّة، كالقسم، والحصر، وقد شاعت العوامل الحجاجيَّة التأكيديَّة في الخطاب النبويّ الذي يبيِّن مكانة أهل البيت، وما خصَّهم الله به من الفضل والعلم والقرب الإلهي؛ لتكون أكثر حجاجًا، وأوضح بيانًا من النبيّ صلى الله عليه وآله على الأمَّة.

أمَّا السلالم الحجاجيَّة، فقد جاء الخطاب النبويّ في سلَّميَّة حجاجيَّة لبيان منزلة السيِّدة الزَّهراء وفضلها (فاطمة بضعة منِّي)، وقد جاءت الحجَّة الأعلى في بداية الخطاب، ليكون مَن دونه من الحجج داخلًا ضمن الحجَّة الأعلى.

مصادر البحث ومراجعه

١. الاتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطيّ (ت ٩١١هـ)، المحقِّق: مركز الدراسات القرآنيَّة، دار النشر: مجمع الملك فهد، السعوديَّة، الطبعة الأولى.
٢. أساليب القصر في جزء عمَّ دراسة بلاغة تحليليَّة، منيرة بنت فهد، الرياض، الطبعة الأولى، ٢٠١٥.
٣. إستراتيجيَّات الخطاب مقاربة لغويَّة تداوليَّة، عبد الهادي الشهريّ، دار الكتاب الجديد، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤.

٤. أسلوبيَّة الحجاج التداوليّ والبلاغيّ تنظير وتطبيق على السور المكيَّة، الدكتور مثنَّى كاظم صادق، منشورات ضفاف، الطبعة الأولى، ٢٠١٥.

٥. الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، للخطيب القزوينيّ (ت٧٣٩هـ)، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلميَّة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ٢٠١٠.

٦. البلاغة العربيَّة فنونها وأفنانها علم البيان والبديع، الدكتور فضل حسن عبَّاس، دار الفرقان، الطبعة العاشرة، ٢٠٠٥.

٧. البلاغة والتطبيق، د. أحمد مطلوب، ود. حسن البصير، وزارة التعليم العالي، الطبعة الثانية، ١٩٩٩.

٨. ترتيب الأمالي الخميسيَّة، للشجريّ.

٩. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله وسننه وأيَّامه (صحيح البخاريّ)، لمحمَّد بن إسماعيل البخاريّ (ت٢٥٦هـ)، ترقيم وترتيب محمَّد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، ٢٠١١.

١٠. الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق: فخر الدين قباوة ومحمَّد نديم فاضل، دار الكتب العلميَّة، ١٩٩٢.

١١. جواهر الألفاظ، لقدامة بن جعفر البغداديّ، تحقيق: محمَّد محي الدين عبد الحميد، د.ت.

١٢. الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهمِّ خصائصه الأسلوبيَّة، عبد الله صولة، دار الفارابيّ، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠١.

١٣. الحجاج في نصوص كتاب الكشكول للشيخ البهائيّ، أطروحة دكتوراه، ميثم صدَّام شاطي، الجامعة المستنصرية، كليَّة التربية، ٢٠١٩.

١٤. الحجاجيَّات اللسانيَّة عند انسكومبر وديكرو، رشيد الراضي، مجلَّة عالم الفكر، المجلّد ٣٤، ٢٠٠٥.

١٥. الخطاب الحجاجيّ في كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة دراسة تداوليَّة، إبتسام بن خراف، أطروحة دكتوراه، جامعة لخضر باتنة، قسم اللغة العربيَّة، السنة الجامعيَّة ٢٠٠٩-٢٠١٠.

١٦. دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجانيّ، قرأه وعلَّق عليه: محمود محمَّد شاكر، مطبعة المدنيّ، السعوديَّة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٢.

١٧. رسائل الإمام عليّ عليه السلام في نهج البلاغة دراسة حجاجيَّة، د. رائد مجيد جبَّار، كربلاء، العتبة الحسينيَّة المقدَّسة، الطبعة الأولى، ٢٠١٧.

١٨. الروابط الحجاجيَّة في شعر أبي الطيِّب المتنبِّي مقاربة تداوليَّة، خديجة بو خشرة، جامعة وهران، رسالة ماجستير، كليَّة الآدب واللغات والفنون، السنة الجامعيَّة ٢٠٠٩-٢٠١٠.

١٩. الزَّهراء نور في جسد، مهدي الشيخ صالح الأسديّ، دار بغداد للكتاب، الطبعة الأولى، ٢٠١٠.

٢٠. السلالم الحجاجيَّة في القصص القرآنيَّة مقاربة تداوليَّة، بوسلاح فايزة، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران، كليَّة الآداب والفنون، السنة الجامعية ٢٠١٤-٢٠١٥.

٢١. العوامل الحجاجيَّة في اللغة العربيَّة، د. عزّ الدين الناجح، مكتبة علاء الدين، صفاقس، تونس، الطبعة الأولى، ٢٠١١.

٢٢. العوامل الحجاجيَّة في آيات الأحكام، ثائر عمران شدهان، مجلَّة أوروك، العدد الرابع، ٢٠١٦.

٢٣. العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيديّ البصريّ (ت١٧٠هـ)،

تحقيق: د مهدي المخزوميّ، د. إبراهيم السامرَّائيّ، دار ومكتبة الهلال، د.ت.

٢٤. الكتاب، لسيبويه (ت ١٨٠هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٤.

٢٥. الكشكول للشيخ بهاء الدين محمَّد بن الحسن العامليّ البهائيّ (ت١٠٣٠هـ)، تحقيق: السيِّد محمَّد المعلِّم، المكتبة الحيدريَّة، قم المقدَّسة، الطبعة الأولى، ١٣٨٥.

٢٦. لسان العرب، محمَّد بن مكرم بن عليّ، ابن منظور الإفريقيّ (ت٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.

٢٧. اللسان والميزان أو التكوثر العقليّ، د. طه عبد الرحمن.

٢٨. اللغة والحجاج، د. أبو بكر العزَّاويّ، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦.

٢٩. مجمع البيان، لأبي عليّ الطبرسيّ (ت٥٤٨هـ)، الأميرة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩.

٣٠. مسند فاطمة، جلال الدين السيوطيّ، طبعة الهند، ١٩٨٦.

٣١. معاني القرآن وإعرابه، للزجَّاج (ت ٣١١هـ)، تحقيق: د. عبد الجليل عبده شلبي، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٥.

٣٢. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام الأنصاريّ، جمال الدين مازن المبارك، حمد عليّ حمد الله، ١٩٦٤.

٣٣. مقاييس اللغة، لأبي الحسن ابن فارس(ت٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمَّد هارون، مطبعة البابي الحلبيّ، مصر، الطبعة الثانية، ١٩٧٢.

٣٤. نظريَّة الحجاج في اللغة ضمن كتاب أهم نظريَّات الحجاج من أرسطو إلى اليوم.

المحتويات

- السيِّدة الزَّهراء عليها السلام القدوة الحسنة قراءة في الأساليب التربويَّة، التربية بالقدوة أنموذجًا ٥

  مؤمنة ياسين الزين/ أستاذة في جامعة بلاد الشام/ فرع السيِّدة رقيَّة عليها السلام
- الطفل الداخليّ بين التراكمات وإفراغ الكأس ٣٥

  الباحثة عهود العارضيّ
- التسامح والآخر في منهج السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام ٦٣

  أ.د. حمديَّة صالح دلِّي الجبوريّ/ جامعة القادسيَّة/ كليَّة التربية

  م.د. عبد الكريم جعفر الكشفيّ/ مدير عام تربية ديالى السابق
- نقش مديريتى حضرت زهرا سلام الله عليها در توانمندسازى فرهنكى اجتماعى بانوان مسلمان (با تاكيد بر خطبه فدكيه) ٨٥

  زهرا سليمانى/ دكتر زن تاريخ اسلام ومدرس گروه معارف دانشگاه علوم پزشكى/ أصفهان
- سيرة الزَّهراء عليها السلام ومكانتها قبل وفاة أبيها وبعد وفاة أبيها صلى الله عليه وآله ١١٧

  الباحثة سناء حسين عليّ عبَّاس
- الفكر التربويّ في سيرة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام ١٦٥

  الباحثة لقاء عبد الحكيم عبد الشهيد الأسديّ/ إحدى طالبات مدرسة بنت الرسول صلى الله عليه وآله

محور الدِّراسات القانونيَّة والسِّياسيَّة والإعلاميَّة ١٩٥

- فاطمة الزَّهراء عليها السلام والمشهد السياسيّ في فكر المستشرقين ١٩٧

د. كريم جهاد الحسَّانيّ/ جامعة بغداد/ كليَّة العلوم الإسلاميَّة

- الفَلسفةُ السِّياسيَّةُ لنِظَامِ الحُكمِ في الإِسْلاَمِ (دِرَاسةٌ تطبيَّقيةٌ للخُطْبَةِ الفَدَكيِّة) ٢٥٣

أ.م.د. أحمد حسن قاسم/ جَامِعَةُ ذِي قَار/ كليَّة التَّربيِّة للبنَّات ٢٥٣

- سماتُ الفكر السياسيّ عند السيِّدة الزَّهراء عليها السلام ٢٩٥

الباحثة أحلام كاظم جواد الهنداويّ/ طالبة في جامعة النجف الحوزويَّة النسويَّة الإلكترونيَّة

- الأبعاد القانونيَّة والنفسيَّة لقضيَّة فدك الزَّهراء عليها السلام ٣٣١

د. عامر عبادي العبادي/ استشاريّ نفسيّ

م.م. نضال إسماعيل الربيعيّ/ مستشار قانونيّ مساعد

- ملكيَّة فدك من المنظور القانونيّ والشرعيّ ٣٦٥

عذراء عبَّاس حسن المعمار/ مبلِّغة في مدرسة بنت الرسول صلى الله عليه وآله

محور دِّراسات اللغة العربيَّة وآدابها ٣٩٥

- الإمام عليّ عليه السلام في خطبتَي فاطمة الزَّهراء عليها السلام؛ قراءة تأويليَّة ٣٩٧

الأستاذ المتمرِّس الدكتور حاكم حبيب الكَريطي/ الجامعة الإسلاميَّة/ النجف الأشرف

- إستراتيجيَّات الإقناع الإعلاميّ وعلاقته بالخصائص الدِّيموغرافيَّة لدى المتلقِّي في فدكيَّة الزَّهراء عليها السلام ٤٣٣

أ.د. خليل خلف بشير/ جامعة البصرة

د. ستَّار جليل عجيل/ مديريَّة تربية ذي قار

- الـزَّهـراء حـضـورًا في الشعر الحِـلِّيّ.. دراسـة في طـرائـق التَّوظيف المعنويّ والتشكيل الفنِّيّ ٤٦٥

أ.د. وسام حسين جاسم العبيديّ/ كليَّة الإمام الكاظم عليه السلام/ أقسام بابل

- الأنساق المضمرة في خطاب السيِّدة الزَّهراء عليها السلام ٥٠٥

هند كامل خضيِّر/ ماجستير في اللغة العربيَّة/ الأدب (النقد الثَّقافيّ)

- صفات الزَّهراء في قصيدة (هِيَ الزَّهراء) للشاعر محمَّد الحرزيّ دراسة وصفيَّة وتأصيليَّة من الكتاب والسنَّة ٥٣١

م.د. صادق كاظم محمَّد عليّ الصفَّار

- حجاجية التناص القرآنيّ في الخطبة الفدكيَّة ٥٧٧

م.د. عليّ إسماعيل خليل/ مديريَّة تربية المثنَّى

- فاطمة الزَّهراء عليها السلام نسق مُتخيَّل أم واقع تاريخيّ (دراسة في فكر الآخر) ٦١١

أ.د. كاظم فاخر حاجم/ جامعة ذي قار/ كليَّة الآداب

م.م. محسن بدر مارد النيازي/ كليَّة الإمام الكاظم عليه السلام الجامعة/ أقسام ذي قار

- قـراءة نقديَّة لكتاب (جدل التاريخ المتخيَّل؛ سيرة فاطمة) للكاتب التونسيّ بسَّام الجمل ٦٤٥

الباحث نافع علوان صيوان الشَّاهين/ مديريَّة ماء ذي قار ٦٤٥

- بنية الحجاج في أحاديث النبيّ محمَّد صلى الله عليه وآله التي روتها السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام في ضوء لسانيَّات الخطاب ٦٧٣

م. د. ميثم صدَّام شاطي العطوانيّ/ مدرِّب معتمد/ وزارة النفط/ شركة توزيع المنتجات النفطيَّة

تَمَّ الجزءُ الرَّابعُ مِنَ الوَقائع

ويَليهِ الجزءُ الخامسُ (الأَخير)

إِنْ شَاءَ اللهُ